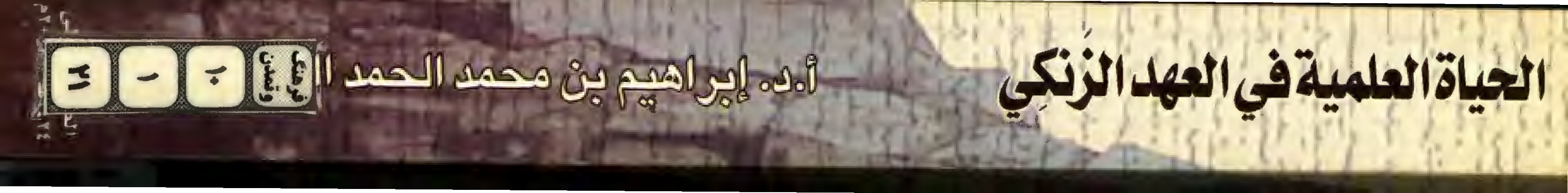


الحياة العلمية في العهد الزَنكِي

دراسة في الازدهار العلمي عند المسلمين

أ.د. إبراهيم بن محمد الحمد المزيني
أستاذ التاريخ والحضارة
جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

الطبعة الأولى
١٤٢٤هـ / ٢٠٠٣م


الحياة العلمية في العهد الزنكي
أ.د. إبراهيم بن محمد الحمد
فرهنك وتمدن
١٠
١
٢١


هـذا الكتاب
سُجّل للدولة الزنكية نهضة واسعة في مختلف المجالات الحضارية، وفي الميدان العلمي على وجه الخصوص.
وهو ما اتخذه الزنكيون منذ البداية مرتكزًا للإصلاح السياسي والإداري في دولتهم.
وقد رصدت الدراسة ماشهدته تلك الدولة من ازدهار علمي كبير نضجت فيه مختلف العلوم ونمت، وأصبحت المدن الزنكية مراكز علمية احتشد إليها جمعٌ كبير من العلماء وطلبة العلم من مختلف الأمصار الإسلامية وفي مختلف فروع المعرفة وميادينها. وكان لهؤلاء أثر بارزٌ في إثراء الحياة العلمية تعليمًا وتأليفًا في وقت شاركت فيه معظم هذه الشخصيات في كثير من مجالات الحياة العامّة للدولة.
وهي محاولة للوقوف على التطورات العلمية التي حدثت في ذلك العهد وانعكاساتها التربوية والعلمية بما يمكننا الإفادة منها في حياتنا المعاصرة.
والدراسة أيضًا محاولة لإبراز العلاقة بين حركة التعليم والعمل السياسي والعسكري حيث كانت دور التعليم آنذاك معاقل لإعداد جميع أفراد المجتمع إعدادًا يتوافق مع طموحات تلك الدولة ومخططاتها.
صورة الغلاف:
صوره حديثة من الخارج للمدرسة النورية الكبرى بدمشق، وتنسب إلى الملك العادل نور الدين محمود بن زنكي (٥٤١-٥٦٩هـ / ١١٤٦-١١٧٤م).
وكانت هذه المدرسة من أبرز المدارس ذات الأثر العلمي المشهود في ذلك العهد.
الحياة العلمية
في العهد الزنكي
ردمك:
AL-OBEIKAN

الحياة العلميّة
في العهد الزنكي

ح إبراهيم بن محمد الحمد المزيني، ١٤٢٤هـ.

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر .

المزيني، إبراهيم بن محمد الحمد.

الحياة العلمية في العهد الزَنْكِي. / إبراهيم بن محمد الحمد المزيني.- الرياض، ١٤٢٤هـ.

٥٣٥ ص ؛ ١٧×٢٤ سم

ردمك: ٤- ٧٢٦- ٤٣- ٩٩٦٠

١- الدولة الزنكية ٢ – الحضارة الإسلامية ٣- التربية الإسلامية - تاريخ أ. العنوان

ديوي: ٩٥٣,٠٧٣٩٢ ١٤٢٤/٣٢٢

رقم الإيداع: ١٤٢٤/٣٢٢

ردمك: ٤- ٧٢٦- ٤٣- ٩٩٦٠

الطبعة الأولى : ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م

ويسر المؤلف أن يتلقى أي ملحوظات أو استفسارات حول الكتاب على العنوان الآتي :

ص. ب١٠٠٤٣٨- الرياض ١١٦٣٥

E-mail : Mozaini 81@Hotmail.com

الحياة العلمية في العهد الزنكي

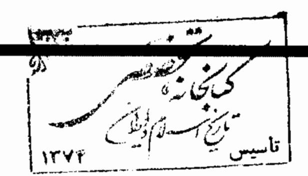
دراسة في الازدهار العلمي عند المسلمين

تأليف

أ.د. إبراهيم بن محمد الحمد المزيني
أستاذ التاريخ والحضارة
جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

الرياض

١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م





هذا الكتاب في الأصل رسالة علمية مقدمة إلى قسم التاريخ والحضارة بكلية العلوم الاجتماعية بجامعة الإمام محمّد بن سعود الإسلاميّة بالرياض لنيل درجة الدكتوراه في التاريخ والحضارة، وقد تمت مناقشتها بعون الله تعالى وتوفيقه مساء الثلاثاء ١٤١٠/٨/٢هـ الموافق ١٩٩٠/٢/٢٧م وحصل صاحبها - بتوفيق الله - على درجة الدكتوراه مع مرتبة الشرف الأولى.

وعند العزم على نشر الرسالة تمت مراجعتها وتنقيحها وفق ما جدّ من معلومات ومصادر، والله الموفق.

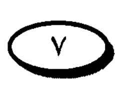
المقدمــة

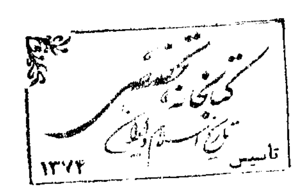
الحمد لله وحده والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين سيدنا محمّد وعلى آله وصحبه والتابعين ومن دعا بدعوته والتزم هديه، وسار على نهجه إلى يوم الدين ...

أما بعد:

فقد برزت في مطلع القرن السادس الهجري (الثاني عشر الميلادي) شخصية الأتابك عماد الدين زَنْكِي بن آقسنقر مؤسس الدولة الزَنكِيّة في المَوْصِل، وبلاد الجَزِيْرَة، والشّام، وقد سَجَل التاريخ بذلك مرحلة جديدة مهمة في تاريخ المنطقة حيث عزم زَنْكِي على رفع راية الجهاد ضد القوى الصليبية المحيطة بالمنطقة، ولكنه اصطدم بحالة من التفكك السياسي الذي كان يسود هذه المناطق في أواخر الدولة العباسية، فأدرك ضرورة توحيد القوى الإسلاميّة وحشد طاقاتها في كل من الموصل والجزيرة الفراتية والشام قبل القيام بأية خطوة عسكرية لمواجهة العدوان الصليبي، حتى لا يدع للأعداء الفرصة في الدخول من تلك الثغرة، وتنفيذ مخططاتهم ضد المسلمين.

وهنا يبرز الدور المهم الذي قامت به الدولة الزَنكِيّة في تلك المرحلة الحرجة من التاريخ الإسلامي باعتباره منطلقًا لإرساء دعائم الوحدة بين القوى الإسلاميّة، لتتضافر جميع الجهود لمناهضة القوى الصليبية في المنطقة، وقد تجلت تلك الوحدة في أسمى معانيها حينما شاركت عساكر الموصل والجزيرة الفراتية جنبًا إلى جنب مع عساكر الشام في عصر نور الدين محمود (٥٤١-٥٦٩هـ/١١٤٦-١١٧٤م) في الجهاد ضد الصليبيين، وبصورة أكبر حينما أنهى السلطان صلاح الدين الأيوبي الوجود الصليبي في مملكة بيت المقدس مستثمرًا تلك الوحدة ومستفيدًا من تلك الجهود التي قام بها الزَنكيُّون.





ومما لـه صلة بهذا البحث أنه لم يقتصر نشاط الدولة الزنكية على النواحي السياسية والعسكرية الجليلة التي قامت بها فحسب، بل سَجَل التاريخُ لهذه الدولة نهضة كبيرة مزدهرة في المجالات الحضارية كافة، وفي الميدان العلمي على وجه الخصوص، والذي اتخذه الزَنكيُّون - منذ البداية - مرتكزًا للإصلاح السياسي والإداري في دولتهم.

فقد شهدت الدولة الزنكية ازدهارًا علميًا كبيرًا نضجت فيه مختلف العلوم ونمت، وأصبحت المدن الزنكية - أمثال: المَوْصِل، وحَلَب، ودِمَشْق، وغيرها - مراكز علمية يفدُ إليها العلماء وطلاب العلم من مختلف المناطق الإسلاميّة، وكان للحكام الزنكيين أثر كبير في هذا الازدهار والتطور العلمي، حيث كان بلاطهم يضم نخبة كبيرة من أهل العلم والأدب وجمع من رجالات الفكر والثقافة وهذا يرجع في واقع الأمر إلى أن الكثير من الحكام الزنكيين كان على جانب كبير من الثقافة وحبّ العلوم، فحرصوا على تشجيعها ونشرها في بلادهم.

وقد تمثلت النهضة العلمية في الدولة الزنكية فيما أنشئ من دور للتعليم داخل المسَاجِد، وما استحدث من مدارس ودورٍ للحديث، وخوانق ورُبُط، إلى جانب البيمارستانات (المستشفيات) الكبيرة التي كانت بمثابة مدارس تخصصية لتدريس الطب، إلى غير ذلك من دور التعليم والمكتبات المنتشرة في المدن الزنكية. وكان إلى جوار هذه الدُوُر التعليمية كتاتيب تُعنى بتعليم النشء القراءة والكتابة، وطرفًا من القرآن الكريم، ومبادئ الدين الإسلامي الحنيف، إذ تُعد هذه الكتاتيب المدارس الممهدة للالتحاق بالمدارس العليا، هذا بالإضافة إلى تركيز الزنكيين على هذه الفئة من فئات التعليم باعتبارها اللبنة الأولى لبناء المجتمع، فلزم إعدادها إعدادًا إسلاميًا يتناسب مع ما تخطط له تلك الدولة، وما تتطلع إليه من طموح.

وكان من نتائج هذا التشجيع من قِبل الزنكيين أن بلغت الحياة العلمية في الدولة الزنكية ذروة النضج والازدهار، حيث احتشد لها جمع كبير من العلماء والكتَّاب في كل فنّ من فنون العلوم، وأصبحت المراكز العلمية فيها تغصُّ بأكابر العلماء الوافدين من المشرق والمغرب مقبلين إليها ينهلون من معين العلم والمعرفة، مستفيدين من التسهيلات المتاحة والفرص المطروحة.

ولكنه على الرغم من هذا الازدهار الذي شهدته الحياة العلمية إبان العهد الزنكي، والأثر الكبير الذي تركته هذه الدولة في مجال نشر العلوم وازدهارها في العهدين الأيوبي والمملوكي فيما بعد، فإنّ معظم المهتمين بدراسة التاريخ لم يركزوا على هذا الأثر وتلك الإسهامات، وانصرفوا عن البحث في ذلك إلى الاهتمام بدراسة تاريخ الدولة الزنكية، وآثارها السياسية والعسكرية، وما قامت به من جهود في مجال التصدي للوجود الصليبي في المنطقة. وقد زادت عناية المؤرخين في ذلك في وقتٍ لم تحظ فيه الحياة العلمية في تلك الدولة بدراسة وافية مستقلة رغم ما سُجل لها من تطور وازدهار، وربما يرجع السبب في ذلك إلى عدم عناية الكتَّاب المعاصرين بالتعرض لهذا المجال والاهتمام به نتيجة تركيزهم على ما كان يدور في تلك المدة من نزاعات وحروب استأثرت بجلّ اهتمامهم وتركيزهم.

ومما يذكر هنا أن هذا النوع من الدراسة يتطلب مادة غزيرة واسعة حيث إنّ مادته موزعة بين مختلف المصادر، وربما كانت مختبئة بين سطور مؤلفات المعاصرين، وهي بحاجة إلى مزيد من الإيضاح والاستقصاء حتى تكتمل جوانب الدراسة في التاريخ الإسلامي بشكل شامل لكافة نواحي الحياة.

لذا فإنه حريّ بالباحثين أن يخصّوا الدولة الزنكية بدراسة وافية تشخص معالم الحياة العلمية فيها، وتكشف حقيقة ذلك النشاط العلمي الذي اشتهرت به تلك الدولة.

وهكذا كان اختياري لهذا المجال من الدراسة لتكون موضوعًا أتقدم به للحصول على درجة الدكتوراه في التاريخ والحضارة الإسلاميّة تحت عنوان : "الحياة العلمية في العهد الزنكي" وأملي بالله كبير أن أكون قد وفقت فيما سعيت إليه لأضيف لبنة جديدة في بناء المكتبة الحضاريّة الإسلاميّة.

ولا أغفل وأنا بصدد دراسة أهمية هذا الموضوع دور الدراسات الحديثة التي غطت بعض جوانب هذه الدراسة، إلا أنها في واقع الأمر دراسات عامة وسريعة غير متقصية لأبعاد الموضوع استعنت بها، وأفدت منها في حدود حاجتي إليها.

وفي الحقيقة أن هذه الدراسة محاولة للإسهام في تقديم دراسة علمية موسعة ومتكاملة عن الحياة العلمية في دولة إسلاميّة أسهمت بأثر بارز في ازدهار حركة التعليم في وقت كانت فيه تلك الدولة تتحمل عبء الجهاد ضد العدوان الصليبي على المناطق الإسلاميّة. وهي أيضًا محاولة للوقوف على التطورات العلمية التي حدثت في هذا العهد وانعكاساتها التربوية والعلمية بما يمكننا الاستفادة منها في حياتنا المعاصرة، إضافة إلى الرغبة في تسليط الضوء على شخصيات علمية قامت بدور بارز في الاشتغال بالعلوم الإسلاميّة في مختلف ميادينها في محاولة لتجليتها للأجيال القادمة في وقت شاركت فيه معظم هذه الشخصيات في كثير من مجالات الحياة العامة للدولة، وبخاصة في ميدان الجهاد ضد الصليبيين، والمشاركة في كثير من المهام السياسية والإدارية المهمة. وهي أيضًا محاولة لإبراز العلاقات بين حركة التعليم والعمل السياسي والعسكري، حيث كانت دُوُر التعليم آنذاك معاقل لتعليم الجهاد وفضائله، ومراكز لإعداد جميع أفراد المجتمع إعدادًا إسلاميًا يتوافق مع طموح تلك الدولة ومخططاتها.

ولعله من خلال هذا الاستعراض السريع قد اكتسب الموضوع أهميته وضرورة إفراده بدراسة علمية مستقلة تقوم على استقراء المصادر التاريخية الأصلية المخطوط منها

والمطبوع بالإضافة إلى دراسة المراجع الحديثة ذات الصلة لإكمال ما أغفلته المصادر الأصلية أو ضاع منها، وبالتالي تحليلها وفق منهج موضوعي يخدم هذا البحث حتى نستطيع التوصل - ولو بصورة مقربة - إلى واقع الحياة العلمية في ذلك العهد.

ولا يخفى على باحث في التاريخ وخصوصًا في جوانبه الحضارية صعوبة طرق مثل هذا الموضوع، فقد لمست بنفسي ذلك منذ الشروع في وضع مخطط عام لموضوع الرسالة عند التسجيل، حيث واجهت صعوبة بالغة في تحديد أبعاده وإطاره العام، نظرًا لامتداد مدة البحث لمدة تزيد على قرن من الزمان، وتفرّق المناطق التي حكمها الزَنكيُّون على نطاق مكاني واسع، إضافة إلى ندرة المعلومات التي تشير إلى الحياة العلمية في المصادر المعاصرة لتلك المدّة، فكنت في بعض الأحيان أقرأ كتابًا بأكمله فلا أجد فيه شيئًا يتعلق ببحثي، وأحيانًا أخرى لا أجد إلا النزر اليسير مما جعلني اضطر في بعض المواضع إلى الاستعانة بمصادر متأخرة وخاصة فيما يتعلق ببعض النظم المتعلقة بفئات التدريس والطلاب، وطرق التعليم في المراحل المختلفة.

وكان من الصعوبات التي واجهتها صعوبة الموافقة بين أبعاد الموضوع والإطار العام نظرًا لارتباطه وتداخله في كثير من الجزئيات بالنظام التربوي من ناحية، وتداخل أجزائه فيما بينها من ناحية أخرى، ولذا احتاج مني ذلك الكثير من الجهد والوقت في توزيع فصول الرسالة وجزيئاتها مع مراعاة الالتزام بالإطار العام للدراسة.

ومن الصعوبات التي واجهتها أيضًا اتساع موضوع الدراسة وتشعب الجزئيات المتصلة بها، فالبحث هنا يمس كافة نواحي الحياة العلمية التي عاشتها الدولة الزنكية، وتحديد مسارها من حيث تأثرها وتأثيرها بالأوضاع العامة التي كانت تعيشها تلك الدولة، كما أنها ترتبط بكلّ ما أنشئ خلال تلك المرحلة من دُوُر التعليم ونشاطاتها، إضافة إلى تتبع الإنتاج العلمي في ميادين العلوم كافة، ولو عمدتُ إلى تتبع هذه

الموضوعات بجزئياتها، لتحوّل بحثي هذا إلى سفر ضخم جدًا من الأسماء، والتواريخ، والمصنفات، لذا رأيت أنه لزامًا عليّ أن أختصر ما أمكن، وأن اكتفي بالإشارة إلى الأهم، والأبرز مما تتحقق معه الفائدة، ويمكن أن يُعد كافيًا لإدراك الهدف من الدراسة.

أما المصادر والمراجع التي كوّنت مادة هذا البحث فقد تنوعت من كتب مخطوطة ومطبوعة، حيث شملت كتب التاريخ العام، والمحلي، وكتب التراجم والسير، وطبقات الرجال في مختلف مجالاتها، وكتب الأدب والرحلات، وكتب التربية والتعليم، وكان من الصعوبة تناولها جميعًا بالتفصيل في هذا المقام، ولكني حاولت الإشارة إلى أهمها مما يمكن أن يُعدُّ المعين الرئيسي الذي أفاد منه البحث في بناء الهيكل العلمي بدرجة كبيرة لاسيما تلك المصادر المعاصرة أو القريبة لزمن البحث، إضافة إلى أن بعض المصادر كانت أساسيّة لاغنى للبحث عنها، حيث إنها زودت البحث بمعلومات نادرة أفادت في جوانب معينة منه. ومما تجدر الإشارة إليه أن ترتيب المصادر واستعراضها في الصفحات الآتية لايعني أهميتها ومدى خدمتها للبحث، وإنما جاء ذلك وفق تسلسل سني الوفيات لمؤلفيها.

ففي مجال المصادر المخطوطة أمكن الحصول على بعض المصادر المهمة والإفادة منها في تغطية كثير من عناصر البحث ومتطلباته وبخاصة في التعريف ببعض العلماء وتقويم نشاطهم العلمي في ذلك العهد.

وكان من أبرز تلك المصادر كتاب "**تاريخ دمشق**" لمؤلفه الحافظ أبي القاسم علي ابن الحسن بن هبة الله بن عبدالله الشافعي المعروف بابن عَسَاكِر المتوفى سنة ٥٧١هـ (١١٧٦م) وهو أحد الحفَّاظ المحدثين، والمؤرخين المشهورين في ذلك العهد، وقد شمل كتابه هذا التاريخ العلمي والثقافي لمدينة دمشق، وما جاورها من مدن الشام، تَرْجَم فيه مؤلفه لكل من دخل دمشق من الأماثل والأفاضل، أو اجتاز بنواحيها من العلماء

والأكابر منذ العصر الجاهلي حتى عصره، ويُعدُّ هذا الكتاب واحدًا من أشهر كتب التراجم لرجال الحديث، ولمن اشتهر منهم بتخصص آخر إلى جانب علم الحديث، ولمن زار دمشق من العلماء وعُرف بالرواية عن علمائها ورواتها، وقد ضمَّن المؤلف كتابه هذا مُقدمة تُعدُّ أحسن ماقُدم من وصف طبوغرافي لدمشق، فضلاً عن المعلومات المهمة التي يذكرها المؤلف في ثنايا تراجمه عن جوانب متعددة من تاريخ المدينة مثل المساجد، والمدارس، ومنازل العلماء، والخوانق والرُبُط وغيرها مما قدم مادة مهمة في رسم هيكل البحث وتزويده بمعلومات غاية في الأهمية تخللت أغلب فصوله، كما أن هذا الكتاب قد أفاد البحث في تقديم معلومات قيمة عن أوضاع تعليم الإناث، وعن عددٍ كبير من عالمات وفقيهات دمشق في ذلك العهد.

ورغم اعتماد البحث على مصادر مخطوطة أخرى جرى حصرها في قائمة المصادر والمراجع في نهاية البحث، إلا أن جلَّ اعتماد البحث كان على المصادر المطبوعة وأغلبها في تراجم الرجال والطبقات، وكتب الوفيات، والتواريخ العامة، وكتب الأدب. باعتبار تغطيتها لأغلب عناصر البحث ومتطلباته، وكان من أبرزها مايأتي:

كتاب "**خريدة القَصْر وجَرِيْدَة العَصْر**" لرائد الكتّاب والمؤرخين ورجال الأدب في ذلك العهد وهو أبو عبدالله محمّد بن محمّد بن حامد بن أُلّه المشهور بعماد الدين الأصْفَهَانِي الكاتب المتوفى سنة ٥٩٧هـ (١٢٠١م) والعماد الأصفهاني من بيت فضل وسؤدد، ولد بأصْفَهَان، وانتقل إلى بَغْدَاد، ثم انتقل إلى المَوْصِل، ثم إلى الشّام في عصر الملك نور الدين محمود وحظي لديه بمكانة عالية، وتولى ديوان الإنشاء في دولته بالإضافة إلى قيامه بالتدريس في بعض المدارس، وكان هذا الكتاب من أشهر مصنفات العماد إذ يؤرخ فيه لطائفة من شعراء وأدباء القرنين الخامس والسادس في ديار الإسلامي الممتدة من أواسط بلاد المشرق إلى أقصى بلاد الأندلس، فلقد ألمَّ بتراجمهم

وأخبارهم، وعرض نماذج من أشعارهم. ولقد أفاد البحث من هذا الكتاب في كثير من مواضعه بما حفظ لنا مؤلفه من تراجم لأدباء وشعراء وعلماء هذا العهد مما ساعد في توضيح تطور حركة العلم إبان هذا العهد، وكتاب " **الخَرِيْدَة**" يُعدّ بحق دليلاً على ما وصلت إليه الحياة العلمية في العهد الزنكي من تطور وازدهار وخاصة في ميدان الدراسات اللّغوية والأدبيّة.

كما أفاد البحث كثيرًا من كتاب **الرحالة الأندلسي محمّد بن أحمد بن جُبَير الكِناني الأنْدَلُسي** المتوفى سنة ٦١٤هـ (١٢١٧م) الرحالة الأديب الذي زار المنطقة في هذا العهد، وضمن رحلته معلومات مفصلة مطولة عن ذلك وعليه فقد جاء كتابه الموسوم بـ "**تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار**" ليقدم معلومات قيّمة عن المدن الزنكية، معالمها وآثارها، ومبانيها، وأهم مظاهرها العلمية، حيث أعطى صورة مفصلة عن واقع الحياة الاجتماعية والثقافية، في كثيرٍ من المدن الزنكية التي زارها، وتكمن أهمية المعلومات التي أوردها ابن جبير في أنها جاءت من شاهد عيان وقف على أحوال هذه البلاد عند زيارته لها وشاهد الكثير من المساجد والمدارس ودور التعليم المختلفة، وأنشطة العلماء فيها، ومدى عناية الحكام وتشجيعهم لتلك الحركة مما خدم البحث في كثير من مواضعه، ومما تجدر الإشارة إليه أنه على الرغم من أن زيارة ابن جبير لبعض المدن الزنكية - وبخاصة مدن الشام - جاءت في زمن لاحق لانحسار النفوذ الزنكي عنها إلا أن مشاهداته تلك جاءت في مدة متصلة حضاريًا بالعهد الزنكي لم يقطعه عنها انقضاء عهد وقيام عهد آخر، وإنما كان يشير في كثير من الأحيان إلى ما كان باقيًا من آثار الزنكيين، واصفًا لكثيرٍ من نظمهم وآثارهم.

وقد استفاد البحث كثيرًا من كتاب معجم الأدباء الموسوم بـ " **إرْشَاد الأَريب إلى مَعْرِفَة الأدِيب** " ليَاقُوت بن عبدالله الرُومي الحَمَوي المتوفى سنة ٦٢٦هـ (١٢٢٩م)

المؤرخ الأديب وهو من أئمة الجغرافيين، وقد كان هذا الكتاب رائد مصنفاته، حيث ضمنه الكثير من أخبار العُلماء والنُحاة واللّغويين والقُرّاء، وعُلماء الأخَبار والأنْسَاب، فذكر أخبارهم وشيئًا من أشعارهم ومصنفاتهم، ويُعدّ هذا الكتاب بحكم معاصرة مؤلفه لزمن البحث من أهم مصادر البحث في دراسة تراجم العلماء والأدباء، وأعيان العصر، استفاد منه البحث في كثير من مواضعه، لاسيما فيما يتصل بميادين العلوم وتراجم أعلامها.

ومن أهم المصادر التي كانت عاملاً مشتركًا في كثير من جزئيات البحث، مؤلفات المؤرخ الموصلي عِزّ الدّين علي بن محمّد الشَيْبَانِي المعروف بابن الأثْير الجَزرِي المتوفى سنة ٦٣٠هـ (١٢٣٢م) الذي يُعدّ من كبار مؤرخي الإسلام، وكان من أهم مصنفاته كتاب " **الكامل في التاريخ** " والذي تكمن أهميته في معاصرة مؤلفه لزمن البحث كعالم من علماء العهد الزنكي، وقد انفرد ابن الأثير في هذا الكتاب بذكر معلومات قيمة عن تراجم علماء العهد في كافة الميادين، حيث كان يختم أحداث كل سنة بذكر حوادث موجزة ووفيات أعلام هذه السنة، مما جعل هذا الكتاب مصدرًا مهمًا لمعلومات تغطي كثيرًا من مواضع البحث.

ويأتي كتاب ابن الأثير الآخر: " **التاريخ البَاهِر في الدولة الأتابكيَّة بالموصل** " في مقدمة مصادر هذا البحث أهمية، وترجع أهميته إلى تخصيصه هذا الكتاب للحديث عن الزنكيين وآثارهم للصلات الوثيقة التي تربط أسرته بهذه الأسرة فقد قدَّم لنا في ثنايا هذا الكتاب معلومات قيمة عن الزنكيين أغفلها في كتابه الكامل وبخاصة فيما يتصل بالنظم الزنكية وجهود هذه الدولة في المجالات الحضارية بعامة والناحية العلمية بخاصة مما جعل لهذا الكتاب أهمية كبيرة للبحث باعتباره مصدرًا أوليًا مهمًا لمعلومات كثيرة وردت في ثنايا البحث.

ومن المصادر المهمة التي أفاد البحث منها مؤلفا الوزير جَمَال الدين أبي الحسن على القاضي الأشرف يوسف المشهور بالقِفْطِي المتوفى سنة ٦٤٦هـ (١٢٤٨م) وأولهما كتاب " **إنْبَاه الرُّواة على أنْباءِ النُحَاة** " والذي تضمن تراجم كثيرة لمشايخ علمي النحو واللغة، والقراء، والفقهاء، والمحدثين والكتَّاب ممن لهم اهتمام بالعلوم اللغوية والأدبية، إضافة إلى كثير من المعلومات التي وردت في هذا الكتاب مما شكلت مادة مهمة استفاد منها البحث في كثير من مواضعه.

أما الكتاب الآخر فهو كتاب " **أخبار العُلماء بأخبار الحُكماء** " وعلى الرغم من صغر حجم هذا الكتاب إلا أن فائدته كبيرة في هذا البحث حيث اشتمل على تراجم لمشاهير الأطباء المعروفين حتى عصره، فقد أورد معلومات قيمة جدًا عن حياتهم وإسهاماتهم العلمية، وما اشتهروا به إلى جانب الطب، وذكر مقتطفات وأخبار نادرة عنهم مما استفاد البحث منه كثيرًا.

ويعدّ كتاب " **مَرآة الزمان في تاريخ الأعيان**" من مصادر الدراسة المهمّة، وقد صنَّفه سبط ابن الجوزي يوسف بن قزاوغلي بن عبدالله أبو المظفر شمس الدين المتوفى سنة ٦٥٤هـ (١٢٥٦م) والجزء الذي أمكن الإفادة منه من كتابه هو الجزء الثامن بقسميه الأول والثاني، والذي سطّر فيه تاريخ وحوادث القرنين السادي والسابع الهجريين، حيث تتبع الأحداث على طريقة الحوليات مدعمًا دراسته التاريخية بوفيات كل سنة من العلماء والأعيان والكبراء وقد أفاد البحث من هذا الكتاب في ترجمة الكثير من علماء العهد الزنكي وأنشطتهم العلمية، وذكر أخبار الكثير من روّاد الحركة العلمية وإسهاماتهم في تشجيع التعليم في ذلك العهد، مما أفاد البحث في شتى فصوله.

كما اعتمد البحث بدرجة كبيرة على كتاب " **الرَوْضَتَين في أخبَار الدَولتَيْن النُورية والصلاحية** "، والذيل عليه، وهما من تأليف شهاب الدين عبدالرحمن بن إسماعيل

المقدسي المعروف بأبي شامة المتوفى سنة ٦٦٥هـ (١٢٦٦م)، وكتاب الروضتين يؤرخ فيه مؤلفه لأخبار كلّ من نور الدين محمود وصلاح الدين، وقد سار على المنهج الحولي، وهو يمدنا بمعلومات قيمة عن قيام الدولة الزنكية وأحداثها، ويقدم معلومات فريدة عن أمرائها ووزرائها ومن كان لهم أثر في تشجيع الحياة العلمية فيها، بالإضافة إلى هذا فقد أورد المؤلف تراجم مفصلة لعدد من علماء العهد الزنكي المبرزين في ميادين العلوم مما أسهم في بناء وتكامل معلومات هذا البحث ، أما كتاب " **ذيل الروضتين** " الموسوم بـ " **تراجم رجال القرنين السادس والسابع** " فقد شكّل مادة أساسية في تراجم كثير من العلماء الوارد ذكرهم في البحث وبخاصة ما يتصل بالفصل الرابع والذي خُصص لدراسة ميادين العلوم وأبرز أعلامها خلال العهد الزنكي.

كما اعتمد البحث بدرجة كبيرة في ميادين دراسة الرياضيات والفلك، والطب والصيدلة، وتراجم وأخبار الحكماء والمهندسين والأطباء والفلكيين، ومعرفة إنتاجهم ونشاطهم العلمي على كتاب: " **عُيونُ الأنْبَاء في طبقَات الأطبَّاء** " لابن أبي أُصيبِعَة مُوفق الدين أبي العباس أحمد بن القاسم الخَزْرجي المتوفى سنة ٦٦٨هـ (١٢٦٩م).

ولعل من أهم مصادر البحث تلك الكتب التي ترجمت لعامة العلماء والملوك والأمراء، وذكرت أخبارهم، ونشاطاتهم العلمية، وهي كتب الوفيات، ويأتي في مقدمتها جميعًا كتاب: " **وَفيَاتُ الأعْيَانِ وأنْبَاءُ أبْنَاء الزّمَانِ** " لأبي العباس شمسُ الدّين أحمد بن محمّد بن أبي بكر بن خَلّكَان المتوفى سنة ٦٨١هـ (١٢٨٢م)، وقد قدّم ابن خلكان في هذا الكتاب معلومات دقيقة وقيمة عن نشاطات الحكام الزنكيين والعلماء المعاصرين وإنتاجهم، مما جعله يُشكل مادة أساسية في كثيرٍ من جزئيات البحث.

ومما أفاد البحث كثيرًا في مجال دراسة مراكز التعليم وبخاصة في بلاد الشام كتاب: "**الأعْلاَق الخَطِيْرَة في ذِكْرِ أُمَرَاء الشَّام والجزِيرة**" لابن شَدَّاد عزُّ الدين أبي عبدالله محمّد ابن علي بن إبراهيم المتوفى سنة ٦٨٤هـ (١٢٨٥م) وقد لازم كتاب الأعلاق الخطيرة بأقسامه البحث كثيرًا فيما يختص بدراسة دور التعليم مواقعها، ونشأتها، وشيوخها إلى غير ذلك من المعلومات المتعلقة بها وبخاصة في كل من حلب، ودمشق، وكان المصدر الأول فيما يختص بهذه الموضوعات.

ومن كتب التراجم العامة التي أفاد البحث منها في ميدان دراسة نشاط العلماء في هذا العهد كتاب: "**تَلْخِيص مجمع الآداب في مُعجم الألقَاب**" لكمال الدين أبي الفضل عبدالرزاق بن أحمد المعروف بابن الفُوطي الشَيْبَاني الحنَبلي المتوفى سنة ٧٢٣هـ (١٣٢٣م) وقد أفاد البحث من هذا الكتاب فيما يتعلق بأخبار كثيرة من علماء الموصل ونشاطاتهم وإنتاجهم مما سقط عند غيره من المصادر.

أما أهم الكتب التربوية التي أفاد البحث منها فكان كتاب: "**تذكرة السامع والمتكلم في أدب العالِم والمتعَلم**" للقاضي بدر الدين بن جماعة المتوفى سنة ٧٣٣هـ (١٣٣٢م) وقد قدَّم هذا الكتاب معلومات قيمة وفريدة فيما يختص بنظام التعليم في الإسلام وعلاقات كل من الأستاذ بالطالب والعكس، والآداب المتعلقة في كل منهما، وسكنى المدارس، وغيرها من النظم والآداب التي قصرت عنها المصادر المعاصرة لزمن البحث فاحتجت إلى الاستعانة بهذا الكتاب في توثيقها لاتصال عصر ابن جماعة زمنيًا بمدة البحث، ولكونه أقرب المصادر التي تُشير إلى هذه المعلومات.

وبالإضافة إلى ماذُكر من المصادر فقد اعتمد البحث كثيرًا على كتب طبقات الفقهاء وكان من أبرزها "**طَبقَات الشافعية الكبرى**" لتاج الدين أبي نصر عبدالوهاب بن علي بن عبدالكافي السبكي المتوفى سنة ٧٧١هـ (١٣٦٩م) وكتاب: "**الذيل على**

طبقات الحنابلة " لزين الدين أبي الفرج عبدالرحمن بن أحمد البغدادي المعروف بابن رَجَب المتوفى سنة ٧٩٥هـ (١٣٩٢م) إلى غير ذلك من كتب الطبقات والتراجم التي تكررت الاستفادة منها.

كما استفاد البحث كثيرًا فيما يختص بمدارس دمشق وخَوَانِقُها ورُبُطها من كتاب: " **الدّارس في تاريخ المَدَارِس** " لعبد القادر بن محمّد النُّعَيمِي الدّمشقي المتوفى سنة ٩٢٧هـ (١٥٢١م) فالكتاب يُظهر صورة واضحة جلية للحياة العلمية المزدهرة التي عاشتها دمشق في ذلك العهد كما أنه يترجم لكثير من العلماء في مختلف العلوم مما جمعه من كثير من المصادر المفقودة.

وبجانب هذه المصادر اعتمد البحث أيضًا على عددٍ من المصادر والمراجع الأساسية والثانوية التي أسهمت مجتمعة في بناء هذا البحث بهذا الشكل، وجميع هذه المصادر جرى حصرها في الملحق الخاص بالمصادر والمراجع في نهاية الكتاب.

ومما أعده مكملاً لمادة هذا البحث الزيارة التي قمت بها إلى عدد من مدن الشام شاهدت خلالها العديد من المدارس الزنكية ودور التعليم الأخرى والتي لا تزال آثارها باقية. هذا إلى جانب الاتصالات الشخصية مع عدد من المتخصصين والمهتمين في هذا المجال.

لقد اقتضت طبيعة هذا البحث ودراسته بما توفر لديّ من مادة علمية أن يُقسم إلى خمسة فصول سبقها تمهيد عن الإطار الزماني والمكاني للدولة الزنكيّة، كما ختمت الدراسة بخاتمة تضمنت أبرز النتائج التي ظهرت لي من خلال اشتغالي بهذا البحث وتمّ تذييل الدراسة بملاحق عديدة رأيت مناسبة إلحاقها لتوضيح بعض جوانب الدراسة.

وقد جاء **الفصل الأول** تحت عنوان: "**عوامل نشاط الحياة العِلْميّة في العهد الزَنكِي**" حيث تمّ الحديث فيه عن أبرز العوامل التي ساعدت على نشاط الحياة العلمية في ذلك العهد.

وهي عوامل كثيرة تمّ التركيز على أربعة منها وهي: تشجيع الزنكيين للعلم والعلماء، والحرص على نشر المذهب السني، واستقرار الدولة وانتشار الأمن، وكذلك الوجود الصليبي في المنطقة.

أما **الفصل الثاني** فقد جاء بعنوان: "**دُوُر التعليم ووظائفها في العهد الزنكي**" وقد عالج البحث في هذا الفصل أماكن التعليم سواء منها ما قُصد بإنشائه غرض التعليم، أو تلك التي كانت قائمة لوظائف أخرى، ولكنها قامت بالإضافة إلى وظيفتها الأساسية بمهمة نشر التعليم، كما هي الحال في دور الصوفية (الخَوَانِق والرُّبُط) والبِيْمَارِسْتَانَات، كما تحدثت في هذا الفصل عن أبرز النظم المتعلقة بتلك المراكـز.

وجاء **الفصل الثالث** تحت عنوان: "**المُدرِّسُون والطُلاب، ونظم التعليم ووسائل تحصيله في العهد الزنكي**" حيث تركز هذا الفصل حول دراسة أوضاع المدرسين وفئاتهم والطلاب وفئاتهم، ومايتعلق بمشاركة العلماء بالحياة العامة للدولة، إضافة إلى دراسة أهم النظم والآداب المتعلقة بكل من الطالب وأستاذه، وما يختص بوسائل التحصيل، والرحلات العلمية، كما تطرق هذا المبحث للحديث عن الإجازات والألقاب العلمية باعتبارهما أسلوبين من أساليب التقويم في هذا العهد.

أما **الفصل الرابع** فقد جاء تحت عنوان: "**ميادين العلوم وأبرز أعلامها في العهد الزنكي**" حيث تضمَّن دراسة شاملة لكافة ميادين العلوم السائدة في ذلك العهد من

علوم شرعية ولغوية وأدبية، وعلوم تاريخية وجغرافية، ورياضية وفلكية، وعلوم الطب والصيدلة، كما تعرف هذا الفصل على أبرز إسهامات علماء العهد الزنكي المبرزين في هذه العلوم ودورهم في تطويرها وما تركوه فيها من آثار حتى نصل إلى حقيقة الازدهار العلمي في مجال التصنيف والإبداع في ذلك العهد.

وجاء **الفصل الخامس** والأخير تحت عنوان "**أهم المراكز العلمية في العهد الزنكي**" حيث كانت كل من: المَوْصل، وحلَب، ودِمَشق أهم المراكز المهتمة بالنشاط العلمي في ذلك العهد، إذ تَلمَّس هذا الفصل ماكان قائمًا في تلك المراكز من دُوُرٍ للتعليم باختلاف تخصصاتها، هذا بالإضافة إلى وجود مراكز علمية أخرى في كل من حَمَاة ومَنْبِج، وحِمْص، وبَعْلَبَك، وحَرَّان، وغيرها ولكنها مراكز تقلُ بكثير عن سابقتها إذ لم يكن التركيز عليها واضحًا من قِبَل الزَنْكيين، وقد اقتصرت الدراسة في هذا الفصل على الدُوُر العلمية ذات الأثر البارز في نشاط التعليم في هذا العهد تجنبًا للإطالة، ولصعوبة حصر دُوُر التعليم في العهد الزنكي على ذلك النطاق الزّمَاني والمَكَاني المُتسع. ومما يجدر توضيحه هنا أن دراسة تلك الدُوُر تُعنى بتتبع الآثار العلمية لها، ولم تعنَ بتتبع مراحل عمارتها، فمجال ذلك رحب لدى الباحثين في علم العمارة والآثار.

وقد تمَّ ترتيب هذه المراكز ترتيبًا تاريخيًا حسب أقدمية الحكم الزَنْكي لها، كما تمّ الحديث عن دُوُر التعليم داخل هذه المراكز، وفق ترتيب تاريخي أيضًا حسب سني إنشائها، وقد حرص الباحث على الوقوف على مواقع هذه الدُوُر قدر الإمكان، وذلك مما بقي لها أثر في الوقت الحاضر.

أما **الخاتمة** فقد تمّ فيها استعراض أبرز النتائج التي توصل إليها الباحث خلال دراسته لهذا الموضوع، كما ذُيل البحث **ببعض الملاحق والخرائط والصور** وهي ملاحق لها أهمية في توضيح بعض معالم الدراسة منها: ملحق خاص بأسماء الحكام الزنكيين في كل من الموصل، وبلاد الشام، والجزيرة، وآخر يوضح أبرز دُوُر التعليم الوارد ذكرها في البحث، إضافة إلى أربع خرائط توضيحية، مع بعض الصور الفُوتُوغرَافِيّة الملتقطة لبعض دُوُر التعليم الباقية حتى الآن.

لقد بذلت في دراسة هذا الموضوع ما استطعت بذله من خلال ما توفَّر لي من مصادر وإمكانات، ولم أدّخر وسعًا في البحث والتدقيق، وإنني لا أدعي الكمال، فالكمال لله وحده القائل: ﴿ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴾ [يوسف، من آية٧٦]. ولكني أسأله تعالى أن يكون هذا البحث قد قدَّم صورة مقبولة لإبراز ميدان مهم من ميادين الحضارة الإسلاميّة كما أسأله تعالى أن يعينني على مواصل البحث في هذا المجال لأصل إلى ماهو أوضح وأجلى إنه نعم المولى ونعم النصير.

وأخيرًا يطيب لي أن أتوجه بالشكر الجزيل - بعد شكر الله تعالى - إلى كلٍّ من ساعدني في إنجاز هذا البحث، وفي مقدمتهم أستاذي المشرف الأستاذ الدكتور محمّد سالم بن شديد العَوفي، والذي كان لمتابعته المستمرة، وملحوظاته وآرائه العلمية والمنهجية السديدة أكبر الأثر في إنجاز هذا العمل بهذه الصورة، حيث كان متابعًا لي في كل فقرة من فقرات البحث حتى وصل إلى هذا الشكل، فتعلمت منه الصبر، وحبّ البحث، والحرص على الدقة والموضوعية في الكتابة، كما كان له الفضل الكبير - بعد فضل الله تعالى - في تذليل كافة الصعوبات التي واجهتني خلال إعدادي هذا البحث، والتي طالما أوصلتني إلى طريق أظنها أنا مسدودة، فأجد صدره لها رحبًا، ورأيه حيالها حلاً، وجلاءً لمشكلها. فجزاه الله عني خير الجزاء، وأمدَّ في عمره، وأدام عليه لباس الصحة ونفع به وبعلمه.

كما لايفوتني أن أتوجه بالشكر والعرفان للمشرف السابق أستاذي الأستاذ الدكتور: حامد غُنَيم أبو سعيد الذي تعهدني منذ دراستي للسنة التمهيدية للماجستير، وأثناء إشرافه عليّ في مرحلة الماجستير، وكان لتوجيهاته الأثر الكبير في مواصلة الدكتوراه حيث كان موجهًا لي طيلة فترة التسجيل والتي تمت تحت إشرافه، وطيلة المرحلة الأولى لجمع المادة العلمية، كما كان حاثًا لي ومشجعًا طيلة مدة إعداد هذه الرسالة بسؤاله عني، ومتابعته لمراحل اشتغالي بها فجزاه الله عني خير مايجزى متعهد العلم وناشره.

كما لايفوتني أيضًا أن أُقدم شكري إلى كلٍّ من أسدى إليَّ مساعدة أو معونة خلال اشتغالي بهذه الرسالة، وهم كثير يطول ذكرهم هنا، وإلى كافة أساتذتي، وزملائي في الكلية الذين لم يدّخروا وسعًا في إمدادي بكل ما احتجته منهم من مساعدة يسّرت لي كتابة هذا البحث، كما يُسعدني أن أتقدم بالشكر والتقدير للجنة المناقشة على تفضلهم بقبول دراسة هذه الرسالة وتقويمها ومناقشتي فيها، وقد أفدتُ من آرائهم وتوجيهاتهم الشيء الكثير.

والله ولي التوفيق ومنه نستمد العون والقوة، ونسأله تعالى أن يجعل عملنا خالصًا لوجهه الكريم، وأن يلهمنا طريق الرشد والسداد، إنه على كل شيء قدير وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

إبراهيم بن محمد الحمد المزيني

أستاذ التاريخ والحضارة

بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

تمهيـــد

الإطار الزّمَاني والمكّاني للدولة الزَّنكِيّـة

١ـ أصل الزَّنكِيين وقيام دولتهم.

٢ـ انقسام الدولة الزَّنكِية بعد مقتل زَنكِي.

٣ـ ضعف الدولة الزَّنكِية وسُقوطها.

١ ـ أصل الزَّنكيين وقيام دولتهم:

كان من مظاهر الحكم السَلجُوقي في العالم الإسلامي ظهور نظام (الأتَابِكيّات)[1] الذي يعدُّ نتيجة للسياسة التي اتبعها السلاجقة في النظام الإقطاعي وطبقوها في معظم مناطق نفوذهم، فانتشرت الأتابكيات في معظم الأقاليم السَلجُوقِيّة.[2] وكان من أشهر هذه الأتابكيات: " أتابِكيّة المَوْصل " التي كانت نواةً للدولة الزنكية، وكان مؤسسها الأتابك عماد الدين زَنْكِي سنة ٥٢١هـ (١١٢٧م)، والذي يُنسب إليه الأتابكة الزَنكيُّون، وكان أبوه قَسِيْم الدَولة آقسنقر بن عبدالله تُركيًّا من أخصّ أصحاب السلطان السلجُوقي مَلْكشَاه بن ألب أرْسَلان (٤٦٥ ـ ٤٨٥هـ/١٠٧٢ ـ ١٠٩٢م)[3] تربى معه في صغره، وظلّ مصاحبًا له حتى كبر، فلما أفضت السلطنة بعد وفاة ألب أرسلان سنة

---

(١) الأتَابكيّات: جمع أتابكية وهي كلمة مشتقة من الكلمة التركية " أتابك " المركبة من المقطعين (أتا) بمعنى: أب، و "بك" بمعنى أمير، وتعني " الوالد الأمير" وكان هذا اللقب يُطلق على من يتولى تربية أبناء الملوك والسلاطين، ويرعى شؤونهم (القلقشندي، أبو العباس أحمد بن علي ت ٨٢١هـ/١٤١٨هـ.صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، نسخة مصورة عن الطبعة الأميرية.- القاهرة: وزارة الإرشاد القومي، ١٩٦٣م.- ج٤، ص١٨). وكان الأتابك: هو الحاكم الأعلى في الأتابكية، وكان يُلقب بالملك أيضًا، وله الإشراف على جميع شؤون المملكة أو الأتابكية، كما أنه يُعد المسؤول الأول عن السياسة الخارجية، ومن حقه أن يعلن الحرب، ويقود الجيش، ويعين الولاة والقواد، فهو لذلك أشبه بالسلطان السلجوقي، كما أن له الحق في نقش اسمه على السكه، والدعاء له في الخطبة إلى جانب اسم الخليفة والسلطان. (رشيد عبد الله الجُميلي. دولة الأتابكة في الموصل بعد عماد الدين زنكي.- بيروت: دار النهضة العربية، ١٩٧٠م.- ص٢٣٦).

(٢) حسين أمين. تاريخ العراق في العصر السلجوقي.- بغداد: مطبعة الإرشاد، ١٣٨٥هـ (١٩٦٥م).- ص٢٠٩.

(٣) ابن الأثير، عز الدين علي بن أبي الكرم محمد الشيباني الجزري (ت٦٣٠هـ/١٢٣٢م). التاريخ البَاهر في الدولة الأتابكية بالموصل، تحقيق عبدالقادر أحمد طليمات.- القاهرة: دار الكتب الحديثة ؛ بغداد: مكتبة المثنى، ١٣٨٢هـ (١٩٦٣م).- ص٤.

٤٦٥هـ (١٠٧٢م) إلى ولده ملكشاه حفظ لآقسنقر ذلك، وقدمه وقربه إليه، وجعله من أعيان دولته، وأكابر أمرائه، وأخصّ أصدقائه، واعتمد عليه في كثير من الأمور فارتفعت منزلته إلى أن لُقب بـ " قسيم الدولة "[1] يوم كانت الألقاب مصونة لاتعطى إلا لمستحقيها على حدّ قول ابن الأثير[2] ولاتوجد ثمَّة إشارة إلى المقصود من هذا اللقب إلا أن تسمية كل من ابن خلكان وابن كثير لآقسنقر بـ " الحاجب "[3] فضلاً عن إشارة المصادر إلى كثرة اعتماد ملكشاه عليه في كثير من مهامه، ترجح أن هذا اللقب كان يعني قيام آقسنقر بمنصب " الحجابة "[4] ومقاسمته السلطان ملكشاه شؤون الحكم والإدارة،

---

(١) المصدر السابق.- ص٣؛ أبوشامة، شهاب الدين عبدالرحمن بن إسماعيل المقدسي (ت ٦٦٥هـ / ١٢٦٦م). كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، نشر وتحقيق، محمد حلمي أحمد. القاهرة: مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، (١٩٥٦م).- ج١، ق١، ص٥٨ـ٥٩.

(٢) التاريخ الباهر.- ص٤.

(٣) ابن خلكان، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر (٦٨١هـ/١٢٨٢م). وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان.- تحقيق إحسان عباس.- بيروت: دار صادر(١٩٧٢م).- ج١، ص٢٤١؛ ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر القرشي الدمشقي (ت ٧٧٤هـ/١٣٧٢م). البداية والنهاية.- ط٢.- بيروت: مكتبة المعارف، (١٩٧٧م).- ج٢، ص١٤٧. وقسيم الدولة آقسنقر الحاجب والد عماد الدين زنكي هو غير آق سنقر البرسقي صاحب الموصل المتوفى سنة ٥٢١هـ (١١٢٧م) والذي لم يكن لعماد الدين به أية صلة قرابة، ولم يتول عماد الدين الموصل بعد وفاة والده مباشرة كما ذكر ابن العبري، غريغوريوس الملطي (ت٦٨٥هـ/١٢٨٦م) في تاريخ مختصر الدول.- بيروت: دار الرائد اللبناني، ١٤٠٣هـ (١٩٨٣م).-ص٢٠٣، وابن تغري بردي جمال الدين أبو المحاسن يوسف الأتابكي (ت٨٧٤هـ/١٤٦٩م) في النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب.- القاهرة: منشورات لجنة التأليف والترجمة والنشر. (د.ت).- ج٥، ص٢٧٩، وهذا وهم واضح.

(٤) الحِجابَة: حراسة الباب، أي باب الخليفة، أو السلطان أو الملك ومن إليهم، وصاحب الحجابة يعرف بالحاجب، وقد نشأت الحجابة منذ العصر الأموي، وتطورت مع اتساع رقعة الدولة الإسلاميّة فأصبحت الحجابة لاتقل شأنًا عن الوزارة، بل كثيرًا ماكان الحاجب يُنافس الوزير نفسه في النفوذ (القلقشندي. صبح الأعشى.- ج٤، ص٢٠؛ ابن خلدون، عبدالرحمن بن محمد بن ولي الدين الحضرمي الإشبيلي ت ٨٠٨هـ/١٤٠٥م. المقدمة.- القاهرة: دار الشعب [د.ت] .- ص٢١٤ـ٢١٦).

مما أثار منافسه الوزير نظام الملك الطُوسِيّ المتوفى سنة ٤٨٥هـ (١٠٩٢م)[١] فأخذ يُحذره، ثم مالبث أن أشار على السلطان بتوليته حلب وأعمالها حتى يبعده ويتقي منافسته له[٢]، فولاه السلطان ملكشاه مدينة حلب سنة ٤٨٠هـ (١٠٨٧م)، وظهرت مقدرته وكفايته في جميع البلاد التي كانت تابعة لها، فنشر الأمن وحفظ النظام، وأنصف الرعية، وحصل له بذلك من الصيت وحسن الذكر الشيء الكثير[٣] ولما توفي السلطان ملكشاه سنة ٤٨٥هـ (١٠٩٢م) شارك قسيم الدولة آقسنقر في الحوادث والفتن التي وقعت بين سلاجقة الشام بزعامة تُتُش بن ألب أرسلان (٤٧١ـ٤٨٨هـ/١٠٧٨ـ١٠٩٥م) وسلاجقة فَارِس بزعامة برْكيَاروُق بن مَلكشَاه (٤٨٧ـ٤٩٨هـ/١٠٩٤ـ١١٠٤م)،

---

(١) هو أبو علي الحسن بن علي بن إسحاق بن العباس الطُوسي، وُلد في إقليم خراسان سنة ٤٠٨هـ (١٠١٨م) وسط أسرة فارسية ذات مكانة اجتماعية وسياسية ومرموقة -في المنطقة، وكان جده إسحاق أحد دهاقي بَيْهق مما يعني أنه كان من أعيان المدينة ورؤسائها، وقد اشتغل نظام الملك في بداية حياته بدراسة الفقه والحديث، وحفظ القرآن في صغره، ودرس الفقه على المذهب الشافعي، وطاف كثيرًا من البلاد طلبًا للعلم، وبدأ حياته العملية بالخدمة في الدواوين بخراسان، ثم بغزّنة، ثم انتقل إلى بَلْخ، وتولى الكتابة بها، فظهرت كفايته وأمانته، ودخل في خدمة الملك داؤد بن ميكائيل والد السلطان ألب أرسلان السلجوقي، وولي الوزارة بعده لابنه ألب أرسلان، ثم لابنه ملكشاه الذي زادت منزلته في عصره حتى توفي مقتولاً سنة ٤٨٥هـ (١٠٩٢م) على يد رجل ديلمي تزيا بزي الصوفية (مع اختلاف في أسباب مقتله) (ابن الجوزي، جمال الدين أبو الفرج عبدالرحمن بن علي البغدادي، ت٥٩٧هـ/١٢٠١م.- المنتظم في تاريخ الملوك والأمم.- حيدر أباد، الدكن: مطبعة دار المعارف العثمانية، ١٣٥٩هـ/١٩٤٠م.- ج٩، ص٦٤ـ٦٨؛ ابن خلكان: وفيات الأعيان.- ج٢، ص١٢٨ـ١٣١؛ السبكي، تاج الدين أبو نصر عبدالوهاب بن علي بن عبدالكافي، ت ٧٧١هـ/١٣٦٩م. طبقات الشافعية الكبرى، تحقيق عبدالفتاح الحلو، ومحمد الطناحي.- القاهرة: مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، ١٣٨٥هـ (١٩٦٦م).- ج٤، ص٣١٢ـ٣٢٥).

(٢) ابن الأثير. الباهر.- ص٨؛ أبوشامة. كتاب الروضتين.- ج١، ق١، ص٥٨ـ٥٩.

(٣) ابن القلانسي، أبو يعلي حمزة بن سد بن علي التميمي الدمشقي (٥٥٥هـ/١١٦٠م). تاريخ دمشق.- تحقيق سهل زكار.- دمشق: دار حسان، ١٤٠٢هـ (١٩٨٣م).- ص١٩٦؛ ابن الأثير. المصدر السابق.- ص٨؛ أبوشامة. المصدر السابق.- ج١، ق١، ص٦١.

لرغبة كل منهما في الفوز بعرش السلطنة السلجوقية، وكان لآقسنقر أثر بارز في تلك الحوادث انتهت بمقتله سنة ٤٨٧هـ (١٠٩٤م) في المعركة التي نشبت بينه وبين تُتُش عند نهر سَبْعِيْن على مسافة ستة فراسخ شرقي حلب.[١]

لم يخلف قسيم الدولة آقسنقر من الأولاد غير عماد الدين زنكي، الذي كان في العاشرة من عمره حين قُتل والده، وكان لمركز والده قسيم الدولة في سلطنة ملكشاه والدور الذي قام به في الدولة السلجوقية سياسيًا وعسكريًا وإداريًا أعظم الأثر في نشأة ولده عماد الدين وظهوره، إذ حظي برعاية واهتمام سلاطين السلاجقة وأمرائهم عرفانًا منهم بخلاص والده وعلو مكانته في السلطنة السلجوقية، وكان عماد الدين مقيمًا آنذاك في حلب، فألتفَّ حوله مماليك أبيه آقسنقر، وأصحابه[٢]، فلما تولى أمر الموصل قوام الدولة كَرْبُوقَا[٣] سنة ٤٨٩هـ (١٠٩٦م) باسم السلطان بروكياروق أولى زنكي اهتمامًا خاصًا، وطلب من بعض مماليك والده المقيمين في حلب إحضار عماد الدين إليه وقال لهم: " هو ابن أخي وأنا أولى الناس بتربيته " فأحضروه عنده.[٤]

ويبدو أن كربوقا أدرك مكانة آقسنقر والد عماد الدين في نفوس كثير من التركمان وعرف مايكنّون له من الولاء والطاعة، فحرص أن يضمّ إليه ابنه عماد الدين ليحصل على الولاء نفسه الذي يحمله التركمان لوالده، إضافة إلى أن كربوقا

---

(١) ابن القلانسي. المصدر السابق.- ص٣٠٧-٣٠٨؛ ابن العديم، كمال الدين أبو القاسم عمر بن أحمد بن هبة الله (ت ٦٦٠هـ/١٢٦١م). زبدة الحلب من تاريخ حلب، تحقيق، سامي الدهان. نشر المعهد الفرنسي للدراسات الإسلامية.- دمشق: المطبعة الكاثوليكية (١٩٥٤م).- ج٢، ص١١١-١١٢.

(٢) ابن الأثير. المصدر السابق.- ص١٥؛ أبو شامة. المصدر السابق.- ج١، ق١، ص٦٧.

(٣) كان قوام الدولة كربوقا أحد قادة السلاجقة انضمّ إلى جانب آقسنقر في نزاعه مع تُتُش فوقع في أسر تُتُش بعد قتل آقسنقر، وقد أطلقه الملك رضوان بن تُتُش من سجن حمص عقب مقتل والده تُتُش سنة ٤٨٨هـ (١٠٩٥م) (ابن الأثير. الكامل في التاريخ.- بيروت: دار الكتاب العربي، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م.- ج٨، ص١٨٠؛ ابن العديم. زبدة الحلب.- ج٢، ص١٢١-١٢٢).

(٤) ابن الأثير. التاريخ الباهر.- ص١٦؛ أبوشامة. كتاب الروضتين.- ج١، ق١، ص٦٧.

أثناء ملازمته لآقسنقر قد أدرك نجابة عماد الدين ومكانته بين مماليك والده، فأراد أن يضمّه إلى جانبه للاستعانة به، وبمماليك والده في حروبه ضد خصومه، وليضمن عدم منافسته له مستقبلاً، وقد حظي عماد الدين بمكانة مرموقة عند قوام الدولة كربوقا، وظل عماد الدين زنكي ملازمًا له بالموصل إلى أن توفي كربوقا سنة ٤٩٥هـ (١١٠١م)،[١] ثم تنقّل زنكي تحت رعاية الولاة الذين توالوا على حكم الموصل بعد كربوقا وشارك معهم في كثير من أحداث المنطقة وبخاصة في الجهاد ضد الصليبيين حيث أظهر بذلك شجاعة عالية ومقدرة فائقة رفعته إلى مصاف القادة البارزين مما كان له أثر كبير في رفع مكانته عند السلاطين السلاجقة والخلفاء العباسيين.[٢]

وفي سنة ٥١٦هـ (١١١٢م) أُقطع عماد الدين زنكي مدينة وَاسِط[٣]، ثم وُلّي

(١) ابن الأثير. الكامل.- ج٨، ص٢١٠، الباهر.- ص١٦، وفيه ذكر وفاته سنة ٥٩٤هـ (١١٠٠م) وعنه نقل أبوشامة في الروضتين.- ج١، ق١، ص٦٧..

(٢) توالى على حكم الموصل بعد كربوقا كل من: شمس الدولة جَكَرْمِش (٤٩٥ - ٥٠٠هـ/١١٠١ - ١١٠٦م)، وجَاولي سَقَاو (٥٠٠ - ٥٠٢هـ/١١٠٦ - ١١٠٨م)، والأمير مودود بن التُونِتْكين (٥٠٢ - ٥٠٧هـ/١١٠٨ - ١١١٣م)، والأمير جيوش بك - الولاية الأولى - (٥٠٧هـ/١١١٣م)، وآق سنقر البرسقي - الولاية الأولى - (٥٠٧ - ٥٠٩هـ/١١١٣ - ١١١٥م) وجيوش بك - الولاية الثانية (٥٠٩-٥١٤هـ/١١١٥-١١٢١م)، وآق سنقر البرسقي - الولاية الثانية (٥١٤-٥٢٠هـ/١١٢١-١١٢٦م)، وعز الدين مسعود بن البرسقي (٥٢٠-٥٢١هـ/١١٢٦-١١٢٧م) (ابن الأثير. الكامل.- ج٨، ص٢١٠، ٢٣٨-٢٤٠، ٢٥٢، ٢٦٦، وصفحات أخرى متفرقة، الباهر.- ص١٦-٢٨؛ أبوشامة. كتاب الروضتين.- ج١، ق١، ص٦٧-٧٥).

(٣) وَاسِط: يسميها ياقوت واسط الحجاج، وسُميت واسطًا لتوسطها بين البصرة والكوفة وبينها وبين كل منهما خمسين فرسخًا (ياقوت الحموي، شهاب الدين أبو عبدالله.- ت ٦٢٦هـ/١٢٢٨م. معجم البلدان.- بيروت: دار صادر، دار بيروت، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م.- ج٥، ص ٣٤٧)؛ أما القزويني فيذكر أنها مدينة بين الكوفة والبصرة، كثيرة الخيرات وافرة الغلات، تشقها دجلة، وأنها في فضاء من الأرض صحيحة الهواء عذبة الماء بناها الحجاج بن يوسف (القزويني، زكريا بن محمد بن محمود، ت ٦٨٢هـ/١٢٨٣م. آثار البلاد وأخبار العباد.- بيروت: دار صادر، ١٣٩٩هـ / ١٩٧٩م.- ص٤٧٨).

شَحْنِكِيّة[1] البَصْرة[2]، فأظهر زنكي كفاية إدارية ومقدرة عسكرية فائقة مما زاد من قدره، وعلو مكانته عند السلاجقة.[3]

ولما عزم السلطان محمود بن محمّد (٥١١ ـ ٥٢٥هـ/١١١٧ ـ ١١٣١م) على السير إلى همَذان[4] في ربيع الآخر من سنة ٥٢٠هـ (١١٢٦م) نظر فيمن يصلح لشِحنِكية العراق بحيث يأمن معه من الخليفة العباسي المُستَرشِد بالله (٥١٢ـ٥٢٩هـ/١١١٨ـ١١٣٤م) ويضبط الأمور فلم يجد في أمرائه وأصحابه أصلح لهذا المنصب من عماد الدين زنكي خاصة وأنه خير من يستطيع الاعتماد عليه في هذا المنصب الخطير، فولاه شحنكية العراق مضافًا إليه مابيده من الإقطاع، وسار السلطان محمود عن بغداد، وقد اطمأن إلى نفوذه في العراق، بعد أن أناب عنه الرجل الذي يستطيع أن يقوم بمهام منصبه خير قيام، وأصبح عماد الدين منذ ذلك التاريخ يُصرف الأمور لا في بغداد وحدها بل في سائر جهات العراق.[5]

---

(١) الشَحْنِكِيّة وظيفة يتولاها حاكم البلد، أو صاحب الشرطة، أو الأمير المشرف على حراسة المدينة، والشَحْنَة بمثابة الحاكم العسكري للمدينة وتكون لـه سلطان استثنائية من قِبل الخليفة والسلطان. (حسن الباشا. الفنون الإسلاميّة والوظائف على الآثار العربية.- القاهرة: دار النهضة العربية، ١٩٦٦م.- ج٢، ص٦٢٣ ـ ٦٢٤؛ حسن أمين: تاريخ العراق في العصر السلجوقي.- ص٢٠١).

(٢) البصرة: هي المدينة المشهورة التي بناها المسلمون، قرب البحر كثيرة النخيل والأشجار، سبخة التربة ملحة الماء يجتمع قربها نهر دجلة والفرات (القزويني. المصدر السابق.- ص٣٠٩).

(٣) ابن الأثير. التاريخ الباهر.- ص٢٤ـ٢٥؛ أبوشامة. المصدر السابق.- ج١، ق١، ص٧٣.

(٤) هَمَذان: مدينة مشهورة من مدن الجبال، وهي مدينة عظيمة لها رقعة واسعة (القزويني. المصدر السابق.- ص٤٨٣).

(٥) ابن الجوزي. المنتظم.- ج١٠، ص٥؛ ابن الأثير. التاريخ الباهر.- ص٣١؛ أبوشامة. كتاب الروضتين.- ج١، ص٧٤؛ ابن واصل، جمال الدين محمد بن سالم الحموي (ت ٦٩٧هـ/١٢٩٧م).- مفروج الكروب في أخبار بني أيوب، تحقيق جمال الدين الشيال.- القاهرة: (١٩٥٣م).- ص٣١، أبو الفداء، عماد الدين إسماعيل بن علي (ت ٧٣٢هـ/١٣٣١م). المختصر في أخبار البشر.- بيروت: دار المعرفة (د.ت).- ج٢، ص٢٣٨.

أما عـن ولايـة عمـاد الديـن زنكـي للموصـل سنة ٥٢١هـ (١١٢٧م)، فإن الظروف السياسية في العراق والموصل قد سارت في صالحه، وأصبح هذا المنصب مهيًّا له، وذلك أنه قد حسَّن علاقاته بالخليفة المُسترشد مدة توليه أمر شحنكية بغداد، ثم إنه حظي أيضًا عند السلطان محمود بمكانة عالية ومنزلة رفيعة، إضافة إلى أن أحوال الموصل سارت من سيئ إلى أسوأ بعد وفاة عز الدين مسعود بن آق سنقر سنة ٥٢١هـ (١١٢٧م) إذ برز أحد المماليك الأتـراك ويُدعى جَاولِي سَقّاو، وأخذ على عاتقه الوصاية على الابن الأصغر لآق سـنقر الـذي لم تُشر المصـادر التاريخية إلى اسمه، وحـاول جـاولي أن يحصـل مـن السلطان محمـود عـلى موافقـة منه بـتولية هـذا الطفـل شـؤون الموصـل، ولكـن الخليفة المُسترشد، والسلطان محمود وجدا أنه من صالح المنطقة التي كانت تتعرض باستمرار للخطر الصليبي المحيط بها أن يتولى شؤونها قائد قوي يُخرجها من محنتها ويُبدل ضعفها قوة، فأستقر رأيهما على تولية عماد الدين زنكي أمر الموصل، وطلبه السلطان محمود بهمذان، وولاه البلاد كلها لما يعلمه عن كفايته لما يليه وكتب له منشورًا بذلك، وضمّ إليه ولديه ألب أرسلان وفَرْخَنشَاه المعروف بـ "الخَفَاجِي"، ليشرف على تربيتهما، ولهذا عرف بالأتابك.(١)

ومما تجدر الإشارة إليه في هذا المقام أن تولية عماد الدين زنكي أمر الموصل لم تكن وليدة مشاورات تمت في بغداد، أو رغبات شخصية من قِبل الخليفة المسترشد أو السلطان السلجوقي محمود، وإنما كان لاشتراك عماد الدين مع قادة الموصل منذ سنة ٤٨٩هـ (١٠٩٦م) في حركة الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين في الشام والجزيرة، ثم

---

(١) ابن الأثير. الكامل.- ج٨، ص٣٢٣-٣٢٤، التاريخ الباهر.- ص٣٥؛ أبوشامة. كتاب الروضتين.- ج١، ق١، ص٧٦، ٧٥؛ ابن واصل. مفرج الكروب.- ج١، ص٣٣؛ النويري، شهاب الدين أحمد بن عبدالوهاب (ت٧٣٣هـ/١٣٢٢م). نهارية الأرب في فنون الأدب، ج ٢٧، تحقيق سعيد عاشور.- القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٤٠٥هـ (١٩٨٥م).- ص١٢١-١٢٢.



اشتراكه مع آق سنقر البرسقي شحنة بغداد، والخليفة المسترشد والسلطان محمود في ضبط الأمور في كل من بغداد، وواسط، والبصرة في السنوات ٥١٨هـ (١١٢٤م) إلى ٥٢٠هـ (١١٢٦م) وما ظهر منه خلال تلك المدة من مقدرة سياسية وعسكرية وإدارية عالية كل هذه الأمور كانت وراء اختياره لولاية الموصل في تلك الفترة الحرجة من فترات تاريخ المنطقة حيث كانت بلاد الشام والجزيرة في حالة من الضعف والتمزق في وقت وصل فيه الصليبيون إلى درجة عالية من القوة والنفوذ، فكان عماد الدين زنكي هو القائد الذي تمكّن من قلب الأمور واستغلال القوى لصالح الجبهة الإسلاميّة مما حقق لها انتصاراتها.

بعد أن تسلّم عماد الدين زنكي الأمر بتولي الموصل وما كان بيد آق سنقر البُرسِقي من البلاد، مضى إلى الموصل في شهر رمضان سنة ٥٢١هـ (١١٢٧م) وفي طريقه إليها استولى على البَوازِيج،[١] وكان قصده من الاستيلاء عليها قبل وصوله الموصل الاحتماء بها فيما لو تصدى له جاولي ومنعه من دخول الموصل. إلا أن جاولي حين بلغه قدوم عماد الدين زنكي، قابلة بالحفاوة والتكريم، وأعلن دخوله في طاعته، فأقطعه زنكي الرُّحْبَة[٢] وأعمالها، وسيره إليها.

بعدها أقام زنكي بالموصل لإصلاح أمورها، وتقرير قواعدها إداريًا وعسكريًا مستندًا في ذلك إلى ماكان سائدًا عند السلاجقة من نظم الحكم والإدارة.[٣]

(١) البَوازيج: بلد قرب تكريت على فم الزاب الأسفل قرب مصبه في دجلة، وهي من أعمال الموصل، بخلاف بوازيج الأنبار (ياقوت. معجم البلدان.- ج١، ص٥٠٣)

(٢) الرُّحبَة: اسم يطلق على مواضع عديدة، والمراد هنا: رحبة مالك بن طوق وهي مدينة تقع على الفرات بين الرقة وعانة. وتبعد عن حلب مسيرة خمسة أيام، وكان قد بناها مالك بن طوق في خلافة المأمون (ياقوت. معجم البلدن، ج٣، ص٣٤-٣٦؛ البغدادي، صفي الدين عبدالمؤمن بن عبدالحق، ت٧٣٩ هـ/١٣٣٨م. مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع.- بيروت: دار المعرفة، ١٣٧٣هـ/ ١٩٥٤م.- ج٣، ص٦٠٨).

(٣) ابن الأثير. الكامل.- ج٨، ص٣٢٤؛ الباهر.- ص٣٥؛ أبوشامة. كتاب الروضتين.- ج١، ق١، ص٧٦؛ ابن واصل.مفرج الكروب.- ج١، ص٣٣-٣٤.

وكانت سياسة زنكي تهدف منذ البداية إلى تكوين جبهة إسلاميّة قوية ليتمكن من الوقوف في وجه الصليبيين، فبدأ يفكر فيمن حوله من الأمراء المسلمين الذين يحكمون عددًا من المدن والقلاع وهم مُتناحرون فيما بينهم، ورأى أن هؤلاء الأمراء سيقفون حجر عثرة في طريق مشروعه، خاصة وأنه الرجل الذي عاصر قادة الجهاد الإسلامي في الموصل منذ قدوم العدوان الصليبي إلى المنطقة وأدرك أنه لابد من ضمّ هؤلاء الأمراء تحت لواء واحد، ليحقق بذلك ماعجز عنه القادة السابقون أمثال كربوقا، ومودود، وآق سنقر من توحيد القوى الإسلاميّة في المنطقة تحت راية واحدة.

وكان أول عمل قام به عماد الدين هو توجيه اهتمامه نحو الإمارات والمدن المجاورة في إقليم الجَزيْرة،[1] وديار بَكر،[2] فعمل على ضمّ هذه الإمارات وإخضاعها تحت زعامته وتمكين نفوذه فيها، إذ لايمكن أن يطمئن في زحفه إلى الشام ومواجهة القوى الصليبية إلا إذا أخضع هذه الإمارات الصغيرة حتى لا تتعرض مؤخرة جيشه لخطر الهجوم عليها فبدأ بجزيرة ابن عُمَر[3] التي كانت تحت حكم أحد مماليك آق سنقر البرسقي، فاستولى عليها سنة ٥٢١هـ (١١٢٧م)، ثم سار عنها إلى نَصِيْبِيْن[4]، وكانت

(١) إقليم الجَزِيْرَة: هي المنطقة الواقعة بين نهري دجلة والفرات، وتشتمل على ديار بكر ومضر وربيعة (القزويني. آثار البلاد، ص٣٥) ويعد كي لسترنج إقليم الجزيرة ضمن الأقاليم الشرقية من البلاد الإسلاميّة، وقد تحدث عنه بالتفصيل في كتابه (بلدان الخلافة الشرقية، ترجمة بشير فرنسيس، وكوركيس عواد.- ط٢.- بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م.- ص١١٤-١١٦).

(٢) ديار بكر: بلاد واسعة تنسب إلى بَكر بن وائِل، وحدها ماغرب من دجلة إلى بلاد الجبل المطل على نصيبين، ومنها: حصن كيفا، وآمد، وميافارقين وغيرها (ياقوت. المصدر السابق.- ج٢، ص ٤٩٤).

(٣) جزيرة ابن عُمَر: بلدة تقع شمال الموصل، بينهما مسيرة ثلاثة أيام، ويحيط بها نهر دجلة إلا من ناحية واحدة وهي موطن آل الأثير العلماء (ياقوت. معجم البلدان.- ج٢، ص١٣٨).

(٤) نَصِيْبِيْن: مدينة في إقليم الجزيرة، تبعد عن سِنْجَار تسعة فراسخ، وبينها وبين الموصل مسيرة ستة أيام (ياقوت. المصدر نفسه.- ج٥، ص٢٨٨) وتقع الآن على الحدود التركية السورية داخل الأراضي التركية.

لحسام الدين تُمرتَاش بن إيلغْازِي صاحب مارِدين[1]، فتسلمها، ثم سار زنكي إلى سِنْجار[2] فتسلمها صلحًا من أهلها، ثم واصل سيره إلى الخَابُور[3] وبها عدد من القرى الواقعة على النهر، واستطاع أن يفرض عليها سلطانه، ومن الخابور سار زنكي إلى حَرَّان[4]، وكانت في ضيق شديد من حصار الصليبيين لها فتسلمها.[5]

وبعد أن ملك عماد الدين زنكي بعض بلاد الجزيرة التي كانت بيد الأراتقة وبعض المماليك الذين كانوا تابعين لآق سنقر البرسقي صاحب الموصل عاد في سنة ٥٢٢هـ (١١٢٨م) إلى الموصل بقصد عبور الفرات، والاستيلاء على حلب، وذلك للقضاء على الفوضى السياسية التي كانت بها، وباعتبارها أهم مركز في شمال الشام يمكن اتخاذه نقطة انطلاق لمواجهة الصليبيين، يضاف إلى ذلك أن مدينة حلب كانت في يوم من الأيام تحت حكم والده آقسنقر الحاجب، وبها قبره، فلا غرو إذا كان الاستيلاء عليها من أهم الأشياء عنده على حد قول ابن الأثير.[6]

---

(١) مَاردين: قلعة مشهورة تقع على سفح جبل بالجزيرة مشرفة على دُنَيْسَر ودارا ونصيبين وذلك الفضاء الواسع، وقدامها بطن عظيم فيه أسواق كثيرة، وخانات ومدارس وربط وخانقاهات (ياقوت. المصدر نفسه.- ج٥، ص٣٩ القرزويني. آثار البلاد.- ص٢٥٩-٢٦٠).

(٢) سِنْجار: مدينة مشهورة من نواحي الجزيرة، تبعد عن الموصل مسيرة ثلاث أيام من جهة الغرب (ياقوت. المصدر نفسه.- ج٣، ص٢٦٢) وما تزال سنجار من المدن العامرة في شمالي العراق، وهي اليوم مركز قضاء سنجار في لواء الموصل (كي لسترنج. بلدان الخلافة الشرقية.- ص١٢٩).

(٣) الخابور: من أعمال الموصل، وهو عبارة عن نهر حوله بعض القرى في منطقة جبلية شمال الموصل (ياقوت. المصدر السابق.- ج٢، ص٣٣٥).

(٤) حَران: مدينة كبيرة مشهورة في إقليم الجزيرة، وهي قصبة ديار مُضر، وتقع بين الرّقة والرّها، بينها وبين الرّها مسيرة يوم (ياقوت. المصدر نفسه.- ج٢، ص٢٣٥).

(٥) ابن الأثير. الكامل.- ج٨، ص٣٢٥، الباهر.- ص ٣٦-٣٧؛ أبوشامة. كتاب الروضتين.- ج١، ق١، ص٧٧؛ ابن واصل. مفرج الكروب.- ج١، ص٣٤-٣٦؛ النويري. نهاية الأرب.- ج ٢٧، ص١٢٤.

(٦) الباهر.- ص٣٧.

وقد سنحت لزنكي فرصة التدخل في حلب حينما قامت نزاعات وخصومات بين عدد من الأفراد والمماليك عقب وفاة عز الدين مسعود بن آق سنقر البرسقي، وكان كل منهم يحاول فرض سيطرته عليها، في الوقت الذي كان فيه الصليبيون قد استضعفوا المسلمين ببلاد الشام، وضيقوا الحصار على حلب، وقوي طمعهم في الاستيلاء عليها، فلما علم عماد الدين زنكي بما يدور من منازعات وانقسامات داخل حلب، وما فرض عليها من حصار من جانب القوى الصليبية، أرسل إلى الأطراف المتنازعة وفدًا من أمرائه حاملين معهم مرسوم السلطان بتعيينه حاكمًا على الموصل والجزيرة والشام، فتفاوض الوفد مع الطرفين المتنازعين، وتمّ الاتفاق على ضم حلب إلى ممتلكات عماد الدين زنكي،[1] وبعد ذلك سار زنكي من الموصل إلى حلب في جيش كبير استطاع به الاستيلاء في طريقه على مَنْبج،[2] وبُزاعَه،[3] وعندما وصل إلى مشارف حلب خرج الأهالي لاستقباله والترحيب به، معربين له عن استبشارهم بقدومه، فدخل عماد الدين زنكي القلعة في شهر جمادى الآخرة من سنة ٥٢٢هـ (١١٢٨م)،[4] وكان استيلاؤه على حلب خطوة مهمة في سبيل توحيد القوى الإسلاميّة في الشام والجزيرة في مواجهة الصليبيين، وهذا أمر كان يخشاه الصليبيون نظرًا لما يمكن أن ينجم عنه من قطع الصلة بين إمارة الرّها الصليبية من ناحية وبقية الإمارات الصليبية في بلاد الشام من ناحية أخرى، فضلاً عما ينتج عنه تجمع القوى الإسلاميّة ووحدتها من معاني القوة، وهو أمر لم يعهده الصليبيون حتى ذلك الوقت بسبب تفرق المسلمين وعدم وحدتهم.

---

(١) ابن الأثير. الكامل.- ج٨، ص٣٢٦؛ ابن العديم. زبدة الحلب.- ج٢، ص٢٣٩.

(٢) منبج: مدينة واسعة ذات خيرات كثيرة، بينها وبين الفرات ثلاثة فراسخ، وبينها وبين حلب عشرة فراسخ (ياقوت. معجم البلدان.- ج٥، ص٢٠٥-٢٠٦).

(٣) بُزاعة: تنطق بالضم والكسر ويقال بزاعا، وهي بلدة من أعمال حلب في وادي بطنان بين منبج وحلب، وتكثر فيها العيون والمياه الجارية (المصدر نفسه.- ج١، ص٤٠٩).

(٤) ابن الأثير. الكامل.- ج٨، ص٣٢٦؛ ابن العديم. المصدر نفسه.- ج٢، ص٢٣٩-٢٤٢؛ ابن واصل.مفرج الكروب.- ج١، ص٣٩-٤٠؛ النويري. نهاية الأرب.- ج٢٧، ص١٢٥.

وتوالــت بعد ذلك انتصــارات عماد الدين زنكي ، وتعاقبــت جهوده في سبيل تأسيس الدولــة الزنكيـــة ، واتســاع رقعتهــا ، فاستــولى على حَمَاة[١] سنــة ٥٢٣هـ (١١٢٩م).[٢] ثم عاد إلى الموصل ليريح جيشه ويجدد قواته ، ولم يلبث أن عاد إلى الشام فعبر الفُرات وقصد حصن الأثارِب[٣]وكان بيد الصليبيين ، وهو مصدر ضيق وشدة على أهل حلب فاستولى عليه عماد الدين وخرّبه وسواه بالأرض ،[٤] ثم سار إلى حَارِم[٥] فصالحه أهلهـا ، ثم عـاد إلى الجزيـــرة وحاصـــر مدينة سَرْجَه[٦] في سنة ٥٢٤هـ (١١٣٠م) واستولى عليها ، كما استولى على مدينة دَارًا.[٧]

ثـم وجه زنكي اهتمامه نحو القلاع الكردية المحيطة ببلاده من الشمال ، وكانت هذه القلاع تمثل خطرًا على إمارته ، فاستولى في سنة ٥٢٨هـ (١١٣٢م) على عدد من القلاع

---

(١) حَمَاة : مدينة كبيرة بينها وبين حمص مسيرة يوم من جهة الجنوب وبينها وبين حلب مسيرة أربعة أيام من جهة الشمال هكذا قال ياقوت (معجم البلدان.- ج٢ ، ص٣٠٠)، وهي الآن مدينة مشهورة في سورية تقع إلى الشمال من حمص بنحو (٥١كم) وتبعد عن دمشق نحو (٢٠٩كم).

(٢) ابن الأثير. الباهر.- ص٣٨ ؛ ابن العديم. زبدة الحلب.- ج٢ ، ص٢٤٦.

(٣) الأثارب : قلعة قريبة من حلب تقع بينها وبين أنطاكية وتبعد عن حلب نحو ثلاثة فراسخ (أي حوالي تسعة أميال) (ياقوت. المصدر السابق.- ج١ ، ص٨٩).

(٤) ابن الأثير. الكامــل.- ص٣٣١ ، البـاهــر.- ص٣٩-٤٠ ؛ أبوشامة. كتاب الروضتين.- ج١ ، ق١ ، ص٧٨.

(٥) حـــارم : حصن حصين من أعمال حلب ويبعد عنها مرحلتين من الغرب (أي حوالي ٥٤ ميلاً) (أبو الفداء. تقويم البلدان.- باريس : دار الطباعة السلطانية ، (١٨٤٠م).- ص٢٥٨-٢٥٩).

(٦) سَرْجَه : حصن بين نصيـــبين ودُنيسْر ودَارًا من بناء الروم القديم (ياقــوت. المصدر السابق.- ج٣ ، ص٢٠٧).

(٧) دَارًا : بلدة في لحف جبل بين نصيبين وماردين ، وهي من بلاد الجزيرة ذات بساتين ومياه جارية (ياقوت. المصدر نفسه.- ج٢ ، ص٤١٨).

منها قلعة شُوْش[١] والعَقْر[٢] وغيرها، ثم استولى على قلاع الأكراد الهكّارِيّة[٣] وكَواشِي.[٤]

وما تحقق له ذلك حتى ولى وجهه شطر بلاد الشام من جديد لمواجهة الصليبيين، فهاجم قلعة بَعْرِين (بارين)[٥] وهزم الصليبيين فيها واستولى على القلعة سنة ٥٣١هـ (١١٣٧م).[٦]

ثم رأى زنكي أن يضم إلى ملكه بعض المدن الكبرى في الشام لتكون نواة للدولة الجديدة، فملك حِمْص،[٧] وبَعلَبَك،[٨] وحاصر دِمشق في سنة ٥٣٤هـ (١١٣٩م)

---

(١) شُوش: قلعة عظيمة عالية جدًا قرب عقر الحميديّة من أعمال الموصل، وهي أعلى من العقر وأكبر، ولكنها أقل منها قدرًا (ياقوت. معجم البلدان.- ج٣، ص٣٧٢).

(٢) العقَر: قلعة حصينة في جبال الموصل أهلها أكراد وهي شرقي الموصل وتعرف بعقر الحميدية، وقد خرج منها طائفة من أهل العلم (المصدر نفسه.- ج٤، ص١٣٦).

(٣) الهكّاريّة: بلدة وناحية وقرى فوق الموصل في بلد جزيرة ابن عمر يسكنها أكراد يقال لهم الهكارية (المصدرنفسه.- ج٥، ص٤٠٨).

(٤) كَواشِي. قلعة حصينة في الجبال التي في شرقي الموصل ليس إليها طريق إلا لرجل واحد، وكانت قديمًا تسمى آردمشت (نفسه.- ج٤، ص٤٨٦).؛ ابن الأثير. الكامل.- ج٨، ص٣٤٣ ؛ أبوشامة. كتاب الروضتين.- ج١، ق١، ص٧٩.

(٥) بَارين: مدينة حسنة بين حلب وحماة من جهة الغرب، والعامة تسميها (بعرين) (ياقوت. المصدر السابق.- ج١، ص٣٢٠-٣٢١).

(٦) ابن القلانسي. تاريخ دمشق.- ص٤٠٧-٤٠٨ ؛ ابن العديم. زبدة الحلب.- ج٢، ص٢٦١-٢٦٢.

(٧) حمص: بلد مشهور قديم كبير مسور، وفي طرفه القبلي قلعة حصينة على تل عال كبير، وهي في منتصف الطريق بين دمشق وحلب (ياقوت. المصدر السابق.- ج٢، ص٣٠٢).

(٨) بعلبك: مدينة قديمة بها أبنية عجيبة، وآثار عظيمة بينها وبين دمشق اثنا عشر فرسخًا (ستة وثلاثون ميلاً) من جهة الساحل (ياقوت. المعجم.- ج١، ص٤٥٣) وهي الآن داخل حدود لبنان الشرقية.

حرصًا منه على توحيد المنطقة بكاملها تحت قيادته ليتمكن من مواجهة الصليبيين بقوة واحدة تحت لواء واحد، ولكنه رحل عنها دون نتيجة تذكر،[1] ثم عاد إلى الجزيرة، واستولى على شَهْرَزُوْر،[2] وأعمالها في سنة ٥٣٤هـ (١١٣٩م) وما يجاورها من الحصون،[3] كما استولى على ديار بكر في سنة ٥٣٨هـ (١١٤٣م).[4]

وفي جمادى الآخرة سنة ٥٣٩هـ (١١٤٤م) توّج عماد الدين زنكي انتصاراته في الشام وبلاد الجزيرة بضربة وجهها للصليبيين في إمارة الرّها[5] تمكّن على إثرها من إسقاط هذه الإمارة الصليبية في أيدي المسلمين،[6] وهي أقسى ضربة تلقاها الصليبيون منذ قدومهم إلى المنطقة حيث كانت تلك الإمارة - بحكم موقعها الإستراتيجي - تُشكل خطرًا على خطوط المواصلات الإسلاميّة بين الموصل وحلب، وبغداد وبلاد الجزيرة، كما كانت نقطة انطلاق كثير من الغارات الصليبية على المواقع الإسلاميّة في تلك المناطق، وعلى هذا الأساس فإن سقوط الرّها كان بمثابة جرس إنذار يؤذن ببداية النهاية للوجود الصليبي في المنطقة.

---

(١) ابن القلانسي، المصدر السابق.- ص٤٢٤-٤٢٦ ؛ ابن الأثير. المصدر السابق.- ج٨، ص٣٦٧-٣٦٨ ؛ أبو الفداء. المختصر.- ج٣، ص١٥.

(٢) شَهْرَزُوْر: كورة واسعة في الجبال بين إربل وهمذان، وأهلها أكراد: (ياقوت. معجم البلدان.- ج٣، ص٣٧٥).

(٣) ابن الأثير. الكامل.- ج٨، ص٣٦٨ ؛ ابن واصل.مفرج الكروب.- ج١، ص٨٤.

(٤) ابن الأثير. المصدر السابق.- ج٩، ص٧ ؛ أبوشامة. كتاب الروضتين.- ج١، ق١، ص٩٣-٩٤ ؛ أبو الفداء. المختصر.- ج٣، ص١٦.

(٥) الرّها: مدينة بالجزيرة بين الموصل والشام بينهما ستة فراسخ، ويسميها الرومان (اذاسا) (ياقوت. المصدر السابق.- ج٣، ص١٠٦)، وكانت أولى الإمارات الصليبية التي تأسست في الشرق الإسلامي سنة ٤٩١هـ (١٠٩٧م) بزعامة بلدوين الأول الذي استمر في حكمها حتى سنة ٤٩٤هـ (١١٠٠م) حيث انتقل إلى حكم بيت المقدس.

(٦) ابن القلانسي. تاريخ دمشق.- ص٤٣٦-٤٣٧ ؛ ابن الأثير. المصدر السابق.- ج٩، ص٨.

وفي سنة ٥٤١هـ (١١٤٥م) سار عماد الدين زنكي إلى قلعة جَعْبَر[١] الواقعة على نهر الفرات رغبة منه في الاستيلاء عليها حتى تكتمل وحدة البلاد تحت سلطانه فأقام عليها محاصرًا لها حتى شهر ربيع الآخر من السنة التالية ٥٤١هـ (١١٤٦م) وبينما هو نائم ذات ليلة دخل عليه أحد مماليكه ويعرف بيرَنْقَش، فقتله، وهرب إلى القلعة.[٢]

وبمقتل الملك عماد الدين زنكي افتقد العالم الإسلامي في ذلك الحين قائدًا من أهم قادة الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين، وقد استطاع في فترة قصيرة أن يؤسس دولة قوية شملت حدودها مابين شَهْرَزُوْر شرقًا إلى قرب سواحل الشام غربًا، ومن آمِد،[٣] وديار بكر وجبال الأكراد شمالاً إلى الحَدِيْثَة[٤] جنوبًا،[٥] وكانت خسارة المسلمين فادحة بمقتل عماد الدين حتى لقد صاح أهل قلعة جعبر أنفسهم بالقاتل: " فقد قتلت المسلمين كلهم بقتله".[٦]

---

(١) قلعة جَعْبَرَ: على الفرات بين بالس والرقة قرب صفين، وكانت قديمًا تسمى دوسر فملكها رجل من بني قشير أعمى يقال له جعبر بن مالك، فنُسبت إليه، (ياقوت. المصدر السابق.- ج٢، ص١٤٢).

(٢) ابن القلانسي. تاريخ دمشق.- ص٤٤٤؛ ابن الأثير. الكامل.- ج٩، ص١٣، الباهر.- ص ٧٤؛ سبط ابن الجوزي، شمس الدين أبو المظفر يوسف بن قزاوغلي (ت ٦٥٤هـ/١٢٥٦م). مرآة الزمان في تاريخ الأعيان.- ج (٨).- حيدر أباد، الدكن، الهند: مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية، ١٣٧٠هـ (١٩٥١م).- ص١٩٠-١٩١؛ أبو شامة. كتاب الروضتين.- ج١، ق١، ص١٠٧-١٠٨؛ ابن واصل.مفرج الكروب.- ج١، ص٩٩-١٠٠.

(٣) آمد: أعظم مدن ديار بكر وأجلها قدرًا، وأشهرها ذكرًا (ياقوت. معجم البلدان.- ج١، ص ٥٦-٥٧).

(٤) الحديْثَة: تطلق على مواضع عديدة، والمقصود بها هنا حديثة الفرات والتي تعرف بحديثة النورة، وهي على فراسخ من الأنبار، وبها قلعة حصينة في وسط الفرات والماء يحيط بها. (ياقوت. المصدر نفسه.- ج٢، ص٢٣٠).

(٥) رشيد الجميلي. دولة الأتابكة بالموصل.- ص٥٤.

(٦) ابن العديم. زبدة الحلب.- ج٢، ص٢٨٢.

٢ ـ انقسام الدولة الزنكية بعد مقتل زَنْكي:

عندما قتل عماد الدين زنكي سنة ٥٤١هـ (١١٤٦م) كان ابنه الأكبر سيف الدين غازي مقيمًا بشهْرَزُور، وهي إقطاعه من قِبل أبيه[1] بينما كان نور الدين محمود، وهو الابن الثاني لعماد الدين مع أبيه عند قلعة جعبر، وبعد أن شهد مصرع أبيه أخذ خاتمه من يده وسار ببعض العساكر إلى حلب، فملكها هي وتوابعها في ربيع الآخر سنة ٥٤١هـ (١١٤٦م).[2]

كما كان مع زنكي أيضًا على قلعة جعبر الملك ألب أرسلان ابن السلطان محمود السلجوقي، وكان زنكي يظهر أنه يحكم البلاد باسمه منذ سنة ٥٢١هـ (١١٢٧م) حيث اصطحبه معه إلى الموصل بأمر من السلطان محمود.[3]

وقد ذكر المؤرخون أن الملك ألب أرسلان حاول أن يحل محل زنكي في ملك البلاد وأن يُبعد أولاده عنها، فجمع العساكر وأعدّ العدة للتوجه إلى الموصل بقصد الاستيلاء عليها، ولكن الوزير جمال الدين الأصفهاني[4] قام بدور كبير في الحفاظ على الدولة

---

(١) ابن الأثير. الباهر.- ص٨٥؛ البنداري، قوام الدين الفتح بن علي البنداري الأصفهاني (٦٤٣هـ/١٢٤٥م). تاريخ دولة آل سلجوق.- ط ٣ .- بيروت: دار الآفاق الجديدة، ١٤٠٠هـ (١٩٨٠م).- ص١٩١؛ ابن واصل، المصدر السابق.- ج١، ص ١٠٧.

(٢) ابن الأثير. الكامل.- ج٩، ص١٣؛ ابن العديم. زبدة الحلب.- ج٢، ص٢٨٥.

(٣) ابن الأثير. الباهر.- ص٧١ـ٧٢؛ أبو شامة. كتاب الروضتين.- ج١، ق١، ص١٢٠.

(٤) هو أبو جعفر، محمّد بن علي بن أبي منصور، الملقب بجمال الدين، والمعروف بالجواد الأصفهاني، وزير الأتابك عماد الدين زنكي في الموصل والشام، ووزير ابنيه سيف الدين غازي، وقطب الدين مودود، كان المتصرف في أمور الدولة الزنكية، وإليه الرجوع في كثير من الأمور، كما شارك في إنشاء العديد من المرافق الخيرية، في الموصل وغيرها، وكانت وفاته في شعبان سنة ٥٥٩هـ (١١٦٤م) (ابن الجوزي. المنتظم.- ج١٠، ص٢٠٩، وكان يسميه محمّد ابن علي بن منصور، ويذكر أنه دفن في رباط له بناه في مدينة الرسول ﷺ؛ سبط ابن الجوزي. مرآة الزمان.- ج٨، ق١، ص٢٤٨ـ٢٥١؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان.- ج٥، ص ١٤٣ـ١٤٥).

الزنكية وإبقائها في أيدي أولاد صاحبه وولي نعمته عماد الدين زنكي، فما أن شعر بقصد الملك ألب أرسلان حتى بادر بالاتصال بالأمير صلاح الدين محمّد اليَاغِسيّانِي[1] حاجب عماد الدين متناسيًا ما كان بينهما من خلاف، فاتفقا على حفظ الدولة لأولاد زنكي وإبعاد الملك ألب أرسلان السلجوقي عنها،[2] حيث أرسل الوزير جمال الدين إلى صلاح الدين الياغسياني يقول له: "إن المصلحة أن نترك ماكان بيننا وراء ظهورنا، ونسلك طريقًا يبقى به الملك في أولاد صاحبنا، ونعمر بيته جزاءً لإحسانه إلينا، فإن الملك (ألب أرسلان) قد طمع في البلاد، واجتمعت عليه العساكر، ولئن لم نتلاف هذا الأمر في أوله، ونتداركه في بدايته ليتسعن الخَرْق ولا يمكن رقعه، فأجابه صلاح الدين إلى ذلك، وحلف كل واحد منهما لصاحبه".[3]

وكان أول عمل قام به جمال الدين، وصلاح الدين أن أرسلا رسولاً على وجه السرعة إلى زين الدين علي كُجَك[4] نائب زنكي في الموصل يخبراه بما حصل لزنكي،

(١) هو صلاح الدين محمّد بن أيوب الياغِسيّاني، كان مقدمًا لدى الأمير آق سنقر البرسقي بالموصل، وكان له دور في تولي عماد الدين زنكي أتابكية الموصل، فكافأه زنكي بأن جعله حاجبه الخاص، وأقطعه مدينة حماة بعد فتحها، فلما توفي زنكي، سار مع ابنه نور الدين محمود إلى حلب، وأقطعه مدينة حمص بدلاً من حماة وكانت وفاته بحمص في ذي القعدة سنة ٥٥٢هـ (١١٥٨م) (ابن القلانسي. تاريخ دمشق.- ص٥٣١ ؛ ابن الأثير. الباهر.- ص٣٤ـ ٣٥، ابن واصل مفرج الكروب.- ج١، ص١١٠).

(٢) ابن الأثير. الكامل.- ج٩، ص١٣ ؛ أبوشامة. المصدر السابق.- ج١، ق١، ص١٢٠ ؛ النويري نهاية الأرب.- ج٢٧، ص١٤٨ـ١٤٩.

(٣) ابن الأثير. الباهر.- ص٨٤ـ ٨٥.

(٤) هو زين الدين أبو الحسن علي بن بكتكين والد الملك المعظم مظفر الدين كوكبوري، صاحب إربل، ويعرف بكجك لقصر قامته، كان تركيًا من مماليك زنكي، وكان شجاعًا تولى نيابة القلعة بالموصل في عصر زنكي، وابنه سيف الدين غازي، ثم قطب الدين مودود بعدهما، ولما كبر به السن، وعجز عن القيام بمهامه، رحل إلى إربل سنة ٥٦٣هـ (١١٦٨م) فتوفي بها في السنة نفسها. (ابن الأثير. المصدر نفسه.- ص١٣٥ ؛ ابن خلكان: وفيات الأعيان.- ج٤، ص١١٤).

فسارع سيف الدين غازي للحضور من شهرزور إلى الموصل لتسلم الحكم فيها، فسارع سيف الدين غازي إلى الموصل، وملكها قبل أن يتمكن ألب أرسلان السلجوقي من الوصول إليها.[1]

أما الملك ألب أرسلان السلجوقي فقد تكفّل الوزير جمال الدين الأصفهاني بإلهائه ومخادعته ريثما تستتب الأمور لسيف الدين غازي في الموصل، وظلّ يتنقل من مكان إلى آخر بالجزيرة حتى تفرق معظم أصحابه عنه، ثم اتجه إلى الموصل فقُبض عليه وأُودع السجن ولم يأت له ذكر بعد هذا التاريخ.[2]

وهكذا انقسمت الدولة الزنكية بعد مقتل مؤسسها عماد الدين بين ولديه سيف الدين غازي الذي حكم الموصل والجزيرة، ونور الدين محمود الذي حكم مدينة حلب وما جاورها من مدن الشام، أما أخوهما نُصرة الدين أمير أميران،[3] فقد حكم حرّان تابعًا لأخيه نور الدين محمود، في حين كان الأخ الرابع قطب الدين مودود لا يزال في رعاية أخيه سيف الدين غازي بالموصل.[4]

وعلى الرغم من هذا الانقسام، فقد نجح كل من نور الدين محمود وسيف الدين غازي في الحفاظ على كيان الدولة التي كان والدهما عماد الدين قد بذل جلّ وقته وجهده، وفي الآخر عمره في سبيل تحقيق تأسيسها واستكمال وحدتها.

---

(١) ابن الأثير. المصدر السابق.- ص٨٥؛ البنداري. تاريخ دولة آل سلجوق.- ص١٩١.

(٢) ابن الأثير. الكامل.- ج٩، ص١٤، الباهر.- ص٨٥-٨٦؛ البنداري. المصدر السابق.- ص ١٩١-١٩٢؛ ابن خلكان: المصدر السابق.- ج٤، ص٣-٤؛ ابن واصل.مفرج الكروب.- ج ١، ص١٠٩.

(٣) يسميه ابن القلانسي. أميرميران (تاريخ دمشق.- ص٥٣٣، أما ابن الأثير فإنه يسميه (أمير أميران) (الباهر.- ص٧٦-١٣٠)، وكانت وفاته سنة ٥٦٠هـ (١١٦٥م) (سبط ابن الجوزي.مرآة الزمان.- ج٩، ق١، ص٢٥٢).

(٤) ابن الأثير. الباهر.- ص٩٤، سبط الجوزي. مرآة الزمان.- ج٨، ق١، ص٢٣٢؛ أبوشامة. كتاب الروضتين.- ج١، ق١، ص١٧٠.

وعلى العكس فقد بلغت تلك الدولة في بعض فتراتها أوج قوتها، وقمة سلطانها، وبخاصة في فترة حكم الملك نور الدين محمود (٥٤١ـ ٥٦٩هـ/١١٤٦ـ١١٧٤م) الذي تحمل على عاتقه - بحكم الموقع الجغرافي لدولته - مهمة الجهاد ضد الصليبيين في بلاد الشام، بالإضافة إلى استكمال توحيد الجبهة الإسلاميّة في الشام والجزيرة، حيث تمكّن خلال فترة وجيزة من إخضاع جميع ماكان لأبيه تحت دائرة نفوذه مثل: حرّان وسَرُوج[١] وحمص، وحماة، كما تمكّن من استعادة الرّها التي استولى عليها الصليبيون بعد مقتل زنكي[٢] إضافة إلى منازلته الصليبيين في كثير من المواقع، وصد هجماتهم على كثير من الأراضي الإسلاميّة[٣] مما أكسبه مكانة مرموقة، وسمعة طيبة بين قادة الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين.

كما سار نور الدين محمود على نهج والده في توسيع نطاق دولته لتتوحد الجهود تحت لواء واحد، حيث تمكّن في صفر سنة ٥٤٩هـ (١١٥٤م) وبعد محاولات عديدة من ضم دمشق لملكه وإسقاط حكم الأسرة البُورِيّة المتداعية،[٤] مما جعله يسيطر على بلاد فسيحة تمتد من منطقة الجزيرة مرورًا بشمال الشام إلى حدود دمشق في جنوب الشام، وقد شكل نور الدين بهذا الموقع خطرًا جسيمًا على القوى الصليبية في المنطقة، وتمكّن من تضييق الخناق عليها.

---

(١) سَرُوج: بلدة في أعمال إقليم الجزيرة قريبة من حرّان (ياقوت. معجم البلدان.- ج٣، ص٢١٦).

(٢) ابن القلانسي، تاريخ دمشق.- ص٤٤٩ـ٤٥٠؛ ابن الأثير. الكامل.- ج٩، ص١٤، الباهر.- ص٨٥ـ٨٧؛ أبوشامة. المصدر السابق.- ج١، ق١، ص١٢٠ـ١٢١، ١٢٥ـ١٢٦.

(٣) يضيق المجال هنا عن سرد المواجهات التي تمت بين نور الدين محمود وبين الصليبيين ولكن أشهرها: صده للهجوم الذي قام به ريموند دي بواتييه صاحب إنطاكية على أعمال حلب سنة ٥٤١هـ (١١٤٦م). (أبوشامة. المصدر السابق.- ج١، ق١، ص١٢٣ـ١٢٤)، وإفشاله الحملة الصليبية الثانية سنة ٥٤٣هـ (١١٤٨م) (ابن القلانسي. المصدر السابق.- ص٤٦٦ـ٤٦٧).

(٤) ابن القلانسي. المصدر نفسه.- ص٥٠٤ـ٥٠٥؛ ابن الأثير. الكامل.- ج٩، ص٤٥ـ٤٦.

وإذا كان نور الدين محمود قد - تحمّل بحكم الموقع الجغرافي لدولته - مهمة الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين في بلاد الشام بالإضافة إلى توحيد الجبهة الإسلاميّة، فإن موقع دولة أخيه سيف الدين غازي لا يقل في أهميته عن ذلك، فقد تحمّل سيف الدين غازي (٥٤١ـ٥٤٤هـ/١١٤٦ـ١١٤٩م) عبء مواجهة القوات المتطلعة للوثوب على شرقي المملكة الزنكية التي ورثها هو وأخوه عن والدهما، كالأكراد المقيمين حول الموصل، والأراتقة في مَارِدِين، وحِصْن كَيْفَا،[1] ويمكن القول إن هذا التقسيم لدولة عماد الدين زنكي قد أتاح لنور الدين محمود في الشام، وسيف الدين غازي في الموصل في أن يتخصص كل منهما في دورٍ استطاع به الحفاظ على كيان الدولة، فسيف الدين غازي ورث عن والده الحروب والمشاكل الواقعة في الجزيرة مع الأراتقة والأكراد، بينما استطاع نور الدين محمود أن يُركز جهوده في جهاد الصليبيين إضافة إلى توسيع مملكته على حساب الإمارات الصليبية، والقوى الإسلاميّة المتداعية في المنطقة. وقد كانت هناك علاقات وثيقة بين أتابكية الموصل وأتابكية الشام نظرًا للروابط الأسرية التي تحكم الأتابكتيين، وقد بدأت تلك العلاقات تظهر بين الملك نور الدين محمود وأخيه سيف الدين غازي صاحب الموصل بعد وفاة والدهما، ثم بين نور الدين والملوك الذي توالوا على حكم الموصل من أسرة زنكي، وهي علاقات ودّية تقوم على التعاون والدفاع المشترك إلا في بعض الفترات القصيرة التي كان يتعكر فيها صفو هذه العلاقات بحدوث بعض التوتر الذي لا يلبث أن يتلاشى ويزول ويسود بينهما الاتفاق والألفة من جديد.

وكان من مظاهر التعاون بين الأخوين (سيف الدين - ونور الدين) اشتراك عساكر الموصل جنبًا إلى جنب مع عساكر الشام في الجهاد ضد الصليبيين، وذلك في الدفاع عن

---

(١) ابن القلانسي. المصدر السابق.- ص٤٦٦ـ٤٦٧؛ ابن الأثير. الكامل.- ج٩، ص٢٠ـ٢١؛ سبط ابن الجوزي. مرآة الزمان.- ج٨، ق١، ص١٩٧ـ١٩٨؛ أبوشامة. كتاب الروضتين.- ج١، ق١، ص١٣٧ـ١٣٨.

دمشق ضد الصليبيين الذين حاصرت قواتهم المدينة في الحملة الصليبيّة الثانية عام ٥٤٣هـ (١١٤٨م)، ونجاحهم في حمل الصليبيين على الرحيل عن دمشق[١] ومن مظاهر التعاون أيضًا، اشتراك عساكر الموصل مع عساكر نور الدين في فتح حصن العُريمة[٢] وطرد الصليبيين منه،[٣] كما كان من مظاهر التعاون بين الأخوين اشتراك عساكر الموصل مع قوات حلب في هزيمة الصليبيين في إنّب،[٤] وفي فتح أفامِية[٥] سنة ٥٤٤هـ (١١٤٩م).[٦]

على أي حال فإنه لم يطل العهد بسيف الدين غازي إذ لم يلبث أن توفي بالموصل في جمادى الآخرة من سنة ٥٤٤هـ (١١٤٩م) بعد أن حكم الموصل ثلاث سنين وشهرًا وعشرين يومًا ودفن بالمدرسة التي بناها بالموصل فاتفق الوزير جمال الدين الأصفهاني وزين الدين علي كُجك أمير الجيش على أن يخلف قطب الدين أخاه على الموصل، فأحضراه، وحلفا له الأمراء والعساكر في الموصل، وتسلّم جميع ما لأخيه سيف الدين غازي من البلاد التابعة للموصل.[٧]

---

(١) العُريمة: إحدى قلاع الساحل السوري، تربض فوق جرف يتاخم السهل العريض الذي يجتازه النهر الكبير، وتتحكم في مداخل وادي نهر الأبرش (قولفغانغ مولّر ـ فيز. القلاع أيام الحروب الصليبية، ترجمة محمّد وليد الجلاد.- ط٢.- دمشق: دار الفكر، ١٤٠٤هـ /١٩٨٤م.- ص٦٥).

(٢) ابن القلانسي، المصدر السابق.- ص ٤٦٧ ؛ ابن الأثير. الكامل.- ج٩، ص٢١.

(٣) إنّب: حصن من أعمال عزاز من نواحي حلب (ياقوت. معجم البلدان.- ج١، ص٢٥٨).

(٤) أفامِية: مدينة حصينة من سواحل الشام، وكورة من كور حمص، ويسميها بعضهم فامية بدون همزة (ياقوت. المصدر نفسه.- ج١، ص٢٢٧).

(٥) ابن القلانسي. المصدر السابق.- ص٤٧٤ ؛ أبوشامة. المصدر السابق.- ج، ق١، ص١٥٩ـ ١٦٠.

(٦) ابن الأثير. الكامل.- ج٩، ص٢٣، الباهر.- ص٩٢ ؛ سبط ابن الجوزي، المصدر السابق.- ج ٨، ق١، ص٢٠٤ ؛ أبوشامة. المصدر السابق.- ج١، ق١، ص١٦٧ـ١٦٨.

(٧) ابن الأثير. الباهر.- ص٩٤ ؛ سبط ابن الجوزي.مرآة الزمان.- ج٨، ق١، ص٢٠٤ ؛ ابن العديم. زبدة الحلب.- ج٢، ص٢٩٦ ؛ أبوشامة. كتاب الروضتين.- ج١، ق١، ص١٧٠.

وقد تعرضت العلاقات بين الموصل والشام في بداية حكم قطب الدين مودود لأزمة خطيرة كادت تؤدي إلى اندلاع الحرب بين الأخوين لولا أن قطب الدين تدارك الأمر ووضع حدًا لنزاعه مع أخيه نور الدين، وتعود أسباب هذه الأزمة إلى أن بعض الأمراء في الموصل وأعمالها وعلى رأسهم المقدم عبدالملك والد شمس الدين محمّد[1] صاحب سِنجَار، راسلوا نور الدين ليتسلم البلاد بعد وفاة سيف الدين باعتباره أكبر سنًا من أخيه قطب الدين.[2] ويضيف ابن الأثير سببًا آخر دفع هؤلاء الأمراء إلى استدعاء نور الدين هو: كراهيتهم وحسدهم للوزير جمال الدين ولأمير الجيش زين الدين على كجك للمكانة التي كانا يتمتعان بها في الموصل.[3]

وقد لقيت هذه البادرة قبولاً طيبًا عند نور الدين، وطمع في ضم بلاد الجزيرة والموصل تحت ملكه ليتحقق له توحيد الجبهة الإسلاميّة في ظل قيادة موحدة وباعتباره الوريث الشرعي لملك أخيه سيف الدين، فجدّ نور الدين في السير وقطع الفرات متجهًا إلى سنجار فاستولى عليها،[4] وكان رد الفعل عنيفًا في الموصل بعد دخول نور الدين سنجار، إذ انزعج قطب الدين وأمراؤه المخلصون، وعدّوا ذلك اعتداءً مباشرًا عليهم على اعتبار أن سنجار تابعة لهم، فتجهز قطب الدين وخرج بعساكره نحو سنجار، فنزل

(١) هو المقدم عزالدين عبدالملك والد شمس الدين محمّد، كان مستحفظًا بسنجار في أيام الملك عماد الدين زنكي، وابنه سيف الدين غازي، وهو الذي سلمها لنور الدين محمود سنة ٥٤٤هـ (١١٤٩م)، وكان له منزلة عالية عند نور الدين وقد أنشأ المدرسة المقدمية الحنيفة بحلب سنة ٥٦٤هـ (١١٦٨م) ولم تعلم سنة وفاته (ابن العديم. المصدر السابق.- ج٢، ص٢٩٦-٢٩٨).

(٢) ابن الأثير. الكامل.- ج٩، ص٢٤، الباهر.- ص٩٥؛ أبوشامة. المصدر السابق.- ج١، ق١، ص١٧٢؛ ابن العديم. المصدر السابق.- ج٢، ص٢٩٦.

(٣) الباهر.- ص٩٥.

(٤) ابن الأثير. الكامل.- ج٩، ص٢٤، الباهر.- ص٩٥-٩٦؛ أبوشامة. المصدر السابق.- ج١، ق١، ص١٧٢-١٧٣؛ ابن العديم. المصدر السابق.- ص٢٩٦-٢٩٧.

بتَل يَعْفر، [1] وأرسل جمال الدين الوزير، وزين الدين كجك أمير الجيش إلى نور الدين كتابًا ينكران عليه إقدامه على أخذ سنجار واعتدائه على أملاك أخيه قطب الدين مودود، وهدداه بقصده إن هو لم يرحل عن البلد، ولكن نور الدين لم يلتفت لتهديدهما له وردّ عليهما بقوله: " إنني أنا الأكبر، وإني أحق أن أدبر أمر أخي منكم، وما جئت إلا لمّا تتابعت إليّ كتب الأمراء يذكرون كراهيتهم لولايتكما عليهم، فخفت أن يحملهم الغيظ والأنفة على إخراج الأمر عن أيدينا. وأما تهديدكم إيايّ بالحرب والقتال، فأنا لا أقاتلكم إلا بجندكم" [2] أدرك الوزير جمال الدين محمّد، وزين الدين على ما ينطوي عليه هذا الرد من أخطار فأشارا على قطب الدين مودود بمصالحة أخيه والتنازل عن بعض المواقع في الشام والتي كانت تتبع الموصل مثل حمص، والرحبة والرّقّة، [3] مقابل انسحاب نور الدين من سنجار والعودة إلى حلب، فوافقهما قطب الدين، وتمّ الاتفاق بين الأخوين وانسحب نور الدين من سنجار محملاً بالكنوز التي كانت بخزائن سنجار من أيام أبيه. [4]

وقد بلغت العلاقات بين الأخوين درجة من التحسن جعلت نور الدين يقدم في عام ٥٥٤هـ (١١٥٩م) على اختيار قطب الدين ليخلفه في حكم بلاده عندما أحسّ بضعفه ومرضه، وقد أنفذ نور الدين إلى أخيه قطب الدين وفدًا يخبره بالموقف وباتفاق الأمراء على توليته العهد بعده، وطلب إليه الحضور بعساكره إلى الشام، فلما خرج قطب الدين

---

(١) تَل يَعْفَر: ويقال أعفر، ويقال: إن أصله التل الأعفر للونه، وهو اسم قلعة وربض بين سنجار والموصل في وسط واد فيه نهر جارٍ (ياقوت. معجم البلدان.- ج٢، ص٣٩).

(٢) ابن الأثير. الباهر.- ص٩٦.

(٣) الرّقة: مدينة مشهورة على الفرات، بينها وبين حرّان مسيرة ثلاثة أيام، وتُعد من أعمال الجزيرة. (ياقوت. المصدر السابق.- ج٣، ص٥٨-٥٩).

(٤) ابن الأثير. الكامل.- ج٩، ص٢٤، الباهر.- ص٩٦-٩٧؛ أبوشامة. كتاب الروضتين.- ج١، ق١، ص١٧٣-١٧٤.

مودود على رأس جيشه من الموصل، وصلته الأخبار بتحسن صحة أخيه نور الدين وقيامه من مرضه، فأقام قطب الدين حيث هو، وأرسل وزيره جمال الدين محمّد لمقابلة نور الدين محمود والوقوف على تطورات الموقف هناك، فوصل الوزير دمشق في صفر سنة ٥٥٤هـ (١١٥٩م) واجتمع بنور الدين وأبلغه استعداد قطب الدين، ووضع إمكانياته في خدمته، فشكره نور الدين على ذلك، وعبّر له عن شكره لمشاعر أخيه قطب الدين مودود.[١]

بعد ذلك سار نور الدين محمود إلى حرّان وانتزعها من أخيه نصرة الدين أمير أميران لمحاولته الاستيلاء على حلب أثناء مرضه، واقطع حرّان إلى زين الدين علي نائب أخيه قطب الدين في الموصل، وفوَّض إليه تدبير أمورها.[٢]

وفي سنة ٥٥٩هـ (١١٦٤م) اشتركت عساكر الموصل إلى جانب عساكر نور الدين في فتح حصن حَارِم وانتزاعه من الصليبيين بعد معركة قوية انتهت بهزيمة قاسية للصليبيين، وقتل بضعة آلاف من فرسانهم، وأسّر مُعظم أمرائهم.[٣]

وفي شوال من سنة ٥٦٥هـ (١١٧٠م) توفي الملك قطب الدين مودود بن عماد الدين زنكي[٤] وانتهت بوفاته صفحة مجيدة من تاريخ العلاقات القوية بين أتابكيتي الشام والموصل. والتي تُمثل إحدى فترات القوة التي عاشتها الدولة الزنكية، وحققت خلالها نجاحًا في الجهاد ضد القوى الصليبية بمشاركة عساكر الموصل والجزيرة جنبًا إلى جنب مع عساكر الشام.

---

(١) ابن القلانسي. تاريخ دمشق.- ٥٤٢-٥٤٣ ؛ أبوشامة. كتاب الروضتين.- ج١، ق١، ص٣٠٥-٣٠٦.

(٢) سبط ابن الجوزي. مرآة الزمان.- ج٨، ق١، ص٢٣٢ ؛ أبوشامة. المصدر السابق.- ج١، ق١، ص٣٠٨-٣٠٩.

(٣) ابن الأثير. الباهر.- ص١٢٢-١٢٣ ؛ ابن العديم. زبدة الحلب.- ج٢، ص٣١٩-٣٢٠ ؛ ابن واصل. مفرج الكروب.- ج١، ص١٤٣-١٤٤.

(٤) ابن الأثير. المصدر السابق.- ص١٤٦ ؛ ابن العديم. المصدر السابق.- ج٣، ص٣٣١.

وكان قطب الدين قد أوصى قبل وفاته بالملك من بعده لولده الأكبر عماد الدين زنكي الثاني إلا أن فخر الدين عبدالمسيح [١] نائب قطب الدين استطاع بالاتفاق مع الخاتون ابنه حسام الدين تُمرتَاش، وزوجة قطب الدين أن يحول دون تولية عماد الدين الثاني وأخذ العهد لولدها سيف الدين غازي الثاني، [٢] وكان لهذا الحدث نتائج سياسية مهمة على الدولة الزنكية أدت إلى خضوع الموصل لنفوذ نور الدين محمود مباشرة فضلاً عن انكماش رقعتها بسبب اقتطاع بعض أملاكها في الجزيرة، ذلك أن عماد الدين زنكي الثاني ابن قطب الدين مودود قدم إلى عمه نور الدين الدين محمود شاكيًا له ومستنصرًا به ليعينه على أخذ الملك لنفسه باعتباره أحق بالولاية من أخيه سيف الدين غازي الثاني وكان نور الدين قد بلغه خبر وفاة أخيه قطب الدين وتحكم فخر الدين عبدالمسيح عليه فأنف لذلك وكبر لديه، وكان يكره فخر الدين لما يبلغه من خشونته على الرعية، فقال: "أنا أولى بتدبير بني أخي وملكهم". [٣] فخرج الملك نور الدين في قلّة من الجند وعبر الفرات عند قلعة جَعبَر في محرم من سنة ٥٦٦هـ (١١٧٠م) وقصد الرّقة فتسلمها من نائبها، ثم تابع تقدمه نحو الموصل فاستولى على الخابور جميعه، وأخذ نصيبين، ثم سار إلى سنجار فحاصرها حتى تسلمها وأعطاها إلى ابن أخيه عماد الدين زنكي الثاني الذي كان يرافقه في هذه الغزوة. [٤]

---

(١) فخر الدين عبدالمسيح: مملوك قطب الدين مودود بالموصل، استنابه بالقلعة بعد مفارقة زين الدين علي كجك، سنة ٥٦٣هـ (١١٦٧م) وقد سلك فخر الدين طريقًا غير طريق زين الدين فكرهه الناس وذموه، فلم تطل أيامه وعزله نور الدين محمود سنة ٥٦٦هـ (١١٧١م) واصطحبه معه إلى الشام وغيّر اسمه إلى عبدالله وأقطعه إقطاعًا كثيرًا (ابن الأثير. التاريخ الباهر.- ص١٣٦، ١٥٤).

(٢) الباهر.- ص١٤٦؛ ابن العديم. زبدة الحلب.- ج٢، ص٣٣١؛ أبوشامة. كتاب الروضتين.- ج١، ق ١، ص٤٧٢.

(٣) ابن الأثير. المصدر السابق.- ص١٥٢؛ أبوشامة. المصدر السابق.- ج١، ق١، ص٤٧٥.

(٤) ابن الأثير. المصدر السابق.- ص١٥٢-١٥٣؛ ابن العديم. المصدر السابق.- ج٢، ص٣٣٢؛ أبوشامة. المصدر السابق.- ج١، ق٢، ص٤٧٥-٤٧٦؛ ابن واصل. مفرج الكروب.- ج١، ص١٩١.

وأثناء حصار نور الدين لسنجار وصلته خلعة الخليفة العباسي المُستضيء بأمر الله (٥٦٦هـ - ٥٧٥هـ/١١٧٠ - ١١٧٩م) والأذن له بدخول الجزيرة والموصل. وكان نور الدين قد أرسل إلى بغداد رسولاً يوضح للخليفة الهدف من قصد بلاد الموصل مؤكدًا شرعيته في ذلك،[١] وبعد أن انتهى نور الدين من أمر سنجار سار بجيشه نحو الموصل الهدف الأصلي من هذه الحملة، وواصل سيره حتى دخل الموصل في جمادى الأولى سنة ٥٦٦هـ من أحد أبواب قلعتها، فأقرّ سيف الدين على الموصل وجزيرة ابن عمر، وولى مملوكه سعد الدين كُمُشتِكِين[٢] نائبًا عنه في القلعة، وقام نور الدين أثناء إقامته في الموصل بإبطال المكوس من البلاد وأمر ببناء الجامع النوري، وأقطع نصيبين والخابور لأمراء عسكره، وعاد إلى الشام ومعه فخر الدين عبدالمسيح فغير اسمه وسمّاه (عبدالله) وأقطعه إقطاعًا كثيرًا.[٣]

وبذلك خسرت الموصل نفوذها في سنجار التي تولاها عماد الدين زنكي الثاني، وقامت فيها أتابكية مستقلة، كما خسرت الموصل نصيبين والخابور حيث أقطعهما نور الدين لأمراء عسكره، كما خضعت الموصل نفسها مباشرًا لنور الدين، وأصبح سيف الدين مجرد حاكم تابع يعمل تحت إشراف سعد الدين كُمُشتِكِين، وأُعلنت الخطبة في جميع مساجد الموصل وأعمالها لنور الدين وضُربت السكّة باسمه.[٤]

(١) أبوشامة. كتاب الروضتين.- ج١، ق٢، ص٤٧٨.

(٢) سعد الدين كُمُشتكين: ويُسمى الخادم مولى بنت الأتابك عماد الدين، وكان مقدمًا في دولة نور الدين محمود، تولى لديه العديد من المهام، كان آخرها نيابة القلعة بالموصل، وكان قد هرب من الموصل إلى حلب بعد أن سمع بموت نور الدين فأقطعه الملك الصالح قلعة حارم، وكان قد شاع خبر خيانته وتعاطفه مع الفرنج وعزمه على تسليم حارم لهم، فقبض عليه الملك الصالح في شهر ربيع الأول سنة ٥٧٣هـ (١١٧٧م) وأمر بتعذيبه، وخنق في نهاية الأمر بوتر. (ابن العديم. زبدة الحلب.- ج٢، ص١١، ص٣٤-٣٥).

(٣) ابن الأثير. التاريخ الباهر.- ص١٥٣-١٥٤ ؛ أبوشامة. المصدر السابق.- ج١، ق٢، ص٤٧٨.

(٤) وجد اسم نور الدين على الدينار الأتابكي في عصر سيف الدين غازي الثاني إلى جانب الخليفة العباسي المستضيء (محمّد باقر الحسيني. العملة الإسلاميّة في العهد الأتابكي.-بغداد: ١٩٦٦م، ص٤٧).

وفي سنة ٥٦٤هـ (١١٦٩م) تمكنت جيوش نورا لدين من دخول مصر، ومن ثم إسقاط الدولة الفاطمية فيها، وخطب فيها للخليفة العباسي المستضيئ في محرم من سنة ٥٦٧هـ (١١٧١م).[(١)] وفي سنة ٥٦٨هـ (١١٧٢م) أرسل نور الدين محمود رسولاً إلى الخليفة العباسي يطلب تقليده بما في يده من البلاد، ومنها بلاد مصر، والشام، والجزيرة، والموصل، والبلاد التي دخلت في طاعته كديار بكر وما يجاورها من البلاد، فوافق الخليفة المستضيئ على ذلك وأرسل له التقليد بحكم هذه البلاد جميعًا.[(٢)]

وفي الحادي عشر من شوال سنة ٥٦٩هـ (١١٧٤م) تُوفي الملك نور الدين محمود بدمشق إثر مرض ألمّ به[(٣)] وبوفاته فقد المسلمون قائدًا قويًا قام بدور بارز في بناء الجبهة الإسلاميّة، وفي الجهاد ضد الصليبيين في المنطقة، ومن الملاحظ أنه على الرغم من الجهود الكبيرة التي بذلها نور الدين محمود في سبيل توحيد الجبهة الإسلاميّة تحت قيادته، ومواجهاته المستمرة للعدوان الصليبي في المنطقة، فإن ذلك لم يشغله عن الاهتمام بالأمور الحضارية لدولته بل صرف كثيرًا من جهده في السعي لتعزيز المذهب السني في بلاده، عن طريق بناء المساجد والمدارس، وحبس الأوقاف اللازمة لها، كما اهتم بعمارة الأبراج والخانات في الطرق، وبناء الأسوار فأمنت دولته وعمّ الازدهار فيها كافة ميادين الحياة.[(٤)]

---

(١) ابن الأثير. الكامل.- ج٩، ص١١١ ـ ١١٢؛ أبوشامة. كتاب الروضتين.- ج١، ق٢، ص٤٩٢ ـ ٤٩٣.

(٢) ابن الأثير. المصدر السابق.- ج٩، ص١٢١ ـ ١٢٢؛ ابن خلدون. تاريخ ابن خلدون الموسوم بـ العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر.- بيروت: مؤسسة الأعلمي، ١٣٩١هـ (١٩٧١م). ج٥، ص٢٥٢ـ٢٥٣.

(٣) ابن الأثير. الباهر.- ص١٦١؛ ابن العديم. زبدة الحلب.- ج٢، ص٣٤٠؛ أبوشامة. المصدر السابق.- ج١، ق٢، ص٥٨٣؛ ابن قاضي شهبة، محمد بن أبي بكر بن أحمد بدر الدين الدمشقي (ت ٨٧٤ هـ/ ١٤٧٠م).- الكواكب الدُّرّية في السيرة النورية، تحقيق، محمود زايد.- بيروت: دار الكتاب الجديد، (١٩٧١م).- ص٢٢٨.

(٤) ابن الأثير. الباهر.- ص١٦١؛ أبوشامة. المصدر السابق.- ج١، ق١، ص٢٠ ـ ٢٣.

وكانت تلك المدة التي أعقبت مقتل عماد الدين زنكي حتى وفاة ابنه نور الدين محمود والتي امتدت من سنة ٥٤١هـ (١١٤٦م) حتى سنة ٥٦٩هـ (١١٧٤م) تُمثل فترة قوة الدولة الزنكية، ومشاركاتها السياسية والحضارية البارزة على الساحة الإسلاميّة، بفضل ما قيّضه الله لهذه الدولة من قيادات تمثلت في شخص نور الدين محمود في بلاد الشام وأخويه سيف الدين غازي وقطب الدين مودود في الموصل وبلاد الجزيرة.

٣ ـ ضعف الدولة الزنكية وسقوطها:

بدأ الضعف والانقسام يدب في جسم الدولة الزنكية عقب وفاة الملك نور الدين محمود، وأخذت تلك الدولة تفتقد بعض أركانها شيئًا فشيئًا حتى سقطت في نهاية الأمر.

أما في بلاد الشام فقد اضطربت الأوضاع بعد وفاة نور الدين، واتفق أمراء دمشق على تولية ابنه الملك الصالح إسماعيل الذي لم يكن قد بلغ الحادية عشرة من عمره بعد،[١] وكان صلاح الدين الأيوبي غداة وفاة نور الدين يتولى أمر مصر، وكان تحت إمرته عدد كبير من العساكر، فلما وصلت أخبار وفاة نور الدين، وإجماع الأمراء على بيعة ابنه الصالح إسماعيل، واستئثارهم بالسلطة في دمشق، قرّر الخروج إلى دمشق وتولي الوصاية على الملك الصالح لأحقيته بذلك وقدرته على حماية بلاد المسلمين من أخطار الصليبيين،[٢] وفي أواخر ذي الحجة سنة ٥٦٩هـ (١١٧٤م) غادر الملك الصالح إسماعيل دمشق قاصدًا حلب للحفاظ على مملكة أبيه،[٣] وقد استغل صلاح الدين هذه الفرصة وتقدم إلى الشام في ربيع الأول سنة ٥٧٠هـ (١١٧٤م) وتمكّن في الشهر نفسه من دخول دمشق والسيطرة عليها.[٤]

---

(١) ابن الأثير. الكامل.- ج٩، ص١٢٦؛ أبوشامة. المصدر نفسه.- ج١، ق٢، ص٥٨٥؛ أبو الفداء. المختصر.- ج٣، ص٥٥.

(٢) ابن العديم. زبدة الحلب.- ج٣، ص١٣؛ أبوشامة. المصدر السابق.- ج١، ق٢، ص٥٩٠.

(٣) أبوشامة. المصدر السابق.- ج١، ق١، ص٥٩٢؛ ابن واصل. مفرج الكروب.- ج٢، ص١٠.

(٤) ابن الأثير. الكامل.- ج٩، ص١٣٠-١٣١؛ ابن شداد، يوسف بن رافع تميم الأسدي - أبو المحاسن بهاء الدين (ت ٦٣٢هـ/١٢٣٤م). النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، تحقيق، جمال الدين الشيال.- القاهرة: الدار المصرية للتأليف والترجمة، (١٩٦٤م).- ص٥٠.

وفي جمادى الأولى من السنة نفسها تقدم صلاح الدين إلى حمص وتسلمها دون قتال، غير أنه لم يتمكن من السيطرة على قلعتها، فغادر المدينة إلى حماة بعد أن ترك حامية لمحاصرة القلعة وقطع المؤن عنها،[1] ثم استولى على حماة ولكن قلعتها استعصت عليه أيضًا، ثم لم يلبث أن تسلمها، وتمت له السيطرة التامة على المدينة،[2] وقد واصل صلاح الدين السير بجيشه شمالاً حتى وصل حلب في جمادى الآخرة سنة ٥٧٠هـ (١١٧٤م) وحاصرها الحصار الأول، ولكنه لم يلبث أن فك الحصار بعد أن بلغه تقدم الصليبيين إلى حمص،[3] وقد تمكّن صلاح الدين من دخول حمص وإخضاع قلعتها التي استعصت عليه بادئ الأمر،[4] ثمّ اتجه بعد ذلك إلى بعلبك التي كان يتولاها أحد مماليك نور الدين فتسلّم منه المدينة دون قتال وذلك في شهر رمضان سنة ٥٧٠هـ (١١٧٥م)،[5] واستمر صلاح الدين في تقويض الدولة الزنكية في بلاد الشام إلى أن انحسر الملك الصالح في حلب المعقل الأخير للزنكيين في الشام بعد أن استولى صلاح الدين على معظمه، وفي العشرين من رجب سنة ٥٧٧هـ (١١٨١م) توفي الملك الصالح عن عمر يناهز التاسعة عشر عامًا، وحزن عليه أهالي حلب كثيرًا.[6]

وبعد وفاة الملك الصالح إسماعيل اتفق أمراء حلب على تسليمها لعز الدين مسعود صاحب الموصل (٥٧٦ ـ ٥٨٩هـ/١١٨٠ ـ ١١٩٣م) فقدم عز الدين مسعود وتسلم مدينة حلب في شعبان سنة ٥٧٧هـ (١١٨١م)،[7] وعادت الوحدة بين حلب والموصل

---

(١) ابن الأثير. الكامل.- ج٩، ص١٣١ ؛ أبوشامة. المصدر السابق.- ج١، ق٢، ص٦١٣.
(٢) ابن الأثير. المصدر السابق.- ج٩، ص١٣٢ ؛ ابن العديم. زبدة الحلب.- ج٣، ص٢١.
(٣) ابن الأثير. المصدر السابق.- ج٩، ص١٣٢ ؛ ابن واصل.مفرج الكروب.- ج٢، ص٢٨-٢٩.
(٤) ابن الأثير. المصدر السابق، ج٩،- ص١٣٢ ؛ ابن العديم. زبدة الحلب.- ج٣، ص٢٢.
(٥) ابن الأثير. الكامل.- ج٩، ص١٣٢ ؛ أبوشامة. المصدر السابق.- ج١، ق٢، ص٦٣١.
(٦) ابن العديم. زبدة الحلب.- ج٣، ص٤٠-٤٣ ؛ ابن شداد : النوادر السلطانية، ص٥٥.
(٧) ابن الأثير. الباهر.- ص١٨٢ ؛ ابن شداد : المصدر السابق.- ص٥٥.

من جديد، ولكن عز الدين مسعود واجه مشكلة من جانب أخيه عماد الدين زنكي الثاني صاحب سنجار (٥٦٦هـ ـ ٥٩٤هـ/١١٧٠ ـ ١١٩٧م) الذي كان يرى أنه أحق بملك حلب بعد وفاة الملك الصالح، لذا بادر عز الدين بالتنازل له عن حلب وأبدى استعداده للتخلي عن سنجار مقابل ذلك، ولما رفض عز الدين هذا العرض هدده عماد الدين بتسليم سنجار لصلاح الدين.[١] وأمام هذا التهديد تراجع عز الدين عن تمسكه بحلب، وعقد اتفاقًا مع أخيه يقضي بأن تكون حلب وأعمالها لعماد الدين، مقابل أن يتنازل عن سنجار وأعمالها لأخيه عز الدين، وأن يكون التعاون بينهما مستمرًا.[٢] ولم تطل مدة حكم عماد الدين لحلب إذ تقدم لها صلاح الدين الأيوبي في محرم سنة ٥٧٩هـ (١١٨٣م) وشدد حصاره لها حتى استولى عليها في صفر من السنة نفسها ودخل قلعتها.[٣] وبذلك تمّ لصلاح الدين تصفية الحكم الزنكي من بلاد الشام وحصره في بلاد الموصل والجزيرة.

أما أتابكيتي سنجار والموصل فقد أقتطع السلطان صلاح الدين الأيوبي كثيرًا من أملاكهما قبل استيلائه على حلب، حيث أعلن أهالي حران سنة ٥٧٨هـ (١١٨٢م) ولاءهم لصلاح الدين، وكانوا تابعين قبل ذلك لعز الدين مسعود صاحب الموصل[٤]، وكان صلاح الدين يومئذٍ محاصرًا لحلب، فرحل عنها، وعبر الفرات، واستولى على بعض مدن الجزيرة، ومنها الرّها، والرّقة، ونصيبين، وسنجَار[٥]، ثم سار إلى الموصل

(١) ابن الأثير. الباهر.- ص١٨٣ ؛ ابن واصل.مفرج الكروب.- ج٢، ص١٠٩.
(٢) ابن شداد: النوادر السلطانية، ص٥٥-٥٦ ؛ ابن العديم. المصدر السابق.- ج٣، ص٥٢.
(٣) ابن الأثير. الكامل.- ج٩، ص١٦٢-١٦٣ ؛ ابن العديم. المصدر السابق.- ج٣، ص٦٩ ؛ ابن واصل. المصدر السابق.- ج٢، ص١٤٤.
(٤) ابن شداد: المصدر السابق.- ص٥٦ ؛ ابن واصل. المصدر السابق.- ج٢، ص١١٦.
(٥) ابن العديم. المصدر السابق.- ج٣، ص٥٨ ؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٢، ص٣١١.

وحاصرها، ولكنه رحل عنها دون نتيجة تذكر[1] وفي حصار صلاح الدين الأخير لمدينة حلب (٥٧٩هـ/١١٨٣م) تفاوض مع صاحبها عماد الدين زنكي في أمر تسليم حلب مقابل أن يتنازل له صلاح الدين عن سنجار والخابور والرقة ونصيبين وسروج، وتمّ الاتفاق بين الطرفين على ذلك.[2]

وقد حكم عماد الدين زنكي الثاني ابن مودود أتابكية سنجار حتى وفاته سنة ٥٩٤هـ (١١٩٧م)، [3] ثم تولى الحكم من بعده قطب الدين محمّد بن زنكي الثاني حتى توفي سنة ٦١٦هـ (١٢١٩م).[4] وبعد وفاته حدث في سنجار نزاع بين أفراد البيت الزنكي حول الحكم مما عرّض هذه الأتابكية لاضطرابات داخلية، فلم يكد يتولى عماد الدين شاهِنشَاه بن محمّد الحكم حتى نازعه أخوه عمر، ثم عمل على التخلص منه وخلفه، غير أنه مالبث أن أضطر إلى تسليم سنجار إلى الملك الأشرف ابن الملك العادل الأيوبي سنة ٦١٧هـ (١٢٢٠م) وعوّضه عنها الرّقه. لكنه لم يستمر طويلاً في حكمها فقد انتزعها منه الأيوبيون أيضًا.[5]

---

(١) ابن الأثير. الكامل.- ج٩، ص١٥٧؛ ابن واصل. المصدر السابق.- ج٢، ص١٢٢.

(٢) ابن الأثير. المصدر نفسه.- ج٩، ص١٦٣؛ ابن العديم. زبدة الحلب.- ج٣، ص٦٦.

(٣) ابن الأثير. نفسه.- ج٩، ص٢٣٩؛ سبط ابن الجوزي. مرآة الزمان.- ج٨، ق٢، ص٤٥٧.

(٤) سبط ابن الجوزي. المصدر نفسه.- ج٨، ق٢، ص٦٠٧-٦٠٨؛ العيني، بدر الدين أبو محمود ابن أحمد بن موسى، (ت ٨٥٥هـ/١٤٥١م). عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان.- ج١٣، (مخطوط) ميكروفيلم بالمكتبة المركزية بجامعة الإمام محمّد بن سعود الإسلاميّة بالرياض رقم (٨٤٠ف) مصور لمخطوط مكتبة ولي الدين باستانبول رقم (٢٣٩٠).- ص٣٩٩.

(٥) ابن الأثير. الكامل.- ج٩، ص٣٢٨؛ سبط ابن الجوزي. المصدر السابق.- ج٨، ق٢، ص ٦٠٨-٦٠٩.

أمـا في الموصـل فقد تُوفي عـز الدين مسعـود بن قطـب الدين مودود سنة ٥٨٩هـ (١١٩٣م) وكـان قـد أوصـى بملك الموصـل مـن بعـده لولـده نـور الدين أرسلان شاه[١] الـذي استمر في حكـم الموصـل حتى سنة ٦٠٧هـ (١٢١٠م)، وكان قد عهد بالحكم من بعـده إلى ابنه عز الدين مسعود الثاني،[٢] وأسند إلى الأمير بدر الدين لؤلؤ[٣] تدبير مقاليد الحكم في أتابكية الموصل.[٤]

ويمكـن القـول إنـه منـذ وفـاة الملك نـور الديـن أرسـلان شـاه سنة ٦٠٧هـ (١٢١٠م)، ومجيء ابنـه الملك القاهر عز الدين مسعود كانت السلطة الفعلية لبدر الدين لؤلـؤ، وفي سنة ٦١٥هـ (١٢١٨م) عند وفـاة الملك القاهر أقرّ حكم الموصل من الناحية الاسمية لولده نور الدين أرسلان وكان لا يتجاوز العاشرة من عمره، وجُعل بدر الدين لؤلـؤ مدبرًا لدولته بوصاية من والده، وكان بدر الدين لؤلؤ قد أرسل إلى الخليفة الناصر

---

(١) ابن الأثير. الباهر.- ص١٨٥ ـ ١٨٩ ؛ ابن واصل، مفرج الكروب.- ج٣، ص٢٠.

(٢) ابـن الأثير. الكـامل.- ج٩، ص٣٠٣ ـ ٣٠٤ ؛ الباهر.- ص١٩٧ ـ ٢٠١ ؛ سـبط ابـن الجوزي. المصدر السابق.- ج٨، ق٢، ص٥٤٦.

(٣) بـدر الديـن لؤلـؤ بـن عبدالله الأتابكي كان مملوكًا لصاحب الموصل نور الدين أرسلان شاه ابن عـز الديـن مسـعود، وحظـي بمـنزلة رفيعة لديه، وكان نور الدين بدر الدين المدبر لشؤون دولة الـزنكيين في الموصـل، ثـم استقل بملك الموصل تمامًا في سنة ٦٣١هـ (١٢٣٣م) وتلقب بالملك الـرحيم، وكـان وفاتـه سنة ٦٥٧هـ (١٢٥٩م)(الذهـبي، شمـس الديـن أبـو عـبدالله محمد بن أحمـد بـن عـثمان، ت ٧٤٨هـ/١٣٤٨م.- العبر في خبر من غبر، تحقيق وضبط، أبو هاجـر محمّد السعيـد بن البسيوني زغلـول.- بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤٠٥هـ (١٩٨٥م).- ج ٣، ص٢٨٦ ـ ٢٨٧، وسـيرته مشـهورة في كـثير مـن الكتب التي تناولت هذه الحقبة منها: ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٣، ص٢١٣ ؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٧، ص٧٠).

(٤) ابن الأثـير. الكامل.- ج٩، ص٣٠٥ ؛ سبط ابن الجوزي.مرآة الزمان.- ج٨، ق٢، ص٥٤٦ ؛ العيني عقد الجمان (مخطوط) ج١٣/ ٣٣٢.

لدين الله العباسي (٥٧٥ ـ ٦٢٢هـ/١١٧٩ ـ ١٢٢٥م) يطلب منه التقليد لنور الدين أرسلان شاه بالولاية وأن يقوم هو بالوصاية عليه ريثما يستطيع القيام بأعباء الحكم، وبعد أيام وصل التقليد من الخليفة وفيه التشريفات لهما،[1] ولم يلبث أن توفي الملك نور الدين سنة ٦١٦هـ (١٢١٩م) فتولى الحكم بعده أخوه ناصر الدين محمود، وكان طفلاً لا يتجاوز عمره السنة الثالثة، وكانت السلطة بيد بدر الدين لؤلؤ، وفي سنة ٦٣١هـ (١٢٣٣م) وضع بدر الدين لؤلؤ حدًا لحكم الزنكيين بالموصل إذ أعلن وفاة ناصر الدين محمود ابن الملك القاهر عز الدين مسعود،[2] ثم راسل بدر الدين لؤلؤ الخليفة المستنصر بالله العباسي (٦٣٢ ـ ٦٤٠هـ/١٢٢٦ ـ ١٢٤٢م) يطلب تقليده حكم الموصل وأعمالها، وقدّم له الهدايا الوافرة، فأقرّه الخليفة على ذلك، ولقّبه " الملك المسعود " وأذن له بذكر اسمه على المنابر، ونقشه على السكة.[3]

يقول ابن الوردي في حوادث سنة ٦٣١هـ (١٢٣٣م): " استقل بدر الدين لؤلؤ بملك الموصل، وتوفي الطفل الذي نصّبه - وهو ناصر الدين محمود ابن الملك القاهر مسعود - وتسمى لؤلؤ بالملك الرحيم، وعاضده الأشرف بن العادل (٦٢٦ ـ ٦٣٥هـ/١٢٢٨ ـ ١٢٣٧م)[4] وقلع لؤلؤ البيت الأتابكي بالكلية، وملك الموصل نيفًا

---

(١) ابن الأثير. الكامل.- ج٩، ص٣٢٠؛ ابن العبري. تاريخ مختصر الدول.- ص٢٣١.

(٢) ابن العبري. المصدر السابق.- ص٢٤٩؛ ابن كثير: المصدر السابق.- ج١٣، ص١٣٦؛ ابن تغري بردي. المصدر السابق.- ج٥، ص٢٥٧.

(٣) ابن الفوطي، كمال الدين أبو الفضل عبدالرزاق بن أحمد الشيباني (ت ٧٢٣هـ/١٣٢٣م). الحوادث الجامعة، والتجارب النافعة في المائة السابعة، تحقيق مصطفى جواد.- بغداد: المكتبة العربية، (١٣٥١هـ).- ص٥٢؛ الذهبي. العبر، ج٣، ص٢٠٩.

(٤) هو الملك الأشرف بن الملك العادل الأيوبي حكم دمشق سنة ٦٢٦هـ (١٢٢٨م) وتوفي فيها في بداية سنة ٦٣٥هـ (١٢٣٧م) بعد مرض ألم به، وحكم دمشق بعده أخوه الصالح إسماعيل (سبط ابن الجوزي.مرآة الزمان.- ج٨، ق٢، ص٧١١ ـ ٧١٦؛ الذهبي. العبر، ج٣، ص٢٢٢).

وأربعين سنة سوى تحكمه أيام أستاذه أرسلان شاه، وابنه القاهر".[1] وبذلك انقضت الدولة الزنكية، التي أنشأها الأتابك عماد الدين زنكي قبل نحو مئة وعشر سنوات، وكانت تلك الدولة قد بدأت من الموصل - القاعدة الأولى للحكم الزنكي - وامتدت لتشمل أقاليم الجزيرة، ودِيار بَكْر، ومنها جزيرة ابن عُمر، ونصيبين، وسِنجار، وقرى الخابُور، وحرَان، والرّها، ومن ثم امتد الحكم الزنكي ليشمل حلب وما جاورها من المدن والقرى الشامية أمثل منبج، وبُزَاعَة، وحَمَاة، وحَارِم، وحَمْص، وبعلبَك، ومن ثم دِمشق وأعمالها، وقد انقسمت الدولة الزنكيّة بعد وفاة مؤسسها عماد الدين زنكي سنة ٥٤١هـ (١١٤٦م) إلى قسمين كبيرين إحداهما في الموصل تحت حكم ابنه سيف الدين غازي والآخر في الشام تحت حكم ابنه الآخر نور الدين محمود، ثم تبعهما قسم آخر في سنجار تحت حكم عماد الدين زنكي الثاني سنة ٥٦٦هـ (١١٧٠م) وقد استمر الحكم الزنكي في الشام حتى انحسر عنها سنة ٥٧٩هـ (١١٨٣م) باستيلاء صلاح الدين الأيوبي على حلب في ذلك التاريخ، أما أتابكية سنجار فقد استمرت حتى سنة ٦١٧هـ (١٢٢٠م) حيث سلّمها حاكمها عمر بن محمّد بن زنكي الثاني للأيوبيين، أما أتابكيـة الموصل، فكانـت آخر معقل للزنكيين، وقد تمكن بدر الدين لؤلؤ سنة ٦٣١هـ (١٢٣٣م) من الاستقلال بملكها منهيًا الحكم الزنكي فيها.



(١) ابن الوردي، زين الدين عمر (ت ٧٤٩هـ/١٣٤٨م). تتمة المختصر في أخبار البشر، تحقيق، أحمد رفعت البدراوي.- بيروت: دار المعرفة، ١٣٨٩هـ (١٩٧٠م).- ج٢، ص٤٤.

الفصل الأول

عوامل نشاط الحياة العلمية في العهد الزَّنكي

١ـ تشجيع الزنكيين للعلم والعلماء.

٢ـ الحرص على نشر المذهب السني.

٣ـ استقرار الدولة وانتشار الأمن.

٤ـ الوجود الصليبي في المنطقـــة.

نشطت الحياة العلمية في مختلف المناطق التي خضعت للحكم الزنكي، وتعدد روافدها، حيث تمثلت في إنشاء العديد من دُوُر التعليم[1] التي تحملت مهمة تثقيف الناس وتعليمهم، كما دُرِّست فيها مختلف فُروع المعرفة[2] التي سادت في تلك العهد.

وكان من مظاهر ذلك النشاط بُروز العديد من الشخصيات العلمية التي أثْرَت المكتبة الإسلاميّة بالعديد من المؤلفات في مختلف ميادين العلوم، وفنونها.

وقد كان لذلك النشاط العلمي الذي شهدته الدولة الزنكية عوامل عدَّة ساعدت على بروزه وازدهاره، وتركت أثرها واضحًا في كافة مجالات الحياة في ذلك العهد، ولعل من أبرز تلك العوامل مايأتي:

١ـ تشجيع الزنكيين للعلم والعلماء:

يرجع الأتابكة الزَنكيُّون إلى أصول تركية كما سبقت الإشارة إليه[3]، ولكنهم نشأوا في بلاد عربية إسلاميّة، واعتنقوا دين أهلها، وتأدبوا بآدابهم، وتثقفوا بثقافتهم، فصاروا عربًا مسلمين في الثقافة والدين. وحرصوا على تشجيع العلم والعلماء في بلادهم، وتأثر بهم مماليكهم الذين تربوا على أيديهم، حيث نالت منهم الحياة العلمية في بلادهم مساندة وتشجيعًا حتى أن بعضهم كان من العلم والأدب بمكان.[4]

---

(١) تركز التعليم في العهد الزنكي في المساجد، والكتاتيب، والمدَارِس، ودُوُر الحديث، والخوانق والرُبُط، والبيمارستَانات، ومنازل العُلماء، ومجالس العلم، والمكتبات، وسيرد الحديث عنها في الفصل الثاني إن شاء الله.

(٢) كان من أبرز فروع المعرفة في ذلك العهد: العلوم الشرعية، والعلوم اللغوية والأدبية والعلوم التاريخية والجغرافية، والعلوم الرياضية والفلكية، والعلوم الطبية إلى غير ذلك من العلوم التي سيرد الحديث عنها وعن أبرز العلماء في كل فرع منها في الفصل الرابع إن شاء الله.

(٣) تمت الإشارة إلى ذلك في تمهيد الدراسة في الحديث عن أصل الزنكيين.

(٤) سعيد الديوه جي. الموصل في العهد الأتابكي.- بغداد: مطبعة شفيــق، ١٣٧٨هـ (١٩٥٨م).- ص٩٢.

وقد أجمعت المصادر[1] التي أرّخت لتلك الفترة على أن الروح السائدة في العهد الزنكي هي روح الثقافة وانتعاش حركة التعليم، وأن الحكام الزنكيين قد اهتموا بالعلم، وعملوا على تشجيعه في سائر البلاد التي حكموها، كما حرصوا على إكرام العلماء، وإحسان وفادتهم، والبذل لهم بسخاء حتى أنه لم يكن يضاهيهم ممن عاصرهم في هذه الناحية حكومة أخرى.

كما اهتم الزَنكيُّون بتشييد دور التعليم على اختلافها، وأوقفوا الأوقاف الغنيّة للصرف عليها وعلى المشتغلين بها، ليضمنوا استمرارها في أداء رسالتها، وقلّما يوجد حاكم زنكي، لم يشارك في تلك النهضة بتأسيس مدرسة أو معهد يقوم بمهمة نشر التعليم.[2]

ومما يلحظه الباحث أن الذين أقبلوا على تشجيع التعليم وإنشاء دوره المختلفة والصرف عليها كان لدى غالبيتهم ميلٌ شخصي للعلم والثقافة، فقرّبوا إليهم العلماء، وحضروا مجالسهم، وشاركوهم في أبحاثهم، واستدعوهم إلى قصورهم لمسامرتهم ومناقشتهم في كثير من مسائل العلوم، كما اعتمدوا عليهم في التشاور حول ما يدور في المنطقة من أحداث، ومن كان له مثل هذا الميل، فإنه ليس غريبًا منه أن يسهم بتشجيع العلم ويشارك بإنشاء دوره المختلفة ويُنفق عليها بما يضمن استمرارها.

وكان أبرز حكام الدولة الزنكية اهتمامًا بهذا الجانب الملك العادل نور الدين محمود ابن عماد الدين زنكي (٥٤١ـ٥٦٩هـ/١١٤٦ـ١١٧٤م) الذي كان يحكم بلاد الشام، وخُطب له في بعض فترات حكمه في كثير من البلاد الجزرية والموصل.

---

(١) من ابرز تلك المصادر: ابن الأثير. التاريخ الباهر ؛ سبط ابن الجوزي. مرآة الزمان ؛ ابن العديم. زبدة الحلب ؛ أبوشامة. كتاب الروضتين ؛ ابن واصل.مفرج الكروب.- وذلك في صفحات متعددة يصعب حصرها هنا.

(٢) سعيد الديوه جي. المرجع السابق.- ص٩٥ـ٩٦.

وقد وصفه ابن عساكر بأنه كان حريصًا على معرفة العلوم وفهمها، كثير المطالعة لها، مائلاً إلى نقلها، مواظبًا على قراءة كتب الصحاح والسنن.(١)

كما وصفه ابن الأثير بأنه على اطلاع ومعرفة بالفقه الحنفي من غير تعصب، كما كان مهتمًا بدراسة الحديث وفهمه،(٢) وبلغ من اهتمامه بهذا العلم أنه صنّف كتابًا في فضائل الجهاد وأحاديثه، وهو بدمشق،(٣) كما كان له إجازات عديدة في علم الحديث من عدد من الشيوخ.(٤)

وفي الموصل كان أخوه الملك سيف الدين غازي بن عماد الدين زنكي (٥٤١-٥٤٤هـ/١١٤٦-١١٤٩م) يكرم الشعراء، ويتذوق شعرهم، وكان قد قدم عليه الشاعر شهاب الدين الحَيْص بَيْص،(٥) وامتدحه بقصيدة قال في أولها:

إلمَ يراكَ المَجْدُ في زيٍّ شَاعرٍ وقد نَحلَت شَوقًا فُروعُ المَنابِر.(٦)

---

(١) ابن عساكر، الحافظ ثقة الدين أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله الشافعي (ت ٥٧١هـ/١١٧٦م). تاريخ دمشق، (مخطوط) صورة من نسخة المكتبة الظاهرية بدمشق، كُمّل نقصها من النسخ الأخرى في كل من القاهرة، ومراكش واستانبول، نشر مكتبة الدار بالمدينة المنورة (١٤٠٧).- ج١٦، ص٢٩٥.

(٢) التاريخ الباهر.- ص١٦٥.

(٣) سبط ابن الجوزي.مرآة الزمان.- ج٨، ق١، ص٣١٣.

(٤) ابن عساكر المصدر السابق.- ج١٦، ص٢٩٥.

(٥) هو أبو الفوارس سعد بن محمّد بن سعد بن صيفي التميمي الملقب: شهاب الدين، كان فقيهًا شافعي المذهب، إلا أنه غلب عليه الأدب، وكان من أعلم الناس بأشعار العرب، واختلاف لغاتهم، وكان لا يخاطب أحداً إلا بالكلام العربي، أخذ عنه الحافظ أبو سعد السمعاني وغيره في بغداد، كانت وفاته في بغداد في شعبان سنة ٥٧٤هـ (١١٧٩م) (ياقوت الحموي. معجم الأدباء المسمى (إرشاد الأريب على معرفة الأديب).- ط٢.- القاهرة: دار المأمون (د.ت).- ج ١١، ص١٩٩-٢٠١ ؛ ابن خلكان: وفيات الأعيان.- ج٢، ص٣٦٢-٣٦٥).

(٦) ابن الأثير. التاريخ الباهر.- ص٩٣، وهي قصيدة من البحر الكامل.

فأستحسنها سيف الدين، وجازاه بألف دينار سوى الإقامة بالموصل والصرف عليه مدة مقامه، وسوى الخلع والثياب من سائر الأنواع.(١)

كما كان من مظاهر الثقافة لدى الحكام الزنكيين ماكان يفعله الملك نور الدين أرسلان شاه بن عز الدين مسعود (٥٨٩-٦٠٧هـ/١١٩٣-١٢١٠م) من تقدير للعلماء، وحضور دروسهم، فقد كان يقيم محفلاً في المدرسة العزِيَّة بالموصل(٢) للشيخ الظَهِير الفَارِسي المتوفى سنة ٥٩٦هـ (١١٩٩م)(٣) ويحضر نور الدين نفسه دروس الفقه مع الشيخ ظهير الدين.(٤)

لذا كان اهتمام الملوك الزنكيين ومن تبعهم بإنشاء دُوُر التعليم المختلفة والصرف عليها وتشجيع العُلماء واستقدامهم من شتى بقاع العالم الإسلامي ومنحهم الضمانات الكافية لأداء رسالتهم على أكمل وجه.

وعندما يتعرف الباحث على جهود الزنكيين في هذا الجانب يجد أن أعمال الملك نور الدين محمود تأتي في الصدارة حتى أصبح قدوة لمن عاصره، أو جاء بعده من الملـــوك

---

(١) ابن الأثير. المصدر السابق.- ص٩٣-٩٤.

(٢) المدرسة العزّية من المدارس المشتركة بين الحنفية والشافعية أنشأها بالموصل الملك عزالدين مسعود بن قطب الدين مودود المتوفى سنة ٥٨٩هـ (١١٩٣م) (لمزيد من التفصيل أنظر البحث الخاص بهذه المدرسة في الفصل الخامس).

(٣) عبدالسلام بن محمود بن محمّد المعروف بالظهير الفارسي، كان إمامًا معتبرًا، قدم الموصل سنة ٥٩٤هـ (١١٩٧م)، فصادف من حاكمها نور الدين أرسلان شاه قبولاً حسنًا، وفوّض إليه تدريس الفريقين الشافعية والحنفية في المدرسة الأتابكية العتيقة، ثم عقد له محفلاً بالمدرسة العزية، ووعده ببناء مدرسة خاصة به، ولكن الشيخ ظهير الدين خرج إلى حلب، فمات بها سنة ٥٩٦هـ (١١٩٩م) (الأسنوي، جمال الدين عبدالرحيم الأسنوي، ت٧٧٢هـ/١٣٧٠م. طبقات الشافعية، تحقيق، عبدالله الجبوري.- الرياض: دار العلوم، ١٤٠٠هـ /١٩٨١م.- ج٢، ص٢٨٤ ؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٣، ص٢٤).

(٤) الأسنوي. المصدر السابق.- ج٢، ص٢٨٤.

والأمراء والوزراء. وقد أسهبت مصادر ذلك العصر في إبراز جهود نور الدين في هذا الجانب حيث ذكر عنه ابن عساكر أنه: " عمّر الرُبُط[1]، والخَانِقَاهات[2]، والبِيْمَارِسْتَانَات[3] وأجرى الأرزاق على معلميهم وعليهم بقدر مايكفيهم، وكذلك صنع لما ملك سِنْجَار، وحَرّان، والرّها، والرَّقَة، ومَنْبِج، وشَيرَز، وحَمَاة، وحِمْص، وبَعْلَبَك، وصَرْخَد، وتَدمُر، فما من بلد منها إلا وله فيه أحسن أثر ".[4]

كما ذكر العماد الأصفهاني أنه – يعني نورالدين - بنى لمذاهب السنة والجماعة المدارس، وأنشأ الخَانِقَاهَات للصُوفيّة، وكثّرها في كل بلد وكثّر وقوفها[5] كما كان من مظاهر اهتمام الملك نور الدين محمود بالعلم وتشجيعه بناؤه دار الحديث النورية

---

(١) الرُبُط: جمع ربَاط، وهو بيت يسكنه المتصوفة والزهاد، فكأنهم يرابطون فيه، ويتفقون على قصد واحد، وهو طاعة الله، وجهاد النفس وانتظار الصلاة بعد الصلاة (المقريزي، تقي الدين أحمد بن علي، ت ٨٤٥هـ/١٤٤١م. كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، المعروف بـ " الخطط المقريزية ".- بيروت: دار صادر [د.ت].- ج٢، ص٤٢٧).

(٢) الخَانِقَاهَات: ويقال خَوَانق: جمع خَانِقَاه، وتكتب أحيانًا خَانكَاه، وهي كلمة فارسية معرّبة وتعني مسكن الصوفية (محمد التونجي. المعجم الذهبي [فارسي عربي].- بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٦٩م.-ص٢٣٢) والخوانق عُرفت في حدود الأربعمائة من سني الهجرة، وجُعلت مقرًا لتعبد الصوفيّة (المقريزي. المصدر السابق.- ج٢، ص٤١٤).

(٣) البِيْمَارِستَانَات جمع بيمارستان، كلمة فارسية معرّبة، وهي مركّبة من كلمتين (بيمار) بمعنى مريض أو ضعيف، و(ستان) بمعنى مكان فهي إذًا مكان المرضى أو دار المرضى (محمّد التونجي. المرجع السابق.- ص١٣٠، ٣٣٣) ثم اختصرت في الاستعمال فصارت مارستان كما ذكر الجوهري، إسماعيل بن حماد (ت ٣٩٣هـ/١٠٠٣م). في الصحاح: تاج اللغة وصحاح العربية، تحقيق عبدالغفور عطار.- ط٤.- بيروت: دار العلم للملايين، (١٤٠٠هـ).- ج٣، ص٩٧٨).

(٤) تاريخ دمشق (مخطوط)، ج١٦، ص٢٩٤.

(٥) البنداري. سنا البرق الشامي وهو مختصر البرق الشامي للعماد الأصفهاني، القسم الأول، تحقيق رمضان ششن.- بيروت: دار الكتاب الجديد، (١٩٧١م).- ص٥٥-٦٠.

بدمشـق[١] والـذي يُعـد مـن أبـرز الجهود التي قام بها لنشر المذهب السني ومحاربة المذهب الشيعي، وكذلـك في مواجهـة الوجـود الصـليبي في المنطقة، وهـي أول دار في الإسـلام تُخصّص لدراسـة هذا الفرع من العلوم الشرعية[٢] هذا وقد وسّع نور الدين محمود نطاق الصرف على التعليم وصرف الضمانات الكافية للعلماء وطلاب العلم على حد سواء، ومكّن لهـم بمـا خصّصه مـن نفقـات وأوقفـه مـن وقـوف أن يتفرغوا لتلقي العلم ونشره بـنفوس راضـية مطمئنّة مـن الانشـغال بـأمور العيش، ويصـف ابـن جُبير مـا رآه في بـلاد الشـام مـن أوقـاف خاصـة بالتعـليم فيذكـر أنـه شـاهد في الجـامع الأمـوي بدمشق حلقات عديـدة، وأن " للمجـتمعين عـلى ذلـك إجـراء كـل يـوم يعيـش منه أزيـد مـن خمـس مئة إنسـان"، [٣]كمـا شـاهد في الجـانب الغـربي مـن الجـامع زاويـة لـلمالكية يجتمع فيها الطلبة المغاربـة، ولـهـم إجـراء معـلوم مـن أوقـاف كثيرة أوقفها نور الدين على تلك الزاوية منها طاحونتان، وسبعة بساتين، وأرض بيضاء، وحمام ودكّانان بالعَطّارِيْن.[٤]

وقـد ذكـر أحد نظّار هذا الوقف أنه يغلُّ إذا كان النظر فيه جيدًا، خمس مئة دينار في العـام[٥]، كمـا ذكـر ابـن جُبير أن نـور الديـن هيـأ ديـارًا موقوفـة لقراء كتاب الله عز وجل يسكنونها.[٦]

---

(١) عهـد نور الدين بأمر التدريس والنظر في هذه الدار للحافظ ابن عساكر المتوفى سنة ٥٧١هـ (١١٧٦م)، وكـان مـن ضمن تأليفه كتاب أسماه " تقوية المنّة على إنشاء دار السنّة" في ثلاثة أجزاء، وكانت تُسمى دار السنة في السـماعات القديمـة الـتي قُرئت بها (ياقوت. معجم الأدباء.- ج١٣، ص٧٨). وتقع هذه الـدار في سـوق العصـرونية من الجانب القبلي ولا تزال آثارها باقية حتى اليوم (أنظر المبحث الخاص في هذه المدرسة ضمن دور الحديث في دمشق.- الفصل الخامس).

(٢) ابـن الأثـير. الـتاريخ الـباهر.- ص١٧٢ ؛ أبوشـامة. كـتاب الروضـتين.- ج١، ق١، ص٢٣ ؛ ابـن واصل.مفرج الكروب.- ج١، ص٢٨٤ ؛ المقريزي. الخطط.- ج٢، ص٣٧٥.

(٣) ابـن جبير، أبـو الحسـين محمـد بـن أحمـد الكـناني الأندلسي (ت٦١٤هـ/١٢١٧م). رحـلة ابـن جبير.- بيروت: دار صادر، ١٤٠٠هـ (١٩٨٠م).- ص٢٤٤.

(٤) المصدر نفسه.- ص٢٤٥ - ٢٤٧.

(٥) نفسه.- ص٢٥٧.

(٦) نفسه.- ص٢٥٧.

ويظهر ابن جُبير إعجابه بكثرة الإيرادات التي خصصت للصرف على التعليم في دمشق فيقول: " ولكل مشهد من هذه المشاهد أوقاف معينة من بساتين، وأرض بيضاء ورِبَاع[١]، حتى إن البلد تكاد الأوقاف تستغرق جميع مافيه ".[٢]

وقد أحصى أبو شامة ما أوقفه نور الدين محمود في سُبل الخير ووجوه البر في المنشور الذي أصدره سنة ٥٥٢هـ (١١٥٧م) بمائتي ألف ديناز، وأن دخله السنوي يقدر بثلاثين ألف دينار، وكان قد خصّص قسمًا كبيرًا منه للصرف على مدارس المذاهب الأربعة، وعلى أئمتها ومدرسيها، وفقهائها، وعلى تعليم الأيتام وسكنى الغُرباء من طلبة العلم.[٣]

كما أحصى ابن الأثير أوقاف نور الدين الشخصيّة سنة ٦٠٨هـ (١٢١١م) بأن دخلها قد بلغ في الشهر الواحد تسعة آلاف دينار، وأنه ليس فيها ملك غير صيح شرعي ظاهـــرًا أو باطنًا[٤] كما قال العماد الأصفهاني عن تلك الأوقاف في حديثه عن نورالدين محمود: "ولو شغلت بإحصاء وقوفه وصدقاته في كل بلد لطال الكتاب ولم أبلغ إلى أمد".[٥]

ولقد كان أثر تلك الأوقاف، والإنفاق المادي السخي واضحًا في انتعاش حركة التعليم سواء في حلق التعليم في المساجد أو في المداس أو في غيرها من دور التعليم المنتشرة في بلاده.

---

(١) الربَاع: جمع رَبْع، وهو المنزل أو دار الإقامة (ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم الإفريقي المصري، ت ٧١١هـ/١٣١١م. لسان العرب.- القاهرة: دار المعارف، [د.ت].- ج٣، ص١٥٦٣.

(٢) المصدر السابق.- ص٢٤٨.

(٣) كتاب الروضتين.- ج١، ق١، ص١٤٠.

(٤) التاريخ الباهر.- ص١٧٢.

(٥) البنداري. سنا البرق الشامي.- ق١، ص١٤٤.

وكانت جهود نور الدين في تشجيع العلم ونشره، قدوة لمن عاصره من الملوك والأمراء والوزراء، أو من جاء بعده، فنهجوا نهجه في تشجيع العلم، وإنشاء دُوُر التعليم، والصرف عليها، من ذلك ماقام به أخوه سيف الدين غازي بالموصل (٥٤١-٥٤٤هـ/١١٤٦-١١٤٩م) فقد وُصف بأنه كان من خيرة الملوك الزنكيين في الموصل، يحب العلم وأهله منطويًا على خير وصلاح، فكان من أبرز أعماله العلمية إنشاؤه المدرسة الأتَابِكِيّة العَتِيْقَة في الموصل،[١] وجعلها مناصفة بين الفقهاء الحنفية والشافعية، كما أنشأ رِبَاطًا للصوفية في الموصل، وقد أوقف الأوقاف الكثيرة التي تفي باحتياجاتهما.[٢]

كما كان للمولى السعيد عزالدين مسعود بن قطب الدين (٥٧٦ - ٥٨٩هـ/١١٨٠ - ١١٩٣م) أثره في تشجيع الحياة العلمية بالموصل فقد بنى المدرسة العزية بالقرب من دُوُر المملكة،[٣] وجعلها مناصفة بين الفريقين الحنفية والشافعية، وقرر لها من الأوقاف ماليس بمدرسة أخرى من الفواكه والحلوى والهبات والصدقات.[٤] وقد شاهد ابن خلكان هذه المدرسة، ووقف عليها، ووصفها في ترجمته لمؤسسها عزالدين بقوله:

---

(١) هذه المدرسة أول مدرسة أُنشئت بعد نظامية الموصل، وتُعد أول مدرسة مشتركة بين المذهبين الحنفي والشافعي، وقد وصفها ابن الأثير بأنها من أحسن المدارس وأوسعها (التاريخ الباهر.- ص٩٣).

(٢) ابن الأثير. الباهر.- ص٩ ؛ سبط ابن الجوزي.مرآة الزمان.- ج٨، ق١، ص٢٠٤.

(٣) يُقصد بها دُوُر الحكم، وتقع على دجلة قرب القلعة وهي تقابل الميدان ولم تزل بقاياها تعرف باسم (قرة سراي) (سعيد الديوه جي. الموصل في العهد الأتابكي.- ص١١٧)، وكان للسلاجقة دارٌ للحكم في هذا الموضع فلما حكم عماد الدين زنكي الموصل أمر ببناء دور أخرى صارت تعرف بدور المملكة (ابن الأثير. المصدر السابق.- ص٧٧).

(٤) المصدر نفسه.- ص١٨٩.

"وكان قد بنى بالموصل مدرسة كبيرة وقفها على الفقهاء الشافعية والحنفية، فدُفن بهذه المدرسة في تربة هي بداخلها، رحمه الله تعالى، ورأيت المدرسة والتربة، وهي من أحسن المدارس والترب" .[1]

كما كان لأبنه الملك نور الدين أرسلان شاه (٥٨٩ - ٦٠٧هـ/١١٩٣ - ١٢١٠م) مشاركة في بناء المدارس وتشجيع التعليم، فقد بنى المدرسة النُورية مقابل دور المملكة[2]، يقول عنها ابن الأثير: " وهي من أحسن المدارس، ووقف عليها الوقوف الكثيرة، وجعلها وقفًا على ستين فقيهًا[3] من الشافعية سوى مافيها من الصدقات الدارّة والتعهدات للصوفية والفقراء" .[4]

هذا وقد شارك في دعم النهضة التعليمية وازدهارها بعض كبار رجال الحكم في العهد الزنكي قدوة بملوكهم، فأسهموا في إنشاء العديد من دُوُر التعليم المختلفة، وكان من أبرز هؤلاء الأمير أسد الدين شَيْرَكُوه المتوفى سنة ٥٦٤هـ

---

(١) وفيات الأعيان.- ج٥، ص٢٠٧.

(٢) كانت أغلب مدارس الملوك الزنكيين في الموصل تقع بالقرب من دُوُر المملكة (مقر حكمهم) حتى يسهل لهم الإشراف عليها ورعايتها المستمرة.

(٣) لقب الفقيه من ألقاب العلماء، إذ إنه يطلق على العالم بالأحكام الشرعية، وعلى من صار الفقه له سجيّة (القلقشندي. صبح الأعشى، ج٦، ص٢٢) ولكن هذا اللقب غلب إطلاقه في هذا العهد على طلبة المدارس المترددين على الشيوخ لتلقي علم الفقه، ويقال: فقهاء المدارس، يقصد طلبة المدارس (السبكي. معيد النعم ومبيد النقم.- بيروت: مؤسسة الكتب الثقافية، ١٤٠٧هـ /١٩٨٦م.- ص٨٥).

(٤) ابن الأثير. التاريخ الباهر.- ص٢٠١، وقد وصفها ابن خلكان في ترجمته لنور الدين أرسلان فقال: " وبنى مدرسة للشافعية بالموصل قلَّ أن يوجد مدرسة في حسنها. (وفيات الأعيان.- ج١، ص١٩٣).

(١١٦٨م)[١]، والذي كان من أكبر أمراء نور الدين محمود، حتى صار كأنه شريك له في الملك[٢]، فقد شارك ببناء مدرسة خارج دمشق ووقفها على الفريقين الشافعية والحنفية، وعُرفت تلك المدرسة بالمدرسة الأسدية[٣]، كما قام بإنشاء خانقاه للصوفية بدرب الهاشميين[٤]، داخل دمشق.[٥]

ولقد تولى الوزارة لدى الملوك الزنكيين عدد من الوزراء، كان لبعضهم نشاط علمي ملموس ساعد على نشاط الحياة العلمية في هذا العهد، وكان الوزير جمال الدين محمّد بن علي الأصفهاني وزير الموصل المتوفى سنة ٥٥٩هـ (١١٦٤م)[٦] في طليعة هؤلاء الوزراء اهتمامًا بالعلم، وتشجيعًا للعلماء، فقد أمر ببناء رُبُط عديدة في الموصل وسِنْجَار، ونَصيبين، وغيرها،[٧] كما قصده العلماء من جهات مختلفة، وكان ممن قدم

(١) أسد الدين شِيْرَكُوه بن شاذي، عم السلطان صلاح الدين الأيوبي، ومقدم عساكر نور الدين محمود، وأكبر أمرائه، كان يخدم والده عماد الدين زنكي فلما توفي اتصل بابنه نور الدين، فقربه، وقدمه، ورأى منه شجاعة وبسالة، وكان سفيرًا له إلى العديد من العواصم الإسلاميّة، كما قاد جيوش نور الدين محمود إلى مصر، وحتى تمّ له فتحها في ربيع الآخرة سنة ٥٦٤هـ (١١٦٨م) ولم يلبث أن توفي بها فجأة في جمادى الآخرة من العام نفسه. (ابن الأثير. الكامل في التاريخ.- ج٩، ص١٠١، ابن خلكان: المصدر السابق.- ج٢، ص٤٧٩-٤٨١).

(٢) ابن الأثير. التاريخ الباهر.- ص١٦٨.

(٣) ابن شداد، محمد بن علي بن إبراهيم - عز الدين - (ت ٦٨٤هـ/١٢٨٥م). الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة، الجزء الثاني القسم الأول (قسم دمشق) نشر وتحقيق سامي الدهان.- دمشق: المعهد الفرنسي للدراسات العربية ١٣٧٥هـ (١٩٥٦م).- ص٢٦٢؛ النعيمي، عبدالقادر بن محمد بن عمر بن محمد الدمشقي (ت٩٢٧هـ/١٥٢١م). الدارس في تاريخ المدارس، نشر وتحقيق جعفر الحسني.- دمشق: مطبعة الترقي، ١٣٦٧هـ (١٩٤٨م).- ج١، ص١٥٢.

(٤) يُعرف هذا الطريق بدرب الهَاشِميين أو درب الوزير، وهو داخل باب الجَابِيَة بدمشق (النعيمي. المصدر السابق.- ج٢، ص١٣٩).

(٥) ابن شداد: المصدر السابق (قسم دمشق).- ص٩٣.

(٦) سبقت ترجمته في التمهيد من هذه الدراسة.

(٧) ابن الأثير. الباهر.- ص١٢٩.

إليه بالموصل الشيخ ابن الخُجَنِدي[1] رئيس الشافعية بأصفهان، وابن الكَافِي[2] قاضي قضاة هَمَذَان، فأكرم وفادتهما، وأنفق عليهما أموالاً كثيرة، كما قصده الكثير من مشاهير العلماء ومشايخ الصوفية.[3]

كما كان من أهم المناصب في الدولة الزنكية لقب نائب الملك أو درزدَار القلعة[4] وكان من أبرز هؤلاء النواب بالموصل زين الدين علي بن بكتكين المتوفى سنة ٥٦٣هـ (١١٦٨)،[5] وكان لزين الدين هذا آثار علمية عدة في الموصل وإرْبل كان من أهمها: مسجده في الموصل الذي كان يدرس به الإمام رضَي الدين أبو الفضل يُونس بن محمّد ابن مَنَعَة المتوفى سنة ٥٧٦هـ (١١٨٠م).[6]

---

(١) هو صدر الدين أبو بكر محمّد بن عبداللطيف بن محمّد المهلبي الأزدي الخُجَنْدِي ثم الأصفهاني، كان إمامًا فاضلاً من أئمة الشافعية في بلاده، متقدمًا عند السلاطين السلاجقة، قدم بغداد فدَرَّس بنظاميتها، ووعظ بها. وبجامع القصر، ثم قدم الموصل، وكانت وفاته في شعبان سنة ٥٥٢هـ (١١٥٧م) (ابن الجوزي.المنتظم.- ج١، ص١٧٩ ؛ السبكي. طبقات الشافعية.- ج٦، ص١٣٣ ؛ ابن العماد الحنبلي، أبو الفلاح عبدالحي الحنبلي (ت١٠٨٩هـ/١٦٧٨م). شذرات الذهب في أخبار من ذهب.- بيروت: دار الفكر، (١٣٩٩هـ).- ج٤، ص١٦٣).

(٢) لم أعثر على ترجمة له في المصادر المتيسرة.

(٣) ابن الأثير. المصدر السابق.- ص١٢٩.

(٤) تعدُّ وظيفة نائب الملك أو الأتابك في قلعة الموصل أعلى وظيفة في الأتابكية وأهمها، فكان للقائم بها سلطات واسعة يُخولها له الأتابك، ولذلك كان هذا النائب في كثير من الأحوال الحاكم الفعلي للمملكة، والمرجع الأول في كل الأمور، وكان النائب كثيرًا ما يجمع بين نيابة المملكة وقيادة الجيش، وفي هذه الحال يلقب بأمير الجيش كما حدث عند ولاية زين الدين علي بن بكتكين (رشيد الجميلي. دولة الأتابكة في الموصل، ص٢٣٧).

(٥) سبقت ترجمته في تمهيد هذه الدراسة.

(٦) هو الإمام رَضي الدين يُونس بن محمّد بن منَعَة الموصلي، الإربلي الأصل، والد عماد الدين محمّد، وكمال الدين موسى، ولد بإربل سنة ٥١١هـ (١١١٧م)، وقدم الموصل فتفقه بها، ورحل إلى بغداد فتفقه بها، ثم قدم الموصل مرة أخرى، وصادف بها قبولاً تامًا لدى الأمير زين الدين علي بن بكتكين المتولي بها، وقد فوّض إليه التدريس في مسجده المعروف به، وجعل نظرها إليه، فكان يُدَرِّس، ويفتي، ويناظر، فقصده الطلبة للاشتغال عليه، والمباحثة مع ولديه، إلى أن توفي بالموصل في المحرم سنة ٥٧٦هـ (١١٨٠م) (ابن خلكان: وفيات الأعيان.- ج٧، ص٢٥٤ ـ ٢٥٥ ؛ ابن قاضي شهبة، تقي الدين أبو بكر ابن أحمد بن محمد الأسدي (٨٥١هـ/١٤٤٧م). طبقات الشافعية.- حيدر أباد الدكن الهند: دائرة المعارف العثمانية، ١٣٩٩هـ ١٩٧٩م.- ج٢، ص٢٥-٢٦).

وقد ذكر ابن خلكـان أن زين الدين كُجَك كان لـه بالموصل أوقاف كثيرة مشهورة من مدارس وغيرها.[١]

وممن تولى نيابة القلعة في الموصـل الأمير مجاهد الديـن قَايْمَاز المتوفى سنة ٥٩٥هـ (١١٩٩م)،[٢] فقد استبد بأمور الدولة في عصر سيف الدين غازي بن مودود (٥٦٥ـ ٥٧٦هـ/١١٧٠ـ ١١٨٠م)، وأخيه عز الدين مسعود (٥٧٦ـ ٥٨٩هـ/١١٨٠ـ ١١٩٣م) وبداية حكم نور الدين أرسلان شاه (٥٨٩ـ ٦٠٧هـ/١١٩٣ـ ١٢١٠م)،[٣] وقد قام مجاهد الدين بعدة أعمال عمرانية تخدم الحياة العلمية منها: بناؤه الجامع الكبير بظاهر الموصل، ثم بنى بعده رباطًا للصوفية، ومدرسة لتدريس المذهب الشافعي،[٤] كما أنشأ بجانب هذه المدرسة مكتبًا لتعليم الأيتام من أبناء المسلمين، وقد أوقف على جميع هذه الأعمال أوقافًا غنية ليضمن استمرارها في أداء رسالتها العلمية على الوجه الأكمل.[٥]

---

(١) المصدر نفسه.- ج ٤، ص١١٤.

(٢) هو أبو منصور قَايْمَاز بن عبدالله الزيني، المُلقب مجاهد الدين الخادم، كان عتيق زين الدين أبي سعيد بن علي بن بكتكين والد الملك المعظم مظفر الدين صاحب إربل، وهو من أهل سَجِسْتَان أُخذ منها صغيرًا، وكانت مخايل النجابة بادية عليه، فقدّمه معتقه وجعله أتابك أولاده بإربل، وفوّض إليه أمور إربل سنة ٥٥٩هـ (١١٦٤م)، كان كثير الخير والصلاح، له آثار عديدة خيرية في إربل، وقد انتقل إلى الموصل سنة ٥٧١هـ (١١٧٥م) وسكن قلعتها وتولى أمور تدبيرها، وفوّض إليه سيف الدين غازي بن مودود الحكم في سائر بلاده، وتولى نيابة القلعة من بعده لأخيه عز الدين مسعود، ومن ثم لنور الدين أرسلان شاه، إلى أن توفي في قلعة الموصل في ربيع الأول سنة ٥٩٥هـ (١١٩٩م) (أبوشامة. تراجم رجال القرنين السادس والسابع المعروف (بالذيل على الروضتين)، نشر عزت العطار الحسيني.- ط٢.- بيروت: دار الجيل، ١٩٧٤م ص١٧ ؛ ابن خلكان: المصدر السابق.- ج٤، ص٨٢ـ ٨٤).

(٣) ابن الأثير. التاريخ الباهر.- ص١٩٣.

(٤) المصدر نفسه.- ص١٧٧.

(٥) ابن خلكان: وفيات الأعيان.- ج ٤، ص٨٢ـ ٨٣.

كما شارك بعض العلماء مشاركة فعّالة في تشجيع التعليم ونشره في كل من الموصل وبلاد الشام، يأتي في طليعة هؤلاء القاضي كمال الدين الشَهرَزُورِيَ المتوفى سنة ٥٧٢هـ (١١٧٦م)[١] الذي كان من آثاره بالموصل بناؤه المدرسة الكَمَالِيّة القَضَوِيّة[٢] التي جعلها وقفًا على الفقهاء الشافعية،[٣] كما نُسب إليه رباط بناه للصوفية في ظاهر الموصل عُرف برباط ابن الشَهرَزُورِي.[٤] وبالجملة فقد ذكر عنه ابن خلكان أنه أوقف أوقافًا كثيرة بالموصل، ونَصِيبِيْن، ودمشق.[٥]

وكان للنساء أيضًا مشاركة فعالة في تشجيع حركة التعليم في العهد الزنكي عن طريق إنشاء دور التعليم على اختلافها، وقد أكد ذلك ابن جبير الذي زار بلاد الشام

---

(١) هو أبو الفضل محمّد بن أبي محمّد عبدالله بن أبي المظفر القاسم الشَهْرَزُوْرِيّ، الملقب كمال الدين، كان من كبار فقهاء الشافعية، تفقه ببغداد في نظاميتها، وقدم الموصل فنال إعجاب حكامها من الزنكيين، وقد وُصف بأنه كان فقيهًا، أديبًا شاعرًا ظريفًا، فكه المجلس، ولي قضاء الموصل في فترة الموصل في فترة حكم عماد الدين زنكي وابنه سيف الدين غازي الأول المتوفى سنة ٥٤٤هـ (١١٤٩م) ومن ثم انتقل إلى الشام وخدم الملك نور الدين، ونال عنده مكانة عالية، وترقى إلى درجة الوزارة، واستمر على هذا الوضع حتى وفاة نور الدين محمود وحكم صلاح الدين الأيوبي فأقره على ماكان عليه وكانت وفاته بدمشق في المحرم سنة ٥٧٢هـ (١١٧٦م) ابن الجوزي.المنتظم.- ج١، ص٢٦٨؛ سبط ابن الجوزي.مرآة الزمان.- ج٨، ق١، ص٣٤٠؛ ابن خلكان: المصدر السابق.- ج ٤، ص٢٤١-٢٤٤؛ العيني. عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان.- ج١٢، (مخطوط) ميكروفيلم بالمكتبة المركزية بجامعة الإمام محمّد بن سعود الإسلاميّة بالرياض رقم (٨٣٩ف) مصور لمخطوط مكتبة سراي أحمد الثالث باستانبول رقم (١٢/٢٩١١).- ورقة ٢١٠ وجه وظهر).

(٢) لم أقف على موقع هذه المدرسة بالتحديد، ولم يبق لها أيّ أثر من الوقت الحاضر.

(٣) ابن الجوزي. المصدر السابق.- ج١٠، ص٢٦٨.

(٤) ابن خلكان: المصدر السابق.- ج٢، ص٢٣٩.

(٥) وفيات الأعيان.- جـ٤، ص٢٤٢.

بعـد انحسـار الحكـم الـزنكي عـنه بفـترة قصـيرة فقـال : " ومـن النسـاء الخَواتِيْـن[1] ذوات الأقـدار ممـن تأمـر ببـناء مسـجد أو رباط أو مدرسة ، وتنفق فيها الأموال الواسعة ، وتُعين لها من مالها الأوقاف ".[2]

ومـن النساء اللاتي كان لهن اهتمام بالتعليم الست زُمُرّد خاتون المتوفاة سنة ٥٥٧هـ (١١٦١م) ،[3] فقـد كـانت عـلى قـدر مـن الـثقافة والعـلم ، حافظـة لـلقرآن الكـريم ، استنسـخت الكـثير من الكتب ، وشاركت في بناء المدارس ، فقد أنشأت المدرسة الخَاتُونِيّة خارج دمشق وأوقفت عليها الأوقاف القائمة بها.[4]

ولم يقتصـر اهتمام الملوك الـزنكيين ، ومـن اتصـل بهـم بحـركة الأحياء العلمي على مجرد إنشـاء المـدارس ، ودور التعـليم الأخـرى ، وتخصيص الأوقـاف ، ومنح الهبات وإنما كـانوا يـتخيَّرُون لتـلك الهيـئات أفضـل العُـلماء ، وأتقـاهم ، وأكـثرهم شـهرة في مجـال التخصـص ، بل إنه وُجد أن بعض المدارس كانت تُنشأ خصيصًا لعالم بعينه اشتهر بعلمه

---

(١) الخَواتَيْـن : جمـع خَـاتُون ، وهـو لفـظ تـركي معـناه السيدة (القلقشندي. صبح الأعشى.- ج٦ ص٧٨) دخل العالم الإسلامي عن طريق الأتراك ، وكان هذا اللفظ يرد أحيانًا بجانب الاسم ، ويقوم مقام لقب " السيدة " للإشارة إلى الجليلات من النساء خصوصًا أميرات الأسر الحاكمة ، وفي هـذه الحـال فإن الملقب يتبع اللقب ، فيقال (فلانة خاتون) وهكذا (حسن الباشا : الألقاب الإسـلاميّة في الـتاريخ والوثـائق والآثـار.- القاهـرة : النهضـة العـربية ، ١٩٧٨م.- ص٢٦٤ ـ ٢٦٥).

(٢) الرحلة.- ص ٢٤٨.

(٣) زُمُرّد خـاتون بـنت الأمـير جَاولَي ، وأخت الملك دُقَاق بن تُتُش صاحب دمشق لأمه ، وزوجة تـاج الملك بُـوري ، وأم ولديـه شمـس الملك إسمـاعيل ومحمود ، تزوجها الأتابك عماد الدين زنكـي ، فبقيت معه حتى مقتله سنة ٥٤١هـ (١١٤٦م) ، فلما قتل حجت وجاورت من المدينة حتى مـاتت سـنة ٥٥٧هـ(١١٦١م) ، ودفـنت بـالبقيع (الذهـبي. العـبر.- ج٣ ، ص٢٧ ؛ ابـن كثير : البـداية والـنهاية.- ج١٢ ، ص٢٤٥ ـ ٢٤٦ ؛ ابن العماد : شذرات الذهب.- ج٤ ، ص ١٧٨).

(٤) النعيمي. الدارس.- ج١ ، ص٥٠٢.

وفضله، وبمكانته بين علماء عصره، وكان الملك نور الدين محمود حريصًا على جلب العلماء من شتى الأقطار الإسلاميّة للاستفادة من خبراتهم في مجال التعليم، وليكونوا عونًا له في تنفيذ سياسته التعليمية التي خطط لها في فترة مبكرة من حكمه، فكاتبهم، وبالغ في إكرامهم والإحسان إليهم، وأنشأ لهم المدارس ودور التعليم الأخرى.[1]

وقد استقدم في بداية حكمه وهو بحلب - الإمام بُرهان الدين البَلْخِي المتوفى سنة ٥٤٨هـ (١١٥٣م)[2] من دمشق، بعد استكمال بناء المدرسة الحَلاَّوية بحلب، وفوّض إليه أمر التدريس بها،[3] كما استدعى من دمشق أيضًا إمام الشافعية الشيخ قُطب الدين النَيْسَابُوري المتوفى سنة ٥٧٨هـ (١١٨٢م)[4] للتدريس بالمدرسة النِفَرِيَّة (النُورِيَّة) التي بناها في حلب سنة ٥٤٤هـ (١١٤٩م).[5]

---

(١) أبوشامة. كتاب الروضتين.- ج١، ق١، ص٣٤.

(٢) هو علي بن الحسن بن محمّد بن جعفر، تفقه ببخارى، وبرز في الفقه الحنفي، فقدم الشام، ودرس في دمشق في مدارس عدة، ثم انتقل إلى حلب بطلب من نور الدين محمود، ودَرَّس بها في المدرسة الحَلاَوية، فكان أول من دَرَّس بها، واستمر على ذلك حتى وفاته سنة ٥٤٨هـ (١١٥٣م). (ابن شداد: الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة.- ج١، ق، حلب، تحقيق دومنيك سورديل، ط المعهد الفرنسي للدراسات العربية بدمشق ١٩٥٣م، ص١١٠ - ١١١ ؛ القرشي، محيي الدين أبو محمد عبدالقادر بن محمد بن نصر الله الحنفي ت ٧٧٥هـ/١٣٧٣م. الجواهر المُضيّة في طبقات الحنفية، تحقيق عبدالفتاح محمد الحلو.- القاهرة: مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، ١٣٩٨هـ /١٩٧٨م.- ج٢، ص٥٦٠ - ٥٦٢).

(٣) ابن شداد: المصدر السابق (قسم حلب)، ص١١٠ - ١١١.

(٤) أبو المعالي مسعود بن محمّد بن طاهر النَيْسَابُوري الطُرَيْثِيْثي الفقيه الشافعي، المُلقب قُطب الدين، تفقه بنيسابور ومَرو، ودَرَّس بنظامية نيسابور، وقدم بغداد ووعظ بها، وقدم دمشق سنة ٥٤٠هـ (١١٤٥م)، ودَرَّس في مدارس عدة، ثم خرج إلى حلب بدعوة من نور الدين محمود فتولى التدريس بالمدرستين اللتين بناهما نور الدين محمود، وأسد الدين شيركوه، ثم رحل إلى همذان وتولى التدريس بها، ثم رجع إلى دمشق ودَرَّس بها في مدارس عدة حتى وفاته في رمضان ٥٧٨هـ (١١٨٢م)(ابن عساكر.تاريخ دمشق (مخطوط) جـ١٦، ص٤٣٧ ؛ ابن خلكان: وفيات الأعيان.- ج٥، ص١٩٦ ت ١٩٧).

(٥) ابن شداد: المصدر السابق.- (قسم حلب)، ص١٠٠.

وعندما استكمل بناء المدرسة العَصْرُونِيّة بحلب أيضًا استدعى لها من نواحي سِنْجَار الشيخ الإمام شرف الدين عبدالله بن أبي عَصْرُون المتوفى سنة ٥٨٥هـ (١١٨٩م)، (١) وفوّض إليه التدريس والنظر بها، وهو أول من دَرَّس بها فعُرفت به. (٢)

ولم تقف جهود الزنكيين أيضًا عند حد إنشاء دُوُر التعليم واستقدام أبرز العلماء وتكريمهم، بل تعداه إلى التشجيع على البحث والتأليف، وكان من أبرز الملوك الزنكيين اهتمامًا بهذا الجانب الملك نور الدين محمود (٥٤١ - ٥٦٩هـ/١١٤٦ - ١١٧٤م) فقد تمَّ في عصره وبتشجيع منه تأليف أكبر مصنف عن تاريخ دمشق، وهو "تاريخ مدينة دمشق" للحافظ ابن عَساكِر المتوفى سنة ٥٧١هـ (١١٧٦م). (٣)

(١) أبو سعد عبدالله بن السري محمّد بن هبة الله بن أبي عَصْرُون التميمي الحُديثي، ثم الموصلي، الفقيه الشافعي الملقب شرف الدين، كان من أعيان الفقهاء في عصره دَرَّس في الموصل في مدارس عدة ثم انتقل إلى سِنْجَار وأقام بها مدة، وفي سنة ٥٤٥هـ (١١٥٠م) انتقل بدعوة من نور الدين إلى حلب ودَرَّس بها في مدارس عدة، ووُلِي القضاء فيها والنظر في الأوقاف، وبلغ مكانة عالية لدى نور الدين محمود، ومن بعده صلاح الدين (ابن خلكان: وفيات الأعيان.- ج٣، ص٥٣ ـ ٥٧ ؛ السبكي. طبقات الشافعية الكبرى.- ج٧، ص١٣٣.

(٢) ابن شداد: الأعلاق الخطيرة، (قسم حلب)، ص٩٨ ؛ ابن الشحنة، أبو الفضل محب الدين الحلبي (ت ٨٩٠هـ/١٤٨٥م). الدرّ المنتخب في تاريخ مملكة حلب، نشر يوسف بن إليان سركيس.- دمشق: دار الكتاب العربي، ١٤٠٤هـ (١٩٨٤م).- ص١١٠ ـ ١١١).

(٣) هو أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله بن عبدالله الدمشقي، المعروف بابن عساكر، إمام أهل الحديث في زمنه، وحامل لوائهم، ولد في دمشق في المحرم سنة ٤٩٩هـ (١١٠٥م)، وتلقى ثقافته الأولية بدمشق.- ثم ارتحل إلى بلدانٍ كثيرة، أكثر فيها من الأخذ عن علمائها حتى صار عدة شيوخه ألفًا وثلاث مئة شيخ، ونيفًا وثمانين امرأة، ثم عاد إلى مسقط رأسه، دمشق.- وقضى فيها زهاء أربعين عامًا في الجمع والتصنيف والتدريس وقد توفي في رجب سنة ٥٧١هـ (١١٧٦م)، وقد شيّع السلطان صلاح الدين جنازته وحضر الصلاة عليه. (أبو عبدالله محمد بن محمد بن حامد بن أله، ت ٥٩٧هـ/١٢٠١م. خريدة القصر وجريدة العصر، قسم شعراء الشام، ج١، تحقيق شكري فيصل نشر المجمع العلمي الغربي.- دمشق: المطبعة الهاشمية، ١٣٧٥هـ /١٩٥٥م.- ص٢٧٤ ـ ٢٧٨ ؛ ياقوت. معجم الأدباء.- ج١٣، ص٧٣ ـ ٨٧ ؛ ابن خلكان: المصدر السابق.- ج٣، ص٣٠٩ ـ ٣١١).

فقد جاء في مقدمة هذا الكتاب: "ورقي خبر جمعي له إلى حضرة الملك القمْقَام الكامل العادل الزاهد، المجاهد، المرابط، الهمام، أبي القاسم محمود بن زنكي بن آق سنقر ناصر الإمام ... وبلغني تشوقه إلى الاستنجاز والاستتمام ليلمّ بمطالعة ماتيسر منه بعض الإلمام، فراجعت العمل فيه راجيًا الظفر بالتمام، شاكرًا لما ظهر منه من حسن الاهتمام"[1]، مما يوضح للباحث حرص نور الدين محمود على الاطلاع على تاريخ عاصمته (دمشق) وتشوقه إلى ذلك، كما أنه يؤْرخ لنا زمن تصنيف ابن عساكر لهذا الكتاب. ويُعد هذا العمل من الآثار العلمية المجيدة التي تبناها نور الدين محمود.

وقد وصف أبو شامة بلاد الشام وما شهدته من نشاط علمي في عصر الملك نور الدين محمود بأنها أصبحت مقرًا للعلماء والفقهاء والصُوفية، وذلك لصرف همته إلى بناء المدارس والرُبُط وترتيب أمورهم،[2] كما ذكر العُمَري[3] أن بالموصل - في أواخر الحكم الزنكي - من الجوامع خمسة وثلاثين جامعًا، وأربع مئة مسجد، وثمانية وعشرين مدرسة، ومئة وثمانين دارًا للحديث،[4] وأن الخانقاهات بلغت سبعة وعشرين إلى غير ذلك من العمارات.[5]

---

(١) تاريخ مدينة دمشق: المجلدة الأولى، تحقيق: صلاح الدين المنجد.- دمشق: مطبوعات المجمع العلمي العربي، ١٣٧١هـ (١٩٥١م).- ص٤.

(٢) كتاب الروضتين.- ج١، ق١، ص٣٤.

(٣) ياسين بن خير الله الخطيب المتوفى سنة ١٢٣٢هـ (١٨٧١م).

(٤) يظهر أن في هذا الرقم مبالغة واضحة لصعوبة إنشاء دور الحديث وإيجاد علماء لهذا العدد من الدور، وإذا كانت المدارس في الموصل قد بلغت (٢٨) مدرسة فكيف يصل عدد دور الحديث إلى هذا الرقم سيما وأنه لم يثبت في مصادر البحث المتيسرة سوى دارين لتدريس الحديث، هما دار الحديث المُهَاجِريّة، ودار الحديث المُظفّرية.

(٥) مُنْيَة الأدباء في تاريخ الموصل الحَدْبَاء، تحقيق سعيد الديوه جي.- الموصل: مطبعة الهدف، ١٣٧٤هـ (١٩٥٥م)، ص٦٦، ٢١٧. وقد أورد الديوه جي هذا الإحصاء في كتابه تاريخ الموصل.- الموصل: دار الكتب بجامعة الموصل، ١٤٠٢هـ (١٩٨٢م).-ج١، ص٣٦٨). في ملحق خاص نسبه لسبط ابن الجوزي في مرآة الزمان.- ولم يعثر الباحث في مرآة الزمان على أية إشارة لهذا الحصر.

وبعد، فقد كانت هذه أبرز الجهود التي قام بها الزَنكيُّون في سبيل تشجيع العلم والعلماء في بلادهم، ومن أجل ذلك شهدت العواصم الزنكية نهضة علمية لم تشهد لها مثيلاً من قبل، وأصبحت تلك البلاد وجهة الهجرات العلمية من شتى مناطق العالم الإسلامي للاستفادة من الفرص المتاحة للبحث والدراسة، فقصدها العلماء وألقوا بعصا ترحالهم في عددٍ من المراكز العلمية في الدولة الزنكية وبخاصة الموصل، وحلب، ودمشق، وهذا ماشجع بدوره حركة الرحلات والصلات العلمية بين أقطار العالم الإسلامي فكانت العواصم الزنكية محطّ أنظار طلبة العلم يقصدونها للاستفادة من شيوخها وعلمائها في مختلف العلوم والفنون، وللدراسة في مساجدها ومدارسها المنتشرة، وللاستفادة من التسهيلات المتاحة بها وبخاصة فيما يتعلق بأمور النفقات والإقامة.

٢ ـ الحرص على نشر المذهب السني:

تركزت الجهود المبذولة في سبيل نشر المذهب السني في بلاد الشام، دون غيرها من البلاد الزنكية لسببين بارزين هما:

الأول: أن الغالبية العظمى من سكان الموصل كانوا من السنة على المذهبين الشافعي والحنفي، حيث انتشر هذان المذهبان في الموصل منذ العصر السلجوقي، وما تلا ذلك من انتقال الحكم إلى الأسرة الزنكية[1]، فلم يكن للمذهب الشيعي أي نفوذ في

(١) أُنشئت أول مدرسة بالموصل على المذهب الشافعي في العصر السلجوقي. أنشأها الوزير نظام الملك الطُوسي المتوفى سنة ٤٨٦هـ (١٠٩٣م) السبكي. طبقات الشافعية الكبرى.- ج٤، ص ٣١٣)، ثم تلاها إنشاء المدرسة الأتابكية العتيقة في العهد الزنكي لتدريس المذهبين الشافعي والحنفي، وكانت من إنشاء الملك سيف الدين غازي المتوفى سنة ٥٤٤هـ (١١٤٩م) (ابن الأثير. التاريخ الباهر.- ص٩٣) وكان لهاتين المدرستين أثر واضح في توجيه هذين المذهبين في الموصل في العهدين السلجوقي والزنكي.

الموصل إلا في أواخر الحكم الزنكي حينما استأثر النائب بدر الدين لؤلؤ (٦٣١ ـ ٦٥٦هـ/ ١٢٣٣ ـ ١٢٥٨م) بالحكم، وعمل على تشجيع المذهب الشيعي ونشره في بلاده لمقاومة الطريقة العَدَوِيّة[1] التي استفحل خطرها بالموصل في عصره.[2]

الثاني: أن المذهب الشيعي قد تركز في بلاد الشام ومصر، وبخاصة في مدينة حلب (قاعدة بلاد الشام الشمالية) حيث يُمثل الشيعة غالبية السكان آنذاك، وفي مصر حيث قامت الدولة الفاطمية، أما دمشق فقد كانت الغالبية فيها للمذهب السني، مع وجود بقايا للمذهب الشيعي من أيام الحكم الفاطمي لها.

وقد أدرك نور الدين محمود- الذي كان يُعد المسؤول الأول عن توجيه السياسة التعليمية في العهد الزنكي- خطورة الموقف السياسي المحيط به، وأيقن بضرورة توظيف التعليم لخدمة مصالح دولته - وهي مصالح تتطلب تخلي رجال الفكر والعلماء، وعامة الناس عن قيود الانتماء المذهبي الضيق حتى يتم التقارب بين مذاهب السنة ليتوحد العمل وتُنبذ الفرقة، حيث كانت الخلافات بين مذاهب السنة إحدى عوامل الخلاف بين المسلمين آنذاك، فعمد في بداية حكمه إلى التقريب بين مذاهب السنة، وإنشاء المدارس، وتوظيفها لخدمة تلك المذاهب جميعًا دون تفريق بين مذهب وآخر.

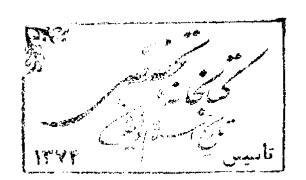
وقد اتفق عددٌ من المؤرخين[3] على أن نور الدين محمود (٥٤١ ـ ٥٦٩هـ/١١٤٦ ـ ١١٧٤م) قائد حركة التعليم في ذلك العهد، كان سنيًا عارفًا بمذهب أبي حنيفة من غير تعصب منه ولا تحيز، فالمذاهب السُنّية عنده سواء، فكان مجلسه يضم الحنبلي

---

(١) الطريقة العدوية: إحدى الطرق الصوفية التي قامت بالموصل، وتُنسب للشيخ عدي بن مسافر المتوفى سنة ٥٥٧هـ (١١٦١م) (ابن الأثير. الكامل في التاريخ.- ج٩، ص٨٠) وقد تعاظم شأن العدوية، واستفحل خطرها بعد تسلم شمس الدين حسن بن صخر قيادتها، وكانت تلك الطريقة تدعو إلى تأسيس دولة أموية تحت ستار من التصوف فأخذ بدر الدين لؤلؤ يقاومها عن طريق نشر المذهب الشيعي (سعيد الديوه جي. تاريخ الموصل.- ج١، ص٣١٦).

(٢) سعيد الديوه جي. المرجع نفسه.- ص٧٧.

(٣) أنظر على سبيل المثال: ابن الأثير التاريخ الباهر.- ص١٦٥؛ أبوشامة. كتاب الروضتين.- ج١، ق١، ص١٤؛ سبط ابن الجوزي.مرآة الزمان.- ج٨، ق١، ص٣٠٨.



والشافعي، والمالكي، والحنفي، فلم يفرق بين مذهب وآخر من المذاهب السُنَّية، وتبعه في ذلك رجال دولته. وبخاصة في بلاد الشام، فلم تفرق الدولة وهي تُنشئ المدارس ودور التعليم المختلفة إلى أية فئة تؤول هذه الهيئات مادامت جميعها تسترشد بالقرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، وتُشكل رافدًا للعمل الإسلامي الموحد، الذي تقوده الدولة وتُكتل الجهود من أجله.

وقد أوضح نور الدين سياسته تلك بقوله: " نحن ما أردنا ببناء المدارس إلا نشر العلم ودحض البدع من هذه البلدة، وإظهار الدين". [1] ويبدو أن هذا الشعور على عكس ما كان قائمًا في الموصل والبلاد الزنكية الأخرى، ففي الموصل كان الملك نور الدين أرسلان شاه (٥٨٩ ـ ٦٠٧هـ/١١٩٣ ـ ١٢١٠م) [2] متعصبًا للمذهب الشافعي، حيث أمر بتدريسه في مدرسته التي بناها للشيخ الإمام عماد الدين بن يُونس بن مَنَعَة المتوفى سنة ٦٠٨هـ (١٢١١م) [3] بالموصل، والتي جعلها وقفًا على ستين فقيهًا من الشافعية دون غيرهم. [4]

---

(١) أبوشامة. المصدر السابق.- ج١، ق١، ص٣٣.

(٢) كان الملك نور الدين أرسلان شاه حنفي المذهب، فتحول بتأثير من الشيخ عماد الدين بن منعة إلى المذهب الشافعي، فكان الشافعي الوحيد في الأسرة الزنكية (ابن خلكان: وفيات الأعيان.- ج٤، ص٢٥٤).

(٣) هو أبو حامد محمّد بن يونس بن محمّد بن مَنَعَة العُقَيلي الشافعي، أخو كمال الدين بن يونس المتوفى سنة ٦٣٩هـ (١٢٤٢م)، ولد بقلعة إربل سنة ٥٣٥هـ (١١٤٠م) وتفقه على والده بالموصل، ثم ارتحل إلى بغداد وتفقه وصنّف كتب عدة، وكانت إليه الخطابة في الجامع المُجَاهِدي مع التدريس في المدرسة النورية، والعزية والنفِيّسية والعلائية، وتقدم في دولة نور الدين أرسلان شاه، وتوجه منه رسولاً إلى بغداد مرات عديدة، وإلى الملك العادل بحلب، وناظر الفقهاء في ديوان الخلافة، وتولى القضاء بالموصل كما انتهت إليه رئاسة المذهب الشافعي بها، وتوفي سنة ٦٠٨هـ (١٢١١م) (ابن خلكان: وفيات الأعيان.- ج٤، ص٢٥٣-٢٥٥ ؛ ابن الفوطي. تلخيص مجمع الآداب في معجم الألقاب، تحقيق مصطفى جواد.- بغداد: مديرية إحياء التراث القديم (د.ت).- ج٤، ق٢، ص٨٥٦ مع اختلاف في تسمية بعض المدارس التي دَرَّس بها الشيخ عماد الدين ؛ السبكي. طبقات الشافعية الكبرى، ج٨، ص١٠٩ ـ ١١٠).

(٤) ابن الأثير. التاريخ الباهر.- ص٢٠١.

كما كان الأمير مُجَاهد الدين يَرَنْقَش[1] مولى الملك عماد الدين مودود صاحب سنجار (٥٦٦ ـ ٥٩٤هـ/١١٧٠ ـ ١١٩٧م) شديد التعصب على مذهب الشافعي، يُكثر ذم الشافعية ويقع فيهم، فمن تعصبه أنه بنى مدرسة للحنفية بسنجار، وشرط أن يكون النظر في وقوفها إلى الحنفيين من أولاده دون الشافعيين،[2] وأن يكون البوّاب والفرَّاش على المذهب الحنفي.[3] يقول ابن الأثير: " وهذا في غاية التعصب".[4]

وقد كانت أبرز الجهود التي بذلها نور الدين محمود لتمكين المذهب السني في بلاد الشام. تلك التي قام بها في حلب (قاعدة حكمه الأولى) والتي كان المذهب الشيعي منتشرًا بها على الطريقة الإمَامِيَّة.[5] بالإضافة إلى قلّة من الشيعة الإسمَاعِيْلِيّة[6] الذين

---

(١) الأمير مُجَاهد الدين أبو منصور يَرَنْقَش بن عبدالله التركي مملوك الملك عماد الدين زنكي بن قطب مودود بن عماد الدين زنكي، ومتولى تدبير دولة ولده قطب الدين محمّد بسنجار بعد وفاة سيده عماد الدين سنة ٥٩٤هـ (١١٩٧م) (ابن الأثير. المصدر السابق.- ص١٩١ ؛ ابن الفوطي. تلخيص مجمع الآداب.- ج٥، ص٨٧ ـ ٨٨).

(٢) ابن الأثير. المصدر السابق.- ص١٩١ ؛ ابن خلكان: المصدر السابق.- ج٢، ص٣٣١.

(٣) ابن خلكان: المصدر السابق.- ج٢، ص٣٣١.

(٤) المصدر السابق.- ص١٩١.

(٥) الإمَامِيّة: هم القائلون بإمامة علي رضي الله عنه بعد النبي صلى الله عليه وسلم نصًا ظاهرًا، وتعيينًا صادقًا من غير تعريض بالوصف، بل إشارة إليه بعينه، وإن عليًا نصَّ على إمامة ابنه الحسن، ونصّ الحسن على أخيه الحسين، ونصَّ الحسين على تعيين ابنه علي زين العابدين، ثم افترقوا بعد ذلك إلى فرق كثيرة. (الشهرستاني، أبو الفتح محمد بن عبدالكريم، ت ٥٤٨هـ/١١٥٣م. الملل والنحل، تحقيق، عبدالعزيز محمد الوكيل.- بيروت: دار الفكر، ١٤٠٠هـ /١٩٨٠م.- ص١٦٢ـ ١٦٥.

(٦) الإسمَاعِيلِيّة: هم الذين يقولون: إن جعفر الصادق أوصى بالإمامة من بعده لابنه إسماعيل، وقد اختلفوا في موته في حياة أبيه، فمنهم من قال: إنه لم يمت، إلا أنه أظهر موتة تقية من خلفاء بني العباس، ومنهم من قال بموته، لكن النص عليه في نظر هؤلاء لا يرجع قهقري، والفائدة من النص بقاء الإمامة في أولاد المنصوص عليه دون غيرهم، فالإمام بعد إسماعيل: ابنه محمّد وهؤلاء يقال لهم: المُبَارَكِيّة، ثم منهم من وقف على محمّد بن إسماعيل، وقال برجعته بعد غيبته، ومنهم من ساق الإمامة في المستورين منهم: ثم في الظاهرين القائمين بعدهم، وهم الباطنية (الشهرستاني. المصدر نفسه.- ص١٦٧ـ١٦٨).

ازداد نفوذهم في حلب في عهد الملك رَضوان بن تُتُش السلجوقي (٤٨٨ـ٥٠٧هـ/١٠٩٥ـ١١١٣م).[١] وكان الملك رضوان قد ارتمى في أحضان الإسماعيلية حينما أحسّ بفشله في إسقاط حكم أخيه دُقاق في دمشق، وبالتالي توحيد بلاد الشام في بداية حكمه، ولقوا منه كل تكريم حتى أنه أقام لهم دار دعوة بحلب مما ساعد على قوتهم، واشتداد شوكتهم في المنطقة.[٢]

ومن هؤلاء وأولئك تكوّن مجتمع الشيعة في حلب، ومثّلوا غالبية السكان فيها، وكان معظمهم شديد التعصب لمذهبه، حتى أن حاكم حلب الأرْتِقِي سليمان بن عبدالجبار[٣] حينما عزم على بناء أول مدرسة سنيَّة فيها سنة ٥١٦هـ (١١٢٢م) (وهي المدرسة الزُّجَاجِيَّة) لم يمكنه الحلبيون من ذلك لغلبة نزعة التشيع فيهم، فكان كلما بنى فيها شيئًا في النهار أخربوه ليلاً إلى أن أعياه ذلك فأحضر الشريف زَهْرَة بن علي الحُسَيْنِيّ،[٤] وأوكل إليه أمر الإشراف على بنائها ليكفّ عنه الشيعة، فلازم الشريف

(١) هو الملك رضوان بن تُتُش بن ألب أرسلان السلجوقي، الذي حكم في المدة مابين (٤٨٨ـ٥٠٧هـ/١٠٩٥ـ١١١٣) (ابن القلانسي. تاريخ دمشق.- ص٢١٢، ٣٠١ ؛ ابن الأثير. الكامل.- ج٨، ص ١٧٦، ٢٧ ؛ ابن العديم. زبدة الحلب.- ج٢، ص١٢٠، ١٦٤).

(٢) ابن القلانسي. المصدر السابق.- ص٣٠٢ ؛ ابن العديم. المصدر السابق.- ج٢، ص١٤٥. ولمزيد من المعلومات حول موقف الملك رضوان من الشيعة راجع: (إبراهيم بن محمد المزيني. إمارة حلب بين تصارع القوى الإسلاميّة ومواجهة الصليبيين، (رسالة ماجستير: ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م).- ط١.- الرياض: المؤلف، ١٤٢٤هـ(٢٠٠٣م)، ٩٤-٩٨).

(٣) سليمان بن عبدالجبار: بدر الدولة الأرتقي ثاني الحكام الأراتقة في حلب، وكان قد حكمها بعد وفاة عمه إيلغازي أول حكام هذه الأسرة بحلب سنة ٥١٦هـ (١١٢٢م) حتى سنة ٥١٧هـ (١١٢٣م)، وكان بدر الدولة هذا قد قام بعدة أعمال إصلاحية في حلب، ومنها بناؤه لهذه المدرسة. (ابن الأثير. الكامل.- ج٨، ص٣٠٩، سبط ابن الجوزي.مرآة الزمان.- ج٨، ق١، ص١٠٣ ؛ ابن العديم. زبدة الحلب.- ج٢، ص٢٠٩).

(٤) كان الشريف الحُسَيني من أكابر الشيعة، ومن ذوي الرأي والوجاهة لديهم، كما كان معظمَّ القدر عند الملوك، فقد كان رفيقًا للملك عماد الدين زنكي حتى وفاته (ابن شداد: الأعلاق الخطيرة. قسم حلب. ص٩٧).

زهرة بناء تلك المدرسة حتى تمّ الانتهاء منها.[1] وهذا يدل على مدى تغلغل هذا المذهب في حلب في تلك الفترة التي سبقت الحكم الزنكي لها، وكان على نور الدين محمود أن يقف موقفًا متشددًا من المذهب الشيعي في حلب ليتمّ تقويضه وإحلال المذهب السني مكانه، وبالفعل فقد اتخذ نور الدين أولى خطوات هذه السياسة في رجب من سنة ٥٤٣هـ (١١٤٨م) (أيّ بعد عامين تقريبًا من تسلمه الحكم) حيث أمر بإبطال بعض مظاهر التشيع في حلب، كالآذان بحيّ على خير العمل، والتظاهر بسب الصحابة رضوان الله عليهم، وأنكر ذلك إنكارًا شديدًا، وحذّر من مغبة العودة إلى ما نُهوا عنه،[2] وكان تأثير ذلك شديدًا على الشيعة، يقول ابن القلانسي: " وعظم هذا الأمر على الإسماعيلية وأهل التشيع، وضاقت له صدورهم، وهاجوا وماجوا، ولكنهم سكنوا، وأحجموا بالخوف من السطوة النورية المشهورة والهيبة المحذورة ".[3]

كما قام نور الدين بخطوة أخرى وهي: إبعاد بعض زعماء الشيعة عن حلب، ممن كان يخشى خطرهم، وكان على رأس المُبعَدين والد المؤرخ ابن أبي طَي،[4] ولكن أهم تلك الخطوات التي كان لها أثرها الواضح على النشاط العلمي هو قيام نور الدين بإنشاء المدارس السُنّية على المذاهب الأربعة (الحنفي، الشافعي، الحنبلي، المالكي) ليضمن نشر المذهب السني في المنطقة، ومواجهة الفكر الشيعي، وتقليص نفوذه، وإيجاد طائفة

(١) المصدر نفسه.- ص٩٧.

(٢) ابن القلانسي. تاريخ دمشق.- ص٤٦٨ ؛ ابن العديم. المصدر السابق.- ج٢، ص٢٩٣، أبوشامة. كتاب الروضتين.- ج١، ق. ص١٤٧.

(٣) المصدر السابق.- ص٤٦٨.

(٤) أبوشامة. كتاب الروضتين.- ج١، ق٢، ص٤٤١ ؛ ولم أعثر في المصادر على ترجمة لهذا الرجل، وكل ما وُجد عن ابنه يحيى بن أبي طي بن حميدة المتوفى سنة ٦٣٠هـ (١٢٣٢م) (الطباخ، محمد راغب، ت ١٣٧٠هـ/١٩٥١م. أعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء.- حلب: المطبعة العلمية، ١٣٤٣هـ/ ١٩٣٥م.- ج٤، ص٣٧٨).

من المعلمين السنيين المؤهلين لتدريس المذهب السني، ونشره في المناطق المجاورة، وكذلك تخريج موظفين سنيين يشاركون في إدارة شؤون الدولة، فكانت تلك المدارس لبنة أساسية في تشجيع الحياة العلمية وازدهارها في ذلك العهد.

وكانت أولى المدارس التي أنشأها في حلب عام ٥٤٣هـ (١١٤٨م) هي (المدرسة الحَلاَّوِيّة) التي أوقفها لتدريس المذهب الحنفي، وأسند مهمة التدريس فيها للشيخ بُرها الدين البَلْخي الفقيه الحنفي المتوفى سنة ٥٤٨هـ (١١٥٣م) وكان قد استدعاه من دمشق لهذا الغرض.[١]

وقد كان الشيخ برها الدين هو وتلامذته خير عون لنور الدين على دعم موقفه ضد الشيعة، فقد ذكر ابن العديم أنه جلس تحت المنارة ومعه الفقهاء وقال لهم: من لم يؤذن الأذان المشروع فألقوه من المنارة على رأسه " فأذنوا الأذان المشروع، واستمر الأمر منذ ذلك اليوم.[٢]

وكانت المدرسة الثانية التي أنشأها نور الدين في حلب هي (المدرسة النِفَّرِيَّة النُورِيّة)، وقد أنشأها سنة ٥٤٤هـ (١١٤٩م) لتدريس المذهب الشافعي واستقدم للتدريس بها من دمشق أيضًا الفقيه قُطب الدين النَيْسَابُورِي المتوفى سنة ٥٧٨هـ (١١٨٢م).[٣]

وكان نور الدين محمود حريصًا دائمًا على التوحيد بين المذاهب السنية لتتوحد جهود علماء السنة على اختلاف مذاهبهم ضد الشيعة، لذا نجد أنه لم يكتف بإنشاء المدارس للحنفية والشافعية، بل عني أيضًا بالفقهاء الحنابلة والمالكية، فأوقف زاويتين في جامع حلب، إحداهما لتدريس الفقه الحنبلي والأخرى لتدريس الفقه المالكي.[٤]

---

(١) ابن شداد: الأعلاق الخطيرة، (قسم حلب).- ص١١٠-١١١.
(٢) زبدة الحلب.- ج٢، ص٢٩٤.
(٣) ابن شداد: المصدر السابق.- (قسم حلب)، ص١٠٠.
(٤) المصدر نفسه.- ص١٢١.

وبذلك نجح نور الدين محمود في توحيد جهود عُلماء السنة لمحاربة الفكر الشيعي، وكان قد أدرك أيضًا أهمية تدريس الحديث الشريف والاعتناء به لمناهضة الفكر الشيعي، فأمر بتخصيص بعض الزوايا لذلك، فأوقف زاوية بجامع حلب لتدريس الحديث، كما أوقف زاوية أخرى للغرض ذاته،[(١)] وهذا كله بداية لما قام به في دمشق من إنشاء أول مدرسة تخصصية لتدريس الحديث وهي دار الحديث النُوْرِيّة التي أسند مهمة المشيخة فيها للحافظ ابن عساكر المتوفى سنة ٥٧١هـ (١١٧٦م)، وكان الاعتناء بدراسة الحديث وتدريسه من أبرز سمات التعليم في فترة حكم نور الدين محمود.

ويوضح عبدالمجيد أبو الفتوح أهمية دراسة الحديث الشريف في تلك الفترة وبخاصة في البيئات التي يغلب عليها التشيع، فيذكر: أن ذلك جزءًا من حركة الإحياء السني، ومناهضة الفكر الشيعي، ذلك أن الشيعة لا يعترفون بصحة الحديث إلا إذا كان مرويًّا عن أهل البيت، وأنهم يعتمدون على كتب خاصة بهم جمعها بعض رجالهم تُمثل مصادر الحديث الصحيح عندهم وكان طبيعيًا أن ينتهي بهم هذا إلى الطعن في صحاح السنة.[(٢)]

وبالفعل فقد كانت دراسة الحديث والاهتمام به أسلوبًا جديدًا استخدمه نور الدين في مناهضة الشيعة، ونجح في ذلك.

تلك أبرز الجهود التي نهض بها نور الدين محمود في حلب لنشر المذهب السني، ومواجهة الفكر الشيعي، وقد آتت تلك الجهود ثمارها وخاصة فيما يلي:

أولاً: في مجال تحويل مدينة حلب إلى مركز من مراكز السنة بعد أن كانت قاعدة للمذهب الشيعي، وقد علّق ابن عساكر على ذلك النجاح بقوله عن نور الدين:

---

(١) المصدر نفسه.- ص١٢٢.

(٢) عبدالمجيد أبو الفتوح. التاريخ السياسي والفكري للمذهب السني في المشرق الإسلامي من القرن الخامس الهجري حتى سقوط بغداد.- جدة: عالم المعرفة، ١٤٠٣هـ (١٩٨٣م).- ص ٢٥٥.

"وأظهر بحلب السنة حتى أقام شعار الدين، وغيّر البدعة التي كانت لهم في التأذين وقمع بها الرافضة المبتدعة، ونشر فيها مذاهب أهل السنة الأربعة".[1]

وثانيًا: في مجال دعم الحركة التعليمية، فقد كان تشجيع نور الدين على إنشاء المدارس السنية على المذاهب الأربعة مثلاً لمن حوله من الأمراء والوزراء فتسابقوا على إنشاء دُوُر التعليم المختلفة التي قامت بأثر بارز في تنشيط الحياة العلمية في ذلك العهد، كما أن تخصيص مدارس لتدريس الحديث الشريف كان من ابرز إيجابيات التعليم في ذلك العصر، وكانت دعمًا للدراسات الشرعية التخصصية وبالتالي دعمًا للحياة العلمية في العهد الزنكي.

وهنا يبرز سؤال ملح حول موقف الشيعة من سياسة نور الدين تلك وما هي أبرز إجراءاتهم؟

فمن المؤكد أن الشيعة لم يتقبلوا ذلك التغيير بسهولة، بل سكتوا على مضض، وأخذوا يتحينون الفرص للانتقام من تلك السياسة والعودة بحلب إلى ماكانت عليه من قبل، وكان لهم محاولات عديدة في هذا الصدد: كان أبرزها:

ما حدث في عام ٥٥٢هـ (١١٥٧م) عندما مُرض نور الدين محمود بحلب حتى أرجف بموته، ووصل أخوه نصرة الدين أمير أميران ليخلفه في مملكته، فمنعه والي القلعة مجد الدين من الدخول إليها، وعصى عليه، فثار الأحداث[2] في حلب مع

---

(١) تاريخ دمشق (مخطوط).- ج١٦، ص٢٩٣.

(٢) الأحداَث: منظمات عسكرية مدنية أوجدتها الحاجة إلى الأمن، وقد وُجدت أول الأمر في بلاد الشام نظرًا لتدهور القوى السياسية المركزية فيها، وقد تشكلت تلك المنظمات منذ أواسط القرن الثالث الهجري، وأطلق على زعيم المنظمة: اسم (رئيس البلد) وكان من أبرز مهام هذه الفئة هو المحافظة على الأمن داخل المدينة والمشاركة في الدفاع عنها مع الجند النظاميين، إذا ماتعرضت لغزو خارجي، وقد تتولى الدفاع عن البلد بمفردها، كما أنها تقف أحيانًا ضد حاكم المدينة إذا احتاج الأمر إلى ذلك، وقد انتشرت تلك المنظمات في أغلب مدن الشام، إلا أن أحداث حلب ودمشق اشتهروا أكثر من غيرهم لكثرة أعدادهم، ولما قاموا به من أدوار بارزة في تاريخ هاتين المدينتين (شاكر مصطفى " دخول الترك الغُزّ إلى الشام" بحث ضمن أعمال المؤتمر الدولي لتاريخ بلاد الشام بعمان، الأردن سنة ١٣٩٤هـ /١٩٧٤م)، ص٣١٥-٣١٦).

الشيعة، وأبدوا استعدادهم لنصرته شريطة أن يسمح لهم بالعودة إلى ممارسة شعائرهم التي أبطلها أخوه نور الدين، ومنها " الأذن بحيّ على خير العمل "، فوعدهم نصرة الدين بذلك، واشتعلت الفتنة بين السنة، والشيعة، وقام بعض الشيعة بنهب بعض مراكز السنة، ومنها المدرسة العَصرُونِيّة، وبعض دُوُر أهل السنة، فلما علم نور الدين بالأمر أرسل إلى قاضي المدينة أبي الفضل هبة الله ابن أبي جَرَادَة بأن يمضي إلى الجامع، ويُصلي بالناس، ويُعاد الآذان إلى ماكان عليه، فشرع المؤذنون بالأذان السني، واجتمع تحت منارة الجامع من عوام الشيعة خلق كثير، فخرج إليهم القاضي ابن أبي جرادة وحذّرهم، وبيّن لهم أن نور الدين قد شُفي، وأنه أمر بإعادة الأمور إلى ماكانت عليه، فانصرفوا خوفًا من نور الدين وسكنت الفتنة.(١)

وجاءت محاولتهم الثانية في شوال من عام ٥٦٤هـ (١١٦٩م) عندما قاموا بإحراق جامع حلب محاولة لتعطيل ماكان يقام فيه من دروس علمية لمذاهب السنة، فرد عليهم نور الدين بإعادة بناء ما احترق من الجامع وتوسعته، وزيادة الوقف عليه، وعلى حِلَق التعليم التي تُقام فيه،(٢) وقد تزامن هذا الحدث مع استيلاء نور الدين على مصر الفاطمية في ربيع الآخر من هذا العام.

وكانت محاولتهم الثالثة حينما ثاروا في وجه أهل السنة اغتنامًا لفرصة اضطراب الأمور بعد وفاة نور الدين محمود سنة ٥٦٩هـ (١١٧٤م) فهاجموا المدارس السنيّة، وقتلوا الشيخ أبا العباس المَغْرِي وكان له درس في المدرسة الزُّجاجِيّة بحلب، كما قام الشيعة بنهب دُوُر الأغنياء من أهل السنة، ووقع بين الفريقين قتال شديد راح ضحيته جماعة منهما.(٣)

---

(١) ابن القلانسي. تاريخ دمشق.- ص٥٣٣-٥٣٤ ؛ ابن العديم، زبدة الحلب.- ج٢، ص٣٠٨-٣١٠، ولكنه يصنف تلك الحادثة ضمن حوادث سنة ٥٥٤هـ، مع أنَّ سياق الأحداث تؤكد حدوثها سنة ٥٥٢هـ (١١٥٧م).

(٢) ابن شداد: الأعلاق الخطيرة، (قسم حلب)، ص٣٢.

(٣) ابن العديم. زبدة الحلب.- ج٣، ص١٦.

أما الجهـود التي بذلها نور الدين محمود في دمشق بعد ضمها إلى مملكته في صفر سنة ٥٤٩هـ (١١٥٤م) فكـانت تهـدف في الغـالب إلى الـنهوض بالفكـر السـني، وذلـك للاختلاف بين بيئتي حلب، ودمشق، حيث إن الغالبية في دمشق لأهل السنة، لذا اختلف المنهج الذي اتبعه نور الدين لتحقيق هدفه الذي يسعى إليه، فأخذ يركز جهوده في دمشق على إنشاء المدارس السنية فيها على المذاهب الأربعة، وأوقف عليها الأوقاف الغنية للصرف عليها وعلى المشتغلين بها.[١]

وكانت أشهر المدارس التي أنشأها بدمشق: المدرسة النُورية الكبرى لتدريس المذهب الحنـفي.[٢] والمدرسـة العِمَادِيّة (نسبة للعماد الأصفهاني[٣] المتوفى سنة ٥٩٧ هـ/١٢٠١م) وهي لتدريس المذهب الشافعي[٤]، كما قام أيضًا بإنشاء دار الحديث النُورية[٥] والتي تُعد من أبرز الأعمال التي قام بها نور الدين محمود لنشر المذهب السني

---

(١) ابن عساكر.تاريخ دمشق (مخطوط).- ج١٦، ص٢٩٣-٢٩٤.
(٢) أبو شداد: الأعلاق الخطيرة (قسم دمشق)، ص٢٠٣.
(٣) هو أبو عبدالله عماد الدين محمّد بن محمّد بن حامد بن أُله والملقب بالعماد الكاتب، ولد بأصبهان سنة ٥١٩هـ (١١٢٥م) ونشأ بها في صغره، ثم قدم بغداد وانتظم في المدرسة النظامية بها، وأتقن الفقه والنحو والأدب، وكان شافعي المذهب، وقد اتصل بالوزير عون الدين بن هُبَيْرة فولاه النظر بالبصرة، ثم بواسط، فلما مات الوزير لم يرق للعماد المقام، فمضى إلى دمشق سنة ٥٦٢هـ (١١٦٧م) والتحق بخدمة الملك نور الدين محمود، فوكل إليه كتابة الإنشاء، ووكل إليه التدريس في المدرسة التي عُرفت باسمه، وبعد وفاة نور الدين محمود، التحق العماد بخدمة الملك الناصرصلاح الدين وارتفعت منزلته عنده فلما توفي الملك صلاح الدين، اختلت أحواله، فانشغل بتصانيفه حتى وفاته بدمشق سنة ٥٩٧هـ (١٢٠١م) (ياقوت. معجم الأدباء.- ج١٩، ص١١-٢٨ ؛ أبوشامة.ذيل الروضتين.- ص٢٧ ؛ ابن خلكان: وفيات الأعيان.- ج٥، ص١٤٧-١٥٣ ؛ السبكي. طبقات الشافعية.- ج٦، ص١٧٨-١٨٣).
(٤) النعيمي. الدارس.- ج١، ص٤٠٧.
(٥) ابن الأثير. التاريخ الباهر.- ص١٧٢ ؛ أبوشامة. كتاب الروضتين.- ج١، ق١، ص٢٣.

في مملكته، وكذلك في مواجهة الوجود الصليبي في المنطقة. بالإضافة إلى قيامه بإنشاء العديد من مكاتب الأيتام التي تُعنى بتربية النشء تربية سُنِّيَّة، وأجرى عليهم وعلى معلميهم الجرايات الوافرة.[1] كما كان له دور كبير في التوجيه لإعادة مصر إلى الصف السني، حقيقة أنه لم يقدر له أن يحكم مصر حكمًا مباشرًا، ولم تتهيأ له الفرصة ليؤسس فيها دورًا تعليمية مهمتها تغيير الاتجاه الشيعي في هذا الإقليم، وإعادته إلى رحاب السنة مرة أخرى، ولعل ما قام في مصر من هذا القبيل يُعد في حساب الأيوبيين، فقد كان دور نور الدين يتمثل في دعوته لتغيير النظام القضائي بها بحيث يعتمد على المذهب السني بدلاً من المذهب الشيعي، وذلك بعد ضم مصر مباشرة سنة ٥٦٤هـ (١١٦٩م)، وقد حاول أن يُسند هذا الأمر إلى القاضي شرف الدين ابن أبي عصرون المتوفى سنة ٥٨٥هـ (١١٨٩م)، وقد ذكر أبو شامة أنه وقف على كتاب بخط نور الدين إلى ابن أبي عصرون، وكان بحلب - يطلب منه التوجه إلى مصر ليتولى قضاءها، ومما قاله للقاضي ابن أبي عصرون: " أنت تعلم أن مصر اليوم قد لزمنا النظر فيها، فهي من الفتوحات الكبار التي جعلها الله تعالى دار إسلام بعد ماكانت دار كفر ونفاق، فللّه المنة والحمد. إلا أن المقدم على كل شيء أمور الدين التي هي الأصل، وبها النجاة، وأنت تعلم أن مصر وإقليمها ماهي قليلة، وهي خالية من أمور الشرع ... والآن فقد تعيّن عليك وعليّ أيضًا أن ننظر إلى مصالحها، ومالنا أحد اليوم لها إلا أنت... فيجب عليك، وفقك الله، أن تشمر عن ساق الاجتهاد، وتتولى قضاءها، وتعمل ماتعلم أنه يقربك إلى الله. وقد برئت ذمتي، وأنت تجاوب الله".[2] ولكن القاضي ابن أبي عصرون لم يتول قضاء مصر، وربما حالت دون ذلك ظروف لم نقف عليها، وقد تولى

---

(١) ابن عساكر. تاريخ دمشق (مخطوط) جـ١٦، ص٢٩٤.

(٢) كتاب الروضتين. - ج١، ق٢، ص٤٤٢.

هذا المنصب بدلاً منــه القاضي صــدر الدين عبدالملك بن دِرْبَاس الكردي الشافعي عام ٥٦٦هـ (١١٧٠م) بأمر مـن صـلاح الديـن الأيوبـي، فبطل بذلـك القضـاء الشيعي مـن مختلف الديار المصرية.(١)

وإذا كانت معظم الجهود التي بذلها نور الدين في دعم المذهب السني قد تركزت في حلب، ودمشـق، ومصـر، فإنه لا يعني إهمـال بقية المناطق الخاضعة لنفوذه، بل إنه أنشأ المدارس السنية في كثير منها، يقول عنه ابن خلكان: " إنه بنى المدارس في بلاد الشام الكبار مثل: دِمشـق، وحَلَـب، وحِمّـص، وبَعْلَبكَ، ومنْبج، والرّحبَة ... وبنى بمدينة المَوْصِل الجامع النُوري ورتـب لـه مايكفيه، وبحمَـاة الجـامع الـذي عـلى نهـر العاصي، وجامع الرُّها، وجامع مَنْبج ".(٢)

وقـد سـاعدت تـلك المدارس على نشر المذهـب السني ودعمه في المنطقة، وبالتالي كـانت عـاملاً مشـجعًا عـلى ازدهـار الحياة العلمية ونشاطها في ذلك العهد بما كان يُدَرَّس فيها مـن علـوم ومعارف مختلفة، وبما خرجته تلك المدارس من علماء متخصصين قدموا خدمات جليلة في مجال التدريس والبحث والتأليف.

ومـن جهة أخرى فقد علَّل أحد الباحثين ظهور المدارس وانتشارها في العهد الزنكي بهـذه الكـثرة الملحوظة بأنـه رد فعـل لـتدهور الدعايـة الشيعية الإسماعيـلية الـتي فقـدت سيطرتها أولاً في بـلاد الشـام لانحسـار سـلطة الفاطميين عنها، ثم انهارت أخيرًا في مصر بعد سقوط الدولة الفاطمية أمام جيوش نور الدين محمود.(٣)

---

(١) البنداري. سنا البرق الشامي.- ق١، ص١٠٧ـ١٠٨ ؛ ابن تغري بردي. النجـوم الزاهرة.- ج٥، ص٣٨٥.

(٢) وفيات الأعيان.- جـ٥، ص١٨٥.

(٣) محمّد حلمي أحمد. " الحياة العلمية في مصر والشام : ٥٢١ ـ ٦٤٨هـ/١١٢٧ـ١٢٥٠م" بحث في المجلة المصرية، المجلد السابع، سنة(١٩٥٨م).- ص٦ـ٧.

ولعل استعراض المواد التي كانت تدرس في هذه المدارس خير دليل على صحة هذا التعليل، ذلك أن مواد الدراسة في تلك المدة كانت تختلف من مدرسة لأخرى تبعًا لاختلاف أعمار الطلاب من جهة، ولاختلاف المذاهب التي أنشئت من أجلها من جهة أخرى، ولكنها مع هذا كانت تتفق جميعًا في أمر واحد هو تجنب الدراسات الفلسفية، ولعل ذلك يرجع إلى أن المذهب الشيعي الإسماعيلي - بصفة خاصة - كان يعتمد في دعايته السرية والعلنية، إلى جانب العاطفة الروحية على الجدل المنطقي، وعلى الأسس الفلسفية إلى حد كبير، ولهذا كانت المواد التي تدرس في مدارس هذا العهد كانت تتركز حول دراسة القرآن الكريم، والحديث الشريف، والمذاهب الفقهية الأربعة، وكان اختلاف هذه المذاهب مع بعضها في بعض المسائل الفرعية سببًا في تجميع هذه المسائل الخلافية في دراسات خاصة عرفت باسم " علم الخلاف" وقد برع في هذا العلم كثير من علماء هذا العهد، وأُلفت فيه المؤلفات الكثيرة.[1]

وبعد: فقد كانت هذه أبرز الجهود التي بذلها الزَنكيُّون في سبيل نشر المذهب السني في بلادهم، ويتضح من هذه الجهود الأثر الكبير الذي شاركت به في دعم الحياة العلمية وازدهارها في ذلك العهد، وذلك بما أنشئ من المدارس وَدُور التعليم المختلفة التي أخذت على عاتقها مهمة نشر المذهب السنين ومقاومة المذهب الشيعي واقتلاعه من المنطقة، كما يتضح ذلك الأثر من خلال تتبع مناهج الدراسة في تلك الدُوُر، والتي تركزت على تدريس العلوم الشرعية وما يتصل بها من علوم مساعدة، إضافة إلى ما تميز به ذلك العهد عن غيره من العهود الإسلاميّة من اهتمام كبير بدراسة الحديث الشريف، وإنشاء دُوُر خاصة به قدمت مع دُوُر التعليم الأخرى خدمات جليلة ساعدت على ازدهار التعليم وتطوره في ذلك العهد.

---

(١) سيرد تفصيل ذلك في الفصل الرابع ضمن المبحث الخاص بالعلوم الشرعية.

٣ ـ استقرار الدولة وانتشار الأمن:

أولى حكام العهد الزنكي الأمن في بلادهم اهتمامًا كبيرًا، وحرصوا على نشره، ووقفوا بحزم أمام من يخل به، فوثق الناس بهم في الدفاع عن حياتهم وأموالهم، وأعراضهم ـ واتجهوا للاستفادة من فرص التعليم المُتاحة لهم وهم آمنون مطمئنون. وقد تواترت لدى المؤرخين المعاصرين للحكم الزنكي أخبار الاهتمام بالعدل وانتشار الأمن، وبخاصة عصر الملك العادل نور الدين محمود ، فقد اهتم بنشر الأمن في بلاده، وبنى في كثير منها دورًا للعدل، واستقدم لها القضاة، وكان كثيرًا ما يحضر هذه الدُوُر ويستمع من المتظلمين الدعاوى والبينات حرصًا منه على إقامة العدل.[1]

وكان بذلك جديرًا بلقب الملك العادل، قال عنه ابن الأثير: " قد طالعت تواريخ المتقدمين قبل الإسلام وفيه إلى يومنا هذا فلم أر فيها بعد الخلفاء الراشدين، وعمر بن عبدالعزيز ملكًا أحسن سيرة من الملك العادل نور الدين، ولا أكثر تحريًا للعدل والإنصاف منه، فقد قصر ليله ونهاره على عدل ينشره، وجهاد يتجهز له، ومظلمة يزيلها، وعبادة يقوم بها وإحسان يوليه، وإنعام يسديه".[2]

وكان لشدة عناية نور الدين بالعدل أن اتخذ لنفسه مجلسًا بالمسجد المعلق بدمشق كل يوم ثلاثاء لسماع شكاوي الناس، وليصل إليه كل أحد من المسلمين وأهل الذمة رجالاً ونساء،[3] وظلّ على هذا الأمر حتى أمر ببناء دار العدل الكبرى بدمشق وكان أول من بنى دارًا لكشف المظالم،[4] فنقل مجلسه إليها مرتين في الأسبوع، وقيل أربع أو خمس مرات للنظر في أمور الرعية، وكشف ظلاماتهم.[5]

---

(١) ابن عساكر. تاريخ دمشق (مخطوط).- ج١٦، ص٢٩٤.
(٢) التاريخ الباهر.- ص١٦٣.
(٣) ابن قاضي شهبة. الكواكب الدُريّة في السيرة النُوريّة، ص٢٥.
(٤) ابن الأثير. الباهر.- ص١٦٨.
(٥) أبوشامة. كتاب الروضتين.- ج١، ق١، ص٣٣.

وكان يُحضر معه القاضي كمال الدين الشهرزوري، وكبار العلماء من المذاهب الأربعة مُكونين مجلسًا استشاريًا لاتخاذ القرارات النهائية.[1]

وقد علّق ابن الأثير على تلك الأعمال بقوله: " وأمنت بلاده مع سعتها وقلّ المفسدون ببركة العدل واتباع الشرع المطهر ".[2]

كما اشتهر الملك عز الدين مسعود بن قطب الدين مودود (٥٧٦ ـ ٥٨٩هـ/ ١١٨٠ ـ ١١٩٣م) بالحرص على نشر العدل بين رعيته، وحضور المحاكمات القضائية بنفسه حتى يتم الانتصاف للمظلوم من الظالم حتى ولو كان من أقرب الناس إليه، وأعظمهم منزلة عنده.[3]

كما ثبت عن الملك القاهر عز الدين مسعــود بن نور الدين أرسلان شاه (٦٠٧ ـ ٦١٥هـ/١٢١٠ ـ ١٢١٨م) أنه كان يجلس في دار العدل بالموصل للإنصاف وأخذ الحق للضعفاء من الأقوياء، والإشراف على المحاكمات التي تُعقد فيها.[4]

وكان من نتيجة حرص هؤلاء الحكام على إقامة العدل ونشر الأمن في بلادهم أن استقرت دولتهم وأمن الناس في أوطانهم على أنفسهم وأموالهم، وكان لذلك أثره في نشاط الحياة العلمية في ذلك العهد، وقد أوضح أبو شامة ذلك الأثر في حديثه عن النهضة العلمية التي شهدتها بلاد الشام في عصر نور الدين محمود وأنها أصبحت مقرًا للعلماء والفقهاء والصوفية وذلك: " لصرف همته إلى بناء المدارس والرُبُط، وترتيب أمورهم، والناس آمنون على أموالهم وأنفسهم ".[5]

---

(١) ابن الأثير. المصدر السابق.- ص١٦٨.
(٢) التاريخ الباهر.- ص١٦٧.
(٣) المصدر نفسه.- ص١٨٨.
(٤) نفسه.- ص٢٠٣.
(٥) كتاب الروضتين.- ج١، ق١، ص٣٤.

كما كان لاستقرار الدولة وانتشار الأمن فيها أثر كذلك في وفرة الإنتاج العلمي وانتعاش حركة التأليف، وقد أكّد الحافظ ابن عساكر ذلك الأثر في حديثه عن الصعوبات التي واجهته في إنجاز كتابه الكبير (تاريخ مدينة دمشق) بقوله: " فبدأت به عازمًا على الإنجاز له والإتمام، فعاقت عن إنجازه وإتمامه عوائق الأيام من شدة الخاطر، وكلال الناظر، وتعاقب الآلام".[1] ولعله قصد بذلك عدم الاستقرار الذي كانت تعيشه الدولة البُورِيّة في دمشق.[2] في أواخر أيامها مما شغله عن إتمام تصنيف هذا الكتاب.

٤ ـ الوجود الصليبي في المنطقة:

كان الوجود الصليبي الذي رافق ولادة الدولة الزنكية، وعايشها حتى الانقراض، بل واستمر بعدها في أيام الدولتين الأيوبية والمملوكية: هو النفير الذي دوى، وأيقظ المسلمين من غفلتهم، ووحدهم بعد تفرقهم، وقد بعث هذا الغزو في الحياة العلمية الانتعاش، فأجج الكتاب، وأذكى حواس الشعراء، وأمدهم جميعًا بمعين دافق من المعاني والأفكار، وأصبح من يكتب في ذلك الوقت إنما يستجيب من محيطه، ويستمد من شعوره الإلهام، كما اتخذ أصحاب الأقلام من الوجود الصليبي في المنطقة موضوعًا، ومن الأطماع الصليبية والمصائب التي جلبوها صورًا، ولهذا اصطبغت الحياة العلمية وتلونت بروح ذلك العصر الذي غلب عليه طابع الجهاد في سبيل الله لحماية الدين ثم الوطن.

---

(١) تاريخ دمشق الكبير.- ج١، ص٣.

(٢) الدولة البورية: قامت في دمشق في المدة مابين (٤٩٧-٥٤٩هـ/١١٠٣-١١٥٤م) ومؤسس هذه الدولة هو ظهير الدين طغتكيْن أتابك المتوفى سنة ٥٢٢هـ (١١٢٨م) وكان أحد مماليك تاج الدولة تُتُش بن ألب أرسلان، وقد استمرت تلك الدولة إلى أن ضمها نور الدين محمود إلى ملكه سنة ٥٤٩هـ (١١٥٤م) أنظر: (شاكر مصطفى." طغتكين رأس الأسرة البورية، ومؤسسة النظام الأتابكي".- مجلة كلية الآداب والتربية بجامعة الكويت عدد (٢) سنة ١٩٧٢م.- ص٣٥ - ٨٧).

وقد شجّع حكام الأسرة الزنكية ذلك الاتجاه، واستغلوا وجود ذلك العدوان في المنطقة لبث روح الحماس لدى العلماء والأدباء لمواجهته بأقلامهم، ولم تشغلهم الأعمال العسكرية ضد الصليبيين عن رعاية العلم والأدب والاهتمام بالعلماء والأدباء، فقربوهم إلى مجالسهم واستمعوا إلى كتاباتهم، وشجعوهم على مواصلة البحث والتأليف، وعقد الندوات التي كثيرًا مايحرصون على حضورها، وقد زخر زمن الوجود الصليبي في المنطقة بالعديد من العلماء والشعراء والكتاب، وكان لكثير منهم مواقف تجاه الصليبيين سجلوها في نتاجهم العلمي استجابة لظروف تلك الحروب وملابساتها، وكانت هذه الفترة بحق أخصب فترات تاريخ المنطقة في مجال التأليف وبروز العلماء، كما كانت فترة نشاط في إنشاء المدارس ودُوُر التعليم التي تحملت على عاتقها عبء التوجيه لمقاومة هذا العدوان.

كما كان للوجود الصليبي في المنطقة أثر كبير في توجيه التعليم واختيار مناهجه، إذ أصبح التعليم في تلك الفترة مصبوغًا بلون من ألوان التوجيه المدروس والمخطط قوامه بث روح الجهاد وحبه في قلوب الناس، من خلال التركيز على تدريس العلوم الشرعية بفروعها المختلفة، والحرص على تتبع آثار السلف الصالح أكثر من الخوض في مسائل تتعلق بالعقل، وتعدد الآراء والخلافات، وكان الاتجاه إلى العناية بدراسة الحديث الشريف، وتشييد دور خاصة به يُعد من أبرز سمات هذا العهد، حيث بادر الملك نور الدين محمود بإنشاء أول دار تخصصية لتدريس الحديث الشريف في الإسلام، وهي دار الحديث النورية بدمشق.(1) ويُعبر هذا العمل عن إدراك نور الدين للظروف التي كانت تحيط بالمنطقة سواء مايختص بالنفوذ الشيعي، أو مايتمثل بالوجود الصليبي واحتلاله لأجزاء كبيرة من المنطقة.

(1) ابن الأثير. التاريخ الباهر.- ص١٧٢ ؛ أبوشامة. كتاب الروضتين.- ج١، ق١، ص٢٣، ابن واصل.مفرج الكروب.- ج١، ص٢٨٤.



وقد توافق أسلوب نور الدين في محاربة التشيع، وتهيئة الناس وإعدادهم للجهاد ضد الصليبيين، فكان الاهتمام بدراسة الحديث الشريف سلاحًا استخدمه نور الدين في كلا الموقعين، وكما نجح في تقويض المذهب الشيعي من منطقة الشام، والقضاء عليه نهائيًا من قاعدته مصر باحتلالها سنة ٥٦٤هـ (١١٦٩م)، فقد نجح هنا أيضا في توجيه ذلك السلاح لتهيئة الناس وإعدادهم للجهاد في سبيل الله وإحياء روح البطولة والاستشهاد لديهم، عن طريق تدريس الحديث الشريف، والعناية به، وخاصة مايتعلق منه بباب الجهاد. فكثر التأليف في فضائل الجهاد والحث عليه، ودراسة الأحاديث والآداب المتعلقة به، فأصبح علماء الحديث أكثر ملائمة لتوجيه التعليم لكثرة عنايتهم واهتمامهم بهذا التخصص.

وهذا الأمر يعكس للباحث سرّ اهتمام نور الدين محمود بهذا الفرع من العلوم الشرعية حيث " روى حديث المصطفى صلى الله عليه وسلم وأسمعه، وكان قد استجيز له ممن سمعه، وجمعه حرصًا منه على الخير في نشر السنة".[١]

وكان قد صنّف كتابًا جمع فيه فضائل الجهاد وأحاديثه، كما جمع له ابن الجوزي أحاديث العدل والجهاد في كتاب أسماه " البحر النُوري".[٢]

كان الاهتمام بعلم الحديث والتصنيف فيه لونًا من ألوان التوجيه الذي فرضه الوجود الصليبي على الدراسات في ذلك الزمن، فقد شارك الحافظ ابن عساكر المتوفى سنة ٥٧١هـ (١١٧٦م) في هذا المجال بجمع أربعين حديثًا في فضائل الجهاد في جزء واحد وإهدائه لنور الدين.[٣] وهذا الأمر يُعد من قبيل مشاركة العلماء في الجهاد ضد الصليبيين إضافة إلى ذلك فقد كان للوجود الصليبي أثر بارز في اتجاه عدد من الكتاب إلى كتابة

---

(١) ابن عساكر.تاريخ دمشق (مخطوط).- ج١٦، ص٢٩٥.
(٢) سبط ابن الجوزي.مرآة الزمان.- ج٨، ق١، ص٣١٣.
(٣) ياقوت الحموي. معجم الأدباء.- ج١٣، ص٧٨.

الملخصات والمعاجم المختصرة في كثير من العلوم نتيجة ما شاهدوه من ضياع بعض المؤلفات، أو تلفها بفعل الدمار الذي نتج عن استمرار هذه الحروب، فظهرت مجموعة من الملخصات والمختصرات لأمهات الكتب نتيجة الاهتمام بذلك.[1]

كما ظهر أثر الوجود الصليبي أيضًا في توجيه الكتابة التاريخية حيث ظهرت مؤلفات تاريخية تركزت مادتها العلمية على تتبع مراحل ذلك العدوان، وكتبت عن أبرز المعارك التي دارت بين المسلمين والصليبيين، وهي مؤلفات كثيرة، لعل من أبرزها: " الفتح القُسي في الفتح القُدسي" للعماد الأصفهاني المتوفى سنة ٥٩٧هـ (١٢٠١م)، والنوادر السلطانية في المحاسن اليوسفية" لبهاء الدين ابن شَداد المتوفى سنة ٦٣٢هـ (١٢٣٤م) وغيرها من المؤلفات التي اهتمت بالتاريخ لذلك الزمن، وتتبعت مراحل النزاع بين المسلمين والصليبيين.

كما وُجد من ضمن تلك الآثار اهتمام المسلمين وحرصهم على معرفة لغة الصليبيين، فقد حرص بعض العلماء على تعلم اللغات التي يتكلم بها الصليبيّون للقيام بدور الترجمة بينهم وبين المسلمين، وليتولى مهمة الرّد على رسائل ملوكهم بلغاتهم، وكذلك للمشاركة في المناظرات التي كان يعقدها المسلمون للرّد على الصليبيين وإظهار ما في دينهم من باطل ومنكر، وما أدخلوه عليه من تحريف وزيف، وقد نتج عن تعلم

(١) جرجي بن حبيب زيدان (ت ١٣٣٢هـ/١٩١٤م). تاريخ آداب اللغة العربية، تحقيق شوقي ضيف.- القاهرة (١٩٥٧م).-جـ٣، ص١١، ومن هذه المختصرات كتاب: " الخلاصة في الفقه" للإمام وجيه الدين ابن المنجا التنوخي الحلبي المتوفى سنة ٦٠٦هـ (١٢٦١م) وهو مختصر لكتابه " الكافي" ومنها: كتاب " مختصر شرح الأبيات المشكلة الإعراب " للزنجاني أيضًا، وهو مختصر لكتاب " شرح الأبيات المشكلة الإعراب والإفصاح " لأبي نصر الحسن ابن أسد الفارقي المتوفى سنة ٤٨٧هـ (١٠٩٤م)، ومنها كتاب " المعجم" للحافظ ابن عساكر، وهو تراجم لمشهوري الرجال، وبخاصة الشافعية انتخبه من كتابه الكبير " تاريخ دمشق" إلى غير ذلك من المختصرات والمعاجم التي سيتطرق لها الحديث في الفصل الخاص بميادين العلوم إن شاء الله.

تلك اللغات دخول الكثير من الألفاظ الأجنبية إلى اللغة العربية، وأمثلة ذلك كثيرة في مجال السياسة والحرب والإدارة وغيرها من جوانب الحياة.[1] ومثل هذا الاستعمال لبعض الكلمات يُعد مظهرًا من مظاهر التأثر الثقافي الذي نجم عن الوجود الصليبي في المنطقة.

الأدب بشقيه النثر والشعر تأثر أيضًا بالوجود الصليبي في المنطقة، ومن يتأمل موضوعات الشعر في عصر الحروب الصليبية يقف على حقيقة ذلك الأثر. فقد شارك الشعراء في رسم صورة الجهاد التي كان يعيشها المسلمون آنذاك، فحملوا على عواتقهم عبء الدعوة إلى الجهاد ومقاومة الصليبيين، والدعوة إلى توحيد الجهود الإسلاميّة المشتتة، وعندما بدأت هذه الحروب، وخاضها المسلمون، نذَر كثير من الشعراء أنفسهم لوصف هذه المعارك وتمجيد البطولات والانتصارات، كما أنهم اعتنوا بصفة خاصة في كثير من قصائدهم بحث المسلمين على مواصلة الجهاد وبذل الأنفس والأموال لمقاومة

---

(١) أحمد أحمد بدوي. الحياة العقلية في عصر الحروب الصليبية بمصر والشام.- القاهرة: دار نهضة مصر (د.ت).- ص٣٢٩ ـ ٣٣٠. ونجد ذلك واضحًا في كتابات أسامة بن منقذ وخاصة في كتابه (الاعتبار)، وكان من أشهر الكلمات الأجنبية التي شاعت في هذا الكتاب، كلمة (سرجند((Sergeant)، وكلمة (تركبول) (Turcopole) وهم جند في خدمة الصليبيين أباؤهم من العرب والأتراك، وأمهاتهم من اليونان، أو العكس، وكلمة (البرنس) (Prince) وتعني أمير عندما يتحدث عن صاحب بيت المقدس بغد وين، وكلمة (برجاسي) ويعني (برجوازي) (Pourgeoisie) من الفرنسية وتدل على الطبقة الوسطى من الناس، وكلمة (سقلاطون) باليونانية وتعني الثياب الكتّانيّة الموشاة، وكلمة (قنطاريات) وهي من أصل يوناني وتعني الرماح أو نوع منها إلى غير ذلك من الألفاظ المستعملة: (للمزيد من التفصيل: أنظر ابن منقذ، الأمير أبو المظفر مؤيد الدولة أسامة بن مرشد بن علي (ت ٥٨٤هـ/١١٨٨م). الاعتبار، حرره فيليب حتي.- مطبعة جامعة برنستون، الولايات المتحدة الأمريكية .- ١٩٣٠م.- ص٧٥، ٦٧، ١١٩، ١٣٩، ١٤١ ؛ وابن واصل.مفرج الكروب.- ج ١، ص١٨٣، ومن المراجع الحديثة أنظر: عمر موسى باشا. الأدب في بلاد الشام (عصور الزنكيين والأيوبيين والمماليك) .- ط٢.- دمشق: المكتبة العباسيّة، ١٣٩١هـ (١٩٧٢م).- ص٧٩٣ ؛ حسان حلاق. العلاقات الحضارية بين الشرق والغرب في العصور الوسطى.- بيروت: الدار الجامعية، ١٤٠٦هـ (١٩٨٦م).- ص٢٢٨، ٢٢٧).

الصليبيين، وكان لهذه القصائد أثر كبير في دفع المسلمين إلى مواصلة الجهاد وتكثيف الجهود، ولم ينس شعراء تلك الفترة أن يخصصوا جزءًا من أشعارهم لمدح القادة الذي حققوا للجبهة الإسلاميّة انتصاراتها، وفي الوقت نفسه أخذوا ينشئون القصائد لهجاء المتخاذلين عن الجهاد، والذين آثروا مصالحهم الخاصة على مصالح المسلمين. كما أن شعر الجهاد خلّد عظماء المسلمين الذين استشهدوا في سبيل الله بقصائد رثائية في غاية الجودة.(١)

وقد برز شعراء كثيرون في ذلك العهد، وبخاصة من اتصل منهم بالملك عماد الدين زنكي (٥٢١ـ ٥٤١هـ/١١٢٧ ١١٤٦م) وابنه الملك نور الدين محمود من بعده، فتكونت نهضة شعرية مزدهرة، ومن يتصفح كتاب "خريدة القصر وجريدة العصر" للعماد الأصفهاني المتوفى سنة ٥٩٧هـ (١٢٠١م)، وكتاب " معجم الأدباء" لياقوت الحموي المتوفى سنة ٦٢٦هـ (١٢٢٨م) "وكتاب الروضتين في أخبار الدولتين " لأبي شامة المقدسي المتوفى سنة ٦٦٥هـ (١٢٦٦م) وغيرها من كتب التاريخ العام والخاص، أو كتب الأدب والمعاجم الأدبية، يتعرف على حجم هذه النهضة، ومدى ما وصلت إليه من ازدهار، حيث برز شعراء أعلام أمثال: الشاعر ابن قَسِيم الحَمَوِيّ المتوفى سنة٥٤٢هـ (١١٤٦م)، وابن مُنير الطَرَابُلسِيّ المتوفى سنة ٥٤٨هـ (١١٥٣م) وابن القَيْسَرَانِيّ المتوفى سنة ٥٤٨هـ (١١٥٣م) والشاعر عَرْقَلَة الدِمشقي المتوفى سنة ٥٦٧هـ (١١٧١م) وأسامة ابن مُنقذ المتوفى سنة ٥٨٤هـ(١١٨٨م) وغيرهم ممن شارك في شعر الجهاد في ذلك العصر.(٢)

---

(١) محمّد الهرفي. شعر الجهاد في الحروب الصليبية في بلاد الشام.- ط ٢.- بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٤٠٠هـ (١٩٨٠م).- ص١٢١.

(٢) لمزيد من الاطلاع على تراجم هؤلاء الشعراء وغيرهم وعن أشعارهم راجع: أحمد أحمد بدوي. الحياة الأدبية في عصر الحروب الصليبية بمصر والشام.- ط ٢.- القاهرة: دار نهضة مصر (١٩٧٩م)؛ عمر موسى باشا. الأدب في بلاد الشام (عصور الزنكيين والأيوبيين والمماليك).- ط٢.- دمشق: المكتبة العباسيّة، ١٣٩١هـ (١٩٧٢م)؛ شوقي ضيف. تاريخ الأدب العربي ـ عصر الدول والإمارات في مصر والشام ـ سلسلة ٦.- القاهرة: دار المعارف، (١٩٨٤م).

وكما ظهر أثر الوجود الصليبي على الشعر، فإنه ظهر أيضًا على النثر الأدبي، إلا أنه تخلّف عن الشعر في حمل رسالة الجهاد في ذلك العصر، وذلك لأن الشعر فيما يرى عبد اللطيف حمزة: كان تعبيرًا شعبيًا عن عواطف المسلمين أثناء تلك الحروب فهو يثير الشعور في الدعوة إلى التحرير أو في التهنئة بالنصر، أما الرسائل الديوانية فلا تؤدي إلا الوظيفة الرسمية بين السلاطين وبين الناس.[1]

ولئن صح ذلك في دور الرسائل الديوانية إلى حد ما فإنه لا يصح إطلاقًا على كافة جوانب النثر، فلقد نشط كُتّاب العصر في إرسال الرسائل التي تبشر بالفتوحات الإسلاميّة وتُهنئ الخلفاء والولاة في الأمصار، وقد تعددت الرسائل في نثر العماد الأصفهاني، وضياء الدين ابن الأثير، كما أن النثر الفنِّي قد قام بدوره في هذا الشأن، في ميدان آخر هو ميدان الخطاب، وكانت دواعي الخطابة في هذا أكثر أهمية من أيّ عصر آخر لأهمية الخطابة أوقات الأزمات والحروب.[2]

وقد تعدد موضوعات النثر الأدبي في هذا العصر على النحو الآتي:

- ذكر مثالب الصليبيين وعيوبهم في عقائدهم، وعاداتهم وأخلاقهم.
- الرّد عليهم وعلى اليهود فيما يتصل بما في دياناتهم من تحريف وتبديل وإبطال مزاعمهم.
- وصف الحياة التي يعيشها الصليبيون.
- ذكر مناقب المسلمين وبخاصة مشاهير القادة والفاتحين في الماضي وفي تلك الفترة.
- المناظرة بين الإيمان والكفر والمسلمين والصليبيين.
- الإكثار من الأدعية والاستغاثات والمناجات.

---

(١) أدب الحروب الصليبية.- القاهرة: دار الفكر العربي (١٩٤٩م)ز- ص١٩.

(٢) عمر عبدالرحمن الساريسي. نصوص من أدب عصر الحروب الصليبية (دراسة وتحليل).- جدة: دار المنارة للنشر، ١٤٠٥هـ (١٩٨٥م).- ص٦٣.

- تنسيق الأذكار والأوراد.
- الإكثار من المواعظ والتذكر والدعوة إلى خوض هذه الحروب.
- الاهتمام بتنسيق التهاني بالفتوح والاهتمام أيضًا بأسلوب البشارات.[1]

ومن يتأمل كتب التاريخ والأدب التي أُلفت في ذلك العصر يقف على الكثير من تلك الموضوعات، وأشهر الكُتّاب والأدباء في تلك الفترة، فإذا أضيف إلى ذلك ما تناولته الخطب في ذلك الوقت من موضوعات، يجد الباحث نفسه أمام حصيلة ضخمة من موضوعات النثر الفني.

وبعد: فقد كانت هذه أبرز العوامل التي ساعدت على ازدهار الحياة العلمية ونشاطها في العهد الزنكي، وقد تبين للباحث من خلال دراسة تلك العوامل أمور عديدة لعل من أبرزها:

- التشجيع الذي حظي به التعليم من قِبل حكام وأمراء ووزراء هذه الأسرة على الرّغم من انشغالهم بمواجهة العدوان الصليبي الماثل أمامهم، وتزعمهم قيادة الجبهة الإسلاميّة أمام ذلك العدوان وقد تمثّل ذلك التشجيع في إنشاء العديد من المدارس ودور التعليم المختلفة في أغلب المدن الزنكية ودعم تلك المنشآت اقتصاديًا بالأوقاف التي تُشكل القسم الأكبر من موارد الصرف على التعليم، كما يتمثل ذلك التشجيع بالمكانة العالية التي حظي بها العلماء لدى حكام هذا العهد، المكانة المعنوية والتقدير لهؤلاء العلماء، والدعم المادي والبذل لهم بسخاء حيث كان ذلك عامل إيجابي مؤثر في عطاء هؤلاء العلماء في مجال التدريس والتأليف، إضافة إلى ذلك الإمكانات المتاحة لطلاب العلم للتفرغ لتلقي العلم بهدوء بال وراحة نفس، وذلك من خلال ما يصرف عليهم من غذاء وكساء، أو من خلال ما يؤمن لهم من مساكن مريحة وعطايا مجزية.

---

(١) عبدالحليم محمود. الغزو الصليبي والعالم الإسلامي.- ط ٢ .- جدة: دار عكاظ للطباعة والنشر، ١٤٠٢هـ (١٩٨٢م).- ص٣٨٥ - ٣٨٦.

- كما كان من أبز سمات هذه النهضة الاهتمام بدراسة الحديث الشريف والتركيز عليه، وإنشاء دُوُر تخصصية لتدريسه، وقد كانت دار الحديث النورية بدمشق، الأولى من نوعها في الإسلام، حيث قامت تلك الدور بأثر بارز في دعم المذهب السني في المنطقة، بالإضافة إلى مشاركتها في إعداد الناس للجهاد ضد العدوان الصليبي، ويُعد هذا العمل أحد مظاهر الازدهار العلمي الذي شهدته تلك الدولة.

- أثّر استقرار الدولة وانتشار الأمن على الازدهار العلمي، وذلك لانصراف الناس إلى البحث والدراسة وهم آمنون مطمئنون على أنفسهم وأموالهم، بالإضافة إلى أثر ذلك في انتعاش حركة التأليف والإنتاج العلمي.

- كما اتضح أيضًا أثر الوجود الصليبي في المنطقة في توجيه التعليم إلى العناية بالدراسات الشرعية وبخاصة علم الحديث الشريف وما يتعلق منه بباب الجهاد وفضائله والحث عليه، كما اتضح أثر ذلك في الكتابات التاريخية وتوجيهها إلى العناية بتتبع مراحل الصراع بين المسلمين والصليبيين والكتابة عن أبرز معاركهم.

- كذلك يمكن أن يُعد حرص بعض المسلمين على تعلم لغات الصليبيين، ضمن تلك الآثار التي نجمت عن الوجود الصليبي في المنطقة، حيث زاد اهتمام بعض العلماء باللغات الأجنبية، ونشطت إثر ذلك حركة الترجمة، وازدادت ظاهرة استعمال الألفاظ الأجنبية في الكتابات العربية.

- هذا بالإضافة إلى ظهور آثار عديدة في الإنتاج الأدبي بشقيه النثر والشعر، حيث برزت كتابات نثرية، وقصائد شعرية ذات علاقة قوية بالوجود الصليبي، إضافة إلى تعدد فنون الأدب وتشعب موضوعاته بما يخدم الجهاد الإسلامي ضد ذلك العدوان.



الفصل الثاني

دُوْر التعليم ووظائفها في العهد الزّنكي

١ـ المسَاجِد
٢ـ الكتّاتِيب.
٣ـ المدارس.
٤ـ دُوْر الحَدِيث.
٥ـ الخَوَانِق والرُبُط.
٦ـ البيمَارستَانَات.
٧ـ مَنَازِل العُلَمَاء.
٨ـ مجَالِس العِلم في القُصور.
٩ـ حَوَانِيت الوَرَاقِين.
١٠ـ المكتَبَات.

كانت حِلَق التعليم قبل انتشار المدارس تُعقد في مراكز مختلفة التنظيم والأغراض والوظائف، كالمَساجِد، والكَتَاتِيْب، ومنَازِل العُلَمَاء، ومجَالِس العِلْم في القُصور، وحَوَانِيْت الوَرَّاقِيْن، وغيرها من أماكن التعليم المنتشرة في أرجاء العالم الإسلامي آنذاك، فلما أسست المدارس، وزاد انتشارها، ازدادت فرص التعليم، وكثر الإقبال عليه، حيث أوجدت في تلك المدارس كامل الاستعدادات، والإمكانات، وجَلَبَ إليها مؤسسوها خيرة المدرسين من مختلف المناطق، القريب من مكان وجودها والبعيد عنه، وزاد ارتحال طلبة العلم إليها، حيث وجدوا أمور العيش مكفولة لهم، بالإضافة إلى تلقيهم العلم فيها، وبذلك قلَّ الإقبال نوعًا ما على بعض الدُوُر التعليمية الأخرى، وإن ظلّت بعضها تؤدي وظيفتها، وتقوم برسالتها على أكمل وجه محتفظة بطابعها التقليدي الخاص بها، إضافة إلى ظهور بعض الأماكن التي لم يقصد بإنشائها أغراض التعليم، ولكنها قامت بدَوْرٍ بارز في تنشيط حركة التعليم في ذلك العهد، كالبِيْمَارِسْتَانَات ودُوُر الصُوفِيَّة (الخَوَانِقَ، والرُبُط)

وقد كانت الهيئات التعليمية في العالم الإسلامي: " نتاجًا إقليميًا من صميم حاجات المجتمع الإسلامي، وتطوراته، تنبض بروح الإسلام، وتهتدي بتعاليمه وأغراضه، ولم تكن في جملتها مأخوذة من الحضارات القديمة، وإنما كانت متصلة في نموها وتطورها بالحياة الإسلامية العامة، تنعكس فيها أهم أغراض واتجاهات تلك الحياة" .[1]

ولعله من خلال دراسة تلك المراكز التعليمية والتعريف بها وبوظائفها في العهد الزنكي نتوصل إلى مدى إسهام كل منها في نشاط حركة التعليم في ذلك العهد.

---

(١) أسماء حسن فهمي. مبادئ التربية الإسلامية .- القاهرة. مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، (١٩٤٧م).- ص٢٢.

وقد تمثلت دور التعليم في العهد الزنكي فيما يأتي:

١ ـ المساجـــــد:

يُعـد المسجد أول وأهم أمكنة التعليم في الإسلام على الإطلاق، ودراسة هذه الهيئة في أي منطقة من العـالم الإسـلامي هـي دراسـة المكان الرئيسي للحياة العلمية، وخاصة في الفـترات الـتي سـبقت نشـأة المـدارس وانتشـارها في العـامل الإسـلامي، وقـد أسـسّ الرسـول ﷺ المسـجد بعـد هجـرته إلى المديـنة المنورة مباشـرة، وهـو المسـجد الشـريف، والذي عُرف " بالمسجد النبوي ".[١]

وكـان المسـجد النبوي بالمدينة المنورة أول مكـان أُتخذ لنشر العلم، وتعليم المسلمين قـراءة القـرآن، وأصـول الكتابة، وتعاليم الدين الإسلامي. وقد اتخذت المساجد في عصر الرسـول ﷺ وخـلفائه الراشـدين من بعده مراكز تهذيبية وتعليمية كان لها الأثر الكبير في نشر الوعي الديني الصحيح وبث روح المعرفة في نفوس المسلمين.[٢]

وقـد كـــان المسـجد بالإضـافـة إلى كونـه محـل عـبادة المسـلمين يجتمعون فيـه خمس مــرات في اليــوم لأداء الصـــلــوات المفروضـــــة عــليهــم، ودارًا للاحــتــكام وملــتقىً للتشـاور، ومقرًا لاستقبال الوافدين على العواصم الإسلامية، كان أيضًا معهدًا مفتوحًا لكـل راغب في الاستزادة من العلوم، والمعارف، والآداب، فكان المسلم بعد أن يقضي

---

(١) ابن هشـام، أبـو محمـد عبدالملك بـن هشـام بـن أيـوب الحميري (ت ٢١٨هـ/٧٣٣م). السيرة النبوية، تحقيـق وضبط، مصـطفى السقا وآخـرون.- القاهـرة. مطبعة مصـطفى البابي الحلبي وأولاده، ١٣٥٥هـ (١٩٣٦م).- ج٢، ص١٤١ ؛ خليفة بن خيّاط، أبو عمر خليفة بن خياط ابن أبي هبيرة الليثي (٢٤٠هـ/٨٥٤م). تاريخ خليفة بن خياط، تحقيق أكرم ضياء العمري.- ط٢.- دمشق.دار القلم، بيروت. مؤسسة الرسالة، ١٣٩٧هـ (١٩٧٧م).- ص٥٥.

(٢) حسين أمين. "المسجد وأثره في تطوير التعليم"، بحث منشور في مجلة دراسات تاريخية، جامعة دمشق، العدد الخامس، رمضان(١٤٠١هـ).- ص٧.

صلاته يقصد إحدى حِلق التعليم المنتشرة في أرجاء المسجد، والتي كان في كل منها شيخ قد أوقف نفسه لتعليم المسلمين، حيث كانت تلك الحِلَق مدارس مفتوحة لكل راغب في التعليم، فيأخذ كلٌّ بقدر استيعابه مما يطرح ويناقش من علوم، وقد قامت تلك الحِلَق بدور بارز في ازدهار الحياة العلمية، والثقافة الدينية عند المسلمين.[1]

ولعل السبب الرئيسي في اتخاذ المسجد مركزًا ثقافيًا منذ زمن مبكر من التاريخ الإسلامي يرجع إلى أن الدراسات الإسلامية في تلك المدة كانت دراسات شرعية بحتّة تتضمن تعاليم الدين الإسلامي، وتفسيره وشرحه، وتوضح أسسه، وأحكامه، وتلك الدراسات ترتبط ارتباطًا وثيقًا بالمساجد.[2] حيث كان تعلّم ذلك جزءًا من العبادة، فكان من السهل على المسلم التوجه إلى المسجد للتفقه في الدين وأداء فروضه عمليًا.

ولكن مع مرور الزمن لم تعد الدراسة في المساجد تقتصر على الوعظ والإرشاد وتعلم الموضوعات الشرعية البحتة، بل أخذت الموضوعات الأخرى التي تعرف عليها المسلمون نتيجة الفتوحات العظيمة، أخذت طريقها إلى المسجد حيث أصبحت تدرس إلى جانب العلوم الشرعية.[3]

وانتشر بناء المساجد في العالم الإسلامي، وتعددت حِلَقها، وأروقتها، وأُعدت لاستقبال طلاب العلم، وتعليمهم بالمجان، غنيهم وفقيرهم على حد سواء. وكان يقوم ببناء تلك المساجد الحكومات أو الأخيار من رجال الحكم، وغيرهم من أثرياء الناس، ولقد بقي المسجد المكان الرئيسي لتلقي العلوم الشرعية وغيرها، وكان التعليم في أغلب المساجد بالمجان، وفي حالات كثيرة يصحب بالهبات والعطايا.[4]

---

(١) المرجع نفسه.- ص٧.

(٢) أحمد شلبي. تاريخ التربية الإسلامية.- ط٤.- القاهـرة. مكتبة النهضة المصرية، (١٩٧٣م).- ص١٠٢.

(٣) حسين أمين. المسجد وأثره في تطوير التعليم.- ص٧.

(٤) أسماء حسن فهمي. مبادئ التربية الإسلامية.- ص٢٦.

وعلى الرغم من انتشار المدارس الإسلامية بشكل واسع - في القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي) وما بعده - وتطورها السريع، فقط ظلّ المسجد قاعدة مهمة للتربية والتعليم، وأخذ يتجاوب مع ما يجدُّ من علوم وآداب تتفق وروح الدين الإسلامي، وفيها نفع وخير للإنسانية، فقد نَبَغَ في المساجد الإسلامية الكثير من المحدثين والفقهاء، واللغويين والأدباء، والمؤرخين، ومن المساجد التي اشتهرت بحلَقها العلمية، وأدت رسالتها التعليمية على أكمل وجه: المسجد النبوي الشريف بالمدينة المُنَورة، والحرم المكِي، ومسجد البَصْرَة، ومسجد الكُوفَة، ومسجد الفُسطَاط، ومسجد القَيْرَوَان، والجامع الأموي بدمشق، والمسجد الأقصى، ومسجد الزَيْتُونة، وجامع المَنْصُور ببغداد، وجامع قُرْطُبَة، وجامع ابن طُولُون، والأزهر الشريف بالقَاهِرَة، وغيرها من المساجد التي أدت رسالتها التعليمية خير أداء، وكانت النواة الأولى لتأسيس المدارس الجامعة في العالم الإسلامي.(١) وكان الدخول لتلقي التعليم في المساجد متاحًا لكل راغب فيه، بمعنى أنه لم يكن مقيَّدًا بقيود، فلكل فرد الحق في الاستماع لأيّ درس من الدروس مادامت لديه الرغبة في التعليم، والقدرة على الفهم، ولم يُشترط لذلك شروط خاصة بالسن أو بالمؤهلات، على أنه يمكن تقسيم الطلاب إلى قسمين: طلاب منتظمون في الدراسة لاينقطعون عن الدرس إلا بعد إتمام المنهج والحصول على إجازة من المدرس المختص، وهؤلاء كانوا يتفرغون للعلم سنوات عدة، فيحضرون إلى المسجد في الصباح الباكر، وينكبون على الدرس طيلة النهار.

أما القسم الآخر: فهم طلاب مستمعون غير منتظمين وهؤلاء كانوا يحضرون إلى المسجد لاستماع بعض الدروس - كما نذهب نحن لاستماع بعض المحاضرات العامة - دون التقيد بمنهج معين.(٢)

---

(١) حسين أمين. المرجع السابق.- ص١٠.

(٢) أسماء حسن فهمي. مبادئ التربية الإسلامية، ص٢٧.

وكان المُدَرّس يختار له مكانًا معينًا في جانب من المسجد، ويغلب أن يكون ظهره إلى حائط، أو سارية من سواري المسجد، ويكوّن الحضور حلقة أمامه، يَكُون هو في أبرز نقطة من محيطها، ولا يجلس المستمعون في الحلقة دون ترتيب، وإنما لكل طبقة منهم مكان معين فيها، فيجلس المُعِيْدُون.[1] عن يمين الشيخ ويساره، ويجلس الرُفقَاء في دَرّس واحد أو دروس في جهة واحدة ليكون نظر الشيخ إليهم جميعًا عند الشرح، ويُترك في الحلقة فراغ ليجلس فيه من يحب ن يستمع إلى الدرس من الطارئين، أو الذين لا يحضرن الدرس بانتظام، والعادة أن يحرص كل فرد أن يكون قريبًا من الشيخ، ولكن على ألا يتعدى المكان الذي هو أهل له.[2]

وقد حافظ المسجد طيلة العصور السابقة لمدة البحث على مكانته التعليمية، وظلّ هو القاعدة الأولى للتعليم، كما أخذ يتجاوب مع ما يَجِدُ من علوم ومعارف وآداب تتفق وروح الدين الإسلامي، أما في العهد الزنكي فقد تأثر التدريس في المساجد بعض الشيء نظرًا لاهتمام الزنكيين بإنشاء العديد من المدارس التي انتقلت إليها قيادة الحركة التعليمية في ذلك الزمن، وبالتالي تدفّق عليها المدرسون والطلاب نظرًا لما يلاقونه من تشجيع معنوي، وما يصرف لهم من دعم مادي (نقدًا أو عينًا) بالإضافة إلى توفير المسكن المريح في كثير من مدارس ذلك العهد.

---

(١) حدد ابن جماعة رُتبه المعيد بأنه الذي يُعيد الدرس بعد إلقاء الشيخ خطبته على الطلبة. كأنه معين الشيخ على نشر علمه، وتثبيت خطباته وإملائه في أذهان الطلبة شرحًا وبسطًا معاونًا لهم في إعادة المحفوظات، والمراجعة في المذكرات، فهو دون الشيخ وأعظم درجة من عامة الطلبة. (ابن جماعة، أبو إسحاق إبراهيم بن السيد العارف سعد الله الكناني (ت ٧٣٣هـ/ ١٣٣٢م). تذكرة السامع والمتكلم في أدب العلم والمتعلم.- بيروت: دار الكتب العلمية (د.ت).- ص١٥٠).

(٢) ابن جماعة. المصدر نفسه.- ص١٤٧-١٥٠، وقد أفرد فصلاً خاصًا في آداب الطالب في الدرس، وقراءته في الحلقة، وما يعتمده فيها مع شيخه ورفقته (المصدر نفسه.- ص١١٢-١٦٣).

ولكنه على الرغم من ذلك فقد ظلّت المساجد تؤدي دورها في التدريس، والإملاء، والسماع، والوعظ، وقد زخرت كُتب التاريخ والتراجم بأخبار العلماء والفقهاء الذي اتخذوا من المساجد ـ في ذلك العهد ـ أمكنه ملائمة يترددون إليها للتدريس والوعظ والتأليف، ويُخلّدون فيها آثارهم العلمية، وممن اشتهر بملازمته للتدريس والوعظ في كثير من مساجد العهد الزنكي الشيخ أبو البركات عبد الله بن الخِضْر المعروف بابن الشَيْرَجِيّ المتوفى سنة ٥٧٤هـ (١١٧٨م).[١] وكان يجلس للتدريس في مسجد بالموصل على شطّ النهر، فعُرف ذلك المسجد به. وكان يجتمع عنده خلق عظيم للتفقه وسماع الحديث، وقد رَوَى عنه جمع كبير من العلماء.[٢] كما اشتهر بالموصل الشيخ رَضِي الدين يُونس بن مَنَعه الموصلي المتوفى سنة ٥٧٦هـ (١١٨٠م).[٣] الذي كان يُدَرِّس في مسجد زين الدين علي بن بُكتِكين المتوفى سنة ٥٦٣هـ (١١٦٨م).[٤] فكان رضي الدين يُفتي ويناظر، وقد قصده الطلبة من كل مكان للاشتغال عليه، والبحث بين يديه.[٥]

---

(١) ابن الشَيرجي من مواليد الموصل، وقد نشأ بها وقرأ القرآن في صغره، وسمع الحديث، ثم انحدر إلى بغداد، ودَرَسَ بالنظامية على ابن الرزاز، وتميز في الدراسة والبحث، فعُين مُعيدًا بها، ثم تولى قضاء البصرة مدة، ثم عاد إلى الموصل فدرَّس في مسجد عرف به، ثم درَّس بالمدرسة الأتابكية العتيقة أربعة أشهر، وبنى له الملك عز الدين مسعود مدرسة على شط النهر، فطلب منه التدريس بها، فرفض، واستمر في مسجده إلى أن توفي (الأسنوي. طبقات الشافعية.- ج٢، ص١١٠-١١١).

(٢) السبكي. طبقات الشافعية.- جـ٧، ص١٢٣ ؛ الأسنوي. طبقات الشافعية.- جـ٢، ص١١٠-١١١.

(٣) سبقت ترجمته في الفصل الأول من هذا البحث.

(٤) سبقت الترجمة له في التمهيد، وعن هذا المسجد انظر المبحث الخاص بدور التعليم في الموصل الفصل الخامس..

(٥) ابن خلكان. وفيات الأعيان.- جـ٧، ص٢٥٥.

ومنهم الفقيه عماد الدين أبو بكر النَّوقَانِي الشافعي.[1] الذي فَوَّض إليه الملك العادل نور الدين محمود أمر التدريس في مسجده الذي بناه بالموصل سنة ٥٦٦هـ (١١٧٠م) وكتب له منشورًا بذلك.[2]

وفي جامع حلب اشتهرت حِلَق عديدة بالتدريس كان من أهمها: " السَارِيَة الخَضْراء" التي كانت مخصصة للدراسات الأدبية، وكانت حِلَق الأدب والنحو واللغة تُعقد في هذا الجامع إلى جانب الدراسات الشرعية.[3] وقد أنشأ الملك نور الدين محمود في هذا الجامع زاويتين: إحداهما لتدريس الفقه المالكي، والأخرى لتدريس الفقه الحنبلي.[4]، وكان لهاتين الزاويتين نشاط علمي ملموس خلال ذلك العهد، وبخاصة في حياة مؤسسهما نور الدين محمود. أما دمشق فإنه على الرّغم من قصر فترة الحكم الزنكي فيها، إلا أنها تُعد من أهم مراكز التعليم في ذلك العهد، فقد اشتهر جامعها الأموي بعقد الكثير من حِلَق التعليم في مختلف التخصصات، وبمختلف المراحل والأعمار، وقد اجتهد الرحالة ابن جُبير الذي زار هذا الجامع سنة ٥٨٠هـ (١١٨٤م) في وصف ذلك النشاط العلمي، وقد رأى زوايا هذا الجامع، وأعجب بما كان يُنفق على

---

(١) لم أقف على ترجمة له في المصادر المتيسرة، وقد اختلفت المصادر في تسميته، فذكره البنداري باسم عماد الدين التّوقاني (سنا البرق الشامي.- ق١، ص٩٨) وورد عند أبي شامة. " عماد الدين النّوقاني " (كتاب الروضتين.- ج١، ق٢، ص٤٨٠) وورد عند ابن كثير." عماد الدين البرقاني "البداية والنهاية.- ج١٢، ٢٦٣) وهو إلى "النوقاني" أقرب نسبة إلى نُوْقَان إحدى قصبتي طُوس حيث ذكر ياقوت أنه تخرج منها خلق من العلماء (معجم البلدان، ج٥، ص ٣١١) ولاشتهار هذه الأسرة بالفقه الشافعي انظر. (السبكي. المصدر السابق.- ج٦، ص ٨٥، ٩٥، جـ٧، ص٢٣٧، ٢٣٨، ج٨، ص١٠٨، ٣٤٨ ؛ الأسنوي. المصدر السابق.- جـ٢، ص٤٩٩، ٤٩٥-٥٠٠).

(٢) البنداري. المصدر السابق.- ق١، ص٩٨ ؛ أبو شامة. المصدر السابق.- ج١، ق٢، ص٤٨٠.

(٣) ابن شداد. الأعلاق الخطيرة (قسم حلب).- ص٣٨.

(٤) ابن شداد. الأعلاق الخطيرة (قسم حلب)، ص١٢١.

طلبتها ومدرسيها من نفقات واسعة، فقال: " وفي هذا الجامع المبارك مجتمع عظيم، كل يوم إثر صلاة الصبح، لقراءة سُبع من القرآن دائمًا، ومثله إثر صلاة العصر لقراءة تُسمى الكَوْثَرِيّة[(١)]... وللمجتمعين على ذلك إجراء كل يوم يعيش منه أزيد من خمس مئة إنسان. وهذا من مفاخر هذا الجامع المبارك. فلا تخلو القراءة منه صباحًا ولا مساءً. وفيه حلقات للتدريس للطلبة، وللمدرسين فيها إجراء واسع وللمالكية زاوية للتدريس في الجانب الغربي يجتمع فيها طلبة المغاربة ولهم إجراء معلوم".[(٢)] كما كان من مرافق هذا الجامع بالإضافة إلى ماذكره ابن جُبير: الزاوية الغَزَالِيّة.[(٣)] التي اشتهرت بتدريس الفقه الشافعي، ودَرَّس بها عدة علماء أفاضل اجتمع عليهم جمع من المهتمين بهذا التخصص،[(٤)]فكان هذا الجامع بحق من أبرز معالم الثقافة في العالم الإسلامي، تَنَاوب للتدريس فيه جُلَّة من أعلام العلماء الذين لا تزال أسماؤهم لامعة في تاريخ العلوم الإسلامية، ولا تزال آثارهم ومؤلفاتهم محفوظة إلى يومنا هذا.

وهكذا فإن للمسجد أثره في الازدهار العلمي وتطوره في العهد الزنكي، رغم وجود المداس، وانتشارها بشكل واسع في ذلك العهد.

---

(١) الكوثرية. حلقة تقع تجاه شباك الكَلاّسَة تحت مئذنة العَروُس بالجامع الأموي، أوقفها نور الدين على صبيان يقرأون فيها كل يوم بعد صلاة العصر " قل هو الله أحد" ثلاث مرات ويهدون ثوابها للواقف ولهم على ذلك مرتب يتناولونه من ديوان السبع الكبير (ابن شداد. المصدر السابق (قسم دمشق).- ص٨٥ ؛ النعيمي. الدارس.- ج١، ص٤٥١. ويذكر ابن جُبير. أن المجتمعين في هذه الحلقة يقرأون من سورة الكوثر إلى الخاتمة، وأنه يحضر في هذا المجتمع كل من لايجيد حفظ القرآن (الرحلة.- ص٢٤٤)

(٢) المصدر نفسه.- ص٢٤٤ـ ٢٤٥.

(٣) تُنسب هذه الزاوية للإمام أبي حامد الغَزَالِي المتوفى عام ٥٠٥هـ (١١١٢م) لكونه دَرَّس بها مدة إقامته في دمشق، فعُرفت به، كما تُنسب للشيخ نصر المقدِسِي المتوفى سنة ٤٩٠هـ (١٠٩٦م) وهو أول من درس بها (ابن شداد. المصدر السابق.- (قسم دمشق).- ص٢٤٦ـ ٢٤٧)، أنظر تفصيل ذلك في المبحث الخاص بدور التعليم في دمشق الفصل الخامس.

(٤) النعيمي. الدارس.- ج١، ص٤١٣.

وتبقى ملحوظة مهمة هي: أنه لا يكاد يخلو مسجد من هذه المساجد من مكتبة ضخمة تضم عددًا كبيرًا من الكتب في مختلف العلوم والتخصصات وكانت تلك المكتبات تُوقف خصيصًا على المساجد ليرجع إليها الطلاب والباحثون، مثل مكتبة الشَرَفِيّة بجامع حلب، وهي مكتبة عامرة، مسبلة للمطالعة، وتشتمل على الكثير من الكتب في مختلف فروع المعرفة.[1]

وهكذا كانت المساجد بمثابة المعاهد العلمية المُشعّة التي نهضت بمختلف العلوم في هذا العهد أسوة بالعهود الإسلامية السابقة، وخرَّجت العديد من العلماء الأفذاذ الذين أسهموا في تقدم العلم وازدهاره، وكانت تلك المساجد تتميز بتكافؤ الفرص بين الطلاب دون تمييز لغني منهم على فقير، فزاد إقبال طلبة العلم عليها، ولم يقف الفقر حائلاً أمام طلب العلم فيها، بل على العكس، فقد وجدت الكثير من الأوقاف التي قُررت لمن يرتاد هذه المساجد معلّمًا أو مُتَعلّمًا حتى يتفرغوا لطلب العلم دون أن يشغلهم طلب العيش عن ذلك.

٢ ـ الكَتَاتيب:

الكَتَاتِيْب أو الكُتَّاب: يُطلق على المحل الذي يتعلم به الصبيان، وكانت تقوم مقام المدارس الابتدائية في وقتنا الحاضر، حيث يبدأ الصبي بها حياته العلمية، وقد اختلف اللّغويُّون في أصلها فقد عَرَّف ابن منظور "الكُتَّابَ" بأنه: موضع تعليم الكُتَّاب، وأن الجمع كَتَاتِيْب ومَكَاتِب، وأضاف إلى ذلك: أن المُبرد عَرَّف: "المَكْتَب" بأنه موضع التعليم، وأن "المُكْتِب" هو المعلم، و"الكُتَّاب" هم الصبيان، ومن جعل الموضع الكُتَّاب فقد أخطأ.[2]

---

(١) كرد علي، محمد بن عمر الرزاق (ت ١٣٧٢هـ/١٩٥٣م). خطط الشام.- ط٣.- بيروت: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، ١٤٠٣هـ (١٩٨٣م).- جـ٦، ص١٨٦.

(٢) لسان العرب.- جـ٥، ص٣٨١٧.

ويذكر الفَيْرُوزأبَادِيْ: أن " المَكْتب" هو موضع التعليم، وأن قول الجَوهْرِيّ الكُتَّاب والمَكْتَب بمعنى واحد غَلط.[1]

ومن خلال دراسة هذه التعريفات يلمس الباحث أن اللّغويّين اتفقوا على أن المَكْتَب من مواضع التعليم، ولكنهم اختلفوا بشأن الكُتَّاب، فبينما يجعله ابن منظور من مواضع التعليم، ويعده مرادفًا للمَكْتب، عَبَّر البعض الآخر بالكُتَّاب عن الصبية المتعلمين في المَكْتَب، وعَدَّ استعمال الكُتَّاب بمثابة موضع للتعليم خطأ.

والذي يظهر من خلال دراسة تاريخ التعليم عند المسلمين: أن كلاً من الكُتَّاب والمَكْتَب قد استعملا بمعنى واحد، هو: " مكان تعليم الصبيان" أو ما يوافق في وقتنا الحاضر مدارس المرحلة الابتدائية، وهو عبارة عن غرفة واسعة البناء بسيطة التأثيث، يجلس فيها الصبية على الحُصُر،[2] أو على جُلود الغَنَم، ويتصدر فيها المعلم على مكان مرتفع ليشرف على الصبيان جميعًا.[3]

وقد قَدَّم شلبي[4] دراسة مطولة عن الكَتاتِيْب في الإسلام، بَيَّن من خلالها أن أرض الجَزِيْرة العربية وبلاد الشام قد شهدت نوعين من الكَتَاتِيْب، الأول منها: خاص بتعليم القراءة والكتابة، وأرجع وجود هذا النوع إلى ماقبل الإسلام، وأن الذين تولوا التعليم فيه خاصة في المدة الإسلامية الأولى كانوا من غير المسلمين، وأن هذا النوع من التعليم كان يجري في منازل المعلمين، وربما خَصّص هؤلاء حجرة في بيوتهم لاستقبال

---

(١) الفيروز أبادي، مجد الدين محمد بن يعقوب الشيرازي (ت٨١٧هـ/١٤١٥م).- القاموس المحيط.- بيروت: دار الفكر، ١٤٠٣هـ (١٩٨٣م).- جـ١، ص١٢١.

(٢) الحُصُر. جمع حَصِيْر، وهو البساط المنسوج، وسُمي حصيرًا لأنه حُصرت طاقته بعضها من بعض (أبن منظور. المصدر السابق مادة (حصر).- ج٢، ص٨٩٧.

(٣) سعيد الديوه جي. التربية والتعليم في الإسلام.- الموصل: مطابع جامعة الموصل، ١٤٠٢هـ (١٩٨٢م).- ص١٥ ـ ١٧.

(٤) في كتابه. تاريخ التربية الإسلامية.- ص٤٤ ـ ٤٨.

الطلاب، كما أكّد أن هذا النوع قد حافظ في أغلب الأحيان على استقلاله عن النوع الآخر، من الكُتَّاب والذي كان يجري به تعليم القرآن الكريم، ومبادئ الدين الإسلامي، وقد أورد على هذا طائفة من الأدلّة التي يستند إليها ويدعم بها رأيه منها:

- ماسجله العالم الأندلسي أبو بكر بن العَربيّ المتوفى سنة ٥٤٣هـ (١١٤٨م) في هذا المجال حيث يقول عن أهل المشرق: " وللقوم في التعليم سيرة بديعة، وهي أن الصغير منهم إذا عقل بعثُوه إلى المَكتَب، فإذا عَبَر المَكْتَبَ أخَذه بتعلميه الخط والحساب والعربية، فإذا حَذَقَه كلّه أو حَذَقّ منه ما قدّر له خرج إلى المُقرئ فلقَّنه كتاب الله، فحفظ منه كل يوم ربع حِزب، أو نصفه، أو حِزبًا".[1]

- ثم يجئ ماشاهده الرحالة الأندلسي ابن جُبير وسجل مانصه: " ... وتعليم الصبيان للقرآن بهذه البلاد المشرقية كلها إنما هو تَلْقِين، ويعلمون الخط في الأشعار وغيرها، تنزيهًا لكتاب الله عز وجل عن ابتذال الصبيان له بالإثبات والمحو. وقد يكون في أكثر البلاد المُلقن على حدة، والمُكَتَّب على حده، فينفَّصل من التلقين إلى الكتيب، لهم في ذلك سيرة حسنة. ولذلك مايتأتى لهم حسن الخط، لأن المعلم له لا يشتغل بغيره، فهو يستفرغ جهده في التعليم، والصبي في التعليم كذلك".[2]

- كما استدل شلبي أيضًا بما ذكره ابن خلدون عن أهل المشرق" أن عنايتهم بدراسة القرآن وصحف العلم وقوانينه في زمن الشَبِيْبَة، ولا يخلطون بتعليم الخط، بل لتعليم الخط عندهم قانون ومعلمون له على انفراده، كما يتعلم سائر الصنائع، ويتداولونها في مَكَاتِب الصبيان".[3]

---

(١) أبو بكر محمد بن عبدالله بن محمد المعافري الإشبيلي المالكي (ت ٥٤٣هـ/١١٤٨م). أحكام القرآن، تحقيق علي محمد البجاوي.- القاهرة: مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، ١٣٩٤هـ (١٩٧٤م).- ج٤، ص١٨٩٥.

(٢) عن الرحلة.- ص٢٤٥.

(٣) المقدمة.- ص٥٠٧

ويقرر شلبي بعد ذلك: أن هذا النوع من الكَتَاتِيْب يُعد أسبق المراكز التعليمية وجودًا في العالم الإسلامي، وأن اسم الكُتَّاب أشتق من التكتيب، وتعليم الكِتَابة، وهي المهمة التي اضطلع بها.

ويؤيد ذلك بما ورد في اللّسان من أن: "الكُتَّاب" موضع تعلمي الكُتَّاب" أي الكتابة، ولما كان الصبيان هم الذين يتعلمون ف هذا الكُتَّاب، وهم الذين يتعلمون في المكان الآخر الذي كان مخصصًا لتعليم القرآن الكريم، ومبادئ الدين الإسلامي، كان ذلك سببًا في إطلاق اسم " الكُتَّاب" على المعهد الثاني أيضًا، ثم شاع هذا الإطلاق، وأصبح اسم " الكُتَّاب" يُطلق على المكان الذي يتعلم فيه الصبيان أيًّا كان نوع المادة التي يتعلمونها: كتابة كانت" ، أم قرأنا، أم غير ذلك.[(١)]

أما النوع الآخر من الكَتَاتِيْب، فقد اختص بتعليم القرآن الكريم ومبادئ الدين الإسلامي، وقد حرص علماء التربية والتعليم بأن يُتخذ للصبية في هذه الرحلة مكانًا خارج المساجد تنزيهًا لها من عبث الصبية ونجاستهم، وتفاديًا للإزعاج الذي يسببونه لروَّاد المساجد من طلبة ومتعبدين.

من ذلك ما ذكره القَابِسِيّ أن الإمام مالك بن أنس سُئِلَ عن حكم تعليم الصبيان في المساجد فقال: " لا أرى ذلك يجوز لأنهم لا يتحفظون من النجاسة".[(٢)]

كما ورد في كتب الحسبة ما يؤيد ذلك، فقد نصّ الشَيْزَرِيَ في الحسبة على مؤدبي الصبيان على أنه لا يجوز لهم تعليم الصبية في المساجد لأن النبي ﷺ أمر بتنزيه المساجد عن الصبيان والمجانين لنهم يُسودون حيطانها ويُنجسون أرضها إذ لا يحترزون من البول

---

(١) تاريخ التربية الإسلامية.- ص٤٨.

(٢) أبو الحسن علي بن خلف القابسي(ت٤٠٣هـ/١٠١٢م).- الرسالة المفصلة لأحوال المعلمين وأحكام المعلمين والمتعلمين تحقيق، أحمد فؤاد الأهواني، ملحقة بكتابة التربية في الإسلامية.- القاهرة: دار إحياء الكتب العربية (١٩٥٥م).- ص٣٢٢.

وسائر النجاسات، وأوصى الشيزري بأن يتخذون لتعلمهم حوانيت في الدروب وأطراف الأسواق.(١)

كما حَذَّر الزَرْكَشِيّ من تعليم الصبيان في المساجد وذكر أن بعض العلماء نَهَوا عن ذلك، ورأوا أنه من باب البيع، وهذا إذا كان التعليم بأجر، فلو كان تبرعًا فهو ممنوع أيضًا لعدم تحرز الصبيان عن القذر والوسخ، فيؤدي ذلك إلى عدم تنظيف المساجد، وقد ورد الأمر بتنظيفها.(٢)

ولكنه على الرغم من هذه التحذيرات، فقد اتخذ المعلمون لهم زوايًا بالمساجد وغرفًا ملاصقة لها لتعليم الأطفال مهملين هذه التوصيات، ومن يقرأ مصادر هذا العهد يجد فيها ذكرًا لكثير من الحِلَق التي التفَّ فيها الأطفال في المساجد حول معلم يعلمهم القرآن الكريم، ومبادئ الدين الإسلامي في شتى المدن الزنكية من ذلك الحلقة الكَوْثَرِيّة والمجتمع السُّبعِي.(٣) وكلاهما في الجامع الأموي بدمشق.(٤)

---

(١) عبدالرحمن بن نصر بن عبدالله بن محمد الشيزري الشافعي (٥٨٩هـ/١١٩٣م). نهاية الرتبة في طلب الحسبة، تحقيق ومراجعة، السيد الباز العريني.- ط٢.- بيروت: دار الثقافة، ١٤٠١هـ (١٩٨١م).- ص١٠٣.

(٢) محمد بن عبدالله الزَرْكَشِيّ (ت٧٩٤هـ/١٣٩٢م). أعلام السّاجد بأحكام المساجد، تحقيق أبو الوفاء مصطفى المراغي.- ط٢.-القاهرة: مطابع الأهرام التجارية، ١٤٠٣هـ (١٩٨٢م).- ص٣٢٧.

(٣) يُقصد بالمجتمع السُّبْعِي. المكان الذي يُقرأ فيه سُبْع من القرآن ووقت قراءته كل يوم. إثر صلاة الصبح (صلاح الدين المنجد. هوامش كتاب تاريخ مدينة دمشق لابن عساكر المجلدة الثانية، القسم الأول، دمشق، مطبوعات المجمع العلمي العربي، (١٩٥٤م)، ص٤٩، هامش (١).

(٤) ابن شداد. الأعلاق الخطيرة (قسم دمشق).- ص٨٢، ٨٣، ٨٥؛ النعيمي. الدارس.- جـ١، ص٤٥٣، ٤٥١، وسيرد الحديث عنهما مفصلا في الفصل الخامس في المبحث الخاص بدور التعليم في دمشق.

ويبدو أن السبب في اتخاذ المساجد أمكنه لتعليم الصبيان يعود إلى أن كثيرًا من معلميهم كانوا يعتكفون في هذه المساجد، وكانوا يحترفون هذه المهنة ليضمنوا منها كسب عيشهم، وهم مقيمون على عبادتهم في المساجد، فلزم حضور الصبية إليهم.

وبجانب الكتاتيب التي اتخذت في المساجد أو ألصقت بها، تُوجد كتاتيب أخرى قامت مستقلة عنها، وقد أنشئ هذا النوع لتعليم الأيتام الذين فقدوا عائلهم، أو الأطفال غير القادرين من أبناء المسلمين من الفقراء الذين لم يكن في وسع ذويهم إرسالهم إلى الكتاتيب لتعليمهم بأجر، أو إحضار مؤدبين يعلمونهم في بيوتهم، وقد اهتم روّاد التعليم في العهد الزنكي بإنشاء هذا النوع من الكتاتيب، وأكثروا منها في بلادهم، وأوقفوا عليها الأوقاف الكثيرة للصرف عليها رغبةً في الأجر، وحرصًا على نشر العلم، وقد أطلق على هذا النوع من الكَتَاتِيْب: " مَكَاتِبُ الأَيْتَام" أو " مكاتب السَبِيْل"، وقد خصَّ ابن عساكر هذا النوع من الكتاتيب في حديثه عن أعمال الملك نور الدين محمود الخيرية فقال: " ونصَّب جماعة من المعلمين لتعليم يتامى المسلمين، وأجرى الأرزاق على معلميهم، وعليهم بقدر مايكفيهم" .[1]

كما تحدث ابن جُبير عن واحد من هذه الكتاتيب في دمشق، ووصفه بقوله: "وللأيتام من الصبيان محضرة كبيرة بالبلد لها وقف كبير يأخذ منه المعلم لهم مايقوم به، ويُنفق منه على الصبيان مايقوم بهم وبكسوتهم" .[2]

كما كان كثير من المحسنين في العهد الزنكي يبنون المدارس وبجانبها مكاتب الأيتام، حتى إذا أتمَّ الصبي تعليمه في الكُتَّاب، انتقل إلى المدرسة - إن رغب في مواصلة دراسته - وله الجراية المستمرة أو النفقة الواسعة إلى أن يُنهي دراسته، ومن ذلك ما قام به الأمير

(١) تاريخ دمشق (مخطوط).- ج١٦، ص٢٩٤.
(٢) الرحلة.- ص٢٤٥.

مجاهد الدين قَايْمَاز والي القلعة في الموصل المتوفى سنة ٥٩٥هـ (١١٩٩م) إذ أنشأ مكتبًا للأيتام بالموصل بجانب مدرسته التي بناها على دجلة.(١) وقد شاع ذلك العمل الخيري في كثير من المدن الزنكية حيث وجد العشرات من الكتاتيب تُنشأ ملاصقة للمدارس، أو قريبة منها.(٢)

وقد قامت تلك الكتاتيب بأثر بارز في تنشئة الأطفال، وتربيتهم تربية إسلامية صحيحة، مع تعليمهم مبادئ القراءة والكتابة وجانبًا من العلوم الإسلامية المُتفقة مع قدراتهم لتكتمل تنشئة الصبية على أسس إسلامية متينة.

٣ ـ المـــــــدارس :

سبقت الإشارة إلى أن المساجد كانت المراكز الأولى للتعليم في الإسلام، إلى جانب كونها محل عبادة المسلمين، ومقر اجتماعاتهم.(٣)

ولكن مع مرور الزمن انتقل التعليم في بعض مظاهره من المساجد إلى أماكن أخرى عرف بالمدارس، فكيف يمكن تعليل ذلك التحول؟.

وقد ناقش شلبي هذا الأمر، وعلله بأمور عديدة من أهمها :

أولاً : ازدياد الإقبال على الدراسات الشرعية، وبالتالي ازدحام حِلَق التعليم في المساجد بالكثير من الرّواد، وكان ينبعث من كل حلقة من هذه الحِلَق صوت المدرس يُلقي درسه، وأصوات الطلاب يُناقشونه، ويسألونه، حتى تلاقت الأصوات المتصاعدة من الحِلَق المتعددة، فأحدثت في المسجد شيئًا من الضجيج

---

(١) وهي المدرسة المُجاهدية، ابن خلكان. وفيات الأعيان.- جـ٤، ص٨٢-٨٣.

(٢) شاهد الرحالة ابن جُبير في رحلته العديد من الكتاتيب، في البلاد التي كان يحكمها الزنكيون، وكان يسميها "المَكَاتِب".

(٣) راجع في المبحث الخاص عن المساجد ضمن هذا الفصل.

مما يتنافى مع مكانة المسجد، وهذا ماجعل احتمال المسجد للصلاة والتدريس معًا أمرًا صعبًا.[1]

ثانيًا : تطور العلوم والمعارف مع مرور الزمن، حيث أصبحت هناك مواد تستدعي دراستها الكثير من الحوار والنقاش، ومثل هذه المواد تتنافى مع مايجب أن يكون عليه روّاد المسجد من هدوء وسكينة.[2]

ثالثًا : انشغال جماعة من المعلمين بالتعليم في حِلَق المساجد معظم وقتهم، ومحاولتهم الارتزاق عن طريق ممارسة حرف بسيطة قاموا بها إلى جانب التدريس، ولكنهم فشلوا في الحصول على مستوى معيشي مناسب، مما أدى بهم إلى البحث عن مكان مستقل تتوافر فيه شروط التدريس من جهة، ويضمن لهم جرايات وافرة تقوم بحاجاتهم من جهة أخرى،[3] وعلى هذا الأساس بُدء بتأسيس هذا المكان الذي حَمَلَ اسم " المدرسة"، ومن ثم بدأت طلائع الحركة المدرسية الفعلية بالظهور، والتطور مع مرور الزمن.

ويُقصد بالمدارس هنا تلك الدُوُر المنظمة التي يأوي إليها طلاب العلم، وتدرّ عليهم الأرزاق، ويتولى التدريس لهم فيها وتثقيفهم فيها فئة صالحة من المدرسين والعلماء، يُوسع عليهم في الرزق، ويُختارون بحسب شروط الواقف ممن يُحسنون القيام بالغرض الذي ندبوا للقيام به، ويجازون بما تعلّموا من ضروب المعارف المختلفة.[4]

والواقع أنه لا تتوافر للباحث أخبار واضحة وأكيدة عن نشأة المدارس الأولى في المجتمعات الإسلامي، مما سبب كثيرًا من الغموض عن بداية نشأتها، وأشكال وجودها، ونوعية وظائفها، وطرق تطورها.

---

(١) تاريخ التربية الإسلامية.- ص١١٣.
(٢) المرجع نفسه.- ص١١٣.
(٣) نفسه.- ص١١٤.
(٤) أحمد بدوي. الحياة العقلية.- ص٣٠.

وقد ذهب بعض المؤرخين.[1] إلى أن الوزير السلجوقي نظام الملك الطُوسِيّ المتوفى عام ٤٨٥هـ (١٠٩٢م) أول من بنى المدارس في العالم الإسلامي، وهذا الزعم فيه نظر، إذ إن المدارس عُرفت منذ القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) تقريبًا حيث ذكر السبكي في ترجمته لنظام الملك: " وشيخُنا الذهبي زعم أنه أول من بنى المدارس، وليس كذلك، فقد كانت المدرسة البَيْهقِيَّة بنيسابور قبل أن يُولد نظام الملك، والمدرسة السَّعْدِيَّة بَنيْسابُور أيضًا، بناها الأمير نَصْر بن سُبُكْتِكِين أخو السلطان محمود، لَمّا كان واليًا بنيسابور، ومدرسة ثالثة بَنيْسَابُور، بناها أبو سعد إسماعيل بن عليّ بن المُثنى الإسْتِرابَاذِي، الواعظ، الصوفي، شيخُ الخطيب، ومدرسة رابعة بنيسابور أيضًا".[2] كما ذكر المقريزي مانصه: " المدارس مما حدث في الإسلام، ولم تكن تعرف زمن الصحابة، ولا التابعين، وإنما حدث عملها بعد الأربعمائة من سني الهجرة، وأول من حُفظ عنه أنه بنى مدرسة في الإسلام أهل نَيْسَابُور، فبُنيت بها المدرسة البَيْهَقِيّة، وبنى بها أيضًا الأمير نصر بن سُبُكْتِكِيْن مدرسة، وبنى بها (أخوه)[3] السلطان محمود بن سبكتكين مدرسة، وبُني بها أيضًا المدرسة السعيديّة وبُني بها أيضًا مدرسة رابعة".[4]

ومع هذا فإنه يصعب هنا تحديد تاريخ دقيق ومكان معين لنشوء أول مدرسة في البلاد الإسلامية حيث قامت مدارس عدة في أقاليم مختلفة من العالم الإسلامي، ولكن الذي يمكن الاطمئنان إليه هو القول بأسبقية وجود المدارس في بلاد المشرق الإسلامي وبخاصة في خراسان وما وراء النهر حيث أنشئت مدارس كثيرة مستقلة عن المساجد.

---

(١) أنظر على سبيل المثال. ابن خلكان. وفيات الأعيان.- جـ٢، ص١٢٩ ؛ القزويني. آثار البلاد.- ص٤١٢ ؛ ابن الوردي. تتمة المختصر.- ج٢، ص١٢.

(٢) طبقات الشافعية الكبرى.- ج٤، ص٣١٤.

(٣) وردت هذه الكلمة في طبعات الخطط بلفظ (أخو) وهو خطأ وصحتها (أخوه) كما وردت عند غيره أنظر (ابن جماعة. تذكرة السامع والمتكلم.- ص٢١٣)، وبه يستقيم المعنى.

(٤) الخطط.- ج٢، ص٣٦٣.

وكان إنشاؤها في أوائل القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) أي أن إنشاءها كان سابقًا لإنشاء نظامية بغداد بأكثر من قرن ونصف القرن.[1] يؤيد ذلك ما شاهده الرحالة المقدسي المتوفى سنة ٣٧٨هـ (٩٨٨م) أثناء رحلته التي قام بها إلى بلاد المشرق حيث ميّز بين المدارس وغيرها من دور التعليم فقال: " وأممتُ في المساجد، وذكّرت في الجوامع، واختلفتُ إلى المدارس".[2] فهو لأول مرة يحدد هنا وجود المدارس بصيغة الجمع في بلاد المشرق، ولم يوجد لها ذكر، في وصف مشاهداته في بلاد العراق والشام ومصر، وإذا كان للوزير السلجوقي مبادرة في ذلك فهي في إقراره المعاليم في المدارس وتنظيمها.[3]

إضافة إلى توسعه في إنشاء المدارس في عددٍ كبير من مدن العراق والمشرق الإسلامي، فقد انتشرت النظاميات في تلك المناطق بعد افتتاح نظامية بغداد عام ٤٥٩هـ (١٠٦٧).[4] وقد ذكر السُبكي في ترجمته لنظام الملك ما نصه: " وبنى مدرسة ببغداد، ومدرسة ببَلْخ، ومدرسة بنيسابُور، ومدرسة بهَراة، ومدرسة بأصبَهان، ومدرسة بالبصرة، ومدرسة بمرو، ومدرسة بآمل طبرستان، ومدرسة بالموصل"، ويقال: إن له في كل مدينة بالعراق وخراسان مدرسة.[5]

---

(١) للمزيد من المعلومات حول المدارس التي سبقت النظاميات. أنظر. ناجي معروف." مدارس قبل النظاميات"، بحث منشور في مجلة المجمع العلمي العراقي عدد (٢٢) لعام ١٣٩٢هـ (١٩٧٣م).- ص١٠٣ ـ ١٥٦.

(٢) محمود بن أحمد بن أبي بكر البناء الشامي (ت ٣٩٠هـ/ ٩٩٩م). أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم.- ط٢.- ليدن: مطبعة إبريل (١٩٠٩م).- ص٤٤.

(٣) المعاليم. الجرايات أو المرتبات التي تُمنح للطلبة نظير انتظامهم في الدراسة (ناجي معروف. التوقيعات التدريسية، بحث منشور في مجلة كلية الآداب، جامعة بغداد، عدد (٦).- ص٢٧)، وقد استبعد السبكي وجود هذه المعاليم قبل نظام الملك (طبقات الشافعية الكبرى.- ج٤، ص٣١٤).

(٤) ابن الجوزي. المنتظم.- ج٨، ص٢٣٨ ؛ ابن الأثير. الكامل.- ج٨، ص١٠٥.

(٥) طبقات الشافعية الكبرى.- ج٤، ص٣١٣.

يدخل من هذه المدارس تحت الحكم الزنكي " نظامية الموصل" التي كانت نواة لمدارس الموصل، وكان قد أنشأها نظام الملك كغيرها من النظاميات لتدريس المذهب الشافعي، ثم تلاها إنشاء المدارس بالموصل، وكانت المدرسة الأتابكية العتيقة أولى المدارس التي أشارت المصادر إلى قيامها بعد النظامية، ولكنها تختلف عنها في منهج الدراسة حيث تُعد أول مدرسة مشتركة بين المذهبين الشافعي والحنفي، وكانت من إنشاء الملك سيف الدين غازي بن عماد الدين زنكي (٥٤١ - ٥٤٤هـ/ ١١٤٦ - ١١٤٩م)، ثم تلاها إنشاء مدارس الموصل، في مختلف التخصصات.[١]

أما بلاد الشام، فقد عرفت المدارس منذ وقت مبكر حيث أنشئت أول مدرسة في دمشق عام ٤٩١هـ (١٠٩٧م)، أنشأها شُجاع الدولة صادِر بن عبدالله[٢] لتدريس المذهب الحنفي، وهي المدرسة الصادريّة.[٣]

فلما حكم نور الدين محمود حلب بعد وفاة والده عماد الدين سنة ٥٤١هـ (١١٤٦م) أخذ في إنشاء المدارس، واستدعى لها كبار العلماء من مختلف الأقطار الإسلامية وبنى لهم العديد من المدارس في شتى أرجاء مملكته، وكان يهدف من ذلك دعم المذهب السني، ومقاومة مذهب التشيع في المنطقة.[٤]

وقد توسّع في ذلك بعد ضم دمشق عام ٥٤٩هـ (١١٥٤م) وأكثر من بناء المدارس، وأوقف الأوقاف الغنية للصرف عليها وعلى المشتغلين بها، وكانت سياسة نور الدين

---

(١) ابن الأثير. التاريخ الباهر.- ص٩٣ ؛ سبط ابن الجوزي. مرآة الزمان.- ج٨، ق١، ص١٢٣ وسيرد الحديث مفصلاً عن تلك المدارس في الفصل الخاص بذلك إن شاء الله.

(٢) لم أعثر له على ترجمة في المصادر، ولعله أحد أمراء دمشق في تلك الفترة.

(٣) ابن عساكر. تاريخ مدينة دمشق.- ج٢، ق١، ص٧٥ ؛ ابن شداد. الأعلاق الخطيرة (قسم دمشق).- ص١٩٩ـ ٢٠٠ ؛ النعيمي. الدارس.- ج١، ص٥٣٧.

(٤) تم الحديث في الفصل السابق عن بعض مدارس نور الدين محمود، وسيرد الحديث عنها مفصلاً في الفصل الخاص بمراكز التعليم إن شاء الله.

تلك قدوة لمن حوله من الأمراء وكبار رجال دولته، فساروا على نهجه في تشجيع العلم، والإكثار من بناء المدارس، وجعل الأوقاف الكثيرة للصرف عليها، كما سار العُلماء والموسرون على هذا النهج مما ساعد على ازدهار الحياة العلمية في تلك البلاد.[1]

أما من حيث موقع المدرسة - فقد كان منشئوها يحرصون على اختيار أنسب الأماكن، وأجملها لإقامة البناء عليه، كالقرب من النهر، أو المتنزهات، وقد يحفونها بحديقة تتخللها المياه، وكانوا يهتمون بزخرفتها، وتجميل بنيانها، وقد وصف ابن جبير بعض مدارس الموصل التي كانت قائمة على دجلة في العهد الزنكي فقال: "وفي المدينة مدارس للعلم نحو الست، أو أزيد على دجلة، فتلوح كأنها القصور المشرفة".[2]

وكانت المدرسة في أغلب الأحيان تُسمى باسم مؤسسها وقلّما تُعرف باسم مدرسها، أو مكان وجودها، وكان بانيها يوقف عليها من الأوقاف مايكفي للصرف عليها وصيانتها، وللإنفاق على مدرسيها وطلبتها ومستخدميها، كما كان يُحدد عدد من يصرف عليه من ريع هذه الأوقاف من المدرسين والطلاب وغيرهم.

ولم تختلف المدرسة في العهد الزنكي عن المسجد لا من ناحية البناء، ولا من ناحية الوظيفة أو الغرض، إلا أنها كانت أكمل استعدادًا للدراسة المتصلة، ولسكنى الطلاب الغرباء والمنقطعين للعلم، كما استعملت المدرسة لنفس أغراض المسجد، فأقيمت فيها الصلاة كما أقيمت في المسجد،[3] كما استخدمت مركزًا للقضاء، والنظر في المظالم،

---

(١) سبق الحديث عن بعض تلك الجهود في الفصل الأول ضمن "تشجيع الزنكيين للعلم والعلماء" وسيرد التفصيل عن أهم تلك المدارس في الفصل الخاص بذلك إن شاء الله.

(٢) الرحلة.- ص٢١١.

(٣) كان المسجد مرفقًا مهمًا داخل بعض المدارس في ذلك العهد، يُنشأ مع بنائها لتقام فيه الصلوات المفروضة غير الجمعة، كما في المدرسة النورية بدمشق والأمينية، والصادرية أيضًا (ابن عساكر. تاريخ مدينة دمشق.- ج٢، ق١، ص٧٤ ـ ٧٥).

على أنه كان للمدرسة في ذلك العهد غرض رئيس هو تدريس الفقه وفق واحد أو أكثر من المذاهب السنية بطريقة تستدعي انقطاع الطلاب للدرس وتفرغ المدرسين للعمل حيث كانت ترتب لهم أجور ثابتة للصرف عليهم وإعاشتهم،[1] كما تشابه التصميم المعماري لكل من المدرسة والمسجد لدرجة أنه أصبح من الصعب التمييز بينهما، وكلّ ما يميز بنيهما أنه قد روعي في تصميم المدرسة الأغراض التعليمية، وإنشاء المساكن للطلبة أو المدرسين، وغيرهم من أصحاب الوظائف المتعلقة بالمدرسة، وبعض الملحقات المتعلقة بالتعليم، والتي كان من أهمها الإيوان، وهو المكان الذي يُرادف (قاعة المحاضرات) في التعبير الحديث، إذ لا تخلو مدرسة من هذا المرفق، كما كان هناك اختلاف في تعيين المدرس إذ كان المدرس يُعين غالبًا في المدرسة من قِبل واقفها، بخلاف المسجد الذي طالما جلس به مدرسون دون أن يُعينوا للتعليم فيه، ومن جهة الطلاب، فقد كان عددهم محدودًا غالبًا في المدرسة بخلاف المسجد الذي يرتبط عدد الطلبة غالبًا مع شهرة المدرس الذي يجلس للتدريس فيه دون التقيد بعدد معين من قِبل جهات مسؤولة.[2]

أما من حيث تمويل المدرسة، فقد سبقت الإشارة آنفًا إلى أنه بظهور المدارس، وبُروز فريق من المعلمين المتفرغين لمزاولة مهنة التدريس، بالإضافة إلى تكاثر أعباء الحياة، ظهرت الحاجة إلى موارد ثابتة يُنفق منها عليهم خاصة وأن مصروفات التعليم بالمدارس تفوق مثيلاتها في كثير من دور التعليم الأخرى كالمساجد، والكتاتيب، فكان أن أوقفت بعض الممتلكات على المدارس للصرف عليها وعلى المشتغلين بها، والمترددين عليها، ومن هنا أصبح للأوقاف أهمية خاصة بالنسبة لسير الدراسة في

---

(١) ابن شداد. الأعلاق الخيرة (قسم حلب).- ص١١٠.
(٢) أحمد شلبي. تاريخ التربية الإسلامية.- ص١١٤ ـ ١١٥.

المدارس، فالأوقاف هي التي تُثبت بناء المدرسة، وتُمكنها من أداء وظيفتها التي رسمت لها، وكان الرّيع الذي تغله المصالح الموقوفة شهريًا أو سنويًا، نقدًا أو عينًا، هو ضمان استمرار العمل بالمدرسة حيث تُدفع منه مرتبات المدرسين، وإعانات الطلبة حسب شُروط الواقف،[1] فأصبحت الأوقاف تُمثل موردًا ثابتًا يعمل على استمرار الدراسة في تلك المدارس، وبدونه لا يمكن أن تقوم قائمة لأية مدرسة، أو منشأة علمية في ذلك العهد.

وقد تفاوتت أوقاف المدارس بعضها عن بعض، فمنها ما تحظى بنصيب وافر نتيجة غنى وثراء من أوقف عليها، أو تكاثر أوقافها ونمائها، فيحظى منسوبوها بالتالي بالكثير من المال، والمأكولات والملابس، ومنها ما يكون نصيب منسوبيها أقل من ذلك، وغالبًا ما تشتهر المدرسة ويعلو صيتها بكثرة أوقافها، بل إنه ثبت أن الكثير من الطلبة الذي يعتمدون في إعاشاتهم على تلك الأوقاف يضطرون إلى ترك المدرسة في حالة تأثر وقفها - إذا كان زراعيًا - بأحوال الموسم، وقد أشار النعيمي إلى شيء من ذلك، فذكر أن الحضور في بعض السنوات في المدارس كان قليلاً بسبب قلة الجوامِك (المُرتبات التي تدفع للطلبة) بسبب الآفات التي تُصيب أوقاف المدارس إذا كانت زراعية.[2]

ولم تقتصر حُجج الوقف على حصر الموارد المالية للمدرسة فحسب، بل شملت كافة الجوانب التعليمية والإدارية، ولم تُشر مصادر البحث المتيسرة إلى ما يُفيد أن الدولة الزنكية كان لها نظام معين تسير وفقه تلك المدارس على الرغم من كثرتها وانتشارها في ذلك العهد، ولكن حُجج الوقف كانت بمثابة الدستور الذي خطط لتلك المدارس، ونظّم سيرها، ومن ثم يمكن أن تُعد حجة الوقف لأية مدرسة أشبه ما تكون باللائحة

---

(١) النعيمي. الدارس.- ج٢، ص١١١-١١٢.
(٢) المصدر نفسه.- ج١، ص٢٩٠.

الأساسية التي تنظم سير العلم فيها، فغالبًا ما توجد الشروط المطلوب توافرها في العالم والمتعلم على حد سواء، وما يتبع ذلك من النظم والقواعد الإدارية والمالية التي تسير وفقها المدرسة مسجّلة في حجة الوقف عليها.

وقد عُرف التخصص العلمي [١] في مدارس العهد الزنكي، فقد خصصت بعض المدارس لتدريس الفقه إما على مذهب أو أكثر من مذاهب أهل السنة الأربعة (الشافعي، الحنفي، الحنبلي، المالكي)، كما كان من بين تلك المدارس ما يدرس فيها علم القراءات، والتفسير وجانبًا من العلوم اللغوية والأدبية إلى جانب التخصص الذي أنشئت المدرسة من أجله، كما كان من بين تلك المدارس أيضًا ما يشبه الجامعات - في وقتنا الحاضر - فيدرس فيها مختلف العلوم والتخصصات.[٢] وقد حرص العلماء على أن يلتزم المعلمون بتدريس فرع العلم الذي بُنيت المدرسة من أجله، وتشدد بعضهم، فاعتبر المعلم الذي يقوم بتدريس علم غير الذي أوقفت المدرسة له، ثم صرف نصيبه منها يُعدُّ آكل سحت، فإن بُنيت المدرسة لتدريس الفقه مثلاً، ثم قام المدرس بها بتدريس مادة أخرى فإن ذمته لا تبرأ، يقول السبكي في ذلك: " وعندي أن الذمّة لا تبرأ في المدرسة الموقوفة على الفقهاء إلا بإلقاء الفقه. فإن كان هذا المدرس لا يلقي الفقه رأسًا فهو آكل حرام. وكذلك نقول في مدرسة التفسير، إذا ألقى مدرّسها غير التفسير، ومدرسة النحو إذا ألقى مدرسها غير نحو، والأحوط من هذا كله الإلقاء من الفن الذي بُنيت له المدرسة ؛ فإن الواقف لو أراد غير ذلك لسمى ذلك الفن".[٣]

---

(١) يُقصد بالتخصص العلمي هنا. أن المادة الأساسية التي تدرس هي التي أنشئت المدرسة من أجلها، ولا يمنع ذلك من تدريس بعض المواد المساعدة لإيضاح المادة الأساسية.

(٢) من المدارس الكبرى في العهد الزنكي المدرس البدرية بالموصل، والتي اشتهرت بتدريس الشيخ كمال الدين بن يونس المتوفى عام ٦٣٩هـ (١٢٤١م) بها مختلف العلوم. (ابن خلكان. وفيات الأعيان.- ج٥، ص٣١٦).

(٣) معيد النعم.- ص٨٤،.



أما ما يختص بسكنى المدارس وآدابها، فقد حرص الكثير من منشئي المدارس في العهد الزنكي على إنشاء مساكن ملاصقة بها لإيواء المدرسين والطلاب الملتحقين بمدارسهم، هذا إلى جانب توفير الإعاشة لهم الأمر الذي كان يُمكنهم من التفرغ للدراسة، وقد اختلفت نوعية تلك المساكن وجودتها من مدرسة لأخرى تبعًا لقدرة مُنشئها على إقامة مثل تلك المرافق، والصرف على ساكنيها، وإعاشتهم، وتبعًا، لقوة الوقف الموقف عليها، وقد بلغت بعض المساكن حدًا كبيرًا من الجودة والإتقان، فنالت إعجاب من شاهدها، ومرّ بها، فقد وصف ابن جُبير هذا المرفق المتصل بإحدى مدارس حلب وصفًا بديعًا، فقال بعد وصفه لجامع حلب: "ويتصل به من الجانب الغربي مدرسة للحنفيّة - يقصد المدرسة الحَلاّوية - تناسب الجامع حسنًا وإتقان صنعة، فهما في الحسن روضة تجاور أخرى. وهذه المدرسة من أحفل ما شاهدناه من المدارس بناءً وغرابة صنعة، ومن أظرف ما يُلحظ فيها أن جدارها القبلي مفتّح كله بيوتًا وغُرفًا، ولها طيقان يتّصل بعضها ببعض، وقد امتد بطول الجدار عريس كرم مُثمر عنبًا، فحصل لكل طاق من تلك الطيقان قسطُها من ذلك العنب متدليًا أمامها، فيمدّ الساكن فيها يده ويجتنيه متكئًا دون كلفة ولا مشقّة".(١)

وقد اجتهد الفقهاء في تحديد الآداب التي ينبغي أن يلتزم بها ساكنو تلك المرافق من مدرسين وطلاب، حيث أورد بدر الدين بن جماعة طرفًا من هذه الآداب كان من أهمها: أن يحرص الساكن على حضور الدروس المقامة في المدرسة لما فيها من القراءة والدعاء للواقف والاجتماع على مجلس الذكر، فإذا ترك الساكن فيها ذلك فقد ترك المقصود ببناء مسكنه الذي هو فيه.(٢)

---

(١) الرحلة.- ص٢٢٧ ـ ٢٢٨.
(٢) تذكرة السامع والمتكلم.- ص٢١٦.

- ضرورة مراعاة مصلحة الساكنين بالمدرسة وتهيئة الجو المناسب لهم لمذاكرة دروسهم لذا وجب على من يسكن تلك المساكن أن: "لا يتمشى في المدرسة أو يرفع صوته بقراءة أو تكرار أو بحث رفعًا منكرًا أو يُغلق بابه أو يفتحه بصوت ونحو ذلك، لما في ذلك كله من إساءة الأدب على الحاضرين والحمق عليهم".[(١)]

- كما أوصى الساكن في المنازل العليا أن يُخفف المشي والاستلقاء عليها، وأن يتحاشى وضع الأشياء الثقيلة كيلا يؤذي من تحته،[(٢)] وألا يكثر التمشي في ساحة المدرسة بطالاً من غير حاجة إلى راحة أو رياضة، أو انتظار أحد، ولا يتخذ باب المدرسة مجلسًا بل لا يجلس إلا لحاجة، وألا ينظر في بيت أحد مع مروره من شقوق الباب ونحوه، ولا يلتفت إليه إذا كان مفتوحًا، وإن سلمّ سلّم وهو مار من غير التفات، ولا يُكثر الإشارة إلى الطاقات ولا سيما إذا كان فيها نساء، كما نهى الساكن عن العنف في إغلاق الباب بشدة لا يحتاج إليها، ونداء من بأعلى المدرسة من أسفلها إلا أن يكون بصوت معتدل عند الحاجة، وإذا كان المسكن مكشوفًا إلى الطريق السالك من باب أو شباب تحفّظ فيها عن التجرد من الثياب وكشف الرأس الطويل من غير حاجة، وأن يتجنب كل ما يعاب كالأكل ماشيًا، وكلام الهزل غالبًا، والبسط بالنعل، وفرط التمطي والتمايل على الجنب والقفا، والضحك الفاحش بالقهقهة، ولا يصعد إلى سطحها المشرف من غير حاجة أو ضرورة، إلى غير ذلك من الآداب التي يطول سردها هنا.[(٣)]

وقد حافظت تلك الآداب على حرمة المدارس ومساكنها، ومكّنت القائمين فيها من أداء وظائفهم على أكمل وجه.

---

(١) المصدر نفسه.- ص٢١٦.

(٢) نفسه.- ص٢٣٠.

(٣) تذكرة السامع والمتكلم. ملخص الصفحات ٢٣٠ ـ ٢٣٤.

٤ ـ دُوُر الحديث:

على الرّغم من انتشار حركة المدارس في العهد الزنكي ، وشيوع لفظ " مدرسة " على المكان المُخصص للتعليم والإقامة والرعاية ، فقد وُجدت بجانبها دُوُر تعليمية تؤدي الأغراض نفسها التي تنهض بها المدارس ، وإن لم تحمل اسمها ، فلفظ "دار" كان مرادفًا في المعنى والوظيفة لكلمة مدرسة ، وقد ورد كثيرًا في ذلك العهد ، فنور الدين محمود أنشأ دار الحديث بدمشق ، وهي الأولى من نوعها في الإسلام ، ولم يطلق عليها مسمى " مدرسة " ومن بعده تكاثرت دُوُر الحديث كمدارس أحادية تخصصية لهذا العلم.

وقد عني المسلمون بدراسة الحديث الشريف عناية كبيرة باعتباره المصدر الثاني من مصادر التشريع الإسلامي بعد القرآن الكريم ومن مظاهر العناية به إنشاء تلك الدور التي تتولى مهمة تدريس أقوال النبي ﷺ ، وأفعاله ، وأحواله من حيث رواية الحديث ، والبحث عن كيفية اتصال الأحاديث بالرسول ﷺ من حيث أحوال رواتها ضبطًا وعدالة ، ومن حيث كيفية السند اتصالاً وانقطاعًا ، كما تتناول دراسة المعنى المفهوم من ألفاظ الحديث ، والمراد منها مبنيًا على قواعد اللغة العربية ، وضوابط الشريعة ، ومطابقًا لأحوال النبي ﷺ .(١) وكان الاتجاه إلى العناية بالحديث الشريف دراسة وتدريسًا ، وتشييد دُوُر خاصة به ، من أبرز سمات التعليم في العهد الزنكي ، إذ بادر الملك نور الدين محمود بإنشاء أول دار للحديث في الإسلام ، وهي دار الحديث النُوريّة بدمشق ، والتي أوكل مهمة التدريس فيها ، والإشراف عليها إلى أبرز أعلام عصره هو الحافظ

---

(١) حاجي خليفة ، مصطفى بن عبدالله المعروف بكاتب حلبي (ت ١٠٦٧هـ ـ ١٦٥٦م). كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون.- بغداد : مكتبة المثنى ، مصوّر عن طبعة استانبول (١٩٤١م).- ج١/٦٣٥.

الكبير أبو القاسم ابن عساكر المتوفى سنة ٥٧١هـ (١١٧٦م) ،[١] ثم تلا ذلك إنشاء العديد من دور الحديث في العالم الإسلامي.

وتُعد مبادرة نور الدين تلك إدراكًا منه للظروف المحيطة بالمنطقة في تلك المدة سواء ما يختص منها بالمذهب الشيعي الذي تحمل عبء تقويضه من المنطقة ونشر المذهب السني على حسابه ،[٢] أو ما يتمثل بالخطر الصليبي المحيط بالمنطقة ، إذ كانت مهمة تلك المعاهد أن تقوم بدورها إلى جانب دور التعليم الأخرى في تهيئة الناس وإعدادهم للجهاد ضد ذلك العدوان ، فكثرت الدراسات والتأليف حول فضائل الجهاد والحث عليه ، وزاد الاهتمام بدراسة هذا التخصص ، وكانت دُوُر الحديث مقرًا لذلك النشاط.[٣]

وقد ذكر القلقشندي لقب " المُحدِث "ضمن ألقاب الوظائف من العلماء ، وحدد اختصاصه بأنه من يتعاطى علم الحديث بطريق الرواية والدراية ، والعلم بأسماء الرجال وطرق الأحاديث المعروفة بالأسانيد ونحو ذلك.[٤] كما أورد أيضًا وصيّة لمن قُدر له أن يتولى مشيخة دار الحديث في معاملة طلبته قال فيها : " ... فليعامل الطلبة إذا أتوه للفائدة معاملة من جرّب ، وليُنشط الأقرباء منهم ويؤنس الغرباء ... وليسفر لهم صباح قصده عن النجاح ، ولينتق لهم من عقوده الصحاح ، وليوضح لهم الحديث ، وليرح خواطرهم بتقريبه ما كان يسار إليه السير الحثيث ، وليؤتهم مما وسع الله عليه في المجال

---

(١) ابن الأثير. التاريخ الباهر.- ص١٧٢ ؛ أبو شامة. كتاب الروضتين.- ج١ ، ق١ ، ص٢٣ ؛ المقريزي. الخطط.- ج٢ ، ص٣٧٥.
(٢) سبق الحديث عن هذا الموضوع بشيء من التفصيل فيما يختص بالحرص على نشر المذهب السني كعامل من عوامل نشاط حركة التعليم في هذا العهد في الفصل الأول.
(٣) سبق الحديث عن ذلك النشاط بتوسع في الفصل السابق.
(٤) صبح الأعشى.- ج٥ ، ص٤٦٤.

ويعلمهم ما يجب تعليمه من المتون والرجال، ويبصرهم بمواقع الجرح والتعديل، والتوجيه والتعليل، والصحيح والمعتل الذي تتناثر أعضاؤه سقمًا كالعليل، وغير ذلك مما لرجال هذا الشأن به عناية، وما ينقب فيه عن دراية أو يقنع فيه بمجرد رواية".[1]

ومن الواضح أن هذه الوصية تُبين القضايا والمسائل المنوطة بشيخ دار الحديث، وما يركز عليه في تعليمه لطلابه المترددين عليه فيها.

وليس هناك اختلاف في نظم التعليم بين دور الحديث والمدارس الأخرى سوى في كون المناهج في الأولى تُركز على الدراسات المتصلة بعلوم الحديث بينما يغلب التخصص الفقهي على مدارس العصر.

وهذه خطوة تميزت بها حركة التعليم في العهد الزنكي لعدم وجود مثل هذا النوع من المدارس قبل ذلك، إذ أن دراسات الحديث كانت تتمّ في حِلَقَ المساجد، كما كانت مادة إضافية في العديد من المدارس الفقهية.

ومع ذلك فإن علم الحديث لم تقتصر دراسته في العهد الزنكي على تلك الدُور فحسب، بل كان يضاف لمناهج الدراسة في كثير من المدارس، إضافة إلى تخصيص بعض الزوايا الملحقة بالمساجد لتدريسه.

وقد أوقف الملك نور الدين محمود في جامع حلب زاوية لتدريس الحديث الشريف وجعل لها وقفًا يصرف منه على المشتغلين بها من معلمين ومتعلمين.[2]

---

(١) المصدر نفسه.- ج١١، ص٢٤٩.

(٢) ابن شداد. الأعلاق الخطيرة (قسم حلب).- ص١٢٢.

٥ ـ الخَوانِق والرُبُط:

تُعد الخَوانِق والرُبط من أهم مراكز الصوفية في العهد الزنكي، حيث يمارس فيها التصوف سلوكًا بالإضافة إلى قيامها بوظائف دينية واجتماعية أخرى، ولكنها مع ذلك كانت دور تعليم شاركت في تعليم العلوم الشرعية بالإضافة إلى مهمتها الأساسية، " التصوف"، ولا يعنينا هنا أن نتحدث عن التصوف، نشأته وطرقه، ومذاهبه، فإن مجال ذلك غير وارد هنا، ولكن الذي يعنينا هو التعرف على أهمية تلك الأماكن وأثرها في حركة التعليم في ذلك العهد.

وكان التصوف في تلك المدة اتجاهًا له نفوذه وسيطرته، وتقديره على المستوى الرسمي والشعبي، فكان الصوفية محل تقدير الحكام واحترامهم، وقد برز نور الدين محمود في هذا المجال، وحظي الصوفية لديه بمكانة عالية فأكرمهم، وأدناهم من مجلسه، وبنى لهم الخوانق والربط في شتى أنحاء مملكته،[1] وكانت مراكز الصوفية تلك مكانًا للعبادة والدرس قدمت مع دُوُر التعليم الأخرى خدمات جليلة لحركة التعليم في ذلك العهد.

وقد عرف العهد الزنكي الخوانق ضمن الأماكن التي كان لها أثر في التعليم وإن كان هذا الأثر أقل من أثر المساجد، والمدارس، ذلك لأنها لم تُبنَ أساسًا لأغراض التعليم، والقيام بوظائفه، وإنما بُنيت بقصد إيواء الصوفية الذين كانوا يخلون لأنفسهم لعبادة الله تعالى، فخصصت لهم تلك الدُوُر، لإقامتهم حيث كان يُوفر لهم فيها كافة أسباب الراحة والعيش حتى يتفرغوا للعبادة وطلب العلم بعيدًا عن مشاغل الحياة، وكان منشئوها يوقفون بعض الأوقاف للصرف عليها وعلى من ينزل بها من الصوفية.

---

(١) ابن عساكر. تاريخ دمشق (مخطوط).- ج١٦، ص٢٩٤ ؛ ابن الأثير. التاريخ الباهر.- ص ١٧١.

وقـد اشـتهرت في العهـد الـزنكي خوانـق عديـدة كـانت مـثار إعجـاب المشـاهد لهـا والواقف عليها منها: الخانقاه السِميساطِية،[1] وخانقاه الطاحُون،[2] وخانقاه القصر،[3] وكلها كـانت في دمشـق، وكـان خانقـاه القصـر مـن أحفـل تـلك الخوانـق جميعًـا، وقـد أعجـب ابـن جُبير بما شاهده فيه ووصفه بقوله: " ... ومن أعظم ما شاهدناه لهم - يعني الصوفية - موضع يعرف بالقصر، وهو صرح عظيم مستقل في الهواء في أعلاه مساكن لم ير أجمـل إشـراقًا منها، وهـو مـن البـلد بنصـف الميل لـه بستان عظيم يتصل به ... وقد وقفه نور الدين برسم الصوفية مؤبدًا لهم".[4]

كمـا اشـتهر في حلـب كـل مـن خانقـاه البـلاط المنسوب لشمس الخواص لؤلؤ الخادم عـتيق الملك رضـوان بـن تُتُش والمتوفى سنة ٥١٠هـ (١١١٥م)،[5] وخانقاه القديم التي أنشـأها نور الدين محمود سنة ٥٤٣هـ (١١٤٨م)،[6] وبالإضافة إلى تلك الخوانق الخاصة بالـرجال، أنشـئت في العهد الزنكي أيضًا خوانق خاصة بالنساء، يقمن فيها، ويتعبدن، ويتـلقين فيهـا دروسًـا في الوعـظ الديـني، ومـن أشـهرها: " خانقـاه نـور الديـن " بحـلب، وتنسـب للمـلك نـور الديـن محمـود بـن زنكـي، ذكـر ابن شداد أنه أنشأها للنساء بحلب، وتنسـب للمـلك نـور الدين محمود بن زنكي، ذكر ابن شداد أنه أنشأها للنساء بحلب سنة

---

(١) تنسـب هـذه الخانقـاه لأبي القاسـم علي بن محمد السُميْساطِي المتوفى سنة ٤٥٣هـ (١٠٦١م) (النعيمي. الدارس.- ج٢، ص١٥١).

(٢) أنشأ هــذه الخانقـــاه نـور الدين محمود (ابن شداد. الأعــلاق الخطيرة (قسم دمشق).- ص ١٩٢).

(٣) أنشأها أيضًا الملك نور الدين محمود (المصدر نفسه.- ص١٩٢، النعيمي. المصدر السابق.- ج ٢، ص١٦٧).

(٤) الرحلة.- ص٢٥٧.

(٥) ابن شداد. المصدر السابق.- (قسم حلب).- ص٩٣.

(٦) المصدر نفسه (قسم حلب).- ص٩٣، الطباخ. أعلام النبلاء.- ج٤، ص٢٤٠.

٥٥٣هـ (١١٥٨م) على الأرجح.[١] ولم تُشر مصادر البحث إلى موقع هذه الخانقاه، كما أنه لم يبق لها أي أثر في الوقت الحاضر.

وكان للخانقاه عادة شيخ يتولى نظارتها، والإشراف عليها يُسمى "شيخ الشيوخ".[٢] وقد اشترط الفقهاء فيمن يتولى هذه المنصب شروط عدة وآداب تُؤهله لذلك منها ما ذكره السبكي من أنه لابد أن يتمتع بقسط وافر من العلم والحلم، وأن يتحمل الأذى والضّيم على نفسه، وأن يكون حسن التلفظ، حريصًا على الصلاة والذكر، وتلاوة القرآن الكريم، وأن يحرص على تعليم مُريديه العلم النافع، متدرجًا بهم بالأهون فالأهون، مبتعدًا بهم عن الألفاظ التي يصعب عليهم معرفتها.[٣]

وكان الملك نور الدين قد عهد هذا المنصب للفقيه عماد الدين عمر بن علي بن حموية المتوفى سنة ٥٧٧هـ (١١٨١م).[٤] وكان قد قدم دمشق في أيامه، ولم يلبث أن آنس منه نور الدين علمًا وزهدًا، ففوض إليه سنة ٥٦٣هـ (١١٦٧م) مشيخة الخوانق والرُبُط في كل من دمشق، وحمص، وحماة، وحلب، وبعلبك.[٥]

---

(١) المصدر السابق.- (قسم حلب).- ص٩٥.

(٢) عدّ القلقشندي هذه الوظيفة تاسع الوظائف الدينية في الدولة (صبح الأعشى.- ج٩، ص ٢٥٥-٢٥٦) ومعناها العام كبير الشيوخ، أو رئيس الشيوخ ويغلب إطلاقها على شيوخ الصوفية أو الخانقاوات (حسن الباشا. الفنون الإسلامية.- ج٢، ص٦٣٩).

(٣) معيد النعم.- ص٩٧.

(٤) هو أبو الفتح عمر بن علي بن محمد بن حموية الجُويني الصُوفي، قدم دمشق أيام الملك العادل نور الدين، فحظي عنده بمكانة عالية، وولاه مشيخة الخوانق في بلاده، وكتب له العماد الأصفهاني منشورًا بذلك سنة ٥٦٣هـ (١١٦٧م) وبعد وفاة نور الدين استمر أبو الفتح في مكانته العالية لدى السلطان صلاح الدين، واستمر في هذا المنصب حتى وفاته سنة ٥٧٧هـ (١١٨١م) (أبو شامة. ذيل الروضتين.- ص١٢٥ ؛ الذهبي، العِبر.- ج٣، ص٧٤ ؛ النعيمي. الدارس.- ج٢، ص١٥٣ - ١٥٤).

(٥) النعيمي. المصدر السابق.- ج٢، ص١٥٣ - ١٥٤.

ومنذ أن تولى الشيخ عمر بن حموية هذا المنصب أطلق عليه لقب (شيخ الشيوخ) وهو اللقب الذي عرف به شيخ الصوفية أو ناظر الخوانق منذ ذلك الوقت.

وقد كان لتلك الخوانق أثر في إثراء الحياة العلمية في ذلك العهد، لما كان يُعقد فيها من دروس وحِلق وعظ، وما يُمنح فيها من إجازات علمية، وما يُصنّف فيها من كتب، ساعد على ذلك أن الواقفين لها غالبًا ما يوقفون فيها خزائن للكتب، ويعينون لها القوام والخُزّان، فكان المتصوفة يترددون على تلك المكتبات، ويقضون فيها أوقاتًا طويلة في المطالعة والاستنساخ والتأليف، كما كان هناك من العلماء من يوقف خزانة كتبه في إحدى هذه الخوانق كما فعل أبو سعيد البَنْدَهِي المتوفى سنة ٥٨٤هـ (١١٨٨م).[١] إذ أوقف خزانة كتبه على الخانقاه السميساطية بدمشق، وكان قد حصل له جملة من خزانة كتب حلب لم تحصل لغيره، وكانت من بقايا خزائن الفاطميين.[٢]

أما الرُبُط: فهي جمع رِبَاط، والرِباط والمُرابطة في الأصل: ملازمة ثغر العدو، والرِباط المواظبة على الأمر، فسُمي المقام في الثغور رباطًا ومنه قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ.[٣] ﴾[٤] إلا أن الرِباط

---

(١) هو محمد بن عبدالرحمن بن محمد بن مسعود أبو سعيد البندهي، وكان يكتب بخطه "البنجديهي" اللغوي الفقيه الشافعي، من أهل الفضل والأدب والدين والورع، ورد بغداد ثم الشام، وصادف قبولاً لدى السلطان صلاح الدين الأيوبي، وحدّث البندهي وأملى بالشام، وصنّف شرحًا لمقامات الحريري في خمس مجلدات متوسطة، كانت ولادته سنة ٥٢٢هـ (١١٢٨م)، ومات بدمشق سنة ٥٨٤هـ (١١٨٨م)(ياقوت. معجم الأدباء.- ج١٨، ص٢١٥ ـ ٢١٦) ؛ السيوطي، الحافظ جلال الدين عبدالرحمن بن أبي بكر بن محمد (ت ٩١١هـ/١٥٠٥م). بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم.- القاهرة: مطبعة عيسى البابي وشركاه، ١٣٨٤هـ /١٩٦٤م.- ج١، ص١٥٨ ـ ١٥٩).

(٢) ياقوت. المصدر السابق.- ج١٨، ص٤٢٧.

(٣) سورة آل عمران. آية (٢٠٠).

(٤) ابن منظور. لسان العرب، مادة (رَبَطَ).- ج٣، ص١٥٦١.

يطلق أيضًا على الدار التي يسكنها المتصوفة إذ يرون في قوله تعالى: ﴿ وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا ﴾ أي واظبوا على مواقيت الصلاة، وقيل: إن المقيم في الرباط على طاعة الله يدفع بدعائه البلاء عن العباد والبلاد.(١) والرِباط بهذا الوصف لا يعدون أن يكون مشابهًا للخانِقَاه في الوظيفة والغرض.

وبذكر كل من مارسيه(٢) وأحمد رمضان(٣) أن بلاد المشرق الإسلامي قد أصبحت بمأمن من تهديدات الأعداء، وأنها لم تعد بحاجة ملزمة إلى المُرابطة بالثغور، فزالت عن تلك الرُبُط صفتها الحربية، وعزف أهلها عزوفًا تامًا عن التدريب العسكري، واستبدلت تلك المنشآت بحياة قوامها الزهد والتقشف.

وفي هذا نظر، لأن بلاد المشرق الإسلامي بعامة، ومنطقة الشام والموصل بخاصة، لم تكن بمأمن من تهديدات الأعداء لمجابهاتها المستمرة للعدوان الصليبي والغزو المغولي من بعده، طيلة تلك الفترة التي حكمها الزنكيون، والأيوبيون، والمماليك، حيث كانت تلك الدول في أمس الحاجة للمُرابطة على الثغور، وإحكام السيطرة عليها، ولعل المبرر لاستمرار هذه المنشآت والإكثار منها هو تطور التصوف وتشعب طرقه منذ القرن السادس الهجري (الثاني عشر الميلادي) أو القرن الذي سبقه كما يذكر مارسيه.(٤) فكانت تلك الرُبُط أماكن اتخذها المتصوفة والزُهّاد للانقطاع فيها للعبادة ومجاهدة النفس، ومن هنا يتضح التناقض الذي وقع فيه " مارسية" في إيراد مبررين متناقضين، وربما نقل أحمد رمضان عنه هذا التناقض.

---

(١) المقريزي. الخطط.- ج٢، ص٤٢٧.
(٢) دائرة المعارف الإسلامية، نقلها إلى العربية أحمد الشنتناوي وآخرون.- القاهرة: (١٩٣٣م)، مادة (رِبَاط).- ج١٠، ص٢٢.
(٣) المجتمع الإسلامي في بلاد الشام في عصر الحروب الصليبية، القاهرة، ١٣٩٧هـ (١٩٧٧م)، ص١٥٤.
(٤) دائرة المعارف الإسلامية.- ج١٠، ص٢٢.

وقد انتشرت الرُبُط في العهد الزنكي وازدادت وظائفها، وزاد الاهتمام بها من قِبل الملوك الزنكيين ورجال دولتهم، حيث حرصوا على إنشائها والإكثار منها، وأوقفوا عليها الأوقاف القائمة بها، وممن كان له يد طولى في الإكثار منها الملك العادل نور الدين محمود فقد أنشأ الرُبُط في أغلب المدن الزنكية، وأوقف عليها الأوقاف الغنية إضافة إلى احترامه لمشايخ التصوف وتقديره لهم وتكريمهم، وكان يحضرهم إلى مجلسه للتشاور معهم والسؤال عن حالهم.[1]

كما كان للملك سيف الدين غازي (٥٤١ - ٥٤٤هـ/١١٤٦ - ١١٤٩م) بالموصل أثر في ذلك فقد بنى رِبَاطًا للصوفية وهو الرِبَاط المجاور لباب المشرعة.[2] وأوقف عليه الأوقاف الكثيرة لتفي باحتياجاته.[3]

وقد قامت العديد من الرُبُط في البلاد الزنكية بمهام تعليمية بالإضافة إلى مهمتها الأساسية (إيواء الصوفية) فكان رِبَاط قصر حَرْب[4] بالموصل مقصدًا لطلاب العلم والأدب إذ عكف فيه الطلاب على أبناء الأثير[5] يدرسون ويحققون وهم مكفولون في الرِباط يُنفق عليهم بما أوقف عليه من أوقاف.[6]

---

(١) ابن الأثير. التاريخ الباهر.- ص١٧١.

(٢) باب المَشْرَعَة. كان يقع قريبًا من دُوُر المملكة - دور السلطنة - يؤدي إلى النهر. والرباط يسمى اليوم (مقام عيس دَدَه) (سعيد الديوه جي. الموصل في العهد الأتابكي.- ص١٢٣).

(٣) ابن الأثير. المصدر السابق.- ص٩٣ ؛ سبط ابن الجوزي. مرآة الزمان.- ج٨، ق١، ص٢٠٤.

(٤) يقع هذا الرباط في قرية من قرى الموصل تسمى (قصر حرب) (ابن خلكان. وفيات الأعيان.- ج٤، ص١٤٢).

(٥) أبناء الأثير. هم، مجد الدين أبو السعادات الابن الأكبر المتوفى سنة ٦٠٦هـ (١٢١٠م) وعز الدين المؤرخ الابن الأوسط المتوفى سنة ٦٣٠هـ (١٢٣٢م)، والابن الأصغر ضياء الدين المتوفى سنة ٦٣٧هـ (١٢٣٩م)، وقد نزح والدهم محمد بن محمد بن عبدالكريم بن عبدالواحد الشيباني الجزري من جزيرة ابن عمر وسكن الموصل، وتقلد منصب ديوان الإنشاء في أول العهد الزنكي وأنجب ثلاثة أبناء أجلاء قال عنهم ياقوت الحموي. " كل منهم إمام" (معجم البلدان.- ج٢، ص١٣٨) عن أبناء الأثير أنظر. (ياقوت. معجم الأدباء.- ج١٧، ص٧١، ابن خلكان. المصدر السابق.- ج٤، ص١٤١.- ج٣، ص٣٤٨).

(٦) وفي هذا الرباط ألّف مجد الدين أبو السعادات أكثر كتبه، كما جمع فيه أخوه عز الدين المؤرخ كتابه الكامل في التاريخ. (ابن الأثير. الكامل.- ج٥، ص٢٠).

وكـان لأبـي السـعادات مجد الديـن بـن الأثـير ربـاط آخـر في دَرْب دَرّاج [1] بالموصـل حيث كان يستقبل به العلماء والطلاب وكانت تعقد به حِلَق الأدب والمناظرات العلمية، وقد دُفن به مجد الدين بعد وفاته.[2]

كمـا كـان رِبَـاط الوزيـر جمـال الديـن الأصـفَهَاني المـتوفر سـنة ٥٥٩هـ (١١٦٤م) بالموصـل أيضًا مركـزًا مـن مراكـز التعليم يقصده الطلبة للبحث والدراسة،[3] وقد كانت تلك الرُبُط عامرة بالفقهاء والعلماء حتى فاق بعضها بعض المدارس في الاشتغال بالعلم. وكـان الشـيوخ الذين يتولون مشيخة تلك الرُبُط من أكابر العلماء وكان بعضها يشترك في مشيختها مع الخوانـق شيخ واحـد، وقد سبقت الإشارة آنفًا إلى أن نور الدين محمود قد أسند هـذا المنصـب للفقيه عمـاد الدين عُمر بن حَمَوَيَة المتوفى سنة ٥٧٧هـ (١١٨١م) في كل من دمشق وحمص، وحماة، وحلب، وبعلبك.

وبالإضـافة إلى الرُبُط المخصصـة لـلرجال كـان هـناك بعـض الـرُبُط المخصصة لإيواء النسـاء العاجـزات، أو المطـلقات اللاتـي فقـدن عائـلهن، فـتكون تـلك الـرُبُط مفـتوحة أمامهن لإيوائهـن والصـرف علـيهن، وكـان في كل رِبَاط شيخة تتولى تعليمهن وتثقيفهن كما في رباط عذراء خاتون داخل باب النَصْر بدمشق.[4]

الجدير ذكره هنا أنـني لم أجد تفريقًا واضـحًا بين الخانقاه والربـاط في تلك الفـترة لدرجـة أن هـنـاك مـن يخلـط بينهما ويعتـبرهما اسمـين لمؤسسة واحدة كما ذكر الرحالة

---

(١) درب درّاج. مَحلّة كبيرة في وسط الموصـل، (ياقوت. معجم البلدان.- ج٢، ص٤٤٧) وهو محلة وليس بطريق كما يتوهم البعض من اسمها.

(٢) ابن خلكان. المصدر السابق.- ج٤، ص١٤٣.

(٣) ابن الأثير. التاريخ الباهر.- ص١٢٩.

(٤) يُنسب هذا الرباط للست عذراء بنت شاهنشاه بن أيوب، وهي التي تُنسب إليها المدرسة العذراوية بدمشق توفيت في محرم سنة ٥٩٣هـ (١١٩٦م) أبو شامة. ذيل الروضتين.- ص١١ ؛ ابن شداد. الأعلاق (قسم دمشق).- ص١٩٦).

ابن جُبير الذي جمع بينهما بقوله: " وأما الرباطات التي يسمونها الخوانق فكثيرة وهي برسم الصوفية".[1]

كما خلط ياسين العُمري بينهما بقوله عن الموصل أن بها في أواخر الحكم الزنكي "سبعة وعشرون خانقاه".[2] وكان يقصد بذلك ما كان فيها من خوانق ورُبُط، فاعتبرهما مكانًا واحدًا، ومع ذلك فإن هناك بعض الاختلافات الشكلية في إمكانيات كل من الخانقاه والرباط، وكذلك في اكتساب اسم كل منهما، إذ يبدو أن الخانقاه كانت أكبر مساحة وأكثر أوقافًا وإعدادًا من الرباط باعتبارها معدّة لإقامة أطول من الإقامة بالرباط، كما أن الخانقاه غالبًا ما تسمى باسم منشئها أو الواقف عليها وهو ليس من جملة المتصوفة النازلين بها، بعكس الرباط الذي غالبًا ما يتخذ اسمه من اسم شيخه بصرف النظر عما إذا كان هذا الشيخ هو المنشئ له أو غيره من الناس، وقد فرّق المؤرخ ابن شداد بينهما، حيث صنّف فصلاً خاصًا بالخوانق وآخر بالربط.[3] ونقل عنه النعيمي في كتابه الدارس هذا الترتيب،[4] وهذا يؤيد وجود خلاف بين هاتين المؤسستين مع اشتراكهما بوظيفة واحدة هي التصوف.

(١) الرحلة.- ص٢٥٦.
(٢) مُنية الأدباء.- ص٦٦.
(٣) الأعلاق الخطيرة (قسم حلب).- ص٩٣ـ٩٦، (قسم دمشق).- ص١٩١ـ١٩٦.
(٤) الدارس.- ج٢، ص١٣٩ـ١٩٥، وهذا التفريق يتضح في بلاد الشام أكثر منه في بلاد الموصل.

٦ ـ البيمارستانات:

البيمارستانات: جمع بيمارستان، ويطابق مسمى المستشفى في وقتنا الحاضر، وقد أدرك المسلمون مدى ما تمتاز به هذه البيمارستانات من صلاحية لتعليم الطب حيث الحالات المرضية ماثلة أما أعين الطلاب، والأدوية والعلاجات قريبة متوافرة، فاتخذوا منها - إلى جانب قيامها بمعالجة المرضى - كليات طب قامت بدور بارز في تدريس هذا العلم، وكان لها أثرُ كبير على تطور العلوم الطبية الحديثة،[١] وكانت أول دار مؤقتة لعلاج المرضى عُرفت في الإسلام هي خيمة الصحابية الجليلة (رُفَيْدَة الأسلمية الأنصارية) التي أمر الرسول ﷺ بإقامتها في مسجده بالمدينة أثناء غزوة الخندق، حيث كانت رُفَيْدة تداوي بها الجرحى من المسلمين، وتقوم بخدمتهم.[٢]

فحينما أصيب الصحابي الجليل (سعد بن مُعَاذ) رضي الله عنه في تلك الغزوة أمر الرسول ﷺ بنقله إلى تلك الخيمة حيث قال: "اجعلوه في خيمة رُفَيْدَة حتى أعوده من قريب".[٣]

أما أول دار شفاء ثابتة في الإسلام، فهي التي بناها الخليفة الأموي الوليد بن عبدالملك سنة ٨٨هـ (٧٠٦م) وجعل فيها الأطباء، وأجرى عليهم الأرزاق.[٤]

فالبيمارستانات على ذلك على نوعين، مؤقت، وثابت، فالمؤقت هو المتنقل من

---

(١) محمد عبدالرحيم غنيمة. تاريخ الجامعات الإسلامية الكبرى.- تطوان: دار الطباعة المغربية (١٩٥٣م).- ص١١٨.

(٢) ابن حجر، شهاب الدين أحمد بن علي العسقلاني (ت٨٥٢هـ/١٤٤٨م). الإصابة في تمييز الصحابة.- القاهرة: مطبعة السعادة، ١٣٩٨هـ (١٩٧٨م).- ج٤، ص١٣٠٣.

(٣) ابن هشام. السيرة النبوية.- ج٣، ص٢٣٩.

(٤) المقريزي. الخطط.- ج٢، ص٤٠٥، ولم تُشر مصادر البحث إلى المكان الذي أنشأ فيه الوليد هذا البيمارستان، ولعله كان في دمشق حيث كانت عاصمة الدولة الأموية آنذاك.

مكان إلى آخر من الأماكن التي تتكاثر فيها الأوبئة والأمراض، أو التي تدور فيها المعارك الحربية، وهو عبارة عن مستشفى مجهّز بجميع مايلزم للمرضى من أدوية، وأطعمة، وأشربة، وملابس، وأطباء، وكل ما يعين على ترفيه الحال على المرضى والعجزة، وقد أشار ابن خلكان إلى واحد منها، وذلك في ترجمته للحكيم أبي الحكم عُبيدالله بن المُظفّر البَاهِلي، المعروف بالمغربي، والمتوفى سنة ٥٤٩هـ (١١٥٤م) فقد ذكر أنه كان طبيبًا للبيمارستان المتنقل المصاحب لمعسكر السلطان محمود السلجوقي، وأن هذا البيمارستان كان يُحمل على أربعين جملاً.[١]

أما الثابت: فهو ما كان يُبنى في جهة من الجهات لا ينتقل منها، وهذا النوع كان منتشرًا في العديد من البلدان الإسلامية، ولا سيما في العواصم الكبرى كبغداد، والقاهرة، ودمشق، ولا تزال آثار بعضها باقية، كالبيمارستان النوري بدمشق، والمنصوري بالقاهرة، وبيمارستان أرغُون بحلب، وغيرها كثير.[٢]

ومن ناحية أخرى، فإن البيمارستانات المؤقتة خاصة للعلاج فقط، ولا تستخدم لأغراض التعليم، بينما يوجد من البيمارستانات الثابتة ما يقوم بالإضافة إلى وظيفتها الأساسية - معالجة المرضى - بوظيفة تعليم العلوم الطبية للراغبين فيها، وهي التي سيكون عليها مدار البحث هنا.

وكان هذا النوع من البيمارستانات يعمل على أسس مرسومة ومنظمة، حسب ترتيب علمّي جيّد ليساعد على سير كافة الأعمال بصورة منظّمة، فقد كانت مقسمة إلى قسمين منفصلين بعضهما عن بعض، قسم للذكور، وآخر للإناث، وكان كل قسم مجهز بما يحتاجه من آلة، وعدّة، وخدم، وفرّاشين من الرجال والنساء، وكان في كل

---

(١) وفيات الأعيان.- ج٣، ص١٢٣ ـ ١٢٤.

(٢) أحمد عيسى (ت ١٣٦٥هـ/١٩٤٦م). تاريخ البيمارستانات في الإسلام.- ط٢.- بيروت: دار الرائد العربي، ١٤٠١هـ (١٩٨١م).- ص١٠ ـ ١١.

قسم من هذين القسمين عدة قاعات مختلفة باختلاف الأمراض، فقاعة للأمراض الباطنية، وقاعة للجراحة، وقاعة للكحَالة، وقاعة لأمراض العُيون، وقاعة للأمراض العقلية، وقاعة للتجبير، كما أن كل قاعة من تلك القاعات مقسّمة إلى أقسام عدة بتعدد أقسام المرض، كما كان للبيمارستان صيدلية تسمى (شَرَابْخَانَاه) ولها رئيس يسمى " شيخ صيدلي البيمارستان"، ولكل قسم من أقسامه رئيس يتولى الإشراف عليه، كما كان لكل بيمارستان رئيس للأطباء يسمى " ساعُور البيمارستان".[1] وكان الأطباء في تلك البيمارستانات يتناوبون فيما بينهم في الإشراف على المرضى وعلاجهم، حيث كان لكل طبيب منهم وقت معين يلازم فيه قاعاته التي يعالج فيها، وكان يُصرف على الجميع رواتب معلومة وافرة من الأوقاف الموقوفة على البيمارستان.[2]

وتُعد تلك البيمارستانات معاهد لتعليم الطب، حيث تحتوي في الغالب على إيوان كبير للمحاضرات يجلس فيه كبير الأطباء، ومعه باقي الأطباء، والطلاب، وبجانبهم الآلات والكتب الطبية، ثم تجري المباحثات الطبيّة والمناقشات بين الأستاذ وطلابه، ويرجعون للكتب الطبيّة إذا احتاجوا إليها، وكثيرًا ما يصطحب الأستاذ تلاميذه إلى داخل البيمارستان لإجراء الدروس العملية على المرضى بحضورهم.[3]

---

(١) ساعور. كلمة معرّبة من السُريانية وتعني متفقد المرضى، وهذا اللقب يطلق عند النصارى على المتقدم في صناعة الطب، (أحمد عيسى. تاريخ البيمارستانات، ص١٩).

(٢) نفسه.- ص١٩-٢٠، وقد شاهد ابن جُبير البيمارستان النوري بدمشق، وتحدث عن أوقافه وما يصرف فيه على المرضى بقوله- "وجرايته في اليوم نحو الخمسة عشر دينارًا، وله قومه بأيديهم الأزمة (واحد زمام وهو السجل) المحتوية على أسماء المرضى، وعلى النفقات التي يحتاجون في الأدوية والأغذية، وغير ذلك، والأطباء يبكرون إليه في كل يوم، ويتفقدون المرضى، ويأمرون بإعداد ما يصلحهم من الأدوية والأغذية حسبما يليق لك إنسان منهم". (الرحلة.- ص٢٥٥ - ٢٥٦).

(٣) ابن أبي أصيبعة، أبو العباس موفق الدين أحمد بن القاسم (ت ٦٦٨هـ/١٢٦٩م). عيون الأنباء ف طبقات الأطباء، شرح وتحقيق، نزار رضا.- بيروت: منشورات دار مكتبة الحياة، ١٣٨٥هـ (١٩٦٥م).- ص٨٢٦.

وقد تعددَت البيمارستان في العهد الزنكي، وانتشرت في أغلب مدنه، ولكن الذي اشتهر منها بتدريس الطلب - بالإضافة إلى معالجة المرضى - البيمارستان النوري بدمشق، فقد أشار إلى ذلك ابن أبي أصيبعة وهو يُترجم لشيخه الطبيب أبي المجد بن أبي الحكم المتوفى سنة ٥٧٠هـ (١١٧٤م)[1] فذكر أن أبا المجد كان يدور على المرضى بالبيمارستان الكبير النوري، ويتفقد أحوالهم، ويعتبر أمورهم، وبين يديه المشارفون والقوام لخدمة المرضى، فكان جميع ما يكتبه لا يتوخر عنهم، وكان بعد فرغه من ذلك، وطلوعه على القلعة وافتقاده المرضى من أعين الدولة، يأتي ويجلس في الإيوان الكبير الذي للبيمارستان، وجميعه مفروش، ويحضر كتب الاشتغال، فكان جماع من الأطباء والمشتغلين يأتون إليه، ويقعدون بين يديه ثم تجري مباحث طبية ويُقرئ التلاميذ، ولا يزال معهم في اشتغال ومباحثة ونظر في الكتب مقدار ثلاث ساعات، ثم يركب إلى داره.[2] وكان نور الدين قد أوقف على هذا البيمارستان جملة كبيرة من الكتب الطبية، وكانت في الخِرِستانين[3] اللذين في صدر الإيوان.[4] كما كان بعض

(١) هو أفضل الدولة أبو المجد محمد بن أبي الحكم، عبيد الله بن المظفر بن عبد الله الباهلي، من الحكماء المشهورين والعلماء المذكورين والأفاضل في صناعة الطب، وله معرفة أيضًا في علم الهندسة، والنجوم، اشتهر في دولة الملك العادل نور الدين محمود، ونال عنده مكانة عالية، وأوكل إليه مهمة الطلب في البيمارستان النوري بدمشق، توفي عام ٥٧٠هـ (١١٧٤م) (ابن أبي أصيبعة. عيون الأبناء، ص٦٢٨).

(٢) المصدر نفسه ص٦٢٨.

(٣) الخُرستانين. لم تُشر المعاجم اللغوية إلى تعريف دقيق للخُرستان سوى أنها كلمة فارسية مركبة من مقطعين (خور) بمعنى المستحسن واللائق و(ستان) ملحق بمعنى مكان، فهي تعني المكان اللائق، وأطلق عليه فيما بعد المخزن أو الخزانة سواء للطعام أو السلاح أو غيره (خير الدين الأسدي. موسوعة حلب المقارنة.- حلب: مطبعة جامعة حلب، ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م.- ج٣، ص٣٢١).

(٤) ابن أبي أصيبعة. المصدر السابق.- ص٦٢٨.

مشايخ الطب ومتقدميهم يجعل له مجلسًا عامًا لتدريس صناعة الطب للمشتغلين عليه كما كان يفعل الطبيب مهذب الذين ابن النقّاش[١] المتوفى سنة ٥٧٤هـ (١١٧٨م).[٢]

فالبيمارستان كان في ذلك العهد هو المكان الرئيسي لمهنة الطب والصيدلة من حيث التدريس والتطبيق، كما شاركه في ذلك مجالس العلم التي كن يعقدها الموصوفون بصناعة الطب وتدريسه لطلابهم، ولم تُشر مصادر البحث إلى وجود مدارس مستقلة بتدريس الطب في العهد الزنكي كما هو الشأن في العهد الأيوبي بعد ذلك، عندما أُنشئت أول مدرسة خاصة لتدريس الطب سنة ٦٢١هـ (١٢٢٤م) وهي المدرسة الدّاخُورِيّة قبلي الجامع الأموي بدمشق.[٣]

وهكذا اتسعت حركة التعليم في العهد الزنكي لتشمل الدراسات الطبية المتخصصة القائمة على الدراسات النظرية والعملية، كما هو الحال في الكليات التخصصية الملحقة ببعض المستشفيات في وقتنا الحاضر، وهذا إدراك من روّاد التعليم في ذلك العهد لمتطلبات الحياة وأهمية مثل تلك الدراسات، فقاموا بتشجيعها واهتموا بمراكزها، ويسّروا للمشتغلين فيها من أطباء وطلاب سبل المعاش.

---

(١) هو الشيخ الإمام العالم أبو الحسن علي بن أبي عبدالله عيسى بن هبة الله النقاش، ولد ببغداد، ونشأ بها، كان عالمًا باللغة والأدب، وكان يتكلم الفارسية، قدم دمشق ومارس الطب بها في بيمارستان نور الدين، وبقي به سنين، وخدم من بعده السلطان صلاح الدين، وكان له مجلسًا عامًا يجتمع إليه كل راغب في دراسة الطب. كانت وفاته في دمشق سنة ٥٧٤هـ (١١٧٨م) (المصدر نفسه.- ص٦٣٥ ـ ٧٣٧).

(٢) نفسه.- ص٦٣٦.

(٣) تُنسب هذه المدرسة لمهذب الدين عبدالرحيم بن علي بن حامد المعروف بالدخوار المتوفى سنة ٦٢٨هـ (١٢٣٠م) أنشأها قرب الزاوية الخضراء قبلي الجامع الأموي بدمشق (ابن شداد. الأعلاق الخطيرة ـ قسم دمشق ـ ص٢٦٥ ؛ النعيمي. الدارس.- ج٢، ص١٢٧).

٧ ـ منـازل العلمـاء:

كـان المنزل مـن أوائـل الأمـاكن الـتي تـلقى فيهـا المسـلمون تعاليمهم قـبل إنشـاء المساجد، إذ كـان الرسـول ﷺ يلتقي أصحابه في دار الأرقـم بـن أبـي الأرقـم ليبيّن لهم مبادئ الإسلام، ويُقرئهم ما نزل عليه من آيات القرآن الكريم، كما كان يلتقي الراغبين في دخول الإسلام في ذلك المنزل ليوضح لهم ما يدعوا إليه هذا الدين ليدخلوا فيه عن بينة.[١]

وعلى الرغم من انتشار المساجد والمدارس فيما بعد، فقد ظلّت منازل كثير من العلماء ملتقىً لطلاب العلم، ومركزًا علميًا مهمًا، حيث كان له أثر كبير في نشر التعليم، وكانت تقام في تلك المنازل الكثير من الدروس المنتظمة، والمناظرات، حيث كان العلماء يخصصون حجرة أو أكثر في منازلهم يستقبلون فيها طلبتهم، وغالبًا ما تكون هذه الحجر مزودة بكتب متخصصة للرجوع إليها والاستفادة منها.

وكانت بعض المنازل بمثابة مراكز تخصصية، تُدرَّس فيها بعض المعارف التي لا يتيسر تدريسها في المدارس العامة كالدراسات الرياضية، والفلكية، والعلوم الطبيعية والكيميائية.[٢] كما كان للإناث مكان خاص في بعض المنازل لتعذر خروجهن إلى أماكن التعليم العامة في المساجد والمدارس، فكان تلقيهن العلم يتم عن طريق سماع ما يلقى في تلك الدُوُر من دروس ومناقشات.

---

(١) ابن سعد، محمد بن سعد بن منيع الهاشمي (ت ٢٣٠هـ/٨٤٤م). الطبقات الكبرى.- بيروت: دار صادر، ١٣٧٧هـ (١٩٥٧م).- ج٣، ص٢٤٢ ـ ٢٤٣ ؛ ابن عبدالبر، أبو عمر بن عبدالبر النمري القرطبي (٤٦٣هـ/١٠٧٠م).- الاستيعاب في معرفة الأصحاب، ق١، تحقيق، علي محمد البجاوي.- القاهرة: مطبعة نهضة مصر، (د.ت).-ص١٣١.

(٢) عبدالغني عبود، في التربية الإسلامية.- القاهرة: دار الفكر العربي، (١٩٧٧م).- ص١١٣.

وقد أسهمت منازل العلماء بنصيب وافر في إثراء حركة التعليم في العهد الزنكي كغيره من فترات التاريخ الإسلامي على الرغم من انتشار حِلَق التدريس في المساجد والمداس، وقد اشتهرت منازل عدة بعقد حِلَق التعليم فيها في ذلك العهد، حيث كان منزل المؤرخ الموصلي عز الدين ابن الأثير المتوفى سنة ٦٦٠هـ (١٢٣٢م) بالموصل منتدىً يستقبل فيه زواره من العلماء للمناقشة، والبحث، ومدرسة يؤمها كل طالب للعلم والمعرفة لما كان يتمتع به من شهرة واسعة وباع طويل في مجال تخصصه، يقول ابن خلكان: " ... ثم عاد - أي ابن الأثير- إلى الموصل ولزم بيته منقطعًا إلى التوفر على النظر في العلم والتصنيف، وكان بيته مجمع الفضل لأهل الموصل والواردين عليها".[١]

ومثل ابن الأثير في إقبال طلبة العلم إلى داره لينهلوا من معين علمه، الشيخ مهذب الدين بن هُبل المتوفى سنة ٦١٩هـ (١٢١٣م)[٢] الذي منعه ضعف بصره، وتقدم سنّه عن الخروج للناس، فلزم بيته بالموصل، وأقبل عليه طلبة العلم يغترفون من بحر علمه الذي يجمع بين الطب والحديث والأدب.[٣]

---

(١) وفيات الأعيان.- ج٣، ص٣٤٨.

(٢) هو أبو الحسن علي بن أحمد بن علي بن هُبل البغدادي ويعرف بالخِلاطي، كان علامة زمانه في صناعة الطب، متميزًا في صناعة الأدب، كما كان متقنًا للقرآن الكريم، كانت ولادته ببغداد سنة ٥١٥هـ (١١٢١م) ونشأ بها، وقرأ الأدب والطب، ثم سار إلى الموصل، واستوطنها إلى حين وفاته سنة ٦١٠هـ (١٢١٣م) وله كتب عدة منها. كتاب المختارات في الطب يقع في أربع مجلدات، وكتاب الطب الجمالي صنفه للوزير الموصلي جمال الدين الأصفهاني (القفطي، وزير جمال الدين أبو الحسن عي بن القاضي الأشرف يوسف، ت ٦٤٦هـ/١٢٤٨م. أخبار العلماء بأخبار الحكماء.- القاهرة: مكتبة المتنبي.(د.ت).- ص١٥٩-١٦٠ ؛ ابن أبي أصيبعة. عيون الأنباء.- ص٤٠٧-٤٠٩).

(٣) القفطي. المصدر السابق.- ص١٦٠ ؛ ابن أبي أصيبعة. المصدر السابق.- ص٤٠٨.

٨ ـ مجالس العلم في القصور:

كانت قصور الملوك الزنكيين ووزرائهم منتدى للعلماء على مختلف تخصصاتهم يلتقون فيها، ويتناقشون، وتجري بينهم مناظرات علمية، وكان أصحاب القصور يشتركون أحيانًا فيما يدور فيها من مناقشات ومناظرات، حيث إن هذه المجالس تُعقد بحضرتهم، وقد حرص هؤلاء على أن يحيطوا أنفسهم بمجموعة كبيرة من العلماء، وكان لتلك المناظرات والمباحثات التي تدور في مجالسهم أثر كبير في التقدم العلمي وازدهاره في ذلك العهد إذ كانت حافزًا على مواصلة البحث وإقامة الحجة.

وممن كان يحرص على مجالسة العلماء والتباحث معهم في كثير من المسائل الملك نور الدين محمود في بلاد الشام، فقد كان مجلسه كما وصفه ابن الأثير أشبه ما يكون بمجلس رسول الله ﷺ مجلس حلم وحياء لا تؤبن فيه الحرم ولا يذكر فيه إلا العلم والدين، وأحوال الصالحين، والمشورة في أمر الجهاد، وقصد بلاد العدو.(١)

كما كان مجلس الملك نور الدين أرسلان شاه بالموصل (٥٨٩ـ٦٠٧هـ/١١٩٣ـ١٢١٠م) منتدىً للعلماء أيضًا، إذ كان يحرص على ملازمتهم وتقريبهم إلى مجلسه، حيث تجري فيه المناظرات، وتُقرأ الكتب، وقد اشتهر الشيخ عماد الدين بن يونس المتوفى سنة ٦٠٨هـ (١٢١١م)(٢) بملازمته لنور الدين أرسلان، وكان يقرأ في مجلسه الكثير من الكتب، ويُورد الحكايات والأشعار، وكان نور الدين أرسلان يرجع إليه في الفتاوى، ويستشيره في كثير من الأمور، كما كان يطلب منه المشاركة في المناظرات التي كانت تدور في مجلسه.(٣)

---

(١) التاريخ الباهر.- ص١٧٣.
(٢) سبقت ترجمته في الفصل الأول.
(٣) ابن خلكان. وفيات الأعيان.- ج٤، ص٢٥٤.

وكان الوزير الموصلي الجواد الأصفهاني المتوفى سنة ٥٥٩هـ (١١٦٤م) يحرص على استقدام العلماء، والدفع لهم بسخاء، ويطلب منهم إقامة المناظرات والمناقشات في مجلسه، وكان من أبرز من قدم عليه الشيخ صدر الدين بن الخُجَندِي رئيس الشافعية بأصفهان، وابن الكَافِيّ قاضي قضاة همذان.[١]

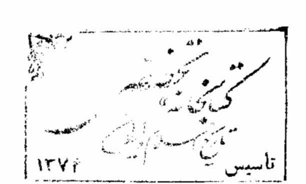
وكان لهذه المجالس العلمية أثر كبير في إثراء التعليم وازدهاره في العهد الزنكي لما كان يقوم فيها من مناقشات ومناظرات في مختلف التخصصات والمذاهب، ولما تعوّد من حضورها من أعلام العلماء على مختلف اهتماماتهم.

٩ ـ حوانيت الورّاقين:[٢]

من الأماكن التي أسهمت في ازدهار الحياة العلمية في ذلك العهد، حوانيت

(١) القفطي. المصدر السابق.- ص١٦٠ ؛ ابن أبي أصيبعة. المصدر السابق.- ص٤٠٨.

(٢) عَرّف السمعاني لفظ الوراقة بقوله: " الورّاق بفتح الواو وتشديد الراء في أخرها القاف. هذا اسم لمن يكتب المصاحف والكتب، وكتب الحديث وغيرها، وقد يقال لمن يبيع الورق، وهو (الكاغد) ببغداد الورّاق أيضًا (أبو سعد عبدالكريم بن أبي بكر محمد بن منصور التميمي، ت٥٦٢هـ/١١٦٦م. الأنساب، نشر: د. س مرجليوث، ليدن. (د.ت).- ص٥٨٠).
أما ابن خلدون فقد عقد للوراقة فصلاً خاصًا بها فعرّف الورّاقين بقوله. " وجاءت صناعة الوراقين المعانين للاستنساخ والتصحيح، والتجليد، وسائر الأمور المكتبية والدواوين، واختصت بالأمصار العظيمة العمران". (المقدمة.- ص٣٨٢).
وقد كانت الوراقة مهنة سامية يحترفها أدباء وعلماء وفلاسفة ومحدثون، وكانت سوق الوراقة منتدىً فكريًا يقصده العلماء لمجالسة بعضهم والتناقش فيما بينهم في كافة الأمور العلمية. وأخبار الوراقين نادرة ومبعثرة في بطون الكتب ولم يهتم بهم سوى مؤلفين كانا وراقين أصلاً وهما محمد بن إسحاق (ابن النديم) صاحب الفهرست وياقوت الحموي في كتابه معجم الأدباء والذي قال في مقدمته: " وجمعت في هذا الكتاب ما وقع إليّ من أخبار النحويين واللغويين، والنسابين، والقراء المشهورين، والأخباريين والمؤرخين والوراقين، المعروفين والكتّاب المشهورين، وأصحاب الرسائل المدونة، وأرباب الخطوط المنسوبة والمعينة، وكل من صنّف في الأدب تصنيفًا، أو جمع منه تأليفًا" (ج١.- ص٤٨-٤٩).



الوراقين" ذلك أنها لم تكن مجرد أماكن لاستنساخ الكتب وبيعها فحسب، بل كان الكثير من روادها أصحاب ثقافة واسعة واطلاع علمي غزير، فكانت تلك الحوانيت مجمعًا للعلماء والأدباء ومحبي الكتب يتناقشون فيها حول العلوم كل حسب تخصصه، ويحصل بينهم ما يشبه المناظرات العلمية القائمة على البحث والدراسة.

وكان بائعو الكتب في الغالب أدباء ذوي ثقافة، يستفيدون من حرفتهم في إشباع نهمهم العلمي، ويكفي أن يعلم القارئ أن ياقوت الحموي المتوفى سنة ٦٢٦هـ (١٢٢٨م) صاحب كتابي " معجم الأدباء "، " ومعجم البلدان" كان ورَّاقًا تنقّل بين بغداد، ودمشق، وحلب، والموصل، وإربل، وخراسان، وكان يعقد مجالس للمناظرة في الأسواق مع علماء عصره ممن يقابلهم في تلك البلاد، كما كان دكّانه ميدانًا للحوار والتناقش مع العلماء الذي يفدون إليه.[(١)]

هذا بالإضافة إلى ظهور عدد من النُسّاخ في العهد الزنكي كما تشير المصادر، مما ساعد على انتعاش الحياة العلمية وانتشار المكتبات في ذلك العهد.

وكان من أشهر هؤلاء النساخ أبو الدّر ياقوت بن عبدالله الموصلي المتوفى سنة ٦١٨هـ (١٢٢١م)[(٢)] حيث كان خطه في غاية الحسن والجمال، وقصده الناس من كافة الأقطار وكتب عليه خلق لا يحصون كثره.[(٣)]

ومن الحوانيت المشهورة في ذلك العهد والتي كان لها أثر في التعليم دكّان الشيخ

---

(١) ابن خلكان. وفيات الأعيان.- ج٦، ص١٢٧-١٢٨.

(٢) قال عنه ياقوت الحموي. كان واحد عصره في جودة الخط وإتقانه على طريقة ابن البوّاب، وكان مُغرمًا بنقل الصحاح للجوهري، فكتب منه نسخًا كثيرة، جعل كلّ نسخة في مجلد واحد، باعه بمائة دينار، وقد اجتمعتُ به في الموصل في سنة ثلاث عشرة وستمائة، فرأيته على جانب عظيم من الأدب والفضل والنباهة والوقار، ورأيت كتبًا كثيرة بخطه يتداولها الناس (معجم الأدباء.- ج١٩، ص٣١٢ - ٣١٣).

(٣) المصدر نفسه.- ج١٩، ص٣١٢-٣١٣ ؛ ابن خلكان. وفيات الأعيان.- ج٦، ص١٩.

الطبيب رضي الدين الرُحبي المتوفى سنة ٦٣١هـ (١٢٣٣م)[١] إذ كان ملازمًا لدكّان له في دمشق يعالج به المرضى وينسخ الكتب، ويجتمع إليه العلماء والطلاّب للاستفادة مما يدور في مجلسه من مواضيع علمية مختلفة.[٢]

وهكذا فإن دكاكين الورّاقين لم تكن مقصورة على تجارة الكتب واستنساخها، وإنما كانت مجمعًا للعلماء وأهل الأدب، ذلك أن هؤلاء الوراقين كانوا في الغالب من رجال العلم والأدب، وكثيرًا ما كانت تدور بينهم وبين زائريهم من العلماء مناقشات علمية جادة، كما كان يتردد عليهم الكثير من الطلاب للتزويد بما لديهم من علوم في شتى فروع المعرفة.

١٠ ـ المكتبات :

تُعد المكتبات القاعدة التي تستند عليها مختلف الجهود الثقافية في أي عصر من العصور، أو مجتمع من المجتمعات لدرجة أنه يمكن اتخاذها في كثير من الأحيان المعيار الذي يُحكم به على تقدم هذا المجتمع أو ذلك العصر.

وقد كانت المكتبات بمثابة دُوُر للتعليم في شتى العصور الإسلامية، وهيئات يُنفق عليها الملوك، والأمراء، والأثرياء، والعلماء، لنشر العلم بين الناس، خصوصًا في وقت لم يكن للطباعة أي وجود، وكانت الكتب تُنسخ على أيدي نسّاخ متخصصين في

(١) هو الشيخ الحكيم الإمام رضي الدين أبو الحجاج بن يوسف بن حيْدَرَه بن الحسن الرُحبي ولد بجزيرة ابن عمر سنة ٥٣٤هـ (١١٣٩م) ونشأ بها، ثم انتقل إلى نصيبين، ومن ثم الرحبة، حيث أقام بها سنين عدة، فعرف بها، وتنقل بين بغداد، ومصر، واستقر به المقام أخيرًا في دمشق، فاشتهر بصناعة الطب، واستمر على حاله حتى وفاته سنة ٦٣١هـ (١٢٣٣م) وكانت ولادته سنة ٥٣٤هـ (١١٣٩م) ودفن بجبل قاسيون. (ابن أبي أصيبعة. عيون الأنباء، ص٦٧٢ ـ ٦٧٥).

(٢) المصدر نفسه.- ص٦٧٣.

هذا العمل، فكان يتعذر على الكثيرين من طلاب العلم اقتناء الكتب لقلّة عدد نسخها، وارتفاع أسعارها، لأنها تُنسخ باليد، ومن هنا نشأت فكرة جمع الكتب في مختلف ميادين المعرفة في مكان واحد كي يسهل على طالب العلم الاطلاع عليها والاستفادة منها، وهذا ما عُرف بـ (خزائن الكتب أو المكتبات).

وقد اهتم الزنكيُّون - كغيرهم - بتأسيس المكتبات في المساجد والمدارس، وغيرها من دُوُر التعليم القائمة، في ذلك العهد وقلّما تجد دارًا تعليمية تخلو من مكتبة تتبعها، مزودة بمجموعة من الكتب التي يرجع إليها الطلاب والباحثون في مختلف التخصصات تبعًا لحجم تلك الدار، والأوقاف التي أوقفت عليها، ولا أدل على ذلك الاهتمام من سياسة نور الدين محمود الذي أمر بتزويد كل هيئة تعليمية بمكتبة قيمة، وجعل عليها وقفًا كبيرًا يُصرف منه على المكتبة والمشتغلين بها.[(١)]

وقد قال ابن عساكر عن نور الدين: إنه " حصّل الكثير من كتب العلوم، ووقفها على طلابها، أقام عليها الحَفَظَة".[(٢)]

وكانت تلك المكتبات تسير وفق نظم مرسومة من قِبل واقفيها لتكتمل الاستفادة منها بالصورة المطلوبة، ولتتم المحافظة على مقتنياتها وحفظها من الضياع والتلف، فقد حرص منشئوها على أن يسجلوا في حججهم طريقة استخدام المكتبة، ونظم الإعارة، فلم تكن الإعارة مطلقة لمن يشاء، إذ وضعوا لذلك قيودًا لضمان الحفاظ على الكتب من جهة، والاستفادة منها على أوسع نطاق من جهة أخرى، وقد ذكر السبكي أنه "كثيرًا ما يشترط الواقف ألاّ يخرج الكتاب إلا برهن يحرز قيمته".[(٣)] كما استحسن ابن جماعة إعارة الكتب لمن يُقدّر قيمتها، ويُحسن استخدامها لما فيه من الإعانة على نشر العلم، وإفادة الناس، ونيل الأجر والثواب عند الله.[(٤)]

(١) سبط ابن الجوزي. مرآة الزمان.- ج٨، ق١، ص٣٠٦.
(٢) تاريخ دمشق (مخطوط).- ج١٦، ص٢٩٤.
(٣) معيد النعم.- ص٨٨.
(٤) تذكرة السامع والمتكلم.- ص١٦٧.

وغالبًا ما يكون لكل مكتبة - صغيرة كانت أو كبيرة - فهارس يُرجع إليها لسهولة الوصول إلى الكتب، وتُبّوب تلك الفهارس بحسب أبواب العلم، وبجانب هذا كانت تُوضع قائمة على كل دولاب تحتوي على أسماء الكتب الموجودة داخل الدولاب.[1]

وقد كانت نفقات المكتبات وتمويلها بالكتب الجديدة، وصرف نفقات المشتغلين بها تقوم على الأوقاف التي يُخصّصها واقفوا المكتبات لمكتباتهم، فقد كان ناظر المكتبة يُحصّل ريع الوقف ويصرفه في أبوابه كما هي الحال في المصالح الأخرى، فلم تكن هناك مُرتبات ثابتة تُصرف على تلك المكتبات بل كانت موارد الوقف هي التي تتحكم في ميزانية تلك المكتبات انخفاضاً وارتفاعًا.[2]

ولم تختلف نُظم المكتبات في العهد الزنكي عن غيره من العهود الإسلامية لمعاصرته كثيرًا من النظم المتبعة في العواصم الإسلامية الأخرى كبغداد، والقاهرة. واتصاله بها، وذلك للتبادل الحضاري المستمر بين تلك العواصم، وقد ساعد على ذلك حُرِيّة تنقل العلماء، وتبادل الخبرات فيما بينهم.

وقد كانت المكتبات في العهد الزنكي على نوعين: عامة، وخاصة.

فالعامة: ما كان ينشئها الملوك والأمراء والوزراء والأثرياء لتسهيل رجوع الطلاب والعلماء إليها، وكان هذا النوع كثير الوجود في العهد الزنكي حيث كان من الصعب أن يوجد مسجد أو مدرسة أو أي مركز علمي دون أن يُزوّد بمجموعة من الكتب النادرة في مختلف فروع المعرفة يرجع إليها الطلاب والباحثون.

وكان للمكتبة العامة موظفون يرأسهم خازن المكتبة، ومناولون يُناولون الكتب للمطالعين، ومترجمون ينقلون الكتب من غير العربية على العربية، ونُسّاخ يكتبون

---

(١) محمد ماهر حمادة. المكتبات في الإسلام. نشأتها، وتطورها، ومصائرها.- ط٥.- بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٤٠٧هـ (١٩٨٦م)، ص١٥٤-١٥٦.

(٢) أحمد شلبي. تاريخ التربية الإسلامية.- ص١٧٨.

الكتب بخط جميل، ومجلدون يجلدون الكتب لتحفظ من التمزق والضياع، هذا عدا عن الخدم وغيرهم مما تقتضيه حاجة المكتبة.[1]

ومما تجدر الإشارة إليه هنا أن المكتبات العامة كانت مشاعة لكل من يرتادها فلم يكن يمنع أحد من دخولها والاستفادة منها. وكان الدخول إليها والمطالعة فيها بالمجان، وبل كان يصاحب أحيانًا بتقديم الورق وأدوات الكتابة في كثير منها، كما أنه يخصص في كثير من المكتبات مرشدون وأمناء يساعدون القراء والباحثين في الحصول على الكتب التي يبحثون عنها.[2]

وهذه التسهيلات والمساعدات تؤكد قيام المكتبات بوظيفة علمية رائدة جعلتها في مصاف دور التعليم القائمة في ذلك العهد.

ومن أبرز المكتبات العامة في العهد الزنكي ما يلي:

ـ مكتبة المدرسة البدْرِيّة بالموصل، فقد احتوت على نفائس الكتب والمصنفات التي أوقفت على طلبة العلم، وأورد المؤرخ ابن الفوطي إشارة إلى تولي الفقيه إسماعيل بَاطِيْش المتوفى سنة ٦٥٥هـ (١٢٥٧م)[3] خزانة هذه المكتبة في حياة مؤسسها بدر الدين لؤلؤ، وكان معيدًا بها.[4]

---

(١) محمد ماهر حمادة. المكتبات في الإسلام.- ص١٥٠ـ١٥١.

(٢) المرجع نفسه.- ص١٢٧.

(٣) هو العلامة عماد الدين أبو المجد إسماعيل بن أبي بركات. هبة الله بن سعيد بن هبة الله بن باطِيش الموصلي الشافعي، كان إمامًا فاضلا، ولد بالموصل سنة ٥٧٥هـ (١١٧٩م)، وسمع ببغداد، ودمشق وحلب وحران، من طائفة كثيرة من العلماء وأفتى ودرّس وصنّف واعتنى بالحديث، وتُوفي بحلب سنة ٦٥٥هـ (١٢٥٧م) (ابن الفوطي. تلخيص مجمع الآداب.- ج٤، ق٢، ص٦٩٢ـ٦٩٤)، وقد جعل وفاته سنة ٦٤٠هـ (١٢٤٢م)، وهذا خلاف ما أشارت إليه بعض المصادر راجع: (اليونيني، قطب الدين موسى بن محمد البعلبكي، ت ٧٢٦هـ/١٣٢٥م. ذيل مرآة الزمان.- حيدر آباد، الدكن، الهند: مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية، ١٣٧٤هـ /١٩٥٤م .- ج١، ص٥٤ ؛ السبكي. طبقات الشافعية الكبرى.- ج٨، ص١٣١ـ١٣٢).

(٤) ابن الفوطي. المصدر السابق.- ج٤، ق٢، ص٦٨٤.

وفي حلب: اشتهرت خزانة كتب الشَرفِيّة بجامع حلب باحتوائها على الكثير من الكتب في مختلف التخصصات.[1]

كما اشتهرت خزانة كتب المدرسة النُوريّة (النِفَريّة) بحلب، فقد أوقف عليها نور الدين محمود مجموعة كبيرة من الكتب، وجعل لها خازنًا هو محمد بن علي بن ياسر الجَيّانِيّ الأندلسي.[2] المتوفى سنة ٥٦٣هـ (١١٦٧م).[3]

ومن المكتبات العامة في دمشق خزانة كتب الوقف بالجامع الأموي، والتي أوقفها الشيخ تاج الدين الكِنْدِي المتوفى سنة ٥٩٧هـ (١٢٠٠م)،[4] وكان قد تصدر للتدريس بالجامع الأموي مدة، وازدحم عليه الطلاب، وكان قد حصّل كتبًا كثيرة، فوقفها على المسجد لينتفع بها الناس.[5] ومن مكتبات المدارس مكتبة المدرسة العُمَرِيّة الحنبلية بالصَالحِية بدمشق.[6]

---

(١) محمد كرد علي. خطط الشام.- ج٦، ص١٨٦.

(٢) أبو بكر محمد بن علي بن عبدالله بن ياسر الجيّاني الأندلسي الأنصاري، تفقه بدمشق وأدّب بها، ثم زامل ابن عساكر إلى بغداد، وسمع بها من عدة شيوخ، كما سمع بمرو، ونيسابور، وسكن آخر عمره بحلب، وكان له معرفة بالحديث، وتوفي بها سنة ٥٦٣هـ (١١٦٧م)، وقد أوصى بوقف كتبه على جامع حلب (السبكي. المصدر السابق.- ج٦، ص١٥٣-١٥٤ ؛ ابن العماد. شذرات الذهب.- ج٤، ص٢١٠).

(٣) محمد كرد علي. المرجع السابق.- ج٦، ص١٨٧، وكان قد جعل وفاته سنة ٥٥٣هـ (١١٥٨م).

(٤) هو تاج الدين أبو اليمن الكندي البغدادي، ثم الدمشقي النحوي، اللغوي، المقرئ المحدث، ولد ببغداد، ونشأ فيها، وكان شيخًا فاضلاً حفظ القرآن الكريم في صغره، وقرأ بالقراءات الكثيرة وله عشر سنين على جماعة من العلماء، وقرأ النحو، واللغة وسافر عن بغداد سنة ٥٦٣هـ (١١٦٧م) ودخل حلب وسكنها مدة، ثم تقدم إلى دمشق، فتصدّر للتدريس في جامعها الأموي، وازدحم عليه طلاب العلم واستمر في دمشق حتى وفاته سنة ٥٩٧هـ (١٢٠٠م) (ياقوت. معجم الأدباء.- ج١١، ص١٧٣-١٧٥).

(٥) المصدر نفسه.- ج١١، ص١٧٥.

(٦) ابن طولون الصالحي، شمس الدين محمد بن علي بن أحمد الدمشقي (ت ٩٥٣هـ/١٥٤٦م). القلائد الجوهرية في تاريخ الصالحية، تحقيق محمد أحمد دهمان.- دمشق: نشر مكتب الدراسات الإسلامية، ١٣٦٨هـ (١٩٤٩م).- ج١، ص١٨٣.

وكان لتلك المكتبات العامة أهمية بالغة في حركة التعليم في ذلك العهد، فقد مكّنت طلاب العلم من الاطلاع على بعض الكتب التي تهمهم في دراستهم، ومقابلة ما يمليه عليهم أساتذتهم مع ما هو موجود فيها، كما أتاحت لهم فرصة القراءة والبحث في فروع العلم المختلفة، بصرف النظر عن علاقتها بدراستهم، كما كان بإمكانهم الاطلاع مسبقًا على الدروس التي سيقوم المدرسون بشرحها أو إملائها عليهم مما يعينهم على سرعة الفهم ومتابعة المُدرّس في شرحه أو إملائه، والتجاوب معه.

أما المكتبات الخاصة: فكان ينشئها العلماء والأدباء خاصة بهم، وهذا النوع من المكتبات كان واسع الانتشار إذ يندر أن يُوجد عالم من العلماء المشهورين خلال فترة البحث إلا وله خزانة كتب خاصة يرجع إليها في دراسته وإطلاعه، وقد أشارت مصادر البحث إلى بعض تلك المكتبات المشهورة من أهمها:

- خزانة بني جَرَادَة[1] العُلماء في حلب، فقد ذكر ياقوت أن أبا الحسن بن أبي جَرَادة المتوفى سنة ٥٤٨هـ (١١٥٣م) قد أوقف ثلاث خزائن من الكتب، ومكتبة لابنه أبي البركات، وأخرى لابنه أبي عبدالله، وكلها من الكتب النفيسة في مختلف فروع المعرفة.[2]

كما كان من المكتبات الخاصة، مكتبة النحوي الأديب الشيخ محمد بن أبي محمد بن محمد بن حُجّة الدين المعروف بابن ظَفَر الصّقّلي المتوفى سنة ٥٦٥هـ

(١) بنو جرادة. أسرة حلبيّة مشهورة في حلب، أدباء، وشعراء، وفقهاء، وعُبّاد، وزُهّاد، وقضاة، توارثوا الفضل كابرا عن كابرا، وكان عقب بني أبي جرادة من ساكني البصرة في محلة بني عقيل بها، قدم جدهم إلى حلب بعد المائتين للهجرة، وكان قد وردها تاجرًا، فاستقر بها وتناسل أبناؤه من بعده، واشتهروا بالعلم والفضل. (ياقوت. المصدر السابق.- ج١٦، ص ٥-٧).

(٢) معجم الأدباء.- ج١٦، ص١١.

(١١٦٩م)،[١] وكان يُدرِّس بالمدرسة العَصْرونّية بحلب، وقد نهب الشيعة كتبه في الفتنة التي وقعت في حلب بينهم وبين أهل السنة.[٢]

ويبدو أن بعض العلماء اعتاد أن يوصي بوقف كتبه على طلبة العلم بعد مماته، وذلك في مسجده أو مدرسته التي كان يُدرس بها، فتُفرد تلك الكتب في خزانة خاصة بالمسجد أو المدرسة تُسمى باسمه، كما فعل الشيخ علي بن طاهر السّلمي[٣] الذي كانت له حلقة في الجامع الأموي بدمشق، أوصى بوقف كتبه بعد مماته عليها لينتفع الناس بها.[٤]

ومن هذه المكتبات مكتبة الشيخ قُطب الدين النيسّابُوري المتوفى سنة ٥٧٨هـ (١١٨٢م)[٥] حيث ذكر النعيمي أن الملك نور الدين محمود شرع في إنشاء مدرسة كبيرة للشافعية في دمشق للشيخ قطب الدين، ولكن الأجل أدرك نور الدين قبل تمامها، كما

---

(١) هو أبو جعفر المعروف بابن ظفر الصّقِلّي الأصلِ، المكي، النحوي اللغوي الأديب ولد بصقلية ونشأ بمكة، ورحل إلى مصر وأفريقية، ثم تنقل بين البلاد حتى حطّ رحاله في حلب، وأقام فيها يُدرس بالمدرسة العصرونية الشافعية، ثم انتقل في آخر حياته إلى حماة، وأمّه الطلبة فيها، وصنّف التصانيف الكثيرة في أنواع الأدب، وفسّر القرآن الكريم تفسيرًا جميلاً في مصنف سماه "الينبوع" مات بحماة سنة ٥٦٥هـ على رواية القفطي (إنباه الرواة على أنباه النحاة، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم.- القاهرة: دار الفكر العربي.- بيروت: مؤسسة الكتب الثقافية، ١٤٠٦هـ /١٩٨٦م.- ج٣، ص٧٤ ؛ وابن خلكان. وفيات الأعيان.- ج٤، ص٣٩٥-٣٩٧، وذكر ياقوت وفاته سنة سبع أو ثمان وستين وخمسمائة (المصدر السابق.- ج ١٩، ص٤٨-٤٩).

(٢) المصدر نفسه.- ج١٩، ص٤٨.

(٣) هو أبو الحسن علي بن طاهر بن جعفر السّلمِي النحوي، كان ثقة دينًا، وكانت له حلقة في الجامع الأموي بدمشق يجتمع فيها الطلبة، توفي سنة ٥٠٠هـ (١١٠٦م). (المصدر نفسه.- ج١٣، ص٢٥٧-٢٥٩).

(٤) نفسه.- ج١٣، ص٢٥٨.

(٥) سبقت ترجمته في الفصل الأول.

توفي قطب الدين قبل أن يدرك التدريس فيها، ولكنه أوصى بوقف كتبه على طلبة العلم في هـذه المدرسـة بعـد تمامهـا فـتمّ ذلـك، يقـول النعـيمي: (فمـا فاتهـا ثمـرته إذ فاتهـا مباشرته).[1] وقـد قدّمـت تلك المكتبات خدمات جليلة للطلاب والعلماء على حد سواء كما أفـادت الباحثين في شتى فنون المعرفة على الاطلاع والاستفادة مما هو موجود فيها من مـادة عـلمية أعانتهم عـلى تصنيف كتبهم، ومؤلفـاتهم، كمـا احتفظت بالكثير من الكتب المخطوطة في مختلف العـلوم والتخصصـات، كمـا أن تـلك المكتبات كـانت تمثل مجمعًا لطـلاب العـلم والمعـرفة، إذ كـانت تـدور بيـنهم في جنبـاتها الكـثير مـن المناقشـات والمناظرات العلمية مما كن لـه أثر كبير في إثراء حركة التعليم في ذلك العهد.

وبعـد: فلعـلـه مـن خـلال هـذا الاسـتعراض لـدور التعـليم ووظائفهـا في العهـد الـزنكي قـد اتضـحت أمور عديدة ميّزت حركة التعليم في تلك الهيئات عن غيرها، ومن ابرز ما يُلحظ في هذا الصدد ما يأتي:

١- الاتصـال القـوي بـين التعـليم في ذلـك العهد وبين الدراسات الشرعية، فقد انطلق التعـليم من المسـجد - قاعدة العبادة الأولى - وكانت تلك المساجد معاهد مفتوحة لكل راغب في الاستزادة من العلوم والمعارف، وقد تركز التعليم في المساجد حول دراسـة العـلوم الشـرعية، بالإضـافة إلى بعـض العـلوم المسـاعدة الـتي لا تـتعارض معها كالعلوم اللغوية والأدبية.

٢- الأثـر البـارز الـذي قـامت بـه الكـتاتيب في تربية النشء على قراءة القرآن الكريم، وتفهـم مبـادئ الديـن الإسـلامي الصحيح لتكتمل تنشئة هؤلاء الصبية على أسس إسلامية متينة ليكونوا لبنة صالحة في المجتمع.

٣- كـان مـن أبرز دوافع انتشار المدارس والإكثار منها، هو نشر الدين الإسلامي على

---

(١) وهي المدرسة العادلية بدمشق (النعيمي. الدارس.- ج١، ص٣٦١).

مذهب أهل السنة والجماعة، ويتضح ذلك من تركز مدارس ذلك العهد على تدريس المذاهب السنية الأربعة، إما على مذهب واحد من هذه المذاهب، في بعض المدارس، أو مشترك مع آخر أو أكثر في مدارس أخرى.

٤- تخصيص مدارس مفردة لتدريس الحديث الشريف، ولأول مرة في التاريخ الإسلامي، وهي التي أطلق عليها: "دور الحديث" مما كان له أثر في انتشار مثل تلك الدور في العالم الإسلامي فيما بعد.

٥- حرص منشئي المراكز التعليمية على تزويدها بمكتبات تحتوي على الكثير من الكتب في مختلف المعارف، وحبس الأوقاف التي تضمن استمرار تلك المكتبات في أداء رسالتها وفق المنهج المرسوم لها.

ويعد هذا الأمر إدراكًا من روّاد التعليم في ذلك العهد لأهمية المكتبات البالغة في حياة المُدرسين والدارسين على حد سواء، ويتضح من ذلك أحقية إلحاق المكتبات بدُوُر التعليم الأخرى باعتبارها مؤسسة علمية قائمة بذاتها، مع اعتراض بعض الباحثين على ذلك.

٦- إضافة إلى ذلك كله فقد ظهرت في تلك الدور روح المساواة وتكافؤ الفرص، بين روّادها جميعًا، فلم تكن تلك الدُوُر مخصصة للأغنياء دون الفقراء، أو لطبقة دون أخرى، وإنما كانت الفرص متاحة للجميع على قدم المساواة، فوجد أبناء الفقراء كل وسائل المعونة والتشجيع متوافرة لمتابعة تعليمهم، خصوصًا بعد بناء المدارس التي تُوفر لطلبتها السكن المريح والغذاء والملبس، فلم يقف الفقر حائلاً أمام مواصلة الطالب لطريق العلم والبحث.





الفصل الثالث

المُدرسون والطلاب ونُظم التعليم

ووسائل تحصيله في العهد الزنكي

١ ـ فئات المدرسين.

أ ـ مُعلمو الكتّاتيب.

ب ـ المُدرسون.

جـ ـ المُعيدون.

د ـ أثر العلماء في الحياة العامة.

٢ـ فئات الطلاب ووسائل التحصيل.

أ ـ طلاب المرحلة الأولى.

ب ـ طلاب المرحلة العليا.

جـ ـ تعليم الإناث.

د ـ الرحلات والصلات العلمية.

٣ـ أساليب التقويم.

أ ـ الإجازات العلمية.

ب ـ الألقاب العلمية.

أدى انتشار المدارس ودُور التعليم المختلفة في العهد الزنكي إلى كثرة أعداد الطلاب المشتغلين بالعلم سواء كانوا من داخل البلاد الزنكية أو من طلاب العلم الوافدين إليها من كافة أنحاء العالم الإسلامي.

وكان نتاج ذلك قيام حركة علمية نشطة في مختلف مجالات العلوم وفروعها، وكان لكل من المعلم والطالب نُظم وآداب تتعلق بهما، كما كانت هناك آداب عديدة تضمن لكل منهما حق الاحترام من الطرف الآخر، وقد تعددت وسائل التحصيل وأساليب التقويم في هذا العهد أسوة بما سبقه وعاصره من العهود الإسلامية.

كما شاعت الرحلات العلمية بين الأقطار الإسلامية رغبة في مقابلة أكبر قدر من العلماء، وطلبًا للتخصص في فرع من فروع المعرفة. ونال الطلبة أثناء تلك الرحلات إجازات متنوعة من كثير من العلماء في مناطق مختلفة من أرجاء العالم الإسلامي، كما كانت هناك العديد من الألقاب العلمية التي أطلقت على العلماء لتبيّن المكانة التي وصل إليها العالم في مجال تخصصه بالنسبة للعلماء المعاصرين له.

وقد وصلت الحياة العلمية في العهد الزنكي بسبب تلك النظم إلى درجة عالية من الازدهار والرقي حيث مثّلت بحق إحدى فترات الازدهار العلمي في تاريخنا الإسلامي.

١ ـ فئات المدرسين:

يعني الباحث هنا بفئات المدرسين كل من مارس مهنة التعليم بدءًا بالمرحلة الأولى (تعليم الكُتّاب) وانتهاءً بمرحلة التعليم العالي، ويتصدر ذلك معلمو الكتاتيب (المُؤدبون) والمُدرسون في قاعات المدارس، أوحِلق المساجد، والمعُيدون، وذلك على النحو الآتي:

أ ـ معلمو الكتاتيب:

الاسم الشائع الذي كان يطلق على معلم الصبيان في العهد الزنكي هو (المُعَلِّم) أو (المُؤدب) كما ورد في معظم كتب الحسبة، وآداب المُعلمين والمُتعَلمين.[1] ومعلم الكُتّاب في ذلك العهد يماثل معلم المرحلة الابتدائية في عصرنا الحاضر، من حيث أنه يتولى تعليم الأطفال العلوم الأساسية، ويُشرف على تربيتهم وتوجيههم، وتأهيلهم إلى المرحلة الأعلى، ويتحمل معلم هذه الفئة من الطلاب مهمة توجيه الأطفال منذ صغرهم إلى المبادئ السليمة التي تخطط لها الدولة على المدى البعيد.

لذا اهتم حكام العهد الزنكي بهذه المرحلة من التعليم اهتمامًا خاصًا وحظي معلمو هذه المرحلة بمكانة عالية لديهم، فوفّروا لهم كافة سبل العيش المريح للقيام بمهمتهم على أفضل وجه، وأداء رسالتهم المهمّة في توجيه اللّبنة الأولى في التعليم على النهج السليم الذي رسمته تلك الدولة، وهو إعداد الرعية إعدادًا إسلاميًا من خلال تربية الأجيال الناشئة على المنهج السليم، وإعدادهم منذ صغرهم ليتخرجوا صحيحي العقيدة سليمي الذهن، متأثرين بذلك التوجيه الإسلامي ليتخذوا مواقعهم في المجتمع، وليقوموا بالأعمال المنوطة بهم مستقبلاً على الوجه السليم والسياسة المرسومة.

والجدير بالذكر هنا أن معلمي الكتاتيب لم يكن إعدادهم في هذا العهد إعدادًا مهنيًا لممارسة التعليم - كما هي عليه الحال في وقتنا الحاضر - بل كانوا يتلقون معلوماتهم

---

(١) من هذه الكتب. كتاب آداب المعلمين لمحمد بن سحنُون المتوفى سنة ٢٥٦هـ (٨٧٠م)، والرسالة المفصّلة في أحوال المعلمين والمتعلمين، للقَابسي المتوفى سنة ٤٠٣هـ (١٠١٢م)، ومن كتب الحسبة. كتاب نهاية الرتبة في طلب الحسبة للشيزري المتوفى سنة ٥٨٩هـ (١١٩٣م) وقد عقد الشيزري في كتابه هذا بابًا كاملاً أسماه (الحسبة على مؤدبي الصبيان) وهو الباب الثامن والثلاثون، ص١٠٣.

التي يُعتقد أنها ضرورية لممارسة مهنتهم عن طريق اتصالهم الشخصي بالعلماء، وكان من أهم ما يتطلبه تعليم الصبيان في المعلم أن يكون حافظًا لكتاب الله ملمًّا ببعض علوم اللغة وأصول الحساب والخط.[1] وكان يشترط فيمن يقوم بتعليم الصبيان شروط خُلُقِيّة كثيرة، ذلك لأنه كلما زادت الخصال المحمودة في المؤدب زاد الصبي به تجملاً ورفعة، وفي هذا الصدد يقول الإمام الغزالي المتوفى سنة ٥٠٥هـ (١١١٢م): "إن صلاح التلميذ بصلاح معلمه، فإن أعيُنهم إليه ناظِره، وآذانهم إليه مصغيّة، فما استحسنه فهو عندهم الحسن، وما استقبحه فهو القبيح".[2] كما شبّه الإمام الغزالي أيضًا المعلم الذي يقل علمه عن روّاده تشبيهًا بليغًا وذلك بقوله: "... ومثل المعلم المرشد من المسترشدين مثل النقش من الطين، والظل من العود، فكيف ينتقش الطين بما لا نقش فيه؟ ومتى استوى الظل والعود أعوج؟".[3]

كما اشترط المربون في المعلم أن يكون عادلاً بين الصبيان، وأن يكونوا عنده بالمنزلة سواء، لاتفريق بينهم فابن الفقير وابن الغني على حد سواء في التربية والتعليم.[4] هذا إلى جانب كونه من أهل التقوى والورع والعفّة، واستحب المربون في معلم الكتاب أن يكون كبير السن، قال العبدري: "وينبغي لآباء الصبيان أن يتخيروا لأولادهم أفضل ما يمكنهم في وقتهم ذلك من المؤدبين ... فيختاروا لهم أولاً أهل الدين والتقوى، فإن كان مع ذلك عنده علم من العربية فهو أحسن، فإن زاد على ذلك بالفقه فهو أولى، فإن زاد عليه بكبر السن فهو أجل، فإن زاد عليه بورع وزهد فهو أوجب إلى غير ذلك".[5]

---

(١) العبدري، ابن الحاج أبو عبدالله بن محمد الفاسي المالكي (ت ٧٣٧هـ/١٣٣٦م). مدخل الشرع الشريف على المذاهب الأربعة.- القاهرة: مطبعة الباب الحلبي، ١٣٨٠هـ (١٩٦٠م).- ج٢، ص ٣١٧.

(٢) الإمام أبو حامد محمد بن محمد الطوسي (ت ٥٠٥هـ/١١١٢م). إحياء علوم الدين.- استانبول: دار الدعوة، ١٤٠٦هـ، (١٩٨٥م).- ج١، ص٦٣ - ٦٤.

(٣) المصدر نفسه.- جـ١، ص٦٤.

(٤) ابن الحاج العبدري. المدخل.- ج٢، ص٣١٨.

(٥) المصدر نفسه.- جـ٢، ص٣٣٣.

والمعلم كبير السن ينجح عادة في تربية الأطفال لأنهم يرون فيه صورة الأب، إضافة إلى كونه أكثر رفعة وشفقة بهم.

كما اشترط السبكي في معلم الكتاب أن يكون صحيح العقيدة، لأن فساد عقيدة المعلم ينشأ عنه فساد عقيدة الصبي، فيتعين على الآباء أن يتأكدوا من سلامة عقيدة معلم أبنائهم قبل البحث عن دينه في الفروع.[1] ولا شك أن هذه الآداب والصفات السابقة ـ وغيرها مما اشترط المربون في معلم الكتّاب ـ تنطبق في الغالب على معلمي الكتاتيب العامة وكتاتيب الأيتام الموقوفة أكثر من انطباقها على الكتاتيب الخاصة التي يُنشئها المعلمون أنفسهم، نظرًا لحرص الواقف في اختياره لمن تنطبق عليهم تلك المواصفات للتعليم في مكتبه.

وقد كان الخلفاء والملوك وكبار رجال الدولة ينتدبون لأبنائهم معلمين خصوصيين لتدريسهم في قصورهم بدلاً من إرسالهم إلى الكُتّاب، وعُرف هؤلاء المعلمون بالمؤدبين. وقد حظي المؤدبون بمكانة اجتماعية عالية ورعاية خاصة، ولم يكن يتولى هذه المهمة إلا كبار العلماء وأفاضل الأدباء ممن يوثق بدينهم وعلمهم، وقدراتهم التربوية، وممن اشتهر بالتأديب في العهد الزنكي الشيخ علي بن منصور السُرُوجيّ المتوفى سنة ٥٧٢هـ (١١٧٦م).[2] وكان قد ندبه الملك عماد الدين زنكي لتربية أولاده وتعليمهم، وقد اشتهر السروجي ببراعته في الأدب والشعر وحسن الخط.[3]

ولقد تمتع معلمو الكتاتيب في ذلك العهد بمركز مالي جيد في الكتاتيب الموقوفة إذ

---

(١) معيد النعم.- ص١٠١.

(٢) علي بن منصور السُرُوجي. الأديب، أدّب أولاد عماد الدين زنكي، كان حسن الخط وله شعر حسن في فضل دمشق، وله شعر في مدح نور الدين محمود. (سبط ابن الجوزي. مرآة الزمان.- ج٨، ق١، ص٣٣٩ ؛ العيني. عقد الجمان، (مخطوط).- ج١٢، ورقة ٢٠٩ ظهر).

(٣) سبط ابن الجوزي. المصدر السابق.- جـ٨، ق١، ص٣٣٩.

وفّر لهم الواقفون رواتب شهرية تُصرف لهم من إيراد الوقف، وتختلف تلك المرتبات في مقدارها من مكتب لآخر حسب ما يدّره الوقف، وقد يكون المرتب عبارة عن مساعدات عينية كمقررات الخبز اليومية وملابس الصيف والشتاء، إضافة إلى الهدايا والمساعدات بمناسبة الأعياد والمواسم، كما يُوفّر لهم السكن المجاني المريح في بعض الكتاتيب.

وقد شاهد ابن جبير واحدًا من هذه الكَتَاتيب في دمشق وما كان يصرف فيه على المعلمين والصبيان فقال: " وللأيتام من الصبيان محضرة كبيرة بالبلد لها وقف كبير يأخذ منه المعلم لهم ما يقوم به، ويُنفق منه على الصبيان، ما يقوم بكسوتهم".[(١)]

كما ذكر أبو شامة عن نور الدين أنه بنى في بلاده الكثير من الكتاتيب، وأجرى على المعلمين والصبيان رواتب وافرة،[(٢)] وقد دفع هذا التشجيع المادي والمعنوي الكثير من المعلمين إلى الإقبال على التعليم بطمأنينة وراحة بال.

وكان يساعد المعلم في تعليم الصبيان بالكتاتيب، عرِيفٌ، ووظيفة العريف شبيهة بوظيفة المعيد في المدارس العليا إذ كان يساعد المعلم في تعليم الصبيان، كما كان يقوم مقامه أثناء غيبته، ويختلف العريف في الكتاتيب التي يُنشئها المعلمون، عن العريف في مكاتب السبيل والأيتام، ففي الأولى يكون العريف غالبًا أحد الصبيان الذين انتهوا من دراستهم، أو قاربوا على الانتهاء، وقد عرّفه القابسي بأنه: " الذي قد ختم وعرف القرآن وهو مستغنٍ عن التعليم".[(٣)] أما العريف في المكاتب الموقوفة فكان رجلاً يُعينه الواقف أو ناظر الوقف لمساعدة المعلم في تعليم الصبيان، وكان يتقاضى على وظيفته تلك أجرًا.[(٤)]

---

(١) الرحلة.- ص٢٤٥.
(٢) كتاب الروضتين.- جـ١، ق١، ص٢٣.
(٣) الرسالة المفصلة، ص٣١٩.
(٤) حسن عبدالعال. فن التعليم عند بدر الدين بن جماعة.- الرياض: مكتب التربية العربي لدول الخليج، ١٤٠٥هـ (١٩٨٥م).- ص٧٧.

ويجوز أن يعين أكثر من عريف، وقد حرص المربون في ذلك العهد على تبدل الصبيان على العرفاء منعًا للفساد، ولمتابعة الاهتمام بالصبي، فذكر العبدري أنه ينبغي على المعلم أن " ... يبدل الصبيان في كل وقت على العرفاء، مرة يعطي صبيان هذا لهذا وصبيان هذا لهذا لأنه إذا كان لواحد صبيان معلومون فقد تنشأ بينهم مفاسد بسبب الود لا يشعر بها (المعلم)، فإذا فعل ما تقدم ذكره سلِم من هذا الأمر".[(١)]

ب ـ المُدرسون:

إن نظام التعليم المتبع في العهد الزنكي لا يقل شأنًا عن نظام المدارس في العصر الحاضر، فإن النظام المتبع آنذاك هو أن يكون لكل مدرسة عدد من المدرسين يختص كل واحد منهم بتدريس مادة أو أكثر، ويديرهم شيخ يُعينه واقع المدرسة ويسمى (ناظر المدرسة) ويُشترط أن يكون الناظر من خيار المدرسين وأشهرهم، ومن الذين بلغوا درجة عالية من النضج العلمي، والقدرة العالية في مجال التأليف والتدريس، وقد ظهر خلال ذلك العهد العديد من المدرسين المتخصصين في فرع أو أكثر من فروع المعرفة المختلفة، وكان المدرس في مصطلح العصر هو معلم المادة التي يقوم بتدريسها سواء في حِلَق المساجد أو فصول المدارس أو غيرها من أماكن التعليم السابق ذكرها.[(٢)]

وقد عني الحكام الزنكيون، ومن سار على نهجهم في إنشاء المدارس ودور التعليم المختلفة باختيار العلماء الأفذاذ للتدريس في مراكزهم.

وحرصوا على استجلاب من أثر عنه العلم الوافر، والسمعة الحسنة بين العلماء وطلاب العلم، كما حرصوا على أن يكون المدرس سليم العقيدة حتى يتوافق مع التوجيه الديني الشامل للدولة، ولأن مركز المدرس وسمعته كانا في الغالب مركز

---

(١) المدخل.- ج٢، ص٣٢٤ ـ ٣٢٥.

(٢) ورد تفصيل ذلك في الفصل الثاني (دُوُر التعليم ووظائفها في العهد الزنكي).

الدعاية للمدرسة، فكثير من المدارس اشتهرت بأسماء من درسوا بها بغض النظر عن منشئها، أو الواقف عليها.[1]

وقد أوضح بدر الدين بن جماعة المتوفى سنة ٧٣٣هـ (١٣٢٢م) أنه لم يكن يتولى التدريس إلا ممن كانوا ذوي باع طويل ي العلم، فلا يتصدى للتدريس إلا من كان أهلاً له.[2]

كما تحدث عن الخصائص التي يجب أن يتصف بها من قُدّر له أن يتولى تلك المهنة، وطالب بأن يكون ذا رياسة، وفضل، وديانة ومهابة، وأن يكون عادلاً بين روّاده، له محبة في الفضلاء منهم، ولطف على الضعفاء، وأن يقرّب إليه المخلصين، ويرغب المشتغلين، وينصف الباحثين، وأن يكون حريصًا على النفع مواظبًا على إفادة طلابه.[3]

ومن تلك الخصائص تتضح الشروط التي ينبغي توافرها في المدرس، وهي أن يكون جامعًا بين الدين والعلم والأخلاق، فهو يحث على الاشتغال بالعلم، وقبل ذلك هو قدوة لطلابه فلا بد أن يتحلى بالأخلاق الفاضلة الحميدة.

ويذكر القلقشندي أن من يوقف المدرسة لا يولي فيها التدريس عادة إلا من عظم خطره، وارتفع شأنه حتى ينتفع الناس بعلمه وأن المدرس لن يتمكن من إدارة طلابه ونفعهم إلا بتمكنه من مادته العلمية التي أوكل إليه مهمة تدريسها.[4]

---

(١) من المدارس التي اشتهرت باسم مدرسيها. المدرسة العَصْرُونيّة بحلب، وكان قد أنشأها الملك نور الدين محمود للفقيه شرف الدين ابن أبي عصرون المتوفى سنة ٥٨٥هـ (١١٨٩م) ونُسبت إليه لتدريسه بها (ابن شداد. الأعلاق الخطيرة (قسم حلب، ص٩٨). كما اشتهرت المدرسة النورية الشافعية بدمشق باسم مدرسها العماد الأصفهاني المتوفى سنة ٥٩٧هـ (١٢٠١م) (ياقوت. معجم الأدباء.- ج١٩، ص١٣).

(٢) تذكرة السابع والمتكلم.- ص٤٥.

(٣) المصدر نفسه.- ص١٩٨-٢٠١.

(٤) صبح الأعشى.- ج٤، ص٣٩.

ووصف المدرس الناجح بأنه الذي يتميز بسعة العلم، والتضلع بالفنون، والأخذ من كل منها بحظ وافر، وطول الباع في البحث والمناظرة، والوقوف مع الحق فيها، وعدم الجدال في الباطل، وتربية الطلبة وتأديبهم، والتقريب على من عسر على فهمه شيء من المسائل، وعدم الترفع عليهم، وتنزيلهم منازلهم في الفضل وتقديم من برع منهم.(١)

وكان يوصي المدرس بأن يقبل على جماعة درسه بطلاقة وجه، وأن يستميلهم إليه جهد استطاعته، ويربيهم كما يربي الوالد ولده، ويستحسن نتائج أفكارهم التي يأتون بها في درسه، ويقدم منهم من يجب تقديمه، وينزل كل واحد منهم منزلته، ليحثهم ذلك إلى المداومة على طلب العلم والازدياد بتحصيله.(٢)

وقد حدد تاج الدين السبكي أهم واجبات المدرس بقوله: " وحق عليه أن يحسن إلقاء الدرس، وتفهيمه للحاضرين، ثم إن كانوا مبتدئين فلا يلقي عليهم ما لا يناسبهم من المشكلات، بل يدرّبهم ويأخذهم بالأهون فالأهون، إلى أن ينتهوا إلى درجة التحقيق، وإن كانوا منتهين فلا يلقى عليهم الواضحات".(٣) وهو بذلك يوصي بمراعاة الاستعدادات العقلية لدى الطلاب، ومدى تقبلهم للمعلومات التي تُطرح عليهم، وذلك بأن يتدرج بهم في العلوم حسب استعداداتهم وأعمارهم.

ويصف السبكي المدرس الجديد بمنصبه في التدريس، فيذكر أنه من إذا جلس للتدريس " وألقى جملة صالحة من العلم، وتكلم عليها كلام محقّق عارف، وسأل وسُئِل، واعترض وأجاب، وأطال وأطاب".(٤) كما أوصى الفقهاء ورجال التعليم أن

---

(١) المصدر نفسه.- ج١١، ص٩٠.
(٢) نفسه.- ج١١، ص٩٧.
(٣) معيد النعم.- ص٨٣.
(٤) المصدر نفسه.- ص٨٤.

من واجبات المدرس أن يعطي للدرس حقه شرحًا وتوضيحًا ، ولا يصح أن يدخل الدرس دون تهيئة للمادة التي ينوي تدريسها ، وقد ذمّ السبكي ذلك بقوله : "ومن قبح المنكرات مدّرس يحفظ سطرين أو ثلاثة من كتاب ويجلس يلقيها ثم ينهض ؛ فهذا إن كان لا يقدر إلا على هذا القدر فهو غير صالح للتدريس ، ولا يحلُّ له تناول معلومه".[1]

وأوضح أن هذه الشروط والوصايا رغم مجيء بعضها بعد الفترة الزنكية إلا أنها جاءت توجيهات تربوية عامة لمن يريد أن يتولى مهنة التدريس ، من حيث إعداد المدرس دينيًا وتربويًا ليتمكن من أداء وظيفته المنوطة به على الوجه المطلوب ، لما لهذه الشروط من آثار تربوية هامة على الطالب ، وهذا ما تتهم به التربية الحديثة في انتقاء مدرسيها وتعيينهم.

وكان المدرسون في الكثير من المدارس الزنكية يعينون بمرسوم خاص ، ولم تظهر هذه المراسيم أو التوقيعات التدريسية على ما يبدو إلا بعد انتشار المدارس ، وظهور ما يعرف بالمعاليم التي تصرف على المدرسين والطلاب ، وكانت هذه المناشير تصدر من الملوك أو الوزراء بتعيين أستاذ بعينه في إحدى المدارس ، ويذكر ناجي معروف أن هذه التوقيعات قد احتوت على أمور تتعلق بمنصب التدريس ، وأهمية المدرس حيث إنه لم يكن يُعين للتدريس إلا من عُرِف بعلمه وسداد رأيه وتقواه ، كما أنها تُبين للمدرس الطريقة التي ينبغي اتباعها ، وكان يُذكر فيها ما يخصص للمدرس شهريًا من جرايات عينية ومرتبات نقدية ، كما كان يُشار في التوقيع إلى الأمور الأخرى التي يكلف بالنظر فيها من غير الشؤون التدريسية كالنظر في الوقوف المحبوسة على المدرسة التي عُيِّن فيها.[2]

(١) نفسه ، ص٨٣.

(٢) التوقيعات التدريسية.- ص٢٩-٣٠.

وقد أشار العماد الأصفهاني المتوفى سنة ٥٩٧هـ (١٢٠١م) إلى منشور تعيينه في المدرسة النورية الشافعية بدمشق في رجب سنة ٥٦٧هـ (١١٧١م) وذكر أن نور الدين محمود مُنشئ المدرسة فَوّضّ إليه أمر التدريس فيها والنظر في أوقافها، وقد حضر القاضي كمال الدين الشَهْرَزُورِي وكبار علماء البلد أول دروسه بها.(١)

وواضح من خلال تتبع حركة التعليم في العهد الزنكي أنه لا يمكن أن يحل في المدرسة مُدرِّس جديد إلا بتنازل المدرس السابق له عن وظيفته كما حصل في المدرس الصادرية بدمشق، والتي كان يتولى التدريس بها الإمام علي بن أحمد بن مكّي الرازي المتوفى سنة ٥٩٨هـ (١٢٠١م).(٢)، ولم يزل بها إلى أن تنازل عنها للإمام بُرهان الدين البَلْخِي المتوفى سنة ٥٤٨هـ (١١٥٣م).(٣) ولم يكن هناك سنّ معينة يقف عندها المدرس عن التدريس - أو ما يشبه نظام التقاعد في الوقت الحاضر - فلم يكن يمنع من استمرار المدرس في التعليم ما دامت لديه القدرة على ممارسة هذه المهنة، وقد استمر الكثير من المدرسين يمارس مهنة التدريس حتى وفاته، من هؤلاء. الشيخ جلال الدين عبدالرحمن بن كمال الدين الشهرزوري المتوفى سنة ٥٦٦هـ (١١٧٠م).(٤) وكان

---

(١) البنداري. سنا البرق الشامي.- ق١، ص١١٩ - ١٢٠.

(٢) هو الإمام العالم حسام الدين علي بن أحمد بن مكي الرّازي الكاشاني، قدم دمشق، ودرّس بها في المدرسة الصادرية، وبرع بالإفتاء على مذهب أبي حنيفة، كما ناظر في كثير من مسائل الخلاف وله مؤلفات مشهورة في الفقه، كما قدم إلى حلب في أيام الملك نور الدين محمود، وأقام بالمدرسة النورية وكانت وفاته سنة ٥٩٨هـ (١٢٠١م) (ابن عساكر. تاريخ دمشق (مخطوط).- ج١٢، ص٥٥٣ ؛ القرشي. الجواهر المضية.- ج٢، ص٥٤٣ - ٥٤٤ ؛ العيني. عقد الجمان (مخطوط).- ج١٣/٢٧٤).

(٣) ابن شداد. الأعلاق الخطيرة (قسم دمشق).- ص٢٠٠ ؛ النعيمي. الدارس.- جـ١، ص٥٣٧، وقد أسماه النعيمي "علي بن زنكي الكاشاني" وهذا خلاف ما ورد في مصادر ترجمته.

(٤) الجلال الشهرزوري عبدالرحمن بن كمال الدين محمد ويلقب جلال الدين كان فقيهاً فاضلاً دَرّس بالمدرسة الكمالية القضوية بالموصل، ومات بها شابًا في حياة والده سنة ٥٦٦هـ (١١٧٠م) (الأسنوي. طبقات الشافعية.- جـ٢، ص١٠١).

يُدرّس في المدرسة الكماليّة القَضَوِية بالموصل.[١] وتوفي في حياة والده، وهو على تدريس هذه المدرسة.[٢]

ومنهم الفقيه الوجيه بُرهان الدين مسعود الدمشقي المتوفى سنة ٥٩٩هـ (١٢٠٢م).[٣] وكان يُدرّس في المدرسة النُورية الكبرى بدمشق، وقد استمر مُدرّسًا بها إلى أن توفي.[٤] والأمثلة على المدرسين الذين استمروا في التدريس حتى وفاتهم كثيرة، وسترد في مناسبة لاحقة إن شاء الله.[٥]

وكان المدرسون في العهد الزنكي يتقاضون رواتب، أو معاليم تصرف لهم من الأوقاف التي كانت توقف على المدرسة، وكانت تلك الأجور أو المعاليم تتأثر بظروف مقدار الوقف على المدرسة وما يدرّه شهريًا أو سنويًا، وكان هناك من المدرسين من يأنفون من أخذ ما يُخصص لهم من تلك الأوقاف، فقد رفض القاسم ابن الحافظ علي بن الحسن بن عساكر المتوفى سنة ٦٠٠هـ

---

(١) هذه المدرسة خاصة لتدريس المذهب الشافعي أنشأها بالموصل القاضي كمال الدين الشهرزوري المتوفى سنة ٥٧٢هـ (١١٧٦م) (ابن الجوزي. المنتظم.- ج١٠، ص٢٦٨؛ ابن خلكان. وفيات الأعيان.- جـ٤، ص٢٤١).

(٢) الأسنوي. المصدر السابق.- جـ٢، ص١٠١.

(٣) الفقيه برهان الدين أبو الموفق مسعود بن شجاع بن الحسن القُرشيّ الحنفي الدمشقي ولد بدمشق سنة ٥١٠هـ (١١١٦م) وارتحل في طلب العلم إلى العديد من البلدان، وكان قد تولى قضاء العسكر في دولة الملك نور الدين محمود، وتوفي سنة ٥٩٩هـ (١٢٠٢م) (القرشي. المصدر السابق. جـ٢، ص١٦٨)

(٤) ابن شداد. الأعلاق الخطيرة (قسم دمشق).- ص٢٠٣.

(٥) سيرد الكثير من الأمثلة في الفصل الخاص بمراكز التعليم في العهد الزنكي.

(١٢٠٣م)،[١] وكان مُدرّسًا بدار الحديث النورية بدمشق، أن يتناول من معلومه شيئًا، فقد تنازل عنه لمن يتردد عليه من الطلبة، وقيل إنه لم يشرب من مائها ولم يتوضأ منه.[٢]

وكان هناك من العلماء من تقم الدولة بتكريمه، وذلك بأن تسعى لديه تطلب منه أن يقبل وظيفة التدريس في مدرسة تُبنى خصيصًا من أجله أو برسمه، وهذا الأسلوب يُعد تكريمًا للعالم واعترافًا بقدره، وإجلالاً لما وصل إليه من علم واطلاع، ومن العلماء الذي كُرموا بهذا الأسلوب في العهد الزنكي:

الشيخ بُرهان الدين البلْخِي الواعظ الزاهد المتوفى سنة ٥٤٨هـ (١١٥٣م).[٣] وكان مُدرّسًا بالمدرسة الصادرية بدمشق، فاستقدمه نور الدين محمود إلى حلب، وفوّض إليه أمر التدريس في المدرسة الحلاّوية بعد استكمال بنائها، وهو أول من دَرّس بها.[٤]

---

(١) القاسم بن الحافظ علي بن الحسن بن هبة الله بن عساكر الدمشقي، ولد في جمادى الأولى سنة ٥٢٧هـ (١١٣٣م) بدمشق، وسمع من والده الحافظ وجمال الإسلام بن المسلم المتوفى سنة ٥٣٣هـ (١١٣٨م) وأبا الفتح نصر الله المُصِيْصي المتوفى سنة ٥٤٢هـ (١١٤٧م) وغيرهم من العلماء، وأجاز له عامة مشايخ خراسان، وكان محدثًا فهمًا ثقة، حسن المعرفة شديد الورع كريم النفس، بيض تاريخ والده في ثمانين مجلدة مرتين، وصنّف وشرح وقد خلف أباه في إسماع الحديث بالجامع الأموي، وولي بعده دار الحديث النورية، ورحل إلى مصر فأسمع بها، وكانت وفاته في صفر سنة ٦٠٠هـ (١٢٠٣م) ودُفن بمقابر باب الصغير بدمشق. (أبو شامة. ذيل الروضتين.- ص٤٧ ؛ النعيمي. الدارس.- جـ١، ص١٠١ ـ ١٠٣).

(٢) النعيمي. المصدر السابق.- جـ١، ص١٠٣.

(٣) سبقت ترجمته في الفصل الأول من هذه الدراسة.

(٤) ابن شداد. الأعلاق الخطيرة (قسم حلب).- ص١١٠ـ١١١.

الشيخ الخطيب أبو البركات الخضر بن شِبْل الحارثي المعروف "بابن عبد" المتوفى سنة ٥٦٢هـ (١١٦٧م)،[١] وكان من أكابر الفقهاء الشافعية في عصره بنى له نور الدين محمود في دمشق مدرسته التي تقع داخل باب الفرج، والتي تسمى العمادية، فهو أول من درّس بها، وإنما اشتهرت بالعمادية نسبة للعماد الأصفهاني مدرسها بعد ابن عبد.[٢]

الشيخ حامد بن محمود الحرّاني المتوفى سنة ٥٧٠هـ (١١٧٤م).[٣] وكان شيخ حران في وقته، بنى له الملك نور الدين محمود المدرسة الحنبلية بحران، فكان أول من درّس بها.[٤]

---

(١) أبو البركات الخضر بن شبل بن الحسين بن عبدالواحد الحارثي الفقيه الشافعي خطيب الجامع الأموي بدمشق، ومُدرّس الزاوية الغزالية، والمدرسة المجاهدية بها، كان مولده في دمشق سنة ٤٨٦هـ (١٠٩٣م) والشيخ جمال الإسلام علي بن المسلم السلمي المتوفى سنة ٥٣٣هـ (١١٣٨م) وقد برع ابن عبد بالمذهب الشافعي، وأخذ عنه ابن عساكر، وأثنى عليه، توفي في دمشق سنة ٥٦٢هـ (١١٦٧م) (ابن عساكر تاريخ دمشق (مخطوط).- ج٥، ص٦٥١-٦٥٢ ؛ سبط ابن الجوزي. مرآة الزمان.- ج٨، ق١، ص٢٧٠-٢٧١ ؛ ابن العديم. بغية الطلب في تاريخ حلب، المجلد الخامس (مخطوط) ميكروفيلم بمعهد إحياء المخطوطات العربية بالقاهرة، رقم (٩٠)، مصور المخطوط مكتبة سراي احمد الثالث باستانبول رقم (٢٩٢٥).- ورقة ١٩٥ظهر - ١٩٧ ظهر).

(٢) النعيمي. الدارس.- ج٢، ص١٨٣.

(٣) حامد بن محمود بن حامد الحرّاني الخطيب الفقيه الزاهد أبو الفضل، المعروف بابن أبي الحجر، ويُلقب تقي الدين، شيخ حرّان وخطيبها، وفقيهها ومدرسها ولد سنة ٥١٣هـ (١١١٩م) بحران، ورحل إلى بغداد، وتفقه بها على شيوخ عده، وكان شيخ حرّان في وقته، وكان نور الدين محمود يقبل عليه، وله فيه حسن ظن، فبنى له المدرسة الحنبلية بحران، وقد أخذ عنه علماء عدة من مختلف الأمصار توفي في صفر سنة ٥٧٠هـ (١١٧٤م) (ابن رجب، زين الدين أبو الفرج عبدالرحمن بن أحمد البغدادي (٧٩٥هـ/١٣٩٣م). كتاب الذيل على طبقات الحنابلة.- القاهرة: مطبعة السّنة المحمدية، ١٣٧٢هـ/١٩٥٢م.- ج١، ص٣٣٢-٣٣٤).

(٤) ابن رجب. المصدر السابق.- ج١، ص٣٣٤.

القاضي شرف الدين بن أبي عصرُون المتوفى سنة ٥٨٥هـ (١١٨٩م)[١] كان نور الدين قد استقدمه من سنجار إلى حلب فولاه التدريس بالمدرسة الشافعية التي نُسبت إليه فيما بعد لكونه أول من درّس بها، ثم بنى له نور الدين محمود العديد من المدارس في دمشق وحمص، وحماة، وبعلبك، وغيرها، وبنى هو لنفسه مدرستين بحلب ودمشق.[٢]

الإمام الحافظ أبو القاسم بن عساكر المتوفى سنة ٥٧١هـ (١١٧٦م) وقد بنى له نور الدين دار الحديث النورية بدمشق وفوّض إليه أمر التدريس بها والنظر في أوقافها.[٣]، إضافة إلى العديد من العلماء الذي كُرمُوا بهذا الأسلوب.[٤]

وكان يحق للمدرس أن يستنيب من يقوم بالتدريس مكانه في إحدى المدارس، ومن هنا ظهر منصب "نائب المدرس"، وهو أعلى من رتبة المعيد، وأقل من رتبة المدرس، من ذلك أن القاضي شرف الدين بن أبي عصرُون درس بالمدرسة الأمينية بدمشق.[٥] وأناب مكانه في بعض وقته الفقيه أبا الفضائل الدمشقي.[٦] المتوفى سنة ٥٦١هـ (١١٦٥م).[٧]

---

(١) سبقت ترجمته، الفصل الأول.

(٢) ابن خلكان. وفيات الأعيان.- ج٣، ص٥٤.

(٣) ابن الأثير. التاريخ الباهر.- ص١٧٢ ؛ أبو شامة. كتاب الروضتين.- ج١، ق١، ص٢٣، وقد سبقت ترجمة ابن عساكر في الفصل الأول.

(٤) سترد الكثير من الأمثلة لهؤلاء العلماء في الفصل الخاص بمراكز التعليم إن شاء الله.

(٥) المدرسة الأمينية. تقع قبلي باب الزيادة (من أبواب الجامع الأموي بدمشق) أنشأها أتابك العسكر بدمشق، ويدعى أمين الدولة كُمشْتِكين بن عبدالله الطُغتكِيني من رجال الدولة البُورية، ويُذكر أنها أول مدرسة بُنيت للشافعية بدمشق (ابن شداد. الأعلاق الخطيرة (قسم دمشق).- ص٢٣١ ؛ النعيمي. الدارس.- ج١، ص١٧٨).

(٦) الفقيه أبو الفضائل أخو القاضي عبدالصمد الدمشقي ولد سنة ٥١٧هـ (١١٢٣م) وسمع بدمشق من عدة شيوخ، كما سمع ببغداد، وخراسان، وله آثار عالية حسنة، توفي بدمشق في رمضان سنة ٥٦١هـ (١١٦٥م) (السبكي. طبقات الشافعية الكبرى.- ج٧، ص١٨٦).

(٧) المصدر نفسه.- ج٧، ص١٨٦.

وكان المدرس على الرغم من علو قدره بالعلم، يعمل على حضور المشيخات مستمعًا إلى دروس غيره،[1] وهذا أشبه ما يكون باستمرار الاطلاع على العلوم الجديدة والكتب المؤلفة من قِبل العلماء في الوقت الحاضر.

وقد برزت شخصيات علمية عديدة في العهد الزنكي تسلمت التدريس في العديد من المراكز العلمية، وكان لهم أثر كبير في نشر التعليم وازدهاره في ذلك العهد.[2]

جـ- المعيدون:

من الواضح أن نظام الإعادة الذي نجده منتشرًا في جامعاتنا في الوقت الحاضر لم يكن وليد نُظم التعليم الحديثة، فقد سبقتها المدارس الإسلامية الأولى إلى استعمال هذا النظام، ولم تظهر وظيفة المعيد في تاريخ التعليم عند المسلمين إلا مع ظهور المدارس وتطور وظائفها في منتصف القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي) تقريبًا فالمصادر التاريخية لم تورد ذكرًا لهذه الوظيفة قبل ذلك التاريخ، ولذلك فإن وظيفة المعيد ارتبطت غالبًا بالمدارس التي زاد انتشارها وتطورت نظمها خلال ذلك العهد.

ويذكر شلبي أن السبب في ارتباط هذه الوظيفة بالمدارس يرجع إلى أن تلك المدارس جمعت طلابًا تتفاوت قُدراتهم العقلية على فهم الدروس فاحتيج إلى المعيد ليساعد المتخلفين حتى يتمكنوا من مسايرة الآخرين، أما في المساجد فكان الطالب إذ أحسّ تخلفه العلمي عن طلاب حلقة ما رغب عنها إلى سواها من الحلقات التي تتناسب مع مستواه.[3]

---

(١) النعيمي. الدارس.- ج١، ص٨٦.

(٢) سيرد الحديث إن شاء الله عن الكثير من المدرسين في الفصل الخاص بمراكز التعليم في العهد الزنكي (الفصل الخامس).

(٣) تاريخ التربية الإسلامية.- ص٢٥٥.

وقد كثر ورود ذكر المعيدين متصلاً بالمدارس النظامية.[1] وفي العهد الزنكي أصبح منصب المعيد منصبًا مرموقًا، وقلّ أن تخلو مدرسة من المدارس التي أنشئت في ذلك العهد من وجود معيد أو أكثر فيها وربما يصل الأمر إلى ربط معيد مع كل مُدَرّس يُدرّس في المدارس التي تكون الأوقاف فيها غنية ودارّة.[2] ووجود هذه الوظيفة ونظامها يؤيد ما وصلت إليه نظم التعليم من تطور وإتقان في ذلك العهد.

وقد حددت المصادر العربية مكانة المعُيد، والمهام المطلوب منه القيام بها، فقد ذكر ابن جماعة أن المعيد هو الذي يُعيد الدرس بعد إلقاء الشيخ خطبته على الطلبة لكونه معينًا للشيخ على نشر علمه، وتثبيت دروسه في أذهان الطلبة، ومعاونًا لهم في إعادة المحفوظات والمراجعة في المذكرات، فهو في الرتبة العلمية أدنى من الشيخ وأرفع مكانة من عامة الطلبة.[3] وقد اشترط ابن جماعة فيمن يتولى هذه الوظيفة أن يكون " من صلحاء الفضلاء وفضلاء الصلحاء صبورًا على أخلاق الطلبة حريصًا على فائدتهم وانتفاعهم به، قائمًا على وظيفة إشعالهم.[4]

أما السبكي المتوفى سنة ٧٧١هـ (١٣٦٩هـ) فيفهم من كلامه عن المعيد: أنه واحدُ من الطلبة، وأن عليه قدر زائد على سماع الدروس من تفهيم بعض الطلبة وعمل ما يقتضيه لفظ الإعادة.[5] أما القلقشندي فقد رتّب المعيد بعد رتبة المدرس، وذكر أن أصل موضوعه أنه إذا ألقى المُدرّس الدّرسّ وانصرف، أعاد للطلبة ما ألقاه إليهم ليفهموه ويُحسنوه.[6]

---

(١) أبو شامة. كتاب الروضتين.- ج١، ق١، ص٣٣.
(٢) كما كان جاريًا في المدرسة الأمينية الشافعية بدمشق (النعيمي، الدارس.- ج١، ص٢٠٣-٢٠٤).
(٣) تذكرة السامع والمتكلم.- ص١٥٠.
(٤) المصدر نفسه.- ص٢٠١.
(٥) معيد النعم.- ص٨٥.
(٦) صبح الأعشى.- ج٥، ص٤٦٤.

وكان المعيد يجلس عن يمين المدرس أو يساره، وإذا كان للمدرس معيدان فيجلس إحداهما عن يمينه والآخر عن يساره، ونجباء الطلبة قبالة وجهه.[1]

ويستنتج الباحث مما سبق أن مهمة المعيد تبدأ عندما ينتهي عمل المدرس، وأنها تشمل شرح النقاط الصعبة من الدرس، ومساعدة محدودي الفهم من الطلاب حتى يفهموا ماصعب عليهم من الدروس السابقة، ومساعدة المدرس في إعادة بعض النقاط حتى ترسخ في الأذهان، كما يُفهم من ذلك أنه لا يشغل هذا المنصب إلا الطلبة البارزين وممن يظهر فيهم الصلاح والفضل، وممن تؤهلهم قدراتهم العقلية على تولي هذا الأمر ومتابعته.

وكان المجال مفتوحًا أما المعيد لينتقل إلى رتبة مُدرسّ، ولكن لابد له من أجل ذلك أن يرحل في طلب العلم للاتصال بالعلماء في مختلف المناطق، وكان في كل بلد يحل فيه يسمع من مشاهير علمائه، ثم يعود إلى موطنه بما يحمله من علوم وإجازات من مختلف العلماء ليتولى مهمة التدريس إما في مدرسته التي كان فيها معيدًا أو في مدرسة أخرى، في المدينة التي كان بها أو ينتقل إلى مدينة أخرى فيتولى التدريس في إحدى مدارسها.[2]

وكان المستوى العلمي للمدارس مختلفًا، ومن أجل هذا كان من الممكن أن يُختار معيدًا في مدرسة، وفي الوقت نفسه مدرسًا في مدرسة أخرى، لأن المدرسة الأولى أرقى من المدرسة الأخرى في مستواها العلمي، فقد كان جمال الأئمة علي بن الحسن بن المانح المتوفى سنة ٥٦٢هـ (١١٦٧م)[3] معيدًا لجمال الإسلام علي بن المسلم المتوفى سنة

---

(١) ابن جماعة. المصدر السابق.- ص١٤٩-١٥٠.

(٢) الأمثلة على ذلك كثيرة وسيبرز ذلك من خلال تتبع الرحلات والصلات العلمية في هذا الفصل.

(٣) علي بن الحسن بن أحمد أبو القاسم بن أبي الفضائل الكِلابي الدمشقي الفقيه الشافعي الفرضي النحوي المعروف بجمال الأئمة بن المانح، من علماء دمشق الكبار، ولد سنة ٤٨٨هـ (١٠٩٥م) وتفقه على جمال الإسلامي السلمي، ونصر الله المصيصي، وجماعة من علماء عصره، وكان عليه الاعتماد في الفتوى، توفي رحمه الله في ذي الحجة سنة ٥٦٢هـ (١١٦٧م). (السبكي. طبقات الشافعية الكبرى.- ج٧، ص٢١٤).

٥٣٣هـ (١١٣٨م)[1] في المدرسة الأمينية الشافعية بدمشق، بالإضافة إلى قيامه بالتدريس في المدرسة المُجاهدية، كما كانت له حلقة كبيرة بالجامع الأموي يُقرئ فيها القرآن، والفقه، والنحو.[2]

د ـ أثر العُلماء في الحياة العامة للدولة:

كان لبعض العلماء المشتغلين بالتدريس أثر بارز في الحياة العامة للدولة تمثل في الآتي:

١ ـ الجهاد ضد الصليبيين:

حفلت كتب السير، والتراجم، والمصادر التاريخية المختلفة بصور بارزة لأبطال وشخصيات فذّة من العلماء المسلمين الذين ساهموا مساهمة إيجابية في درء الخطر الصليبي عن الأراضي الإسلامية، فكانوا هم عماد دعوة الجهاد إذ أحسوا بخطر الصليبيين منذ بداية قدومهم، وحذّروا الناس منهم، وكانت نداءاتهم دائمًا إلى التجمع ونسيان الخلافات والأطماع الدنيوية، والنزاع الذي كان سبب الفرقة والضعف في الجبهة الإسلامية.[3]

وقد برزت في الجبهة الإسلامية قيادات عديدة وزعامات فريدة قادت حركة المقاومة الإسلامية ضد العدوان الصليبي في تلك الفترة، كان من أبرزهم خلال العهد الزنكي

---

(١) علي بن المسلم بن محمد بن علي السُلمي الدمشقي الفقيه الفرضي، مدرس الزاوية الغزالية بالجامع الأموي، والمدرسة الأمينية، ومفتي الشام في عصره، له عدة تصانيف في الفقه والتفسير، توفي رحمه الله سنة ٥٣٣هـ (١١٣٨م) (الذهبي. العبر. ج٢، ص٤٤٥ ؛ السبكي. المصدر السابق.- ج٧، ص٢٣٥-٢٣٦ ؛ النعيمي. الدارس.- ج١، ص١٨٠ ؛ ابن العماد. الشذرات.- ج٤، ص١٠٢).

(٢) النعيمي. المصدر السابق.- ج١، ص٢٠٣.

(٣) تحدث ابن الأثير في ثنايا كتابه "الكامل" عن دَور بعض العلماء الذين جاهدوا الصليبيين منذ بدء الحركة الصليبية (أنظر.- ج٨، ص٢٣٥-٢٣٦).

الملك عماد الدين زنكي المتوفى سنة ٥٤١هـ (١١٤٦م) وابنه نورا لدين محمود من بعده، وقد كانا يعملان بمشورة هؤلاء العلماء ومساندتهم، حيث كانت لهم الكلمة النافذة والمكانة المرموقة والحظ الوافر من اهتمام كل من عماد الدين ونور الدين محمود في كل من الموصل وبلاد الشام في ذلك العهد.(١)

وقد اتخذ العلماء أساليب عديدة في الدفاع عن أوطان المسلمين منها:

انهم كانوا يخرجون إلى الميدان ويقومون إما بتذكير الجند بما كان عليه أبطال المسلمين الأوائل، وإما بحمل السلاح، والمشاركة الفعليّة في القتال مع المجاهدين، ومنها أن حكام المسلمين كانوا يعتمدون عليهم في تحريض الناس للخروج إلى الجهاد، وتحميس المقاتلين قُبيل وأثناء المعارك، ولقد نشط العلماء يومئذ في تلك المهمة نشاطًا كبيرًا، وإليهم يرجع الفضل في نشر مبادئ الفروسية الإسلامية فضلاً عن اعتماد الحُكام عليهم في تقوية الروح المعنوية لدى الجند إذا أصابهم الوهن، وفي جمع الكلمة إذا ظهرت بوادر الفشل.(٢)

كما قام العلماء بدور المناظرات والمجادلات مع الصليبيين وهذا ما دعا الكثيرين منهم إلى تعلم اللغات الأجنبية التي يتحدث بها الصليبيون للرّد عليهم وإظهار ما في دينهم من باطل ومنكر، وما أدخلوه عليه من تحريف وزيف، إضافة إلى دَوْر الأدباء وعلماء اللغة في تذكير الناس بالجهاد، وفي وصف المعارك وتمجيد البطولات والانتصارات وتخليد ذكر القادة الذين حققوا للجبهة الإسلامية انتصاراتها، وهجاء القادرة المتخاذلين عن الجهاد، والذين آثروا مصالحهم الخاصّة على مصالح المسلمين.

---

(١) ابن الأثير. التاريخ الباهر.- ص٣٥، ١٧٢؛ أبو شامة. كتاب الروضتين.- جـ١، ق١، ص٣٤.

(٢) عفاف صبره. دراسات في تاريخ الحروب الصليبية.- القاهرة: دار الكتاب الجامعي، ١٤٠٦هـ (١٩٨٥م)، ص٢٥-٢٦.

ومن العلماء الذين كان لهم أثر بارز في الجهاد ضد الصليبيين:

الحافظ المحدث أبو القاسم علي بن الحسن بن عساكر المتوفى سنة ٥٧١هـ (١١٧٦م) ومن أعماله التي قام بها لينضّم إلى العلماء المجاهدين توجيه الحديث الشريف لخدمة الجهاد ضد الصليبيين باعتباره شيخ لأول دار تخصصية تُنشأ لتدريس الحديث في الإسلام، وهي دار الحديث النورية بدمشق، فقد حرص الحافظ على تدريس ما يتعلق منه بباب الجهاد، والحث على فضائله، ودراسة الأحاديث والآداب المتعلقة به، وقد جمع لنور الدين محمود أربعين حديثًا في فضائل الجهاد في جزء واحد دفعه إلى جمعه رغبته في حث الناس على فضائل الجهاد والاستشهاد في سبيل الله.[1]

كما كان للعماد الأصفهاني الأديب الكاتب المتوفى سنة ٥٩٧هـ (١٢٠١م) أثر بارز في الجهاد ضد الصليبيين، فقد انتقل إلى دمشق ٥٦٢هـ (١١٦٦م) في أيام الملك نور الدين محمود،[2] وكان سندًا لنور الدين حيث تولى لديه العديد من الوظائف الهامة في الدولة مكّنته من الإسهام بالمشورة، والتدريس، والتأليف، فكانت أعماله صورة صادقة من تجاوب العلماء مع أحداث الجهاد في ذلك العهد.[3]

٢ ـ السفارات بين الدول:

شارك بعض العلماء في العهد الزنكي بمهمة السفارة بين الدولة الزنكية والخلافة العباسية أو الدولة المعاصرة إما بهدف الاستنجاد ضد الصليبيين أو لقضاء مصلحة بين الدولتين.

ومن سفراء الاستنجاد وطلب المعونة ضد الصليبيين القاضي كمال الدين أبو الفضل محمد بن عبد الله بن القاسم الشهرزوري المتوفى سنة ٥٧٢هـ (١١٧٦م) إذ

---

(١) ياقوت. معجم الأدباء.- ج١٣، ص٧٨.
(٢) البنداري. سنا البرق الشامي.- ق١، ص٥٥.
(٣) ياقوت. معجم البلدان.- ج١٩، ص١٤.

أرسله الملك عماد الدين زنكي سفيرًا من لدنه ليستنجد بالخليفة العباسي المقتفي لأمر الله (٥٣٠ـ٥٥٥هـ/١١٣٥ـ١١٦٠م) والسلطان السلجوقي مسعود (٥٢٧ـ٥٤٧هـ/ ١١٣٣ـ١١٥٢م) عام ٥٣٢هـ (١١٣٧م) أثناء الهجوم الصليبي البيزنطي المشترك على حلب وغيرها من مدن الشام.[١] وقد تمكّن كمال الدين من القيام بالمهمة الموكلة إليه خير قيام، فأقنع السلطان السلجوقي، والخليفة العباسي بإرسال الجيوش لعماد الدين زنكي، ولكن سرعان ما فشل هذا الهجوم الصليبي قبل مسير هذه الجيوش لبلاد الشام، فخاف زنكي من تقدم جيش الخليفة والسلطان إلى بلاد الشام، فأوعز إلى كمال الدين نفسه بالعمل على بقاء الجيش في بغداد وعدم إرساله إلى الشام، وهنا تدخّل كمال الدين لدى الخليفة والسلطان، واستطاع بحنكته أن يقنعهما بأنه لا ضرورة لإرسال الجيش إلى بلاد الشام، وأن الغزو الخارجي قد تلاشى.[٢] وهذا الموقف السياسي يُحسب لشخصية كمال الدين الفذّة في جمع الصف الإسلامي.

كما واصل القاضي كمال الدين القيام بمهمة السفارة بين الدولة الزنكية والخلافة العباسية في عصر نور الدين محمود إذ اعتمده نور الدين سفيرًا إلى الخليفة العباسي المستضيئ (٥٦٦-٥٧٥هـ/١١٧٠-١١٧٩م) سنة ٥٦٨هـ (١١٧٢م) يطلب منه تقليدًا بما في يده من البلاد (الشام ومصر والجزيرة والموصل)، وبما في طاعته كديار بكر وما يجاوز ذلك كخِلاط وبلاد أرسلان، يقول ابن الأثير: " فأكرم كمال الدين إكرامًا لم يكرمه رسول قبله، وأجيب إلى ما التمسه".[٣]

كما برزت شخصيات من العلماء قاموا بمهمة السفارة بين نور الدين محمود في حلب والأتابك مُجير الدين أبق بن محمد آخر الحكام البوريين في دمشق (٥٣٤-٥٤٩هـ/

(١) ابن الأثير. الكامل في التاريخ.- ج٨، ص٣٦٠.
(٢) المصدر نفسه.- ج٨، ص٣٦٠ـ٣٦١.
(٣) ابن الأثير. الكامل.- ج٩، ٢ص١٢١ـ١٢٢.

١١٣٩-١١٥٤م) وذلك بعد الهجمات العسكرية المستمرة التي قام بها نور الدين محمود على مدينة دمشق، سنة ٥٤٦هـ (١١٥١م) وقد تولى المهمة الإمام الفقيه بُرهان الدين البلخي المتوفى سنة ٥٤٨هـ (١١٥٣م) بمشاركة الأمير أسد الدين شيركوه، وأخوه نجم الدين أيوب وتمت بين الجانبين اتفاقية سلام على شروط وُقعت بينهما.[١]

كما تولى الشيخ عماد الدين أبو حامد محمد بن يونس بن محمد بن منعه الفقيه الشافعي المتوفى سنة ٦٠٨هـ (١٢١١م)[٢] مُهمة السفارة بين الزنكيين بالموصل والخلافة العباسية في بغداد مرات عديدة، وبين الموصل والدولة الأيوبية في دمشق، مع قيامه بمهمة التدريس في العديد من مدارس الموصل.[٣] كما شارك الإمام أبو الفتح نصر الله ابن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبدالكريم الشيباني المعروف بابن الأثير الجزري الملقب ضياء الدين المتوفى سنة ٦٣٧هـ (١٢٣٩).[٤] بمهمة السفارة بين بدر الدين لؤلؤ صاحب

---

(١) ابن القلانسي. تاريخ دمشق، ص٤٨٩-٤٩٠.

(٢) سبقت ترجمته في الفصل الأول.

(٣) ابن خلكان. وفيات الأعيان.- ج٤، ص٢٥٣-٢٥٤.

(٤) ولد نصر الله في شعبان سنة ٥٥٨هـ (١١٦٣م) بجزيرة ابن عمر، وإليها ينسب أبناء الأثير، وانتقل مع والده وأخويه (مجد الدين المبارك، وعز الدين المؤرخ) إلى الموصل في رجب سنة ٥٧٩هـ (١١٨٣م) وبها اشتغل ضياء الدين في تحصيل العلوم، وحفظ القرآن الكريم، وكثيرًا من الأحاديث النبوية، وطرفًا من اللغة والنحو، وعلم البيان، وكثيرًا من الأشعار، ثم قصد بلاد الشام سنة ٥٨٧هـ (١١٩١م) ليلتحق بخدمة السلطان صلاح الدين الأيوبي، حيث تولى الوزارة للملك الأفضل بن صلاح الدين، وتنقل ضياء الدين بين أفراد البيت الأيوبي في دمشق ومصر وحلب حتى حصل خلاف بينه وبين الملك الظاهر غازي صاحب حلب، فعاد إلى الموصل هاربًا، ومنها إلى إربل، ثم سِنجار، ثم عاد إلى الموصل وكانت وفاته ببغداد سنة ٦٣٧هـ (١٢٣٩م) (أبو شامة. ذيل الروضتين.- ص١٦٩ ؛ ابن خلكان. المصدر السابق.- ج٥، ص٣٨٩-٣٩٧ ؛ ابن الفوطي. الحوادث الجامعة.- ص١٣٦ ؛ الذهبي، العبر.- ج٣، ص٢٣١-٢٣٢).

الموصل، وبين الخلافة العباسية في بغداد، وقد ذكر ابن الفوطي أنه " ورد بغداد مرارًا في رسائل من بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل".[1]

٣ ـ تولى بعد المناصب المهمّة:

إضافة إلى ما ذُكر من مشاركة العلماء في الجهاد ضد الصليبيين، وقيام بعضهم بمهمة السفارة بين الدولة الزنكية والخلافة العباسية، أو الدول المعاصرة فقد كان لبعض العلماء مشاركات إيجابية في تولي بعض المناصب الإدارية الهامة في الدولة ومن أهمها:

القضـــاء:

كانت وظيفة القضاء تسمو على غيرها من الوظائف في الدولة، وكان للقضاة مكانة كبيرة لدى الحكام والمحكومين إذ كان القاضي يتمتع بشخصية قوية تمكّنه من التدخل في أمور الحكم بالدولة، وكان لهم أثر كبير على الحكام، فقد اعتمد الملوك الزنكيون في أجهزة الدولة القضائية على علماء ثقاة ممن اشتهروا بعلمهم الواسع وممن تؤهلهم صفاتهم الخلقية والعلمية لتسلم هذا المنصب الهام، ومن العلماء الذين اشتهروا في ميدان القضاء في العهد الزنكي:

ـ القاضـــي كمال الدين أبو الفضل محمد بن عبد الله الشهزوري المتوفى سنة ٥٧٢هـ (١١٧٦م) وكان بداية اتصاله بالملك عماد الدين زنكي حيث نال الحظوة لديه واستقل بالأمور القضائية والسياسية في دولته.[2]

كما فوّض الملك سيف الدين غازي الأول ابن عماد الدين زنكي (ت٥٤٤هـ/ ١١٤٩م) أمر القضاء في بلاد الموصل وأعمالها.[3]

---

(١) الحوادث الجامعة.- ص١٣٦.

(٢) ابن الأثير. الكامل في التاريخ.- ج٨، ص٣٦٠.

(٣) ابن خلكان. وفيات الأعيان.- ج٤، ص٢٤١.

وقد انتقل كمال الدين إلى الشام عام ٥٥٠هـ (١١٥٥م) وأصبح له الكلمة العليا في شؤون القضاء والسياسة في عهد نور الدين محمود، وقد تولى قضاء دمشق سنة ٥٥٥هـ (١١٦٠م) بعد طلب قاضي دمشق آنذاك زكي الدين أبي الحسن علي بن القُرشي إعفائه من منصبه.[١] كما أناب نور الدين محمود ولده القاضي محي الدين أبا حامد المتوفى سنة ٥٨٦هـ (١١٩٠م) في قضاء حلب، واستناب أولاد أخيه ببلاد الشام الأخرى.[٢] ويعود الفضل إلى كمال الدين في إنشاء دار العدل العليا بدمشق التي كانت بمثابة (محكمة عليا) يحاسب فيها نور الدين محمود كبار القواد والأمراء في دولته.[٣] ولم يكتف القاضي كمال الدين بمهامه القضائية، بل كان يملك نزعة متأصلة للبناء والتعمير، فأشرف بنفسه على بناء أسوار دمشق ومدارسها وبيمارستانها زمن الملك العادل نور الدين محمود.[٤] كما فوّض إليه نور الدين الإشراف على دار الضرب، وتوجيه مصارفها لبناء الأسوار وحفظ الثغور فأنجز مهمته تلك على خير وجه.[٥]

كما قام الشيخ شرف الدين بن أبي عصرُون المتوفى سنة ٥٨٥هـ (١١٨٩م) بدور شبيه بالدور الذي قام به القاضي كمال الدين الشهرزوري، وكان قد انتقل من سنجار إلى حلب سنة ٥٤٥هـ (١١٥٠م)، ثم قدم إلى دمشق لما ملكها الملك العادل نورا لدين محمود سنة ٥٤٩هـ (١١٥٤م)، ودرّس بالزاوية الغربية من الجامع الأموي، وتولى أوقاف المساجد، وتقدم عند نور الدين وبنى له المدارس بحلب وحماة وحمص وبعلبك وغيرها، وتولى القضاء بسنجار ونصيبين وحرّان وغيرها من ديار بكر، وكان إمام المذهب الشافعي في عصره.[٦]

---

(١) ابن القلانسي. تاريخ دمشق، ص٥٤٨.
(٢) ابن خلكان. وفيات الأعيان.- ج٤، ص٢٤٢.
(٣) ابن الأثير. التاريخ الباهر.- ص١٦٨.
(٤) البنداري. سنا البرق الشامي.- ق١، ص٢٢٤.
(٥) المصدر نفسه.- ق١، ص١٤٦-١٤٧.
(٦) ابن خلكان. المصدر السابق.- ج٣، ص٥٣-٥٤.

كما تولى الشيخ عماد الدين أبو حامد محمد بن يُونس بن محمد بن منعه الفقيه الشافعي المتوفى سنة ٦٠٨هـ (١٢١١م) مهمة القضاء في الموصل في فترة حكم الملك نور الدين أرسلان شاه (٥٨٩-٦٠٧هـ/١١٩٣-١٢١٠م) إضافة إلى قيامه بمهمة الخطابة في الجامع المُجاهِدِي، مع التدريس في المدرسة النُورية، وغيرها من مدارس الموصل.[١]

كتابة الإنشاء:[٢]

ضمن مشاركة العلماء في مهام الدولة الوظيفية شغل الشيخ الطبيب مُهذب الدين بن النقّاش المتوفى سنة ٥٧٤هـ (١١٧٨م) منصب كتابة الإنشاء في دولة الملك نور الدين محمود إلى جانب قيامه بمهمة الطب في البيمارستان النوري بدمشق، وكتب كثيرًا من المراسلات والكتب من نور الدين إلى سائر النواحي.[٣] كما تولى كتابة الإنشاء لدى نور الدين محمود في الديوان بدمشق العماد الأصفهاني في أواخر سنة ٥٦٢هـ (١١٦٧م) وذلك بعد استعفاء أبي اليسر شاكر ابن عبد الله المتوفى سنة ٥٨١هـ (١١٨٥م).[٤] وكان أبو اليسر كاتب الإنشاء لدى عماد الدين زنكي وابنه نور الدين محمود.[٥] كما فوّض نور الدين للعماد الأصفهاني النظر في أوقاف المدرسة النورية في دمشق والتي سُميت بعد

---

(١) المصدر نفسه.- ج٤، ص٢٥٣-٢٥٤.

(٢) ديوان الإنشاء. هو الدائرة التي تُحرر فيها الوثائق والمكاتيب الرسمية للسلطان، ولهذا يقال لصاحبها كاتب السر أيضًا (القلقشندي. صبح الأعشى.- ج٣، ص٤٩٠)

(٣) ابن أبي أصيبعة. عيون الأنباء.- ص٦٣٦.

(٤) أبو اليسر شاكر بن عبدالله بن محمد بن أبي المجد بن عبدالله بن محمد بن سليمان، كان كاتب الإنشاء للملك عماد الدين زنكي وابنه نور الدين محمود بعده، قال العماد الأصفهاني. كان كاتب الإنشاء لنور الدين محمود قبلي، فلما استعفى وقعد في بيته، توليت الإنشاء بعده، ومولده بشيزر سنة ٤٩٦هـ (١١٠٢م) (العماد الأصفهاني. خريدة القصر وجريدة العصر، قسم شعراء الشام.- ج٢، تحقيق شكري فيصل نشر المجمع العلمي العربي، وطبع المطبعة الهاشمية، دمشق ١٢٧٨هـ/١٩٥٩م، ص٣٥-٣٧؛ ياقوت. معجم الأدباء.- ج٣، ص١١٦).

(٥) العماد الأصفهاني. المصدر السابق.- ج٢، ص٣٥.

ذلك بالمدرسة العمادية نسبة إليه، في رجب سنة ٥٦٧هـ (١١٧٢م).[١] هذا إلى جانب قيامه بالتدريس بها، وفي العام التالي أصبح العماد مشرفًا على دواوين المملكة[٢] كلها إضافة إلى مهمته في ديوان الإنشاء، يقول العماد: " فجمعتُ بين المنصبين، وقسمت زماني على النصيبين، فمرّةً للكُتُب والمَناشير، وتارةً للإثبات في الدّساتير. ولم أثِق بنائب، وباشرتُ العمل بنفسي".[٣] وكان ديوان الاستيفاء[٤] بيد مُوفق الدين خالد بن محمد بن نصر القيسراني،[٥] فلما أرسله نور الدين إلى مصر لتقييم حسابها سنة ٥٦٨هـ (١١٧٣م) تولى العماد الأصفهاني هذه الوظيفة وصار مستوفي المملكة، يقول العماد: "فجمعت الإنشاء، والإشراف، والاستيفاء، ووجدت الخِدم الثلاث بكفالتي".[٦] وأصبح العماد بمناصبه الثلاث تلك المسؤول الأول في الدولة الزنكية في الشام حتى وفاة نور الدين محمود سنة ٥٦٩هـ (١١٧٤م).[٧]

---

(١) البنداري. سنا البرق الشامي، ق١، ص١١٩.

(٢) الإشراف على الدواوين. هو المراقبة وتفتيش أمور الدواوين، والمُشرف كأنه المفتش العام للحكومة. (المصدر نفسه.- ص١٢٠).

(٣) نفسه.- ص١٢٢.

(٤) يرأس ديوان الاستيفاء موظف يُلقب بالمستوفي، وهو الذي يضبط ديوان الأموال، ويُشرف على تنظيم إيرادات الدولة ومصروفاتها، وينبه على ما فيه مصلحته من استخراج أمواله ونحو ذلك (القلقشندي. صبح الأعشى.- ج٥، ص٤٦٦).

(٥) هو خالد بن محمد بن نصر بن صغير بن داغر المخزومي الخالدي الملقب موفق الدين أبو البقاء الكاتب، كان من أعيان الكتّاب في دولة نور ا لدين محمود في بلاد الشام، وكان وافر الحشمة صاحب خط جيد، وهو ابن الشاعر المشهور شرف الدين بن القيسراني المتوفى سنة ٥٤٨هـ (١١٥٤م) كانت وفاته بحلب في أيام السلطان صلاح الدين سنة ٥٨٨هـ (١١٩٢م) (ابن العديم. بغية الطلب (مخطوط)، ج ٥، ورقة ٥٣ وجه ٥٦ ظهر ؛ الذهبي، العبر، ج٣، ص ٩٧ ؛ مؤلف مجهول. إنسان العيون في مشاهير سادس القرون [مخطوط] ميكروفيلم في المكتبة المركزية بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض، رقم [١٠٠١١ف] مصور عن نسخة خزانة كتب المتحف العراقي ببغداد.- ص٩٠-٩١).

(٦) البنداري. سنا البرق الشامي.- ق١، ص١٣١.

(٧) المصدر نفسه.- ق١، ص١٥٩-١٦٠.

وقد تولى ابن الأثير مجد الدين أبو السعادات المتوفى سنة ٦٠٦هـ (١٢١٠م)[١] كتابة الإنشاء لدى الملك عز الدين مسعود بن مودود صاحب الموصل (٥٧٦-٥٨٩هـ/١١٨٠-١١٩٣م) وكتب له إلى أن توفي عز الدين مسعود، ثم اتصل مجد الدين بخدمة ابنه الملك نور الدين أرسلان شاه (٥٨٩-٦٠٧هـ/١١٩٣-١٢١٠م) وكتب له مدة حتى عرض له مرض كفّ يديه ورجليه فمنعه من الكتابة مطلقًا، وأقام في داره يتردد عليه العلماء والطلاب.[٢]

كما تولى أخوه ضياء الدين نصر الله المتوفى سنة ٦٣٧هـ (١٢٣٩م) كتابة الإنشاء لصاحب الموصل ناصر الدين محمود ابن الملك القاهر مسعود سنة ٦١٨هـ(١٢٢١م).[٣]

وهكذا كان للعلماء أثر بارز في الحياة العامة في العهد الزنكي، فلم يقتصر أثرهم على الجانب التعليمي فحسب، بل تعداه إلى المشاركة في مجالات السياسة الداخلية والخارجية للدولة، والعمل ف بالمجالات الإدارية والمناصب العليا الهامة بالإضافة إلى اعتمادهم كمستشارين للحكام في كثير من الأحيان، إضافة إلى مشاركاتهم المستمرة في تشجيع حركة التعليم بإنشاء المدارس والرُبُط والمكتبات وغيرها من دور التعليم المختلفة في العديد من المدن الزنكية.

---

(١) مجد الدين المبارك بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبدالكريم بن عبدالواحد الشيباني الجزري ثم الموصلي الشافعي المعروف بابن الأثير الجزري، ولد بجزيرة ابن عمر سنة ٥٤٤هـ (١١٤٩م) وتلقى بها دروسه الأولى، ثم انتقل إلى الموصل سنة ٥٧٩هـ (١١٨٣م) وفيها أخذت شخصيته في النضوج وأقبل على ألوان المعرفة حتى صار عالمًا فاضلاً جمع بين علم العربية والقرآن والنحو واللغة والحديث والفقه وصنف في كل ذلك تصانيف مشهورة.
كانت وفاته بالموصل في ذي الحجة سنة ٦٠٦هـ (١٢١٠م) (ترجمته في ياقوت. معجم الأدباء.- ج١٧، ص٧١-٧٧ ؛ القفطي. إنباه الرواة.- ج٣، ص٢٥٧-٢٥٩ ؛ ابن خلكان. وفيات الأعيان.- ج٤، ص١٤١-١٤٣).

(٢) ابن خلكان. وفيات الأعيان.- ج٤، ص١٤١-١٤٢.

(٣) المصدر نفسه.- ج٥، ص٣٩١.

٢ ـ فئات الطلاب ووسائل التحصيل:

كان الإقبال على طلب العلم كبيرًا في العهد الزنكي، حيث انتشرت دُوُر التعليم المختلفة في هذا العهد، من حِلق في المساجد، ومدارس وكتاتِيب، ورُبُط، وغيرها من أماكن التعليم، ولا شك أن كثرة وانتشار هذه الدُوُر بعامة والمدارس المنظمة بخاصة مؤشر إلى كثرة الإقبال على طلب العلم وازدياد طلابه في ذلك العهد.

ويمكن توزيع الطلاب في هذا العهد إلى ثلاث فئات حسب الأعمار والأجناس الفئة الأولى: طلاب المرحلة الأولى وميدان تعليمهم في الكتاتِيْب، أما الفئة الثانية: فهم من جاوزوا المرحلة الأولى، ويمكن أن يُطلق عليهم طلاب المرحلة العليا، وكان ميدان التعليم لهذه الفئة حِلق المساجد، أو قاعات المدارس، أو أي مكان عام أو خاص يلتقي فيه الطالب بأستاذه. أما الفئة الثالثة فهي بحسب الجنس، وهي مجموعة الإناث، وهي مرحلة مفتوحة تبتدئ بالكُتّاب، أو بالمعلمين الخاصين، أو بِحلقَ المساجد، وتنتهي بأن تكون لهن مشاركات فعلية في مجال التعليم في ذلك العهد.

ويمكن الحديث عن كل فئة من هذه الفئات من حيث نُظمها وأماكن وطُرق تلقيها التعليم على النحو التالي:

أ ـ طلاب المرحلة الأولى:

اهتم الحكام الزنكيون وبعض المُوسرين في الدولة الزنكية بإنشاء الكتاتِيب لتعليم صغار المسلمين القرآن الكريم، ومبادئ الدين الإسلامي، وطرفًا من العلوم الأولية البسيطة مثل: الكتابة، والحساب، وما يُستحسن من الأشعار.

وقد سبق الحديث بشيء من التفصيل عن ظروف إنشاء هذه الكتاتيب، وأنواعها،

ووظائفها،[(١)] وهنا يتطرق الحديث إلى: معرفة وضع طلاب الكتاتيب من حيث: أعمارهم، وأعدادهم، وآدابهم، ومناهجهم، وطرق تعليمهم.

كما كان الطلاب يلتحقون بهذه الكتاتيب على مختلف أعمارهم دون التقيد بسن معينة في الغالب كما هو الحال مع طلاب المرحلة الابتدائية في الوقت الحاضر - وكان الآباء يحرصون على أن يبدأ أولادهم بالتعليم في سن مبكرة ما أمكن، وقد ذكر الأهواني عن بداية تلقي الطفل للعلم، أنه لم يكن هناك سن معينة يبدأ عندها الطفل في تلقي علومه، وإنما كان الأمر متروكًا لتقدير آباء الصبيان، فإذا وجدوا الطفل بدأ في التمييز والإدراك دفعوا به الكُتّاب.[(٢)] وبداية الطفل للتمييز والإدراك لم تكن محددة بسن معينة، وإنما كانت تشمل في الغالب مرحلة ما بين السنة الخامسة والسابعة من العمر، ويختلف ذلك تبعًا لاختلاف نضج الأطفال، وتقدمهم في الفهم والتمييز.

وقد ذكر ابن العربي الذي زار بلاد الشام في بداية القرن السادس الهجري (الثاني عشر الميلادي) أن: للقوم في التعليم سيرة بديعة، وهو أن الصغير منهم إذا عقل، بعثوه إلى المكتب".[(٣)] وقد حدد ذلك ابن الجوزي المتوفى سنة ٥٩٧هـ (١٢٠١م) بقوله: " ومتى اعتدل المزاج وتكامل العقل، أوجب ذلك يقظة الصبي ... فإذا بلغ خمس سنين أخذه بحفظ العلم".[(٤)]

وقد كان الآباء يدفعون بأبنائهم إلى الكتاتيب منذ الصغر في الخامسة أو السادسة، وبعضهم في السابعة أو الثامنة من العمر، وقد قال ياقوت الحموي في ترجمته

---

(١) راجع ذلك في الفصل الثاني من هذه الدراسة.

(٢) التربية في الإسلام.- ص٤٧.

(٣) أحكام القرآن.- ج٤، ص١٨٩٥.

(٤) الحث على حفظ العلم وذكر كبار الحفّاظ، تحقيق فؤاد عبدالمنعم أحمد. الإسكندرية: دار الدعوة، ١٤٠٣هـ (١٩٨٣م).- ص٢٩.

لكمال الدين عُمر بن أحمد بن هبة الله المعروف بابن العديم المتوفى سنة ٦٦٠هـ (١٢٦١م) نقلاً عنه: " وُلدِتُ في ذي الحجة سنة ثمانٍ وثمانين وخمسمائةٍ ... فلمّا بَلغْتُ سَبْعَةَ أعْوامٍ حُمِلتُ إلى المكتَبِ، فأُقعِدتُ بين يدي المُعَلّمِ فأخَذَ يُمَثّلُ لي كما يُمثل للأطفالِ وَيُمدّ خَطًّا ويُرتبُ عليهِ ثَلاثَ سينات، فأخذت القلم، وكُنْتُ قَدْ رأيْتُهُ وَقَد كَتَبَ " بِسْم" ومَدّ مَدّتَهُ فَفَعَلْتُ كَمَا فَعَل، وَجَاء مَا كَتَبْتُهْ قَرِيبًا مِنْ خطّه".[1] ولعل ابن العديم يقصد من قوله: " فَلَمّا بَلَغْتُ سَبْعَةَ أعْوامِ حُمِلْتُ إلى المَكْتَبِ" النوع الآخر من الكتاتِيْب، والذي يجري به تعليم الخط ومبادئ الكتابة، وذلك بعد أن تعلم شيئًا من القرآن الكريم ومبادئ الدين الإسلامي، يوضح ذلك قوله: " وخَتَمْتُ القُرآن وَلي تِسعُ سِنِيَن".[2] فلعله دخل الكُتّاب الخاص بتعليم القرآن الكريم ومبادئ الدين الإسلامي قبل سن السابعة، فلما بلغ سبع سنين نقله والده إلى الكُتّاب الخاص بتعليم الخط، وهذا مما يُرجّح وجود نوعين من الكتاتيب كما أشير إليه سابقًا.[3]

ومن هنا يتضح أن التحاق الصبي بالتعليم في هذه المرحلة مشروط بنضجه العقلي والجسمي، وبداية تمييزه وإدراكه، ولما كان ذلك يتركز في الغالب فيما بين سن الخامسة والسابعة من العمر، أصبحت هذه السن أكثر ملائمة لبداية تلقي الصبي في هذه المرحلة من التعليم.

أما المدة التي كان يقضيها الطفل في الكُتّاب فهي أيضًا تختلف باختلاف استعداد الطفل ومدى قابليته للتعلم، وإمكانياته في الانتقال إلى المرحلة التعليمية التالية، ولذلك من الصعب أيضًا تحديد سن معينة يترك فيها الصبي الكتاب ويتوجه للدراسة على الأساتذة في الأماكن التعليمية الأخرى، على أن هناك بعض الإشارات التي تحدد مدة

---

(١) معجم الأدباء.- ج١٦، ص٣٨-٣٩.

(٢) ياقوت. معجم الأدباء.- ج١٦، ص٣٩.

(٣) راجع المبحث الخاص بالكتاتيب (الفصل الثاني).

الدراسة بالكُتّاب بسن البلوغ فقد أشارت بعض المصادر إلى أن الصبي إذا بلغ سن البلوغ ترك المكتب وهذه السن تتراوح مابين الثانية عشرة، والخامسة عشرة لأن القابسي يوصي معلم الكتُاب قائلاً: " وإنه لينبغي للمعلم أن يحترس بعضهم من بعض إذا كان فيهم من يخشى فساده يناهز الاحتلام".[1] وكانت تتفاوت أعداد التلاميذ بالكتاتيب تبعًا لشهرة المعلم وقدرته على التعليم وتمتعه بالصلاح والتقوى، وهذا الأمر يتركز في الكتاتيب الخاصة التي يُنشئها المعلمون أنفسهم، أما في مكاتب السبيل فإن الأمر يختلف بعض الشيء، وذلك تبعًا لتحديد حجج الوقف لأعداد الأطفال المترددين على المكتب وتبعًا للرّيع الموقوف للصرف منه على الأطفال ومعلميهم في أحيان أخرى.

أما عن أيام الدراسة في الكتاتيب فإنها غير محددة، ولكن هناك من يوصي بأن يأخذ الصبيان قسطًا من الراحة لمدة يوم أو يومين في الأسبوع، فذكر العبدري أنّ: " انصراف الصبيان واستراحتهم يومين في الجمعة لا بأس به، وكذلك انصرافهم قبل العيد بيوم أو يومين أو ثلاثة، وكذلك بعده، بل ذلك مُستحب ... فإذا استراحوا يومين في الجمعة نشطوا لباقيها".[2]

فكانت أيام التعليم في الغالب خمسة أيام ونصف يوم: السبت والأحد والاثنين والثلاثاء، والأربعاء، وصبيحة الخميس، حيث كان بقية يوم الخميس، وطوال الجمعة عطلة للراحة، بالإضافة إلى أيام عيد الفطر الثلاثة وأيام عيد الأضحى الخمسة وبعض أيام المناسبات العامة.[3]

أما من حيث منهج الدراسة في المرحلة الأولى من التعليم في العهد الزنكي فيبدو أنه لا يختلف كثيرًا عن المناهج في العصور الإسلامية السابقة، وذلك لكون القرآن الكريم

---

(١) الرسالة المفصلة.- ص٣١٤.

(٢) المدخل.- ج٢، ص٣٣١.

(٣) محمد أسعد طلس. التربية والتعليم في الإسلام.- بيروت: دار العلم للملايين، ص٧٨.

وحفظه وتعلم مبادئ الدين الإسلامي هو العامل المشترك بينهما جميعًا من ذلك ما حدده ابن سحنون المتوفى سنة ٢٥٦هـ (٨٧٠م) في منهج المرحلة الأولى في تعليم القرآن الكريم، وإعرابه، والحساب والهجاء والخط، وتعلم القراءة الحسنة، والشعر، وفقه الصلاة، وتعليم الخطابة لمن شاء.[(١)] ولم يزد القابسي المتوفى سنة ٤٠٣هـ (١٠١٢م) على ما ذكره ابن سحنون شيء.[(٢)] كما عالج ابن خلدون اللاحق لفترة البحث والمتوفى سنة ٨٠٨هـ (١٤٠٥م) بإسهاب نظام تعليم الصبية في تلك المرحلة وعقد له فصلاً مستقلاً تحت عنوان: " تعليم الولدان واختلاف مذاهب الأمصار الإسلامية في طرقه" بدأ به بالإشارة إلى أهمية تعليم القرآن للأطفال وذكر أن تعليم القرآن هو نقطة البداية، وأساس التعليم في جميع المناهج في مختلف البلدان، وذلك لأن تعليم الولدان للقرآن شعار من شعائر الدين، أخذ به أهل الملّة، ودرجوا عليه في جميع أمصارهم لما يُؤدي إليه من رسوخ الإيمان ولذلك " صار القرآن الكريم أصل التعليم الذي ينبني عليه ما يحصل بعده من الملكات".[(٣)] ويُعدّ وصف ابن خلدون لحال التعليم في هذه المرحلة مُنطبقًا على الواقع ليس فقط في الفترة التي عاش فيها، وإنما هو ينطبق أيضًا على الفترة السابقة لذلك لأن الاحتفاظ بمبادئ التعليم في هذه المرحلة كان من أخصّ مميزات التربية الإسلامية.

وإذا وقف الباحث على مناهج الدراسة في هذه المرحلة الأولية من التعليم يجد أن القرآن الكريم هو المحور الرئيسي الذي تدور حوله الدراسة في الكتاتيب، تأتي بعده

(١) أبو عبدالله محمد بن عبدالسلام سحنون سعيد التنوخي (ت ٢٥٦هـ/٨٧٠م). كتاب آداب المعلمين، تحقيق. محمود عبدالمولى.- الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، (١٩٦٩م).- ص٨٢ـ٨٦.

(٢) الرسالة المفصلة. ص٣٠٣-٣٠٦.

(٣) المقدمة.- ص٥٠٥ـ٥٠٦.

بعض المعارف المساعدة، وخاصة تعلم الهجاء والكتابة، وضبط الحروف بالشكل، ومعرفة أصول الحساب، وما يستحسن من المُراسلات والأشعار وبعض مبادئ الفقه، وعقائد أهل السنة والجماعة.

ومما يوصي به الإمام الغزالي المتوفى سنة ٥٠٥هـ (١١١٢م) أن يتعلم الطفل في الكتاتيب القرآن الكريم، وأحاديث الأخيار، وحكايات الأبرار، وأحوالهم لينغرس في نفسه حبّ الصالحين، وأن يبعد الطفل عن حفظ الأشعار التي فيها ذكر الفسق وأهله حتى لا ينغرس في قلبه بذر الفساد.[١]

ولعل أقرب المصادر للعهد الزنكي التي توضح منهج التعليم في هذه المرحلة هو: "كتاب نهاية الرتبة في طلب الحسبة" لعبدالرحمن بن نصر الشيزري المتوفى سنة ٥٨٩هـ (١١٩٣م)[٢] الذي وصف حال تعليم الصبيان في ذلك العهد، وما ينبغي للمعلم اتخاذه تجاه تعليمهم وطريقته ومن ذلك قوله: "وأول ما ينبغي للمؤدب أن يعلم الصبي السور القصار من القرآن، بعد حذقه بمعرفة الحروف وضبطها بالشكل، ويُدرّجه في ذلك حتى يألفه طبعه، ثم يُعرّفه عقائد أهل السنة والجماعة، ثم أصول الحساب، وما يُستحسن من المراسلات والأشعار دون سخيفها ومسترذلها".[٣]

ولم تقتصر الحياة التعليمية في الكتاتيب على تعليم الصبية الكتابة والقراءة وتحفيظهم القرآن فحسب، بل تعداه إلى أن يقوم المعلم بتأديب الصبيان وتعويدهم الآداب الحسنة، وقد طالب ابن سحنون معلم الكتّاب بألا يقتصر دوره على التعليم والتلقين، بل يتجاوز ذلك ليقوم بدور الأب للصبيان، فيقوم بتأديبهم وتهذيبهم

---

(١) إحياء علوم الدين.- ج٣، ص٧٠.
(٢) عقد الشيزري في هذا الكتاب بابًا كاملاً سماه. "الحسبة على مؤدبي الصبيان" وهو الباب الثامن والثلاثون.
(٣) المصدر نفسه.- ص١٠٣.

لاكتساب الخُلق والآداب الحسنة.[1] وقد شبّه الإمام الغزالي المعلم الذي يُربي الصبية ويهديهم الأخلاق الفاضلة بالرفق واللين، ويبعدهم من السقوط بالمهالك والشرور بالفلاّح الذي يقلع الشوك، ويُخرج النباتات الأجنبية من بين الزروع ليحسن نباته ويكمل ريعه.[2] فينبغي على المعلم أن يحرص على تأديب الصبية وتعويدهم الآداب الحسنة حتى ينشأوا نشأة صالحة حيث يأمر من بلغ عمره سبع سنين بالصلاة مع الجماعة، كما يأمرهم ببر الوالدين، والانقياد لأمرهما بالسمع والطاعة، والسلام عليهما عند الدخول إليها.[3] كما يقوم المعلم بمحاسبتهم عما يبدر منهم من إساءة الأدب والفُحش من الكلام، وغير ذلك من الأفعال الخارجة عن قانون الشرع، أو الإهمال في أداء الواجبات، وتكون عقوبة الصبي بالضرب ولكن مع مراعاة عدم إيذائها للطفل،[4] إذ جعلت قواعد العقوبة كما أوردها المربون منها وسيلة تعليمية وتأديبية أكثر منها وسيلة عقاب وإرهاب للصبي.

ويُحدد ابن الأخوة المتوفى سنة ٧٢٩هـ (١٣٢٨م) المنهج التعليمي والتأديبي لطلاب الكتاتيب بقوله: " وتقتصر مهمة المؤدب على تعليم الصغار السور القصار من القرآن بمعرفة الحروف وضبطها بالشكل، ويُدرجهم في ذلك، وعليه أيضًا أن يُعلمهم عقائد السنن وأصول الحساب وتجويد الخط، والصلاة في سن السابعة، ويحثهم على طاعة الوالدين، ومكارم الأخلاق، وكان يُسمح له بضرب الصبيان بعصا على الألية

(١) كتاب آداب المعلمين.- ص٧٦.

(٢) رسالة أيها الولد. تحقيق، علي محيي الدين القره داغي.- ط٢.- القاهرة: دار الاعتصام، ١٤٠٥هـ (١٩٨٥م). - ص١٢٨.

(٣) الشيزري. نهاية الرتبة.- ص١٠٣.

(٤) المصدر نفسه.- ص١٠٤، وقد حدد مكان الضرب في المواضع التي لا يخشى منها مرض ولا غائلة، كاللوايا، والأفخاذ، وأسافل الرجلين.

والأفخاذ، وأسافل الرجلين عند إساءة الأدب والفحش في الكلام والتصرفات السيئة بالآداب، إلا أنه يحظُر على المؤدب استخدام الصبيان في قضاء حوائجه وأشغاله".[1]

وقد تعددت وسائل التحصيل وأساليب التعليم في الكتاتيب على النحو الآتي:

في السنوات الأولى من هذه المرحلة يهتم المؤدب بتعليم الأطفال السور القصار من القرآن الكريم، وكانت وسيلته في ذلك أسلوب التلقين، بمعنى أن المعلم كان يقرأ، وعلى الصبي أن يُكرر ما يقرأه معلمه من فقرات إلى أن يتم حفظها، وهكذا يستمر معه، وقد أكدّ ابن جُبير اشتهار هذه الطريقة في البلاد الزنكية التي زارها بقوله: "وتعليم الصبيان للقرآن بهذه البلاد المشرقية كلها إنما هو تلقين".[2] ولم يعن المعلم في هذه المرحلة بشرح المعاني وتوضيحها لتعذر فهمها على الصبي، وكان المعلم يطلب من الأطفال عقب عودتهم من البطالة الأسبوعية بقراءة ما مضى لهم حفظه من القرآن، حتى يتأكد من تمام حفظهم له ويطمئن عليه.[3]

هذا بالنسبة لطريقة تعليم القرآن الكريم، أما بالنسبة لتعليم الكتابة، فقد اتبع المعلمون قواعد وأساليب تضمن للصبي التدرج في تعلم كتابة الحروف وضبطها بالشكل حتى يألفها طبعه، من ذلك ما ذكره ابن العديم بقوله: " فلما بلغت سبعة أعوام حُملت إلى المكتب فأقعدت بين يدي المعلم، فأخذ يمثل لي كما يمثل للأطفال، ويمد خطًا ويرتب عليه ثلاث سينات، فأخذت القلم وكنت قد رأيته وقد كتب " بسم " ومد مدته

---

(١) محمد بن محمد بن أحمد القرشي (ت٧٢٩هـ/١٣٢٨م). معالم القربة في أحكام الحسبة، تحقيق، محمد محمودشعبان، وصديق عيسى المطيعي.- القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، (١٩٧٦م).- ص١٧١.

(٢) الرحلة.- ص٢٤٥.

(٣) الشيزري. نهاية الرتبة.- ص١٠٣.

ففعلتُ كما فعل، وجاء ما كتبته قريبًا من خطه".[1] ولكن لم يكن استعمال فقرات من القرآن الكريم في تعليم الأطفال للكتابة هو القاعدة عند جميع المعلمين، بل منهم من كره ذلك تنزيهًا لكتاب الله من المحو والإثبات، فيذكر ابن جبير عند الحديث عن تعليم الصبيان في دمشق أن سور القرآن لم تُستعمل في تعليم الأطفال الكتابة، وإنما استعملت أبيات من الشعر لهذا الغرض، وأنّ تعليم القرآن والكتابة لا يقوم بهما مُدرِّس واحد، وإنما يُخصّص معلم لكل منهما على حده، فإذا فرغ الصبي من التلقين التحق بالكُتّاب الخاص بتعليم الخط، ويستصوب ابن جُبير هذه الطريقة إذ يرى فيها إتقانًا للخط لأن المعلم له لا ينشغل بغيره فهو يستفرغ جهده في تعليم الخط، فيبرع الطفل في ذلك.[2]

أما طريقة تدريس الشعر فكانت تتلخص في أن يختار المعلم للأطفال الأشعار السهلة في العبارة واللغة، كي يسهل حفظها، وفهمها، كما يراعي في اختياره ما قيل من الأشعار الحسنة والنبيلة دون السخيف والرذيل منها، وكان الطفل يقوم بتكرار هذه الأشعار حتى يتم حفظها.[3]

هذه هي أهم وسائل التحصيل وأساليب التعليم في تلك المرحلة المبدئية من التعليم، وكانت تتميّزُ بالبساطة، والتدرج في المعلومات ما أمكن، والحرص على تربية الصبية خلقيًّا إلى جانب تحصيلهم العلمي.

ب ـ طُلاّب المرحلة العليا:

يُطلق على هذه الفئة من الطلبة في بعض الأحيان لقب " الفُقَهَاء " وقد غلب إطلاق

---

(١) ياقوت. معجم الأدباء.- ج١٦، ص٣٨ ـ ٣٩.

(٢) المصدر السابق.- ص٢٤٥.

(٣) الشيزري. نهاية الرتبة.- ص ١٠٣ـ١٠٥، وقد أورد أسماء عدد من الشعراء الذين ينبغي أن يُمنع الصبيان من حفظ شيء من شعرهم.

هذا اللّقب في العهد الزنكي على طلاب المدارس.[1] ويمكن تصنيف هذا النوع من الطلبة إلى صنفين: طلبة عارضين، وآخرين منتظمين، فالصنف الأول يشمل أعدادًا كبيرة من أصحاب الحرف والعُمّال وغيرهم ممن يحضر الدروس بين حين وآخر، ولا سيما مجالس الوعظ والإملاء وحِلق التعليم العامة، غير أنهم لا يواصلون دراستهم ولا يواظبون على الحضور، وهؤلاء يمثلون أضعاف أعداد الطلاب المنتظمين، أما الصنف الآخر فهم الطلبة المنتظمون، وكانوا يقضون شطرًا كبيرًا من حياتهم في طلب العلم وحده، ولكن ذلك لا يمنع اشتغالهم بكسب الرزق، وهؤلاء هم موضع دراستنا.

ونظام التعليم في الإسلام لم يأخذ بتحديد مرحلة متوسطة بين التعليم الأولي (في الكُتّاب) والتعليم العالي، فكان طالب العلم بعد فراغه من مرحلة التعليم الأولى، أي بعد أن يُغادر الكُتّاب، يواصل دراسته في حِلَق المساجد أو فصول المدارس، ولم تكن هناك شروط معينة لقبول الطالب في الدراسة، سوى ما وضعه بعض الواقفين لبعض المدارس من ضرورة توفر قابلية التعليم والاستعدادات النفسية والعقلية فيمن يريد الالتحاق بمدارسهم.[2]

كما يُوجد اختلاف في الغالب بين أعداد الطلبة الملتحقين بالحِلَق التي تُعقد بالمساجد وبين أعدادهم في المدارس تبعًا لإمكانات تلك المدارس، وما يغله الوقف عليها، وعلى هذا الأساس اختلفت أعداد الطلاب من مدرسة لأخرى تبعًا للإمكانات المُتاحة.[3]

وإذا كانت أعداد الطلاب في حِلق المساجد غير محددة، وترتبط في الغالب مع شهرة الشيخ الذي يجلس للتدريس فيها دون التقيد بعدد معين من قِبل جهات مسؤولة فإن هذا

---

(١) ابن الأثير. التاريخ الباهر.- ص٢٠١ ؛ ابن شداد، الأعلاق (قسم حلب).- ص١١٠ ؛ النعيمي. الدارس.- جـ١، ص٥٢٣.

(٢) السبكي. معيد النعم.- ص ٨٥ ـ ٨٦.

(٣) النعيمي. الدارس.- جـ١، ص١٧٩، ٢٩٠.

الوضع يختلف بالنسبة للمدارس، إذ كان يجلس أمام المدرس فيها عدد معين من الطلاب لا يصح تجاوزه في الغالب، ثم إن هذا العدد قليل جدًا إذا قيس بأعداد طلاب الحِلَق في المساجد، وكان مما جرت عليه العادة في المدارس أن يعين منشئ المدرسة أو واقفها مدرسًا لها، ويُحدد في الوقت نفسه، عدد الطلاب الذين يُسمح لهم الالتحاق بها كما حصل في المدرسة النُورية بالموصل حيث حَدَد واقفها الملك نور الدين أرسلان شاه عدد الطلاب بستين طالبًا من فقهاء الشافعية،[1] وكذلك في المدرسة العَصْرُونِية بدمشق، والتي شَرَط فيها واقفها ألا يزيد عدد طلبتها على عشرين طالبًا من الشافعية وغيرهم.[2]

إن المدة التي يقضيها الطالب في هذه المرحلة لم تكن محددة، لأن مناهج الدراسة نفسها لم تكن محددة أيضًا، ثم إن الطالب كانت لديه حرية اختيار الأستاذ وتحديد مدة الاشتغال عليه، والفن الذي ينوي التخصص فيه وقد حرص العلماء على حث طالب العلم على إنعام النظر في اختيار المعلم الذي يأخذ عنه تعليمه، فيُوصي ابن جماعة طالب العلم أن يستخير الله فيمن يأخذ عنه تعليمه، وليحرص على من كملت قدرته العلمية، وعُرفت عفّته، ومن عرف عنه العلم الواسع، واشتهر بالقدرة على التعليم والتفهيم.[3] كما حذّر المربون من أن يندفع طالب العلم خلف المشهورين، ومن ذاع صيتهم دون النظر في صلاحية المعلم وتقواه وخشيته لربه لأن الحكمة ضالة المؤمن يلتقطها حيث وجدها ويغتنمها حيث ظَفَر بها.[4]

أما من جهة اختيار الطالب للعلم الذي يتخصص به، فقد عرف المسلمون فكرة

---

(١) ابن الأثير. التاريخ الباهر.- ٢٠١.
(٢) النعيمي. المصدر السابق.- جـ١، ص٣٩٩.
(٣) تذكرة السامع والمتكلم.- ص٨٥.
(٤) المصدر نفسه.- ص٨٦.

توجيه الطلاب حسب مواهبهم، وقدراتهم الذهنية منذ فترة مبكرة، وكان عملية التوجيه هذه تبدأ بعد أن يجتاز الطالب مرحلة التعليم الأولي، وبعد أن يتخرج من الكتَاتِيب، وقد طَالبَ حاجي خليفة طَالِبُ العلم أن: " لا يدع فنًا من فنون العلم إلا وينظر فيه نظرًا يطلع به على غايته ومقصده وطريقته وبعد المطالعة في الجميع أو الأكثر إجمالاً إن مال طبعه إلى فن عليه أن يقصده ولا يتكلف غيره فليس كل الناس يصلحون للتعلم ولا كل من يصلح لتعلم علم يصلح لسائر العلوم بل كل ميسر لما خلق له".(١)

كما انه ينبغي للطالب أن يستثير أستاذه في اختيار أحد العلوم، وأن يستفيد من خبرته في التحصيل، وقد أكّد ذلك الزرنوجي بقوله: " وينبغي لطالب العلم ألا يختار العلم بنفسه، بل يفوض أمره إلى الأستاذ، فإن الأستاذ قد حصل له التجارب في ذلك فكان أعرف ما ينبغي لكل واحد"،(٢) فإذا وجه الطالب أو التحق بشعبة دون توجيه، ورأى المدرس في هذه الحالة أنه ينبغي لهذا الطالب أن يغير تخصصه وأن يلتحق بتخصص آخر. وقد ذكر ابن جماعة أن من واجبات المدرس تجاه طالب العلم أنه: " إذا عَلِمَ أو غلب على ظنه أنه لا يفلح في فنٍ أشار عليه بتركه والانتقال إلى غيره مما يرجى فيه فلاحه"،(٣) ولم تكن الظروف مهيّأة لجميع الطلاب لمواصلة دراستهم بحيث يصبح الطالب شيخًا له حلقة أو مدرسًا في مدرسة، فقد كان منهم من يضطرّ إلى التوقف في منتصف الطريق، ومنهم من يكتفي بتعلم الكتابة والقراءة.

وكان طلاب العلم في هذه المرحلة يحصلون على مُرتبات ونفقات تحصل في الغالب

---

(١) كشف الظنون.- ج١/ ٤٦.

(٢) الزرنوجي، برهان الدين الزرنوجي (من علماء القرن السادس الهجري/ الثالث عشر الميلادي). تعليم المتعلم طريق التعليم، تحقيق مصطفى عاشور.- القاهرة: مكتبة القرآن، ١٤٠٦هـ (١٩٨٦م).- ص٦٣.

(٣) تذكرة السامع والمتكلم.- ص٥٧.

من موارد الوقت المخصص للحلقة أو المدرسة، ويتفاوت مقدار هذه المُخصصات من مدرسة لأخرى تبعًا لغنى الواقف عليها، أو تكاثر أوقافها ونمائها وقد اشتهرت بعض مدارس العهد الزنكي بوفرة ما يناله منسوبوها من مدرسين وطلاب من الأموال، والمأكولات والملابس، والهدايا في المناسبات، كما كانت عليه المدرسة العُزِيّة بالموصل،[1] والحَلاّوِيّة بحلب،[2] والنُورِيّة الكبرى بدمشق.[3] كما ذكر النعيمي أن المدرسة الأمينية بدمشق كانت تسمى "حِقُ الذهب" لكثرة أوقافها.[4] وغالبًا ما يزدحم الطلبة على مثل هذه المدارس لغنى مخصصاتها، كما أن كثيرًا من الطلبة الذين يعتمدون في إعاشاتهم على تلك المخصصات يضطرون إلى ترك المدرسة في حالة تأثر وقفها ـ إذا كان زراعيًا ـ بأحوال الموسم من الآفات الزراعية.[5]

كما حرص واقفو المدارس في العهد الزنكي على توفير كافة احتياجات الطلبة الدارسين فيها، وبالأخص المسكن الملائم لهم كي يجد الطلبة الغُرباء، والفُقراء المناخ المناسب لتلقي العلم، فكان من مكملات المدارس إنشاء مرافق تُلحق بها تخصّص لسكنى الطلبة الغرباء والفقراء، وقد حدثنا الرحالة الأندلسي ابن جُبير عما شاهده في

---

(١) تُنسب هذه المدرسة للملك عز الدين مسعود بن قطب الدين مودود المتوفى سنة ٥٨٩هـ (١١٩٣م) (ابن الأثير. التاريخ الباهر.- ص١٨٩).

(٢) ذكر ابن شداد أن هذه المدرسة من أعظم المدارس صيتًا وأكثرها طلبةً، وأغزرها جامكيّة (أي رواتب وجرايات) (الأعلاق الخطيرة (قسم حلب).- ص١١٠).

(٣) عبدالقادر بدران (١٣٤٦هـ/١٩٢٧م). منادمة الأطلال ومسامرة الخيال: الآثار الدمشقية والمعاهد العلمية، أشرف على نشره زهير الشاويش.- ط٢.- بيروت: المكتب الإسلامي، ١٤٠٥هـ (١٩٨٥م).-ص٢١٢ـ٢١٣، وقد أورد النص المكتوب لوقف المدرسة النورية الكبرى بدمشق، ومنه يتبين لنا غنى أوقاف هذه المدرسة.

(٤) النعيمي. الدارس.- جـ١، ص١٧٩.

(٥) المصدر نفسه.- جـ١، ص٢٩٠.

دمشق من التسهيلات المُغرية لطلاب العلم، ومنها هذه المرافق فقال: " ومرافق الغُرباء بهذه البلدة أكثر من أن يأخذها الإحصاء، ولا سيما لحفّاظ كتاب الله عز وجل، والمنتمين للطلب ... وهذه البلاد المشرقية كلها على هذا الرسم، لكن الاحتفال بهذه البلدة أكثر والاتساع أوجد. فمن شاء الفلاح من نشأة مغربنا فليرحّل إلى هذه البلاد ويتغرب في طلب العلم فيجد الأمور المُعينات كثيرة، فأولها فراغ البال من أمر المعيشة، وهو أكبر الأعوان وأهمّها".[1] وتختلف المساكن في جودتها من مدرسة لأخرى، وقد اشتهرت بعض المدارس بجودة مساكنها، وشهدت إقبالاً كبيرًا لهذا السبب كما في المدرسة الحلاّويّة بحلب.[2]

وكانت هناك تنظيمات وآداب داخلية تتعلق بسكنى المدارس، طالب المربون من يسكنها الالتزام بها، وقد ذُكرت تلك الآداب في مناسبة سابقة.[3]

وقد حرص المربون في العهد الزنكي وبعده أن يسدوا الوصايا والتوجيهات التربوية للطلبة أثناء تلقيهم العلم، وكان من أهم تلك الوصايا والتوجيهات مايأتي:

١- أن يخلص الطالب نيته في طلب العلم وذلك بأن يقصد بعلمه وجه الله تعالى، والعمل بما تعلم، وأن يحذر أن يكون هدفه الأصلي من علمه طلب الرئاسة والمال والجاه.[4]

٢- أن يحرص الطالب على وقته بأن يُبادر باغتنام فرصة الشباب لاكتساب العلم، وأن يعلم بأن كل ساعة تمضي من عمره لا بدل لها ولا عوض، لذلك يجب على طالب العلم أن يقلل من الانشغال عن الدراسة قدر الإمكان.[5]

---

(١) الرحلة.- ص٢٥٨.

(٢) المصدر نفسه.- ص٢٢٧-٢٢٨.

(٣) راجع المبحث الخاصّ بالمدارس (الفصل الثاني).

(٤) ابن جماعة. تذكرة السامع والمتكلم.- ص٦٨.

(٥) المصدر نفسه.- ص٧٠.

٣- كما ينبغي لطالب العلم أن يصبر ويثبت على أستاذ وعلى كتاب، حتى لا يتركه أبتر، وعلى فنٍ حتى لا يشتغل بفن آخر قبل أن يُتقن الأول، وعلى بلدٍ، حتى لا ينتقل إلى بلد آخر من غير ضرورة، فإذ ذلك كله كما يقال الزرنوجي، يُفرق الأمور، ويُشغل القلب، ويُضيع الأوقات ويؤذي المعلم.[١]

٤- كما طالب ابن جماعة بضرورة التزام الطالب بالورع في جميع شؤونه، وأن يتحرى الحلال في طعامه وشرابه ولباسه ومسكنه، وفي جميع ما يحتاج إليه ... وذلك ليستنير قلبه ويصلح لقبول العلم ونوره والنفع به.[٢]

وفيما يتصل بالعلاقة بين الطالب وأستاذه، فإن هناك جملة آداب كَفَلت للمدرس حق الاحترام والطاعة من طلابه، إذ كان على الطالب أن يُوفيه تلك الحقوق كاملة من غير نقص، ويمكن إيجازها في الأمور الآتية:

١- أن ينقاد الطالب لشيخه، ولا يخرج عن رأيه وتدبيره، بل يكون معه، كالمريض مع الطبيب الماهر، فيشاوره فيما يطلبه، ويتحرى رضاه فيما يقصده.[٣]

٢- أن يشكر شيخه على توقيفه على ما فيه فضيلة، وعلى توبيخه على ما فيه نقيصة، أو على كسل يعتريه، وأن يصبر إذا جافاه شيخه ويبادر بالاعتذار له.[٤]

٣- ومن آداب الطالب مع أستاذه أيضًا أنه إذا دخل عليه أن يكون كامل الهيئة متطهر البدن والثياب، ويستأذنه في الدخول، وكذلك في الانصراف وأن يكون دخوله لقاعة الدرس قبل حضور المدرس.[٥]

---

(١) تعليم المتعلم، ص٤٩.
(٢) المصدر السابق.- ص٧٥.
(٣) الزرنوجي. المصدر السابق.- ص٤٦-٤٧، ابن جماعة. المصدر السابق.- ص٨٧.
(٤) ابن جماعة. المصدر السابق.- ص٩٢-٩٣.
(٥) ابن جماعة. تذكرة السامع والمتكلم.- ص٩٥.

٤- أن يجلس بين يدي أستاذه بأدب مصغيًا إليه بانتباه، وألا يتشاغل أثناء الدرس، ولا يكثر حركة يديه، ولا رجليه، ولا يعبث بشيء، أو يكثر الكلام بغير حاجة إلى غير ذلك من الأخلاق الذميمة.[1]

٥- كما يلزم على الطالب أن يُحسن مخاطبة شيخه، وألا يقاطعه، أو يخالفه، وأن يتلطف في سؤاله، وأن يحذر من تكرار السؤال، وألاّ يسبق الشيخ إلى شرح مسألة أو جواب سؤال منه أو من غيره.[2]

٦- وإذا ناول الشيخ شيئًا ناوله باليمين، وإذا ناوله الشيخ شيئًا تناوله باليمين، وإذا ناول الشيخ كتابًا ناوله إياه مهيئًا لفتحه والقراءة فيه.[3]

٧- وينبغي للطالب أن يدعو لشيخه مدة حياته ويرعى ذريته وأقاربه، بعد وفاته، حيث كان احترام الطالب لأستاذه يلازمه بعد وفاته فيعتمد زيارة قبره، والاستغفار له ، والصدقة عنه.[4] إلى غير ذلك من الواجبات التي كفلت للأستاذ حق الاحترام والتقدير من طلبته حتى تدوم العلاقات حسنة بين ركني التعليم المدرس والطالب على الحب والمودة والتقدير من كلا الجانبين لتكتمل الفائدة.

أما وسائل التحصيل في هذه المرحلة فإنه بالإمكان تركيزها في ثلاثة أساليب هامة هي: الإلقاء، والإملاء، والمناقشة والحوار، وهي تتفاوت فيما بينها من حيث الطريقة والأهمية كالآتي:

الإلقاء: وهي تشبه إلى حد كبير طريقة المحاضرات المتبعة في جامعاتنا، بمعنى أن المدرس يُعد لموضوع معين، فيجلس في مكان بارز لجميع الحاضرين ويأخذ بإلقاء درسه

---

(١) الزرنوجي. تعليم المتعلم.- ص٦٣-٦٤ ؛ ابن جماعة. المصدر السابق.- ص٩٨-٩٩.
(٢) ابن جماعة. المصدر السابق.- ص١٠١-١٠٢.
(٣) المصدر نفسه.- ١٠٨.
(٤) نفسه.- ص٩٠.

بصوت واضح شارحًا ما خفي من كلامه.[1] وقد أوضح ابن جماعة الآداب والخطوات التي يجب أن يلتزم بها من أراد اتباع هذه الطريقة ومن أهمها:

أن يجلس المُدرس مستقبلاً القبلة في مكان بارز لجميع الحاضرين، ويلتفت إليهم بحسب الحاجة، وأن يفتتح درسه بقراءة شيء من كتاب الله تعالى، ثم يستعيذ بالله من الشيطان الرجيم، ويُسمى الله تعالى، ويحمده، ويصلي على النبي ﷺ وعلى آله وصحبه أجمعين، ويترضى على أئمة المسلمين، ومشايخه، ويدعو لنفسه وللحاضرين ولوالديهم أجمعين، وعن واقف مكانة إن كان ذلك في مدرسة ونحوها جزاءًا لحسن فعله، وأن يتبع شروط واقف المكان، ويجب أن تكون قراءاته واضحة ما أمكن، يقف في مواضع الوقف، ويشرح ما أبهم على الطلاب فإذا فرغ الشيخ من الدرس فلا بأس أن يطرح بعض الأسئلة التي تتعلق بدرسه على طلبته ليتحقق منها فهمهم وضبطهم لما شرح لهم.[2]

كما يأمر المدرس طلبته في بعض الأوقات بإعادة محفوظاتهم لتثبيت المادة العلمية في أذهانهم وأن يُثني على من رآه حافظًا، وأن يحث المقصر على مواصلة جهده لتحسين وضعه.[3]

وعند ختام الدرس يجب أن يُشعر المدرس طلبته بذلك كقوله: " وهذا آخره" أو "ما بعده يأتي إن شاء الله تعالى" ونحو ذلك وليكون قوله: " والله أعلم" خاتمة لدرسه.[4]

---

(١) ابن جماعة. تذكرة السامع والمتكلم.- ص٣٢-٣٣.
(٢) المصدر نفسه.- ص٣٥، ٣٢، ٣٨، ٥٣.
(٣) نفسه.- ص٥٤.
(٤) نفسه.- ص٤٤ ـ ٤٥.

كما يُفضّل أن يمكث المدرس قليلاً بعد قيام طلبته، وأن يُمكنهم من الخروج من قاعة الدرس لئلا يزاحمهم أو يُزاحموه في الخروج وإن كان لدى أحد الطلبة سؤالاً تمكن من سؤاله، ويستحب إذا قام أن يدعو بما ورد به الحديث " سبحانك اللهم وبحمدك لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك".[١] ويبدو أن هذه الطريقة كانت سائدة في تدريس العلوم الشرعية وربما في دروس اللغة العربية وهو أسلوب يجمع بين طريقة الإلقاء والتسميع، وطريقة المناقشة، وهي تؤكد على أن أسلوب التحصيل في هذا العهد كان قائمًا على الفهم والحفظ.

٢ ـ **طريقة الإملاء:** هذه الطريقة عدّها أغلب العلماء أجود أساليب التعليم وهي طريقة قديمة مارسها المحدثون منذ فترة لاحقة للعهد الزنكي، وكانت حِلق الإملاء تُعقد في مجالس حاشدة، يجتمع فيها أعداد كبيرة من الطلبة، وعلى رأسهم الشيخ، الذي يُملي عليهم من ذاكرته عادة، وربما أملأ عليهم من الكتب وعندما تكون المجالس كبيرة العدد يُستعان بالمستملين، الذين يمكن أن يكونوا من المعيدين، والذين تتركز مهمتهم على إعادة ما يلقيه الأستاذ ليسمعه البعيدون عنه، وقد يتعدد المستملون حسب كثرة عدد الحاضرين، وربما تضاءل عدد الذين يكتبون الإملاء حتى يصل إلى شخص واحد فيُملي واحد على الآخر، كما عرف عن بعض العلماء أنهم كانوا يُحددون يومًا واحدًا في الأسبوع للإملاء، وفي الأيام الأخرى يقرأ الطلبة ما كتبوه ويناقشهم فيه.[٢]

---

(١) نفسه.- ص٤٥.

(٢) السمعاني. أدب الإملاء والاستملاء.- بيروت: ١٤٠١هـ (١٩٨١م).- ص١٥ـ٢٤.

ومن المعروف أن كُتب الأمالي شائعة في الأدب العربي، ويكفي الإشارة إلى أمالي القَالِي في اللغة،[١] وأمالي الزجّاج في النحو،[٢] وأمالي ابن الشجري في الأدب،[٣] والأمالي الخمسمائة للسمعاني،[٤] وأمالي ابن عساكِر في الحديث.[٥]

ويبدوا أن الأصل في شيوع تلك الطريقة هو ندرة الكتب، ولكن الحاجة إليها بدأت تقل تدريجيًا وتتناقص مع انتشار الكتب، ورواج صناعة الورق.

٣ـ طريقة المناقشة والحوار:

وهي طريقة تبدأ بطرح سؤال من جانب الطالب على أستاذه، ثم يبدأ الأستاذ بالإجابة على هذا السؤال مبينًا كافة جوانبه ونواحيه، وما يتعلق به، أو أن الأستاذ يفترض سؤالاً كما لو كان موجهًا إليه، ويعرضه على طلبته، ثم يبدأ بالإجابة عليه، وقد تتحلل الأسئلة طرق التعليم الأخرى، إلا أن طريقة المناقشة تتألف من الأسئلة بصورة غالبة، ولا سيما المناقشة التي يُديرها المعلم،[٦] وقد اهتم العلماء بالمناظرة فيما

---

(١) هو الشيخ أبو علي إسماعيل بن القاسم اللغوي المتوفى سنة ٣٥٦هـ (١٩٦٧م) ألّفه بقرطبة بعد سنة ٣٣٠هـ (٩٤١م) (حاجي خليفة، كشف الظنون.- ج١/١٦٥).

(٢) هو أبو إسحاق إبراهيم بن محمد النحوي المتوفى سنة ٣١٢هـ أو ٣١٦هـ (٩٢٤م ـ أو ٩٣٧م) وهي ثلاث الكبرى والوسطى والصغرى (المصدر نفسه.- جـ١/١٦٤).

(٣) هو الشريف أبو السعادات هبة الله بن علي المتوفى سنة ٥٤٢هـ (١١٤٨م) وقد أملاه في أربعة وثمانين مجلسًا (ابن خلكان. وفيات الأعيان.- جـ٦، ص٤٥).

(٤) للإمام أبي سعد عبدالكريم بن محمد السمعاني المروزي الشافعي صاحب كتاب الأنساب السابق ذكره توفي سنة ٥٦٢هـ (١١٦٦م) (حاجي خليفة. كشف الظنون.- ج١، ص١٦١ ـ ١٦٢).

(٥) للحافظ الكبير علي بن الحسن بن هبة الله الدمشقي المتوفى سنة ٥٧١هـ (١١٧٦م) صاحب التاريخ الكبير، (المصدر السابق.- ج١، ص١٦٢)، ولعله أملاها في دار الحديث النُورِيّة بدمشق.

(٦) محمد غنيمة. تاريخ الجامعات الإسلامية الكبرى.- ص٢٠١ ـ ٢٠٢.

بينهم، وكانت المناظرة شائعة في كثير من دُوُر التعليم، وبخاصة في مجالس العلم في القصور كما كان عليه مجلس الملك نور الدين أرسلان شاه بالموصل (٥٨٩-٦٠٧هـ/ ١١٩٣-١٢١٠م) حيث تجري فيه الكثير من المُناقشات والمناظرات، وكان يعتمد على الشيخ عماد الدين بن يُونس المتوفى سنة ٦٠٨هـ (١٢١١م) في المشاركة بما يدور في مجلسه من مُناظرات،[1] وفي حوانيت الوراقين، حيث كانت تعقد الكثير من مجالس المناظرة كما كان يقوم به ياقوت الحموي المتوفى سنة ٦٢٦هـ (١٢٢٨م) في البلاد التي يمرّ بها.[2]

ولهذه الطريقة أثر واضح في شحذ الذهن، وتقوية الحجّة، والتمرن على سرعة التعبير وتعويد المناظرين الثقة بالنفس، والقدرة على الارتجال، ولهذه الأسباب عني بها المسلمون عناية كبيرة وعدّوها إحدى طرق التعليم، وأشاروا إليها في كثير من كتبهم.[3]

ج - تعليم الإناث:

الواقع أن الأخبار المتعلقة بنصيب الإناث في التعليم في العهد الزنكي مقتضبة وقليلة يشوبها الغموض وعدم الوضوح في غالب الأحيان، وكلّ ما وجد عن هذا الموضوع استقي من بعض الفقرات الواردة في تراجم شهيرات النساء، أو في تراجم بعض العلماء الذين لهم صِلة بهذه القضية.

وقد بلغ اهتمام المرأة المسلمة بالدراسات الشرعية درجة كبيرة لتتعرف على تعاليم الدين الإسلامي الصحيح لتطبيقه عمليًّا، وكانت دراسة الحديث الشريف تأخذ القسط الأوفى من هذا الاهتمام حيث بلغ كثير من النساء بهذا العلم درجة عالية، ونافسن فيه

---

(١) ابن خلكان. المصدر السابق.- جـ٤، ص٢٥٤.

(٢) المصدر نفسه.- جـ٦، ص١٢٨.

(٣) محمد عطية الأبراشي. التربية الإسلامية، وفلاسفتها.- ط٢.- القاهرة: مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، ١٣٨٩هـ (١٩٦٩م)، ص٢٠٩.

كبار الحفّاظ والمحدثين، وكنّ مثلاً رائعًا للأمانة والعدالة. وقد أشارت كتب التراجم والطبقات إلى النشاط العلمي الملموس لهذه الفئة في العهد الزنكي حيث ذكرت تلك المصادر أسماء العديد من المقرئات، والمحدثات والفقيهات، والأديبات، والنحويات، إلى غير ذلك من العالمات بالعلوم الأساسية الأخرى، كما دأب الكثيرات منهنّ على التنقل بين الأقاليم الإسلامية مع محارمهن طلبًا للعلم على أكابر العلماء والمحدثين وقد حصلنّ على إجازات علمية من كبار مشايخ العصر في مختلف المدن.(١)

وحسبنا دليل على نشاط المرأة في هذا الميدان أن الذين ترجموا لأبن عساكر المتوفى سنة ٥٧١هـ (١١٧٦م) أجمعوا على أنه أخذ العلم عن بضع وثمانين امرأة.(٢)

وهذه الإشارة تدل على كثرة النساء المشتغلات بالعلم في ذلك العهد، بحيث أن عالمًا واحد من علماء العصر سمع مما يزيد على ثمانين امرأة، هذا فضلاً عن كثرة عدد النساء اللاتي ترجم لهن ابن عساكر في تاريخه.(٣)

ومن خلال تراجم ابن عساكر لمعاصريه أو سرده حديثًا من الأحاديث الشريفة، نراه كثيرًا ما يُردد عبارة: " أخْبَرتنا فلانة" أو " سَمعنَا من فلانة". كما ذكر ابن خلكان

(١) من ذلك ما يرويه ابن عساكر في ترجمته لفاطمة بنت سعد الخير بن محمد بن سهل الأنصاري الأندلسي من أنها وُلدت بالبحرين، ورحل بها أبوها إلى أصبهان، فسمعت بها، قدم بها بغداد، فسمّعها من جماعة من كبار العلماء، ثم قدمت دمشق، مع زوجها علي بن نجا الحنبلي، وسمع منها بعض طلبة الحديث (تاريخ مدينة دمشق [تراجم النساء] تحقيق سكينة الشهابي.- ط٣.- دمشق، ١٤٠٣هـ /١٩٨٣م، ص٢٨٧).

(٢) ياقوت. معجم الأدباء.- ج١٣، ص٧٦ ؛ الذهبي. سير أعلام النبلاء.- ج٢، تحقيق شعيب الأرنؤوط ومحمد نعيم العرقوسي.- بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٤٠٥هـ (١٩٨٥م).- ص٥٥٦ ؛ السبكي. طبقات الشافعية.- جـ٧، ص٢١٦.

(٣) ترجم ابن عساكر في تاريخه لمائة وست وتسعين امرأة من النساء الشهيرات.

المتوفى سنة ٦٨١هـ (١٢٨٢م) أن له إجازة من العالمة زينب بيت عبدالرحمن الشّعرِي[١] المتوفاة سنة ٦١٥هـ (١٢١٨م).[٢]

ولكنه على الرغم من وجود مثل هذه الدلائل على انتشار التعليم بين الإناث في ذلك العهد، فإنه لم ترد أية إشارة في المصادر التي اعتمد عليها البحث إلى وجود أماكن متخصصة لتعليم الإناث، أو قاعات دراسية ملحقة بمدارس الذكور أو غيرها من أماكن التعليم، وكل ما عُرف عن الدور الخاصة بهنّ ماسبق ذكره[٣] من تخصيص بعض الخوانِقَ والرُبُط لنزول بعض النسوة الراغبات في الانقطاع للعبادة، حيث كنّ يقمن فيها، ويتلقين فيها دروسًا في الوعظ الديني، كما في خانقاه نور الدين محمود بحلب،[٤] ورباط عذراء خاتون في دمشق،[٥] وغيرها من أماكن إقامة النساء، وانقطاعهن للعبادة، إلا أنه يصعب عدّها مراكز تخصصية لتلقي العلم كما كانت عليه الحال في المدارس، ولعلها إلى دور الكفالة والخدمة الاجتماعية الحديثة أقرب، كما أن الالتحاق بتلك الأماكن لم يكن عامًا للنساء، وإنما كان مقصورًا على بعض النساء ذوات الظروف الاجتماعية الخاصة.

وهنا يتبادر إلى الذهن سؤال مهم في هذه القضية هو: أين كانت تتعلم المرأة في ذلك العهد لتتفقه وتصل إلى مرتبة العلماء، بل ويصبح كثير منهنّ شيخات لكثير من العلماء؟.

---

(١) أم المُؤيد، زينب ـ وتدعى حُرّة أيضًا ـ بنت أبي القاسم عبدالرحمن بن الحسن الجُرجاني الأصل النيسابُوري الدار المعروف بالشعري، كانت عالمة، لها إجازات من جماعة من أعيان العلماء تُوفيت بنيسابور سنة ٦١٥هـ (١٢١٨م) (ابن خلكان. وفيات الأعيان.- جـ٢، ص ٣٤٤ـ٣٤٥).

(٢) المصدر نفسه.- جـ٢، ص٣٤٤.

(٣) راجع المبحث الخاصّ بالخوانق والربط في الفصل الثاني.

(٤) ابن شداد. الأعلاق الخطيرة (قسم حلب).- ص٩٥.

(٥) المصدر نفسه.- (قسم دمشق).- ص١٩٦.

ويبدو من خلال بعض الإشارات التي ذكرها ابن عساكر في تاريخه الكبير أن المنزل كان المدرسة الأولى التي تتلقى فيها المرأة علومها، ويلاحظ على النساء اللاتي اشتهرن بالعلم في ذلك العهد أنهنّ نشأن في بيوت العلماء، وأنهنّ درسن على آبائهن أو أحد ذويهن من أولي العلم، أو أنهن كنّ يستفدن من الدروس التي كانت تعقد في بيوتهن لتعليم الطلاب حيث كنّ يستمعن إلى ما كان يُلقى في منازلهن من دروس، وهو ما سبق أن أطلق عليه " التعليم داخل منازل العلماء ".[1] فابن عساكر عندما يُترجم لأم أولاده - وابنة خالته - عائشة بنت علي بن الخضر بن عبد الله السّلمِيّة المتوفاة سنة ٥٦٤هـ (١١٦٨م) يقول عنها: " أسمعتها الحديث من فاطمة بنت علي بن الحسين بن جدا العُكبرِيّة في دارنا، وسمع منها أولادها في دارها".[2] وفي ترجمة فاطمة بنت سهل بن بشر ابن أحمد الأسفرائيني المدعوة سِتُّ العجم، والمعروفة بالعالمة الصغيرة يقول ابن عساكر" " سمعت أباها أبا الفرج".[3] وهذا النوع من التعلم - أعني به داخل المنازل - إن تيسر لبعض الإناث، فإنه لا يتيسر للجمهرة العظمى منهن وهنا يبرز سؤال آخر: إذا لم تكن المرأة قد شبّت في بيت علم، أين كانت تتعلم ؟ وللإجابة على ذلك يمكن القول: إنه إذا كان أهل المرأة مقتدرين ويرغبون في تعليمها فإنهم كانوا يهيئون لها فرصة تلقي العلم على بعض علماء العصر، من ذلك ما ذكره ابن عساكر في ترجمته لزُمرّد خاتُون بنت جاولي بن عبد الله المتوفاة سنة ٥٥٧هـ (١١٦١م) من أنها: " سمِعت الحديث من الفقيهين أبي الحسن بن قُبيس، وأبي الفتح نصر الله بن محمد ... وقرأت القرآن على أبي محمد ابن طاوُس، وأبي بكر القُرْطُبي ".[4]

---

(١) راجع المبحث الخاصّ بذلك في الفصل الثاني.
(٢) تاريخ مدينة دمشق (تراجم النساء).- ص٢٢١.
(٣) المصدر نفسه.- ص٢٨٨.
(٤) نفسه.- ص١١٢.

أما إذا لم يكن أهل المرأة من ذوي القدرة على تهيئة معلمين خصوصيين لها، فإنه يبدو أن أبواب المساجد كانت مفتوحة لمن أراد أن يتلقى تعليمه من النساء حيث كنّ يترددن لحضور الحِلق التي كانت تعقد فيها في أماكن مخصصة لهنّ، ومعزولة عن أماكن الرجال حتى لا يكون هناك سبيل للاختلاط الأمر الذي يمكن معه القول: بأن ما ذكره بعض الباحثين[1] من أن حضور النساء لمجالس العلم في المساجد في تلك الفترة، كان يتم جنبًا إلى جنب مع الرجال، وأن هذا الأمر كان مألوفًا في كافة المجتمعات الإسلامية في العصور الوسطى، أمر مخالف للحقيقة. لأن الأصل في المرأة المسلمة الالتزام التام بالحجاب الإسلامي الكامل.

ولم يكن للمرأة الحق في التعلم فقط بل كان لها أيضًا الحق في نشر التعليم وقد شاركت المرأة في ذلك، وإن لم تتسلم وظيفة التدريس في المدارس التخصصية بالشكل الذي نراه اليوم، فقد أشار ابن عساكر لمثل هذه المشاركة في ترجمته لفاطمة بنت سهل بن بِشر المدعوة سِتُ العجم من أنها: "كانت تعِظُ النساء في المساجد".[2]

وممن اشتهر من النساء بالتدريس في هذا العهد: العالمة فاطمة الفقيهة[3] المعاصرة

(١) ممن قال بهذا الرأي. محمد غُنيمة. تاريخ الجامعات الإسلامية الكبرى.- ص٣٠٣.

(٢) تاريخ مدينة دمشق (تراجم النساء)، ص٢٨٨.

(٣) فاطمة ابنة علاء الدين محمد بن أحمد السمرقندي صاحب تُحفة الفقهاء، وهي زوجة الإمام علاء الدين الكاساني صاحب البدائع، ومُدرس الحلاوية بحلب، والمتوفى سنة ٥٨٧هـ (١١٩١م) وفاطمة الفقيهة عالمة مُحدثة ذات خط جميل، أخذت تعليمها عن جملة من الشيوخ، والفقهاء، كان منهم والدها علاء الدين السمرقندي وأخذ عنها كثيرون، وكان لها حلقة للتدريس في حلب، وكانت من الزهد والورع على جانب عظيم، ألّفت مؤلفات عديدة في الفقه والحديث وانتشرت مؤلفاتها بين العلماء والطلاب، أقامت في حلب تُعلّم وتُفتي حتى تُوفيت (ولم يعلم بالتحديد سنة وفاتها) ولكنه قبل تاريخ وفاة زوجها علاء الدين الكاساني المتقدم، ودُفن علاء الدين عندها، وقبرهما مشهور في حلب يُعرف بقبر المرأة وزوجها. (القرشي. الجواهر المضيّة.- ج٤، ص٢٨، ١٢٢-١٢٤ ؛ زينب بنت علي العاملي (ت١٣٣٢هـ/١٩١٤م). الدُرّ المنثور في طبقات ربات الخدور، نسخة مصورة عن الطبعة الأولى.- القاهرة: المطبعة الأميرية، بولاق، (١٣١٢هـ).- ص٣٦٧ ؛ عمر رضا كحالة. أعلام النساء.- بيروت: مؤسسة الرسالة. (د.ت).- ج٤، ص٩٤ - ٩٥).

للملك العادل نور الدين محمود، فقد تصدرت للتدريس في حلب وألّفت مؤلفات عديدة في الفقه والحديث، كما استشارها الملك نورا لدين في بعض أموره، واستفتاها في بعض المسائل الفقهيّة، وكان دائمًا يبذل لها، ويُعينها على مواصلة نشاطها العلمي.(١)

وما حدث بين الملك نور الدين والعالمة فاطمة الفقيهة يؤكد حرص المرأة المسلمة في ذلك العهد على الالتزام التام بالحجاب الإسلامي حيث إن المحادثات بينهما كانت تتم بواسطة امرأة تُندب لهذا الأمر، وفي هذا الصدد يورد القُرشي قصة مفادها: أن علاء الدين الكاساني زوج العالمة فاطمة الفقيهة عزم الرحيل من حلب إلى بلاده بإيعاز من زوجته فاطمة، فأستدعى الملك نور الدين الإمام علاء الدين الكاساني، وسأله أن يُقيم في حلب، فعرّفه علاء الدين دواعي سفره وأنه لا يمكن أن يخالف زوجته ابنة شيخه، فأرسل الملك إلى زوجته فاطمة خادمًا يخاطبها عن الملك في ذلك، فلم تأذن للخادم واحتجبت منه، وأرسلت إلى زوجها من يقول له: "بعد عهدك بالفقه إلى هذا الحد أما تعلم أنه لا يحل أن يُنظر إلى هذا الخادم، وأي فرق بينه وبين الرجال في عدم النظر"، فعاد الخادم، وذكر ذلك لزوجها بحضرة الملك، فأرسلوا إليها امرأة برسالة الملك فخاطبتها، وأجابته إلى ذلك وأقامت بحلب إلى أن توفيت، وتوفي زوجها الكاساني بعدها سنة ٥٨٧هـ (١١٩١م) ودُفن عندها بحلب.(٢)

ولعله مما سبق يتبين مدى مساهمة المرأة في النهضة العلمية في العهد الزنكي، والأثر التعليمي للنساء رغم عدم وجود دُوُر تعليمية خاصّة بهنّ. وهذا النشاط يُعد مؤشرًا حقيقيًا للازدهار العلمي في ذلك العهد مما يميزه عن غيره من العهود السابقة.

---

(١) زينت العاملي. المرجع السابق.- ص٣٦٧.
(٢) الجواهر المضيّة.- جـ٤، ص١٢٣-١٢٤.

د- الرحلات والصلات العلمية: [1]

من أهم وسائل التحصيل عند المسلمين الرحلة في طلب العلم، وتتلخص في قيام الطالب بعد أخذ العلم عن مشاهير بلده وفراغه من ذلك، بالانتقال إلى بلد آخر بحثًا عن مزيدٍ من العلوم، وعن أفضل المعلمين، المنتشرين في كافة بلاد العالم الإسلامي. رغم ما كان يواجهه المرتحل من المشاق والمصاعب، ولكنه لا يبخل على علمه بكل ما يملك من طاقة وجهد ومال، وقد شاعت الرحلات العلمية في العهد الزنكي، وأخذ الطلاب يتنقلون بين البلاد الإسلامية فرادى وجماعات سعيًا وراء مزيدٍ من العلم بكل عزم، وصبر ومثابرة، وقد تحدث العلامة ابن خلدون بإفاضة عن الرحلات في طلب العلم وفوائدها في فصل خاص عقده لهذا الغرض ورد فيه: أن الرحلة في طلب العلوم مفيدة، لأن البشر يأخذون معارفهم تارة علمًا وتعليمًا وإلقاءً، وتارة محاكاة وتلقينًا بالمباشرة، إلا أن حصول الملكات عن المباشرة والتلقين أشد استحكامًا وأقوى رسوخًا، والرحلة تفيد كثرة الشيوخ، وعلى قدر كثرة الشيوخ يكون حصول الملكة ورسوخها، فتعدد المشايخ يُفيد تعدد الطرق إذ أن لكل منهم طريقته في التعليم.[2]

والذي ساعد على شيوع الرحلات العلمية بين الأقطار الإسلامية أن اللّغة التي يدرسون بها هي اللغة العربية لغة القرآن الكريم والدين الإسلامي، فلا يحتاج طالب العلم إلى تعلم لغة أخرى مهما كانت بلاده - كما هي عليه الحال في الوقت الحاضر - فاللغة العربية والمبادئ الإسلامية جمعتهم ووجهتهم إلى طلب العلم، فكثرت رحلات الطلاب إلى المراكز العلمية في البلاد الإسلامية مهما بعدت الشقة، فكان بعضهم يقطع

(١) جعلت هذه الفقرة مستقلة عما سبقها لكونها تشمل كافة فئات التعليم، كما تشمل فئات التدريس أيضًا لحاجتهم المستمرة إلى التنقل والترحال في طلب العلم، وهي أبرز الوسائل المعينة على تلقي التعليم في كافة العصور الإسلامية.

(٢) العبر- ص٥٠٩.

آلاف الأميال ليصل إلى مطلبه العلمي متحملاً مشقّة السفر وشظف العيش، ومفارقة الأهل والولد.

وإذا رجع الباحث إلى حياة كثيرٍ من علماء هذا العهد وجد انهم قد رحلوا إلى بلاد عديدة وأخذوا عن كبار الشيوخ فيها، ولعل في استعراض رحلة الحافظ ابن عسكر المتوفى سنة ٥٧١هـ (١١٧٦م) دلالة واضحة لهمّة العلماء في الترحال والرغبة في طلب العلم في مختلف الأقطار والأمصار حتى بلغ عدة شيوخه ألفًا وثلاث مئة شيخ، ومن النساء بضعًا وثمانين امرأة.[1] ولقد تحولت البلاد الزنكية إلى مراكز جذبٍ، حيث جاءها الطلاب والدارسون من كافة أنحاء العالم الإسلامي، نظرًا لما يلاقيه طالب العلم في هذه البلاد من رعاية وإعانة، وازدياد فرص التعليم فيها، وكانت الأوقاف على التعليم كثيرة جدًا، وكان جزء كبير منها موجهًا لخدمة الغرباء الذين قدموا إلى تلك البلاد طلبًا للعلم براحة بال واطمئنان نفس، حيث كُفِلت لهم أمور العيش، وأمّنت لهم المساكن الداخلية المريحة، وقد شاهد الرحالة الأندلسي ابن جبير كافة التسهيلات المعدة لطلبة العلم في البلاد الزنكية، ورفع نداءه لأبناء بلده " المغاربة" طالبًا منهم الإسراع باغتنام تلك الفرصة المتاحة، والرحلة إلى هذه البلاد لطلب العلم، فقال: " فمن شاء الفلاح من نشأة مغربنا فليرحل إلى هذه البلاد ويتغرب في طلب العلم فيجد الأمور المعينات كثيرة، فأولها فراغ البال من أمر المعيشة، وهو أكبر الأعوان وأهمها".[2]

ولم تقتصر الرحلة على الطلاب فحسب، بل إنه وُجد بعض العلماء الذين كانوا يرحلون أيضًا إذا ما سمع أحدهم بألم جليل يشد إليه الرحال، ويجلس أمامه فيأخذ

---

(١) العماد الأصفهاني. الخريدة (قسم شعراء الشام).- ج١، ص٢٧٤، ياقوت. معجم الأدباء.- ج ١٣، ص٧٥-٧٦ ؛ السبكي. طبقات الشافعية الكبرى.- ج٧، ص٢١٦-٢١٧.

(٢) الرحلة.- ص٢٥٨.

عنه، كما جلس الشيخ أثير الدين الأبهُرِي.[1] صاحب التصانيف المشهورة بين يدي الإمام كمال الدين بن يونس بن منعه المتوفى سنة ٦٣٩هـ (١٢٤٢م)[2] والناس يوم ذاك كانوا يشتغلون ف تصانيف الأثير، وكان معيدًا عنده في المدرسة البدرية بالموصل، وكان يقول: " ما تركت بلادي وقصد الموصل إلا للاشتغال على الشيخ".[3] وقد ذكر ابن خلكان أنه تردد بين إربل والموصل بقصد الدرس على الشيخ كمال الدين بن يونس بن منعه لما اشتهر به من فضل وعلم.[4]

وهكذا كانت الرحلات العلمية ركنًا أساسيًا من أركان الحياة العلمية في هذا العهد ووسيلة هامة من وسائل التحصيل العلمي بحيث ينتقل طالب العلم من مكان إلى آخر

(١) أثير الدين المُفضل بن عمر بن المفضل الأبهري صاحب التعليقة في الخلاف، والزيج، والتصانيف المشهورة، لم تُعلم سنة وفاته، ويذكر ابن خلكان أنه كان يدرس عليه علم الخلاف حينما قدم من الموصل إلى إربل سنة ٦٢٦هـ (١٢٢٨م)، وكان معيدًا في المدرسة البدرِيّة الشافعية بالموصل على الشيخ كمال الدين بن يونس بن منعه المتوفى سنة ٦٣٩هـ (١٢٤٢م) (ابن خلكان. وفيات الأعيان.- جـ٥، ص٣١٣ ؛ السبكي. المصدر السابق.- جـ٨، ص٣٨١ـ٣٨٢).

(٢) هو الإمام أبو الفتح موسى بن أبي الفضل يونس بن محمد بن منعه بن مالك بن محمد الملقب كمال الدين الفقيه الشافعي كانت ولادته بالموصل في صفر سنة ٥٥١هـ (١١٥٦م) وبها تفقه على والده، ثم توجّه إلى بغداد سنة ٥٧١هـ (١١٧٥م) وأقام بالمدرسة النظامية يتعلم على مشايخها حتى برز في الفقه الشافعي والتفسير وفي عديد من العلوم، ثم عاد إلى الموصل، وعكف على الاشتغال والتدريس في أماكن تعليمية عديدة حتى اشتهر فضله، وارتحل إليه طلاب العلم من كل مكان، وقد ذُكر عنه أنه كان يدري أربعة وعشرين فنًا دراية متقنة، كانت وفاته بالموصل سنة ٦٣٩هـ (١٢٤٢م)، وله مؤلفات عديدة. (ابن خلكان. وفيات الأعيان.- جـ٥، ص٣١١ـ٣١٨ ؛ السبكي. طبقات الشافعية.- جـ٨، ص٣٧٨ـ٣٨٦ ؛ الأسنوي، طبقات الشافعية.- جـ٢، ص٥٧٠ـ٥٧٢ ؛ ابن أبي أصيبعة. عيون الأنباء.- ص ٤١٠ـ٤١٢).

(٣) ابن خلكان. المصدر السابق.- جـ٥، ص٣١٣.

(٤) المصدر نفسه.- جـ٥، ص٣١١.

سواء كان داخل الأقاليم ذاته، أو إلى العواصم الإسلامية المشهورة، بقصد تلقي العلم وسماعه، والحصول على الإجازات من كبار المشايخ في عصرهم، حتى إذا بلغوا مرحلة من النضج العلمي أخذوا بدورهم من مجلس التعلّم إلى مجلس التعليم، ولكن هذه الرحلات - رغم متاعبها ومشاقها - لم تكن وقفًا على الرجال من المُتعلّمين والمُعلمِين وإنما شاركت فيها بعض النساء من ذلك ما يرويه ابن عساكر في ترجمته لفاطمة بنت سعد الخير بن محمد بن سهل الأنصاري الأندلُسي أنها: "ولدت بالبحرين، ورحل بها أبوها إلى أصبهان ... ثم قدِم بها بغداد فسمعها من أبوي القاسم: هبة الله ابن أحمد الحريري ... وقدمت دمشق مع زوجها علي بن نجا الحنبلي، وسمع منها بعض طلبة الحديث."[1]

٣ - أساليب التقويم:

لم يُعرف في العهد الزنكي ما يُشير إلى أنه يطلب من المتعلمين تأدية امتحان بعد الانتهاء من الدراسة - كالامتحانات التي تُعقد في عصرنا هذا - ولكن الأساتذة كانوا يمنحون طلبتهم الأكفاء شهادات أو إجازات ينصون فيها على أن الطالب قد أتمّ دراسة منهج معين، تحت إشراف الشيخ الفلاني دون أن يؤدي الطالب امتحانًا، والغرض من الإجازة الإقرار بكفاية الطالب واجتهاده، وانكبابه على العلم، وتفرغه للدراسة والبحث. وكانت الإجازات العلمية شهادات شخصية يمنحها الشيوخ لمن يرون فيه الكفاية، ولا علاقة لها بمنظمة تعليمية معينة - كما هي عليه الحال في الوقت الحاضر - وإذا كانت الإجازة إقرار بأن الطالب قد أتمّ دراسة كتب معينة، أو إقرار له بصلاحيته للتدريس، أو الفتوى بناءً على مجهود علمي قام به فهي بذلك تُعد أحد أساليب التقويم، كذلك إذا كانت ألقاب العلماء تعني المكانة العلمية التي بلغها العالم أو المدرس بالنسبة لعلماء عصره، فهي أيضًا تُعد من أساليب التقويم، وقد انحصرت

(١) تاريخ مدينة دمشق (تراجم النساء).- ص٢٨٧.

أساليب التقويم في العهد الزنكي في هذين المعيارين وهما جزء من نظام التعليم الإسلامي اتصلا بزمن سابق على العهد الزنكي (زمن البحث) واستمرا لمرحلة لاحقة له:

أ- الإجازات العلمية:

تمثل الإجازات العلمية مظهرًا هامًا من مظاهر الحياة العلمية عند المسلمين، وهي في الأصل ضمان بعلم حاملها، وقُدرته على نقل هذا العلم، ولقد بدأت الإجازات العلمية مع علم الحديث، وهو العلم الذي تشدّد فيه المسلمون كثيرًا بسبب ما ناله من تحريف ودس وتزييف، ولذلك وُضعت له من القواعد الدقيقة أكثر مما وضع لغيره من العلوم للتأكد من صحة الحديث، ومن هنا كانت الإجازة تدل على صحة نقل الناقل من المنقول عنه.[(١)]

والإجازة بهذا المعنى أذن ورخصة تتضمن المادة الصادرة من أجلها، يمنحها الشيخ لمن يبيح له رواية المذكورة فيها عنه، وتكون الإجازة بذلك إحدى طرق نقل الحديث وتحمله،[(٢)] ثم انتقلت بعد ذلك إلى العلوم

---

(١) محمد غنيمة. تاريخ الجامعات الإسلامية.- ص٢٢٠-٢٢١.

(٢) تنقسم طرق نقل الحديث وتحمله إلى ثمانية أقسام هي. (أولاً) السماع من لفظ الشيخ وهو ينقسم إلى إملاء وتحديث من غير إملاء، وهو أرفع الأقسام عند الجمهور (ثانيًا) القراءة على الشيخ، وتُسمى العرض، (ثالثًا). الإجازة موضوع الحديث هنا، وهي متنوعة كما سيرد، (رابعًا) المناولة وهي على نوعين. المناولة المقرونة بالإجازة، وهي أعلى أنواع الإجازة وأجودها، والنوع الآخر المناولة المجردة عن الإجازة فهذه رواية مختلّة لا تجوز الرواية بها، (خامسًا) المُكاتبة وهو أن يكتب الشيخ إلى الطالب وهو غائب شيئًا من حديثه بخطه، أو يكتب له ذلك وهو حاضر، وهو على نوعين أيضًا. (سادسًا) إعلام الراوي للطالب بأن هذا الحديث أو هذا الكتاب سماعهُ من فلان، أو روايته من غير أن يقول أروه عني، (سابعًا) الوصيّة بالكتب، وهو أو يوصي الراوي بكتاب يرويه عند موته أو سفره لشخص، (ثامنًا) الوجادة. وذلك عندما يجد الإنسان كتابًا أو حديثًا لشخص رواه بخطه ولم يلقه أو لقيه ولكن لم يسمع منه ذلك، وليس منه إجازة ولا نحوها. (ابن الصلاح، الإمام أبو عمر عثمان بن عبدالرحمن الشهرزوري، ت ٦٤٣هـ/١٢٤٥م. المقدمة في علوم الحديث، تخريج وتعليق، مصطفى ديب البغا.- دمشق: مكتبة الفارابي، ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م.- ص٧٦-١٠٢).

الأخـرى.[1] ويمـنح الشـيخ الإجـازة لطالـبها بطريقـتين: أولهمـا: الإجـازة بالمشـافهة، وثانيهما الإجـازة التحريرية، وهـي التي شـاعت خلال زمن البحث، على أن الإجازة الشـفهية أقـدم من الإجـازة التحريرية.[2] ويظهر من اسم هـاتين الطريقـتين أنّ الإجـازة الشـفهية يُقصد بهـا اكتفاء المُجيز بلفظ الإجـازة مشـافهة وبدون كتابة، بينما الإجـازة التحريرية تكـون مكـتوبة، ويذكـر فيهـا الشـيخ عـادة اسـم الطـالب، ومذهـبه، واسـم الشيخ، ومـا يجـوز لـه روايته عـنه، وقد يُثني فيهـا الشـيخ عـلى الطـالب، ويطـول في مديحه، وإعطائه الألقـاب العـلمية المختلفة، وفي الآخـر يذكر فيها تاريخ الإجازة، وقد تقتصـر هـذه الكـتابة عـلى سطور معدودة داخل الكتاب الذي درسه الطالب، ولا زالت بعـض المخطوطـات العـربية تحمـل إجـازات للدارسـين بهـا. غير أننا نجد في بعض الأحيان إجـازات مستقلة عـن الكـتب تفـنّن كاتبوها في أسلوبها واعتنوا بتزويق عباراتها والإطالة والإسـهاب فيهـا، وتـبادل عـبارات الثـناء والمديـح بين المُجيز والمُجاز له، وذكر الأساتذة الذيـن تـلقى عـنهم المجيز عـلومه وأسمـاء مؤلفاتـه، وكتبه وسائر مظاهر إنتاجه العلمي، وتطـول الإجـازة بهـذا الأسـلوب حتى تصـل إلى صـفحات عديدة.[3] وكان يجيز الطالب أكـثر مـن شيخ وربما أجاز لـه كل شيخ في مادة مختلفة، وربما أجازه أكثر من شيخ في مادة واحدة أو كتاب واحد.[4]

وللإجـازة أركـان أربعـة هـي: المُجيـز، والمسـتجيز أو المُجـاز، والمُجـاز بـه، ولفـظ الإجـازة، وتختلف أنـواع الإجـازة مـن حيث جـواز العمـل بها باختلاف تلك الأركان، وأهم هذه الأنواع كما قسّمها علماء الحديث هي:

---

(١) عبدالله فيّاض. الإجازات العلمية عند المسلمين.- بغداد: مطبعة الإرشاد، (١٩٦٧م).- ص٢١.
(٢) المرجع نفسه.- ص٢١.
(٣) محمد غنيمة. تاريخ الجامعات الإسلامية الكبرى.- ص٢٢٧.
(٤) أنظر إجازات القاضي بهـاء الدين يوسف بن رافع المعـروف بابن شـدّاد المتوفى سنة ٦٣٢هـ (١٢٣٤م) (في ترجمة ابن خلكان لـه في وفيات الأعيان.- جـ٧، ص٨٤-٨٦).

إجازة لمُعيّن في مُعيّن، مثل أن يقول: " أجزت لك الكتاب الفلاني، أو ما اشتملت عليه فهرستي هذه " فهذا أعلى أنواع الإجازة المجردة عن المناولة.[1]

الإجازة لمعين في غير معين، مثل أن يقول: " أجزت لك - أو - لكم - جميع مسموعاتي، أو: جميع مروياتي " وما أشبه ذلك، وهذا النوع لا يُحدد المُجيز الشيء المُجاز به، أو الكتب المُجاز بها، بعكس النوع الأول الذي يتضمن ذلك، وهذا النوع من الإجازات فيه خلاف، ولكن الذي عليه جمهور العلماء والمحدثين جواز الرواية بها.[2]

الإجازة في غير معين بوصف العموم، مثل: أن يقول: " أجزت المسلمين، أو أجزت لكل أحد، أو أجزت لمن أدرك زماني" وما أشبه ذلك، وفي هذا النوع لا يُحدّد المُجاز به، ولا يُعيّن المجاز له، فهي تنقص رُكنين من أركان الإجازة، وقد ناقش ابن الصلاح آراء العلماء حول جواز مثل هذا النوع من الإجازة من عدمه، فتوصل إلى أن كثيرًا منهم أباحوها، ولكنه بيّن أن تقييدها أقرب للجواز.[3]

الإجازة للمجهول أو بالمجهول، وفيها لا يُحدد المُجيز الشيء المُجاز، ولا المُجاز إليه تحديدًا دقيقًا يحول دون الخطأ والاشتباه، وذلك مثل أن يقول: " أجزت لمحمد بن خالد الدِمشقي " وفي وقته ذلك جماعة مشتركون في هذا الاسم والنسب، ثم لا يعين المجاز له منهم، أو يقول: " أجزتُ لفلان أن يروي عني كتاب السُنن" وهو يروي جماعة من كتب السنن المعروفة بذلك ثم لا يُعيِّن، ويرى ابن الصلاح أن هذه إجازة فاسدة لا فائدة لها،[4] وذلك للجهل بالمُجازِ له، والمادة المُجازة.

---

(١) ابن الصلاح. المقدمة.- ص٨٦.

(٢) المصدر نفسه.- ص٨٧-٨٨.

(٣) نفسه.- ص٨٨.

(٤) ابن الصلاح المقدمة.- ص٨٨-٩٠.

الإجـازة لـلمعدُوم، والإجـازة لـلطفل الصغير، ومثالـه أن يقول: " أجزتُ لمن يُولد لفلا " وقد أختلــف في جواز مثل هذه الإجازة، فذكر ابن الصلاح أنه إذا عطف المعدوم في ذلـك عـلى الموجــود بـأن قـال: " أجـزتُ لفـلان ولمـن يولــد لـه: أو: أجـزت لـك ولولـدك ولعقبــك ما تناسلوا، كان ذلك أقرب إلى الجواز من الأول، أما الحالــة الأولى فهي باطلــة.[1]

إجـازة مـالم يسمعه المُجيز ولم يتحمله أصلاً بعد، ليرويه المُجاز لـه إذا تحمله المجيز بعـد ذلـك، وهـذا النـوع مـن الإجـازة نـادر الاسـتعمال، كمـا اختـلف فيـه المحدثون كثيرًا والأصح بطلانه.[2]

إجازة المُجاز: مثل أن يقول الشيخ: " أجزتُ لك مُجازاتِي"، أو: أجزتُ لك روايـة مـا أجيز لـي روايته" وقـد أورد ابـن الصـلاح الخلاف في جواز ذلك، ولكنّه رجّح صحة العمل بمثل هذا النوع من الإجازات.[3]

إجازات العلماء في العهد الزنكي:

كـانت المـدن الـزنكيــة مركـزًا مـن المراكـز العـلميـة التي كـان طالـبو العـلم يرحلون إليهــا، ويتلقون العـلم فيهـا، ويحصلــون عـلى الإجـازات العـلميــة فيما تـلقــوه من كـتب الدراسـة وموضـوعاتهــا. وقـد شـاع الحصــول عـلى الإجـازات المـنوحـة بـين العـلــوم المختلفـــة مثل القراءات والحديــث والتفسير والفقــه واللغة والنحــو وغيرهــا مـن ميـاديــن العـلوم، ولعـله باستعراض الإجــازات العـلمية الممنوحـة لأحد علمــاء هـذا العهــد وهو الفقيــه الشافعي القاضـي بهاء الديــن ابن شــداد المتوفى سنة ٦٣٢هـ

(١) المصدر نفسه.- ص٩٠-٩١.
(٢) نفسه.- ص٩١-٩٢.
(٣) نفسه.- ص٩٢-٩٣.

(١٢٣٤م)[1] نتبين أنواع تلك الإجازات والجهود التي كان يبذلها العلماء في الحصول عليها، فقد أحصى ابن شداد العلماء الذين أجازوه والمادة العلمية المجازة له منهم وكان منها:

إجازة من الشيخ أبي بكر يحي بن سعدون القُرطُبي المتوفى سنة ٥٦٧هـ (١١٧٢م) فقد ذكر ابن شداد أنه لازمه حينما قدم إلى الموصل وقرأ عليه إحدى عشرة سنة معظم ما رواه من كتب القراءات، وقراءة القرآن العظيم، ورواية الحديث وشروحه، والتفسير، وكتب له إجازة في ذلك كله، وما يشتمل عليه فهرست البخاري ومسلم من عدة طرق، وغالب كتب الحديث، وغالب كتب الأدب وغيره.[2]

إجازة من الشيخ أبي البركات عبد الله بن الخضر المعروف بابن الشيرجي المتوفى سنة ٥٧٤هـ (١١٧٨م) وكان قد أجاز له بعض تفسير الثعلبي، كما أجاز له رواية جميع ما رواه على اختلاف أنواع الروايات وكتب له بذلك سنة ٥٦٦هـ (١١٧١م).[3]

إجازة من خطيب الموصل الشيخ مجد الدين أبي الفضل عبدالله بن أحمد بن محمد

---

(١) هو أبو المحاسن يوسف بن رافع بن تميم بن عتبة بن محمد بن عتاب الأسدي الفقيه الشافعي، كان مولده بالموصل في رمضان سنة ٥٣٩هـ (١١٤٥م) ونشأ بها وحفظ القرآن في صغره، ولازم العلماء، ثم انحدر إلى بغداد، ونزل بالمدرسة النظامية ورُتِب فيها معيدًا، ثم أصعد إلى الموصل سنة ٥٦٩هـ (١١٧٣م) فرُتب بها مُدرسًا في المدرسة الكمالية القضوية، وقد حج سنة ٥٨٣هـ (١١٨٨م) وزار بيت المقدس والخليل بعد الحج، ثم دخل دمشق وقابله السلطان صلاح الدين الأيوبي، والتحق بخدمته، فولاه قضاء العسكر والحكم بالقدس الشريف، وفي سنة ٥٩١هـ (١١٩٥م) تولى قضاء حلب ووقوفها، واستمر في خدمة الدولة الأيوبية حتى وفاته في حلب في شهر صفر سنة ٦٣٢هـ (١٢٣٤م) وكان له مؤلفات عديدة في التاريخ والفقه والقضاء. (ابن خلكان. وفيات الأعيان.- جـ٧، ص٨٤-١٠٠ ؛ الذهبي، العبر.- ج٣، ص٢١٥ ؛ ابن العماد. الشذرات.- ج٥، ص١٥٨-١٥٩).

(٢) ابن خلكان. المصدر السابق.- جـ٧، ص٨٤-٨٥.

(٣) ابن خلكان. المصدر السابق.- جـ٧، ص٨٥.

الطُوسي المتوفى سنة ٥٧٨هـ (١١٧٣م) وكان قد أجاز له جميع ما رواه وكتب له بذلك ٥٥٨هـ (١١٦٣م).[١]

إجازة من القاضي فخر الدين أبي الرضاء سعيد بن عبدالله بن القاسم الشهرزوري، المتوفى سنة ٥٧٦هـ (١١٨٠م) وكان قد سمع عليه مسند الشافعي، ومسند أبي عوانه ومسند أبي يعلى الموصلي، وسنن أبي داود، والجامع لأبي عيسى الترمذي، وأجاز له رواية ما رواه، وكتب له بذلك سنة ٥٦٧هـ (١١٧٢م).[٢]

إجازة من الحافظ سراج الدين أبي بكر محمد بن علي الجياني، قرأ عليه صحيح مسلم، وكتاب الوسيط للواحدي، وأجاز له رواية ما يرويه وكتب له بذلك سنة ٥٥٩هـ (١١٦٣م).[٣] ومن الواضح أن الإجازات التي حصل عليها ابن شداد كانت في غالبها إجازة معين لمعين، وهي أرقى أنواع الإجازات، وأعلاها رتبة، أما النوع الثاني من الإجازات "إجازة معين في غير معين" فهو أقل شيوعًا من النوع الأول من ذلك ما ذُكر من حصول القاضي بهاء الدين بن شداد على بعض الإجازات التي تخول له رواية جميع ما رواه شيخه، أو جميع مسموعاته وما أشبه ذلك.

وقد يجمع الشيخ في إجازته بين النوعين معًا كأن يجيزه في مادة معينة أو كتاب معين ويلحق بذلك إجازته برواية جميع مروياته أو مسموعاته، وقد سبق مثال ذلك.

ومع كثرة الإجازات، فقدت كونها ضمانًا لمعرفة الطالب لما نقله عن أستاذه، وأصبحت مُجرّد شهادة باللقاء أو السماع، دون أن تعنى بالضرورة تعمق حاملها أو معرفته بما أجيز به، حتى لقد ظهرت بعض الإجازات العامة التي تُبيح لمن أحب الرواية عن المجيز من المسلمين أو من أهل السنة، أو ممن أدرك عصره وما أشبه ذلك، وقد ذكر

(١) المصدر نفسه.- جـ٧، ص٨٥.
(٢) نفسه.- جـ٧، ص٨٥-٨٦.
(٣) نفسه.- جـ٧، ص٨٦.

ابن الفوطي مثل هذا النوع من الإجازة في ترجمته للشيخ عز الدين أبي محمد عبدالرزاق بن أبي الهيجاء الرسعنِيّ المحدث المفسر المتوفى سنة ٦٦٠هـ (١٢٦٢م)، وأنه قد أجاز الناس عامة، أي ترك لجميع من يستطيع الرواية من المسلمين طوال الدهر أن يرووا عنه وإن لم يروه، أو يسمعوا منه.[١]

كما تحسن الإشارة في هذا المجال إلى أن العديد من الآباء كانوا يسعون بالاستجازة لأبنائهم، ومما يلفت النظر أن بعضهم قد استجيز له وهو صغير، وقد تقدم القول في حكم الإجازة للصغير، ومما يوضح هذا الأمر إجازة شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر بن خلكان، صاحب " وفيات الأعيان" المتوفى سنة ٦٨١هـ (١٢٨٢م) من العالمة زينب بنت الشعري المتوفاة سنة ٦١٥هـ (١٢١٨م) وكانت ولادة ابن خلكان في إربل سنة ٦٠٨هـ (١٢١١م) وقد كتبت له إجازة في بعض شهور سنة ٦١٠هـ (١٢١٣م) وهو طفل لم يبلغ السنة الثانية من عمره.[٢] وهذه الإجازة جريًا على العادة التي كانت متبعة آنذاك من إجازة الأطفال الذين ينشأون في بيوت العلم تشجيعًا لهم عندما يشبون، وأملاً في نجاحهم في المستقبل.

ولعله باستقراء العديد من الإجازات العلمية التي مُنحت لطلبة العلم في العهد الزنكي يمكن استنتاج الأمور التالية:

أن الإجازة تقليد تعليمي إسلامي عام تبناه في البداية أئمة الحديث لضمان نقل الأحاديث وصحتها، ثم امتدت لتخدم أصناف العلوم الأخرى، من لغة وأدب وتاريخ وغيره.

أن الإجازة أذن ورخصة خاصّة، يمنحها الشيوخ لمن يريدون الرواية عنهم، ولا علاقة لها بمنظمة تعليمية معينة - كما هي عليه الحال في الوقت الحاضر - ومما يؤيد ذلك

---

(١) تلخيص مجمع الأدب.- ج٤، ق١، ص١٩٢ـ١٩٤.

(٢) ابن خلكان. وفيات الأعيان.- جـ٢، ص٣٤٤ـ٣٤٥.

اقتران الإجازة باسم الشيخ المجيز، ولم يقف الباحث على أي إجازة اقترنت باسم دار تعليمية معينة.

أنه ليس بالضرورة أن يكون الشيخ مانح الإجازة قد درّس حامل الإجازة، بل يجوز أن يمنح شيخ إجازة لرواية مادة مُعينة.

أنه ليس بالضرورة أن يكون الشيخ مانح الإجازة قد دَرّس حامل الإجازة، بل يجوز أن يمنح شيخ إجازة لرواية مادة مُعينة أو كتاب مُعين دون أن يكون حامل الإجازة قد تلقى تلك المادة أو درس هذا الكتاب على يديه، فقد يكون السماع عن طريق نقله. كما أجاز الحسين بن حُميد بن عبدالصمد التميمي المتوفى سنة ٥٣١هـ (١١٣٦م) الحافظ ابن عساكر بجميع حديثه، ولم يسمع الحافظ منه مباشرة، بل سمع عن طريق بعض أصحابه.(١)

أن الإجازات التحريرية المفصلة، خاصة تلك التي تُكتب مستقلة عن ظهور الكتب، تُعد وثائق حقيقية تصور بعض معالم الحياة العلمية والثقافية في عصر كاتبها، وهي ذلك قيمة كبيرة في ذلك، فمن خلالها يمكن معرفة حرص طلاب العلم على الأخذ عن مشاهير العُلماء، كما أنه يمكن الاستدلال من أسلوبها على الكثير من الفوائد اللغوية، كما أنها تزود الباحث بمعلومات وافرة عن الكثير من المصطلحات الفنية التي كانت تستعمل في زمن كاتبها، وتوضح أيضًا عددًا من أمهات الكتب التي كان العلماء يعنون بها، وطريقتهم في الدراسة، كما يمكن أن يستدل على شخصية المُجيز، وشخصية المُجاز بعد إنعام النظر في نص الإجازة.(٢)

---

(١) ابن عساكر. تاريخ دمشق الكبير، تهذيب عبدالقادر بدران المتوفى سنة ١٣٤٦هـ (١٩٢٧م).- ط٢.- بيروت: دار الميسرة، ١٣٩٩هـ (١٩٧٩م).- ج٤، ص٤٨٧.

(٢) من الإجازات التي تميزت بالأسلوب الراقي، والمضمون الجيّد، استجازة الحافظ أبي طاهر أحمد بن محمد السلفي المتوفى سنة ٥٧٦هـ (١١٨٠م) من الإمام أبي القاسم محمود بن عمر بن محمد الزمخشري صاحب التصانيف المشهورة في التفسير والحديث والنحو واللغة وعلم البيان والمتوفى سنة ٥٣٨هـ (١١٤٤م)، وقد أورد ابن خلكان نص هذه الإجازة (أنظر. وفيات الأعيان.- ج٥، ص١٧٠-١٧١).

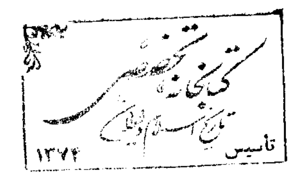


ب ـ الألقاب العلمية:

إذا كانت الإجازة إقرار بأن الطالب قد أتمّ دراسة كتب معينة أو مادة علمية معينة، أو غير ذلك، فقد كانت ألقاب العلماء في العهد الزنكي - كغيرة من العهود الإسلامية - تُبين المكانة التي وصل إليها الطالب أو المُدرس بالنسبة لعلماء عصره، ولم تكن تلك الألقاب تُمنح جُزافًا، كما لم تكن لها شروط محددة أو اختبارات خاصة - كما هي عليه الدرجات العلمية المعروفة في الوقت الحاضر - بل إن اللقب كان يعكس في الغالب، المكانة العلمية للعالم بين أقرانه من العلماء، فإذن كان العالم متميزًا بعلمه، وله في مجال تخصصه مصنفات وكتابات، اكتسب من ذلك شهرته، ولقبه رجال عصره باللقب العلمي الذي يناسبه، فهي بذلك من الألقاب التي يُطلقها المجتمع على بعض أفراده بصفة متميزة كالأمانة، والشجاعة، والمروءة والشهامة، وغير ذلك من الخصائص والصفات، وليس لها علاقة بمؤسسة تعليمية معينة، وقد تعدد الألقاب العلمية وتكاثرت بصورة يصعب معها التمييز بينها، وبالإمكان التعرّف على بعض الألقاب العلمية التي شاع استعمالها في العهد الزنكي، والتعريف بها بشيء من الإيجاز: وذلك على النحو التالي:

الإمام: وهو أسمى ألقاب العلم، ويدل على تمكّن صاحبه من علمه بحيث يصير قدوة للناس، وإمامًا لمن يتبعونه في هذا العلم.[1] وتنوعت استعمالات هذا اللقب واختلفت بحسب العلم الذي برع فيه صاحب اللقب، فيقال: إمام الفُقهاء، وإمام النحويين، ونحو ذلك وقد شاع إطلاع هذا اللقب في العهد الزنكي على الشيخ الإمام قُطب الدين النيسابُوري رئيس الشافعية في عصره المتوفى سنة ٥٧٨هـ (١١٨٢م)[2] وغيره.

(١) القلقشندي. صبح الأعشى.- ج٦، ص٣٨.
(٢) البنداري. سنا البرق الشامي.- ق١، ص١٣٤؛ السبكي. طبقات الشافعية الكبرى.- ج٧، ص٢٩٧.



الحافظ: يُطلق هذا اللقب على كبار علماء الحديث، واختصّ بهم لاحتياجهم إلى كثرة حفظ متون الأحاديث وأسماء الرجال، ونحو ذلك،[1] وقد شاع إطلاق هذا اللقب في العهد الزنكي على الحافظ ثقة الدين علي بن الحسن بن هبة الله بن عسَاكر المتوفى سنة ٥٧١هـ (١١٧٦م)[2] وعلى الحافظ الدمشقي أبي محمد عبدالخالق بن أسد بن ثابت الدمشقي مدرس الصادِرية بدمشق المتوفى سنة ٥٦٤هـ (١١٦٨م).[3]

الشيخ: وقد لُقب به كثير من العلماء والصلحاء توقيرًا لهم كما يُوقر الشيخ الكبير.[4] وقد شاع هذا اللقب وانتشر خلال فترة البحث، ويُقصد به في هذا المجال العالم الذي بلغ مرتبة عالية في مجال تخصصه، فيقال: " شيخ المُحدثين"، "وشيخ الفقهاء" وهكذا، وقد يضاف هذا اللقب إلى اللقبين السابقين، فيقال الشيخ الإمام، أو الشيخ الحافظ كما كان يُلحق بالمدرسة التي اشتهر بها فيقال: " شيخ المدرسة النورية"، أو "شيخ دار الحديث بدمشق"، ويقصد به الحافظ ابن عساكر.[5]

الفقيه: مأخوذ هذا اللقب من الفِقه، وهو لغة الفهم، واصطلاحًا: العلم بالأحكام الشرعية وهذا اللقب يُطلق في الغالب على العالم بالأحكام الشرعية، وعلى من صار الفقه له سجيّة.[6] وممن أطلق عليه هذا اللقب الفقيه الوجيه بُرهان الدين مسعود بن شجاع الحنفي مدرس المدرسة النُورِية بدمشق المتوفى سنة ٥٩٩هـ (١٢٠٣م)،[7]، كما أطلق على كثير من العلماء في ذلك العهد.

---

(١) القلقشندي. المصدر السابق.- ج٦، ص١٢.
(٢) ياقوت. معجم الأدباء.- ج١٣، ص٧٣-٧٤.
(٣) العماد الأصفهاني. الخريدة (قسم شعراء الشام).- ج١، ص٢٨٢-٢٨٣.
(٤) القلقشندي. صبح الأعشى.- ج٦، ص١٧.
(٥) ابن الأثير. التاريخ الباهر.- ص١٧٢؛ أبو شامة. كتاب الروضتين.- جـ١، ق١، ص٢٣.
(٦) القلقشندي. المصدر السابق.- جـ٦، ص٢٢.
(٧) أبو شامة. ذيل الروضتين.- ص٣٤.

على أن هذا اللقب صار يُطلق على طلبة المدارس في العهد الزنكي.[1] ويذكر القلقشندي أن إطلاقه على الطلبة جاء على سبيل المجاز.[2]

المُحدث: ويطلق على من يشتغل بعلم الحديث بطريق الرواية والدراية، والعلم بأسماء الرجال، وطُرق الأحاديث والمعرفة بالأسانيد، ونحو ذلك.[3] ومن هذا اللقب اشتقت عدّة ألقاب أخرى منها عماد المحدثين، وفخر المحدثين.

وممن اشتهر بهذا اللقب في العهد الزنكي شهاب الدين أبو الثناء محمود ابن بلدجي مؤسس ومُدرس المدرسة الصارِمية بالموصل المتوفى سنة ٦٢٣هـ (١٢٢٦م).[4]

المُقرِئ: وهو الذي يقرئ القرآن الكريم، وقد غلب اختصاصه على مشايخ القُراء من قراء السبعة المُجيدين المتصدين لتدريس علم القراءات.[5]

وممن اشتهر بهذا اللقب في العهد الزنكي الإمام المُقرئ عبدالعزيز بن علي ابن محمد بن سلمه أبو الأصبغ الطحان السماتِي الإشبيليّ شيخ القراء في حلب والمتوفى بعد سنة ٥٦٠هـ (١١٦٤م).[6]

هذه هي أبرز الألقاب العلمية التي تُبين مكانة العالم بين علماء عصره، والتي يُمكن أن تُعد من أساليب التقويم لمدى ما توصل إليه العالم من علم في مجال تخصصه مقارنة بعلماء عصره، كما أن هناك ألقابًا كثيرة ألصقت برجال العلم كألقاب فخرية لا

---

(١) ابن الأثير. التاريخ الباهر.- ص٢٠١ ؛ النعيمي. الدارس.- جـ١، ص٣٩٩.
(٢) المصدر السابق.- جـ٦، ص٢٢.
(٣) المصدر نفسه.- ج٥، ص٤٦٤.
(٤) القرشي. الجواهر المضيّة.- ج٢ـ، ص١٦٢.
(٥) القلقشندي. صبح الأعشى.- ج٥، ص٤٦٤.
(٦) ابن الجزري، شمس الدين أبو الخير محمد بن الحمد (ت ٨٣٣هـ/١٤٢٩م). غاية النهاية في طبقات القراء، نشر ج. برجستر اسر.- طـ٢.- دار الكتب العلمية.- بيروت: ١٤٠٠هـ (١٩٨٠م).- ج١ ص٣٩٥.

أكثر استخدمها الكُتّاب في مراسلاته لأولئك العلماء، وقد تردُ أحيانًا في إجازة أحد العلماء لطالب من طُلابه، ولا تدل تلك الألقاب بالضرورة على مكانة العالم العِلمية، كما هي الحال في الألقاب السابقة الذكر، ومن تلك الألقاب نجد لقب الرِحلّة، والحُجة، والمُحقّق، والمُدقّق، وإمام الأئمة وأوحد الأئمة العلماء، وحُجّة الأمة، وحُجة المذهب إلى آخر تلك الألقاب مما يوجد منعوتًا به كثير من علماء ذلك العهد.(١)

وبعد: فلعله من خلال دراسة فئات المُدرِسين والطُلاّب والنظم والوسائل المتعلقة بالتعليم في المراحل التعليمية في العهد الزنكي، قد برزت أمور عديدة من أهمها:

جلال منصب المُدرّس، فلم يكن يشغل هذا المنصب إلا من كان أهلاً له، كما ورد في مناسبة الشروط الواجب توافرها فيمن أراد أن يتولى هذه المهنة.

كما أن تعين المدرسين كان يتم في الغالب بمراسيم وتوقيعات تدريسية، وكان يجري احتفالاً عامًا بإلقاء الشيخ لأول درس له، وهذا الأمر يُوضح مكانة المدرس الاجتماعية في ذلك العهد.

كما برز من خلال هذه الدراسة أثر العلماء في الحياة العامة للدولة وذلك عن طريق مشاركاتهم في النشاطات السياسية، والإدارية، القائمة في الدولة، وذلك إلى جانب قيامهم بوظيفة التدريس في المراكز العلمية المختلفة.

كما أبانت هذه الدراسة أيضًا الحرّية التامة التي كان يتمتع بها طالب العلم في ذلك العهد من خلال حُريّة اختيار المدرس واختيار المدرسة، واختيار المواد الدراسية والتخصص الذي يدرسه.

---

(١) سيتطرق الحديث للكثير من هذه الألقاب عن دراسة ميادين العلوم، وأبرز أعلامها في العهد الزنكي، في الفصل الرابع إن شاء الله.



النساء تقدمن في التعليم وشاركن الرجال في الارتحال في طلب العلم، كما قام العديد منهنّ بالاشتغال بالتدريس وبرزن في ميدان الوعظ والتأليف، وكنّ في الغالب من الأسر العلمية المشهورة.

بروز ظاهرة التنقل والترحال العلمي بين أقطار العالم الإسلامي دون أي عائق، بل على العكس، فإن طالب العلم المرتحل يجد كل متطلباته الضرورية من المسكن والمأكل والملبس متوافره، وهذا ناتج عن تشجيع الدولة لحركة التعليم والاهتمام بنشره، ويعد هذا الأمر أحد مظاهر الوحدة الثقافية في العالم الإسلامي.

شيوع الإجازات العلمية أسلوبًا من أساليب التقويم العلمي في ذلك العهد، وكان طلّاب العلم يحصلون عليها عن طريق مقابلة الشيوخ والتردد إليهم للتزود بما لديهم من علوم، ومن ثم كان الشيخ يمنح الطالب إجازة تثبت تلقيه مادة معينة أو موضوعًا معينًا على يديه.

كما كانت هناك العديد من الألقاب التي يُنعت بها العُلماء لما وصلوا إليه من مكانة علمية بين أقرانهم المعاصرين، وهي بذلك من أساليب التقويم أيضًا، إضافة إلى بروز العديد من الألقاب الفخرية التي لا تدل بالضرورة على ما وصل إليه العالم في مجال تخصصه، ولكنها تُستعمل في المُكاتَبَات والمُراسَلات بين العُلماء، وفي كتابة الإجازات العلمية.



الفصل الرابع

ميادين العلوم وأبرز أعلامها في العهد الزّنكي

أولاً : العلوم الشرعية.

ثانيًا : العلوم اللغوية والأدبية.

ثالثًا : العلوم التاريخية والجُغرافية.

رابعًا : علوم الرياضيات والفلك.

خامسًا : علوم الطب والصيدلة.

شملت النهضة العلمية، التي شهدها العهد الزنكي مختلف العلوم، فلم يقتصر الاهتمام بالعلوم الشرعية واللغوية والأدبية دون غيرها، يتضح ذلك من الأعداد الوافرة من دُوُر التعليم التي أنشئت في ذلك العهد، وما قام في تلك الدُوُر من تجارب علمية، وما أُلف فيها من كُتب تخدم كثيرًا من ميادين العلوم بفروعها المُختلفة. حقيقة أن الصبغة العامة لمدارس الزنكيين والدراسات التي كانت قائمة بها، هي الاهتمام بدراسة مذهب أو أكثر من المذاهب السُنّية، لكون هذا جزءًا من الأهداف التي أنشئت من أجلها هذه المدارس. وتلك الدُوُر التي ركزت اهتمامها على نشر المذهب السني، ومقاومة المذهب الشيعي الذي كان منتشرًا في بعض المناطق في مدة سابقة على حكم الزنكيين للمنطقة، وبخاصة في بلاد الشام، وبعض مناطق الجزيرة إبان فترة خضوعها للدولة الفاطمية الشيعية في مصر.

ولكن هذا لا يعني بكل الأحوال اقتصار التعليم في ذلك العهد على تدريس الفقه أو غيره من فروع العلوم الشرعية وما يتصل بها من العلوم اللغوية والأدبية، وإنما كانت هناك مدارس علمية تُدرّس فيها مختلف التخصصات العلمية إلى جانب ذلك التخصص المُوجه من الدولة، والذي يتوافق مع مصالح الأمة وعقيدتها. فقد نالت ميادين علمية كثيرة نصيبًا من اهتمامات الدارسين والباحثين، وقُدمت فيها دراسات علمية رائدة، وصُنفت فيها كتب مهمة، اعتمد عليها كثير ممن جاء بعدهم. حيث ظهرت دراسات متخصصة في العلوم التاريخية والجُغرافية، وعلوم الرياضيات والفلك، إضافة إلى تدريس الطب في كثير من البيمارستانات المنتشرة في المدن الزنكية، وظهر من بين المشتغلين بهذه التخصصات علماء كان لهم أثر كبير في إثراء المكتبة الإسلامية بالعديد من المؤلفات المتخصصة التي ظلّت رافدًا للعلوم الإسلامية حتى الوقت الحاضر. واتساع أفق التفكير الإسلامي في هذا العهد وتنوع الدراسات والبحوث التي قُدمت فيه نتيجة

واضحة للنشاط العلمي الذي شهدته المدن الزنكية خلال ذلك العهد. ومحاولة التعرف على نشاط العلوم وتنوعها، وأبرز العُلماء الذي شاركوا فيها ونتاجهم العلمي في هذا العهد هو مجال البحث في هذا الفصل إن شاء الله. وذلك على النحو الآتي:

أولاً : العلوم الشّرعيّة:

كما جاء في مقدمة هذا الفصل أن الغلبة في ميادين العلوم في العهد الزنكي كانت للعلوم الشرعية من قراءات وتفسير وحديث وفقه وأصوله. ثم علوم اللّغة العربية وآدابها، وهذا الأمر يتفق مع ترتيب العُلماء للعلوم حسب أهميتها، فقد رتبوها إلى علوم شرعية، وعلوم أخرى تخدمها وتوضحها، وفي هذا المجال ذهب الإمام الماوردي المتوفى سنة ٤٥٠هـ (١٠٥٨م) إلى أن أفضل العلوم هي علوم الدين إذ قال: إنه "إذا لم يكن إلى معرفة جميع العلوم سبيل وجب صرف الاهتمام إلى معرفة أهمها، والعناية بأولها، وأفضلها، وأولى العلوم وأفضلها علم الدين، لأن الناس بمعرفته يرشدون، وبجهله يضلون، إذا لا يصلح أداء عبادةٍ جهل فاعلها صفات أدائها، ولم يعلم شروط أجزائها".[١] وهذا رأي ابن جماعة أيضًا عندما قال: "إذا تعددت الدروس قُدم الأشرف فالأشرف، والأهم فالأهم، فيقدم تفسير القرآن، ثم الحديث، ثم أصول الدين، ثم أصول الفقه، ثم المذهب ثم الخلاف أو النحو أو الجدل".[٢]

ويستنتج الباحث من هذا أن الاهتمام قبل زمن البحث وخلاله وبعده كان مُركزًا على دراسة العلوم الشرعية، وما يخدمها من علوم، وهذا أمرٌ يتوافق مع الأولويات في شرف العلوم وفضلها.

---

(١) علي بن محمد بن حبيب البصري (ت ٤٥٠هـ/١٠٥٥م) أدب الدنيا والدين، تحقيق مصطفى السقا.- ط٤.- بيروت: دار الكتب العلمية، ١٣٩٨هـ (١٩٧٨م) - ص٤٤.

(٢) تذكرة السامع والمتكلم.- ص٣٥-٣٦.

وقد عرّف ابن خلدون العلوم الشرعية بأنها: العلوم النقلية الوضعية وكلها مستندة إلى الخبر عن الواضع الشرّعي، ولا مجال فيها للعقل، وأن أصل هذه العلوم النقلية كلها هي الشرعيات من الكتاب والسنة، وما يتعلق بذلك من العلوم التي تهيئها للإفادة.[١]

وتشتمل العلوم الشرعية على فروع عديدة من أهمها:

١ ـ علم القراءات:

القرآن الكريم أنزله الله تعالى على رسوله رحمة للعالمين، وهو مصدر التشريع الأول لدى المسلمين، وقد تفرّعت عن دراسة القرآن علومٌ عديدة مثل: علم القراءات، وتجويد القراءة، وتفسير القرآن، ودراسة أحكامه وأسباب النزول، وغيرها.

وكان المسلمون قد حرصوا على تعليم أبنائهم القرآن الكريم منذ الصغر، وعلى مداومة قراءاته كل يوم حتى يحفظوه، ويُتقنوا قراءته وتجويده امتثالاً لأمر الرسول ﷺ القائل: (خيركم من تعلّم القرآن وعلمه).[٢]

ولقد اهتم علماء المسلمين بالقراءات القرآنية حتى أصبح علمًا مهمًا بين علوم القرآن بخاصة والعلوم الشرعية بعامة، وصُنفت في هذا العلم العديد من المؤلفات نظمًا ونثرًا.

وقد عُرّف علم القراءات بأنه: علم يُبحثُ فيه عن صور نظم كلام الله تعالى، من حيث وجوه الاختلافات المتواترة، وفائدته صون كلام الله تعالى عن التحريف والتغيير والتبديل.[٣]

---

(١) المقدمة.- ص٤٠١.

(٢) البخاري، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل (ت ٢٥٦هـ/٨٧٠م) صحيح البخاري. استانبول: المكتبة الإسلامية، (١٩٧٩م) - ج٦، ص١٠٨.

(٣) طاش كبري زادة، أحمد بن مصطفى (ت ٩٦٨هـ/١٥٦١م) مفتاح السعادة ومصباح السيادة في موضوعات العلوم.- بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤٠٥هـ (١٩٨٥م) - ج٢، ص٦.

يقول ابن خلدون: القرآن هو كلام الله المنزل على نبيه المكتوب بين دفتي المصحف، وهو متواتر بين الأمة. إلا أن الصحابة رووه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم على طرق مختلفة في بعض ألفاظه وكيفيّات الحروف في أدائها وتُنُوقل ذلك واشتهر إلى أن استقرت منها سبع طرق معينة تواتر نقلها أيضًا بأدائها واختصت بالانتساب إلى من اشتهر بروايتها من الجحم الغفير. فصارت هذه القراءات السبع أصولاً للقراءة. وربما زِيد بعد ذلك قراءات أخر أُلحقت بالسبع، إلا أنها عند أئمة القراءة لا تقوى قوتها في النقل.[1]

ويتضمن علم القراءات فروعًا عديدة منها: مخارج الحروف، ومخارج الألفاظ وعلامات الوقف، وعِلل القراءات، ورسم كتابة القرآن في المصاحف، وآداب كتابة المصاحف.[2]

وقد نشِط علم القراءات في العهد الزنكي، وكان من العلوم التي تُدرّس في دُوُر التعليم المختلفة، كما ظهر عديد من علماء القراءات الذين كانت لهم مصنفات مهمّة في القراءات أثرت هذا الفرع من العلوم الشرعية، ولا تزال بعض كتبهم تُدرّس حتى الوقت الحاضر، كما تنوعت ثقافة علماء القراءات في ذلك العهد، إذ أن البعض منهم كان يتلقى القرآن عن شيخه، ويكتفي بإقرائه لطلابه، مكتفيًا من الثقافة بهذا الحد مع معرفة بعض اصطلاحات هذا العلم، ولكن كثيرًا من هؤلاء القُراء لم يكتف بهذه الثقافة، بل يُضيف عليها دِراسات أخرى كان أكثرها في النحو والفقه، وقد تتسع ثقافة بعضهم فيضيف إليها التفسير والحديث، أو يدرُس علم اللّغة بإتقان، أو علم الأصول، أو يتجه اتجاهًا أدبيًا فيدرس اللّغة والأدب، ويُمارس الكتابة، أو قول الشعر أو التاريخ،

---

(١) المقدمة.- ص٤٠٢.
(٢) طاش كبري زادة: مفتاح السعادة.- ج٢، ص٣٣٣-٣٤١.

أو تتسع ثقافة البعض فيدرس إلى جانب ذلك علم الحِساب والجبر، والمُقابلة وعِلم الفرائض.[1]

وكان من أبرز علماء القراءات في العهد الزنكي:

ـ عبدالعزيز بن علي بن محمد بن سلمه أبو حميد وأبو الأصبغ السماتي الإشبيلي المعروف بابا الطحّان المتوفى بحلب سنة ٥٦٠هـ (١١٦٤م) أستاذ كبير وإمام مُحقق بارع مجود ثقة وُلد سنة ٤٩٨هـ (١١٠٤م) تنقل بين البلاد طلبًا للعلم، ودخل الشام، ومات بحلب بعد الستين وخمس مئة،[2] وكانت له مُصنفات مهمّة في القراءات منها كتاب "الوقف والابتداء" وكتاب "مُرشد القاري إلى تحقيق معالم المقاري" الذي قال عنه ابن الجزري: "لا يعرف قدره إلا من وقف عليه".[3] وذكر البغدادي من تصانيفه: "مقدمة في أصول القراءات"، و"مقدمة في مخارج الحروف"، "ونظام الأداء في الوقف والابتداء".[4]

كما برز من مُقرئي العهد الزنكي: أبو بكر يحي بن سعدون بن تمّام بن محمد الأزدِي المتوفى بالموصل سنة ٥٦٧هـ (١١٧٢م)[5] من أهل قُرطبة، سكن دمشق والموصل أحد أئمة اللّغة والقرآن وله يدٌ قوية في النحو والقراءة بروايات مصر والعراق تنقل بين البلاد يطلب العلم حتى وصل الموصل، وأقام بها إلى أن مات، وأقرأ الناس

---

(١) أحمد بدوي. الحياة العقلية في عصر الحروب الصليبية.- ص٩٣-٩٤.

(٢) له ترجمة كاملة في ابن الجزري. غاية النهاية في طبقات القراء.- ج١، ص٣٩٥.

(٣) المصدر السابق.- ج١، ص٣٩٥.

(٤) إسماعيل باشا بن محمد أمين الباباني البغدادي (ت ١٣٣٩هـ/١٩٢٠م) هدية العارفين في أسماء المؤلفين وآثار المصنفين من كشف الظنون.- بيروت: دار الفكر، ١٤٠٢هـ (١٩٨٢م) ج ٥٧٩/١.

(٥) ترجم له ياقوت. معجم الأدباء.- ج٢٠، ص١٤-١٥؛ القفطي. إنباه الرواة.- ج٤، ص٤٣؛ الذهبي. سير أعلام النبلاء.- ج٢٠، ص٥٤٦؛ العبر.- ج٣، ص٥٣؛ ابن الجزري. المصدر السابق.- ج٢، ص٣٧٢.

القرآن الكريم بالقراءات، وانتفع به خلقٌ عظيم، قال عنه ياقوت: "شيخ فاضل عارف بالنحو ووجوه القراءات".[1] وقال الذهبي: "وبرع في العربية والقراءات وتصدر فيهما مدة"،[2] ولكن لم يُعثر له في مصادر ترجمته على مصنفات في هذا العلم.

وممن اشتهر أيضًا في علم القراءات في هذا العهد الإمام أبو المعالي المُقرئ الفقيه الشافعي المُلقب بالفخر الموصلي المتوفى سنة ٦٢١هـ (١٢٢٤م)،[3] وهو محمد بن أبي الفرج بن معالي بن بركة بن الحسين الموصِلي، كان مولده بالموصل في ذي الحجة سنة ٥٣٩هـ (١١٤٥م)، وصحب أبا بكر يحيى بن سعدون الأزدي، وقرأ عليه القرآن بالروايات، ثم رحل إلى بغداد، وتفقه بنظاميتها، وصار معيدًا بها، وكان بصيرًا بعلل القِراءات وله فيها تصانيف مُفيدة منها: "كتاب في مخارج الحروف" لم أقف على تسمية له إلا عند الديوه جي الذي أسماه "الدُر الموصوف في مخارج الحروف".[4]

ومن القُرّاء المشهورين: أبو عبد الله محمد بن أحمد بن محمد بن أحمد بن الحسين الموصلي الحنبلي الملقب بشعّلة المتوفى بالموصل سنة ٦٥٦هـ (١٢٥٨م)[5] إمام ناقل وأستاذ عارف قرأ القراءات صغيرًا، وكان شيخ القُراء في الموصل، مُتضلعًا بالعربية والنظم والنحو، ومن نظمه كتاب "الشمعة في قراءات السبعة" قصيدة رائية جمع فيها

---

(١) المصدر السابق.- ج٢٠، ص١٤.

(٢) العبر.- ج٣، ص٥٣.

(٣) ترجم له الذهبي في: المختصر المُحتاج إليه من تاريخ ابن الدُبيشي، تحقيق مصطفى جواد.- بغداد: مطبعة المعارف، ١٣٧١هـ (١٩٥١م) - ص١٦٨؛ السبكي.- طبقات الشافعية الكبرى.- ج٨، ص١١٤-١١٥؛ ابن كثير.- البداية والنهاية.- ج١٣، ص١٠٥؛ ابن الجزري. غاية النهاية.- ج٢، ص٢٢٨؛ ابن تغري بردي. النجوم الزاهرة.- ج٦، ٢٥٩.

(٤) تاريخ الموصل.- ج١، ص٣٩٣.

(٥) ترجم له: الذهبي العبر.- ج٣، ص٢٨٣؛ ابن الجزري. المصدر السابق.- ج٢، ص٨٠-٨١؛ ابن العماد. الشذرات.- ج٥، ص٢٨١-٢٨٢.

القـراءات[1]، وشـرح أيضًـا الشـاطبية[2]، شـرحًا سمّـاه كـنز المعـاني في شـرح حِـرز الأماني".[3]

كما تُشير كتب المصادر التاريخية وكتب التراجم إلى ظهور عدد آخر من عُلماء القراءات المبرزين في هذا العهد يطول البحث في إحصائهم.[4]

٢ ـ علم التفسير:

وهو علم يُبحث به عن معنى نظم القرآن بحسب الطاقة البشرية، وبحسب ما تقتضيه القواعد العربية، ويُستفاد منه في القدرة على استنباط الأحكام الشرعية على وجه الصحة.[5]

ويعرفه التهانوي بأنه " علم يُعرف به نزول الآيات، وشؤونها وأقاصيصها، والأسباب النازلة فيها، ثم ترتيب مكيّها ومدنيّها، ومُحكمها ومُتشابهها، وناسخها، ومنسوخها، وخاصها، وعامها، ومطلقها، ومقيّدها، ومجملها ومفسرها، وحلالها، وحرامها، ووعدها، ووعيدها، وأمرها، ونهيها. وأمثالها وغيرها".[6]

---

(١) ابن الجزري. المصدر السابق.- ج٢، ص٨٠.

(٢) قصيدة مشهورة في القراءات للقاسم بن فِيّرة بن خلف الرعيني الشاطبي المتوفى بالقاهرة سنة ٥٩٠هـ (١١٩٤م) وتسمى الشاطبية " حِرز الأماني ووجه التهاني" وعدتها ألف ومائة وثلاثة وسبعون بيتًا قال عنها ابن خلكان. لقد أبدع فيها كل الإبداع، وهي عمدة قراء هذا الزمان في نقلهم، فقلّ من يشتغل بالقراءات إلا ويقدم حفظها ومعرفتها، وهي مشتملة على رموز عجيبة وإشارات خفيفة لطيفة، وما أظنه سُبق إلى أسلوبها" (وفيات الأعيان.- ج٤، ص٧١ـ٧٢)

(٣) ابن الجزري المصدر السابق.- ج٢، ص٨١.

(٤) إن طبيعة البحث لا تسمح باستعراض جميع المُقرئين ومؤلفاتهم، ولكن الباحث اقتصر على أشهرهم ويُمكن الاطلاع على بعضهم مثلاً في: ابن خلكان. وفيات الأعيان.- ج٣، ص٥٣ـ٥٤ ؛ الذهبي.العبر.- ج٣، ص١٨٥، ٣٥٠ ؛ ابن الجزري. غاية النهاية.- ج٢، ٢٢٨، ابن العماد. شذرات الذهب.- ج٥، ص٩٦.

(٥) طاش كبري زاده. مفتاح السعادة.- ج٢، ص٥٤.

(٦) التهانوي، محمد بن علي الفارقي (ت ١١٥٨م/١٧٤٥م) كشاف اصطلاحات الفنون، تحقيق، لطفي عبدالبديع وترجم النصوص الفارسية، عبدالنعيم حسنين.- القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٣٨٢هـ (١٩٦٣م) - ج١، ص٣٣.

وقد وضع العلماء منهجًا علميًا لمن أراد أن يتصدى لتفسير كتاب الله فقال التهانوي: " إن العلوم التي يحتاج المفسر إليها خمسة عشر علمًا: هي: اللغة، والنحو، والتصريف، والاشتقاق، والمعاني، والبديع، وعلم القراءات ليعرف به كيفية النطق بالقرآن، وأصول الدين، وأصول الفقه، وأسباب النزول والقصص، والناسخ والمنسوخ، والفقه والأحاديث، والموهبة."[1]

وكانت حركة التفسير نشطة في العهد الزنكي حيث كان التفسير مادة أساسية في بعض دُوُر التعليم في هذا العهد، وبرز فيه علماء أجلاء تركوا أثرًا زاخرًا في هذا العلم، كان من أبرزهم:

الإمام الحافظ حجة الدين محمد بن أبي محمد بن ظفر الصقلّي المتوفى سنة ٥٦٥هـ (١١٦٩م)،[2] وذكر له ياقوت من التصانيف في التفسير " كتاب التفسير الكبير"، " وينبوع الحياة"،[3] " وإكسير كيمياء التفسير" و"أساليب الغاية في أحكام آية".[4]

ومن المفسرين المبرزين عالي بن إبراهيم الغزنويّ المتوفى في حلب سنة ٥٨٢هـ (١١٨٦م) وكان قد تلقى تعليمه في بغداد على إمام التفسير في عصره محمود بن عمر بن محمد الزمخشري المتوفى سنة ٥٣٨هـ (١١٤٤م) صاحب الكشّاف في التفسير، فلما عاد

---

(١) المصدر نفسه.- ج١، ص٣٥.

(٢) سبقت ترجمته في الفصل الثاني من هذا البحث.

(٣) هذا الكتاب أسماه القفطي في إنباه الرواة.- ج٣، ص٧٤ " الينبوع"، وفي مقدمة كتابه " أنباء نجباء الأبناء"، تحقيق لجنة إحياء التراث العربي.- بيروت: دار الآفاق الجديدة، ١٤٠٠هـ (١٩٨٠م) - صفحة (ج) أورد المحقق من ضمن تصانيفه كتاب " ينبوع الحياة في تفسير القرآن" وأنه في ١٢ مجلدًا، وذكره حاجي خليفة في كشف الظنون ج٢/٢٠٥٢ تحت عنوان: " ينبوع الحياة" وأن منه ثلاثة أجزاء مخطوطة في دار الكتب المصرية رقم (٣١٠) تفسير.

(٤) معجم الأدباء.- ج١٩، ص٤٨-٤٩.

إلى حلب تولى التدريس فيها، وألّف مصنفات عديدة في التفسير والفقه واللّغة، والأصول، وكان أشهر ما ألّفه في التفسير كتاب: "تقشير التفسير"،[1] وقد فرغ من تصنيفه في حلب سنة ٥٧٢هـ (١١٧٦م).[2]

كما برز من مفسري العهد الزنكي: الإمام مجد الدين أبو السّعادات المبارك بن محمد الشيبانيّ المعروف بابن الأثير الجزري المتوفى سنة ٦٠٦هـ (١٢٠٩).[3] قال عنه ياقوت الحموي" وكان عالمًا فاضلاً وسيّدًا كاملاً، قد جمع بين عِلم العربية والقرآن والنّحو واللّغة والحديث وشُيُوخه وصِحته وسُقمه والفِقه وكان شافعيًّا، وصنّف في كلّ ذلك تصانيف هي مشهورة بالموصل وغيره"،[4] ومن مصنفاته في التفسير كتاب: "الإنصاف في الجمع بين الكشفِ والكشّاف" وهو كتاب كبير جمع فيه بين كتاب الكشف والبيان في تفسير القرآن لأبي إسحاق أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبيّ النيسابُوري المتوفى سنة ٤٢٧هـ (١٠٣٦م) وكتاب " الكشّاف عن حقائق التنزيل" لأبي القاسم جار الله محمود بن عمر بن محمد الزمخشرِي المتوفى سنة ٥٣٨هـ (١١٤٣م)[5] وقد ذكر ياقوت أن كتاب الإنصاف يقع في أربع مجلدات،[6] وذكره حاجي خليفة في كتابه كشف الظنون.[7]

ومن مفسري العهد الزنكي أيضًا الإمام أبو الفتح موسى بن أبي الفضل يُوسف ابن محمد بن منعه بن مالك بن محمد الملقب كمال الدين، الفقيه الشافعي المتوفى سنة

---

(١) ذكره حاجي خليفة (المصدر السابق) - ج١/٤٦٦ وأنه في مجلدين، وأنه أبدع فيه وأجاد.

(٢) السيوطي. بغية الوعاة.- ج٢، ص١٤٠.

(٣) سبقت ترجمته في الفصل الثالث.

(٤) معجم الأدباء.- ج١٧، ص٧١.

(٥) ابن خلكان. وفيات الأعيان.- ج٤، ص١٤١.

(٦) المصدر السابق.- ج١٧، ص٧٦.

(٧) ج١/١٨٢.

٦٣٩هـ (١٢٤٢م)،[(١)] ذكر عنه ابن خلكان أن له يد جيدة في علم التفسير،[(٢)] كما ذكر ابن أبي أصيبعة أنّ له في التفسير مُصنّف أسماه: "كشف المُشكلات وإيضاح المُعضلات".[(٣)]

وممن صنّف في التفسير أيضًا الشيخ مُوفق الدين الشيبانِي الكواشيّ المتوفى سنة ٦٨٠هـ (١٢٨١م).[(٤)] ولد الشيخ أحمد بن يوسف بن حسن بن رافع الشيباني الموصلي سنة ٥٩١هـ (١١٩٥م) بقلعة كواشي، وبرع في القراءات والتفسير، والعربية، وصنّف كتاب " التفسير الكبير، والتفسير الصغير"،[(٥)] وأضرّ قبل موته بنحو عشر سنين.[(٦)]

٣ـ الحديث:

هذا العلم يبحث عن كيفيّة اتصال الأحاديث بالرسول ﷺ من حيث أحوال رواتها ضبطًا وعدالة، ومن حيث كيفيّة السند اتصالاً وانقطاعًا، وغير ذلك من الأحوال وهذا ما يُسمى بعلم رواية الحديث.[(٧)]

أما علم دراية الحديث فهو ما يبحث عن المعنى المفهوم من ألفاظ الحديث، وعن المعنى المُراد مبنيًا على قواعد اللّغة العربية، وضوابط الشريعة ومطابقًا لأحوال النبي ﷺ.[(٨)]

---

(١) سبقت ترجمته في الفصل الثالث، ص١٣٣.
(٢) المصدر السابق.- ج٥، ص٣١٢.
(٣) عيون الأنباء.- ص٤١٢.
(٤) ترجم له: الذهبي في العبر.- ج٣، ص٣٤٣ ؛ السبكي.- طبقات الشافعية.- ج٨، ص٤٢ ؛ ابن العماد. الشذرات.- ج٥، ص٣٦٥
(٥) السبكي.- طبقات الشافعية.- ج٨، ص٤٢.
(٦) الذهبي.العبر.- ج٣، ص٣٤٣.
(٧) طاش كبرى زاده. مفتاح السعادة.- ج٢، ص٥٢.
(٨) المصدر نفسه.- ج٢، ص١١٣.

وقد عني المسلمون بالحديث الشريف عناية فائقة بما وضعوا من قوانين للرواية كضمان لنقل الروايات واختبارها، وكان من أهم هذه القوانين البحث في إسناد الحديث، وفحص أحوال الرّواة، وتمكنوا من تقسيم الأحاديث بحسب متونها من جهة، وبحسب أسانيدها من جهة أخرى، واستنبطوا مصطلحات خاصة عُرِفوا بها، وحرصوا على الالتزام بها، فأصبحت علمًا قائمًا بذاته.[1]

وقد بيّن الإمام السمعانِيّ المتوفى سنة ٥٦٢هـ (١١٦٦م) شرف علم الحديث وفضله فقال: " إعلم وفقك الله أن علم الحديث أشرف العلوم بعد العلم بكتاب الله سبحانه وتعالى إذ الأحكام مبنيّة عليهما ومستنبطة منهما، والله سبحانه وتعالى شرّف نبيه ﷺ حيث قال: ﴿ وَمَا يَنْطِقُ عَنْ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى ﴾.[2] وألفاظ رسول الله ﷺ لابد لها من النقل، ولا تُعرف صحتها إلا بالإسناد الصحيح والصحّة في الإسناد لا تُعرف إلا برواية الثّقة والعدل عن العدل".[3]

ويُلحق بهذا العلم، علم شرح الحديث، وعلم أسباب ورود الأحاديث وأزمنته وأمكنته، وعلم ناسخ الحديث ومنسوخه، وعلم تأويل أقول النبي ﷺ، وعلم رموز أقوال النبي وإشاراته ﷺ، وعلم غرائب لغات الحديث، وعلم دفع مطاعن الحديث، وعلم تلفيق الأحاديث، وعلم أحوال رواة الأحاديث وعلم طبّ النبي ﷺ إلى غير ذلك من التقسيمات الدارجة تحت هذا العلم.[4]

ولقد اهتم العُلماء المسلمون في جميع العصور بالحديث منذ بدأ تدوينه، وتنقيته، وتمييز صحيحه من حسنه، وضعيفه من غريبه، فقاموا بنقد الحديث، ونقد سنده،

(١) ابن الصلاح. مقدمة ابن الصلاح في علوم الحديث.- ص٣ـ٥.
(٢) سورة النجم، آية ٣ـ٤.
(٣) أدب الإملاء والاستملاء.- ص٣ـ٤.
(٤) طاش كبري زادة. مفتاح السعادة.- ج٢، ص٣٤١ـ٣٤٤.

ودققوا في سِير المُحدثين وتراجمهم، ثم ألّفوا في علوم الحديث وأجادوا، ثم انصرفت العناية بعد ذلك إلى تصحيح أمهات كتب الحديث وضبطها بالرواية عن مصنفيها، والنظر في أسانيدها إلى مؤلفيها لضمان إحكام نقل الأسانيد إلى منتهاها.(١)

وفي العهد الزنكي زاد الاهتمام بدراسة الحديث الشريف والتصنيف فيه حتى أنه يمكن أن يُعد هذا العهد من العصور الذهبية لدراسات الحديث والتأليف فيه، ففيه أنشئت أول دار للحديث في الإسلام وهي دار الحديث النورية بدمشق،(٢) وفيه شهد هذا العلم مشاركة المرأة المسلمة في إتقان علم الحديث رواية ودراية حتى بلغ الأمر تفرد بعض النساء بروايات لم تُسمع من غيرهن، وهذا يتضح من خلال ترجمة ابن عساكر لمعاصريه أو سرده حديثًا من الأحاديث الشريفة، فكثيرًا ما يُردد عبارة: "أخبرتنا فُلانه" أو "سمعنا من فُلانة".(٣)

ولعل من أبرز عوامل الاهتمام بعلم الحديث ودراسته والتأليف فيه في هذا العهد اهتمام الملك العادل نور الدين محمود نفسه بهذا العلم فقد أثر عنه أنه كان مهتمًا بدراسة الحديث الشريف وفهمه،(٤) كما كان له إجازات عديدة في هذا العلم من عدة شيوخ.(٥) وبلغ من حرصه على هذا العلم أن صنّف كتابًا في فضائل الجهاد وأحاديثه وهو بدمشق.(٦)

---

(١) صُنّفت في علم الحديث ومصطلحه مصنفات مهمّة يمكن الرجوع إليها. أهمها الخطيب البغدادي المتوفى سنة ٤٦٣هـ (١٠٧٠م) كتاب الكفاية في علم الرواية.- القاهرة: دار الكتب الحديثة، (د.ت) ؛ وابن الصلاح. مقدمته في علوم الحديث.

(٢) ابن الأثير. التاريخ الباهر.- ص١٧٢ ؛ أبو شامة. كتاب الروضتين.- ج١، ق١، ص٢٣ ؛ ابن واصل. مفرج الكروب.- ج١، ص٢٨٤ ؛ المقريزي. الخطط.- ج٢، ص٣٧٥.

(٣) ابن عساكر. تاريخ مدينة دمشق.- (تراجم النساء) ص١٥، ١٩٨، ٢٤٩، ٣٧٥، ٥٣٣.

(٤) ابن الأثير. التاريخ الباهر.- ص١٦٥.

(٥) ابن عساكر. تاريخ دمشق (مخطوط) - ج١٦، ص٢٩٥.

(٦) سبط ابن الجوزي. مرآة الزمان.- ج٨، ق١، ص٣١٣.

كما كان الاهتمام بعلم الحديث لونًا من ألوان التوجيه الذي فرضه الوجود الصليبي على الدراسات في تلك الفترة، فقد شارك الحافظ ابن عساكر المتوفى سنة ٥٧١هـ (١١٧٦م) في هذا المجال بجمع أربعين حديثًا في فضائل الجهاد في جزء واحد أهداه إلى الملك نور الدين محمود،[١] كما صنف ابن الجوزي المتوفى سنة ٥٩٧هـ (١٢٠١م) مصنّفًا جمع فيه أحاديث الجهاد وفضائله في كتاب أسماه: "البحر النُورِي".[٢]

وقد زاد الاهتمام بهذا العلم، حيث ظهر في العهد الزنكي عدد كبير من رجال الحديث الذين أفنوا أعمارهم في جمعه وتصنيفه وضبطه وتنقيحه، ومنهم علماء جمعوا تراجم مُستفيضة لرجال الحديث في جميع العصور، وكان لهؤلاء العلماء فضل لا ينكر في الكتابة والتصنيف في هذا الفرع من العلوم الشرعية. كما اهتم العديد من طلاب العلم والعلماء بالرحلات العلمية داخل البلاد الزنكية وخارجها، وحصلوا خلال تلك الرحلات على العديد من الإجازات العلمية، كما قصد المدن الزنكية لهذه الغاية أعداد من علماء البلدان الإسلامية وكذلك طلاب علم الحديث لسماع الحديث على عُلمائه،[٣] وكان نتاج هذه الحركة العلمية نشاط رائع في دراسات الحديث، وبرز خلال فترة البحث في البلاد الزنكية العديد من أعلام الحديث الذين كانت لهم مشاركات فعّالة سواء في مجال التدريس في المدارس والزوايا ودُوُر الحديث المتخصصة أو في مجال التصنيف في علوم الحديث أو بهما معًا.

ومن أبرز علماء الحديث، في العهد الزنكي:

الإمام الحافظ أبو القاسم علي بن هبة الله بن عبد الله الشافعي المعروف بابن

(١) ياقوت. معجم الأدباء.- ج١٣، ص٧٨.
(٢) سبط ابن الجوزي. المصدر السابق.- ج٨، ق١، ص٣١٣.
(٣) سبق الحديث عن الرحلات والإجازات العلمية في الفصل السابق واكتفي بما ذكر تجنبًا للتكرار.

عساكِر الدِمشقي المتوفى سنة ٥٧١هـ (١١٧٦م)[١] أحد أئمة الحديث المشهورين والعُلماء المذكورين في هذا العهد أمضى من حياته زهاء أربعين عامًا في الجمع وانتصنيف والتدريس والتسميع، حتى جمع في الحديث زهاء أربعين عامًا في الجمع والتصنيف والتدريس والتسميع، حتى جمع في الحديث مالم يجمعه غيره، وكان من أبرز ما خلّفه في علم الحديث ماجاء في: "تاريخ مدينة دمشق" الذي يقع في ثمانين مجلدة أورد فيه تراجم الأعيان والرواة والمحدثين، والحُفّاظ، وسائر أهل السياسة والعلم من صدر الإسلام إلى أيامه ممن سكن دمشق، أو نزل بها أو اجتاز بنواحيها، توخى فيه الإسناد على طريقة المحدثين، وهذا الكتاب بالإضافة إلى اعتباره مصدرًا من مصادر التاريخ الإسلامي كما سيرد[٢]، إلا أنه يُعدُّ من كُتب الحديث المهمّة لما جمعه فيه ابن عساكر من أحاديث وأخبار حرص فيها على الالتزام بالأسانيد وتتبع أحوال الرّواة، ذلك أنه أسند كل خبر إلى قائله بالسند المتصل إليه عند استفادته من مؤلفات من سبقه، فجاءت أحاديثه مضبوطة، وأخباره صحيحة، هذا بالإضافة إلى مصنفاته الأخرى في الحديث ومنها:

كتاب جمع فيه بين سُنن أبي داوُد، وجامع التّرمذيّ، والنسائي، رتّبه على حروف المُعجم، وأسماه: "الإشراف على معرفة الأطراف" ذكره ياقوت في ثمانية وأربعين جزءًا.[٣] وله أيضًا كتاب جمع فيه ما تفق عليه شيوخ الأئمة الثقات في الحديث، في اثنتين وسبعين جزءًا.[٤]

---

(١) سبقت ترجمته في الفصل الأول.

(٢) في الحديث عن أبرز آثار علماء التاريخ في هذا العهد، أنظر المبحث الخاصّ بذلك ضمن هذا الفصل.

(٣) معجم الأدباء.- ج١٣، ص٧٧، ولا يزال هذا الكتاب مخطوطًا بدار الكتب المصرية، رقم ٣٣ حديث.

(٤) المصدر نفسه.- ج١٣، ص٧٦-٧٧ وهو كتاب مفقود.

وللحافظ أيضًا مجموعات في الحديث ذات صبغة خاصة كالأحاديث الخُماسيّة الإسناد، أو السُداسية، أو السُباعية، وكتاب في المُسلسلات في عشرة أجزاء، وكتاب في تشريف يوم الجمعة وفضله في سبعة أجزاء، وله أمالي في الحديث ضخمة، كما جمع أنواعًا عديدة من الأربعينات، فاقتدى بالحافظ السلفيّ فيما جمعه من أربعين حديثًا، سمعها في أربعين بلدًا، نقلها عن أربعين شيخًا، وزاد على ما أتى به من الغرابة بأن جعلها عن أربعين صحابيًا، كما جمع أربعين حديثًا في فضائل الجهاد في جزء واحد، وجمع أربعين حديثًا من الطوال في ثلاثة أجزاء إلى غير ذلك من كتب الحديث التي أشار إليها ياقوت في كتابه.[1] كما اشتهر الحافظ ابن عساكر بعقد مجالس إملاء الحديث في الجامع الأموي بدمشق حيث ذكر عنه ياقوت أنه: "أملى أربعمائة مجلس وثمانية مجالس في فنٍ واحد".[2]

وقد نُشر في دمشق مجلسان من هذه المجالس، كلّ مجلس يُعد موضوعًا قائمًا بذاته، نهج فيه ابن عساكر نهج المحدثين في مجالسهم، فهو يبدأ بالتسمية، والصلاة على النبي ﷺ، ثم يروي أحاديث عديدة في الموضوع يذكر فيها سنده مُبتدئًا بشيخه الذي روى عنه حتى يصل إلى النبي ﷺ، ثم يذكر رواة الحديث، ويُخرجه على طريقة المُحدثين، ثم يروي عن شيوخه كذلك ما قاله العُلماء والوعاظ من المأثورات في الموضوع، ثم يختم المجلس بأبيات من الشعر، وهذان المجلسان اللذان حقّقهما محمد مطيع الحافظ الأول: " المجلس الرابع عشر" في " ذمّ من لا يعمل بعلمه" والثاني: وهو "المجلس الثالث والخمسون" في " ذمّ قُرناء السوء"، وقد أملى ابن عساكر هذه المجلسين في جامع دمشق الكبير، أملى المجلس الأول في الحادي عشر من محرم سنة ٥٥٠هـ

(١) نفسه.- ج١٣، ص٧٧-٨٣.
(٢) نفسه.- ج١٣، ص٨١.

(١١٥٥م) وأما الثاني فقد أملاه في يوم الاثنين الخامس والعشرين من شوال سنة ٥٣٨هـ (١١٤٤م).[١] وقد جُمع هذان المجلسان في كتاب صدر عن دار الفكر بدمشق بطبعته الأولى سنة ١٣٩٩هـ (١٩٧٩م).

وممن برز في علم الحديث في هذا العهد: الإمام مجد الدين أبو السعادات المُبارك ابن الأثير الجزري المتوفى سنة ٦٠٦هـ (١٢٠٩م).[٢] وقد اشتهر مجد الدين بن الأثير في علوم عديدة كان منها علم الحديث حيث صنّف فيه مُصنفات هامة كان من أبرزها:

" جامع الأصول في أحاديث الرسول".[٣] ذكر ياقوت أنه جمع فيه بين البُخاري ومُسلِم والمُوطأ وسُنن أبي داود وسُنن النسائي والتّرمِذي. عمِله على حُروف المُعجم، وشرح غريب الأحاديث ومعانيها وأحكامها، ووصف رجالها ونبّه على جميع ما يُحتاج إليه مِنها" ثم قال: " أقطع قطعًا أنّه لم يُصنّف مِثله قطّ ولا يصنف".[٤] وقد طُبع هذا الكتاب لأول مرة في القاهرة سنة ١٣٦٨هـ (١٩٤٩م) في اثني عشر جُزءًا بعناية عبدالمجيد سَليم، وحامد الفقي، وهي طبعة ناقصة، ثم أعيد نشره كاملاً بتحقيق: عبدالقادر الأرناؤوط، وطُبع في دمشق ١٣٩٤هـ (١٩٧٤م) في إحدى عشر جزءًا، وهي طبعة جديدة مشتملة على مقدمة وفهارس.

ولابن الأثير في الحديث أيضا: كتاب: "منال الطالب في شرح طوال الغرائِب".[٥] وقد أوضح في مقدمته أن الغرض من تأليفه هذا الكتاب هو شرح الأحاديث الطوال

(١) مقدمة الكتاب.- ص١٨.
(٢) سبقت ترجمته في الفصل الثالث.
(٣) ياقوت. معجم الأدباء.- ج١٧، ص٧٦؛ وقد ذكر أنه في عشر مجلدات؛ ابن خلكان. وفيات الأعيان.- ج٤، ص١٤١.
(٤) المصدر السابق.- ج١٧، ص٧٦.
(٥) ذكره السبكي باسم: "شرح غريب الطول" (طبقات الشافعية.- ج٨، ص٣٦٦).

المأثورة عن رسول الله ﷺ، وتبيين ما خَفَي منها، ومُعظم أحاديث هذا الكتاب تدُور حول أحاديث الوفود التي وفدت على رسول الله، وأحاديث المولد والمبعث، ودلائل النبوة وخصائصه ﷺ، وقد نشره في جزء واحد مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي بجامعة أم القرى بمكّة المُكرّمة سنة ١٤٠٣هـ (١٩٨٣م).[١]

كما برز هذا العهد: الحافظ أبو محمد عبدالقادر بن عبد الله بن عبدالرحمن الرّهاوي المتوفى بحرّان عام ٦١٢هـ (١٢١٥م) وكان مولده بالرّها سنة ٥٣٦هـ (١١٤١م)، ونشأ بالموصل وكان مولى لبعض المواصلة فأعتقه، فطلب العلم وسمع الحديث الكثير، ثم ارتحل في طلب الحديث إلى الشام، ومصر، ومنها إلى الإسكندرية وسمع بها، ثم دخل بغداد فسمع بها، ثم ذهب إلى أصبهان، ونيسابُور ومرو، وهراة، ثم عاد إلى الموصل وأقام بها مدة يُحدّث بدار الحديث المُظفّرِيّة، ثم سكن حرّان حتى وفاته وكان ثقة صالحًا كثير السماع حنبلّي المذهب، جمع أربعين حديثًا متباينة الإسناد والبلاد.[٢]

كما ظهر في هذا العهد عدد كبير من علماء الحديث، ولكنه نظرًا لما يكتنف حصرهم من صعوبة، فقد تمّ الاكتفاء بالإشارة إلى أبرزهم.

(١) راجع مقدمة الكتاب.

(٢) ابن المستوفى، شرف الدين بن أبي البركات الإربلي (-٦٣٧هـ/١٢٣٩م) تاريخ إربل، تحقيق سامي الصقار.- بغداد: دار الرشيد للنشر، بغداد، (١٩٨٠م) -ق١، ص١٣١-١٣٣ ؛ أبو شامة. ذيل الروضتين.- ص٩٠ ؛ ابن الفوطي. تلخيص مجمع الآداب.- ج٤، ق٢، ص ١٠٩٧ ؛ الذهبي. تذكرة الحفّاظ.- بيروت: دار الكتب العلمية، (د.ت) - ج٤، ١٣٨٧-١٢٨٩هـ ؛ العبر.- ج٣، ص١٥٧ ؛ ابن العماد الحنبلي. شذرات الذهب.- ج٥، ص٥٠.

٤ ـ الفِقـه وأصوله:

علم الفقه هو معرفة أحكام الله تعالى في أفعال المُكلّفِين بالوجوب والحظر، والندب، والكراهة والإباحة، وهي متلقاة من الكتاب والسنة، وما نصبه لشارع لمعرفتها من الأدلّة، فإذا استخرجت الأحكام من تلك الأدلّة قِيلَ لها: "فِقه".[(١)]

وعرّف طاش كبري زاده علم الفقه بأنه: علم يبحثُ عن الأحكام الشرعية الفرعِية العملية من حيث استنباطها من الأدلة التفصيلية، وله استمداد من سائر العلوم الشرعية والعربية[(٢)]

أما علم أصول الفقه فهو علم يُتعرفُ منه على استنباط الأحكام الشرعية الفرعية عن أدلتها الإجمالية اليقينية، والغرض منه تحصيل ملكة استنباط الأحكام الشرعية والفرعية من أدلتها الأربعة التفصيلية، الكتاب والسنة والإجماع والقياس.[(٣)]

وقد عمل العلماء في العهد الزنكي على جمع آثار من سبقهم كلّ بحسب مذهبه الذي ينتمي إليه من المذاهب السنية الأربعة "الحنفي، الشافعي، الحنبلي، المالكي" ورجحوا بين الرويات، وخرجُوا على الأحكام، وبنوا فتاويهم على شتى المسائل والفروع من أصول أئمتهم، وقواعدهم، وفتاويهم.

وكان المذاهب الشيعي منتشرًا في بلاد الشام في فترة وحدته مع مصر تحت سلطة الفاطميين، فلما تقلّص النفوذ الفاطمي عن منطقة الشام، استردت المذاهب السنية الأربعة مكانتها مرة أخرى في بلاد الشام، وذلك في المدة التي سبقت قدوم الصليبيين إلى المنطقة، وحينما بدأت الحروب الصليبية لم يكن للمذهب الشيعي رواج إلا في محيط ضيق، وهي البلاد التي ظلّت خاضعة لنفوذ الفاطميين (منطقة الساحل الشامي).[(٤)]

---

(١) ابن خلدون. المقدمة.- ص٤١٠.
(٢) مفتاح السعادة.- ج٢، ص١٧٣.
(٣) المصدر نفسه.- ج٢، ص١٦٣.
(٤) مثل صُور، وصيداء، وعسقلان، وعكّا، وجُبيل (ابن القلانسي. تاريخ دمشق.- ص٩٧)

وكان المذهب السني هو المذهب السائد في بلاد الشام منذ ذلك الوقت، والغلبة فيه لمذهب الإمام أبي حنيفة، ثم المذهب الشافعي، يليه المذهب الحنبلي، بينما يقل مذهب مالك في تلك الربوع.[1]

أما في بلاد الموصل فكان المذهب الشافعي هو السائد فيها إذ حرص الزنكيون على نشره فيها، واشترطوا في أكثر المدارس التي شيدوها أن يكون التدريس فيها على مذهب الشافعي،[2] ومع ذلك وُجد المذهب الحنفي في بعض الأحيان إلى جانب المذهب الشافعي، كما وُجد بالموصل بعض الفقهاء الحنابلة المتأثرون بالمذهب الحنبلي ببغداد، والذين حرصوا على نشر مذهبهم في الموصل،[3] ويأتي في الآخر المذهب المالكي، ولكن انتشاره كان ضعيفًا.

وقد برز خلال العهد الزنكي عُلماء أجلاء في الفقه وأصوله كان لبعضهم أبحاث رائعة ودراسات جليلة، ونظرات صائبة في دراسة الفقه الإسلامي وأصوله، ويمكن التعرف على أبرز هؤلاء العلماء ونتاجهم العلمي في هذا المجال بتوزيعهم على المذاهب السنية وفق الآتي:

١ ـ المذهب الشافعي:

وممن برز في هذا المذاهب، الإمام القاضي أبو الفضل كمال الدين محمد بن أبي محمد عبد الله بن أبي المظفر القاسم الشهرزوري المتوفى سنة ٥٧٢هـ (١١٧٦م)،[4] تفقه كمال الدين ببغداد، ثم قدم الموصل واستطاع أن ينال إعجاب حكام الموصل

---

(١) أحمد بدوي. الحياة العقليّة في عصر الحروب الصليبية.- ص١٤٨.

(٢) ابن الأثير. التاريخ الباهر.- ص٢٠١؛ الكامل في التاريخ.- ج٩، ص٣١٩-٣٢٠.

(٣) كان أشهرهم أبو المحاسن الجمعيّ الموصلي المتوفى سنة ٥٧١هـ (١١٧٥م) وقد جمع كتابًا اشتمل على طبقات الفقهاء الحنابلة (ابن العماد الحنبلي. شذرات الذهب.- ج٤، ص٢٤٠-٢٤١).

(٤) سبقت ترجمته في الفصل الأول.

والشام من الزنكيين، وقد وصف بأنه كان " فقيهًا أديبًا شاعرًا كاتبًا فكِه المُجالسة، يتكلم في الخلاف والأصول"،[1] هذا بالإضافة إلى شهرته في السياسة وأصول الحكم والكرم كما كان كثير الصدقات والمعروف، وأوقف أوقافًا كثيرة بالموصل ونصِيبين ودمشق على أعمال الخير وطلب العلم، وقد اشتهرت مدرسته بالموصل " الكماليّة القضويِة"، وكان رأس المدرسين فيها، حيث خصّصها لتدريس الفقه الشافعي،[2] وكانت شهرة القاضي كمال الدين في التدريس في هذه المدرسة إلى جانب قيامه بمهام القضاء والوزارة في الدولة الزنكية، ولم يُعثر في مصادر ترجمته على أية إشارة لمصنفات له في الفقه الشافعي.

ومن علماء الشافعية البارزين في هذا العهد: الإمام قطب الدين مسعود بن محمد النيسابُورِي الطريثيثي المتوفى سنة ٥٧٨هـ (١١٨٢م).[3] قال عنه السبكي: "كان إمامًا في المذهب الشافعي والخِلاف والأصول والتفسير والوعظ أديبًا مناظرًا"[4]، أما أبرز جهوده في علم الفقه فتتمثل في مصنفه الكبير: " كتاب الهادي" في الفقه، والذي قال عنه ابن خلكان: " وهو مختصر نافع لم يأت فيه إلا بالقول الذي عليه الفتوى".[5]

وممن برز في علم الفقه الشافعي أيضًا: الإمام شرف الدين عبد الله بن أبي عصرُون المتوفى سنة ٥٨٥هـ (١١٨٩م)،[6] وكان من أعيان الفقهاء في ذلك العهد، شارك في تدريس الفقه الشافعي في العديد من المدارس الزنكية، وصنّف كُتبًا كثيرة

---

(١) ابن خلكان. وفيات الأعيان.- ج٤، ص٢٤٢.

(٢) سبط ابن الجوزي. مرآة الزمان.- ج٨، ق١، ص٣٤٠ ؛ السبكي.- طبقات الشافعية.- ج٦، ص١١٧-١٢١.

(٣) سبقت ترجمته في الفصل الأول.

(٤) المصدر السابق.- ج٧، ص٢٩٧.

(٥) وفيات الأعيان.- ج٥، ص١٩٦.

(٦) سبقت ترجمته في الفصل الأول.

منها: " صفوة المذهب من نهاية المطلب" وهو في سبع مجلدات، وكتاب " الانتصار" لمذهب الشافعي في أربع مجلدات، وكتاب " المُرشِد" في مجلدين، وكتاب "الذريعة في معرفة الشريعة" في مجلد واحد، وكتاب " مآخذ النظر"، وكتاب " الإرشاد المُغرَب في نصرة المذهب" ولم يكمله، وذهب فيما ذهب له بحلب.[1]

ومن علماء الفقه الشافعي أيضًا الإمام: عماد الدين محمد بن يونس بن منعة الموصلي المتوفى سنة ٦٠٨هـ (١٢١١م)[2] قال عنه ابن خلكان: "كان إمام وقته في المذهب، والأصول، والخلاف، وكان له صيت عظيم في زمانه، وقصده الفقهاء من البلاد الشاسعة للاشتغال، وتخرج عليه خلق كثير حتى صاروا كلهم أئمة مدرسين يُشار إليهم"،[3] وكانت له رئاسة المذهب الشافعي بالموصل، وهو الذي استطاع أن يستميل الملك نور أرسلان شاه (٥٨٩-٦٠٧هـ/١١٩٣-١٢١٠م) إلى المذهب الشافعي بعد أن كان حنفيًا.[4] ومن أبرز تصانيفه في الفقه: " كتاب المُحيط في الجمع بين المُهذّب والوسيط"[5] جمع فيه بين كتاب " المُهذّب في المذهب" للإمام أبي إسحاق إبراهيم بن علي بن يوسف الشيرازي الفيروزأباديّ المُلقب جمال الدين إمام الفقه الشافعي ببغداد في وقته، والمتوفى سنة ٤٧٦هـ (١٠٨٣م)،[6] وكتاب الوسيط في الفروع للإمام أبي حامد محمد بن محمد الغزالي الشافعي المتوفى سنة ٥٠٥هـ (١١١٢م)،[7] كما شرح كتاب " الوجيز" للإمام الغزالي أيضًا[8]، ولم يُعثر على هذين الكتابين.

---

(١) ابن خلكان. المصدر السابق.- ج٣، ص٥٤ ؛ السبكي.- المصدر السابق.- ج٧، ص١٣٣-١٣٤.
(٢) سبقت ترجمته في الفصل الأول.
(٣) وفيات الأعيان.- ج٤، ص٢٥٣.
(٤) المصدر نفسه.- ج٤، ص٢٥٤، ابن الفوطي. تلخيص مجمع الآداب.- ج٤، ص٨٥٦.
(٥) ابن خلكان. المصدر السابق.- ج٤، ص٢٥٣ ؛ السبكي.- طبقات الشافعية.- ج٨، ص١١٠.
(٦) ابن خلكان المصدر السابق.- ج١، ص٢٩-٣١.
(٧) حاجي خليفة. كشف الظنون.- ج٢/١٩١٢، ٢٠٠٨.
(٨) ابن خلكان. المصدر السابق.- ج٤، ص٢٥٣.

٢ ـ المذهب الحنفي:

وممن برز في هذا المذهب: الشيخ عبدالغفار بن لُقمان بن محمد أبو المفاخر الكُردِي الملقب تاج الدين المتوفى سنة ٥٦٢هـ (١١٦٦م)[١] إمام الحنفية في حلب، كان على غاية من الزهد والورع، تولى قضاء حلب للملك نور الدين محمود بن زنكي، وخلّف آثارًا جمة في الفقه وأصوله، ففي الفقه شَرَحَ الجامع الصغير في الفروع للإمام المجتهد محمد بن الحسن الشيباني الحنفي المتوفى سنة ١٨٧هـ (٨٠٣م)، وكان يذكر لكل باب أصلاً ثم يخرّج عليه المسائل[٢]، وجمع المسائل التي يتحيّر في حلها العلماء في كتاب سمّاه " حِيرة الفقهاء"[٣]، وفي أصول الفقه شرح كتاب أستاذه ركن الدين عبدالرحمن ابن محمد الكِرمانيّ الحنفي المتوفى سنة ٥٤٣هـ (١١٤٨م) الموسوم بالتجريد في كتاب سمّاه " المُفيد والمزيد".[٤]

ومن فقهاء الحنفية البارزين في العهد الزنكي الإمام رضي الدين محمد بن محمد ابن محمد السرخسي المُلقب بُرهان الإسلام المتوفى بحلب عام ٥٧١هـ (١١٧٥م).[٥]

---

(١) ترجم له القرشي في الجواهر المُضيّة.- ج٢، ص٤٤٣-٤٤٤ ؛ ابن قطلوبغا، أبو العدل زين الدين قاسم (ت ٨٧٩هـ/١٤٧٤م) تاج التراجم في طبقات الحنفية.- بغداد: مطبعة مكتبة المثنى، (١٩٦٢م) - ص٣٧ ؛ اللكنوي، محمد عبدالحي اللكنوي (ت ١٣٠٤هـ/١٨٨٧م) الفوائد البهيّة في تراجم الحنفية.- القاهرة: مطبعة السعادة، (١٣٢٤هـ) - ص٩٨-٩٩، ويرد في بعض المصادر باسم " عبدالغفور".

(٢) القرشي. الجواهر المضية.- ج٢، ص٤٤٤ ؛ حاجي خليفة. كشف الظنون.- ج١، ص٥٦١-٥٦٢.

(٣) اللّكنوي. الفوائد البهية.- ص٨٩٨ ؛ البغدادي. هدية العارفين.- ج١، ص٥٨٧.

(٤) القرشي. المصدر السابق ؛ حاجي خليفة. المصدر السابق.- ج١، ص٣٤٥-٣٤٦. والتجريد يقال له " التجريد الرّكني" وهو في الفروع (القرشي. المصدر السابق.- ج٢، ص٤٤٤)

(٥) ترجم له: القرشي. المصدر نفسه.- ج٣، ص٣٥٧-٣٥٨ ؛ ابن قطلوبغا. تاج التراجم.- ص ٥٨-٥٩ ؛ طاش كبري زادة. طبقات الفقهاء.- الموصل: مكتبة غازي.- ص١٠١.

قدم حلب في عصر نور الدين محمود ودرّس بالمدرسة النُورية والحلاويّة بعد الإمام علاء الدين الغزنوي المتوفى سنة ٥٦٤هـ (١١٦٩م)، وقد اشتهر الإمام رضي الدين بمصنفه الكبير "المُحيط" وهو في أربع مصنفات: "المحيط الكبير" وهو نحو من أربعين مجلدًا، "والمحيط الثاني" عشر مجلدات، و"المحيط الثالث" أربع مجلدات، و"الرابع" في مجلدين.(١) يقول صاحب "الجواهر المُضيّة" المتوفى سنة ٧٧٥هـ (١٣٧٣م) "والثلاثة رأيتهم بالقاهرة، وملكت منهم اثنين "الصغير" و"الأوسط"."(٢)

ويذكر طاش كبري زاده: "أن كتاب "المُحيط" اثنان إحداهما ما تقدم ويُعرَف بالمحيط السّرخسي والآخر "محيط بُرهان الدين محمود" وهو من بني مَارة وأبوه تاج الدين أخو الصدر الشهيد، "والذخيرة" من مصنفاته أيضًا، وصاحب "الجواهر المُضيّة في طبقات الحنفية" لم يُفرّق بينهما وقال: "صاحب المحيط لقبه رضي الدين"، وقال: "رأيت على بعض نسخ المحيط برهان الدين بخط بعض الفضلاء"."(٣)

وممن اشتهر بالفقه الحنفي الإمام أبو بكر علاء الدين بن مسعود بن أحمد الكاساني ملك العلماء المتوفى بحلب سنة ٥٨٧هـ (١١٩١م) قدِم إلى الملك نور الدين محمود بحلب رسولاً من ملك الروم فولاه نور الدين التدريس بالمدرسة الحلاّوِية، بعد أن عُزِل منها الإمام رضي الدين السّرخَسِي المتوفى سنة ٥٧١هـ (١١٧٥م)، وقد استمر علاء الدين الكاساني مُدرسًا في الحلاوية حتى وفاته،(٤) تفقه علاء الدين على أبي

(١) القرشي. المصدر السابق.- ج٣، ص٣٥٧ ؛ وفي مفتاح السعادة.- ج٢، ص٢٤٦: "وصنف المحيط أربع مصنفات كبير في أربعين مجلدًا، ومتوسط في اثني عشر مجلدًا، وصغير في مجلدات، ومختصر في مجلدين".

(٢) المصدر السابق.- ج٣، ص٣٥٧.

(٣) مفتاح السعادة.- ج٢، ص١٤٦.

(٤) القرشي. الجواهر المضية.- ج٤، ص٢٥-٢٨ ؛ طاش كبري زاده، المصدر السابق.- ج٢، ص ٢٤٧.

منصور محمد بن أحمد بن أبي أحمد السمرقندي صاحب " تُحفة الفُقهاء" وزوّجه شيخه ابنته فاطمة الفقيهة، وجعل مهرها شرح كتاب التحفة في كتاب أسماه " البدائع" فقال الفقهاء في عصره: " شرح تُحفته وزوّجه ابنته"، [1] واشتهر علاء الدين الكاساني وزوجته فاطمة الفقيهة في مذهب أبي حنيفة في بلاد الشام وكانت تحفظ مصنّف والدها "التُحفة"[2]، وكان كتاب " البدائع" أشهر مصنفات الإمام علاء الدين الكاساني، وهو من الكتب المعتبرة في الفقه الحنفي وسُمي " بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع"، [3] وقد جاء هذا الكتاب في سبع مجلدات، طبع الجزآن الأول والثاني في شركة المطبوعات العلمية بمصر سنة ١٣٢٧هـ (١٩٠٩م)، وطُبعت الأجزاء الأخرى في المطبعة الجمالية بمصر سنة ١٣٢٨هـ (١٩١٠م).

ومن مشاهير الحنفية في العهد الزنكي أيضًا الإمام العالم علي بن أحمد ابن مكي الرازي الملقب حسام الدين المتوفى سنة ٥٩٨هـ (١٢٠١م)[4] كان يُدرّس بالمدرسة الصادِرّية بدمشق، وكان يُفتي على مذهب أبي حنيفة ويُناظر في مسائل الخلاف، [5] وقد صنّف في الفقه الحنفي كتابًا نفيسًا على " مختصر القُدُوري" البغدادي المتوفى سنة ٤٢٨هـ (١٠٣٧م)[6] سمّاه: " خلاصة الدلائل

(١) القرشي. المصدر السابق.- ج٤، ص٢٦.
(٢) المصدر نفسه.- ج٤، ص١٢٢ ؛ العاملي. الدُرّ المنثور، ص٣٦٧.
(٣) حاجي خليفة. كشف الظنون.- ج١، ص٣٧١، وذكره في ثلاث مجلدات.
(٤) سبقت ترجمته في الفصل الثالث.
(٥) ابن عساكر. تاريخ دمشق (مخطوط) - ج١٢، ص٥٥٣.
(٦) هو الإمام المشهور أحمد بن محمد بن أحمد بن جعفر بن حمدان الفقيه البغدادي المعروف بالقدوري شيخ الحنفية بالعراق، انتهت إليه رئاسة المذهب، وعظم جاهه وبعد صيته له في الفقه مصنفات مشهورة منها كتاب المختصر، والتجريد، والتقريب وغيرها: كانت وفاته في رجب سنة ٤٢٨هـ (١٠٣٧م) (الذهبي.العبر.- ج٢، ص٢٥٨ ؛ القرشي. الجواهر المُضيّة.- ج ١، ص٢٤٧-٢٥٠)

وتنقيح المسائل"[1] ذكره حاجي خليفة باسم: "خُلاصة الدلائل في تنقيح المسائل" وقال عنه: " وهو شرح مفيد مختصر نافع".[2]

٣ـ المذهب الحنبلي:

ممن برز في هذا المذهب في العهد الزنكي الشيخ الزاهد أبو الحسن علي بن عمر بن أحمد بن عمّار بن أحمد بن علي بن عبدُوس الحرّاني الفقيه الحنبلي ولد سنة عشر أو إحدى عشرة وخمس مئة (١١١٦ـ١١١٧م) وسمع ببغداد، وتفقه وبرع في الفقه، والتفسير، والوعظ، ثم قدم حرّان وأمّ الناس بجامعها، له مصنفات حسنة في التفسير والفقه الحنبلي أبرزها: " المُذهب في المذهب"، وكانت وفاته في آخر نهار يوم عرفة، سنة ٥٥٩هـ (١١٦٤م) بحرّان.[3]

ومنهم: أبو العلاء نجم الدين بن عبدالوهاب بن شرف الإسلام عبدالواحد بن محمد بن علي الشيرازي الأصل الدمشقي، شيخ الحنابلة بالشام في وقته، والمتوفى سنة ٥٨٦هـ (١١٩٠م)، ولد سنة ٤٩٨هـ (١١٠٤م) سمع وأفتى ودرّس وهو ابن نيّف وعشرين سنة إلى أن مات.[4]

---

(١) القرشي. المصدر السابق.- ج٢، ص٥٤٣ ؛ ابن قطلوبغا، تاج التراجم، ص٤٢ـ٤٣.
(٢) كشف الظنون.- ج٢، ص١٦٣٢.
(٣) ترجم له: ابن رجب في الذيل على طبقات الحنابلة.- ج١، ص٢٤١ـ٢٤٤ ؛ العُلَيْمي، مجير الدين أبو اليمن عبدالرحمن بن محمد (ت٩٢٨هـ/١٥٢٢) المنهج الأحمد في تراجم أصحاب الإمام أحمد، تحقيق، محمد محيي الدين عبدالحميد، مراجعة وتعليق عادل نويهض.- ط٢.- بيروت: عالم الكتب، ١٤٠٤هـ (١٩٨٤م) - ج٢، ص٣٢٥ـ٣٢٧ ؛ ابن العماد. شذرات الذهب.- ج٤، ص١٨٣ـ١٨٤.
(٤) ترجم له: ابن رجب: الذيل.- ج١، ص٣٦٨ـ٣٧١ ؛ النعيمي. الدارس.- ج٢، ص٦٨ـ٦٩ ؛ العليمي. المصدر السابق.- ج٢، ص٢٩٠ـ٢٩١ ؛ ابن العماد. شذرات الذهب.- ج٤، ص٢٨٥ـ٢٨٦.

ولشرف الإسلام تصانيف في الفقه والأصول، منها: " المُنتَخَب" في الفقه مُجلدين و"البُرهَان" في الأصول وغير ذلك.[1]

ومن أئمة الفقه الحنبلي في هذا العهد: الإمام وجيه الدين أسعد ويسمى محمد بن المُنجا بن بركات بن المؤمل التنوخي المعرّي ثم الدمشقي الحنبلي القاضي أبو المعالي المتوفى سنة ٦٠٦هـ (١٢٠٩م) وُلد سنة ٥١٩هـ (١١٢٥م) بدمشق وسمع بها، ثم رحل إلى بغداد، يقول المُنذري: " تفقّه ببغداد على مذهب الإمام أحمد بن حنبل - رضي الله عنه - مدة وحصّل طرفًا من معرفة المذهب".[2] ثم عاد إلى دمشق وسمع بها علماء، وولّي قضاء حرّان في آخر دولة نورا لدين محمود، وذكر الذهبي أن الشيخ مُسمار الهلالي المتوفى سنة ٥٤٦هـ (١١٥١م) بنى له المدرسة المُسمارية الحنبلية بدمشق ووقفها عليه[3]، ومن تصانيفه كتاب " النهاية في شرح الهداية"،[4] وهو شرح لكتاب " الهداية في الفروع" لشيخ الإسلام بُرهان الدين علي بن أبي بكر المرغينانيّ الحنفي المتوفى سنة ٥٩٣هـ (١١٩٦م)،[5] وجاء هذا الشرح في بضع عشرة مجلدًا، قال ابن رجب: " وفيها فروع ومسائل كثيرة غير معروفة في المذهب والظاهر أنه كان ينقلها عن كتب غير الأصحاب ويُخرّجها على ما يقتضيه عنده المذهب".[6] ومن مصنفاته أيضًا: كتاب "الخُلاصة في الفقه" في مجلدٍ، و" العُمدة في الفقه" أصغر منه.[7]

---

(١) العليمي. المصدر السابق.- ج٢، ص٢٩٠.

(٢) المنذري، زكي الدين أبو محمد بن عبدالعظيم بن عبدالقوي (ت ٦٥٦هـ/١٢٥٨م) التكملة لوفيات النقلة، تحقيق وتعليق، بشار عواد معروف.- بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٤٠٥هـ (١٩٨٤م) - ج٢، ص٤٩-٥١.

(٣) سير أعلام النبلاء.- ج٢١، ص٤٣٧.

(٤) المصدر نفسه.- ج٢١، ص٤٣٧ ؛ ابن رجب: المصدر السابق.- ج٢، ص٤٩، وسمّاه النعيمي في الدارس.- ج٢، ص١١٥: "الكفاية في شرح الهداية"

(٥) حاجي خليفة. كشف الظنون.- ج٢/٢٠٣١-٢٠٣٢.

(٦) المصدر السابق.- ج٢، ص٥٠.

(٧) ابن رجب. الذيل على طبقات الحنابلة.- ج٢، ص٤٩.

ولقد ظهر في هذا العهد عدد كبير من علماء الفقه والأصول، وبخاصة على المذهب الشافعي، والحنفي، والحنبلي،[1] بينما لم يُعرف في هذا العهد علماء لهم صيت في الفقه المالكي.

ولا عجب في ذلك، فقد كان الفقه مصدر التشريع، وعليه يعتمد الحكّام فيما يصدرونه من أحكام، وكان الملك قبل أن يُصدِر حُكمًا مهمًا يحرص بأن يظفر أولاً بموافقة الفقهاء، بمختلف مذاهبهم على هذا الحكم، كما جرى في دمشق حينما عقد الملك العادل نور الدين محمود مجلسًا مع الفقهاء للتشاور فيما ينوي اتخاذه في أمر الأوقاف والمصالح المتعلقة بالمساجد، والمدارس، وقنى السبيل، ومايجري معها، ومصارف تلك الأوقاف، وجواز نقلها إلى مصالح أخرى أهم من الأولى، ولم يتخذ نورا لدين حكمًا إلا بعد أن استمع لمشورة جميع الفقهاء وحظي بموافقتهم، وناقشهم فيما ينوي القيام به، وكُتِب في ذلك محضر فيه صورة ما جرى في ذلك المجلس، ووقّع عليه جميع الحاضرين.[2]

إضافة إلى تلك الجهود التي بُذلت في الدراسات الفقهية، خصّ كثير، من العلماء

---

(١) سترد أسماء كثير من علماء الفقه ضمن الدراسة الخاصة بمراكز التعليم في الفصل القادم إن شاء الله، ولمزيد من المعلومات عن أبرزهم أنظر: (أبن أبي أصيبعة. عيون الأنباء.- ص٤١٢ ؛ ابن خلكان. وفيات الأعيان.- ج١، ص١٠٨.- ج٥، ص٣١٢-٣١٣ ؛ ابن الفوطي. تلخيص مجمع الآداب.- ج٤، ق٢، ص٧٦٢.- ج٥، ص١٥٥-١٥٦ ؛ أبو الفداء. المختصر.- ج٣، ص١٧٨ ؛ الذهبي.العبر.- ج٣، ص٥٥ ؛ ابن الوردي. تتمة المختصر.- ج ٢، ص٢٤٦ ؛ السبكي.- طبقات الشافعية.- ج٧، ص٦٣، ٩٩، ١٠٠.- ج٨، ص٣٧٨ ؛ الأسنوي. طبقات الشافعية.- ج٢، ص٤٤٥-٤٤٦ ؛ ابن كثير.- البداية والنهاية.- ج١٣، ص١١٦، ١٥٨ ؛ القرشي. الجواهر المضية.- ج٢، ص٣٤٩-٣٥٠.- ج٣، ص٤٥٢).

(٢) أورد أبو شامة مختصرًا لهذا المحضر، وهو مشتمل على فوائد حسنة، (كتاب الروضتين.- ج١، ق١، ص٤١-٤٤).

نتاجهم بفرع واحد من فروع الفقه، وركزوا فيه دراساتهم، وكان أشهر هذه الفروع "الفرائض" الذي يُعد بابًا من أبواب الفقه نال اهتمامًا خاصًا من العلماء في هذا العهد، لأهميته وكثرة الاحتياج إليه، حتى أصبح علمًا قائمًا بذاته، موضوعه: البحث عن أحوال قسمة التركة بين مستحقيها على فروض مُقدّرة في كتاب الله عز وجل وسنة نبيه محمد ﷺ، [1] وهذا الباب من أصعب أبواب الفقه، وصعوبته أحد وجوه تسميته "نصف العلم".[2]

وممن برز في علم الفرائض في العهد الزنكي: الإمام الحافظ حجة الدين أبو عبد الله محمد بن أبي محمد بن محمد بن ظفر المكي الصِقلّي المتوفى سنة ٥٦٥هـ (١١٦٩م)[3] وكان قد صنّف تصانيف كثيرة في علوم عديدة كان منها أرجوزة في الفرائض[4] ومنهم: أبو السعادات عبدالقاهر بن الحسن بن علي الشهرزوري الملقب حُجة الدين المتوفى سنة ٥٧١هـ (١١٧٦م) وكان مولده بالموصل سنة ٥٣٧هـ (١١٤٣م) واشتغل وتميّز في الفقه والنحو، وكان يعظ الناس ويُدرّس، ويعقد مجالس للمناظرة، وصنّف تصانيف حسنة منها: "مختصر في الفرائض" وكتاب في الفقه، والنحو، والوعظ[5]

وممن اشتهر في علم الفرائض أيضًا الإمام شرف الدين عبد الله بن أبي عصرُون

---

(١) طاش كبري زادة. مفتاح السعادة.- ج٢، ص٥٥٦.
(٢) ساجقلي زاده، محمد بن أبي بكر المرعشي (ت ١١٤٥هـ/١٧٣٢) ترتيب العلوم، تحقيق محمد بن إسماعيل السيد أحمد.- بيروت: دار البشائر الإسلامية، ١٤٠٨هـ (١٩٨٨م) - ص١٦٢.
(٣) سبقت ترجمته في الفصل الثاني.
(٤) ياقوت. معجم الأدباء.- ج١٩، ص٤٩، وفي مقدمة كتابه" أنباء نجباء الأبناء" يسميها المُحقق، أرجوزة في الفرايض والولاء" صفحة (هـ).
(٥) الأسنوي. طبقات الشافعية.- ج٢، ص١٠٩-١١٠.

المتوفى سنة ٥٨٥هـ (١١٨٩م)،[١] وقد ألّف مختصرًا في الفرائض،[٢] ومنهم أيضًا الإمام أبو الفضل إسماعيل بن علي بن إبراهيم الجنزي الفقيه الشرُوطي الفرضي المتوفى سنة ٥٥٨هـ (١١٩٢م) منسوب إلى جنزة،[٣] ويقال له أيضًا الجنزوِي، وُلد بدمشق سنة ٤٩٨هـ (١١٠٤م) وتفقّه بها على جماعة من العلماء، ثم رحل إلى بغداد سنة ٥١٤هـ (١١٢٠م) فسمع بها أيضًا، وعاد إلى دمشق، وكان بصيرًا بشؤون المواريث، وعقد الوثائق والسجلات.[٤]

كما خصّ كثير من العلماء جهودهم في العهد الزنكي بعلمي الخِلاف والجدل وصنّفوا فيهما المُؤلفات الحسنة وذلك على النحو الآتي:

١ ـ علم الخِلاف: قال عنه ابن خلدون: إعلم أن هذا الفقه المُستنبط من الأدلة الشرعيّة، كثُر فيه الخلاف بين المجتهدين، باختلاف مداركهم وأنظارهم ... ثم لما انتهى ذلك إلى الأئمة الأربعة من علماء الأمصار، وكانوا بمكان من حسن الظن بهم، اقتصر الناس على تقليدهم، ومنعوا من تقليد سواهم ... فأقيمت هذه المذاهب الأربعة على أصول الملّة، وأجرى الخلاف بين المتمسكين بها والآخذين بأحكامها، مجرى الخلاف في النصوص الشرعية، والأصول الفقهيّة، وجرت بينهم المناظرات في تصحيح كل منهم مذهب إمامه، تجري على أصول صحيحة وطرائق قويمة يحتج بها كل على مذهبه الذي

(١) سبقت ترجمته في الفصل الأول.

(٢) ابن خلكان. وفيات الأعيان.- ج٣، ص٥٤ ؛ السبكي.- طبقات الشافعية.- ج٧، ص١٣٤.

(٣) جنزة: بالفتح: اسم أعظم مدينة بأرّان، وهي بين شروان وأذربيجان، وهي التي تسميها العامة كنجة خرج منها جماعة من أهل العلم (ياقوت. معجم البلدان.- ج٢، ص١٧١)

(٤) له ترجمة كاملة عند الذهبي.سير أعلام النبلاء.- ج٢١، ص٢٣٤ـ٢٣٥ ؛ العبر.- ج٣، ص ٩٧ ؛ السبكي.- طبقات الشافعية.- ج٧، ص٥٢ـ٥٣ ؛ الأسنوي. طبقات الشافعية.- ج١، ص٣٧٠، الذي ذكر أن وفاته كانت سنة (٥٨٧هـ) ؛ ابن تغري بردي. النجوم الزاهرة.- ج٦ ص١١٦ ؛ ابن العماد. شذرات الذهب.- ج٤، ص٢٩٣.

قلده وتمسك به، وأجريت في مسائل الشريعة كلها وفي كل باب من أبواب الفقه وكان في هذه المناظرات بيان مآخذ هؤلاء الأئمة ومثارات اختلافهم، ومواقع اجتهادهم، وكان هذا الصنف من العلم يُسمى بالخلافيات، ولا بد لصاحبه من معرفة القواعد التي يتوصل بها إلى استنباط الأحكام، كما يحتاج إليها المجتهد ... وهو لعمري علم جليل الفائدة في معرفة مآخذ الأئمة وأدلتهم ومران المطالعين له على الاستدلال فيما يرومون الاستدلال عليه"؛[1] ثم قال: " وأما (الجَدَل) وهو معرفة آداب المناظرة التي تجري بين أهل المذاهب الفقهية وغيرهم، فإنه لما كان باب المناظرين في الرّد والقبول متسعًا، وكل واحد من المناظرين في الاستدلال والجواب يُرسل عنانه في الاحتجاج ومنه ما يكون صوابًا ومنه ما يكون خطأ، فاحتاج الأئمة إلى أن يضعوا أدابًا وأحكامًا يقف المتناظران عند حدودها في الرّد والقبول، وكيف يكون حال المُستدل والمُجيب، وحيث يسوغ له أن يكون مستدلاً وكيف يكون مخصوصًا منقطعًا، ومحل اعتراضه أو معارضته، وأين يجب عليه السكوت ولخصمه الكلام والاستدلال.[2]

وقد عُني بدراسة هاتين المادتين في ذلك العهد حتى كان من شروط الواقف على المدرسة العصرُونيّة بدمشق أن يُدرّس بها من تصانيف الواقف الإمام شرف الدين ابن أبي عصرون المتوفى سنة ٥٨٥هـ (١١٨٩م) الانتصار وغيره، فإن تعذّر فيُدرّس بها الخلاف.[3]

وممن برز في الخلاف والجدل في ذلك العهد: الإمام شرف الدين عبد الله بن أبي عصرون المتوفى سنة ٥٨٥هـ (١١٨٩م) وقد صنّف كتابًا في الخلاف في أربع مُجلدات[4]

---

(١) المقدمة.- ص٤٢١-٤٢٢.
(٢) المقدمة.- ص٤٢٢.
(٣) النعيمي. الدارس.- ج١، ص٣٩٩..
(٤) ابن خلكان. وفيات الأعيان.- وقد ذكره حاجي خليفة. كشف الظنون.- ج١/ ٥٢١ ولكنه لم يذكر عدد مجلداته.

وممن برز في علم الخلاف: الإمام علي بن أحمد بن مكّي الرازي الملقب حُسام الدين المتوفى سنة ٥٩٨هـ (١٢٠١م)،[١] فقد ذكر ابن عساكر: أنه كان يُناظر بدمشق في مسائل الخلاف.[٢]

ومنهم أيضًا الإمام عماد الدين محمد بن يونس بن منعة المتوفى سنة ٦٠٨هـ (١٢١١م)،[٣] وكانت له رئاسة أصحاب المذاهب الشافعي بالموصل، وقد صنّف كتابًا في الجدل، وتعليقه في الخلاف.[٤]

وممن برز في علم الخلاف أيضًا: الشيخ أثير الدين الأبهري[٥] صاحب التعليقة في الخلاف، ذكر ابن خلكان المتوفى سنة ٦٨١هـ (١٢٨٢م) أن الشيخ أثير الدين قدم من الموصل إلى إربل سنة ٦٢٥هـ (١٢٣٨م) وبعدها في سنة ٦٢٦هـ (١٢٣٩) ونزل بدار الحديث، قال: "وكنت اشتغل عليه بشيء من الخلاف".[٦]

وبعد: فقد كانت تلك أبرز الجهود التي بُذلت في ميدان العلوم الشرعية في العهد الزنكي، وقد تردد لدى بعض الباحثين المعاصرين[٧] اعتبار تلك العلوم دراسات دينية بحتّة لا علاقة لها بأمور الدنيا، ولا رابط بينها وبين العلوم الأخرى، وهذا القول متأثر بلا شك بوحي من علمانيّة العلم، ولاتي تفصل بين الدين والعلم، فصلاً تامًا وتعد

---

(١) سبقت ترجمته في الفصل الثالث.
(٢) تاريخ دمشق.- (مخطوط).- ج١٢، ص٥٥٣.
(٣) سبقت ترجمته في الفصل الأول.
(٤) ابن خلكان. المصدر السابق.- ج٤، ص٢٥٣؛ السبكي.- طبقات الشافعية.- ج٨، ص١١٠.
(٥) سبقت ترجمته في الفصل الثالث.
(٦) وفيات الأعيان.- ج٥، ص٣١٣.
(٧) من هؤلاء الباحث خليل داود الزرو في كتابه "الحياة العلمية في الشام في القرنين الأول والثاني للهجرة".- بيروت: دار الآفاق الجديد، (١٩٧١م) حيث فصل بين العلوم الشرعية وسمّاها: "العلوم الدينية الإسلامية"، وبين العلوم الأخرى، واليت سمّاها: "العلوم الدنيوية".

الديـن شيء آخر، لا علاقة بينهما، مع أن الواقع يؤكد أن معرفة العلوم الشرعية يتطلب دراسـة الكـثير مـن العـلوم الأخـرى الـتي تخدمهـا وتُسـاعد عـلى فهمهـا كالعـلوم اللّغوية والأدبيـة، والعـلوم الـتاريخية والجغـرافية والعـلوم الرياضـية والفـلكية إلى غـير ذلـك مـن العـلوم المسـاعدة. وهـي عـلوم تساعد على شرح وفهم الكثير من العلوم الشرعية لتطبيق العـبادات في أوقاتهـا، وتقسـيم المواريـث، إضـافة إلى الـتأريخ لتـلك العـلوم والترجمـة لأعلامها وإنتاجهم العلمي فيها.

ثانيًا: العلوم اللغوية والأدبية:

كـانت العـلوم الـلغوية والأدبيـة مـن العـلوم الـتي أولاهـا العـلماء في العهـد الزنكي بخاصـة - وعـلماء المسـلمين في مختلف العهـود بعامـة - عـناية كـبيرة، تمثلت تلك العناية في مظاهـر متعددة مـن أهمهـا: أن تلك العلوم كانت مادة من أهم مواد الدراسة في كثيرٍ من مراكـز التعـليم في هـذا العهـد، ومنها كثرة المُعتنين بتدريسها والتصنيف فيها. ومما دعا إلى الاهـتمام الكـبير بهـذا الفـرع مـن العـلوم صـلته القويـة بالعـلوم الشـرعية وقـد وقفـت الدراسـة[1] عـلى كيفيـة تـرتيب العلماء للعلوم حسـب أهميتها وأشرفها، فوضعوا العلوم الشـرعية في المرتـبة الأولى، ثـم وضـعوا العـلوم الـلغوية والأدبيـة في المرتـبة الـتي تـليها مباشـرة، فالـلغة، والـنحو، والصـرف والـبلاغة والـنقد والأدب كـلها ضـرورية لـتفهم العلوم الشرعية تفهمًا جليًا.

وقـد أولى عـلماء المسـلمين عـلوم اللغة العربية وآدابها اهتمامهم وعنايتهم اهتمامًا منهم بكـتاب الـلـه تعالى الذي نزل بلسان عربي مبين، وبحديث الرسول صلى الله عليه وسـلم، وهـو اهـتمام سـاد مـن لـدن الرّعيل الأول مـن عـلماء الإسـلام إلى هـذا العصـر،

(١) ضمن المبحث الخاصّ بالعلوم الشرعية في مطلع هذا الفصل.

وكانت العناية باللّغة العربية نابعة من كونها لغة القرآن الكريم التي نزل بها، وكان بقاؤها مرتبطًا بهذا السبب، وهو سر الارتباط الوثيق بين العلوم الشرعية والعلوم اللّغوية.

وقد ذكر ابن خلدون أن العلوم العربية تختص بالملّة الإسلامية وأهلها، وأن: "معرفتها ضرورية على أهل الشريعة إذ مآخذ الأحكام الشرعية كلها من الكتاب والسنة، وهما بلغة العرب، ونقلتها من الصحابة والتابعين وهم عرب، وشرح مشكلاتها من لغاتهم، فلا بد من معرفة العلوم المتعلقة بهذا اللسان لمن أراد علم الشريعة".(١)

وقد جدّ العلماء في العهد الزنكي في دراسة وتحصيل علوم العربية وآدابها فلا يكاد يُوجد عالم من المشتغلين بالعلوم الشرعية إلا وقد عني بدراسة هذه العلوم باعتبارها أساسًا من أهم الأسس التي تقوم عليها العلوم الشرعية فهي التي تساعد على فهم القرآن وتفسيره، وهي التي تُبين إعجازه، وتفسر ألفاظ الحديث النبوي ومعانيه كما تقدم. فكثيرًا ما نجد إمامًا في علم القراءات أو التفسير وهو نحوي أيضًا، أو عالمًا في الحديث أو الفقه، وهو لغوي لهم مصنفات في فروع العربية المختلفة.

وقد حظيت العلوم العربية وآدابها بعناية فائقة من الزنكيين حيث حرص حكام وأمراء هذه الأسرة على اختيار العلماء الأفذاذ في هذا المجال لتولي مناصب الكتابة والإنشاء، وكانوا يستقدمون لهذه الوظائف من ذاع صيته وعلا شأنه في هذه العلوم، واجتمع في المدن الزنكية خلال تلك الفترة طائفة كبيرة من اللغويين والنحاة والأدباء، وبرز منهم عُلماء أجلاء خلّفوا تراثًا علميًا مهمًا في علوم العربية وآدابها، على اختلاف فروعها والتي من أهمها: اللّغة، والنحو والصرف، والبلاغة والنقد الأدبي، والأدب،

---

(١) المقدمة.- ص٥١٤.

والعروض والقافية، وقد عمد الباحث إلى توزيع العلوم اللّغوية والأدبية إلى هذه الموضوعات بغرض التنظيم وسهولة الدراسة، مع أنه لا يعني أن ما ذُكر تحت موضوع معين من كتب تختص بهذا الفرع دون غيره من الفروع الأخرى، نظرًا لما يُعلم من التداخل بين فروع العلوم اللغوية والأدبية وصعوبة تخصيص كتاب لفرع دون آخر. لذا، فإن الباحث ينظر إلى الأعم والأغلب في مادة هذا الكتاب أو ذاك ليقوم بتصنيفه ضمن أحد فنون العربية، ولا يمنع مع ذلك تكراره في فنٍ آخر لاشتهاره به أيضًا، ولاشتماله على مادة تدخل ضمن ذلك الفن، كما أنه لا يمنع أن العالم يُوزع مصنفاته بين هذه العلوم جميعًا فيكون له مصنّف في اللّغة، وآخر في النحو، وثالث في البلاغة ورابع في العروض، وأن يكون له ديوان شعر، وهذا ما يُطلق عليه موسوعيّة التأليف، أو الإحاطة بأكثر من فن، وهذا الأمر كان شائعًا في العهد الزنكي أسوة بما سبقه ولحقه من عهود الإسلام.

١ ـ اللّغـة :

عرف الجُرجاني اللّغة بأنها ما يُعبر بها كل قوم عن أغراضهم.[١] أما طاش كبري زاده فقد ذكر أن علم اللّغة هو: البحث عن أصل المفردات اللّغوية، ومدلولاتها، وهيئاتها الوضعية، وكيفية تركيبها، وتعيين معانيها المقصودة بها.[٢]

وفائدته: الإحاطة بهذه المُفردات، وطلاقة العبارة وجزالتها والتمكن من التفنن في الكلام وإيضاح المعاني بالبيانات الفصيحة والأقوال البليغة.[٣]

أما الحاجة إلى علم اللغة فقد أوضحها ابن خلدون بقوله: " لما فسدت ملكة

---

(١) الجرجاني، علي بن محمد الشريف (ت٨١٦هـ/١٤١٣م). كتاب التعريفات.- بيروت: مكتبة لبنان، (١٩٨٥م).- ص٢٠٢.

(٢) مفتاح السعادة.- ج١، ص١٠٠.

(٣) المصدر نفسه.- ج١، ص١٠١.

اللسان العربي في الحركات المسماة عند أهل النحو بالإعراب واستنبطت القوانين لحفظها ... ثم استمر ذلك الفساد بملابسة العجم ومخالطتهم، حتى تأدي الفساد إلى موضوعات الألفاظ، فاستعمل كثير من كلام العرب في غير موضوعه عندهم ميلاً مع هجنة المتعربين في اصطلاحاتهم المخالفة لصريح العربية، فاحتيج إلى حفظ الموضوعات اللّغوية بالكتاب والتدوين خشية الدروس، وما ينشأ عنه من الجهل بالقرآن والحديث، فشمّر كثير من أئمة اللّسان لذلك وأملوا فيه الدواوين".[١]

ولقد نشط علم اللّغة في هذا العهد، وظهر عدد من العلماء الذين كانت لهم مصنفات هامة في هذا العلم أثرت هذا الفرع من فروع العلوم اللّغوية والأدبية في العهد الزنكي، فكان مشهوري علماء اللغة في هذا العهد:

الإمام سلامة بن غيّاض بن أحمد أبو الخير النحوي الشامي من أهل كفر طاب، كان أديبًا فاضلاً له معرفة جيدة بالنحو واللّغة، وله فيهما تصانيف مفيدة، قرأ اللّغة بمصر، ثم قدم بغداد سنة ٥٢٦هـ (١١٣٢م) وأقام بها مدة قرأ عليه قوم بها وسمعوا منه، ثم سار إلى واسط وأقام بها ودرّس في جامعها النحو، ثم رحل إلى البصرة، ثم إلى بلاد العجم، وجال في أقطارها، وعاد بعد ذلك إلى الشام، فاستوطن حلب حتى وفاته في شهور سنة ٥٣٣هـ (١١٣٨م)[٢] وله مصنفات في اللّغة ذكر منها ياقوت: كتاب ما تلحنُ فيه العامّة في زمانه".[٣]

وممن صنّف في اللغة أيضًا: محمد بن علي بن أحمد أبو عبيدالله الحلّي المعروف

---

(١) المقدمة.- ص٥١٦.

(٢) ياقوت. معجم الأدباء.- ج١١، ص٢٣٣-٢٣٤؛ القفطي. إنباه الرواة.- ج٢، ص٦٧-٦٨، وقد ذكر وفاته سنة أربع وثلاثين وخمسمائة؛ السيوطي. بغية الوعاة.- ج١، ص٥٩٣-٥٩٤.

(٣) ياقوت. المصدر السابق.- ج١١، ص٣٣٤؛ وذكره البغدادي أيضًا في هدية العارفين.- ج١/٣٩٤.

بابن حُميدَة النحوي المتوفى سنة ٥٥٠هـ (١١٥٥م) من أهل حِلّة بني مزيَد[1] أديب فاضل له معرفة جيدة بالنحو واللّغة، قرأ ببغداد على ابن الخشّاب ولازمه مدة وأخذ عنه النحو، ثم انتقل إلى حلب ودرّس بها واشتهر بالنحو واللغة، وصنّف فيهما تصانيف حسنة، كان منها كتاب " الفرق بين الضاد والظاء" في اللغة،[2] وقد ذكر رمضان عبدالتوّاب هذا الكتاب ضمن الكتب اللّغوية المفقودة.[3]

ومن اشتهر في اللغة أيضًا: الإمام الحافظ حُجة الدين محمد بن أبي محمد بن ظفر الصّقِلّي المتوفى سنة ٥٦٥هـ (١١٦٩م)،[4] وقد ترك ابن ظفر مؤلفات عديدة في اللغة والنحو والأدب والتفسير والتاريخ والفرائض وغيرها، ففي اللّغة وضع حاشية على " دُرّة الغوّاص في أوهام الخواص" للقاسم بن علي الحريري المتوفى سنة ٥١٦هـ (١١٢٢م) ردّ فيها عليه،[5] وله في اللّغة أيضًا كتاب " التنقيب على ما في المقامات من الغريب"،[6] وله كتاب " الاشتراك اللّغوي والاستنباط المعنوي"[7] كما

---

(١) حِلّة بني مزيد: مدينة كبيرة بين الكوفة وبغداد كانت تسمّى الجامعين (ياقوت. معجم البلدان.- ج٢، ص٢٩٤).

(٢) ياقوت. معجم الأدباء.- ج١٨، ص٢٥٢ ؛ القفطي. المصدر السابق.- ج٣، ص١٨٥ ؛ ابن قاضي شهبة طبقات النحاة واللغويين، تحقيق محسن غيّاض.- النجف، العراق: مطبعة النعمان، (١٩٧٤م).- ص١٩١ ؛ السيوطي. المصدر السابق.- ج١، ص١٧٣.

(٣) رمضان عبد التوّاب. لحن العامة والتطور اللغوي.- القاهرة، (١٩٦٧م).- ص٢١٨، ٧٩.

(٤) سبقت ترجمته في الفصل الثاني.

(٥) ياقوت. معجم الأدباء.- ج١٩، ص٤٩، وذكره صاحب كشف الظنون ج٧٤١/١، كما ورد في مقدمة " أنباء نجباء الأبناء" لابن ظفر الصقلي أيضًا صفحة (د).

(٦) ياقوت. المصدر السابق.- ج١٩، ص٤٩ ؛ وهذا الكتاب مخطوط بدار الكتب الوطنية بالقاهرة، رقم(٧٤٤١) أدب.

(٧) المصدر نفسه.- ج١٩، ص٤٨، وقد جعله ياقوت في كتابين (الاشتراك اللغوي) و(الاستنباط المعنوي) مع أنهما كتاب واحد جاء ذكره في كشف الظنون.- ج١، ١٠١، وكذلك مقدمة كتاب أنباء نجباء الأبناء، صفحة.- (د).

صنّف كتابًا أسماه "مُلحُ اللّغة" وهو فيما اتفق لفظه واختلف معناه"،[1] وهو مرتب على حروف المُعجم.[2]

ومن مشاهير علماء اللّغة في هذا العهد: أبو محمد سعيد بن المبارك بن علي المعروف بابن الدهّان النحوي المتوفى سنة ٥٦٩هـ (١١٧٣م)[3] كان من أعيان النحاة وأفاضل اللّغويين حيث كان يُعد سيبويه عصره، إذ كان في زمنه ببغداد من النحاة: ابن الجواليقي المتوفى سنة ٥٣٩هـ (١١٤٤م) وابن الخشّاب، المتوفى سنة ٥٦٧هـ (١١٧١م) وابن الشجري المتوفى سنة ٥٤٢هـ (١١٤٨م) وكان الناس يرجحون أبا محمد بن الدهان على الجماعة المذكورين مع أن كل واحد منهم إمام،[4] وكان ابن الدهان قد تلقى علوم العربية والنحو على علماء أجلاء في بغداد ثم سافر إلى أصبهان، وأخذ عن علمائها، ثم عاد إلى بغداد واشتغل بالتدريس والتصنيف وذاع صيته،[5] وخرج من بغداد قاصدًا دمشق، واجتاز الموصل وبها الوزير جمال الدين الجواد الأصفهاني المتوفى سنة ٥٥٩هـ (١١٦٣م)،[6] فأكرمه الوزير جمال الدين وأحسن إليه، وارتبطه عنده، وصدّره بالموصل للإقراء والإفادة والتصنيف، وكانت كتبه ببغداد فأصابها الغرق، فلما

---

(١) ياقوت. المصدر السابق.- ج١٩، ص٤٩.

(٢) مقدمة كتاب أنباء نجباء الأبناء.- صفحة (د).

(٣) ترجم له ياقوت. المصدر السابق.- ج١١، ص٢١٩-٢٢٢؛ القفطي. إنباه الرواة.- ج٢، ص ٤٧-٤٨؛ ابن خلكان. وفيات الأعيان.- ج٢، ص٣٨٢-٣٨٥؛ اليماني، عبدالباقي ابن عبدالمجيد (ت ٧٤٣هـ/١٣٤٢م). إشارة التعيين في تراجم النحاة واللغويين، تحقيق، عبدالمجيد دياب.- الرياض: مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، ١٤٠٦هـ (١٩٨٦م).- ص٩١-٩٢.

(٤) ابن خلكان. المصدر السابق.- ج٢، ص٣٨٢.

(٥) القفطي. المصدر السابق.- ج٢، ص٤٧.

(٦) سبقت ترجمته في التمهيد من هذه الدراسة.

أحضرت إليه بالموصل وجدها قد تغير لونها، فأشير عليه أن يبخرها باللاّذن،[1] فبخّرها ولازم ذلك إلى أن بخرها مما يزيد على ثلاثين رطلاً من اللاّذن، فأثّر ذلك في رأسه حتى أصابه العمى وكفّ بصره بسببها، وكانت وفاته بالموصل في شوال سنة ٥٦٩هـ (١١٧٣م).[2]

وقد ترك ابن الدهان كُتُبًا كثيرة تناولت مباحث مختلفة في اللّغة والنحو، ومن أبرز ما صنّفه في اللّغه: "كتاب الأضداد"،[3] وقد نشره الشيخ محمد حسن آل ياسين في بغداد ضمن سلسلة نفائس المخطوطات سنة (١٩٦٣م)، وله كتاب "إزالة المراء في الغين والرّاء"،[4] وكتاب "الضاد والظاء" وسمّاه "الغُنّية"،[5] ولابن الدهان أيضًا: كتاب شرح "أبنية سِيبويه"، وقد طُبع مؤخرًا في دار العلوم بالرياض عام ١٤٠٨هـ (١٩٨٧م) بتحقيق حسين شاذلي فرّهود.

وممن برز في علم اللّغة في هذا العهد: أبو السعادات مجد الدين المبارك بن أبي الكرم محمد بن محمد الشيباني المعروف بابن الأثير الجزرِي المتوفى سنة ٦٠٦هـ

---

(١) اللاّذن: واللاّذنة: نوع من أنواع العلوك (ابن منظور. لسان العرب.- ج٥، ٤٠٢٤).

(٢) ياقوت. معجم الأدباء.- ج١١، ص٢٢٢؛ القفطي. إنباه الرواة.- ج٢، ص٤٨؛ ابن خلكان. وفيات الأعيان.- ج٣، ص٣٨٣.

(٣) ياقوت. المصدر السابق.- ج١١، ص٢٢١؛ وسمّاه ابن خلكان: "الغُنية في الأضداد" المصدر السابق.- ج٢، ص٣٨٢).

(٤) ياقوت. المصدر السابق.- ج١١، ص٢٢١؛ وسمّاه ابن خلكان: "كتاب الرّاء" (المصدر السابق.- ج٢، ص٣٨٢).

(٥) ياقوت. المصدر السابق.- ج١١، ص٢٢١؛ ابن خلكان، المصدر السابق.- ج٢، ص٣٨٢، وسمّاه "الغنية في الضاد والظاء"؛ الصفدي، صلاح الدين خليل بن أيبك (ت ٧٦٤هـ/ ١٣٦٣م). نكت الهميان في نكت العميان.- نشر أحمد زكي باش.- ا القاهرة: المطبعة الجماليّة، ١٣٢٩هـ (١٩١١م).- ص١٥٨؛ السيوطي. بغية الوعاة.- ج١، ص٥٨٧.

(١٢٠٩م)، [١] ومن تصانيفه في اللّغة كتاب: "النِهاية في غريب الحديث" حيث بذل عدد من علماء العهد الزنكي جهودًا في جمع مفردات اللغة المتعلقة بموضوع واحد مثل غريب القرآن، وغريب الحديث، وغريب الفقه، ومنها هذا الكتاب الذي يُعد الغاية فيما وصل إليه غريب الحديث مادة وترتيبًا. [٢] يقول عنه طاش كبري زاده " وهو كتاب غريب لم يُعهد نظيره في بابه". [٣] وكان ابن الأثير قد اعتمد فيه على كتاب الغريبين للهروِي المتوفى سنة ٤٠١هـ (١٠١٠م) وهو في غريبي القرآن والحديث، وكتاب "غريب الحديث" لأبي موسى الأصبهاني المتوفى سنة ٥٨١هـ (١١٨٥م) ورتّبه على حروف المُعجم بالالتزام الأول والثاني من كلّ كلمة وإتباعهما بالثالث، وقد وضع ابن الأثير علامات تُميّز ما أخذه من الهرويّ، أو من الأصبهاني، وما أضافه من غيرهما، [٤] وقد طُبع هذا الكتاب طبعات عديدة كان آخرها سنة ١٣٨٣هـ (١٩٦٣م) في خمسة أجزاء، بمطبعة عيسى البابي الحلبي بالقاهرة، بتحقيق، طاهر أحمد الزاوي، ومحمود محمد الطناحي وهي طبعة جيدة.

ولابن الأثير في اللغة أيضًا كتاب: " المُرصّع في الآباء والأمهات والبنين والبنات، والأذواء والذوات"، [٥] وهو معجم لغوي خاص من المعاجم التي عقدها أصحابها على المعاني، ثم إنه خاصّ بين هذه المُجمعات الخاصّة فهو يتناول الأسماء التي صُدّرت بـ "أب" و"أم" و"ابن" و"بنت" ونحوها، وقد طُبع هذا الكتاب لأول مرة في "ويمار" سنة (١٨٩٦) وهي طبعة ناقصة، ثم طُبع طبعة جيدة بتحقيق إبراهيم السامرائي في مطبعة الإرشاد ببغداد سنة ١٣٩١هـ (١٩٧١م).

---

(١) سبقت ترجمته في الفصل الثالث.
(٢) ابن خلكان. وفيات الأعيان.- ج٤، ص١٤١.
(٣) مفتاح السعادة.- ج١، ص١٢٥.
(٤) حاجي خليفة. كشف الظنون.- ج١٩٨٩/٢.
(٥) معجم الأدباء.- ج١٧، ص٧٧.

كما برز في علم اللغة أيضًا: الشيخ عزالدين أبو محمد عبدالوهاب بن إبراهيم الخزرجي الزنجَاني المتوفى سنة ٦٦٠هـ (١٢٦١م)[١] كان عالمًا بالنحو واللّغة والتصريف وعلم المعاني والبيان وله تصانيف في ذلك مُفيدة، كان قد أقام بالموصل، واستملى من الشيخ شمس الدين بن الخبّاز المتوفى سنة ٦٣٩هـ (١٢٤١م)، [٢] وقد صنّف عز الدين الزنجانيّ في اللّغة كتاب "المُعرّب عما في الصحاح والمُغرّب"، وهو في الجمع بين كتاب الصِحاح للجوهري المتوفى سنة ٣٩٣هـ (٧١٩م)، وكتاب المُغرّب في ترتيب المُغرّب[٣] للإمام أبي الفتح ناصر بن عبدالسيد بن علي المُطرّزيّ الفقيه الحنفي المتوفى سنة ٦١٦هـ (١٢١٩م)، وقد فصل الزنجاني في المُعرّب بين نص الصِحاح وأشار إليه بحرف (ص)، وبين نص المُغرّب وأشار إليه بحرف (م)،[٤] وذكر حاجي خليفة أن الشيخ عبدالوهاب الزنجاني قد أتمّ تأليف هذا الكتاب في صفر سنة ٦٣٧هـ (١٢٣٩م) بالمدرسة القاهِرية بالموصل.[٥]

---

(١) وردت ترجمته في كل من: ابن الفوطي. تلخيص مجمع الآداب.- ج٤، ق١، ص٢٣٤-٢٣٥؛ السيوطي بغية الوعاة.- ج٢، ص١٢٢.

(٢) الشيخ أحمد بن الحسين بن أحمد بن معالي بن منصور العلاّمة شمس الدين أبو عبد الله الإربلي الموصلي النحوي الضرير، المعروف بابن الخباز البلدي - شارح ألفيّة ابن معطٍ، سكن الموصل.- ونشأ بها، كان أستاذًا بارعًا في النحو، واللغة، والعروض، والفرائض والحساب، وتزاحم الناس عليه، ولم يُر في زمانه أسرع حفظًا منه توفي سنة ٦٣٩هـ (١٢٤١م) (اليماني. إشارة التعيين، ص٢٩؛ الصفدي. كتاب الوافي بالوفيات.- ج٦، نشر باعتناء: س ديدرينغ، دار النشر شتاينز بفيسبادن، المانيا، ١٣٩٢هـ/١٩٧٢م، ص٣٥٩؛ السيوطي. المصدر السابق.- ج١، ص٣٠٤).

(٣) نُشر هذا الكتاب في دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان. (د.ت).

(٤) أحمد عبدالغفور عطار. مقدمة كتاب الصِحاح للجوهري.- ص١٦٥.

(٥) كشف الظنون.- ج١٧٣٨/٢.

٢ ـ النحو الصرف:

عرّف ابن خلدون علم النحو بأنه: قوانين مستنبطة من كلام العرب يقيسون عليها سائر أنواع الكلام، ويُلحِقُون الأشباه منها بالأشباه.(١) أما الجُرجانِيّ فقد ذكر أنه: العلم بالقوانين التي يُعرف بها أحوال التراكيب العربية من الإعراب والبناء وغيرها.(٢)

كما عرّفه طاش كبري زاده بأنه: "العلم الذي يبحث عن أحوال المركبات الموضوعية نوعيًا لنوع من المعاني التركيبيّة النسبية من حيث دلالاتها عيها، وأن غايته الاحتراز عن الخطأ في تطبيق التراكيب العربية على المعاني الوصفية الأصلية."(٣)

أما علم الصرف فهو العلم الذي يبحث في أنواع المفردات العربية ومدلولاتها وهيئاتها الأصلية، وما طرأ عليها من تغيير وكيفيّة ذلك،(٤) وقد كان علما النحو والصرف مادة أساسية من مواد الثقافة في العهد الزنكي، يكاد يشترك المثقفون جميعهم في الأخذ منها بنصيب، ويندر من لم يشارك فيها، حيث كانوا يعدونها الوسيلة الأولى لدراسة العلوم الشرعية وفهمها، فازداد الاهتمام بدراسة علمي النحو والصرف في هذا العهد، ونبغ فيهما علماء أجلاء كان لهم قدم صدق في هذا الميدان، ومن أبرزهم:

الإمام سلامة بن غيّاض بن أحمد أبو الخير النحو الشامي الكَفَرْطَابِيّ المتوفى سنة ٥٣٣هـ (١١٣٨م)،(٥) له مصنفات عديدة في النحو منها: " التذكرة" في عشر مجلدات،(٦) وذكر له اليماني " مسائل نحوية وأبيات شعر تكلم على إعرابها

(١) المقدمة.- ص٥١٥.
(٢) كتاب التعريفات.- ص٢٥٩.
(٣) مفتاح السعادة.- ج١، ص١٣٨.
(٤) المصدر نفسه.- ج١، ص١٢٧.
(٥) سبقت ترجمته ضمن هذا الفصل.
(٦) ياقوت. معجم الأدباء.- ج١١، ص٢٣٣-٢٣٤؛ السيوطي. بغية الوعاة.- ج١، ص٥٩٣.

ومعانيها"،[1] ولـه رسالة في الحضّ على تعليم العربية،[2] أسماهـا القفطي "رسالة في فضل العربية والحثّ على تعليمها" وذكر أنه رآها بخطه، وأنها في " غاية الجودة والصحة وحسن النّقِيبة".[3]

وممن برز في النحو في هذا العهد محمد بن علي بن أحمد الحلّي المعروف باب حُميْدَة النحوي: المتوفى سنة ٥٥٠هـ (١١٥٥م)[4] لـه معرفة جيدة بالنحو اللّغة قرأ ببغداد على أبي محمد عبد الله بن أحمد بن الخشّاب البغدادي المتوفى سنة ٥٦٧هـ (١١٧١م) ولازمه حتى برع في علم العربية، وصنّف كتبًا في النحو منها: "شرح أبيات الجُمل" لأبي بكر بن السّراج المتوفى سنة ٣١٦هـ (٩٢٩م)،[5] "وشرح اللّمع" لابن جني المتوفى سنة ٣٩٢هـ (١٠٠٢)،[6] و"شرح المقامات الحريرية" و"كتاب التصريف"، و"الروضة في النحو"، و"الأدوات" في النحو أيضًا.[7]

ومن مشاهير النحاة أيضًا، علي بن خليفة بن علي النحوي المعروف بابن المُنقّي أبو الحسن من أهل الموصل كان إمامًا فاضلاً تأدب عليه أكثر أهل عصره من أهل بلده، وكان يجلس بالمسجد المعروف بمسجد النبي ﷺ بالموصل،[8] وكان زاهدًا ورعًا توفي سنة ٥٦٢هـ (١١٦٧م)،[9] وقد صنّف مقدمة في النحو أسماها " المَعُونة".[10]

---

(١) إشارة التعيين.- ص١٣٣.

(٢) ياقوت. المصدر السابق.- ج١١، ص٢٣٤.

(٣) إنباه الرواة.- ج٢، ص٦٨.

(٤) سبقت ترجمته ضمن هذا الفصل.

(٥) ياقوت. معجم الأدباء.- ج١٨، ص٢٥٢.

(٦) المصدر نفسه.- ج١٨، ص٢٥٢.

(٧) نفسه.- ج١٨، ص٢٥٢.

(٨) انظر المبحث الخاصّ بمساجد الموصل (الفصل الخامس).

(٩) ترجم له: ياقوت. المصدر السابق.- ج١٣، ص٢١٥، مؤلف مجهول: إنسان العيون (مخطوط)، ص ٩٦-٩٧.

(١٠) ياقوت. المصدر السابق.- ج١٣، ص٢١٥؛ وذكره حاجي خليفة بهذا الاسم "كشف الظنون".- ج ١٧٤٣/٢.

ومن نحاة العهد الزنكي أيضًا: الإمام الحافظ حجة الدين محمد بن ظفر الصّقِلّي المتوفى سنة ٥٦٥هـ (١١٦٩م)[١] الذي ترك مؤلفات عديدة في مختلف فنون المعرفة، وبخاصة في القراءات والتفسير، والحديث، واللّغة والأدب والتاريخ وغيرها، ومما ألّفه في النحو كتاب "القواعد والبيان"،[٢] وله مختصر في النحو أيضًا.[٣]

ومن أئمة النحو في هذا العهد أبو نزار الحسن بن صافِي البغدادي المتوفى سنة ٥٦٨هـ (١١٧٢م)[٤] الفقيه الأصولي المصنف في الأصوليين والنحو وفنون الأدب وله ديوان شعر، ومدح النبي ﷺ بقصيدة مشهورة،[٥] وبرع في النحو حتى صار من أئمته المشهورين، وكان قد سافر في طلب العلم إلى كل من خراسان وكرمان والهند، وغيرها من البلاد، واستفاد وأفاد فيها، ثم ولّي وجهه صوب بلاد الشام حيث استوطن دمشق حتى وفاته بها، وقد درّس بها النحو، ويبدو أنه قد أصابه نوع من الغرور حتى لقّب نفسه "بملك النحاة" وكان يسخط على من يخاطبه بغير ذلك،[٦] وكان يقول: "هل سيبويه إلا من رعيتي وحاشيتي؟ ولو عاش ابن جني لم يسعه إلا حمل غاشيتي"[٧] صنّف مصنفات مهمّة في النحو منها "الحاوي"

---

(١) سبقت ترجمته في الفصل الثاني.

(٢) ياقوت. معجم الأدباء.- ج١٩، ص٤٩.

(٣) مقدمة كتابه "أنباء نجباء الأبناء" صفحة (هـ).

(٤) ترجم له ياقوت المصدر السابق.- ج٨، ص١٢٢-١٢٩؛ القفطي. إنباه الرواة.- ج١، ص ٣٤٠-٣٤٥؛ سبط ابن الجوزي. مرآة الزمان.- ج٨، ق١، ص٢٩٥-٢٩٧؛ ابن خلكان. وفيات الأعيان.- ج٢، ص٩٢-٩٣؛ اليماني. إشارة التعيين ص٩١-٩٢؛ السبكي.- طبقات الشافعية.- ج٧، ص٦٣-٦٤.

(٥) ابن العماد الحنبلي. شذرات الذهب.- ج٤، ص٢٢٧.

(٦) القفطي. المصدر السابق.- ج١، ص٣٤١؛ ابن خلكان. المصدر السابق.- ج٢، ص٩٣.

(٧) الغاشية: تطلق على معان كثيرة منها، الغطاء، والقميص، والقيامة وغاشية الرجل: زواره وأصدقائه، (ابن منظور: لسان العرب.- ج٤، ص٣٢٦١، ٣٢٦٢) ولعل المقصود هنا نوع من الغطاء الذي يتجلّله الرجل فيتغشاه. (القفطي. المصدر السابق.- ج١، ص٣٤٤-٣٤٥).

مجلدتان، [1] "والعُمد في النحو" مجلدة، [2] والمنتخب في النحو مجلدة وهو كتاب نفيس، [3] وله في التصريف كتاب "المُقْتَصَد" في مجلدة ضخمة، [4] والمسائل العشر المتبعات إلى الحشر" وهي عشر مسائل استشكلها في العربية. [5]

ومن أئمة النحو في هذا العهد: أبو محمد سعيد بن المبارك بن علي المعروف باب الدهّان النحوي المتوفى سنة ٥٦٩هـ (١١٧٣م)، [6] وقد صنّف ابن الدهّان كتبًا كثيرة في النحو: أهمها: " شرح الإيضاح في النحو" لأبي علي الفارسي المتوفى سنة ٣٦٧هـ (٩٧٧م) وهو شرح كبير في ثلاثٍ وأربعين مجلدة. [7]

ولابن الدهان أيضًا كتاب " الدُّرُوس في النحو" في مجلدة واحدة أنشأها للمبتدئين مختصرة حرصًا على تحصيلها، [8] كما شرح كتاب اللمع لابن جني المتوفى سنة ٣٩٢هـ (١٠٠٢م) شرحًا كبيرًا سماه " الغُرّة". [9] يقول ابن خلكان: لم أرَ مثله مع كثرة شروح

(١) يُسميه ياقوت في معجم الأدباء.- ج٨، ص١٢٣، " الحاوي" ولعله تصحيف من الناسخ؛ القفطي. إنباه الرواة.- ج١، ص٣٤٣، اليماني. إشارة التعيين، ص٩١، حاجي خليفة. كشف الظنون.- ج١/٦٢٨.

(٢) ياقوت. المصدر السابق.- ج٨، ص١٢٣ ويقول عنه: وهو كتاب نفيس؛ القفطي، المصدر السابق.- ج١، ص٣٤٣؛ اليماني. المصدر السابق.- ص٩١؛ السيوطي. بغية الوعاة.- ج١ ص٥٠٥.

(٣) القفطي. المصدر السابق.- ج١، ص٣٤٣؛ اليماني. المصدر السابق.- ص٩١.

(٤) ياقوت. المصدر السابق.- ج٨، ص١٢٣؛ القفطي. المصدر السابق.- ج١، ص٣٤٣.

(٥) السيوطي. المصدر السابق.- ج١، ص٥٠٥.

(٦) سبقت ترجمته ضمن هذا الفصل.

(٧) ياقوت. المصدر السابق.- ج١١، ص٢٢١، ويذكر أنه في أربعين مجلدة، القفطي. المصدر السابق.- ج٢، ص٤٨؛ ابن خلكان. وفيات الأعيان.- ج٢، ص٣٨٢ ويسميه " شرح كتاب الإيضاح والتكملة".

(٨) ياقوت. المصدر السابق.- ج١١، ص٢٢١؛ السيوطي. المصدر السابق.- ج١، ص٥٨٧.

(٩) ياقوت. المصدر السابق.- ج١١، ص٢٢١؛ القفطي. المصدر السابق.- ج٢، ص٤٨، اليماني. المصدر السابق.- ص١٢٩.

هذا الكتاب"،[1] ويوجد منه في المكتبة المركزية بجامعة الإمام محمد بن سعود بالرياض نسخة مصوّرة عن مكتبة قُليج علي - تركيا - برقم (ف ٩٨٤) وله أيضًا كتاب " الفُصُول في النحو"،[2] ويقسمه ابن خلكان إلى " الفصول الكبرى" ، "والفصول الصغرى"،[3] وهذا الكتاب طُبع مؤخرًا بعنوان " الفصول في العربية" بتحقيق فائز فارِس، الطبعة الأولى، مؤسسة الرسالة بيروت، ودار الأمل في الأردن، سنة (١٤٠٩هـ) وله أيضًا كتاب الرّياضة في النّكت النحوية،[4] وله كتاب "المعقود في المقصُور والممدود".[5]

وممن برز في علم النحو والصرف في هذا العهد أبو السعادات مجد الدين المبارك ابن الأثير المتوفى سنة ٦٠٦هـ (١٢٠٩م) وكان قد قرأ النحو والأدب على أبي محمد سعيد بن المبارك بن الدهّان المتوفى سنة ٥٦٩هـ (١١٧٣م).[6] ومن مصنفاته في النحو والصرف كتاب " البديع في علم العربية".[7] قال عنه ياقوت أنه في "نحو الأربعين كراسة، وقفني عليه (أخوه عزالدين المؤرخ) فوجدته بديعًا كاسمه سلك فيه مسلكًا غريبًا وبوّبه

---

(١) المصدر السابق.- ج٢ ، ص٣٨٢.

(٢) ياقوت. معجم الأدباء.- ج١١ ، ص٢٢١ ؛ اليماني. إشارة التعيين، ص١٢٩ ، السيوطي. بغية الوعاة.- ج١ ، ص٥٨٧.

(٣) ياقوت المصدر السابق.- ج١١ ، ص٢٢١ ، ويسميه " كتاب الرياضة"، الصفدي، نكتب الهميان، ص١٥٨ ؛ السيوطي. المصدر السابق.- ج١ ، ص٥٨٧.

(٤) ورد بهذا الاسم عند ياقوت. المصدر السابق.- ج١١ ، ص٢٢١ ، وعند اليماني. المصدر السابق.- ص١٢٩ ، والسيوطي. المصدر السابق.- ج١ ، ص٥٨٧ ورد اسمه " العقود في المقصود والممدود".

(٥) ابن خلكان. المصدر السابق.- ج٤ ، ص١٤١.

(٦) المصدر السابق.- ج١٧ ، ص٧٦.

(٧) ياقوت. المصدر السابق.- ج١٧ ، ص٧٦ ؛ القفطي، إنباه الرواة.- ج٣، ص٢٦٠ ؛ السيوطي. المصدر السابق.- ج٢ ، ص٢٧٤.

تبويبًا عجيبًا"، [1] وهو عند ابن خلكان، والسبكي باسم: "البديع في شرح الفصول لابن الدهان"، [2] والجزء الأول منه مخطوط في مكتبة عاطف أفندي بتركيا برقم (٢٤٤٦)، أما الجزء الثاني، فقد حقّقه صالح بن حسين العايد في رسالته التي نال بها الدكتوراه من كلية اللّغة العربية بجامعة الإمام محمّد بن سعود الإسلاميّة بالرياض. وله أيضًا كتاب " الباهر في الفروق" في النحو، [3] وهو عن السبكي باسم " الفُروق والأبنيّة". [4] وله كتاب " بُغية الراغب في تهذيب الفصول النحوية" [5] ذكره ياقوت والسيوطي وسمياه: "تهذيب فصول ابن الدهان". [6]

وله كتاب " الشافي في شرح مسند الشافعي" قال ياقوت: " أبع في تصنيفه، فذكر أحكامه، ولغته، ونحوه، ومعانيه، نحو مائة كراسة" [7] وفي مكتبة جامعة الإمام المركزية بالرياض مصور للجزء الثاني منه برقم (٣٩٠٦ف) ومنه نسخة كاملة بدار الكتب الوطنية بالقاهرة ضمن كُتب الحديث برقم (٣٠٦)، ولكنه يغلب عليه مادة العربيــة.

وبرز في النحو أيضًا: الشيخ أحمد بن معالي بن منصور العلامة شمس الدين أبو عبد الله الإربلي الموصي النحوي الضرير المعروف بابن الخبّاز البلوي المتوفى سنة

---

(١) المصدر السابق.- ج١٧، ص٧٦.
(٢) المصدر السابق.- ج٤، ص١٤١ ؛ السبكي. طبقات الشافعية.- ج٨، ص٣٦٧.
(٣) ياقوت. معجم الأدباء.- ج١٧، ص٧٦ ؛ السيوطي. بغية الوعاة.- ج٢، ص٢٧٤.
(٤) طبقات الشافعية.- ج٨، ص٣٦٧.
(٥) ابن الأثير، مجد الدين أبو السعادات المبارك بن محمد الشيباني الجزري (ت٦٠٦هـ/١٢٠٩م). البديع في علم العربية، الجزء الأول، مصور عن مخطوط مكتبة عاطف أفندي بتركيا رقم (٢٤٤٦) و. ورقة أ .ب .
(٦) ياقوت. المصدر السابق.- ج١٧، ص٦٧ ؛ السيوطي. المصدر السابق.- ج٢، ص٢٧٤.
(٧) المصدر السابق.- ج١٧، ٦٧.

٦٣٩هـ (١٢٤١م)، [١] وقد صنّف في النحو كتابًا سمّاه " النهاية في النحو"[٢] الذي كان له تأثير بالغ لدى علماء النحو وطلابه في تلك الفترة، كما شرح ألفيّة ابن معطٍ في النحو المتوفى سنة ٦٢٨هـ (١٢٣١م) المسماة" الدّرّة الألفيّة" وسمى شرحه هذا " الغُرّة المخفيّة" في شرح الدُرّة الألفية"، [٣] ومنه نسخة في المكتبة المركزية بجامعة الإمام بالرياض، تحت رقم (٨٦١٥) مصورة عن دار الكتب الوطنية بتونس.

ومن أئمة النحو والصرف في العهد الزنكي الإمام يعِيش بن علي بن يعيش بن أبي السُريّا محمد بن علي بن المُفضّل الأندلسيّ الأصل، الموصِلي ثم الحلبي المولد والمنشأ، ويُعرف بابن الصائِغ يُكنى أبا البقاء، ويُنعت بموفق الدين المتوفى ٦٤٣هـ (١٢٤٥م)[٤] سمع بالموصل، وحلب، ودمشق، وكان ماهرًا في صناعة التصريف، وله تصانيف مشهورة منها: "كتاب شرح المُفصّل"، [٥] وقد شرح فيه كتاب المُفصّل في النحو للزمخشري المتوفى سنة ٥٣٨هـ (١١٤٤م) شرحًا وافيًا طُبع مرات عديدة في أوربا، ومصر، كان أجودها طبعة إدارة الطباعة المنيرية بمصر في عشر مجلدات. ومنها " شرح المُلوكيّ في التصريف"[٦] لابن جني المتوفى سنة ٣٩٢هـ (١٠٠٢م) ومنه نسخة خطيّة

---

(١) سبقت ترجمته ضمن هذا الفصل.

(٢) السيوطي. بغية الوعاة.- ج١، ص٣٠٤.

(٣) اليماني. إشارة التعيين، ص٢٩؛ الصفدي. الوافي بالوفيات.- ج٦، ص٣٥٩؛ السيوطي. المصدر السابق.- ج١، ص٣٠٤.

(٤) ترجم له القفطي. إنباه الرواة: ج٤، ص٤٥-٥٠؛ ابن خلكان. وفيات الأعيان.- ج٧، ص ٤٦-٥٣؛ اليماني. إشارة التعيين، ص٣٨٨، الفيروز أبادي. البُلغه في تراجم أئمة النحو واللغة، تحقيق محمد المصري.- الكويت: مركز المخطوطات والتراث، ١٤٠٧هـ (١٩٨٧م).- ص٢٤٣-٢٤٤؛ السيوطي. بغية الوعاة.- ج٢، ص٣٥٢-٣٥.

(٥) القفطي. المصدر السابق.- ج٤، ص٤٦؛ ابن خلكان. المصدر السابق.- ج٧، ص٥٢، وذكر أنه شرح مستوفٍ ليس في جملة الشروح مثله، اليماني. المصدر السابق.- ص٣٨٨.

(٦) القفطي. المصدر السابق.- ج٤، ص٤٦؛ ابن خلكان. المصدر السابق.- ج٧، ص٥٢؛ السيوطي. المصدر السابق.- ج٢، ص٣٥٣.

محفوظــة بالمكتبــة المركزيــة بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض تحت رقم (٤٤٢)، وقد نشره فخر الدين قباوه في حلب، المكتبة العربية (١٩٧٣م).

ومن أئمة النحو والصرف في هذا العهد أيضًا: الشيخ عز الدين أبو محمد عبدالوهاب بن إبراهيم الخزرجيّ المتوفى سنة ٦٦٠هـ (١٢٦١م)،[١] ومما صنفه في النحو: كتاب " التذكرة المجدِية"،[٢] ، وذكر السيوطي أن له من التصانيف " الهادي في النحو والصرف وشرحه شرحًا وافيًا سمّاه " الكافي"، وهو شرح كبير في مجلدتين ذكر في آخره أنه فرغ منه ببغداد في العشرين من ذي الحجة سنة ٦٥٤هـ (١٢٥٧م)[٣] منه نسخة مصوّرة في المكتبة المركزية بجامعة الإمام محمد بن سعود بالرياض عن مكتبة عارف حكمت تحت رقم (٢٢٦).

وله أيضًا " تصريف العزي" وهو مختصر متداول نافع حظي بمشروح عديدة،[٤] وله ثماني عشرة نسخة تامة في المكتبة المركزية بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض أولاها تحت رقم (١١٠٢).

وللزنجانِيَ أيضًا كتاب " مختصر شرح الأبيات المشكلة الإعراب" وهو مختصر عن كتاب " شرح الأبيات المشكلة الإعراب" " الإفصاح" " لأبي نصر الحسن بن أسد الفارِقي المتوفى سنة ٤٨٧هـ (١٠٩٤م)[٥] منه نسخة مصورة في المكتبة المركزية بجامعة الإمام محمد بن سعود بالرياض تحت رقم (٣٣١٨) عن مكتبة تشتربتي (دبلن).

---

(١) سبقت ترجمته ضمن هذا الفصل.

(٢) ابن الفوطي. تلخيص مجمع الآداب.- ج٤، ق١، ص٢٣٥.

(٣) المصدر السابق.- ج٢، ص١٢٢، كما ذكره حاجي خليفة في كشف الظنون.- ج٢/٢٠٢٧.

(٤) طاش كبري زاده. مفتاح السعادة.- ج١، ص١٣٦ ؛ حاجي خليفة، كشف الظنون.- ج٢/ ١١٣٨-١١٣٩، بروكلمان تاريخ الأدب العربي.- ج٥، ترجمة رمضان عبدالتواب.- ط٣.- القاهرة: دار المعارف، (١٩٨٣م).- ص١٧٩-١٨٠.

(٥) البغدادي. هدية العارفين.- ج١، ص٢٧٧.

ومما سبق يتضح أن هذا العهد عصر تقدم ونماء لعلم النحو حيث برز فيه عددُ كبيرُ من العلماء تطرق البحث إلى أبرزهم وما خلّفوه من مصنفات في هذا الميدان.

٣ـ البلاغةُ والنقد الأدبي:

كانت البلاغة من أهم ما دُرِس في ذلك العهد، فقد كانت المقدرة البلاغية هي السبيل الموصل إلى المناصب العليا في الدولة في غالب الأحيان،[١] وكان المنهج الذي يُتبع في تعليمها يومئذ منهجًا علميًا، قوامه التمرين والاقتداء، ومن أجل هذا كثرت في هذا العهد كتب المختارات الأدبية شعرًا ونثرًا، ولا يزال كثير من هذه الكتب باقيًا إلى اليوم، كما أن علوم البلاغة كانت إحدى دعائم النقد الأدبي وكبريات أسسه.

وقد نشطت الدراسات البلاغية في هذا العهد وانصب اهتمام كثير من العلماء على إتقان الصناعة اللفظية والتفنن في النقد الأدبي، وقد وضع العلماء في هذا العهد كتبًا كثيرة في البلاغة والنقد أصبحت فيما بعد من أمهات الكتب التي استوفت حظها من الجمع والاستيعاب والشروح، ومما يشار إليه هنا أن تقسيم البلاغة إلى علومها الثلاثة: المعاني، والبيان، والبديع، لم يكن معروفًا في الكتب التي صُنفت في ذلك العهد، بل كانت مسائلها يختلط بعضها ببعض، وكانت كلمة " البيان" تطلق أحيانًا على المسائل المعروفة الآن بعلم المعاني وعلم البيان، وكانت الموضوعات التي تُعد الآن من علم البيان مندرجة غالبًا بين أبواب البديع، ولم يُوجد تحديد لمسائل كل علم بالشكل الذي عليه اليوم.

وإذا نظرت إلى عناوين الكتب المصنفة في ذلك العهد وجهود علماء البلاغة فيها تجدها تُركز على دراسة مسائل بلاغية عامة حينًا، أو تتخصص في دراسة لون من ألوان البلاغة حينًا آخر، وطورًا تجدها تهتم في دراسة البلاغة القرآنية لبيان وجه الإعجاز فيها

---

(١) وبخاصة في ديوان الرسائل والإنشاء.

ـ كما سيرد في التعرض لأبرز علماء البلاغة في هذا العهد وإنتاجهم العلمي في هذا الميدان ـ كما أنه يظهر للباحث التداخل الكبير بين البلاغة، والنقد، والأدب في الكتب التي صُنفت في تلك الفترة لدرجة يصعب معها التمييز بينها، فالكتاب الأدبي تتنوع مادته العلمية بين البلاغة، والأدب، والنقد مما يجعل المصنف يصنف الكتاب ضمن كتب البلاغة والنقد لاشتماله على مادة بلاغية ونقدية، ثم يأتي به في مجال الحديث عن الأدب وفنونه لاشتماله على مادة هذا التخصص، وكان بالإمكان الجمع بين هذه الفنون الثلاثة (البلاغة، والنقد، والأدب) لولا الرغبة في تنظيم الدراسة وسهولة التقسيم، ولازدهار الأدب في تلك الفترة وتعدد فنونه وأغراضه، وكثرة رجاله مما فرض إفراده بحديث خاص به.

وعند استعراض جهود علماء البلاغة والنقد في هذا العهد، فإن الباحث يلتقي بطائفة من العلماء الذين أسهموا بشكل بارز في تطوير المباحث البلاغية والدراسات النقدية، وذلك عن طريق المصنفات التي خلّفوها في هذا الميدان بخاصة أو عن طريق الدراسات الأدبية الوثيقة الصلة به، فكان من أبرز من تركوا أثرًا واضحًا في هذا الميدان هم:

الأمير مؤيّد الدّولة أبو المُظفّر أسامةُ بن مُرشِد بن علي بن مَقْلَد بن نَصْرِ بن مُنقِذ الكِنَانِي الشَيْزَرِيَ المتوفى سنة ٥٨٤هـ (١١٨٨م)[1] ولد أسامة بن منقذ بشيزر سنة ٤٨٨هـ (١٠٩٥م) وكانت أسرته تتوارث حكم هذه الإمارة، فتلقى أسامه تعليمًا خاصًا

(١) ترجم له: ابن عساكر. تاريخ دمشق (مخطوط) ج٢، ص٧٠٢ـ٧٠٥ ؛ العماد الأصفهاني. الخريدة (قسم الشام) ج١، ص٤٩٨ـ٥٤٧ ؛ ياقوت. معجم الأدباء.- ج٥، ص١٨٨ـ٢٤٥ ؛ ابن خلكان. وفيات الأعيان.- ج١، ص١٩٥ـ١٩٩ ؛ الذهبي.سير أعلام النبلاء.- ج٢١، ص١٦٥ـ١٦٧ ؛ الصفدي. الوافي بالوفيات.- ج٨، ، نشر باعتناء محمد يوسف نجم.- فسبادن: ١٣٩١هـ (١٩٧١م)، ص٣٧٨ ؛ ابن العماد. الشذرات.- ج٤، ص٢٧٩ـ٢٨٠.

منذ صغره، حيث درس القرآن والحديث والفقه والأدب واللّغة والنحو، وحفظ الكثير من الشعر، وأخذ من ذلك بنصيب وافٍ، تلقاه عن كبار الأساتذة الذين يفدون إلى شيزر، حيث كان الأمراء من بني منقذ ممن يقصدهم العلماء والشعراء، وكانوا هم عُلماء شعراء. وقد ظهرت بوادر الشجاعة والنبوغ لدى أسامة منذ صغره حيث كان أثيرًا لدى عمه أبي العساكر سلطا حاكم " شيزر" ولما لم يكن له عقب اتخذ أسامة ابنًا له، وكان يرى فيه الأمير المستقبل لشيزر، ووارث الملك من بعده، واشترك أسامة في المعارك التي دارت بين أسرته وبين الصليبيين، دفاعًا عن إمارتهم شيزر، وعاش أسامة في تلك الإمارة بين حب والده مُرشِد وعطف عمه سلطان، غير أن الأخير لم يلبث بعد أن رزق أولادًا في آخر عمره، أن دبّ الوهن والفتور إلى العلاقة التي تربطه بأسامة، وبدلاً من حبه وعطفه بدأ الحسد والحقد يأخذان مكانهما من قلبه خوفًا على أولاده من مكانة أسامة، وحذرًا أن يئول الملك إليه دونهم، فرأى أسامة بثاقب بصره، أن يلتحق بالملك عماد الدين زنكي بطل الحروب الصليبية في وقته، فانتظم أسامة في جنده وحارب تحت قيادته في معارك عديدة، ولكنه لم ينس وطنه الأول شيزر، عندما هاجمه الفرنج سنة ٥٣٣هـ (١١٣٨م) فعاد مسرعًا إليه، وأبلى بلاءً حسنًا في الدفاع عنه، وربما أن أسامة قد عزم البقاء في شيزر بين أهله إلا أن عمه سلطان لم يرض عن ذلك فأمره واخوته بالرحيل، فتشتتوا في البلاد، وكان في ذلك خير لهم فإنهم نجوا من الزلازل التي هدمت شيزر وقضت على بني منقذ بأسرهم، وذهبت بملكهم سنة ٥٥٢هـ (١١٥٧م).(١)

مضى أسامة يوم أخرج من شيزر إلى دمشق واتصل بالأتابك معين الدين أنر مقدم جيش الدولة البورية بدمشق، واعتمد عليه هذا الأتابك في تصريف بعض

(١) ابن الأثير. التاريخ الباهر.- ص١١٠-١١٢ ؛ أبو شامة. كتاب الروضتين.- ج١، ق١ ٢٧٩- ٢٨٢.



الشؤون السياسية، وقد نجح أسامة في ذلك نجاحًا، رفع مكانته في دمشق متوجهًا إلى القاهرة فوصلها في جمادى الثانية سنة ٥٣٩هـ (١١٤٤م) قضى فيها عشر سنوات في كنف الخليفة الفاطمي الحافظ لدين الله (٥٢٤ـ٥٤٤هـ/١١٣٠ـ١١٤٩م) ثم الظافر بأمر الله من بعده (٥٤٤ـ٥٤٩هـ/١١٤٩ـ١١٥٤م) شارك خلالها في بعض المهام السياسية، عاد بعدها إلى دمشق سنة ٥٤٩هـ (١١٥٤م). حيث اتصل بحاكمها الجديد الملك نور الدين محمود بن زنكي وشارك معه طيلة عشر سنوات في الأحداث السياسية والمعارك الحربية، آثر بعدها الراحة، والبعد عن خِدمة الملوك، فمضى إلى حصن كيفا، وهناك عكف على الدرسِ والبحث والتأليف، ولكن هذه العزلة التي ارتضاها أسامة قطعها دخول صلاح الدين الأيوبي دمشق حيث كانت تربطه معه صلات وثيقة عندما كانا معًا في بلاط نور الدين محمود، فمضى إليه أسامة واستقبله صلاح الدين استقبالاً حسنًا، وجعله من مستشاريه وأنعم عليه، فعاش أسامة في دمشق يشكو الكبر، وتثاقلت عليه أعباء الحياة حتى إذا كان الثالث والعشرون من رمضان سنة ٥٨٤هـ (نوفمبر سنة ١١٨٨م) توفي أسامة بعد أن أربي على التسعين عامًا، ودُفِن في سفح جبال قاسيُون بدمشق.[١]

وقد خلّف أسامة آثارًا أدبية وتاريخية مُهِمّة، يُذكر منها في هذا المقام: كتاب "البديع في نقد الشعر" الذي جمع فيه ما تفرق في كتب العُلماء المتقدمين في نقد الشعر وذكر محاسنه وعيوبه، وحشد في كتابه خمسة وتسعين بابًا ذكر فيها جملة من أبواب البلاغة ليست مرتبة كالترتيب الذي انتهت إليه علوم البلاغة في العصر الحاضر،[٢] وقد

---

(١) العماد الأصفهاني. الخريدة (قسم الشام).- ج١، ص٤٩٨ـ٤٩٩ ؛ ياقوت. معجم الأدباء.- ج٥، ص١٩٢ـ١٩٣ ؛ ابن خلكان. وفيات الأعيان.- ج١، ص١٩٩ ؛ الصفدي. الوافي بالوفيات.- ج٨، ص٣٧٨.

(٢) مقدمة الكتاب.

نُشر هذا الكتاب بتحقيق كل من أحمد بدوي وحامد عبدالمجيد في وزارة الثقافة والإرشاد القومي بمصر، سنة ١٣٨٠هـ (١٩٦٠م) وهي طبعة جيّدة ومفهرسة.

ومن أبرز علماء البلاغة في هذا العهد الإمام أبو الفتح نصر الله بن أبي الكرم الشيبَانِي المعروف بضياء الدين بن الأثير المتوفى سنة ٦٣٧هـ (١٢٣٩م).[١]

وقد خلّف ضياء الدين تصانيف أدبية هامة على الرغم من انشغاله في أمور الوزارة في الدولة الأيوبية بالشام ومصر، وكتابة الإنشاء في الدولة الزنكيّة بالشام، ومما أصابه في حياته من عدم الاستقرار في بعض فتراتها، وكان من أبرز مصنفاته في علوم البلاغة والنقد: كتاب" " المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر"[٢] هذا الكتاب الذي يتصل فيه فكر ابن الأثير بذوقه الفني ويدرس فيه قواعد البلاغة ومباحثها دِراسة ذوقية نقدية تنبه إلى الرديء، وتُرشد إلى الجيّد والأجود، ولا يكتفي بالجانب النظري بل يصله بالجانب العلمي، أو التطبيقي، ونقد ابن الأثير في كتابه " المثل السائر" نقد مميز له طابعه الخاص بين مناهج النقد المعروفة، ولقد عرف كتاب المثل السائر " في بيئات الثقافة العربية على أنه كتاب في أصول البلاغة العربية، ومرجعًا من أهم مراجعها، بما حوى من فنونها الكثيرة المنثورة في بطون الكتب المختلفة في موضوعاتها، المتباينة في مناهجها، بل ويمتاز كتاب المثل السائر من بين كتب البلاغة بأنه درس تلك الفنون دِراستين إحداهما: دراسة قاعدية عني فيها بالحدود والتعاريف، وحصر الأقسام وجمع فيها كل ما استطاع جمعه من معالمها التي اهتدى إليها من سبقه إلى البحث البلاغي، والأخرى دراسة نقدية، وفيها بيّن كثيرًا من العيوب التي يقع فيها مستعملو تلك الفنون في أشعارهم أو خطبهم أو كتاباتهم.

---

(١) سبقت ترجمته في الفصل الثالث.

(٢) ابن خلكان. وفيات الأعيان.- ج٥، ص٣٩١.



وعُرِف كتاب المثل السائر بأنه كتاب في النقد الأدبي أيضًا بما أفاض به مؤلفه من الآراء والأفكار الناقدة لكثير من فحول الشعراء والكُتّاب السابقين له نقدًا موضوعيًا يعتمد على ضرب الأمثلة من سائر أساليب الكتابة الفنية. كما عُرف كتاب " المثل السائر" أيضًا بأنه موسوعة أدبية لما تحتويه من دراسة خصبة في صناعة الأدب، وفي أشهر فنونه، ونصوصًا من المنظوم والمنثور تمثل عصور الأدب المختلفة واتجاهاته المتباينة مع الإشارة إلى عددٍ كبيرٍ من الأدباء،[1] وقد طُبِع هذا الكتاب طبعات عديدة كان أجودها طبعة دار الرفاعي بالرياض بتحقيق أحمد الحُوفِي، وبدوي طبانه في ثلاثة أجزاء وهي الطبعة الثانية سنة ١٤٠٣هـ (١٩٨٢م) ولضياء الدين أيضًا كتاب: "الجامع الكبير في صناعة المنظوم من الكلام المنثور" وقد ألّف ابن الأثير هذا الكتاب على ما يبدو قبل كتاب المثل السائر" وربما كان أول كتاب يؤلفه في علم البيان ويُشير إلى مواطن النقل في أكثر الأحيان، وقد يناقش رأي من سبقه بأسلوب هادئ ينتقص إليه كتابه السابق " المثل السائر" يقول في مقدمة كتاب الجامع عن سبب تأليفه لهذا الكتاب: لمحت في أثناء القرآن الكريم من هذا النحو- أي من موضوعات علم البيان- أشياء طريفة، ووجدت في مطاوية من هذا النوع نُكتًا دقيقة لطيفة، فعرضتها عند ذلك، على الأقسام التي ذكرها هؤلاء العلماء وشرحوها، والأصناف التي بينوها في تصانيفهم وأوضحوها، فألفيتهم قد غفلوا عنها، ولم ينبهوا على شيء منها، وكان ذلك باعثًا لي على تصفح آيات القرآن العزيز، والكشف عن سره المكنون، فاستخرجت منه حينئذ ثلاثين ضربًا من علم البيان، لم يأت بها أحد من أولئك العلماء الأعيان، وكان ما ظفرت به أصل هذا الفن وعمدته، وخلاصة هذا العلم وزبدته، فحيث أحرزت هذه الفضيلة، وحصلت عندي هذه العقيلة، أحببت أن أفرِد لها كتابًا، وأفصلها فيه أقسامًا وأبوابًا ليكون

(١) مقدمة الكتاب.- ج١، ص٣٠.٣١.

مقصورًا على شوارد هذا العلم وغرائبه ..."،[1] وقد نشره المجمع العلمي العراقي عام ١٣٧٥هـ (١٩٥٦م) بتحقيق مصطفى جواد، وجميل سعيد، وهي طبعة جيدة.

ومن مصنفاته أيضًا كتاب: "كِفاية الطالب في نقد كلام الشاعر والكاتب" وهو يُمثل مرحلة متأخرة من مراحل تأليفه، فقد بدأ فيه المؤلف مستوعبًا لفنون البلاغة مقتدرًا على اختيار نماذجها الجيدة معتمدًا على كُتب البلاغيين الذين سبقوه ويضمّ هذا الكتاب واحدًا وستين بابًا في فنون البلاغة والنقد الأدبي، تتميز بسهولة الأسلوب والاستشهاد المستمر بالأبيات المعروفة والنماذج المختارة. وقد نشرته جامعة الموصل بتحقيق: نوري حمّود القيسِي، وحاتم صالح الضامِن، وهلال نَاجِي، وهي طبعة جيدة مشتملة على مقدمة حسنة عن حياة ابن الأثير وعصره.[2]

ولضياء الدين أيضًا كتاب: "الاستدراك في الرّد على رسالة ابن الدهان المسماة بالمآخذ الكندِية من المعاني الطائية" وابن الدهان هو سعيد بن المبارك المتوفى سنة ٥٦٩هـ (١١٧٣م)[3] كان قد ألّف رسالة في بيان مآخذ المتنبي من أبي تمام، وكان لغويًا نحويًا لا صلة له بنقد الشعر فردّ عليه ما فاته من معانٍ أخذها المتنبي من أبي تمام، وقد طُبع هذا الكتاب بمطبعة الرسالة في القاهرة سنة ١٩٥٨م بتحقيق حنفي محمد شرف، وهي طبعة جيدة مفهرسة.[4]

ولابن الأثير أيضًا في البلاغة والنقد الأدبي كتاب: "البُرهان في علم البيان" ذكر بروكلمان[5] أنّ منه مخطوطة في برلين برقم (٧٢٤٨)، وذكره

(١) مقدمة كتاب الجامع.- ص٣.
(٢) مقدمة الكتاب من ص٣ حتى ص٣٠.
(٣) سبقت ترجمته ضمن هذا الفصل.
(٤) مقدمة كتاب الاستدراك.- ص ٨-١٠.
(٥) تاريخ الأدب العربي.- ج٥، ص٢٧٣.

البغـدادي أيضًا[1] ولـه أيضًا كتاب " عمُود المعاني" وقد ذكره مؤلفه في كتاب الاستدراك فقـال: " وقد ألّفت في ذلك - جريان الحكم في أعمدة المعاني وما يخرج من شعبها - كتابًا وسميـته " عمـود المعـاني" وجعلـته مقصـورًا عـلى ضـروب المعـاني الموجـودة في الـنظم والنثر، وما فيها من الأعمدة المطروقة، وما يخرج عنها من الشعب، وهذا كتاب تعبت في تأليفه زمنًا طويـلاً، وأنـا ضِنين بـه"،[2] وقـد فُقـد هـذا الكتاب مما حرم الباحثين متعة قـراءته، والـنهل مـن معـين معارفـه، ويـبدون أن حـرض ضـياء الدين على هذا الكتاب، وتمسكه بـه كـان سـببًا في فقـده، لأنـه لـو أتاح الفرصة لنسخة لتوافرت منه نسخ عديدة، ولكملت كتب المعاني بوجوده.

تـلك أبـرز الجهـود الـتي بُذلـت في عـلم الـبلاغة والـنقد الأدبـي في العهـد الزنكي، وهي بلا شك جهود جليلة ورائدة في هذا الفرع من العلوم اللغوية والأدبية.

٤ ـ الأدب:

واكـب النشـاط العمـلي في العهد الزنكي ازدهار في الحياة الأدبية، حيث حفل هذا العهـد بأدبـاء أجـلاء وشُـعراء فحـول، عـنوا بـتدوين المـأثور مـن نـثر وشعر، كما ألّفوا في فـنون الأدب المختلفة وتاريخه وطبقات رجاله حيث تعددت اتجاهات المؤلفين في الكتابة، وتـنوعت كتاباتهم فيها، وأصبح كثير من مؤلفاتهم من أمهات الكتب الأدبية التي لاقت عناية كبيرة من الدراسة والاستيعاب.

لقـد كان النتـاج الأدبي في العهـد الزنكي المرآة التي عكست الأوضاع السياسيـة والعسـكرية والاجـتماعية والعـلمية في ذلـك العهـد، وكـان بحـق صـورة صـادقة لتـلك الأوضـاع المختـلفة، ولعل حظ بــلاد الشام في ذلك أكبر من حظ الموصل نظرًا لتأثر بلاد

---

(١) هدية العارفين.- ج٢/ ٤٩٢ـ٤٩٣.

(٢) الاستدراك.- ص١١ـ١٢.

الشام بالأوضاع السياسية التي كان يعيشها وبخاصة المواجهة مع الصليبيين في المنطقة، والذي كان له أثر بالغ في نشاط الأدب وازدهاره وإظهار لون جديد من ألوان الأدب، بل ألوان متعددة ترجع إلى أصل واحد هو: الجهاد والدعوة لحماية الإسلام والمسلمين من ذلك الخطر الصليبي، ومن هذه الألوان: أدب القتال، والحض عليه، ووصف الجيوش وآلات الحرب والحصون، وإبراز فضائل الشجاعة والبطولة والتفاني، وقد اشترك في هذا الكُتّاب والشعراء جميعًا.[1]

وحيث إن البحث يُركز هنا على الأدب في العهد الزنكي، فإنه بالإمكان القول: بأن الأدب قد تمايزت أنواعه، وتعدد فنونه وبرز فيه عدد كبير من الكُتّاب والشعراء الذين تمكّنوا من وصل شعلة الأدب بأضواء النهضة العلمية التي بلغت ذروتها في الدولة الزنكية، وعمّت مدنها الكبار أمثال الموصل، وحلب، ودمشق، وأضاءت بدورها على كافة نواحي الحياة، وكانت أبرز فنون الأدب في ذلك العهد تتمثل فيما يلي:

أ ـ النثر:

كانت صور النثر وفنونه هي نفسها تقريبًا الصور والفنون التي عُرِفت من قبل في الأدب العربي، ويُعنى بها الخطب، والرسائل، إضافة إلى فن المقامات وهو أحدثها ظهورًا في الأدب العربي حيث ظهر في أواخر القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) تقريبًا.[2] ومن فنون النثر كذلك المُذكرات، كما وُجد أدب الرحلات ضمن فنون الأدب النثري في ذلك العهد.

---

(١) سبق الحديث عن أثر الوجود الصليبي على النواحي الأدبية في الفصل الأول.

(٢) كان أول من عمل المقامات أبو بكر محمد بن الحسن بن دُريد الأزدي المتوفى سنة ٣٢١هـ (٩٣٣م) ثم جاء بعده أبو الحسن أحمد بن فارس اللغوي المتوفى سنة ٣٩٠هـ (١٠٠٠م) فعمل مقامات، فتلاهما بديع الزمان الهمذاني المتوفى سنة ٣٩٨هـ (١٠٠٧م) فأملى أربع مئة مقامة. (ياقوت. معجم الأدباء.- ج٤، ص٨٠.- ج٢، ص١٦١؛ ابن خلكان. الوفيات.- ج٤، ص٣٢٣.- ج١، ص١١٨، ١٢٧).

وقـد كـان لـلخطابة في هـذا العهـد أهميـة بالغة، لشعور المسلمين في بعض الفترات بالضعف أمام الصليبيين ورغبتهم في استنهاض الهمم والحث على الجهاد، وبذل النفس والنفيس في سبيل نصرة الدين الإسلامي، ولم يتول مزاولة هذا الفن في المساجد الكبيرة إلا من عُرِف عنهم طول الباع في حفظ القرآن وفصاحة اللسان، ومعرفة في علوم الشريعة، والعلوم اللّغوية والأدبية، وكانت الخطابة تُسند في الغالب إلى القضاة والمفتين، والفقهاء البارزين.

وقد اشتهر جماعة من الخطباء الأئمة، كانوا يعمدون إلى أن تأتي خطبهم مسجوعة، وكانت تبدأ بحمد الله، ثم بآيات من القرآن للتأثير بها على النفوس، وكانت تختار الآيات ذات المعاني المقاربة لموضوع الخطبة، لتكون استهلالاً لها، ومدخلاً سهلاً إلى النفوس، وهكذا كانت خطب ابن الجوزي حين يعظ الناس،[1] وخطبة القدس التي ألقاها قاضي دمشق محيي الدين بن زكِيّ الدين المتوفى سنة ٥٩٨هـ (١٢٠٢م)[2] عقب فتح صلاح الدين الأيوبي بيت المقدس في رجب سنة ٥٨٣هـ (١١٨٧م)،[3] ومن المتوقع أن يكون للخطابة أثر ظاهر في هذا العهد بفعل الظروف السياسية المُحيطة، وبخاصة مايتعلق بالوجود الصليبي في المنطقة ولكن الباحث لا يكاد يجد خطبًا مكتوبة

---

(١) ابن جُبير. الرحلة.- ص١٩٦-١٩٨.

(٢) هو أبو المعالي محمد بن علي بن محمد، كان فقيهًا أديبًا له نظم حسن، وخطب، ورسائل، تولى قضاء دمشق.- وكذلك أبوه زكي الدين، وكان له عند صلاح الدين منزلة عالية، وقد خطب محي الدين أربع خطب متتالية في أربع جمع لم يبق منها إلا هذه الخطبة، وكانت ولادته سنة ٥٥٥هـ (١١٦٠م) بدمشق وتوفي بها في شعبان سنة ٥٩٨هـ (١٢٠٢م) ودفن في جبل قاسيون. (ابن خلكان. وفيات الأعيان.- ج٤، ص٢٢٩-٢٣٧؛ الذهبي.العبر.- ج٤، ص٣٠٥؛ السبكي. طبقات الشافعية.- ج٦، ص١٥٧-١٥٩؛ ابن العماد. الشذرات.- ج٤، ص٣٣٧-٣٣٨).

(٣) أورد ابن خلكان نص هذه الخطبة في وفيات الأعيان.- ج٤، ص٢٣٠-٢٣٦.

ومحفوظة في مصادر البحث المتيسرة، لأن الخطابة في التراث الأدبي لم تكن بمستوى الشعر في اهتمام الأدباء والنقاد بها.

أما الرسائل فقد كانت من أبرز الفنون النثرية التي برزت في هذا العهد، فقد عظم شأنها وازداد الاحتفال بها في شكل رسائل ديوانية حينًا أو إخوانية حينًا آخر، إلا أن الأولى أعمّ من الثانية حيث كانت تصل ما بين الحُكّام أنفسهم، أو بين الحُكام والناس في مناسبات عامة، بينما الثانية تصل ما بين صديقين على نحو من الأنحاء، كما وُجدت الرسائل المطلقة التي يُنشِئها الكاتب في موضوع من الموضوعات التي يروق له الكتابة فيها، وهي أقرب إلى "فن المقال" في العصر الحاضر.

وكانت الرسائل تلتزم نهجًا معينًا يُكثر فيه الكاتب من استعمال فنون البلاغة والاستشهاد بالشعر والاقتباس منه، وكثيرًا ما تُفتتح به، أو بآيات من القرآن الكريم، ولكن الاستشهاد بالقرآن والحديث كان أوضح في الرسائل الديوانية منه في الرسائل الاخوانية والرسائل الأخرى.[1]

وكذلك كان فن الكتابة يعتمد على القصص والأخبار والأمثال السائرة يضمنها الكتّاب رسائلهم، أو يستخدمون بعض معانيها أو ألفاظها فيوشحون بها جملهم وعباراتهم، وقد تعقدت صنعة الاقتباس والتضمين والإشارة في الرسائل إلى درجة لم يبلغها الشعر نفسه، لهذا لم يكن غريبًا أن يصبح للرسائل كما لكل صنعة دقيقة: أصول وأساليب وآلات، وأن يكون لها روّاد ينهجون الطريق ويُبينون معالمه ويسير وراءهم غيرهم من السالكين.[2]

وقد ألف جماعة من الكُتّاب كتبًا في فنون الرسائل وأصول النثر والنظم، كان أبرزهم في العهد الزنكي:

(١) محمد زغلول سلام. الأدب في العصر الأيوبي.- القاهرة: دار المعارف، ١٣٨٨هـ (١٩٦٨م).- ص ١٧٧-١٧٩.

(٢) سلام. المرجع نفسه.- ص١٧٩-١٨٠.

ضياء الدين نصر الله بن الأثير المتوفى سنة ٦٣٧هـ (١١٣٩م) الذي ألّف كتبًا عديدة في هذا الموضوع أهمها: كتاب " المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، وكتاب "المفتاح المُنشأ في حديقة الإنشاء".[١] وقد طُبع هذا الكتاب في الموصل سنة ١٤٠٣هـ (١٩٨٣م) بتحقيق هِلال ناجي.

وممن برز في فن الكتابة في هذا العهد العماد الأصفهاني المتوفى سنة ٥٩٧هـ (١٢٠١م)،[٢] وكان قد تولى كتابة الإنشاء في ديوان الملك نور الدين محمود سنة ٥٦٣هـ (١١٦٧م) بعد استعفاء أبي اليسر شاكر بن عبد الله المتوفى سنة ٥٨١هـ (١١٨٥م) ولازم العماد الملك نور الدين محمود حتى وفاته سنة ٥٦٩هـ (١١٧٤م) فاتصل بعده بالسلطان صلاح الدين الأيوبي وتعاون مع القاضي الفاضل المتوفى سنة ٥٩٦هـ (١٢٠٠م) على تسجيل منشورات السلطان ورسائله وأوامره،[٣] وقد اهتم العماد الأصفهاني بالتصنع في معظم فنونه النثرية، وعني بأسلوبه كلّ العناية كما هو معروف في هذا العهد، والتزم ذلك حتى في عناوين كتبه ورسائله. وقد أورد العماد كثيرًا من رسائله الديوانية التي أنشأها باسم الملوك الزنكيين والأيوبيين في مختلف تصانيفه وبخاصة التصانيف التاريخية[٤] كما جمع الرسائل التي أنشأها للملوك الأيوبيين في مجموع خاص

---

(١) أسماه ابن خلكان. " المعاني المخترعة في صناعة الإنشاء" (وفيات الأعيان.- ج٤، ص٣٩٢)

(٢) سبقت ترجمته في الفصل الأول.

(٣) البنداري: سنا البرق الشامي، ص٦٧ ؛ أبو شامة. كتاب الروضتين.- ج١، ق٢، ص٣٦٨ ؛ ابن خلكان. المصدر السابق.- ج٥، ص١٤٨-١٤٩.

(٤) كانت أبرز مصنفاته: خريدة القصر وجريدة العصر، والذي يشتمل على ذكر الشعراء والأدباء الذين عاشوا بعد المائة الخامسة حتى سنة ٥٧٢هـ (١١٧٦م) وقد ذيله بكتاب سماه "السيل" وله كتاب "نصرة الفترة وعصرة الفطرة" في تاريخ الدولة السلجوقية، ووزرائها وأكابر دولتها، وله " البرق الشامي" وهو مجموع تاريخ أشبه بالمذكرات، وله كتاب " الفيح القسي في الفتح القدسي" أرخ فيه لفتوحات صلاح الدين، وله ديوان شعر، وكتب أخرى نتحدث عن جميعها في مناسبتها، (عن مؤلفات العماد انظر: ياقوت. معجم الأدباء.- ج١٩، ص١٩-٢٠ ؛ ابن خلكان. وفيات الأعيان.- ج٥، ص١٤٩-١٥٠).

سمّاه " رسائل بين الملوك الأيوبيين" ويُوجد منه نسخة مصورة على ميكروفيلم في معهد المخطوطات العربية بالقاهرة برقم (٤١٩) أدب.[١] كما أن للعماد الأصفهاني العديد من المُكاتبات، والمُراسلات والمُلاطفات مع أدباء عصره وهذا ما يطلق عليه " الرسائل الإخوانية" وكان أشهرها ما تمّ بينه وبين القاضي الفاضل المتوفى سنة ٥٦٩هـ (١٢٠٠م)،[٢] وكان القاضي الفاضل سبب التحاق العماد في بلاط السلطان صلاح الدين الأيوبي،[٣] وله أيضًا مكاتبات ومراسلات مع الحسن بن صافي المتوفى سنة (٥٦٨هـ/١١٧٢م).[٤]

وممن برز في كتابة الإنشاء في هذا العهد الإمام ضياء الدين نصر الله بن محمد بن الأثير المتوفى سنة ٦٣٧هـ (١٢٣٩م)، وكان قد تولى كتابة الإنشاء بالموصل للملك ناصر الدين محمود بن عز الدين مسعود (٦١٦-٦٣١هـ/١٢١٩-١٢٣٣م) ثم للأتابك بدر الدين لؤلؤ حينما استأثر بحكم الموصل من بعده.[٥]

وله ديوان رسائل جمع فيه ما أنشأه من رسائل في البلاد الأيوبي والبلاط الزنكي، نُشر منه مجموعات أولاها: بتحقيق أنيس المقدسي، وطبعت في بيروت سنة ١٣٧٨هـ (١٩٥٩م)، ثم نُشرت منه مجموعة بتحقيق نُوري القيسي وهلال ناجي، بمناسبة ندوة أبناء الأثير المنعقدة بجامعة الموصل، ثم نُشر جزء ثالث من الديوان بتحقيق هلال ناجي سنة ١٤٠٢هـ (١٩٨٢م) بجامعة الموصل أيضًا، وتُمثل هذه المجاميع الثلاث: ثلاث مجلدات متفرقة من ديوان رسائل ابن الأثير الذي أكّد ابن خلكان أنه في مجلدات عدة.[٦]

---

(١) عمر موسى باشا. الأدب في بلاد الشام.- ص٦٨٢.
(٢) ابن خلكان. المصدر السابق.- ج٥، ص١٥٠.
(٣) البنداري. سنا البرق الشامي، ق١، ص١٩٣-١٩٤.
(٤) ياقوت. المصدر السابق.- ج٨، ص١٢٢.
(٥) ابن خلكان. المصدر السابق.- ج٥، ص٣٩٠-٣٩١.
(٦) وفيات الأعيان.- ج٥، ص٣٩٢.

إضافة إلى هذه المجاميع فقد أورد ضياء الدين كثيرًا من رسائله في كتابه المشهور: " المثل السائر"، وقد اعتمد ضياء الدين في الكتابة على الأصول التي اعتمد عليها سابقوه والتي كان من أهمها: القرآن الكريم، والحديث الشريف، والمحفوظ الكثير من اللّغة والشعر والأخبار.

أما الصورة الفنية التي يمتاز بها أسلوبه؛ فإنه كتب بطريقتين، الطريقة الأولى: هي التي استخدمها في الرسائل والإنشاء، ويحذُو فيها حذو كتّاب عصره، فيكثر من استخدام السجع والجِناس والمُحسّنات البديعية بصفة عامة، والطريقة الثانية: أسلوب النثر المرسل الذي لا يعتمد على أصول البديع ولا يتمسك بقيوده، وقد ظهر هذا الأسلوب في مؤلفات ابن الأثير وهو بهذا يختلف عن العماد الذي كان أسلوبه في الإنشاء وكتابة الرسائل هو نفس أسلوبه في التأليف مما يجعل القارئ لكتبه " الخريدة أو الفيح القسّي" يُدرك التصنع ويستثقل الاستمرار.

ولقد نجح ضياء الدين بن الأثير في رفع راية التجديد في النثر الأدبي في عصره، وخالف الأساليب التي ألفها الناس في مدرسة التصنع النثرية، لم يكتف بذلك بل هاجم روّادها الكبار أمثال القاضي الفاضل. والعماد الأصفهاني.[1]

وفن المقامات ظهر في الأدب العربي في القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) تقريبًا، وكانت إذ ذاك محاولات أولى، ويأخذ من فني القصة والرسالة، فيأخذ من القصة الأحداث وتتابعها، والشخصيات والحوار، ومن الرسالة التأنق في العبارة واستخدام المحسنات البديعية وبخاصة السجع، والتوشيح بالشعر والقرآن والأمثال، وقد ابتدعها بديع الزمان الهمذاني المتوفى سنة ٣٩٣هـ (١٠٠٣م) بهراة،[2] ومن ذلك

(١) عمر موسى باشا. الأدب في بلاد الشام.- ص٦٩٧، ٦٩٩، ٧٠٣.
(٢) محمد زغلول سلام. الأدب في العصر الأيوبي، ص١٨٠.

الوقـت أصبحـت مقامات بديع الزمـان مثالاً لذلك النـوع من الكتابـة حيث نسـج أبـو محمـد القاسـم بـن عـلي بـن الحرِيـري المتوفى سـنة ٥١٦هـ (١١٢٢م) عـلى منـوال الهمذانـي في مقاماتـه، ولكـنه زاد عـليه في الـتأنق الـلفظي وفي تكـلف أنـواع الـبديع،[١] ويـبدو أن فـن المقامـات لم يزدهـر كـثيرًا في هـذا العهـد، ولم يهـتم بـه أدبـاؤه، ولم يستخدموه في المعاني والأغراض التي أنشئ من أجلها على يد الهمذاني والحريري، كما أن قلة النصوص التي وصلتنا عن هذا الفن تحول بيننا وبين الحكم عليه حكمًا موضوعيًا قائمًا عـلى الـبحـث والدراسة. ولـك مـا وُجـد في ذلـك أن الحسـن بن صافي المتوفى سنة ٥٦٨هـ (١١٧٢م) أنشـأ مقامـات حـذا فيهـا حـذو الحريـري،[٢] يُضـاف إلى ذلـك شـرح مقامات الحريري لابن الدهان النحوي المتوفى سنة ٥٦٩هـ (١١٧٣م).[٣]

ومـن فنون النثر كذلـك في العهـد الزنكي " المذكـرات "، وأشـهر من كتب في هذا اللون مـن ألـوان النثر الأمير المجـاهد مؤيـد الدولـة أبـو المظفـر أسـامة بـن منـقذ الشـيزري المتوفى سنة ٥٨٤هـ (١١٨٨م)،[٤] فكتابة الاعتبار صورة مشوّقة لحياته، وحياة عصره، تحدث فيه عـن مغامراته وما واجهه من أحداث في الشام ومصر، مع أهله وعمه، ومع الخلفاء الفـاطميين ووزرائهـم، ومـع الصـليبيين وقوادهـم، ومـع قـواد المسـلمين، وهـي وقـائع شـيّقة طلِيّة فيهـا الطـرافة، ولا تعـدم المـادة التـاريخية الـتي أغفلـتها كـتب الـتاريخ وبخاصـة مـا يتصـل بجوانـب الحياة العامة وأحداث العصر،[٥] وقد نشر هذا الكتاب لأول

---

(١) عمر فروخ. تـاريخ الأدب العربي.- بيروت : دار العلم للملايين، ١٣٩٢هـ (١٩٧٢م).- ج٣ ص٢٣٩.

(٢) ياقوت. معجم الأدباء.- ج٨، ص١٢٣-١٢٤.

(٣) منه نسخـة مصورة بالمكتبـة المركزية بجامعة الإمام محمّد بن سعـود الإسلاميّة بالرياض برقم (٤١٩) والأصل بمكتبة الشيخ محمد سرور الصبّان الخاصة بمكة المكرمة.

(٤) سبقت ترجمته ضمن هذا الفصل.

(٥) محمد زغلول سلام. الأدب في العصر الأيوبي.- ص١٨٢.

مرة في برنستُون بالولايات المتحدة الأمريكية بتحقيق فيليب حتى سنة ١٩٣٠م، ثم أعاد قاسم السامرائي تحقيقه، وطُبع بمؤسسة دار الأصالة للثقافة والنشر والإعلام بالرياض سنة ١٤٠٧هـ (١٩٨٧م).

إلى جانب الأغراض والفنون الأدبية السابقة، فقد ظهرت في هذا العهد فنون أخرى يعمد فيها الأديب إلى تناول قضية أدبية محددة ويتناولها بالبحث والدراسة، ويُصنّف فيها كتابًا تظهر فيه براعة الأديب وأسلوبه وتمتزج فيه أساليب الأدب حتى يكون أشبه بالموسوعات الأدبية.

ومن أبرز هذه الفنون " الأدب التهذيبي" الذي ينهض بمهمة الإصلاح الخُلقي والتوجيه السياسي، فوُجدت كتب أدبية صُنفت في هذا المجال بوّبها كاتبوها أبوابًا تتناول الأخلاق الكريمة كالصدق، والصبر والوفاء إلى غير ذلك، ثم يُورد تحت كل صفة ما ورد فيها من أدب رفيع مستشهدًا بالقرآن الكريم أو الحديث الشريف أو ما أثر من كلام العرب.[١]

وممن صنّف في هذا الفن، أبو المظفر أسامة بن منقذ الشيزِري المتوفى سنة ٥٨٤هـ (١١٨٨م) ويتمثل ذلك في كتاب " لُبَاب الآداب" والذي يهدف فيه إلى تهذيب الأخلاق وتقويم النفوس، وقد رتّبه أسامة على سبعة أبواب، فباب في الوصايا، وآخر في السياسة، وثالث في الكرم، ورابع في الشجاعة وخامس في الآداب، وسادس في البلاغة، وسابع في الحكمة وهو في هذه الأبواب جميعها يُورد من القرآن الكريم ما يرتبط بالباب، ثم يُثنِّى بالأحاديث المتعلقة به، وبعد ذلك يأتي بالمرويات الأخرى عن العرب والعجم، وقد طُبع هذا الكتاب في المطبعة الرحمانية بمصر سنة ١٣٥٤هـ (١٩٣٥م) بتحقيق أحمد محمد شاكر.

(١) أحمد بدوي. الحياة الأدبية في عصر الحروب الصليبية.- ص٣١٥.

كما أن بعض الكُتّاب رأى أنه من رسالة الأدب أيضًا أن ينقل إلى الناس تاريخ عصره، فمال في كتابته التاريخية إلى التأنق في العبارة، وجودة الأسلوب، حتى أصبحت كتاباته نثرًا فنيًا، ولا تختلف في شيء عن كتابة الرسائل الأدبية الفنية، وممن التزم هذا المنهج في كتابته للتاريخ العماد الأصفهاني المتوفى سنة ٥٩٧هـ (١٢٠١م) ويتمثل ذلك في كتابه: " البرق الشامي" والذي التزم فيه باللّغة الفنيّة السائدة في هذا العهد مع طول الكتاب، وضخامته، حيث يظهر لقارئه أن العماد لم يقصد نقل المعلومات التاريخية إلى السامع فحسب، ولكنه أراد نقلها في صورة أدبية جميلة مؤثرة.[١]

وكتاب " البرق الشامي" كتاب كبير أشبه بالمذكرات الشخصية لأن مؤلفه بدأه بذكر نفسه وحياته وانتقاله من العراق إلى الشام وأخباره مع الملك نور الدين، والسلطان صلاح الدين، وقد جاء هذا الكتاب في سبع مجلدات فُقد معظمها ولم يبق منها سوى المجلدتين: الثالثة والخامسة، ولكن البنداري المتوفى سنة ٦٤٣هـ (١٢٤٥م) اختصره جميعه في كتاب سماه: " سنا البرق الشامي" نُشر القسم الأول منه في بيروت سنة (١٩٧١م) بتحقيق: رمضان ششن.

تلك كانت أبرز معالم النثر الأدبي، وفنونه، والجهود التي بذلت من علماء العهد الزنكي، في هذا الميدان، وقد أشار البحث إلى أبرز العلماء، وإنتاجهم العلمي خلال هذا العهد.

ب ـ الشعر:

تمثل هذه المرحلة التي نحن بصدد الدراسة عنها مرحلة ازدهار وغزارة في ميدان الشعر حيث جدّت على الساحة أحداث أثرت الناحية الأدبية بعامة والشعرية بخاصة، أعني بذلك تعرض المنطقة الخاضعة لحكم الزنكيين (وبخاصة بلاد الشام) لهجمات

---

(١) أحمد بدوي. المرجع نفسه.- ص٣١٩-٣٢٠.

مستمرة من قِبل النصارى الصليبيين استهدفت القضاء على الإسلام وتكوين ممالك صليبية في المنطقة تكون مملكة بيت المقدس مركزًا لها.

وعلى الرغم من استمرار بعض الأغراض الشعرية التي كانت سائدةً قبل هذا العهد (كالمديح، والهجاء، والغزل، والوصف وغيرها من الموضوعات)، إلا أن أغلب الشعراء قد ندبوا أنفسهم في المشاركة في رسم صورة الجهاد التي كان يعيشها المسلمون آنذاك، فحملُوا على عواتقهم عبء الدعوة إلى الجهاد ومقاومة الصليبيين، والدعوة إلى توحيد الجهود الإسلامية المشتّتة، فظهر على ساحة الشعر ما يُسمى بشعر الجهاد والذي كان أبرز فنون الشعر في ذلك العهد، فمنذ اللحظات الأولى لقدوم الصليبيين إلى المناطق الإسلامية تصدى كثير من الشعراء لوصف المعارك التي خاضها قادة المسلمين المخلصين، وتمجيد البطولات الإسلامية. كما أنهم اعتنوا بصفة خاصة في كثير من قصائدهم بحث المسلمين على مواصلة الجهاد، وبذل الأنفس والأموال، ومقاومة الصليبيين وتطهير بلاد المسلمين من رجسهم.[1]

ومجال البحث هنا لا يسمح بتقصي الشعر وأغراضه، والشعراء وأصنافهم، وآثارهم في العهد الزنكي، حيث برز في هذا العهد، وبخاصة في بلاد الشام، عدد كبير من الشعراء، يُلمسُ في شعرهم صدى للأوضاع السياسية والاجتماعية والاقتصادية، وكان ترجمانًا لما دار فيها من أحداث، لذا كان من تمام هذه الدراسة عن " ميادين العلوم وأبرز أعلامها" أن يتطرق البحث لأشهر الشعراء الذين عاشوا في هذا العهد، واتصلوا بملوك الدولة الزنكية، وشاركوهم في وصف المعارك التي دارت بينهم وبين الصليبيين، والتعرف على مآثرهم الشعرية ومصادر رصدها. وكان من أبرزهم:

---

(١) سبق الحديث عن أثر الوجود الصليبي في نشاط الشعر في الفصل الأول.

١ ـ ابن قسيم الحمويّ (٥٠٠ـ٥٤٢هـ/١١٠٥ـ١١٤٦م)[١]

هو شرف الدين أبو المجد مُسلم بن الخضر بن مُسلم بن قسيم التنُوخي الحموِي، ولد بحماة وهو أحد شعراء العصر الثلاثة المشهورين بعد ابن القيسراني وابن مُنير الآتي ذكرهما، قال عنه العماد: "نبغ في عصر شيوختهما، وبلغ إلى درجتهما"،[٢] لا نعرف كثيرًا عن نشأته، وكلّ ما ذُكر أنه قضى طفولته الأولى في مسقط رأسه "حَمَاة" فحفظ القرآن الكريم، ودرس علوم الشريعة، بل وأخذ نصيبًا وافيًا من دراسة الأدب، واتصل في شبابه بالملك عماد الدين زنكي، وابنه نور الدين محمود من بعده، فمدحهما بقصائد عديدة، وأثنى عليهما، كما تردّد الشاعر إلى دمشق في عهد حاكمها مجير الدين آبق بن محمود آل بوري (٥٣٤ـ٥٤٩هـ/١١٣٩-١١٥٤م) ومدح مقدم جيشها معين الدين أنر، كما مدح أيضًا بعض الأمراء الذي عرفهم واتصل بهم في الشام، وقد أوردا ابن عساكر والعماد كثيرًا من أشعاره ومدائحه.[٣]

أما ديوانه فأغلب الظن أنه مفقود، إذ لم يُعثر عليه، وكلّ ما وُجد عنه إشارة عند العماد الأصفهاني حيث قال في ختام ترجمته: "ونَظَرتُ في ديوان شعره، فالتقطتُ فرائد درّه، وقلائد سحره، وشحذت من غراره ما قبل الشّحذ، وأخذت من خلاصته ما استوجب الأخذ، فأوردت لُمحًا من مُلحِه، ونُبذًا من منتقاة ومنتقحه".[٤]

---

(١) ترجم له ابن عساكر. تاريخ دمشق (مخطوط).- ج١٦، ص٤٦٣ ؛ العماد الأصفهاني. الخريدة (قسم الشام).- ج١، ص٤٣٣ـ٤٣٤ ؛ سبط ابن الجوزي. مرآة الزمان.- ج٨، ق١، ص١٩٤.

(٢) المصدر السابق.- (قسم الشام).- ج١، ص٤٣٣.

(٣) ابن عساكر. تاريخ دمشق (مخطوط).- ج١٦، ص٤٦٣ ؛ العماد الأصفهاني. الخريدة (شعراء الشام).- ج١، ص٤٣٤ـ٤٨٠.

(٤) المصدر السابق.- (شعراء الشام).- ج١، ص٤٣٤.

٢ ـ ابن القيسراني : (٤٧٨-٥٤٨هـ/١٠٨٥ـ١١٥٤م)[١]

ولـد الشـاعر أبـو عـبد الله محمـد بن نصر بن صغير بن داغِر الخالدي الملقب شرف الديـن المعـروف بـابن القيسـراني في مدينة عكّـا سنة ٤٧٨هـ (١٠٨٥م) وقـد غادرها إلى قيسـارِيــة،[٢] وهـو في صغره ونشأ بها، ونُسب إليها، ثم ترك قيسارِية وهو شـــاب بعد استيلاء الصـليبيين عـليها واتــجه إلى دمشـق. وهـناك تـلقى تعليمه وقرأ الأدب، وانتقل بعـد ذلـك إلى حـلب في طـلب العـلم، ثـم عـاد مـرة أخـرى إلى دمشـق، وتـولى إدارة السـاعات الـتي عـلى بـاب الجامع الأموي، في عهد تاج الملوك بُوري بن طُغتِكِين (٥٢٢ـ٥٢٦هـ/١١٢٨ـ١١٣٢م) فـلم تطـل إقامتــه في دمشـــق أيضًا لخلاف تم بينه وبين تاج الملوك بـوري، فخرج إلى حلب ملتجأً بالملوك الزنكيين، وفي حلب اتصل ابن القيسراني بكبار رجـال الدولـة ومدحهـم، كما اتصل بعد ذلك بالملك عماد الدين زنكي وابنه نور الديـن محمـود وخـلّد فـتوحاتهما وانتصاراتهما المتكررة على الصليبيـــين، عاد الشاعر في آخـر حياتـه إلى دمشق، ومدح حاكمـها مُجير الدين أبق (٥٣٤ـ٥٤٩هـ/١١٣٩ـ١١٥٤م) ولكنه تُوفي بعد عشــرة أيـــام من وصوله بسبب حمىّ أصابته، وكانت وفاته في شعبان سنة ٥٤٨هـ (١١٥٤م) ودُفِن في دمشق.[٣]

---

(١) ترجم لـه ابن القلانسي. تاريخ دمشق.- ص٤٩٨ ؛ ابن عساكر. المصدر السابق (مخطوط).- ج ١٦، ص٤٧ ؛ العمـاد الأصـفهاني. المصـدر السـابق.- (قسـم الشـام).- ج١، ص٩٦ـ٩٧ ؛ يـاقوت. معجـم الأدبـاء.- ج١٩، ص٦٤ـ٨١ ؛ ابن الجوزي. مرآة الزمان.- جـ٨، ق١، ص ٢١٣ ؛ ابـن خـلكان. وفيـات الأعيـان.- ج٤، ص٤٥٨ـ٤٦١ ؛ ابـن تغـري بـردي. الـنجوم الزاهرة.- ج٥، ص٢٠٢.

(٢) قيسارية بلد على ساحل بحر الشام تُعد من أعمال فلسطين بينها وبين طبريّة ثلاثة أيام، وكانت قديمًا من أعيان المدن. (ياقوت. معجم البلدان.- ج٤، ص٤٢١).

(٣) ابـن القلانسـي. تاريخ دمشق.- ص٤٩٨ ؛ سبط ابن الجوزي. مرآة الزمان.- جـ٨، ق١، ص ٢١٣.

وكان ابن القيسراني وابن منير (الآتي ذكره) يُشبّهان بجرير والفرزدق للمناقضات والوقائع التي جرت بينهما، واتفق موتهما في سنة واحدة.[(١)]

أما آثار ابن القيسراني، فقد أورد له مترجموه طائفة مختارة من شعره وبخاصة العماد في خريدته،[(٢)] وياقوت في إرشاده،[(٣)] كما أشارت بعض المصادر إلى ديوانٍ له، فقد ذكر الحافظ ابن عساكر أن له ديوان شعر كبير حسن،[(٤)] كما ذكر العماد الأصفهاني أنه اطلع عليه، ونَظر فيه، واختار منه ماراقه وحلى به أوراق خريدته،[(٥)] وذكر أبو شامة أنه قرأ فيه، ونقل منه رسالة كتبها الشاعر إلى نور الدين واختار بعض القصائد التي مدحه بها،[(٦)] كما أشار ابن خلكان أنه ظفر به وهو بحلب، وجميعه بخطه، ونقل منه أشياء حسنة رائقة،[(٧)] إلا أنه لا يُعلم مصير، هذا الديوان المشهور الذي يحوي معظم شعره، وبعض رسائله حتى الآن، غير أنه ذُكر للشاعر ديوان آخر صغير اختاره من شعره، وقصره على الثغريات وعلى قصائد في الغزل والمديح، وأهمل ذكر قصائده في ذكر جهاد عماد الدين ونور الدين، وهذا الديوان لا يزال مخطوطًا بدار الكتب المصرية بالقاهرة برقم (١٤٨٤) أدب، وقد أشار إليه الزركلي في الأعلام،[(٨)] وبروكلمان في تاريخ الأدب العربي.[(٩)]

---

(١) ياقوت. معجم الأدباء.- ج١٩، ص٦٤-٦٥.
(٢) (قسم الشام).- ج١، ص٩٨ - ١٦٠.
(٣) المصدر السابق.- ج١٩، ص٦٥-٨١.
(٤) تاريخ دمشق (مخطوط).- ج١٦، ص٤٧.
(٥) الخريدة (قسم الشام).- ج١، ص١٢٦.
(٦) كتاب الروضتين.- ج١، ق١، ص٤٤.
(٧) وفيات الأعيان.- ج٤، ص٤٥٩.
(٨) الزركلي، خير الدين بن محمود الدمشقي. الأعلام: قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين.- ط٦.- بيروت: دار العلم للملايين، ١٤٠٤هـ (١٩٨٤م) جـ٧، ص١٢٥.
(٩) ج٥، ص٤٨.

٣ـ ابن مُنير الطرابُلسيّ (٤٧٣ـ٥٤٨هـ/١٠٨٠ـ١١٥٣م)[١]

في مدينة طرابلُس، وفي سنة ٤٧٣هـ (١٠٨٠م) ولد الشاعر أبو الحسن أحمد بن منير بن مفلح الطرابلسي الملقّب مهذّب الدين عين الزمان، ذكر المؤرخون أنه من أسرة فقيرة، وأنّ أباه كان يُنشد القصائد في أسواق طرابلس، قضى الشاعر طفولته في مدينة طرابلس، وحفظ القرآن الكريم، وتعلم اللغة والأدب، وأتقنها، وبرع في نظم الشعر.

وقد أجمع مترجموه على أنه كان شيعيًا مُغاليًا، قال عنه العماد الأصفهاني: "كان شاعرًا مجيدًا مكثرًا هجاءً معارضًا للقيسراني في زمانه، وهما كفرسي رِهان، وجوادي ميدان، وكان القيسراني سنيًّا متورعًا، وابن منير متغاليًا متشيعًا"،[٢] وقال عنه ابن خلكان: " وكان رافضيًا كثير الهجاء خبيث اللسان".[٣] أما ابن العماد: فقال عنه: "وكان شيعيًا كثير الهجاء خبيث اللسان،[٤] ولم يتحدث المؤرخون كثيرًا عن طفولة الشاعر، وكيف قضى هذه الفترة من حياته، غير أنه من المؤكد أنه عاش في طرابلس حتى سقوطها في أيدي الصليبيين سنة ٥٠٣هـ (١١٠٩م)، ثم هاجر منها إلى دمشق، واتصل بحاكمها تاج الملوك بُوري بن طغتكين، ومدحه وأصبح أثيرًا عنده، لكن الشاعر هجا أعيان دمشق وأكابر رجالها، مما جعلهم يسخطون عليه ويدبرون المكائد له. وقد استطاع هؤلاء أن يُثيروا تاج الملوك بوري عليه، فأمر بسجنه، وقطع لسانه، فشفع فيه

---

(١) ترجم له: ابن القلانسي. تاريخ دمشق.- ص٤٩٨ ؛ ابن عساكر. تاريخ دمشق (مخطوط) ج٢ ص٢٥١ـ٢٥٢ ؛ العماد الأصفهاني. الخريدة (قسم الشام).- ج١، ص١٥٦ ـ ١٥٩ ؛ الصفدي. الوافي بالوفيات.- جـ٨، ص١٩٣ ـ ١٩٧.

(٢) المصدر السابق (قسم شعراء الشام).- ج١ ، ص٧٦.

(٣) المصدر السابق.- ج١، ص ٧٦.

(٤) شذرات الذهب.- ج٤، ص١٤٦.

الحاجب يوسف بن فيرُوز فأطلقه ونفاه من دمشق،[1] اتجه ابن منير إلى شيزر وأقام بها مدة، يمدح أمراءها من بني منقذ، واستطاع أن يكسب ودهم وينال الحظوة عندهم،[2] ولكنه عاد مرة أخرى إلى دمشق بعد أن علم بوفاة حاكمها تاج الملوك بوري، وتولى ابنه إسماعيل من بعده، وعاش في دمشق فترة من الزمن، غير أن إسماعيل تغيّر عليه لشيء بلغه عنه، فأمر بصلبه، وحينما علم ابن منير بهذا الخبر، هرب واختفى في مسجد الوزير أيامًا، ثم غادر دمشق متوجهًا إلى البلاد الشمالية، متنقلاً بين حماة وشيزر وحلب، ولكنه عاد مرة ثالثة إلى دمشق، ولكن لا يُعرف بالتحديد تاريخ هذه العودة، ولا أسبابها كذلك، ولكن وزير دمشق ابن الصُوفِيّ لم يلبث أن حنق عليه، ففر الشاعر من دمشق إلى شيزر وأقام عند أمرائها بني منقذ.[3]

ويبدو أن تشيعه وغلوه فيه، وكثرة هجائه، وفُحش لسانه سببًا في حقد أفاضل دمشق عليه، ومحاولة الدس عليه، ونفيه للمرة الثالثة من دمشق.

وقد انتقل في آخر حياته إلى حلب حيث استقرّ في جوار عماد الدين زنكي مؤسس الدولة الزنكية، ثم ابنه نور الدين محمود من بعده، وقد نال عندهما مكانة عالية وأصبح شاعرهما المفضّل، وقد استطاع ابن منير أن يصور وقائعهما مع الصليبيين ويُمجّد انتصاراتهما، وقد صورت قصائده حُقبة مهمّة من تاريخ جهاد المسلمين ومعاركهم ضد الصليبيين[4]، والتقى ابن منير في حلب بابن القيسرانِي، وعلى عادة

---

(١) ابن عساكر. تاريخ دمشق (مخطوط).- ج٢، ص٢٥٠-٢٥٢ ؛ ابن خلكان. وفيات الأعيان.- ج١، ص١٥٦.

(٢) العماد الأصفهاني الخريدة (قسم الشام).- ج١، ص٧٧ ؛ الصفدي. الوافي بالوفيات.- جـ٨، ص١٩٣-١٩٤.

(٣) العماد الأصفهاني. المصدر السابق.- ج١، ص٧٧-٧٨.

(٤) ابن خلكان. المصدر السابق.- ج١، ص١٥٨ - ١٥٩ ؛ الصفدي. المصدر السابق.- جـ٨، ص ١٩٥ - ١٩٦.

الشعراء المتماثلين والمتنافسين وقعت بينهما مكاتبات ومهاجاة، واشتدت الخصومة بينهما، يقول عنهما العماد الأصفهاني: " فكأنهما جرير العصر وفرزدقه، وهما مطلع النظم ومشرقِه، وشى بالشام عرفُهما، ونشأ عرقهما، وكنت أنا بالعراق أسمع أخبارهما".[1]

يقول ياقوت في معرض حديثه عن " ابن القيسَراني": كان وابن منير الطرابلسي شاعري الشام في عهد الملك العادل نور الدين بن زنكي، ولهما القصائد الطنّانة في مدحه".[2]

استمر ابن منير مرافقًا لنور الدين محمود، أثيرًا عنده، يتمتع بمكانة عالية، حتى وافته المنيّة بحلب في جمادى الآخرة سنة ٥٤٨هـ (١١٥٣م) ودُفن في جبل جوْشن.[3]

وقد أورد المؤرخون شواهد مختارة من شعره في وصف الأحداث الكبرى من خلال اتصاله بالزنكيين، كما أشاروا إلى ديوان شعره، فذكر العماد الأصفهاني أنه لم يطّلع عليه وإنما نقل بعض قصائده من أفواه الناس، يقول العماد: " ولم يتفق لي ديوانه لاختار مُختارة، وأمتار مُشتاره، وأجني من روض حسنه ورده وبهاره ... وإنما التقطت أعلاقه من أفواه المُنشدين".[4] كما ذكر أبو شامة المقدسي أنه قرأ فيه قصائد يمدح فيها نور الدين محمود، واقتبس منه شواهد كثيرة في تاريخه، وبخاصة ما يتعلق منها بوصف الأحداث التاريخية في عصره،[5] أما ابن خلكان، فقد ذكر أن له ديوان شعر،[6]

---

(١) الخريدة. (قسم شعراء الشام).- ج١، ص٧٩.
(٢) معجم الأدباء.- ج١٩، ص٦٤.
(٣) ابن القلانسي. تاريخ دمشق.- ص٤٩٨ ؛ ابن خلكان. وفيات الأعيان.- ج١، ص١٥٩.
(٤) المصدر السابق.- (قسم الشام).- ج١، ص٧٨.
(٥) كتاب الروضتين.- ج١، ق١، ص١٠١.
(٦) المصدر السابق.- ج١، ص١٥٦.

وذكره أيضًا ابن العماد،[1] ولكن مع هذه الإشارات فإنه لم يُعثر على ذلك الديوان حتى الآن، وقد طُبع له شعر كثير في الكويت سنة ١٤٠٢هـ (١٩٨٢م) تحت عنوان شعر ابن منير الطرابلسي جمعه وحققه: سعود محمد عبدالجبار، وذلك اعتمادًا على ما نقله الأقدمون من ديوان.

٤ ـ ابن الدهّان الموصلي (المتوفى سنة ٥٨١هـ/١١٨٥م)[2]

أبو الفرج عبد الله بن أسعد بن علي بن عيسى بن علي المعروف بابن الدهّان الموصلي، ويعرف بالحِمصِيّ أيضًا، الفقيه الشافعي المنعوت بالمُهذّب، كان فقيهًا فاضلاً أديبًا شاعرًا لطيف الشعر مليح السَبك حسن المقصد، غَلَب عليه الشعر واشتهر به، نشأ بالموصل في بداية حياته، فلما ضاقت به الحال خرج إلى مصر ومدح بها الصالح بن رُزيك ثم تقلبت به الأحوال حتى وصل إلى حمص وتولى التدريس بها وأقام بها حتى وفاته، فلهذا نُسب إليها،[3] وقد قَدِم إلى دمشق مرت عديدة في صحبة شرف الدين ابن أبي عصرون المتوفى سنة ٥٨٥هـ (١١٨٩م) وكان يتردد على دروس الحافظ ابن عساكر في دمشق، وقد مدح الملك العادل نور الدين محمود في قصائد عديدة،[4] كما اتصل بعده بالسلطان صلاح الدين الأيوبي ومدحه أيضًا، وكان العماد الأصفهاني قد عرّفه عليه بظاهر حِمْص،[5] وللشاعر ديوان جمع فيه شعره وقد طُبع في بغداد سنة ١٣٨٨هـ (١٩٦٨م) بتحقيق: عبد الله الجُبُوري.

---

(١) شذرات الذهب.- ج٤، ص١٤٦.

(٢) ترجم له: ابن عساكر. تاريخ دمشق (مخطوط) - جـ٨، ص١٠٣٨ ؛ العماد الأصفهاني. الخريدة (قسم الشام).- ج٢، ص٢٧٩ـ٢٨١ ؛ ابن خلكان. وفيات الأعيان.- ج٢، ص٥٧ـ٦١ ؛ الذهبي.سير أعلام النبلاء.- ج٢١، ص٥٧ـ٦١ ؛ السبكي.- طبقات الشافعية.- جـ٧، ص١٢٠ ـ ١٢١ ؛ ابن العماد. شذرات الذهب.- ج٤، ص٢٧٠.

(٣) ابن خلكان. المصدر السابق.- ج٢، ص٥٨.

(٤) ابن عساكر. المصدر السابق (مخطوط).- جـ٨، ص١٠٣٨.

(٥) العماد الأصفهاني. المصدر السابق (قسم الشام).- ج٢، ص٢٧٩ ـ ٢٨١.

٥ ـ أسامة بن منقذ (٤٨٨ـ٥٨٤هـ/١٠٩٥ـ١١٨٨م)[١]

أورد أسامة بن منقذ كثيرًا من أشعاره في مصنفاته، كما أن له ديوان شعر كبير قال عنه ابن خلكان: " وله ديوان شعر في جزأين موجود في أيدي الناس، ورأيته بخطه،"[٢] وقد جمع ديوان شعره بنفسه ولخّصه من كثير من شعره، وقسمّه إلى ستة أبواب في الغزل والأوصاف، والصُلح، والمديح، والأدب، والمراثي، وكل باب منها مُرتّب على حروف المُعجم، وقد طُبع هذا الديوان في القاهرة سنة ١٣٧٣هـ (١٩٥٣م) بتحقيق أحمد أحمد بدوي، وحامد عبدالحميد.

٦ ـ العماد الأصفهاني: (٥١٩ ـ ٥٩٧هـ/١١٢٥ ـ ١٢٠١م)[٣]

كان عماد الدين الأصفهاني شاعرًا بارزًا، وشعره ألطف من نثره، كما يقول الصفدي،[٤] وهو في زمانه ـ كما يرى أبو شامة المقدسي ـ فارس الشعراء الفحول في وصف المعارك، ونعت القواد الشجعان.[٥]

وقد نظم العماد الشعر منذ يفاعته، وجمعه بنفسه،[٦] ورتّبه قي سنة ٥٧٢هـ (١١٧٦م) واستنسخه في زمانه أحمد بن عبدالرحمن بن علي المعروف بنشوء الدولة

---

(١) سبقت ترجمته ضمن هذا الفصل.
(٢) وفيات الأعيان.- ج١، ص١٩٦.
(٣) سبقت ترجمته في الفصل الأول.
(٤) الوافي بالوفيات.- ج١، نشر: هلموت ريتر، فسبادن، ١٣٨١هـ (١٩٦٢م)، ص١٣٣.
(٥) كتاب الروضتين.- ج١، ص٢٣٥.
(٦) ابن الساعي، تاج الدين علي بن أنجب الخازن (ت٦٧٤هـ/١٢٧٥م). الجامع المختصر في عنوان التواريخ وعيون السير، تحقيق مصطفى جواد.- بغداد: ١٣٥٣هـ (١٩٣٤م).- ج٩، ص٦١.

أبو الفضل المتوفى سنة ٦٠١هـ (١٢٠٤م)،[١] ويُضاف إلى هذا الديوان الشعر الذي نظمه من سنة ٥٧٢هـ (١١٧٦م) إلى سنة وفاته ٥٩٧هـ (١٢٠١م).

وقد اختلف مترجموه في حجم ديوانه فقال ياقوت: إنه في مجلدين،[٢] وقال ابن خلكان: إنه في أربع مجلدات،[٣] وتابعه الصفدي في ذلك،[٤] وقد ضاع هذا الديوان مع ما ضاع من مؤلفاته النفيسة، ولم يصل إلينا إلا ما بلغ مجموعه مائتين وثلاث عشرة قصيدة ومقطوعة، في ثلاثة آلاف وخمس مئة بيت، كما نظم العماد شعرًا صغيرًا جميعه "دُوبيتات"[٥] في معنى الجهاد،[٦] وله أيضًا دوبيتات على الحروف أغلبها في

---

(١) العماد الأصفهاني. الخريدة (قسم الشام).- ج١، ص٣٢٩، قال العماد في ترجمة نشو الدولة: أحمد بن عبدالرحمن بن علي بن المبارك السُّلمي من دمشق من بني نفاذة شاب محب للفضل حريص على تحصيله.

(٢) معجم الأدباء.- ج١٩، ص٢٠.

(٣) وفيات الأعيان.- ج٥، ص١٥٠.

(٤) الوافي بالوفيات.- ج ١ص١٣٥.

(٥) الدوبيتات أو الرباعيات فن شعري جديد عرفه العرب في المشرق وانتشر في بلاد لاشام ومصر وغيرهما، وكان معروفًا من قبل عند الفرس باسم " الدوبيت" ينظمونه بلغتهم الخاصة، ومعروف أن الجزء الأول من اسمه " دو" معناه اثنان، أي مؤلف من بيتين اثنين، وقد سمّاه العرب باسم الرباعي لكونه مؤلفًا من أربعة مصاريع، وسموا الواحدة منه (رباعية) وأوزانه كثيرة أشهرها: فِعلن مُتفاعلن فعْولن فعلنْ (مكررة مرتين) والدوبيت في وزنه خارج عنه بحور العروض الستة عشر، وقد اختفى من شعر المحدثين. (صفاء خلوصي. فن التقطيع الشعري والقافية.- ط٢.- بيروت: ١٩٦٦م، ص٢٩١-٢٩٢).

(٦) أبو شامة. كتاب الروضتين.- ج١، ق٢، ص٥٢٨، وقد أورد أبو شامة أمثلة منه في معنى الجهاد، قالها على لسان الملك العادل نور الدين محمود: وهي قوله:

للغزو نشـاطي وإليه طـربي … مالي في العيش غيره من أربِ
بالجـدّ وبالجهـاد نجح الطلب … والراحـة مستودعـه في التعب

وقولـه: لا راحة لي في العيش سوى أن أغزو … وسيفي طربًا إلى الطـلي يهتزُ
في ذلّ ذوي الكـفر يكـون العزّ … والقــدرة في غير جهاد عـجزّ

الغزل محفوظة بمكتبة ليدن برقم (١٥٩٢)[١]

وقد جمع ناظم رشيد أشعار العماد الأصفهاني في كتاب أسماه " ديوان عماد الدين الأصفهاني" نُشر في جامعة الموصل سنة ١٤٠٤هـ (١٩٨٣م)، وقد اعتمد في جمعه على ما ورد ف مصنفات العماد من شعره، ثم جمع ما نسب للعماد في الكتب الأخرى، ورتّبها على حروف الهجاء، وذكر الأوزان، وشرح غريبها وعرف ما يجب التعريف به من أعلام وبلدان ومصطلحات وألحقه بفهارس تفصيلية.

٧ـ ابن الحلاّوِي الموصلي (٦٠٣ـ ٦٥٦هـ/١٢٠٦ ـ ١٢٥٨م)[٢]

أحمد بن محمد بن أبي الوفاء بن الخطّاب بن الهزبر، الأديب الكبير شرف الدين أبو الطيب بن الحلاوي الربعي ، الشاعر الموصلي ، ولد سنة ٦٠٣هـ (١٢٠٦م) بالموصل وقال الشعر الجيد الفائق، ومدح الخلفاء والملوك، وكان في خدمة بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل، وكان من مِلاح الموصل، ويتميز ابن الحاوي بحسن العشرة وخفّة الروح، وقد صحب بدر الدين لؤلؤ لبلاد العجم للاجتماع بهولاكو، فمرض بتبريز وتوفي بها، قيل بسلماس،[٣] ولابن الحلاوي قصائد رنّانة شاعت أبياتها بين الناس شيوع الأمثال، وقد أورد الكُتبي أمثلة كثيرة من نظمه،[٤] ولم تذكر المصادر له ديوانًا.

---

(١) ديوان العماد الأصفهاني. دراسة وتحقيق ناظم رشيد.- ص١٠.

(٢) ترجم له: الذهبي.العبر.- ج٣، ص٢٧٨ ؛ الكتبي ، محمد بن شاكر (ت ٧٦٤هـ/١٣٦٢م). فوات الوفيات والذيل عليها، تحقيق إحسان عباس.- بيروت: دار صادر، (د.ت).- ج١، ص١٤٣ـ١٤٨ ؛ الصفدي. الوافي بالوفيات.- جـ٨، ص١٠٢ ؛ ابن تغري بردي. النجوم الزاهرة.- جـ٧، ص٦٠ ـ ٦١ ؛ ابن العماد. الشذرات.- ج٥، ص٢٧٤.

(٣) سَلمَاس: مدينة مشهورة بأذربيجان، بينها وبين أرمية يومان، وبينهما وبين تبريز ثلاثة أيام، وهي بينهما (ياقوت. معجم البلدان.- ج٣، ص٢٣٨ـ٢٣٩)

(٤) المصدر السابق.- ج١، ص١٤٣ـ١٤٨، كما أورد الصفدي أيضًا كثيرًا منها في الوافي بالوفيّات.- جـ٨، ص١٠٢ ـ ١٠٨.

ولم يقتصـر الشعر على من سبق من الشعراء المحترفين، بل إن كثيرًا من الناس قد تعلقوا به، وصار لهم هواية محبّبة يلجأون إليه فيودعونه ما يريدون التعبير عنه من مكنونات نفوسهم، أو يتبادلون به التهاني والرسائل، أو يتخذونه وسيلة للتسلية والمُتعة في مجالسهم وأسمارهم، وكان من بين من قالوا الشعر في العهد الزنكي الفقيه، والمحدث، والطيب، والنحوي، وحتى الجندي، والقائد، بل لقد قال الشعر أفراد من عامة الناس. إلا أن بعض هؤلاء لم يرق شعرهم إلى مرتبة الشعر الجيّد، ولم يبلغوا هم أنفسهم منزلة الشعراء المحترفين، بل تعرّض شعرهم لنقد النقّاد، يروي ياقوت أن تاج الديـن الكِندِي: المتوفى سنة ٥٩٧هـ (١٢٠٠م) سَمِع مرة شعرًا للحافظ الكبير علي بن عساكر المتوفى سنة ٥٧١هـ (١١٧٦م) فقال: "هذا شعر أضاع فيه صاحب شيطانه".[١] وليس معنى هذا أن كلّ من جمع بين علم من العلوم وبين الشعر أن شعره جاء كذلك رديئًا، بل إنه وُجد نماذج ممن برزوا في علم من العلوم، ومع ذلك جاء شعرهم في غاية الجودة من هؤلاء الإمام النحوي أبو نزار الحسن بن صافي البغدادي المتوفى سنة ٥٦٨هـ (١١٧٢م).[٢]

٥ ـ العروض والقوافِي:

علم العروض: هو العلم الذي يُبحث فيه عن أحوال الأوزان المعتبرة للشعر، العارضة للألفاظ والتراكيب العربية،[٣] ويُعرف أيضًا بـ "ميزان الشاعر" و "ميزان الشعر" وعلم أوزان الشعر" لتوفره على بيان قواعد نظم الشعر وأصول معرفته ومقاييس

---

(١) معجم الأدباء.- ج١٣، ص٨٦.
(٢) المصدر نفسه.- جـ٨، ص١٢٢ ؛ ابن خلكان. وفيات الأعيان.- ج٢، ص٩٣-٩٤ وقد أوردا نماذج حسنة من شعره، منها قصيدة رائعة مدح فيها النبي ﷺ، وذكرا أن له ديوان شعر.
(٣) طاش كبري زاده، مفتاح السعادة.- ج١، ص١٩٨.

التفرقة بين النظم والنثر،[1] ويعني علم العروض بضبط أوزان الشعر العربي، ويميّز ما فيها من صحة الوزن وفساده، كما يعني بما يطرأ على هذه الأوزان من زحافات أو علل.[2]

ويُعدُّ الخليل بن أحمد الفراهيدي المتوفى سنة ١٧٠هـ (٧٨٦م)[3] أول من استنبط علم العروض وأخرجه إلى الوجود، ووضع له أقسامًا وبحورًا.[4]

ولعلم العروض أهمية بالغة في التمكّن من قراءة الشعر قراءة جيّدة ومعرفة صحيح الوزن من مختله، وتكمن أهميته أيضًا في أن أي متعامل مع النص الأدبي قارئًا أو دارسًا، أو متذوقًا لا يستطيع الوصول إلى ما يريد دون تعلم علم العروض العربي، وإجادته، كما تبرز أهمية هذا العلم بصورة واضحة في ضبط الكلمة، وخاصة إذا كانت قواعد اللّغة تُجيز لها أكثر من صورة.[5]

---

(١) عبدالهادي الفاضلي. تلخيص العروض.- جدة: دار البيان العربي، ١٤٠٣هـ (١٩٨٣م).- ص١١.

(٢) فوزي سعد عيسى. العروض العربي ومحاولات التطوير والتجديد فيه.- القاهرة: دار المعارف، (١٩٨٢م).- ص٩.

(٣) أبو عبدالرحمن الخليل بن أحمد بن عمر بن تميم الفراهيدي ويقال: الفرهُودي الأزدي اليحمدي، كان إمامًا في علم النحو، وهو الذي استنبط علم العروض، وإخراجه إلى الوجود، وحصر أقسامه في خمس دوائر يستخرج منها خمسة عشر بحرًا، ثم زاد فيه الأخفش بحرًا آخر وسمّه "الجنب" وكان الخليل رجلاً صالحًا عاقلاً حليمًا وقورًا، وهو أستاذ عالم العربية "سيبويه" وقد عاش الخليل بن أحمد بالبصرة ومات فيها سنة ١٧٠هـ (٧٨٦م) وقيل: إن وفاته كانت سنة ١٧٥هـ (٧٩١م) وكانت ولادته سنة ١٠٠هـ (٧١٨م).
(ترجم له: ياقوت. المصدر السابق.- ج١١، ص٧٢-٧٧؛ القفطي. إنباه الرواة.- ج١، ص ٣٤١-٣٤٧؛ ابن خلكان. المصدر السابق.- ج٢، ص٢٤٤-٢٤٨؛ السيوطي. بغية الوعاة.- ج١، ص٥٥٧-٥٦٠)

(٤) ياقوت. معجم البلدان.- ج١١، ص٦٦؛ ابن خلكان. وفيات الأعيان.- ج٢، ص٢٤٤.

(٥) محمد عبدالمجيد الطويل. في عروض الشعر العربي "قضايا ومناقشات".- أبها: نادي أبها

أما علم القوافِي: فهو علم يُبحث فيه عن تناسب أعجاز البيت وعيوبها، [1] وهو العلم الثاني من العلمين الذين يتعلقان بالشعر (العروض - والقوافي) وقد جرت عادة أكثر العروضيين بذكر علم القوافي بعد ذكر علم العروض لما بينهما من شدّة الاتصال.

وعلما العروض والقوافي من مواد ثقافة الأديب في ذلك العهد، والشعراء بوجه خاص، ومن أجل ذلك كان أغلب دارسيه والمؤلفين فيه من هذه الطبقة التي تعنى بالعلوم اللّغوية والأدبية، وقد اهتم الأدباء في العهد الزنكي بهذين العلمين لارتباطهما الوثيق بالشعر، وأوزانه والحكم عليه، كما وقف علماء العروض في هذا العهد عند البحوث التي استنبطها الخليل بن أحمد لأوزان الشعر العربي، إلا أن الشعراء لم يكتفون بهذه الأوزان، بل نظموا في الدوبيتات والموشحات.

ومن أبز من ألّف في العروض والقوافي: الإمام أبو محمد سعيد بن المبارك بن علي المعروف بابن الدهان النحوي المتوفى سنة ٥٦٩هـ (١١٧٣م) [2] وقد صنّف كتاب الدروس في العروض، [3] وله أيضًا كتاب " المختصر في القوافي". [4]

ومن أبرز علماء العروض والقافية في هذا العهد الشيخ عز الدين أبو محمد عبدالوهاب بن إبراهيم الخزرجي الزنجاني المتوفى سنة ٦٦٠هـ (١٢٦١م)، [5] وكانت له تصانيف مشهورة في اللّغة والنحو والتصريف والبيان. وقد صنّف كتاب " معيار النظّار في علوم الأشعار"، [6] وهو في العروض والقوافي قال عنه صاحب كشف الظنون: " هو

الأدبي، (١٤٠٥هـ).- ص١٢

(١) طاش كبري زاده. مفتاح السعادة.- ج١، ص٢٠٢.

(٢) سبقت ترجمته ضمن هذا الفصل.

(٣) ياقوت. معجم الأدباء.- ج١١، ص٢٢١ ؛ ابن خلكان. وفيات الأعيان.- ج٢، ص٣٨٢، وذكر أنه في مجلدة واحدة.

(٤) ياقوت. المصدر السابق.- ج١١، ص٢٢٢ ؛ الصفدي. نكت الهيمان.- ص١٥٨.

(٥) سبقت ترجمته ضمن هذا الفصل.

(٦) ابن الفوطي. تلخيص مجمع الآداب.- ج٤، ق١، ص٢٣٥.

كتاب سهل العبارة حسن التحرير مُرتب على ثلاثة أقسام: الأول في علم العروض، والثاني في القوافي، والثالث في البديع".(١)

ويوجد منه في المكتبة المركزية بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض مصوّر يبتدئ من بداية القسم الثاني القوافي برقم (ف ٣٧٩٠) وهو مصوّر عن تشستربتي في دبلن بإيرلندا، ومنه نسخ كاملة في كل من القاهرة وتركيا، منها نسخة في دار الكتب بالقاهرة برقم (١٣٦م) أدب، ونسخة في مكتبة الفاتح باستانبول برقم (٤٠٩٤).

وذكر حاجي خليفة أنّ عبدالوهاب الزنجاني شرح كتاب القسطاس في العروض للإمام جار الله محمود بن عمر الزمخشري المتوفى سنة ٥٣٨هـ (١١٤٣م) شرحًا أسماه: تصحيح المقياس في تفسير القسطاس".(٢)

وممن برز في علم العروض في هذا العهد: الإمام تقي الدين الخرفِيّ الشافعي المتوفى سنة ٦٦٤هـ (١٢٦٦م)،(٣) وهو أحمد بن المبارك بن نوفل أبو العباس النصيبي الخرفِيّ، كان إمامًا عالمًا بالعديد من العلوم قدِم الموصل بعد الست مئة، وقرأ بها علوم العربية وبرع فيها، وصنّف كتبًا عديدة في الأحكام والعروض، وله منظومة في مسائل الفرائض، وقد سكن سِنجار مدة، ودرّس بها، ثم انتقل إلى الجزيرة، فأقام بها حتى وفاته، وانتفع به خلق كثير، ويتمثل أثره في علم العروض في كتاب صنفه في هذا الفن.(٤)

---

(١) حاجي خليفة. كشف الظنون.- ج٢/١٧٤٤، ولم ينسبه لأحد.
(٢) المصدر نفسه.- ج٢/ ١٣٢٦، وذكره البغدادي أيضًا في هدية العارفين.- ج١/٦٣٨، وعمر رضا كحالة. معجم المؤلفين.- بيروت: دار إحياء التراث العربي (د.ت).- ج٦، ص٢١٦.
(٣) ترجم له الصفدي. الوافي بالوفيات.- جـ٧، نشر باعتناء إحسان عباس.- فسبادن: ١٣٨٩هـ (١٩٦٩م).- ص٣٠٢-٣٠٣؛ السبكي.- طبقات الشافعية.- جـ٨، ص٢٩؛ ابن الجزري. غاية النهاية.- ج١، ص٩٩؛ السيوطي. بغية الوعاة.- ج١، ص٣٥٥.
(٤) أجمعت مصادر ترجمته على ذلك، ولم تذكر اسم الكتاب.

ثالثًا : العلوم التاريخية والجغرافية:

ازداد الاهتمام بالدراسات الاجتماعية في العهد الزنكِي، وبخاصة في ميداني الدراسات التاريخية والجُغرافية، حيث برز في هذا العهد عدد كبير من المؤرخين الذين تنوعت اهتماماتهم في مختلف صور الكتابات التاريخية، كما اشتهر عدد من علماء الجغرافيا والرحالة الذين أثروا هذا الجانب بتآليف جديدة مهمّة، مما أضاف معلومات جديدة للدراسات التي سبقت هذا العهد فيما يختص بهذين الميدانين. وإذا كان التأليف في فضائل الجهاد والاهتمام بالدراسات الشرعية والأدبية المتعلقة به يجد تفسيره في الوجود الصليبي في المنطقة، فإن الاهتمام بالدراسات التاريخية والجغرافية يرجع للسبب نفسه، وقد تمثّل هذا الأثر في ظهور دراسات متخصصة لها طابع الجهاد الإسلامي ضد العدوان الصليبي في المنطقة حيث وجد المتخصصون ـ بهذا الفرع من العلوم ـ في الجهاد مادة زخرت بها مؤلفاتهم سواء عن طريق الكتابات التاريخية التي تؤرخ للمعارك بين المسلمين والصليبيين، أو في الكتابة في فضائل المدن، وتراجم الشخصيات البارزة في مجال الجهاد، كما ظهر ذلك الأثر في كتابات الرحالة الذين زاروا المنطقة ووصفوا الأوضاع العامة التي كان يعيشها المسلمون إلى جانب الصليبيين فيها، كما اهتموا بتحديد البلدان وخططها، وقد أصبحت المنطقة الزنكية بسبب الوجود الصليبي فيها مركز الاهتمام السياسي والاقتصادي والفكري في العالم الإسلامي، حيث كانت تلك الدولة تمثل مركز اليقظة الإسلامية في مواجهة العدوان الصليبي في المنطقة. إضافة إلى استقطاب قادة هذه الدولة العديد من العلماء الأعلام من كافة المناطق الإسلامية مما كان له أثر في تطور العلوم ونشاطها،[1] وكانت أبرز الجهود التي بُذلت في ميداني الدراسات التاريخية والجغرافية في هذا العهد تتمثل فيما يأتي:

---

(١) سبق الحديث عن هذا الأثر في الفصل الأول.

١ ـ التاريخ :

أسهمت الأحداث المحيطة بالدولة الزنكية في إثراء المادة التاريخية في مختلف صورها، حيث اتسعت مجالات الكتابة التاريخية في هذا العهد، فصار موضوع التاريخ شامل للنواحي السياسية والعسكرية والاجتماعية والاقتصادية، والإدارية، والثقافية، وغيرها. ويمكن أن يتضح ذلك من خلال النظرة إلى تنوع الدراسات التاريخية في ذلك العهد، حيث زاد الاهتمام بالتأليف في المعاجم والتراجم الشخصية، والاهتمام بالوقائع التاريخية والتاريخ المحلي للمدن، كما عني عدد من المؤرخين بدراسة أحداث التاريخ الإسلامي المختلفة، وأخذوا في تدوينها، وترتيبها إما على هيئة حوادث مختلفة، أو كتب جامعة متخصصة، وأظهروا مهارة فائقة في هذا المجال، ثم إن التاريخ السياسي للدولة أصبح في الغالب مهمة الموظفين والمقربين من السلطة، وقد أثّر هذا بدوره على الكتابة التاريخية في هذا العهد في المنهج والموضوع على حد سواء، وكانت المصادر التي يستقون منها أخبارهم هي الوثائق الرسمية التي تتهيّأ لهم بسبب العلاقات الشخصية، أو سماع ما يدور بين الموظفين وكبار المسؤولين من حديث.[1]

كما أن بعض المؤلفات التاريخية في تلك الفترة لم تكن تخلو من التعصب، سواءً كان ذلك التعصب مذهبيًا أو قبليًا، أو شخصيًا، مما يُفقد المؤرخ روح الموضوعية التي ينبغي أن تتوفر فيه، ويُملي على الباحث ضرورة إخضاع روايته للفحص والتدقيق.

---

(١) من هؤلاء المؤرخين ابن القلانسي المتوفى سنة ٥٥٥هـ (١١٦٠م) في كتابه المعروف "تاريخ دمشق" الذي ألّفه على صورة حوليات مرتّبة على السنين واستفاد في تصنيفه في الغالب من الرسائل والمنشورات التي اطلع عليها خلال رئاسته لديوان الإنشاء في دمشق مرتين، وهذا ما أتاح له الاطلاع على الوثائق الرسمية وتسجيلها، كما يلاحظ في هذا الصدد العماد الأصفهاني الكاتب المؤرخ المتوفى سنة ٥٩٧هـ (١٢٠١م) في كتابه "البرق الشامي" الذي ألّفه على صورة مذكرات مرتبة حسب السنين، وصنّفه في الغالب من الوثائق والمنشورات التي اطلع عليها، أو من الكتب والرسائل التي أنشأها في البلاط الزنكي والأيوبي.

كما أن الكتابة التاريخية لم تقتصر على المؤرخين فحسب، بل شملت الطبقة المثقفة كلها فوُجد المحدث والفقيه والأديب ممن شاركوا في الكتابة التاريخية وهذا الوضع ينسجم مع واقع الحياة العلميّة في هذا العهد. فقد ندر أن يوجد عالم اختص بعلم واحد دون أن يشارك في علوم أخرى.

ويمكن تحديد مناهج الكتابة التاريخية في العهد الزنكي في المجالات الآتية:

أ ـ التراجم والطبقات:

يُعد هذا النوع من أهم أنواع الكتابة التاريخية في هذا العهد، فقد عنى به المؤرخون عناية فائقة فما أن يظهر أحد من المتخصصين في أي فرع من فروع العلم والمعرفة إلا وتناولته كتب التراجم بالكتابة عن تفصيلات حياته ودراسته وتنقلاته وشيوخه وتلامذته وإسهاماته العلمية سواء في مجال التأليف أو التدريس، وتُعد هذه المؤلفات من المصادر المهمّة للتاريخ الإسلامي، إذ أنها تزود الباحث في التاريخ بمادة تاريخية خصبة.

وهذا النوع من الكتابة إسلامي النشأة[1] يرجع الفضل في نشأته أصلاً إلى الرّواد الأوائل في علم الحديث في فترة صدر الإسلام، حيث بدأوا بتصنيف الكتب في الرجال وعدالتهم، ومعاصريهم، ومن أخذ عنهم، ومن لقيهم، والذي أدى في النهاية إلى ما يعرف بعلم "التراجم والطبقات"، وقد عمّ ذلك فيما بعد فشمل الأدباء واللغويين والمؤرخين والجغرافيين والأطباء، وسائر المتخصصين في فروع المعرفة الأخرى، حيث أسهمت تراجمهم هذه في إثراء المادة العلمية لكتابة التاريخ الإسلامية منذ عهد الرسول ﷺ والصحابة، ثم التابعين وتابعيهم، ثم الطبقات التالية واحدة تلو الأخرى.[2]

---

(1) يقول المستشرق مارتن بلسنر: "أنشأ المسلمون علمًا خاصًا بالتراجم وأسماء المؤلفات التي وضعها علماؤهم في مختلف العلوم، وهو تقليد يتمنى المرء لو أن غيرهم من الأمم وأصحاب الثقافات الأخرى اتبعوه" (مارتن بلسنر. تراث الإسلام، ترجمة حسين مؤنس وإحسان صدقي العميد.- الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب [د.ت].ص١٤١).

(2) كحّالة: التاريخ والجغرافية في العصور الإسلامية.- دمشق: المطبعة التعاونية دمشق ١٢٩٣هـ (١٩٧٢م).- ص٦٥.

ويُعـد الحـافظ علـي بـن الحسن بن هبة اللـه الدمشقي المعروف بابن عساكر المتوفى سنة ٥٧١هـ (١١٧٦م)[1] مـن أبرز العلماء الذين اهتموا بالكتابة على هذا المنهج في هذا العهـد، إذ كـان اهتمامه منصبًا على الحديث، وتراجم العلماء، وبخاصة رجال الحديث طـوال حياتـه، ومـع أن كـتابه " تـاريخ دمشـق" قـد شمـل التـاريخ العـلمي والـثقافي لمدينة دمشـق، فإنـه يُعـد واحـدًا من أشهر كتب التراجم بعد كتاب " تاريخ بغداد " للحافظ أبي بكر أحمد بن علي المعروف بالخطيب البغدادي المتوفى سنة ٤٦٣هـ (١٠٧٠م) وكان ابن عسـاكر قـد سـار عـلى نهجـه، حتى جـاء مؤلفـه في ثمـانين مجلدة، خصص المجلدة الأولى للـحديث عـن فضـائل دمشـق والمجـلدة الـثانية لدراسـة خططهـا ومسـاجدها وحماماتهـا وأقنيتها، وأبنيتها وأبوابهـا ودورهـا وأنهارهـا وكنائسـها، ثـم ترجم ترجمات تختلف في طولهـا وقصـرها لكـل مـن نبـغ مـن أبنـائها أو دخـلها مـن غيرهـم، أو اجتاز بنواحيها من الخلفاء والولاة والقضاة والعلماء والنحاة والشعراء والأدباء ... وقد تتسع حلقة دمشق في نظـره لتشـمل جميـع بـلاد الشـام أحيانًا فيترجم لمن في حلَب أو حماة، أو حِمص، أو بعلبك، أو الرّقة، أو صيدا، أو الرّمْلة. فيُعد بذلك مصدرًا لتاريخ الشام كلـه لا دمشق وحدهـا. كمـا يُستفاد من خلال التراجم التي أوردها أمورًا كثيرة تتعلق بالتاريخ السياسي والحضـاري في الشـام، ومـنهج ابـن عسـاكر في ذلـك - وهـو الحـافظ المحـدث - هـو مـنهج المحدثين في ذكـر السـند مهمـا طـال أو تعـدد ثـم ذكـر الخـبر، وقـد اتبع في التراجم التنظيم الأبجـدي الدقيـق، غـير أنـه بـدأ بمن اسمه أحمد تيمنًا باسم الرسول ﷺ ، وأنهى الكتاب بمجـلدة تحـوي مـن عـرف بكنيته فقـط، ومـن ذكـر بنسبته ومن لم يسمّ في روايته ثم ذكر النساء والإماء.

---

(١) سبقت ترجمته في الفصل الأول.

و"تاريخ دمشق" لا يزال أغلبه حتى الآن مخطوطًا لم يطبع منه سوى أجزاء متفرقة تزيد على العشرة، ونسخه الكاملة متفرقة في مكتبات أوربا، وسوريا ومصر، ولكنه نُشر مؤخرًا مصورًا عن النسخ المخطوطة في تسعة عشر مجلدًا بإشراف مكتبة الدار بالمدينة المنورة سنة ١٤٠٧هـ (١٩٨٧م).

وقد أصبح هذا الكتاب المادة الأساسية التي اعتمدها من جاء بعده من المؤرخين لتاريخ المدينة ودراسة أعلامها، كما لقي هذا الكتاب عناية العديد من المؤرخين فمنهم من جعل له ذيولاً أهمها كتاب ابنه القاسم المتوفى سنة ٦٠٠هـ (١٢٠٣م)،[١] ومنهم من اختصره كأبي شامة المقدسي صاحب كتاب الروضتين، وقد اختصره مختصرين: كبير في خمس عشرة مجلدة، وصغير في خمس مجلدات، وابن منظور صاحب لسان العرب المتوفى سنة ٧١١هـ (١٣١١م) وممن هذّبه عبدالقادر بدران المتوفى سنة ١٣٤٦هـ (١٩٢٧م) وقد جاء تهذيبه في ثلاثة عشر جزءًا نشر منه حتى الآن سبعة أجزاء. وقد أشار حاجي خليفة إلى كثير من الذيول والمختصرات لهذا الكتاب.[٢] على أن "تاريخ دمشق" لم يكن مؤلف ابن عساكر الوحيد في التاريخ، فبين مؤلفاته التي تبلغ الأربعين، ثلاثة عشر مؤلفًا تاريخيًا من أبرزها:

- كتاب المُعجَم: وهو خلاصة لمشهوري الرجال وبخاصة الشافعية.
- كتاب المُعجم وهو تراجم لمن سمع منه أو أجاز له في أثني عشر جزءًا.
- كتاب من سمع منه من النسوان جزء واحد.
- كتاب في مناقش الشبّان في خمسة عشر جزءًا.
- كتاب فيمن نزل المِزّة (في دمشق) وحدّث بها.

---

(١) سبقت ترجمته في الفصل الثالث.
(٢) كشف الظنون.- ج١/ ٢٩٤.



- كتاب فيمن وافقت كنيته كنية زوجته في أربعة أجزاء.
- كتاب مُعجم أسماء القرى والأمصار التي سمع بها جزء واحد.
- كتاب مُعجم الشُيُوخ النّبلاء جزء واحد إلى غير ذلك من كتب التراجم التي ذكرها ياقوت في ثنايا ترجمته.[1]

وممن برز في الكتابة التاريخية على هذا المنهج في العهد الزنكي أبو عبد الله عماد الدين محمد بن صفي الدين أبو الفرج المعروف بالعماد الأصفهاني الكاتب المتوفى سنة ٥٩٧هـ (١٢٠١م)[2] الذي صنّف الموسوعة المشهورة عن أدباء وشعراء العصر، أعني بها كتاب: " خريدة القصر وجريدة العصر" والذي أرّخ فيه لشعراء وأدباء زمانه في كافة الأقطار الإسلامية، وقد جاء في عشر مجلدات كبار، أراده ذيلاً على كتاب " زينة الدهر" لأبي المعالي سعد بن علي بن الورّاق الحُظيرِيّ المتوفى سنة ٥٦٨هـ (١١٧٢م) والذي كان هو الآخر قد جُعل ذيلاً على كتاب: " دُمية القصر وعصرة أهل العصر " لأبي الحسن علي بن حسن البَاخرزِي المتوفى سنة ٤٦٧هـ (١٠٧٥م) الذي ذيّل به على كتاب " يتيمة الدهر " للثعالبي المتوفى سنة ٤٢٩هـ (١٠٣٧م) ولقد ترجم العمادُ في خريدته للشعراء والأدباء الذين عاشوا بعد المئة الخامسة حتى سنة ٥٧٢هـ (١١٧٦م) فاستوفى التراجم لشعراء وأدباء العراق، والعجم، والشام، ومصر، والمغرب، ولم يترك إلاّ الخامل النادر، وقد طُبعت جميع أجزاء الكتاب. كما ذيّل له العماد بكتاب أسماه: " السيل والذيل " أراد أن يتم به عمله في الخريدة، وقد فُقِد هذا الكتاب، وكان ابن خلكان قد اعتمد عليه في كتابه.[3]

---

(١) معجم الأدباء.- ج١٣، ص٧٧ـ ٨٣.
(٢) سبقت ترجمته في الفصل الأول.
(٣) وفيات الأعيان.- جـ٦، ص٢٥٠.

وممن كتب في التراجم أيضًا: المؤرخ المشهور عز الدين أبو الحسن بن علي ابن محمد بن عبدالكريم الشيباني المعروف بابن الأثير الجزري المتوفى سنة ٦٣٠هـ (١٢٣٣م)[1] أوسط أبناء الأثير الثلاثة كانت ولادته بجزيرة ابن عمر سنة ٥٥٥هـ (١١٦٠م) وقد نشأ بها، ثم سار إلى الموصل مع والده وأخويه، فجلس بها إلى العلماء والشيوخ يتلقى عليهم العلم، فدرس الحساب واللّغة والفقه والحديث، وغيرها من العلوم، ولم يلبث أن عُرِف بالعلم والفضل فأصبح له حظوة تامة لدى أتابكة الموصل، وقد وجد ابن الأثير في الموصل مجالاً واسعًا لنشاطه، والتزود من العلم والمعرفة، كما أتيحت له فرصة الرحلة في طلب العلم، فرحل إلى بغداد، وبلاد الشام والقدس وسمع هناك من جماعة من العلماء.[2] قال عنه ابن خلكان الذي اجتمع به كثيرًا: " كان بيته مجمع الفضل لأهل الموصل والواردين عليها، وكان إمامًا في حفظ الحديث ومعرفته وما يتعلق به، وحافظًا للتواريخ المتقدمة والمتأخرة، وخبيرًا بأنساب العرب، وأخبارهم وأيامهم ووقائعهم.[3]

وابن الأثير هذا كانت وجهته تاريخية كما ينعكس من اهتماماته ومؤلفاته، ولا شك في أنه قد شُغِف بالتاريخ، فأكبّ على قراءة كتبه ولذلك فهو يقول عن نفسه في مقدمة كتابه الكامل: " أما بعد فإني لم أزل محبًّا لمطالعة كتب التواريخ ومعرفة ما فيها، مؤثرًا للاطلاع على الجلي من حوادثها وخافيها ... ".[4]

---

(١) ترجم له المنذري في التكملة لوفيات النقلة.- ج٣، ص٣٤٨ ؛ ابن خلكان. المصدر السابق.- ج٣، ص٣٤٨ـ ٣٥٠ ؛ الذهبي.سير أعلام النبلاء.- ج٢٢، ص٣٥٣ـ ٣٥٦ ؛ السبكي.- طبقات الشافعية.- جـ٨، ص٢٩٩ ـ ٣٠٠ ؛ ابن العماد الشذرات.- ج٥، ص١٣٧.

(٢) المنذري: المصدر السابق.- ج٣، ص٣٤٨ ؛ ابن خلكان. المصدر السابق.- ج٣، ص٣٤٨ السبكي.- المصدر السابق.- جـ٨، ص٢٩٩

(٣) المصدر السابق.- ج٣، ص٣٤٨.

(٤) الكامل.- ج١، ص٤.

ولهذا فقد كان ابن الأثير مؤلفًا نشيطًا بارعًا، استطاع أن يُخلّد اسمه بين كبار المؤرخين عن طريق مصنفاته التي من أشهرها: كتاب "الكامل في التاريخ" وكتاب "اللّباب في تهذيب الأنساب" وكتاب "التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية" وكتاب "أسد الغابة في معرفة الصحابة".

وكانت شهرة ابن الأثير في كتابة التراجم تتمثل في كتابه المشهور: "أُسد الغابة في معرفة الصحابة"[(١)] الذي أورد فيه ما يربو على سبعة آلاف وخمس مئة ترجمة، واستدرك على ما فاته ممن تقدمه من مؤلفي التراجم وبيّن أوهامهم، وقد طُبع هذا الكتاب طبعات عديدة كان آخرها طبعة دار الفكر ببيروت سنة ١٣٩٠هـ (١٩٧٠م) في ستة مجلدات، وهي طبعة محقّقة، كما هذّب ابن الأثير كتاب الأنساب للسمعاني المتوفى سنة ٥٦٢هـ (١١٦٦م) في كتاب أسماه: "اللّباب في تهذيب الأنساب"، يقع في ثلاث مجلدات أسقط منه الفصول الأولى من كتاب الأنساب، واختصر بعض التراجم، أو حذفها، واستدرك في مواضع، ونبّه على أغلاط، وزاد أشياء أهملها السمعاني.[(٢)] يقول ابن خلكان: "وهو كتاب مفيد جدًا، وأكثر ما يوجد اليوم بأيدي الناس هذا المختصر"،[(٣)] وقد طُبع هذا الكتاب في دار صادر بيروت سنة ١٤٠٠هـ (١٩٨٠م) في ثلاث مجلدات.

وممن كتب في التراجم أيضًا: الفقيه عماد الدين أبو المجد إسماعيل بن هبة الله ابن سعيد الموصلي المعروف باب باطِيش المتوفى سنة ٦٥٥هـ (١٢٥٧م).[(٤)]

---

(١) ابن خلكان. وفيات الأعيان.- ج٣، ص٣٤٩، وقد قال عنه: كتاب: "أخبار الصحابة رضوان الله عليهم في ست مجلدات كبار".
(٢) شاكر مصطفى. التاريخ العربي والمؤرخون.- ط٢.- بيروت: دار العلم للملايين، (١٩٨٠م).- ج٢، ص١١٥ ـ ١١٦.
(٣) وفيات الأعيان.- ج٣، ص٣٤٨ ـ ٣٤٩.
(٤) سبقت ترجمته في الفصل الثاني.

وله في التاريخ كتاب: "تاريخ"، والأرجح أنه في التراجم على نهج تاريخ دمشق للحافظ ابن عساكر وغيره، وله أيضًا "أخبار الفقهاء الشافعية"، وهو أحد الأصول التي اعتمدها السبكي، وله كتاب "التمييز والفصل بين المتفق في الخط والنقط والشكل" وهو مؤلف في خمس مجلدات ضاعت منها الثلاث الأولى، أما الرابعة فمنها نسخة مخطوطة في تونس، كما أن الخامسة منها نسخة مخطوطة في الأزهر بالقاهرة،(١) وقد اعتمد عليه ابن خلكان كثيرًا.(٢)

ب : التاريخ المحلي (الخاص)

تخصص فريق آخر من المؤرخين بالتأليف في التاريخ المحلي والذي يُعد تعبيرًا صادقًا عن ارتباط المؤرخ بإقليمه، واعتزازه بوطنه، وقد لقي هذا الاتجاه إقبالاً كبيرًا من المؤرخين في العهد الزنكي، ولعل ذلك ناتج عن ظهور المدن والأقاليم التي قامت فيها حكومات منفصلة عن الدولة العباسية وشعور هذه الحكومات بالاستقلال والتفرّد في المصير فكان من الضروري أن تظهر كتابات عن تلك المدن يتوالى على كتابتها عدد من أبنائها. حتى أضحت كتابة هذه التواريخ البلدانية نوعًا من التقليد لدى المؤرخين فتكونت له مدرسة تاريخية إقليمية قائمة بذاتها.

وقد ظهر في هذا العهد عدد من المؤلفات المهمة في هذا الإطار، ومن أبرز من كتب في هذا المنهج خلال العهد الزنكي:

ابن القلانِسِي: أبو يعلي حمزة بن أسد بن علي بن محمد التمِيمِيّ المتوفى سنة ٥٥٥هـ (١١٦٠م)(٣) العميد الأديب الشاعر المؤرخ، كان من أعيان دمشق، ومن أفاضلها المبرزين، وكانت له عناية بالحديث، وكان أديبًا له خط حسن ونظم ونثر،

---

(١) شاكر مصطفى.- التاريخ العربي والمؤرخون.- ج٢، ص١٣٧.

(٢) وفيات الأعيان.- ج١، ص٢٠٣.- ج٤، ص١٩٧.- ج٥، ص٢١٠.

(٣) ترجم له: ابن عساكر. تاريخ دمشق (مخطوط) ج٥، ص٢٩٨ـ ٢٩٩ ؛ ياقوت معجم الأدباء.- ج١٠، ص٢٧٨ ؛ الذهبي.سير أعلام النبلاء.- ج٢٠، ص٣٨٨ـ٣٨٩ ؛ ابن تغري بردي. النجوم الزاهرة.- ج٥، ص٣٣٢ ؛ ابن العماد. الشذرات.- ج٤، ص١٧٤.

وُلي رئاسة ديوان الإنشاء بدمشق مرتين، عُمّر بضعًا وثمانين سنة، وتوفي سنة ٥٥٥هـ (١١٦٠م) وكانت ولادته سنة ٤٧٠هـ (١٠٧٧م)،[١] وقد استفاد ابن القلانسي من عمله في ديوان الإنشاء بدمشق، فاطّلع على الوثائق الرسمية بمختلف أنواعها مما أكسب تاريخه أهمية خاصة بالنسبة لأحداث عصره. ولابن القلانسي كتاب "تاريخ دمشق" بدأ به من سنة ٣٦٠هـ (٩٧١م) وانتهى إلى سنة وفاته ٥٥٥هـ (١١٦٠م) وهو أول تاريخ لدمشق صُنّف حسب الحوادث والحوليات، ثم هو المصدر الأساسي لتاريخ الشام أيام الفاطميين والسلاجقة فيه أقدم سيرة لدمشق وأهلها من النواحي العمرانية والاجتماعية والعقدية والسياسية وذلك خلال قرنين حاسمين، ولم يقتصر هذا الكتاب على تاريخ دمشق بل عالج فيه مؤلفه كثيرًا من الحوادث السياسية التي وقعت في الشام، والعراق، والجزيرة، ومصر، ولكنها بصورة مقتضبة، فضلاً عن اهتمامه بأحوال الإمارات الصليبية في بلاد الشام وما كان يدور بينها وبين القوى الإسلامية في المنطقة من نزاع مستمر.

وقد طُبع هذا الكتاب لأول مرة في بيروت سنة ١٩٠٨م بعناية المستشرق هـ. ف. أمدروز، ولكن هذه الطبعة لا تخلو من ملاحظات وأخطاء، فأعاد سهيل زكار تحقيقه، وطُبع مرة أخرى في دار حسان بدمشق سنة ١٤٠٣هـ (١٩٨٣م) بعنوان "تاريخ دمشق" وهي طبعة جيدة مشتملة على خرائط وفهارس عامة.

وممن كتب في التاريخ المحلي: أبو عبد الله محمد بن الرئيس أبي الحسن علي بن محمد بن أحمد التنوخِي المعروف باب العظِيمي الحلبي المتوفى سنة ٥٥٨هـ (١٢٦٣م)[٢]

(١) ابن عساكر. تاريخ دمشق (مخطوط).- ج٥، ص٢٩٩ ؛ ياقوت. معجم الأدباء.- ج١٠، ص٢٧٨.

(٢) ترجم له: ابن عساكر. المصدر السابق (مخطوط) ج١٥، ص٧٦٣ ـ ٧٦٤ ؛ سبط ابن الجوزي. مرآة الزمان (القسم المخطوط) الحوادث من سنة ٤٨١هـ (١٠٨٨م) إلى سنة ٤٩٤هـ (١١٠٠م) دار الكتب المصرية بالقاهرة رقم ٥٥١ تاريخ وقد جعل سنة وفاته قريبة من سنة ميلاده حيث ذكره ضمن وفيات سنة ٤٨٥هـ (١٠٩٢م) وهذا وهم، واضح ؛ وعنه نقل ابن تغري بردي في النجوم الزاهرة.- ج٥، ص١٣٣.

ولد ابن العظيمي في حلب سنة ٤٨٣هـ (١٠٩٠م) في أسرة تنوخية شارك معظم أفرادها في حوادث حلب السياسية في العصر السلجوقي، لكنه اختار تعليم الصبيان مهنة له في الوقت الذي لم يشغله ذلك عن طلب العلم، وكان أيضًا شاعرًا بليغًا، فلما أنِس في شعره القوة سافر إلى دمشق وامتدح الأتابكة فيها، وتعرف بها على الحافظ ابن عساكر، ثم سافر إلى بغداد وتعرّف على الحافظ السمعاني، كما امتدح الأراتِقة في حلب، وكان معجبًا بجهود بعض زعماء هذه الأسرة في الجهاد ضد الصليبيين، كما امتدح آق سنقر البرسقي صاحب الموصل وحلب، واتصل بعده بالأتابك زنكي في حلب واختص به شاعرًا في بلاطه، على أنه بين هذا وذاك كان مولعًا بالتاريخ صنّف فيه تصانيف مفيدة، وصلنا منها كتابه المشهور "تاريخ العظيمي" أو "تاريخ حلب" وهو تاريخ عام مختصر سار فيه على المنهج الحولي في جمل موجزة سريعة وإشارات تغمض أحيانًا لاختصارها، وهو تاريخ للعرب والإسلام منذ بدء الخليقة وحتى سنة ٥٣٨هـ (١١٤٣م) وبالرغم من اختصاره الشديد، فإن فيه عددًا من الأخبار التي لا توجد عند غيره، وبخاصة فيما يتعلق بالجهود التي قام بها قادة الجبهة الإسلامية في كلٍ من حلب ودمشق في مواجهة الصليبيين.

وكان المستشرق الفرنسي "كلود كاهن" أول من اهتم بهذا الكتاب، وأقدم على نشر قطعة منه في المجلة الآسيوية (عدد ٢٣٠ سنة (١٩٣٨م) ثم نُشر هذا الكتاب كاملاً في دمشق سنة (١٩٨٤م) بتحقيق إبراهيم زعرور في (٥٠٩ صفحة من القطع المتوسط) مشتملاً على فهارس عامة مفيدة.

أما المؤرخ الثالث في التاريخ المحلي فهو عز الدين أبو الحسن علي بن أبي الكرم بن الأثير الجزري المتوفى سنة ٦٣٠هـ (١٢٣٣م)[1]، وقد صنّف كتاب "تاريخ الموصل"

---

(١) سبقت ترجمته ضمن هذا الفصل.

وهو الموسوم " بالتاريخ الباهر في الدولة الأتابكية " وهو تاريخ للدولة الزنكية بالموصل عرض فيه ابن الأثير بالإضافة إلى الأخبار السياسية تفاصيل منوعة اقتصادية واجتماعية وثقافية عن الموصل من مطلع عماد الدين زنكي سنة ٥٢١هـ (١١٢٧م) حتى وفاة الملك نور الدين أرسلان شاه سنة ٦٠٧هـ (١٢١٠م) وقد طبع هذا الكتاب في دار الكتب الحديثة بالقاهرة ومكتبة المثنى ببغداد سنة ١٣٨٢هـ (١٩٦٣م) بتحقيق عبدالقادر أحمد طُليمات.

جـ : التاريخ العالمي (العام):

وهو الكتابة التاريخية التي يتناول فيها المؤرخ الأحداث منذ بدء الخليقة حتى عصره دون الارتباط بإقليم واحد، وقد وجد هذا المنهج من مؤرخي العهد الزنكي كل عناية واهتمام وظهرت كتب مهمة في هذا الإطار اعتمد عليها المؤرخون اللاّحقون كثيرًا، لعل أهمها كتاب الكامل في التاريخ، لعز الدين علي بن محمد الجزري المتوفى سنة ٦٣٠هـ (١٢٣٣م) فلقد نال ابن الأثير شهرته بين مؤرخي القرن السادس الهجري بسبب تأليفه لهذا الكتاب، وكان قد ألّفه على طريقة الحوليات، ابتدأ فيه بأول الزمان حتى وصل به إلى سنة ٦٢٨هـ (١٢٣١م) وقد تحرى ابن الأثير الحقيقة والدقّة فيما كتب، وحاول الابتعاد عن الإسهاب وتكرير الروايات، ثم إنه راعى التوازن في كتابته لتاريخه بين أقاليم العالم الإسلامي، فلم تصرفه الأحداث التي ألمّت بالمشرق عما كان يجري بالمغرب من تطورات، ولهذا فهو يعيب هذا النقص على المؤرخين، ويقول: إن الشرقي منهم قد أخلّ بذكر أخبار الغرب، والغربي قد أهمل أحوال الشرق، فكان الطالب إذا أراد أن يطالع تاريخًا احتاج إلى مجلدات كثيرة، وكتب متعددة مع ما فيها من الإخلال والإملال، فلما رأيت الأمر كذلك شرعت في تأليف تاريخ جامع لأخبار ملوك الشرق والغرب وما بينهما، وآتي فيه بالحوادث والكائنات من أول الزمان متابعة

يتلو بعضها بعضًا إلى وقتنا هذا "،[1] كما أن ابن الأثير قد انتقى من كتابات السابقين، فلم يكن مجرّد جمّاع للروايات، أو لما يصادفه من أخبار، بل إنه كان ينتقي المادة التي يعتقد جدواها، فيقول في ذلك عن نفسه: " ولم أكن كالخابط في ظلماء اللّيالي ولا كمن يجمع الحصباء واللآلي "،[2] كما اعتمد على أدق المصادر وأوثقها، وفي ذلك يقول عن نفسه: على أنني لم أنقل إلا من التواريخ المذكورة، والكتب المشهورة، ممن يُعلم بصدقهم فيما نقلوه، وصحة ما دونوه "،[3] وقد تابع ابن الأثير في كتابه الكامل المعلومات التاريخية التي أوردها الإمام محمد بن جرير الطبريّ في تاريخه متابعة دقيقة إلى حد بعيد فلخّصها، ثم أضاف إليها الكثير من المعلومات، وبخاصة تلك التي تتعلق بالفترة التالية لتوقف الطبري عن الكتابة وبذلك احتل ابن الأثير مكانة مرموقة بين المؤرخين المسلمين، واتخذ كتابه طابع التاريخ العام أكثر من أي تاريخ عام غيره، وقد طُبع هذا الكتاب طبعات عديدة كانت أولاها في ليدن سنة (١٨٥١م) كما نشرته دار الكتاب العربي ببيروت وعني بمراجعة أصوله والتعليق عليه نخبة من العلماء سنة ١٤٠٠هـ (١٩٨٠م) ويُعد هذا الكتاب من مفاخر الحياة العلمية في هذا العهد، وكفى به مثالاً على هذا المنهج من مناهج الكتابة التاريخية.

د ـ التاريخ المعاصر والمذكرات:

معاصرة المؤرخ للأحداث التي تدور في زمانه تطبع روايته بطابع الصدق والدقة في الغالب، فالمؤرخ الذي يعيش في زمن قريب من الزمن الذي دارت فيه الأحداث التي يقوم بتأريخها أقدر من غيره من المؤرخين اللاحقين على تصويرها على حقيقتها، ذلك لأن الكتابة التاريخية المعاصرة لزمن الأحداث تعتمد كثيرًا على المعاينة والمشاهدة

(١) الكامل في التاريخ.- ج١، ص٥.
(٢) المصدر نفسه.- ج١، ص٥.
(٣) نفسه.- ج١، ص٥.

والسماع من مصادر متنوعة، وإذا كان المؤرخ المعاصر للأحداث يشغل منصبًا إداريًا رسميًا فإن كتابه يكتسب صفة المذكرات.[1]

وممن عاصر الأحداث وكتب عنها بأسلوب المذكرات أبو المظفر مؤيد الدّولة أسامة بن مُرشِد بن علي بن مقلّد الشيزرِيّ المتوفى سنة ٥٨٤هـ (١١٨٨م)،[2] وله كتاب " الاعتبار " وهذا الكتاب قلّ أن يُوجد ما يشابهه من كتب التاريخ في ذلك العهد، إذ يضعنا أسامة بن منقذ في هذا الكتاب أمام مذكرات في الأدب التاريخي تتضمن خلاصة تجارب أسامة، وما صادفه في حياته من حوادث، وتعكس صور الحياة في العصر من حروب وفروسية، وملامح من الحياة الاجتماعية والاقتصادية والعلمية على الصعيدين الإسلامي والصليبي.[3]

وممن كتب بأسلوب المذكرات العماد الأصفهاني الكاتب والمؤرخ المتوفى سنة ٥٩٧هـ (١٢٠١م) وله في هذا المنهج كتابان هما:

البرق الشامي: وهو أشبه بالمذكرات الشخصية لأنه بدأه بذكر نفسه وحياته وانتقاله من العراق إلى الشام وأخباره مع نورا لدين محمود وصلاح الدين الأيوبي وتاريخ دولتهما مع ذكر بعض الفتوح بالشام، وقد جاء هذا الكتاب في مجلدات حددها ابن خلكان بسبع مجلدات،[4] ولم يبق منها جميعًا سوى المُجلدتين الخامسة والثالثة مخطوطتين في البودليان بأكسفورد تحت رقم (٤٢٥) ومن الخامسة نسخة في ليدن رقم (٨٢٤) و(٩٦٦) وقد اختصر البنداري الكتاب كله في مجلدتين طُبعت الأولى منهما تحت عنوان " سنا البرق الشامي" في بيروت سنة (١٩٧١م) بتحقيق رمضان ششن.[5]

---

(١) سيد عبدالعزيز سالم. التاريخ والمؤرخون العرب.- الإسكندرية: مؤسسة شباب الجامعة، (١٩٨١م).-ص١٢٤ ـ ١٢٦.

(٢) سبقت ترجمته ضمن هذا الفصل.

(٣) سبق الحديث عن هذا الكتاب باعتباره لونًا من ألوان الفنون النثرية في هذا العهد.

(٤) وفيات الأعيان.- ج٥، ص١٥٠.

(٥) شاكر مصطفى. التاريخ العربي والمؤرخون.- ج٢، ص٢٤٧.

أما الكتاب الآخر فهو الفيح القسي في الفتح القدسي"،[١] وقد أرّخ فيه العماد لفتوحات صلاح الدين الأيوبي من أول سنة ٥٨٣هـ (١١٨٧م) إلى أواسط سنة ٥٨٩هـ (١١٩٣م) وقد طُبع هذا الكتاب مرات عديدة كان أولها في ليدن سنة (١٨٨٨م)، ثم طُبع بعدها في مصر ثلاث مرات.[٢]

٢ ـ الجغرافيا والرحلات:

الجغرافيا معناه: صورة الأرض، وهو علم يُتعرف منه أحوال الأقاليم السبعة الواقعة في الربع المسكون من كرة الأرض، وعروض البلدان الواقعة فيها، وأطوالها، وكذا عدد مدنها وجبالها، وبراريها وبحارها، وأنهارها، إلى غير ذلك من أحوال الربع المعمور.[٣]

أما الرحلات وزيارة الأقطار المختلفة فإنها تُعدّ من أهم وسائل المعرفة الجغرافية، وقد اشتهر كثير من الجغرافيين المسلمين مثل ابن حوقل، والمسعوديّ، والمقدِسي، والإدريسي وابن جُبير وابن بطوطة برحلاتهم الطويلة، حيث فاق المسلمون في ميدان الرّحلة والكشف الجغرافي غيرهم من الشعوب، وساعد على الرّحلات الإسلامية أمور عديدة منها: اتساع رقعة الدولة الإسلامية بعد الفتوحات، وانطلاق المسلمين إلى مراكز العلم المنتشرة في سائر أقطار العالم الإسلامي، كذلك رحل الناس للتجارة بين الأقطار الإسلامية في المشرق والمغرب، أو لأداء فريضة الحج إلى بيت الله، أو القيام بمهمة كأن يكون الرّحالة سفيرًا للخليفة أو السلطان.[٤]

---

(١) ابن خلكان. المصدر السابق.- ج٥، ص١٥٠، ويسمى أحيانًا: "الفتح القسي".

(٢) شاكر مصطفى. المرجع السابق.- ج٢، ص٢٤٧، وقد سبق الحديث عن هذا الكتاب ضمن فنون النثر الأدبي.

(٣) طاش كبري زاده. مفتاح السعادة.- ج١، ص٣٦١.

(٤) سيد عبدالعزيز سالم. التاريخ والمؤرخون العرب.- ص٢١١.

وكان معظم الرّحالة المسلمين يحرصون على تدوين مشاهداتهم، وتسجيل أخبار رحلاتهم وأسفارهم، والمسالك والطرق التي ساروا فيها والمسافات التي قطعوها في تنقلاتهم، كما كانوا يصفون المدن التي يمرّون بها، ويذكرون الصعوبات التي واجهتهم في رحلاتهم، ويصفون ما عاينوه من مظاهر الحضارة في كل بلد طرقوه، كالمنتجات الزراعية والصناعات والتجارة، كما أن بعضهم كان يصف بعض مظاهر الحياة الاجتماعية في الأقطار المختلفة التي يمرُّ بها.[1]

فكانت تلك الرحلات وما تقدمه من معلومات مبنِيّة على المشاهدة والاطلاع من أبرز عوامل تقدم وتطور المعارف الجغرافية عن المسلمين.

ولقد كان لعددٍ من علماء العهد الزنكي أثر في الدراسات الجغرافية، وبخاصة ماله صلة بالرحلات الجغرافية، وتذكر مصادر البحث عددًا من علماء الجغرافيا ممن برزوا في الرحلات الجغرافية في ذلك العهد، وأشهرهم:

أبو الحسن علي بن أبي بكر بن علي الهروِي الموصلي المتوفى سنة ٦١١هـ (١٢١٥م)[2] الذي قضى معظم حياته في التجوال والرحلات حتى لقب بالسائِح، وأبو الحسن الهروي أصله من هراة[3]، ولكنه ولد بالموصل، ومنها انطلق برحلاته إلى الشام، والعراق، واليمن، والحجاز، ومصر، وبلاد الروم، وبعض جُزر البحر المتوسط مثل صِقِلّية، وقد تنقّل خلال رحلاته في أرجاء المدن المختلفة وتكلّم عن

(١) المرجع نفسه.- ص٢١٣ـ٢١٤.

(٢) ترجم له المنذري في التكملة لوفيات النقلة.- ج٢، ص٣١٥ـ٣١٦ ؛ ابن خلكان. وفيات الأعيان.- ج٣، ص٣٤٦ـ٣٤٨ ؛ أبو الفداء. المختصر.- ج٣، ص١١٥ـ١١٦ ؛ الذهبي.سير أعلام النبلاء.- ج٢٢، ص٥٦ـ٥٧ ؛ ابن العماد. الشذرات.- ج٥، ص٤٩.

(٣) هراة: مدينة كبيرة بخراسان وهي من أمهات المدن، يقول ياقوت: " لم أر بخراسان عند كوني بها في سنة ٦٠٧هـ " مدينة أجلّ ولا أعظم ولا أفخم ولا أحسن ولا أكثر أهلاً منها " (معجم البلدان.- ج٥، ص٣٩٦).

مشاهدها ومساجدها وخالط أهلها، والتقى بالعلماء وأخذ عنهم، ولم يكن في تجواله مقتصرًا على طلب العلم فقط بل إنه وثّق علاقاته مع عددٍ من الجغرافيين المعروفين في عصره[1] قال عنه ابن خلكان: " طاف البلاد وأكثر من الزيارات، وكاد يُطبق الأرض بالدوران، فإنه لم يترك برًا ولا بحرًا ولا سهلاً ولا جبلاً من الأماكن التي يمكن قصدها ورؤيتها إلا رآه، ولم يصل إلى موضع إلا كتب خطه في حائطه، ولقد شاهدت ذلك في البلاد التي رأيتها مع كثرتها "،[2] وقد ألّف الهروي عن رحلاته هذه كتابه: " الإشارات إلى معرفة الزيارات " الذي اعتمد فيه على ذاكرته بعد أن فقد كتاباته الوصفية المباشرة، ولعل ذلك ما عناه بقوله: وأكثر كُتبي أخذتها الفرنج، وغرقت في البحر، بل قد عملت كتابًا مفردًا لهذا أذكر فيه ما أقدر عليه وسمّيته بكتاب منازل الأرض ذات الطول والعرض".[3] وقد طُبع هذا الكتاب في دمشق سنة ١٩٥٣م بإشراف المعهد الفرنسي للدراسات العربية وتحقيق جانين سورديل طومين.

أما فيما يتصل بالدراسات الوصفية أو ما يُعرف بالجغرافيا التحليليّة،[4] فإنه مما يستحق الذكر أن بدايات التصنيف في هذا المجال قد ظهرت خلال هذا العهد حيث وضع المؤرخ المشهور عز الدين علي بن محمد بن الأثير الجزري المتوفى سنة ٦٣٠هـ (١٢٣٣م) كتابه القيّم الموسوم بـ " تُحفة العجائِب وطرفة الغرائب " حيث ذكر في صدر كتابه هذا

---

(١) كراتشكوفسكي، إغناطيوس يوليانوفتش (ت ١٣٧٠هـ/١٩٥١م). تاريخ الأدب الجغرافي العربي، ترجمة صلاح الدين هاشم.- القاهرة: (١٩٦١م).- ق١، ص٣٢٠ ـ ٣٢١.

(٢) وفيات الأعيان.- ج٣، ص٣٤٦.

(٣) الهروي، ، أبو الحسن علي بن أبي بكر بن علي (ت ٦١١هـ/١٢١٥م). الإشارات إلى معرفة الزيارات، ميكروفيلم بالمكتبة المركزية بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض، رقم (١٩٤ ف) مصوّر عن مكتبة عارف حكمت بالمدينة المنورة رقم (١٧٨ مجاميع).

(٤) وهو ما يعرف في العصر الحديث بعلم (الكوزموغرافيا) وهو علم دراسة ووصف الكون (كراتشكوفسكي. الأدب الجغرافي العربي، ق١، ص٣٦١).

أن الـذي حـوى هـذا الكـتاب المبارك عجـائب الأفـلاك، ذكـر العناصـر، ذكـر الأرض، الدنيا والدهر، عجـائب المدن والأقـاليم، عجـائب البحار، عجـائب الجزائر، عجائب الأنهـار، عجـائب الجبال، خـواص المعـادن، خـواص الأحجـار، خـواص النـباتات، خـواص الحيـوان[1]، ويظهـر أن هذا الكتاب بالإضافة إلى ما يقدمه من معلومات وصفية عـن الكـون فإنـه يقـدم وصـفًا للأقـاليم والبـلدان وطبيعتها من ذكر للجبال، والنباتات، والمزروعات، والأحجـار، والمعـادن، ويوجـد مـن هـذا الكـتاب نسـخة مصـورة عـلى ميكروفيـلم بالمكتبة المركزية بجامعــة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض تحت رقم (٥٢٤٧ ف).

رابعـاً : علوم الرياضيات والفلك:

اهـتم المسـلمون في ذلـك العهـد بشـتى فنون العـلوم المختـلفة، ومـن ذلـك علوم الرياضيات والفـلك، حيـث نـالت تلك التخصصات قدرًا كبيرًا من اهتماماتهم، فبرعوا في عـلم الحساب وصنّفوا فيه المصنفات الكثيرة، بحثوا فيها الأعداد وأنواعها وخواصها، وتوصـلوا إلى إضـافات ونتائج أثارت إعجاب علماء الغرب ودهشتهم فاعترفوا بفضلهم وأسبقيتهم في هـذا المجـال، وتـرجموا كثيرًا من كتب المسلمين مما كان لـه أثر كبير في تقدم هذا العلم، كما اشتغل عدد من العلماء بعلم الجبر وأتوا فيه بالعجب العجاب، حتى أن (كـاجوري) قـال: إن العقـل ليدهـش عـندما يرى ما عملـه العرب في الجبر".[2] وهم أول مـن أطـلق لفظـة " جبر" عـلى العـلم المعروف الآن بهذا الاسم، وعنهم أخذ الغرب هذه

---

(١) تحفة العجائب وطرفة الغرائب (مخطوط).- ورقة ٢ ظهر.

(٢) قـدري طوقـان. تـراث العـرب العـلمي في الرياضيات والفـلك.- طـ٣.- القاهـرة: دار القـلم، ١٣٨٢هـ (١٩٦٣م).- ص٦١.

اللفظة (Algebra)، وكذلك هم أولّ من ألف فيه بصورة علمية منظمة،[1] كما ترجم المسلمون كثيرًا من الدراسات الهندسية عن كتب اليونان، حيث جرت دراستها دراسة علمية فاحصة، وأضافوا عليها إضافات كثيرة مهمّة، واهتم العُلماء المسلمون كذلك بعلم الفلك ودفعهم إلى الاهتمام به، تعيين اتجاه القبلة، ووقت زوال الشمس وأوائل الشهور القمرية وأواخرها، لأن أوقات الصلوات الخمس تختلف من بلدٍ إلى آخر، وهكذا، فإنهم طوّرا علم الفلك "وجعلوه عِلمًا رياضيًا مبنيًا على الرّصد والحساب والهندسة لتقليل ما يُرى من الحركات والظواهر الفلكيّة والكونيّة. ولم يقفوا فيه عند حد النظريات كما فعل اليونان، بل فاقوا غيرهم في عمل الآلات التي رصدوا بها النجوم والكواكب"،[2] وقد تميّزت المؤلفات الإسلامية في مجال علم الفلك بما التزم به مؤلفوها من أسلوب علمي واتجاه لتطبيق النظريات الحسابية والجبرية والهندسية على الأغراض العلمية من شؤون حياتهم ولوازم مجتمعهم.

وقد نبغ في العهد الزنكي عدد من علماء الرياضيات والفلك ممن كان لدراساتهم ومصنفاتهم أثر واضح في إثراء الدراسات الرياضية والفلكية، وقد تمثلت أبرز الجهود في الآتي:

١ ـ الرياضيات:

كانت العلوم الرياضية من حساب وجبر وهندسة من العلوم التي كانت تُدرّس في بعض المدارس الزنكية، كما كان هناك تنقلات ورحلات بين المناطق الزنكية لتحصيل هذه العلوم من العلماء البارعين في هذا المجال، ومما ساعد على تشجيع هذا الفرع من

---

(١) المرجع نفسه.- ص٦١.

(٢) ناجي معروف. المراصد الفلكيّة ببغداد في العصر العباسي.- بغداد: دار الجمهورية، ١٣٨٧هـ (١٩٦٧م).- ص٥.

العلوم حاجة الفقهاء الماسّة إلى علمي الحساب والجبر في تقسيم المواريث، أو ما يسمى بعلم الفرائض، وكذلك الحاجة إلى هذه العلوم في معرفة المواقيت واتجاه البلدان لإقامة الصلاة، كما ظهرت الحاجة إليها في حسابات الدواوين، وفي بعض الأمور الإدارية الأخرى، **ومن علماء العهد الزنكي البارزين في ميدان الرياضيات.**

كمال الدين أبو الفتح موسى بن أبي الفضل يونس بن محمد بن منعة الموصلي المتوفى سنة ٦٣٩هـ (١٢٤٢م)(١) الذي وُصف بأنه " كان يدري فن الحكمة: المنطِق والطبيعي والإلهي، وكذلك الطب، ويعرف فنون الرياضة من إقليدس والهيئة والمخروطات والمتوسطات والمجسطي،(٢) وأنواع الحساب المفتوح منه والجبر والمقابلة والأرثماطيقي وطريق الخطأين، والموسيقى والمساحة، معرفة لا يشاركه فيها غيره إلا في ظواهر هذه العلوم دون دقائقها والوقوف على حقائقها "،(٣) ولمّا ذاع صيته في علم الرياضيات أخذت الرسائل تنهال عليه من علماء الرياضيات المعاصرين له يقول ابن خلكان: " كنت بدمشق سنة ثلاث وثلاثين وستمائة، وبها رجل فاضل في علوم الرياضة، فأشكلت عليه مواضع في مسائل الحساب والجبر والمقابلة والمساحة وإقليدس، فكتب جميعها في درجٍ وسيّرها إلى الموصل، ثم بعد أشهر عاد جوابه، وقد كشف عن خفيها، وأوضح غامضها، وذكر ما يعجز الإنسان عن وصفه"،(٤) كما وصلته رسالة

---

(١) سبقت ترجمته في الفصل الثالث.

(٢) المجسطي: لفظة يُونانيــة معناها بالعربي الترتيب (ابن خلكان. وفيات الأعيان.- ج٥، ص ٣١٢) وهو دائرة معارف في علوم الفلك والمثلثات، وموضوعاته: كروية العالم، وثبوت الأرض في مركز العالم والبروج، عروض البلدان، حركة الشمس، والانقلابات الربيعي والخريفي، والليل والنهار، حركات القمر وحسابها، الخسوف والكسوف، النجوم الثوابت، الكواكب المتحيرة. (عمر فرّوخ. تاريخ العلوم عند العرب.- ط٤.- بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٨٤م.- ص٤٩).

(٣) ابن خلكان. وفيات الأعيان.- ج٥، ص٣١٢.

(٤) المصدر نفسه.- ج٥، ص٣١٥.



أخرى من أوربا أشار إليها القزويني بقوله: " ومن عجيب ما رأيت منه أن الفرنج في زمن الملك الكامل بعثوا إلى الشام مسائل أرادوا جوابها: منها طبية، ومنها حِكمية، ومنها رياضية، أما الطبية والحكمية فأجاب عنها أهل الشام، والهندسة عجزوا عنها والملك الكامل[1] أراد أن يبعث جواب الكلّ، فبعثوا إلى الموصل إلى المفضل بن عمر الأبهري أستاذنا، وكان عديم النظر في علم الهندسة، فأشكل الجواب عليه فعرضه على الشيخ ابن يونس، فتفكّر فيه وأجاب عنه ... فكتب برهانه المفصل وجعله رسالة بعث بها إلى الشام إلى الملك الكامل، فلما مشيت إلى الشام رأيت فضلاء الشام يتعجبون من تلك الرسالة ويُثنون على استخراج ذلك البرهان، فإنه كان نادر الزمان".[2]

ولكمال الدين بن منعة مصنفات جليلة في الرياضيات منها: تصحيح عصا الشرف الطُوسِي،[3] وله في الهندسة كتابين ذكرهما بروكلمان هما: شرح الأعمال الهندسية، وهو محفوظ في مكتبة أيا صوفيا بإستانبول برقم (٢٧٥٣)، وله رسالة في البرهان على المقدمة التي أهملها أرخميدس في كتابه " تسبيع الدائرة وكيفية اتخاذ ذلك"، وهو محفوظ في مكتبة بودليانا بإنجلترا برقم (٩٨٧/٨).[4]

(١) الملك الكامل أبو المعالي محمد بن الملك العادل الأيوبي حكم دمشق سنة ٦٣٥هـ (١٢٣٧م) وكان قد انتزعها من أخيه الملك الصالح إسماعيل، ولكنه لم يلبث أن توفي في الثاني والعشرين من رجب من السنة نفسها. (وفيات الأعيان.- ج٥، ص٧٩ ـ ٩٢)

(٢) آثار البلاد وأخبار العباد.- ص٤٦٣.

(٣) عصا الشرف الطوسي، يقصد به الأسطرلاب الخطي نسبة إلى مخترعه المظفر ابن المظفر الطوسي المتوفى سنة ٦١٠هـ (١٢١٣م) وهو شبيه بهيئة مسطرة الحساب (نللينو. دائرة المعارك الإسلامية، مادة (أسطرلاب).- ج٢، ص١٧) والأسطرلاب: كلمة يونانية تعني مرآة النجوم، ويُعد من أقدم أجهزة تعيين زوايا ارتفاع الأجرام السماوية عن الأفق في أي مكان. كما يمكن استخدامه في حساب الوقت، وكذلك البعد عن خط الاستواء، وهو على أنواع شتى منها التام، والمسطح، والطوماري، والهلالي، والآسي، والزورقي، والصفيحة الزرقاء، والجنوبي، والشمالي، والخطي. (محمد الصادق عفيفي. تطور الفكر العلمي عند المسلمين.- القاهرة: مكتبة الخانجي، ١٩٧٦م.- ص٨٢ ـ ٨٣).

(٤) تاريخ الأدب العربي.- ج٤، ص٢٢٢ ـ ٢٢٣.

وممن برز في هذا العهد في الرياضيات علم الدين قيصر بن أبي القاسم بن عبدالغني بن مسافر المعروف بتعاسِيف المتوفى سنة ٦٤٩هـ (١٢٥١م) كان إمامًا في العلوم الرياضية، كما عُرف بالمهندس لكثرة اشتغاله بالهندسة العملية، اشتغل بالديار المصرية والشام ثم سار إلى الموصل وقرأ بها على الشيخ كمال الدين موسى بن يونس، ثم عاد إلى الشام وتوفي بدمشق في شهر رجب سنة ٦٤٩هـ (١٢٥١م) وكان مولده سنة ٥٧٤هـ بأصفُون من شرقي صعيد مصر.[١]

وكانت شهرة علم الدين قيصر تبرز في ميدان تطبيق الحلول العملية في علم الهندسة لكل ما يتوصل إليه من نتائج خلال أبحاثه، من ذلك ما يذكره (الدُومَيلي) أن اسم علم الدين قيصر قد اتصل بفن السواقي وتحسينها، كما أن له أثر غير مباشر بالتقدم الذي تمّ في أوربا نتيجة تقليد الصليبيين للآلات التي رأوها في المشرق، وكان له أثر في تطويرها.[٢]

٢ ـ الفلك:

ويُعرف قديمًا بعلم " الهيئة "، وموضوعه الأجرام السماوية من النجوم والكواكب وأحوالها وأبعادها وحركاتها وحساب الأيام، والشهور والسنين والفصول على أساس تلك الحركات، وتحويل السنين من القمرية إلى الشمسية وبالعكس، وأطوال البلاد وعروضها، والرياح والأمطار، وكسوف الشمس، وخسوف القمر،

---

(١) ترجم له: ابن خلكان. وفيات الأعيان.- ج٥، ص٣١٥، ٣١٨؛ أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر.- ج٣، ص١٨٦؛ العيني. عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان.- حوادث وتراجم السنوات (٦٤٨ ـ ٦٦٤هـ/١٢٥٠ ـ ١٢٦٥م) تحقيق محمد محمد أمين.- القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٤٠٧هـ (١٩٨٧م).- ص٥٨.

(٢) العلم عند العرب وأثره في تطور العلم العالمي، نقله إلى العربية، عبدالحليم نجار، ومحمد يوسف مرسي.- القاهرة: دار القلم، ١٣٨١هـ (١٩٦٢م).- ص٣٠٥ ـ ٣٠٦.

وما إلى ذلك من مباحث كثيرة منها نظرية وأخرى عملية، وبعض هذه المباحث تدخل الآن في علم الفضاء. ومن فروع هذا العلوم " علم الأزياج " ، وهو عمل جداول فلكية لمواقع النجوم والكواكب واحدًا واحدًا مع حسبان حركاتها في كل زمن وكل وقت.[(١)]

وقد عرّف طاش كبري زاده علم الهيئة بأنه: " علم يُعرف منه أحوال الأجرام البسيطة العلوية والسفلية، وأشكالها وأوضاعها، ومقاديرها، وأبعادها"[(٢)]

وكانت أبرز الجهود التي بُذلت في العهد الزنكي قد تركزت في الموصل، وكان الشيخ كمال الدين موسى بن يونس بن منعه في مقدمة العلماء الذين نشطوا في هذا الميدان، فقد قام بتدريس أصول هذا العلم لطلابه في المدارس التي درّس بها، وصنّف فيه كتابًا سمّاه " الأسرار السلطانية في النجوم "،[(٣)] كما وردت إليه ـ أيضًا ـ مسائل في مشكلات هذا العلم قام بتفسيرها، وحلّ رموزها، ونبّه على براهينها بعضها من بغداد،[(٤)] وأخرى وردت إليه من أحد ملوك أوربا وهو الأمبراطور فردريك الهوهنشتاوفني[(٥)] إمبراطور روما، وكان قد بعث رسولاً إلى الملك الرحيم بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل وبيده مسائل في علم النجوم وغير ذلك، يريد أجوبتها، فبعث

---

(١) سيد رضوان علي. العلوم والفنون عند العرب ودورهم في الحضارة العالمية.- الرياض: دار المريخ، ١٤٠٧هـ (١٩٨٧م).- ص٣١.

(٢) مفتاح السعادة.- ج١، ص٣٤٨.

(٣) ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء.- ص٤١٢.

(٤) ابن خلكان. وفيات الأعيان.- ج٥، ص٣١٤.

(٥) فريدريك الثاني المتوفى سنة ٦٤٨هـ (١٢٥٠م) تُوّج إمبراطورًا سنة ٦١٧هـ (١٢٢٠م) قاد حملته الصليبية سنة ٦٢٦هـ (١٢٢٨م) وتوّج ملكا على بيت المقدس سنة ٦٢٧هـ (١٢٢٩م) كان مهتمًا بالعلوم، متقنًا للغات عديدة، منها العربية، كما درس الطب والرياضيات والفلك (لمزيد من التفاصيل عن الإمبراطور فريدريك الثاني أنظر: سعيد عبدالفتاح عاشور. الحركة الصليبية.- ط٣.- القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٧٦م.- ج٢، ص٩٤٥ ـ ص٩٧٢)

بدر الدين إلى الشيخ كمال الدين يطلب منه الإجابة فكتب كمال الدين الأجوبة على تلك المسائل بأسرها.[١]

ومما ينسب إلى كمال الدين في هذا العلم، أنه قد عرف أشياء كثيرة من قوانين تذبذب الرقاص،[٢] حيث كان الفلكيون يستخدمونه لحساب الفترات الزمنية في أثناء رصد النجوم،[٣] ويذكر طوقان أن كمال الدين قد سبق العالم الإيطالي غاليليو المتوفى سنة ١٠٥٢هـ (١٦٢٤م) في هذا المجال.[٤]

وممن برز في هذا العلم أيضًا الشيخ أثير الدين أفضل أبو عمر الأبهري،[٥] ولم تعلم سنة وفاته، وإنما كان معيدًا عند الشيخ كمال الدين موسى بن يونس بن منعة في المدرسة البدرِيّة بالموصل، وكان يقول: " ما تركت بلادي وقصد الموصل إلا للاشتغال على الشيخ "[٦] يقصد كمال الدين بن منعة. يقول عنه ألدُوميلي إنه صنّف كتاب: " هداية الحكمة " الذي يتمتع بشهرة عظيمة، وكثيرًا من الكتب الفلكية،[٧] كما صنّفّ الشيخ عز الدين أبو محمد عبدالوهاب بن إبراهيم الخزرجي الزنجانِي نزيل الموصل المتوفى سنة ٦٦٠هـ (١٢٦١م)[٨] كتابًا في علم الهيئة.[٩]

---

(١) ابن أبي أصيبعة. عيون الأنباء.- ص٤١٠ ـ ٤١١.
(٢) الرقّاص: أو رقّاص الساعة، كما يُعرف اليوم، يسمى بالإفرنجية باسم البندول من الكلمة اللاتينية بندو لوم (المعلق أو المتدلي) عمر فروخ. تاريخ العلوم عند العرب.- ص٢٢٠، هامش [١].
(٣) المرجع نفسه.- ص٢٣٠.
(٤) تراث العرب العلمي.- ص٣٩٨.
(٥) سبقت ترجمته في الفصل الثالث.
(٦) ابن خلكان. وفيات الأعيان.- ج٥، ص٣١٣.
(٧) العلم عند العرب.- ص٢٩٩.
(٨) سبقت ترجمته ضمن هذا الفصل.
(٩) ابن الفوطي. تلخيص مجمع الآداب.- ج٤، ق١، ص٢٣٥.

ولذا يمكن القول بأن الموصل كانت مركزًا له أهمية خاصة في علوم الرياضيات والفلك بوجود هؤلاء العلماء والذين من أبرزهم كمال الدين موسى بن منعة.

خامسًا : علوم الطب والصيدلة:

أسهم المسلمون في الدراسات الطبية إسهامًا كبيرًا، وظهر بينهم أطباء أثروا هذا العلم بمؤلفاتهم ودراساتهم، وقد انتشرت البيمارستانات في المدن الزنكية واهتم الزنكيون بإنشائها وأوقفوا الكتب الطبيّة عليها، وكانت تلك المستشفيات تقوم بوظيفة تدريس الطب إلى جانب وظيفتها الأساسية في معالجة المرضى، فقد كان طالب الطب يدرس مادته نظريًا وعمليًا، فيدرّس الكتب على أساتذته في البيمارِستان، ويلازم مشاهدة المرضى ويعرف أمراضهم، وما يصف الأطباء لهم، وما يكتبونه لهم في تذكراتهم، التي كانت تسمى يومئذ : "دستورًا"، كما كان بعض الأطباء يُلقي درسه بالبيمارستان[1]

وقد برز في تلك البيمارستانات عدد من الأطباء المشهورين، خلّفُوا تراثًا طبيًا رائعًا، ودراسات جادة كان لها أثر، في إثراء الدراسات الطبية فيما بعد، كما جمع بعض الأطباء بين الدراسات الطبية والدراسات المتعلقة بالحشائش والعقاقير والأدوية، وكل ما يستخدم في التطبيب من مستحضرات كيماوية، وأغذية ومشروبات، وهو ما يسمى بعلم الصيدلة وتكوين الأدوية وتركيبها.

---

(١) سبق إيضاح أثر البيمارستانات في تدريس الطب في الفصل الثاني، الخاص بدور التعليم ووظائفها في العهد الزنكي.

١ ـ الطـبّ:

عرّف ابن خلدون صناعة الطب بأنها: " صناعة تنظر في بدن الإنسان حيث يمرض ويصح، فيحاول صاحبها حفظ الصحة وبرء المرض بالأدوية والأغذية، بعد أن يتبيّن المرض الذي يخص كل عضو من أعضاء البدن، وأسباب تلك الأمراض التي تنشأ عنها، وما لكل مرض من الأدوية مستدلين على ذلك بأمزجة الأدوية وقواها، وعلى المرض بالعلامات المؤذنة بنضجه وقبوله الدواء ... بحسب ما تقتضيه طبيعة المادة، والفصل، والسن، ويُسمى العلم الجامع لهذا كله علم الطب"[١]

أما طاش كبري زاده فقد قال عن علم الطب إنه: علم يُبحث فيه عن بدن الإنسان، من جهة يصح ويمرض لحفظ الصحة، وإزالة المرض، وفائدته: بيّنة لا تخفى، وكفى بهذا العلم شرفًا وفخرًا: قول الإمام الشافعي - رضي الله عنه -: العلم عِلمان: علم الطب للأبدان، وعلم الفقه للأديان،[٢] وقد ارتفع شأن الطبّ في العهد الزنكي، وتقدمت وسائل دراسته.

ولعل من انتشار البيمارستانات في المدن الزنكية، واهتمام الحكام والأمراء بإنشائها ووقف الكتب الطبيّة عليها أثر واضح على تقدم الوعي الصحي وعلى نشاط الثقافة والدراسات الطبية في ذلك العهد، والتي كان من نتائجها بروز عدد كبير من الأطباء الذين أثروا المكتبة الإسلامية بالكثير من المؤلفات الطبية التي كان لها مع ما سبقها من دراسات أثر كبير في إثراء الدراسات الطبيّة في العصور التي تلتها، استمرارًا حتى العصر الحاضر.

وممن برز في هذا الميدان: الطبيب أفضل الدولة أبو المجد محمد بن أبي الحكم

---

(١) المقدمة.- ص٤٦٤.
(٢) مفتاح السعادة.- ج١، ص٣٠٣.



المتوفى سنة ٥٧٠هـ (١١٧٤م)[١] الذي اشتهر بالتدريس بالبيمارستان، النوري بدمشق زمن الملك العادل نور الدين محمود، وكان نور الدين قد أوكل إليه مهمة التطبيب في ذلك البيمارستان بعد إنشائه.وقد وصف لنا ابن أبي أصيبعة كيف كان ابن أبي الحكم يتفقد المرضى بنفسه، وطريقته في تدريس الطب في ذلك البيمارستان، ومناقشاته مع طلابه، ولكنه لم ينسب إليه أي كتاب ألّفه في الطب"[٢]

وممن اشتهر بالطب في هذا العهد أبو جعفر عمر بن علي بن البذُوخ القلعي المغربي المتوفى سنة خمس أو ست وسبعين وخمس مئة (١١٧٩ ـ ١١٨٠م)[٣] كان فاضلاً خبيرًا بمعرفة الأدوية المفردة والمركبة، وله حسن نظر في الاطلاع على الأمراض ومداواتها، أقام بدمشق سنين كثيرة، وكانت له دكّان عطر بدمشق يجلس فيها، ويعالج من يأتي إليه، أو يستوصف منه، وكان له عناية بالكتب الطبية والنظر فيها، وتحقيق ما ذكره المتقدمون من صفة الأمراض ومداواتها، وكانت له مع ذلك عناية بعلم الحديث وله شعر كثير إلا أن أكثر شعره ضعيف منحول، وعُمّر بن البذوخ عمرًا طويلاً، وضعف عن الحركة حتى إنه كان لا يأتي إلى دكانه إلاّ محمولاً، وعمي في آخر عمره حتى توفي.

ولابن البذوخ من الكتب الطبيّة " شرح كتاب الفصول لأبقراط "، وشرح كتاب تقدمة المعرفة لأبقراط أيضًا، وله كتاب " ذخيرة الألباء "، " والمفرد في التأليف عن الأشياء "، وله حواشٍ وضعها على كتاب " القانون " لابن سينا.[٤]

---

(١) سبقت ترجمته في الفصل الثاني.

(٢) عيون الأنباء.- ص٦٢٨.

(٣) أثبت ذلك ابن أبي أصيبعة. المصدر نفسه.- ص٦٢٩. ولم يُعثر على ترجمة له في مصادر أخرى.

(٤) ابن أبي أصيبعة. عيون الأنباء، ص٦٢٨ ـ ٦٣٠.

ومن مشاهير أطباء العهد الزنكي في الموصل أبو الحسن علي بن أحمد بن هبل البغدادي المتوفى سنة ٦١٠هـ (١٢١٣م)،[١] وكان الشيخ مهذب الدين بن هبل " أوحد وقته، وعلاّمة زمانه في صناعة الطب وفي العلوم الحِكمية"[٢] لـه مصنفات حِسان في الطب أشهرها: كتابه " المختارات في الطبّ" الذي يُعد من أشهر تصانيف العصر الطبية وأوفرها نفعًا وأتمها حاجة. وكان تصنيفه له بالموصل سنة ٥٦٠هـ (١١٦٥م)، [٣]وقد طُبع هذا الكتاب لأول مرة في مطبعة دائرة المعارف العثمانية، بحيدر آباد الدكن سنة ١٣٦٢هـ (١٩٤٣م) في أربعة أجزاء، وفيه تناول المؤلف فصولاً عديدة في علم الطب وصناعته، بشكل شيّق وواضح، والمطّلع على هذا الكتاب يُدرك مدى ما يتمتع به ابن هبل في مجال دراسة الطب، ذلك أنه تناول الأمراض التي تعترض الإنسان، أعراضها، وطرق معالجتها بالتفصيل، كما أفرد فصلاً عن تشريح أعضاء الإنسان صغيرها وكبيرها، وأفرد فصولاً أخرى للحديث عن المأكولات وأثرها على الصحة وأنواع العلاجات والأدوية وكيفية استخراجها. وبيّن المؤلف في كتابه هذا الأمزجة البشرية وأثرها على صحة الأبدان، كما وضع قانونًا لمن أراد أن يمتهن الطبّ إذ يرى أنه: " مما يمتحن به الطبيب حتى يوثق بعلمه وعمله أن يُنظر في ماذا أنفق زمانه إن كان الاشتغال بهذه الصناعة، وملازمة خدمة الكُبراء من أهلها، وطول ملازمتهم، والقراءة عليهم، والعلاج بين أيديهم، والتدرّب في الدخول على المرضى في بيوتهم، وملازمة خدمة البيمارستان الذي يجتمع فيه حُذّاق الأطباء، وكثرة نظره إلى معالجة الأستاذ، فيشار إليه ويعوّل عليه ـ وكذلك هل يثني عليه الناس لحسن سيرته وديانته، وأن همّته إذا خلا في بيته مطالعة الكتب ودراسة هذه الصناعة".[٤]

(١) سبقت ترجمته في الفصل الثاني.
(٢) ابن أبي أصيبعة. المصدر السابق.- ص٤٠٧.
(٣) المصدر السابق.- ص٤٠٩.
(٤) ابن هبل: المختارات في الطب.- ج١، ص٧.

ولابن هبل أيضًا كتاب " الطب الجمالي " صنّفه للوزير الموصلي جمال الدين محمد المعروف بالجواد الأصفهاني المتوفى سنة ٥٥٩هـ (١١٦٤م).(١)

وفي الدراسات الطبيّة في العهد الزنكي يرد أيضًا ذكر الإمام كمال الدين موسى ابن أبي الفضل يونس بن محمد بن منعة الموصلي المتوفى سنة ٦٣٩هـ (١٢٤٢م)(٢) الذي ذكر عنه ابن خلكان أن له دراية في علم الطب(٣) ونسب إليه ابن أبي أصيبعة كتاب "مفردات ألفاظ القانون لابن سينا".(٤)

٢ ـ الصيدلة:

وهو علم يبحث عن التميز بين النباتات المشتبهة في الشكل، ومعرفة منابتها، ومعرفة زمانها، ومعرفة جيّدها من رديها، ومعرفة خواصها إلى غير ذلك،(٥) والصيدلة يُقصد بها علم الأدوية وتركيباتها، وهي متصلة بعلم الأعشاب (النبات) وبعلمي الحيوان والمعادن وبالكيمياء، فإن الأدوية نباتية وحيوانية ومعدنية، ثم هي تحتاج إلى معالجة وإلى نِسب في التركيب تقتضي المعرفة بالكيمياء.(٦)

ونظرًا لعدم توفر المعرفة التامّة بطرق التحاليل الكيميائية في تلك العصور، فقد نظّم المسلمون مهنة الصيدلة، فجعلوا على الصيادلة نقيبًا يُسمى رئيس العشّابين، وأخضعوا تلك المهنة لرقابة عريف الحسبة حتى يحولوا دون غش الدواء،(٧) ولذا فإن

---

(١) ابن أبي أصيبعة. عيون الأنباء.- ص٤٠٩، وقد ذكره حاجي خليفة باسم " المختار في الطب الجمالي " في مجلدة واحدة، كشف الظنون.- ج١٦٢٢/٢.

(٢) سبقت ترجمته في الفصل الثالث.

(٣) وفيات الأعيان.- ج٥، ص٣١٢.

(٤) المصدر السابق.- ص٤١٢.

(٥) طاش كبري زادة: مفتاح السعادة.- ج١، ص٣٢٤.

(٦) عمر فروخ: تاريخ العلوم عند العرب.- ص٢٩٤.

(٧) الشيزري: نهاية الرتبة.- ص٤٢ ؛ ابن الأخوة: معالم القربة.- ص١٩٩.

على المحتسب وأعوانه أن يناشدوا الصيادلة الخوف من الله، وأن يعظوهم وأن يهددوهم بالعقوبة بل وأن يعاقبوهم إن لزم الأمر.

وقد ذكرت كتب الحسبة عددًا وافرًا من الأدوية الشائعة، وذكرت مواصفات وميزات السليم منها، كما ذكرت بأي مواد يمكن أن تُغش، وطرق الكشف عن ذلك الغش، إلا أنها طرق أصبحت الآن بدائية فهي تعتمد على الملمس والرائحة، وقابلية الانحلال في الماء، والوزن النوعي، والطعم وقابلية الالتهاب بالنار، ونوعية وخصائص الرّماد بعد الحرق.[1]

وقد برع الأطباء المسلمون في تركيب الأدوية بِنِسبٍ معينة، وبرز خلال العهد الزنكي عدد من المتخصصين في تركيب الأدوية (الصيدلة) كانوا في الأصل أطباء، فقد ذكر ابن أبي أصيبعة عن الطبيب ابن البُذوخ المغربي المتوفى سنة ٥٧٥هـ أو ٥٧٦هـ (١١٧٩ - ١١٨٠م)[2] أنه كان خبيرًا بمعرفة الأدوية المفردة والمركبة، وكانت له دكان عطر بدمشق يجلس فيها، ويعالج من يأتي إليه أو يستوصف منه، وأنه كان يهيئ عنده أدوية كثيرة مركبة يصنعها من سائر المعاجين والأقراص والسفوفات وغير ذلك، يبيع منها وينتفع الناس بها[3] كما ذكر أبو الحسن علي بن أحمد بن هُبل البغدادي المتوفى سنة ٦١٠هـ (١٢١٣م) في كتابه المختارات في الطب كثيرًا من أنواع المأكولات وأثرها على الصحة وأنواع العلاجات والأدوية وكيفية استخراجها.[4]

---

(١) الشيزري: المصدر السابق.- ص٤٢ - ٤٧ ؛ ابن الأخوة: المصدر السابق.- ص١٩٩ - ٢٠٦.
(٢) سبقت ترجمته ضمن هذا الفصل.
(٣) عيون الأنباء.- ص٦٢٨.
(٤) المختارات.- ج٢، ص٢١٠ - ٣٣٦.

وبعد: فإنه قد تبيّن للباحث من خلال دراسة ميادين العلوم وأبرز أعلامها في العهد الزنكي أن السلطة القائمة قد ركّزت اهتمامها خلال هذا العهد على إحياء العلوم الشرعية والعناية بها بالدرجة الأولى لأسباب كثيرة من أبرزها الحرص على الدفاع عن العقيدة الإسلامية أمام الحركات الفكريّة والسريّة والتي كانت تستهدف تشكيك المسلمين في عقيدتهم توطئة للسيطرة عليهم، وعلى رأس هؤلاء فرقة الباطِنيّة، لذا تقلصت الدراسات الفلسفِيّة ودراسة المنطق التي تخدم الفكر الشيعي الباطني، وتحقّق لعلماء الشريعة فرصة الوصول إلى مراكز التوجيه الفكري والثقافي في هذا العهد، كما صاحب هذا النشاط في ميدان العلوم الشرعية نشاط آخر في ميدان الدراسات اللّغوية والأدبية لحاجة علماء الشريعة لتلك العلوم وارتباطها الوثيق بتلك العلوم باعتبارها أساسًا من أهم الأسس التي تقوم عليها. وقد اجتمع في المدن الزنكية خلال تلك الفترة طائفة كبيرة من اللّغويين والنحاة والأدباء خلّفوا تُراثًا علميًا هامًا في علوم العربية وآدابها على اختلاف فروعها، إلى جانب ذلك بلغت ميادين علمية كثيرة مجدها في ذلك العهد، وقُدمت دراسات رائدة في العلوم التاريخية والجغرافية، كما قُدمت دراسات علمية راقية في ميدان الرياضيات بفروعها المختلفة، وفي علم الفلك والميقات، إضافة إلى الاهتمام بالدراسات الطبيّة والصيدلة والتي كان مجالهما داخل البيمارستانات المنتشرة في المدن الزنكية، وبرز من بين العلماء المشتغلين بتلك العلوم علماء كان لهم أثر كبير في إثراء المكتبة الإسلامية بالعديد من المؤلفات المتخصصّة، والتي ظلّت مرجعًا للبحوث العلمية حتى الوقت الحاضر.



الفصل الخامس

أهم المراكز العلمية في العهد الزَنكِي

أولاً : الموصـــــل.

ثانيًا : حلـــــب.

ثالثًا : دِمشـــق.

رابعًا: مُدن أخرى.

ازدهرت حركة التعليم في مختلف المناطق الخاضعة للزنكيين، وكانت أبرز معالم هذا الازدهار إنشاء العديد من دُوُر التعليم المختلفة التي تحملت مهمة تعليم الناس وتثقيفهم في مختلف فروع العلم وتخصصاته، وقد امتاز الزنكيون بحبهم للعلم ودعمهم لحركة التعليم، فأسسوا العديد من دُوُر التعليم، واستقدموا إليها العلماء للتدريس بها، وبذلوالهم بسخاء، كما وفد إليهم عدد كبير من العلماء من أرجاء العالم الإسلامي لينهلوا من معين هذا البذل والتشجيع، حتى صارت المدن الزنكية قبلةً للعلماء على مختلف تخصصاتهم يفدون إليها، فيجدون إقبالاً حسنًا من أهلها، وتشجيعًا وبذلاً من ملوكها وأصحاب الشأن فيها، كما وفد إلى المدن الزنكية أعداد كبيرة من طلاب العلم من مختلف الأقطار الإسلامية للأخذ عن علمائها، وتلقي العلم في معاهدها المختلفة، والتي كانت مفتوحة لكل قاصد[1] فنبغ فيها كثير من أعلام الفكر الإسلامي في مختلف ميادين العلوم والآداب، وكانت أهم المراكز العلمية في هذا العهد الموصل، وحلب، ودِمشق، وحماة، وحِمص، وبعلبَك، ومنبج وغيرها من المدن الخاضعة لحكم الزنكيين، والتي نالت حظًا وافرًا من هذا الدعم الذي بذله حُكّام هذه الأسرة. فأنشئ فيها العديد من دُوُر التعليم على اختلافها حتى أصبحت تلك المدن من أبرز مراكز الحضارة والإشعاع العلمي في العالم الإسلامي في تلك المدة، أسهمت مع المراكز العلمية الأخرى في بناء صرح شامخ من صروح الحضارة الإسلامية المجيدة.

وسيتطرق البحث هنا إلى أبرز دُوُر التعليم التي أنشئت في هذا العهد، وأثرها على النشاط العلمي، ولن يعمد الباحث إلى الحصر والاستقصاء لما يكتنفهما من صعوبة حيث ازداد إنشاء دُوُر التعليم على اختلافها في هذا العهد، وتعددت تخصصاتها، حتى فاقت بكثرتها همّة كلّ راغب في الاستيعاب أو عامد إلى التفصيل.

---

(١) سبق الحديث عن : "تشجيع الزنكيين للعلم والعُلماء" ضمن عوامل نشاط الحياة العلمية في الفصل الأول.

أولاً : الموصل:

كانت مدينة الموصل المنشأ الأول للزنكيين، وقاعدة حكمهم الأولى، وقد لاقت الحياة العلمية في تلك المدينة اهتمامًا خاصًا من حكام تلك الأسرة وأتباعهم، تمثّل في إنشاء العديد من دُوُر التعليم على اختلاف تخصصاتها، وفي توفير كافة سُبل الرعاية والتشجيع للعلماء وطلبة العلم على حد سواء، حيث وُفّرت لهم الأوقاف الفنية التي تفي باحتياجاتهم، والمساكن المريحة حتى يتفرغوا لنشر العلم، وطلبه بنفوس راضية مطمئنة، ونتيجة لذلك أصبحت تلك المدينة محطّ ترحال العلماء وطلاب العلم من شتى مناطق العالم الإسلامي للاستفادة من الفرص المتاحة، وللتفرغ للبحث والدراسة وسط مناخ علمي طيب، ومن أجل ذلك أصبحت الموصل من أشهر الحواضر العلمية في العالم الإسلامي، كما نبغ فيها كثير من الأسر العلمية التي تولت زمام العلم والأدب في مدن الجزيرة الفراتية، وامتدت آثارهم إلى بلاد الشام والمناطق المجاورة الأخرى، وكان من مظاهر الازدهار العلمي في تلك المدينة ما ذكره المؤرخ الموصلي ياسين العُمري المتوفى سنة ١٢٣٢هـ (١٨١٧م) أن بها في أواخر الحكم الزنكي - من الجوامع خمسة وثلاثين جامعًا، وأربع مئة مسجد، وثمانيًا وعشرين مدرسة، ومئة وثمانين دارًا للحديث، وأن الخانقاهات بلغت سبعة وعشرين إلى غير ذلك من العمارات.[١]

كما وصف ابن جبير الذي زار الموصل سنة ٥٨٠هـ (١١٨٤م) بعض مدارسها التي كانت على دجلة وصفًا بديعًا فقال: " وفي المدينة مدارس للعلم نحو الست أو أزيد على دجلة، فتلوح كأنها القصور المشرفة"،[٢] وكانت مدارس الموصل من أجمل البنايات، مُزيّنة بالكتابات المختلفة والنقوش الهندسية، والرّخام، ولم تزل بقايا هذه المدارس

(١) مُنية الأدباء.- ص٦٦.
(٢) الرحلة.- ص٢١.

تشهد بما كانت عليه من جمال البناء وروعة الفن وطيب الموقع، إلا أن الأمير بدر الدين لؤلؤ حينما استأثر بالحكم في أواخر عهد الزنكيين بالموصل حوّل أكثر المدارس إلى مقامات ومشاهد لأبناء آل البيت وذلك لكي يعفي آثار أسياده الزنكيين، ويقاوم الحركة العدوية التي ازداد خطرها في الموصل، إضافة إلى تعثر حركة التعليم في عصره، حتى كانت موجة المغول التي هاجمت الموصل سنة ٦٦٠هـ (١٢٦٢م) فدمّرت أكثر معالم العلم في الموصل وطمست آثارها،[١] وكانت أبرز دُوُر التعليم في الموصل على النحو الآتي:

أ ـ المساجد:

حافظ المسجد طيلة العصور السابقة لفترة البحث على مكانته العلميّة باعتباره قاعدة التعليم الأولى في حياة المسلمين. واستمر يؤدي الدور نفسه خلال العهد الزنكي على الرغم من توسع الزنكيين في إنشاء المدارس في كثير من مدنهم، حيث ظلّت كثير من المساجد أماكن يتردد إليها العلماء وطلاب العلم، وتُعقد في جنباتها حلق التدريس والوعظ، والإملاء والمناظرات العلميّة، وكانت أشهر المساجد التي أشارت مصادر البحث على قيامها بنشاط تعليمي في الموصل في ذلك العهد على النحو الآتي:

١ ـ مسجد النبي ﷺ (مسجد جُرجيس):

ورد خبر التدريس في هذا المسجد في ترجمة الإمام النحوي علي بن خليفة بن علي المعروف بأبي الحسن بن المُنقى المتوفى سنة ٥٦٢هـ (١١٦٧م)،[٢] حيث ذُكِر عنه أنه كان يجلس بالمسجد المعروف بمسجد النبي ﷺ بالموصل يتردد عليه كثير من طلبة العلم في بلده، وقد صنّف مقدمة في النحو سمّاها المَعُونة".[٣]

(١) سعيد الديوه جي.- تاريخ الموصل.- ج١، ص٣٤٣.
(٢) سبقت ترجمته في الفصل الرابع.
(٣) ياقوت. معجم الأدباء.- ج١٢، ص٢١٥.

وقد انقطعت أخبار هذا المسجد بعد ذكر ابن خليفة النحوي، ويُرجّح الديوه جي أن هذا المسجد هو الذي يُعرف بمسجد النبي جُرجِيْس الذي توسّع فيما بعد وصار جامعًا.[1]

٢ ـ مسجد ابن الشيرجيّ:

ورد خبر التدريس في هذا المسجد في ترجمة الشيخ أبي البركات عبدالله بن الخضر المعروف بابن الشيرجي المتوفى سنة ٥٧٤هـ (١١٧٨م)،[2] حيث ذُكر عنه أنه كان يجلس للتدريس في مسجد بالموصل على شط النهر، فعُرف ذلك المسجد به، وكان يجتمع عنده عدد كبير من طلبة العلم للتفقه وسماع الحديث، وقد روى عنه جمع كبير من العلماء،[3] وقد انقطعت أخبار هذا المسجد في المصادر، وربما أن التدريس في هذا المسجد قد انقطع بوفاة صاحبه ابن الشيرجي.

٣ ـ مسجد زين الدين علي بن بُكتكِين (المدرسة الكمالِية):

بنى هذا المسجد أمير الجيش الزنكي أبو الحسن زين الدين علي بن بكتكين المتوفى سنة ٥٦٣هـ (١١٦٧م)،[4] وكان أول ما ورد ذكر التدريس في هذا المسجد في ترجمة الشيخ رضي الدين يونس بن منعة الإربلي المتوفى سنة ٥٧٦هـ (١١٨٠م)،[5] حيث قال عنه ابن خلكان: "ثم أصعد إلى الموصل وتديرها، وصادف بها قبولاً تامًا عند المتولي بها الأمير زين الدين أبي الحسن علي بن بُكتِكِين والد الملك المعظم مظفر الدين صاحب إربل ... وفوّض إليه تدريس مسجده المعروف به وجعل نظره إليه، فكان يدرّس ويُفتي

---

(١) الموصل في العهد الأتابكي.- ص١٥٤.
(٢) سبقت ترجمته في الفصل الثاني.
(٣) السبكي. طبقات الشافعية.- ج٧، ص١٢٣ ؛ الأسنوي. طبقات الشافعية.- ج٢، ص١١٠-١١١.
(٤) سبقت ترجمته في التمهيد.
(٥) سبقت ترجمته في الفصل الأول.

ويُناظر، وتقصده الطلبة للاشتغال عليه .. ولم يزل على قدم الفتوى والتدريس والمناظرة إلى أن توفي بالموصل يوم الاثنين سادس المحرم سنة ست وسبعين وخمسمائة."[1] وعلى هذا فإن الشيخ يُونس بن منعة هو أول من فُوّض إليه أمر التدريس في هذا المسجد، ودرّس به بعد وفاته ابنه الإمام كمال الدين موسى بن يونس المتوفى سنة ٦٣٩هـ (١٢٤٢م)[2] حتى أصبح هذا المسجد يُعرف بالمدرسة الكمالية لطول إقامته به، وقد أكّد ابن خلكان ذلك بقوله في ترجمة كمال الدين: "ودرّس بعد وفاة والده .... في موضعه بالمسجد المعروف بالأمير زين الدين صاحب إربل، وهذا المسجد رأيته وهو على وضع المدرسة، ويُعرف الآن بالمدرسة الكمالية لأنه نُسب إلى كمال الدين المذكور لطول إقامته به".[3]

وعلى هذا فمسجد زين الدين كان قد بني في الأصل على هيئة مدرسة، ودرّسَ به في البداية رضي الدين يونس بن منعة، ثم درّس به بعده ابنه كمال الدين موسى، وصار يُعرف فيما بعد بالمدرسة الكمالية، ولا علاقة بين مسجد زين الدين (المدرسة الكمالية) وبين المدرسة الزينية التي سيرد ذكرها مع المدارس. سوى أن مؤسسهما واحد وهو زين الدين، فقد التبس الأمر على بعض المحدثين وجعلهما مدرسة واحدة. وقد أوضح الديوه جي أن بناية هذا المسجد لم تزل باقية حتى اليوم، وهي تُشرف على دجلة، وتُعرف بمدرسة ابن يونس، وتسمى في الوقت الحاضر " جامع شيخ الشط" وتتألف من غرفة كبيرة مثمّنة الشكل فوقها قبّة تستند إلى "مُقَرْنَصَات"،[4] وهي على ما يظهر كانت

---

(١) وفيات الأعيان.- ج٧، ص٢٥٥.
(٢) سبقت ترجمته في الفصل الثالث.
(٣) المصدر السابق.- ج٥، ص٣١١.
(٤) مُقرْنَصَات: جمع مُقَرْنَص وهي حلية معمارية تُرى في العمائر الإسلامية كصفوف مدلاة بدأ استعمالها في القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي) وقد استعملت لزخرفة المآذن وتحت القباب، وتيجان العُمد، والسقوف الخشبية (الموسوعة العربية الميسرة، دار إحياء التراث العربي، إشراف محمد شفيق غربال.- القاهرة: ١٩٦٥م.- ج٢، ص١٧٣١).

مزيّنة بزخارف جبسية من الداخل وزخارف وكتابات آجرية من الخارج، ولم يزل بعض هذه الزخارف باقيًا إلى اليوم، وقبّة المدرسة مبنية من الآجر، وهي بحالة يُمكن صيانتها والمحافظة عليها.(1)

٤ ـ جامع نور الدين محمود بن زنكي:

لما بلغ الملك العادل نور الدين محمود خبر وفاة أخيه قطب الدين مودود سنة ٥٦٥هـ (١١٧٠م) وملك ولده سيف الدين غازي بعده بالموصل واستيلاء فخر الدين عبد المسيح واستبداده بالأمور وحكمه على سيف الدين غازي، أنِف لذلك وكبر عليه لأنه يعلم خشونة عبدالمسيح مع الرعيّة فخرج نور الدين إلى الموصل، وحاصرها حتى سلمت له، فدخلها في جمادى الأولى من سنة ٥٦٦هـ (١١٧١م) وسكن القلعة، وأقرّ سيف الدين غازي على الموصل، وولى بقلعتها خادمًا له يقال سعد الدين كُمشتِكِين، وأقام نور الدين بالموصل قرابة عشرين يومًا نظّم خلالها شؤون البلد وأزال عنها كثيرًا من المظالم كما عمل فيها كثيرًا من الأعمال الخيرية،(2) وكان بالمدينة جامع واحد قد ضاق بالمصلين، وكان من ضمن أعمال نور الدين: أمره ببناء جامع يستوعب عددًا أكبر من المصلين، وكان قد فوّض أمر بناء هذا الجامع للشيخ عمر الملا، وقد باشر الشيخ عمر بناء الجامع سنة ٥٦٦هـ (١١٧١م) واستمر العمل فيه نحو ثلاث سنوات.(3)

وكان نور الدين محمود قد أنفق في بناء هذا الجامع أموالاً كثيرة، وأوقف عليه ضيعه من ضياع الموصل، وكان قد قدم الموصل سنة ٥٦٨هـ (١١٧٣م) وصلى في جامعه بعد أن فرشه بالبسط والحصران، وعيّن له مؤذنين وخطيبًا، ورتّب ما يلزمه،(4) وقد بلغ

---

(١) الموصل في العهد الزنكي.- ص١٣٦-١٣٧.

(٢) للمزيد من التفصيل راجع المبحث الخاصّ بذلك في تمهيد الدراسة.

(٣) أبو شامة. كتاب الروضتين.- ج١، ق٢، ص٤٨٠ ؛ سبط ابن الجوزي. مرآة الزمان.- ج٨، ق١، ص٢٨٢، ٢٩٣.

(٤) أبو شامة. المصدر السابق.- ج١، ق٢، ص٤٨٠ ؛ سبط ابن الجوزي. المصدر السابق.- ج٨، ق١، ص٢٨٢.

هـذا الجامع درجـة عاليـة من روعة البناء وحسن التخطيط قال عنه ابن الأثير: " فجامعه في الموصـل إليـه النـهاية في الحسـن والإتقـان" ، [1]وحينما اكتمل بناء هذا الجامع رأى نور الديـن أن مـن الأفضـل ، أن يجمـع فيـه بـين الصـلاة وطـلب العـلم ، فأمـر ببـناء مدرسـة بداخلـه ، ووافـق أن وصـل الموصـل في تـلك السـنة الفقيـه عمـاد الديـن أبـو بكـر الفوقاني الشـافعي ، تلميذ محمد بن يحي تلميذ الإمام الغزالي ، [2] ففوّض إليه أمر التدريس في هذه المدرسة ، وكتب لـه منشورًا بذلك.[3]

وقـد ذُكـر خـبر التـدريس في هذا المسجد مُدرجًا ضمن مدارس الموصل المستقلة عند كثير ممـن كتبوا في هـذا المجـال ، [4] إلا أنهـا لا تُعـد مـن المـدارس المسـتقلة نظرًا لبناء داخل الجـامع النـوري بالموصـل ، وليسـت في بنـاء مستقل عنه ، كما أنه لم يكن لها النظام نفسه الـذي كـان لـلمدارس المستقلة مـن مساكن داخلية وغيرها ، ولم يرد لـه هذه المدرسة أي ذكـر بعـد سـقوط الدولـة الـزنكِيّة ، ويظهـر أن التدريس بها قد تعطل بعد العهد الزنكي ، ولم يوجـد لهـا أثر في الوقت الحاضر ، أما الجامع النوري فإنه لا يزال باقيًا حتى اليوم مع تلف بعـض أثـاره ، وتجديـد بعضـها الآخـر في عصـور متلاحقة. ويمتاز هذا الجامع بمئذنته المائلة إلى الشـرق وهـي مـن أطـول المآذن في العـراق ، إذ يبـلغ ارتفاعها ستين مترًا ، وهـي مزيّنة بـزخارف آجـرية جميلة ، ولهـا طـريقان يؤديـان إلى أعلاهـا أحدهما من الأرض ، والثاني من القسم المنشوري (الكرسي) والطريقان لا يلتقيان داخل المئذنة.[5]

---

(١) التاريخ الباهر.- ص١٧٠.

(٢) لم يتيسر الوقوف على ترجمة لـه في المصادر ، وقد سبق إيضاح ذلك في الفصل الثاني.

(٣) أبو شامة. كتاب الروضتين.- ج١ ، ق٢ ، ص٤٨٠.

(٤) أنظر سعيد الديوه جي. الموصل في العهد الأتابكي.- ص١٣٨-١٣٩ ؛ ناجي معروف. علماء النظاميات ومدارس المشرق الإسلامي.- بغداد : مطبعة الإرشاد ، ١٣٩٣هـ (١٩٧٣م) - ص١٦٣.

(٥) سعيد الديوه جي. جوامع الموصل في مختلف العصور.- بغداد : شفيق ، ١٣٨٢هـ (١٩٦٣م) - ص٤٢-٤٣.

ب ـ المـدارِس:

كان بالموصل في العهد الزنكي عدد كبير من المدارس الفقهية القائمة بذاتها والمستقلة عن المساجد، والتي كان لها نظامها المستقل وأوقافها الخاصة بها، والدارّة عليها وعلى المتفقهين والمدرسين بها، وكان منها ما أُفرد للتدريس وفق مذهب واحد من المذاهب السنية الأربعة، ومنها ما دُرّس فيها أكثر من مذهب.

وقد أشار أحد الباحثين المعاصرين إلى وجود ثماني عشرة مدرسة نشأت في الموصل خلال زمن البحث،[(١)] بعضها يُمثل اتجاهًا مذهبيًا منفردًا في حين أن منها ما يشترك في التدريس بها مذهبان أو أكثر.

وكانت أهم المدارس في الموصل في ذلك العهد ما يأتي:

١ ـ المدرسة النِظَامية:

وهي أول مدرسة أشارت المصادر إلى إنشائها في الموصل، وكان قد أنشأها الوزير السلجوقي نظام الملك الطُوسِيّ المتوفى سنة ٤٨٥هـ (١٠٩٢م) ضمن المدارس التي أنشأها في أقاليم مختلة من العالم الإسلامي التي سُميت بالنظاميات العشر".[(٢)] وقد خُصّصت تلك المدرسة كغيرها من النظاميات لتدريس الفقه الشافعي، وكانت نواةً لمدارس الموصل التي انتشرت فيما بعد. وقد ورد ذكر هذه المدرسة عند ابن الأثير في حديثه عن القاضي أبي بكر محمد بن علي بن الحسن بن أبي خالد الخالدي المعروف

---

(١) استقصى الأستاذ الباحث سعيد الديوه جي مدارس الموصل في كتابه " الموصل في العهد الأتابكي من ص١٣٣ إلى ص١٥٤، ولهذا الكتاب أهميته في دراسة مدارس الموصل في ذلك العهد، لأن مؤلفه استطاع أن يُعيّن مواقع المدارس في مدينة الموصل في الوقت الحاضر، ويصف بقايا بعضها وهو كتاب قيّم اعتمد عليه أكثر الباحثين في هذا المجال.

(٢) ابن الجوزي. المنتظم.- ج٨، ص٢٣٨ ؛ ابن الأثير. الكامل.- ج٨، ص١٠٥ ؛ السبكي. طبقات الشافعية .- ج٤، ص٣١٣.

بالسّديد قاضي الموصل فقال: " وبنى له نظام الملك مدرسة بالموصل، وهي الآن بالقرب من الجامع النوري، وتعرف بهم"،[1] وممن درّس في هذه المدرسة بعد السّديد الخالدي القاضي أبو حامد محمد بن القاضي كمال الدين الشهرزوري المتوفى سنة ٥٨٦هـ (١١٩٠م).[2] قال عنه ابن خلكان: " فانتقل إليها - يعني الموصل - وتولى قضاءها ودرّس بمدرسة والده وبالمدرسة النظامية بالموصل".[3] كما درّس بها الشيخ أحمد بن نصر بن الحسين الأنباري المعروف بالشمس الدُّنْبُلِيّ المتوفى سنة ٥٩٨هـ (١٢٠١م)،[4] قال عنه السبكي، وكانت له معرفة تامة بالمذهب ودرّس بالنظامية العتيقة بالموصل وبالمدرسة الكمالِيّة القضوِية"،[5] وقد حافظت المدرسة النظامية على بنايتها حتى سنة

(١) ابن الأثير: عزّ الدين. اللّباب في تهذيب الأنساب.- بيروت: دار صادر، ١٤٠٠هـ(١٩٨٠م) - ج ١، ص٤١٤.

(٢) هو محي الدين أبو حامد بن كمال الدين محمد الشهرزوري، من أكابر الأسرة الشهرزورية في القضاء والفقه والعلم ارتحل كعادة العلماء إلى شتى البقاع الإسلامية يقصد العلم والتعلم، فتفقه في بغداد على الشيخ أبي منصور بن الرزاز، ثم انتقل إلى الشام وولي قضاء دمشق نيابة عن والده، ثم انتقل إلى حلب وحكم بها نيابة عن أبيه أيضًا، ومن ثم انتقل إلى الموصل.- وتولى قضاءها ودرّس بمدرسة والده وبالمدرسة النظامية، وتمكّن من صاحبها عز الدين مسعود بن قطب الدين مودود، وكان جوادًا محبًا للعلم والعلماء، وفعل الخير، وذكر عنه أنه لم يعتقل مدة حكمه بالموصل غريمًا على دينارين فما دونهما بل كان يوفيهما (ابن خلكان. وفيات الأعيان.- ج٤، ص٢٤٦-٢٤٧ ؛ السبكي. طبقات الشافعية.- ج٦، ص ١٨٥-١٨٦ ؛ ابن قاضي شهبة. طبقات الشافعية.- ج٢، ص٥٣-٥٤).

(٣) المصدر السابق.- ج٤، ص٢٤٦.

(٤) هو أحمد بن نصر بن الحسين أبو العباس الأنباري من علماء الموصل البارزين في الفقه الشافعي، كانت له معرفة تامة بالمذهب ودرّس بالنظامية، وبالمدرسة الكمالية القضوية، كما تولى قبلها نيابة القضاء ببغداد عن القاضي الشهرزوري، وكان مسددًا في الفتاوي، ولم يزل يُدرّس ويفتي إلى أن توفي بالموصل سنة ٥٩٨هـ (١٢٠١م) (السبكي. المصدر السابق.- ج٦، ص٦٧ ؛ الأسنوي. طبقات الشافعية.- ج٢، ص١٠١).

(٥) السبكي. المصدر السابق.- ج٦، ص٦٧.

٦٣٧هـ (١٢٣٩م) ويبدو أنها استمرت في نشاطها إلى ذلك التاريخ حيث اتخذ بدر الدين لؤلؤ مكانها مشهدًا للإمام علي الأصغر بن محمد بن الحنفية، ومحافظتها على البقاء حتى عصر بدر الدين لؤلؤ دليل على استمرارها في عملها، إذ أنه لم ترد أية إشارة عن اتخاذ بنايتها لأي غرض من الأغراض قبل هذا التاريخ.(١)

ويصف الديوه جي حالة المدرسة في الوقت الحاضر، فيذكر أنها تشتمل على فناء صغير يُنزل منه إلى ما يشبه المصلى، ويُنزل من هذا القسم إلى بناية المدرسة، وهي عبارة عن غرفتين - في الأولى منها قبر من المرمر الأسمر أقامه بدر الدين لؤلؤ. والثانية فيها صندوق من خشب فوقه ستر، وفوق هذه الغرفة قبّة مرتفعة. أما أهم الآثار المتبقية والتي تستحق الذكر في هذه المدرسة فهو: محراب نفيس من المرمر الأزرق المطعّم بمرمر أبيض وحول المحراب مكتوب بخط كوفي، البسملة، وآيات من القرآن الكريم.(٢)

وقد كانت تلك المدرسة مظهرًا من مظاهر النشاط العلمي الحكومي الرسمي كما هو الحال في المدارس النظامية الأخر مما جعل احتضان الدولة لفكرة المدرسة فيما بعد استمرارًا لتلك الفكرة إذ أن الزنكيين قاموا بإنشاء مدارس لهم على غرار هذه المدرسة، باتخاذها الصفة الرسمية، وإن كان هناك بعض المدارس قامت بجهود شخصية وخيرية من قِبل أمراء وأثرياء ذلك العهد إلا أن تأثير المدرسة النظامية بتلك المدارس ظلّ باقيات من ناحية رسم المنهج، والتخصص بتدريس أحد المذاهب الفقهية، أو الجمع بين مذهبين، كذلك بقيت فكرة التخصص في إسناد التدريس في كل مدرسة لمدرّس واحد يتولى مهمة الإشراف والنظر والتدريس في تلك المدرسة.

---

(١) سوادي الرويشدي. إمارة الموصل في عهد بدر الدين لؤلؤ.- بغداد: مطبعة الإرشاد، (١٩٧١م) - ص٢٠٥.

(٢) سعيد الديوه جي. الموصل في العهد الأتابكي.- ص١٣٤.

٢ ـ المدرسة الأتابكيّة العتيقة:

أنشئت في الموصل بعد المدرسة النظامية مدارس عديدة كان لها أثر كبير في نشاط الحياة العلمية في الموصل في العهد الزنكي، وفي نشر العلوم والمعارف، وكانت المدرسة الأتابكية العتيقة أولى المدارس التي أشارت المصادر إلى تأسيسها بعد المدرسة النظامية بالموصل، وقد ذكر عنها المؤرخون أنها من إنشاء الملك سيف الدين غازي بن عماد الدين زنكي (٥٤١ـ٥٤٤هـ/١١٤٦ـ١١٤٩م) وكانت من أحسن المدارس وأوسعها، دُرّس فيها المذهبان الشافعي والحنفي، وأوقف عليها سيف الدين أوقافًا كثيرة، ودُفن بها بعد وفاته،[١] فهي بذلك تخالف المدرسة النظامية التي خُصصت لتدريس المذهب الشافعي دون سواه، حيث أنها تُعد أولى المدارس التي دُرّس فيها مذهبان في الموصل.

وكان أول من أشارت المصادر إلى تدريسه في هذه المدرسة هو الإمام شرف الدين أبو سعد عبدالله بن محمد بن أبي عصرون الموصلي المتوفى سنة ٥٨٥هـ (١١٨٩م)[٢] وقد ذكر العماد الأصفهاني ذلك بقوله: " لقيته بالموصل سنة اثنين وأربعين وهو مُدرّس المدرسة الأتابكيّة"[٣]

وممن درّس في هذه المدرسة الشيخ أبو البركات عبدالله بن الخِضر المعروف بابن الشيرجيّ المتوفى سنة ٥٧٤هـ (١١٧٨م).[٤] قال عنه ابن خلكان: وكان مشهورًا بعلمي الحديث والفقه، ولي قضاء البصرة، ودَرّس بالأتابكية القديمة، يعني بالموصل"،[٥]

---

(١) ابن الأثير. التاريخ الباهر.- ص٩٣ ؛ سبط ابن الجوزي. مرآة الزمان.- ج٨، ق١، ص١٢٣ ؛ أبو شامة. كتاب الروضتين.- ج ١، ص١٦٨ ؛ ابن خلكان. وفيات الأعيان.- ج٤، ص٤.

(٢) سبقت ترجمته في الفصل الأول.

(٣) خريدة القصر.- (قسم شعراء الشام) ج٢، ص٣٥٢.

(٤) سبقت ترجمته في الفصل الثاني.

(٥) وفيات الأعيان.- ج٧، ص٨٥.

وقال عنه الأسنوي: " وسأله السلطان - يعني سيف الدين غازي - بأن يذكر الدرس في المدرسة الأتابكيّة القديمة، فأجاب بعد اقتناع، وذكر بها الدرس أربعة أشهر، ولم يقبل منها جامِكيّة، ثم استقال منها، وعاد إلى مسجده".[١]

وممن درّس بها بعد ابن الشيرجي الشيخ عبدالسلام بن محمد بن ظهير الدين الفارِسيّ المتوفى سنة ٥٩٦هـ (١١٩٩م).[٢] قال عنه الأسنوي: " قدم الموصل سنة أربع وتسعين وخمسمائة، فصادف من سلطانها نور الدين أرسلان قبولاً تامًا، وفوّض إليه تدريس الفريقين: الشافعية والحنفية، بالمدرسة الأتابكية العتيقة".[٣]

ولم تُشر مصادر البحث أو مراجعه إلى تحديد واضح لموقع هذه المدرسة. ومع أن هذه المدرسة أضافت إلى مناهجها تدريس مادة جديدة هي مادة الفقه الحنفي إلى جانب الفقه الشافعي، إلا أنها حافظت على ما يبدو على الهدف من إنشائها، وهو التخصص في تدريس المواد الشرعية، ولم تتجاوزه إلى تدريس علوم أخرى مثل الأدب والتاريخ والرياضيات وغيرها من العلوم، أما بعض المدارس التي أنشئت بعد المدرسة الأتابكية؛ فبالرغم من احتفاظها بتدريس العلوم الشرعية؛ فإنها طرقت أصنافًا أخرى من العلوم والفنون.

٣- المدرسة الزينية:

أنشأ هذه المدرسة الأمير زين الدين أبو الحسن علي بن بكتكين المتوفى سنة ٥٦٣هـ (١١٦٧م)،[٤] وزين الدين هذا له آثار خيرية مهمّة في الموصل، قال عنه ابن الأثير: "وبنى مدارس وربطًا بالموصل وغيرها"،[٥] كما ذكر ابن خلكان أن له بالموصل أوقافًا

(١) طبقات الشافعية.- ج٢، ص١١٠.
(٢) سبقت ترجمته في الفصل الأول.
(٣) المصدر السابق.- ج٢، ص٢٨٤.
(٤) سبقت ترجمته في التمهيد.
(٥) التاريخ الباهر.- ص١٣٦.

كثيرة مشهورة من مدارس وغيرها،[1] وعلى هذا فإن المدرسة الزينية غير مسجد زين الدين (المدرسة الكمالية) التي سبق ذكرها يؤيد هذا الرأي أمور عديدة منها:

١- ما ذكره كل من ابن الأثير وابن خلكان أن لزين الدين أوقافًا في الموصل من مدارس وغيرها.

٢- أنه في الوقت الذي كان فيه كمال الدين موسى بن يونس بن منعة الموصلي يُدرّس في مسجد زين الدين (المدرسة الكمالية) كان أخوه عماد الدين محمد بن يونس المتوفى سنة ٦٠٨هـ (١٢١١م) يدرس في المدرسة الزينية.[2]

٣- كما أن اسم هذه المدرسة يرد في المصادر دون تعارض مع المدرسة الكماليّة، فيذكر ابن خلكان أخبار المدرسة الكمالية في موضع، ويشير للمدرسة الزينية في موضع آخر، ولم يجعلهما مدرسة واحدة.[3]

أما موقع هذه المدرسة فقد أشار أحد الباحثين أنه كان في محلّة رأس الكُوس على شاطئ نهر دجلة فوق أرض مرتفعة مشرفة على نهر دجلة يفصلها عنه سور المدينة.[4]

وممن دَرّس في هذه المدرسة: الشيخ أبو حامد عماد الدين محمد بن يونس بن منعة الموصلي المتوفى سنة ٦٠٨هـ (١٢١١م).[5] قال عنه ابن خلكان: " وكانت إليه الخطابة في الجامع المُجاهِدي مع التدريس في المدرسة النُورِية والعزّية والزينية والبقشيّة والعلانية".[6]

---

(١) وفيات الأعيان.- ج٤، ص١١٤.
(٢) المصدر السابق.- ج٤، ص٢٥٣.
(٣) المصدر نفسه.- ج٥، ص٣١١.- ج٤، ص٢٥٣.
(٤) أحمد الصوفي. خط الموصل.- الموصل: مطبعة أم الربيعين، (١٩٥٣م) - ج ١، ص٤٦.
(٥) سبقت ترجمته في الفصل الأول
(٦) وفيات الأعيان.- ج٤، ص٢٥٣.

كما أشار أحد المصادر إلى أحد معيدي هذه المدرسة وهو الفقيه الحسن بن عثمان الجزرِي[1] المتوفى سنة ٦٠٦هـ (١٢٠٩م).[2]

٤ ـ المدرسة الكمالية القضوية :

هذه المدرسة من المدارس الآحادية المتخصصة بتدريس مذهب واحد هو " المذهب الشافعي " أنشأها بالموصل القاضي أبو الفضل كمال الدين محمد بن أبي محمد الشهرزوري[3] المتوفى سنة ٥٧٢هـ (١١٧٦م)،[4] ولم يعلم موقع هذه المدرسة بالتحديد، كما أنه لم يبق له أي أثر في الوقت الحاضر.

وكان أبرز من درّس بها : الشيخ جلال الدين عبدالرحمن بن كمال الدين الشهرزوري المتوفى سنة ٥٦٦هـ (١١٧٠م)،[5] وقد توفي في حياة والده وهو على تدريس هذه المدرسة.[6]

وممن درّس بها : القاضي أبو حامد محمد بن القاضي كمال الدين الشهرزوري المتوفى سنة ٥٨٦هـ (١١٩٠م).[7] قال عنه ابن خلكان : " وتولى قضاءها - يعني الموصل

---

(١) هو أبو علي الحسن بن عثمان بن علي الجزري من فقهاء الشافعية صاحب أدب وفضل، سكن الموصل.- ورتب معيدًا في المدرسة الزينية وله شعر لا بأس به (ابن الساعي. الجامع المختصر.- ج٩، ص٣٠٩)

(٢) المصدر نفسه.- ج٩، ص٣٠٩.

(٣) سبقت ترجمته في الفصل الأول.

(٤) ابن الجوزي. المنتظم.- ج ١٠، ص٢٦٨ ؛ سبط ابن الجوزي. مرآة الزمان.- ج٨، ق١، ص ٣٤٠ ؛ ابن خلكان. المصدر السابق.- ج٤، ص٢٤١ ؛ السبكي. طبقات الشافعية.- ج٦، ص١١٨.

(٥) سبقت ترجمته في الفصل الثالث.

(٦) الأسنوي. طبقات الشافعية.- ج٢، ص١٠١.

(٧) سبقت ترجمته ضمن هذا الفصل.

- ودَرّس بمدرسة والده وبالمدرسة النظامية بالموصل".[١]

كما دَرّس في هذه المدرسة الشيخ أحمد بن نصر بن الحسين الأنباري المعروف بالشمس الدنبلي المتوفى سنة ٥٩٨هـ (١٢٠١م)،[٢] قال عنه السبكي: "وكانت له معرفة تامة بالمذهب، ودرّس بالنظامية العتيقة بالموصل وبالمدرسة الكمالية القضوية".[٣]

كما درّس في هذه المدرسة أبو المحاسن يُوسف بن رافع بن تميم الأسدي قاضي حلب المعروف بابن شداد الملقب بهاء الدين المتوفى سنة ٦٣٢هـ (١٢٣٤م)،[٤] قال عنه ابن خلكان: " ثم أصعد إلى الموصل في سنة تسع وستين ـ وخمسمائة ـ فترتب مُدرسًا في المدرسة التي أنشأها القاضي كمال الدين أبو الفضل محمد بن الشهرزوري ... ولازم الاشتغال وانتفع به جماعة".[٥]

٥ ـ المدرسة المُجاهِدية:

هذه المدرسة من المدارس الآحادية أيضًا، بنيت في الموصل على المذهب الشافعي أسسها مجاهد الدين قايماز والي القلعة في الموصل المتوفى سنة ٥٩٥هـ (١١٩٩م)،[٦] وكان الأمير مُجاهد الدين قد قام بعدة أعمال عمرانية في الموصل منها: بناؤه الجامع الكبير بظاهر الموصل، ثم بنى بعده رِباطًا للصوفية، ومدرسة لتدريس المذهب الشافعي.[٧] كما أنشأ بجانب هذه المدرسة مكتبًا لتعليم أيتام المسلمين القراءة والكتابة،

---

(١) وفيات الأعيان.- ج٤، ص٢٤٦.
(٢) سبقت ترجمته في الفصل الثالث.
(٣) طبقات الشافعية.- ج٦، ص٦٧.
(٤) سبقت ترجمته في الفصل الثالث.
(٥) المصدر السابق.- ج٧، ص٨٧.
(٦) سبقت ترجمته في الفصل الأول
(٧) ابن الأثير. التاريخ الباهر.- ص١٧٧ ؛ أبو شامة. ذيل الروضتين.- ص١٧ ؛ ابن خلكان. وفيات الأعيان.- ج٤، ص٨٢-٨٣.

وكان قد أوقف على جميع هذه الأعمال أوقافًا غنية ليضمن استمرارها في أداء وظائفها على المنهج المرسوم لها.(١)

ولم تعين مصادر البحث موقعًا محددًا لهذه المدرسة، ولكنه يُستدل من بعض النصوص أنها كانت تقع بجانب الجامع المُجاهدي (المسمى حاليًا جامع الخضر أو الجامع الأحمر).(٢) كما ذكر ابن الأثير بقوله: " وفي سنة اثنتين وسبعين، شرع مجاهد الدين في عمارة جامعه بظاهر الموصل بباب الجسر، وهو من أحسن الجوامع، ثم بنى بعد ذلك الرباط والمدرسة والبيمارِستان وكلها متجاورة"(٣) وابن خلكان يؤيد ذلك بقوله: " وأثر بالموصل آثارًا جميلة، منها أنه بنى بظاهرها جامعًا كبيرًا، ومدرسة، وخانقاه، والجميع متجاورة"،(٤) فيظهر من هذين النصين أن المدرسة المجاهِدية تُجاور الجامع المجاهدي، ولكنه لايعلم من أيّ الجهات تجاورها، على أية حال فإنه لم يبق من آثار مجاهد الدين سوى الجامع، وأما الرباط، والمدرسة، والبيمارستان، والتربة، وغيرها فلا أثر لها في الوقت الحاضر،(٥) كما أنه لم ترد أية إشارة في مصادر البحث المتيسرة إلى من تولى التدريس في هذه المدرسة.

---

(١) ابن خلكان. المصدر السابق.- ج٤، ص٨٣.
(٢) سعيد الديوه جي. جوامع الموصل.- ص٥٧.
(٣) المصدر السابق.- ص١٧٧.
(٤) المصدر السابق.- ج٤، ص٨٢.
(٥) سعيد الديوه جي. الموصل في العهد الزنكي.- ص١٤٧.

٦- المدرسة المهاجِريّة:

مؤسس هذه المدرسة هو علوان بن مهاجر الموصلي المتوفى سنة ٦١٥هـ (١٢١٨م).[١] ذكر ذلك ابن الفُوطي في ترجمته لحفيده أحمد بن محمد بن علوان، فقال: " وبنى جده علوان بن مهاجر بالموصل مدرسة للفقهاء في سِكة بني نجيح، ووقف عليها وقوفًا متوفرة الحاصل"،[٢] كما ذكرها السبكي في ترجمة محمد بن علوان فقال: " درّس في المدرسة التي أنشأها أبوه علوان بالموصل"،[٣] وذكرها الأسنوي أيضًا في ترجمة محمد بن علوان فقال: " وأنشأ له أبوه مدرسة، فدرّس بها".[٤]

والمدرسة المهاجِرية من المدارس المُعلّقة لأنها كانت مبنيّة فوق دار الحديث المُهاجرية، ذكر ذلك ابن أبي أصيبعة نقلاً عن موفق الدين عبداللطيف البغدادي المتوفى سنة ٦٢٩هـ (١٢٣١م)[٥] الذي قال: " ولما كان في سنة خمس وثمانين وخمسمائة، حيث لم يبق ببغداد من يأخذ بقلبي ويملأ عيني، ويحلّ ما يُشكل عليّ، دخلت الموصل فلم أجد فيها بُغيتي، لكن وجدت الكمال بن يونس جيدًا في الرياضيات والفقه ... واجتمع إلي جماعة كثيرة، وعُرضت عليّ مناصب ؛ فاخترت منها مدرسة ابن مهاجر

(١) لم يُعثر له على ترجمة في المصادر المتيسرة.
(٢) تلخيص مجمع الآداب.- ج٤، ق٢، ص٦٧٥.
(٣) طبقات الشافعية الكبرى.- ج٨، ص٨١.
(٤) طبقات الشافعية.- ج٢، ص٤٤٥.
(٥) هو الإمام الفاضل موفق الدين عبداللطيف بن يوسف بن محمد بن علي بن أبي سعد المعروف بابن اللّباد، موصلي الأصل، بغدادي المولد والوفاة، كان مشهورًا بالعلم والفضل، وُلد ببغداد سنة ٥٥٧هـ (١١٦١م) ونشأ في أسرة علم وصلاح ثم ارتحل إلى أقطار كثيرة، وحصل على عدد من الإجازات فيها، ودرّس في الموصل وبيت المقدس، ودمشق.- ومصر، وحلب، وتردد بين الأقطار، وكثرت تصانيفه وفي إحدى زياراته لبغداد تُوفي بها في محرم سنة ٦٢٩هـ (١٢٣١م) إثر مرض ألمّ به (الكتبي. فوات الوفيات.- ج٢، ص٣٨٥-٣٨٨ ؛ ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء.- ص٦٨٣-٦٩١ ؛ السبكي. المصدر السابق.- ج٨، ص٣١٣.

المعلّقة ودار الحديث التي تحتها. وأقمت بالموصل سنة في اشتغال دائم متواصل ليلاً ونهارًا ... "،[1] ويرى الديوه جي أن دار الحديث المهاجِريّة كانت في مسجد الملا حسن، وهو المسجد المعروف حاليًا بمسجد شطّ الجُومِي وأن المدرسة المهاجرية كان فوق هذا المسجد.[2]

وممن درّس في هذه المدرسة: الشيخ محمد بن علوان بن مهاجر المتوفى سنة ٦١٥هـ (١٢١٨م)،[3] والشيخ موفق الدين عبداللطيف البغدادي.[4]

وممن درّس في هذه المدرسة أيضًا الشيخ عماد الدين أحمد بن محمد بن علوان حفيد المؤسسة علوان بن مهاجر،[5] كما درّس بها أخوه محي الدين أبو محمد عبدالكريم بن محمد بن علوان.[6]

---

(١) المصدر السابق.- ص٦٨٦.

(٢) الموصل في العهد الأتابكي.- ص١٥٠-١٥١.

(٣) هو أبو المظفر محمد بن علوان بن مُهاجر الموصلي الملقب شرف الدين، ولد بالموصل سنة ٥٤٢هـ (١١٤٧م) وتفقه بها، كما رحل إلى بغداد ودرس بالنظامية، وصار معيدًا بها، ثم عاد إلى الموصل.- وأنشأ له أبوه علوان بن مهاجر هذه المدرسة فدرّس بها، إضافة على تدريسه في مدارس عديدة بالموصل.- وانتصب للتصنيف والإفتاء وقد حج سنة ٦٠٢هـ (١٢٠٦م) وجاور بمكّة في السنة التالية، فلما عاد أقام ببغداد مدة، أقبل عليه خلالها الخليفة الناصر لدين الله (٥٧٥-٦٢٢هـ/١١٨٠-١٢٢٥م) ورتب له رواتب مدة إقامته، وخلع عليه، ثم عاد ابن علوان إلى الموصل وواصل مشواره في التدريس والإفتاء حتى وفاته سنة ٦١٥هـ (١٢١٨م) (السبكي. طبقات الشافعية.- ج٨، ص٨٠-٨١؛ الأسنوي. طبقات الشافعية.- ج٢، ص٤٤٥؛ ابن كثير. البداية والنهاية.- ج ١٣، ص٨٢)

(٤) ابن أبي أصيبعة. عيون الأنباء.- ص٦٨٦، وقد سبقت ترجمته في الصفحة السابقة.

(٥) عماد الدين أبو نصر أحمد بن محمد بن علوان بن مُهاجر الموصلي، ولد بالموصل ونشأ بها في بيت علم وفقه وتدريس، ثم رحل إلى بغداد وسكن النظامية، وجالس العلماء فيها، ولما توفي والده محمد بن علوان سنة ٦١٥هـ (١٢١٨م) تولى مكانه التدريس بمدرسة جده في سكّة بني نجيح. (ابن الفوطي. تلخيص مجمع الآداب.- ج٤، ص٢٧، ص٦٧٥)

(٦) هو محي الدين أبو محمد عبدالكريم بن محمد بن علوان بن مهاجر الموصلي، وُلد بالموصل.- وتفقه بها على والده، ثم رحل إلى بغداد، وسمع بها من جماعة، ثم عاد إلى الموصل ودرّس بها في أماكن كثيرة، ثم فوض إليه القضاء بها سنة ٦٣٠هـ (١٢٣٢م) (ابن الفوطي. المصدر السابق.- ج٥، ص ٣٨٦؛ السبكي. المصدر السابق.- ج٥، ص٤٨؛ الأسنوي. المصدر السابق.- ج٢، ص٤٤٦).

٧ ـ المدرسة العزيّة:

هذه المدرسة من المدارس المشتركة بني الحنفية والشافعية، وهي ثاني مدرسة ثنائية بالموصل بعد المدرسة الأتابكية العتيقة.

أنشأ هذه المدرسة الملك عِزّ الدين مسعود بن قطب الدين مودود بن عماد الدين زنكي (٥٧٦ـ٥٨٩هـ/١١٨٠ـ١١٩٣م)، قال عنها ابن الأثير (وقد وردت لديه باسم المدرسة الغربيّة)[١]: "وهو الذي ابتنى المدرسة الغربية بباب دار المملكة، وهي مدرسة حسنة، جعلها للفريقين الحنفية، والشافعية"، [٢] كما شاهد ابن خلكان هذه المدرسة في تربة هي بداخلها، رحمه الله تعالى، ورأيت المدرسة والتربة، وهي من أحسن المدارس والترب، ومدرسة ولده نور الدين أرسلان شاه في قبالتها، وبينهما ساحة كبيرة"، [٣] وكانت هذه المدرسة موضع اهتمام الملك عزُ الدين مسعود حيث كان يشرف عليها بنفسه، ويحيطها برعايته فيذكر ابن الأثير أن الملك عِزّ الدين مسعود قررّ أن يرفع منزلة فقهاء هذه المدرسة ويمنحهم امتيازات كثيرة قلّما تتوفر لفقهاء المدارس الأخرى التي عاصرتها، فقد أمر أن تقدم إليهم الفواكه والحلوى وأن يزودوا بالشِيرج، [٤] والفحم للوقوف، وأن يُدعوا للحضور عند إقامة الدعوات والاحتفالات في المواسم والأعياد إلى جانب أرباب الدولة وأكابر المجتمع، كما أغدق عليهم بالهبات والصدقات في كل أسبوع وفي الأيام الشريفة والليالي المباركة، [٥] وقد أظهرت الآثار أن المدرسة العِزيّة قد

---

(١) لعل هذا تصحيف من نسّاخ كتاب التاريخ الباهر.
(٢) التاريخ الباهر.- ص١٨٩.
(٣) وفيات الأعيان.- ج٥، ص٢٠٧.
(٤) الشِيرج: أو السيرج، كلمة معرّبة من شِيرة بالفارسية وتعني دهن السمسم (بطرس البستاني. محيط المحيط.- بيروت: مكتبة لبنان، ١٩٧٧م.- ج ١، ص٤٤٥)
(٥) المصدر السابق.- ص١٨٩.

اتخذت مقامًا للإمام عبدالرحمن ابن الحسن بن علي بن أبي طالب في عهد بدر الدين لؤلؤ، حين نشط الأخير بتحويل المدارس الزنكية إلى مقامات لأبناء آل البيت، وكان قد كُتِب على باب المقام مانصه: "التوفيق والدولة الدائمة الاتصال لمولانا الملك العادل العالم المؤيد المنصور عِزّ الدنيا والدين ركن الإسلام والمسلمين نصير المجاهدين حافظ بلاد المسلمين شمس المعالي قاهر الخوارج والمرتدين قاهر الكفرة (والمتمردين) المارقين ملك أمراء الشرق أتابك مسعود بن مودود بن زنكي بن أقسنقر".(1)

وقد اتخذت هذه المدرسة العلوم الشرعية مواد ثابتة للدراسة فيها، وذلك تنفيذًا لشرط واقفها الملك عِزّ الدين مسعود الذي أوقفها لتدريس المذهبين الشافعي والحنفي، ولم يُوجد ما يشير إلى تدريس العلوم الرياضية والفلكية أو أيّ علوم أخرى فيها، حيث كان الاهتمام موجّه نحو تدريس العلوم الشرعية في كثيرِ من مدارس المسلمين في ذلك العهد.

وممن تولى التدريس في هذه المدرسة الشيخ أبو حامد عماد الدين محمد بن يونس ابن منعة الموصلي المتوفى سنة ٦٠٨هـ (١٢١١م) ذكر ذلك ابن خلكان بقوله: "وكانت إليه الخطابة في الجامع المجاهدي، مع التدريس في المدرسة النورية والعِزية والزينية ...".(2) ويبدو أن الشيخ عماد الدين قد قام بتدريس الفقه الشافعي في هذه المدرسة لبروعه فيه، ولم تُشر المصادر إلى غيره ممن درّسوا في هذه المدرسة.

ويذكر الديوه جي أنه لم يبق من المدرسة العِزيّة في الوقت الحاضر سوى غرفة واحدة مربّعة الشكل فيها مرقد الإمام عبدالرحمن وفوق الغرفة قبّة مثمنة الشكل كالقباب التي بُنيت في الموصل في القرنين السادس والسابع الهجريين، وفيها محراب من

---

(١) سعيد الديوه جي. الموصل في العهد الأتابكي.- ص١٤١.
(٢) وفيات الأعيان.- ج٤، ص٢٥٣.



المرمر الأزرق مطعّم بالمرمر الأبيض وحوله كتابات كُوفية، وهو قطعة واحدة من المرمر، ويرى الديوه جي أن هذا المحراب هو محراب المدرسة العِزيّة، لتطابق زخارفه مع زخارف القرن السادس الهجري.[1]

٨ـ المدرسة النُوريّة:

هذه المدرسة من المدارس الآحادية بالموصل وقد خُصّصت لتدريس المذهب الشافعي أنشأها الملك نور الدين أرسلان شاه بن عز الدين (٥٨٩ـ٦٠٧هـ/١١٩٣ـ١٢١٠م)، وقد ذكر عنه ابن الأثير أن: "من محاسن أعماله المدرسة التي أنشأها بباطن الموصل مقابل دار المملكة، وهي من أحسن المدارس"،[2] وقال عنها ابن خلكان في ترجمته لمؤسسها: "وبنى مدرسة للشافعية بالموصل قلّ أن يوجد مدرسة في حسنها"،[3] وقد حدّد نور الدين عدد الفقهاء المترددين للدراسة في هذه المدرسة بستين فقيهًا من الفقهاء الشافعية، كانت تُصرف لهم الإعانات من الأوقاف الكثيرة التي أوقفها المؤسس عليها، سوى ما يرد من الرّعية عن طيق الهدايا والصدقات المستمرة.[4]

أما موقع هذه المدرسة فكان داخل المدينة مقابل دُوُر المملكة،[5] وكانت أغلب مدارس الزنكيين تقع في تلك المنطقة قرب دُوُر السلطنة حتى يسهل عليهم رعايتها والإشراف المستمر عليها.

ويذكر الديوه جي أن بقايا دُوُر المملكة لا تزال موجودة إلى اليوم وتعرف (بقرة

(١) المرجع السابق.- ص١٤٢، وقد قامت مديرية الآثار العراقية بنقل هذا المحراب إلى بغداد مؤخرًا لحفظه في متحف الآثار العامة.
(٢) التاريخ الباهر.- ص٢٠١.
(٣) وفيات الأعيان.- ج١، ص١٩٣.
(٤) ابن الأثير. المصدر السابق.- ص٢٠١.
(٥) المصدر نفسه.- الصفحة نفسها.

سراي) ويرى أن مقام الإمام محسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب قد اتخذ في هذه المدرسة،[1] يؤيد هذا ما ذكره ابن خلكان عند حديثه عن مدرسة والده عِزّ الدين مسعود فقال: " ومدرسة ولده نور الدين أرسلان شاه في قبالتها، وبينهما ساحة كبيرة"،[2] ويتابع الديوه جي قوله: "إن مدرسة عِزّ الدين مسعود - العِزيّة - تُعرف اليوم بمشهد الإمام عبدالرحمن - ويفصل بينها وبين المدرسة النُوريّة - مقام الإمام محسن - ساحة واسعة - يقول الديوه جي " أدركنا هذه الساحة وهي أرض خالية من العمارة، تقع في الميدان الذي كان أمام دُوُر المملكة".[3]

وممن درّس في هذه المدرسة الشيخ أبو حامد عماد الدين محمد بن يونس بن منعة الموصِلي المتوفى سنة ٦٠٨هـ (١٢١١م) ضمن المدارس التي درّس فيها بالموصل،[4] وقد ذكر ابن خلكان أن أبا حامد محمد بن يونس كان له تأثير بالغ على الملك نور الدين أرسلان شاه لدرجة أنه تمكّن من تحويله عن مذهب أبي حنيفة إلى المذهب الشافعي، ولم يُوجد في بيت أتابك مع كثرتهم شافعي سواه،[5] وهذا الأمر جعل نور الدين يتعصب لمذهب الشافعي، ويأمر بتدريسه في مدرسته هذه دون سواه من المذاهب، ولم تُشر المصادر إلى من تولى تدريس هذه المدرسة بعد عماد الدين بن منعة، كما أنه لم ترد عنها معلومات كافية بعد هذا التاريخ سوى ما يتعلق بتحويلها إلى مشهد للإمام محسن ابن الحسن بن علي بن أبي طالب كما هو مكتوب على باب المشهد[6] إضافة إلى ما أشارت إليه المصادر من قيام هذه المدرسة بنشاط علمّي في بداية القرن الثامن الهجري

---

(١) الموصل في العهد الأتابكي.- ص٤٣.
(٢) وفيات الأعيان.- ج٥، ص٢٠٧.
(٣) المرجع السابق.- ص١٤٣.
(٤) ابن خلكان. المصدر السابق.- ج٤، ص٢٥٣.
(٥) وفيات الأعيان.- ج٤، ص٢٥٤.
(٦) سوادي الرويشدي. إمارة الموصل.- ص٢١٢.

(الرابع عشر الميلادي) حيث جاء عن الشيخ العلامة أبي الفضائل ركن الدين حسن بن محمد بن شرف شاه الحُسينيّ العلوي الإستراباذيّ المتوفى سنة ٧١٥هـ (١٣١٥م)[١] أنه قدم الموصل ووُلّي تدريس هذه المدرسة النورية، وفُوّض إليه النظر في أوقافها، وبها صنّف أغلب مصنفاته،[٢] وبعد هذا التاريخ تنقطع عنا أخبار هذه المدرسة.

ويذكره الديوه جي أنه لم يبق منها ما يستحق الذكر، ويعتقد أن القسم الذي فيه مشهد الإمام محسن هو بناية المدرسة القديمة. أما ما كان يجاورها من مرافق فلم يبق لها أيّ أثر يذكر.[٣]

٩ ـ المدرسة القاهرية:

تُنسب هذه المدرسة إلى الملك القاهر عِزّ الدين مسعود بن نور الدين أرسلان شاه (٦٠٧ - ٦١٥هـ/١٢١٠ - ١٢١٨م) بناها بالموصل، ولما مات دُفِن بها في التربة التي أعدّها لنفسه.[٤] يقول عنه ابن الأثير: " وكان كريمًا حليمًا قليل الطمع في أموال الرعية".[٥]

أما موقع المدرسة فلم ترد أية إشارة في المصادر إلى تحديده، وإنما يرى الديوه جي أنها كانت تقع بين المدرسة النُورية (مقام الإمام محسن) والباب العِمادي.[٦] قال ابن الأثير عند كلامه عن مؤسسها الملك القاهر: " وكان عنده رِقة شديدة، ويكثر ذكر

---

(١) هو الشيخ الإمام العلامة السيد ركن الدين حسن بن محمد بن شرف شاه الحُسيني الإستراباذي، قدم مراغة واشتغل على النصير الطُوسي، وحصّل منه علومًا كثيرة، ثم انتقل إلى الموصل ودرّس بالمدرسة النورية، وبها صنّف غالب مصنفاته (الذهبي. العبر.- ج٤، ص ٤١ ؛ ابن تغري بردي. النجوم الزاهرة.- ج٩، ص٢٣١ ؛ السيوطي. بغية الوعاة.- ج ١، ص٥٢١-٥٢٢)

(٢) ابن تغري بردي. المصدر السابق.- ج٩، ص٢٣١ ؛ السيوطي. المصدر السابق.- ج ١، ص ٥٢٢.

(٣) الموصل في العهد الأتابكي.- ص١٤٤.

(٤) ابن خلكان. وفيات الأعيان.- ج٥، ص٢٠٨.

(٥) الكامل في التاريخ.- ج٩، ص٣١٩.

(٦) الموصل في العهد الأتابكي.- ص١٤٦.

الموت حكى لي بعض من كان يلازمه قال كنّا ليلة قبل وفاته بنصف شهر عنده فقال لي قد وجدت ضجرًا من القعود، فقُم بنا نتمشى إلى الباب العمادي قال: فقمنا فخرج من داره نحو الباب العمادي، فوصل التربة التي عملها لنفسه عند داره فوقف عندها مفكرًا لا يتكلم ثم قال لي: والله مما نحن في شيء أليس مصيرنا إلى همنا وندفن تحت الأرض، وأطال الحديث في هذا ونحو ... "،[1] وقال عنه ابن خلكان: إنه دُفِن في مدرسته،[2] وعلى هذا يكون المدفن (التربة) الذي عمله لنفسه داخل المدرسة التي بناها قرب الباب العمادي. ولم يبق للمدرسة القاهرية أثر في الوقت الحاضر.

وقد ذُكر أن أول من درّس في هذه المدرسة هو: الشيخ كمال الدين موسى بن يونس ابن منعة العقيلي المتوفى سنة ٦٣٩هـ (١٢٤٢م)[3] ذكر ذلك ابن خلكان بقوله عنه: " ولما فتحت المدرسة القاهرية تولاها، ثم تولى المدرسة البدرية في ذي الحجة سنة عشرين وستمائة"،[4] كما درّس بها ابنه أبو الفضل شرف الدين أحمد المتوفى سنة ٦٢٢هـ (١٢٢٥م)[5] قال عنه ابن خلكان: "ثم انتقل إلى الموصل في سنة سبع عشرة وستمائة، وفُوّضت إليه المدرسة القاهرية، وأقام بها ملازم الاشتغال والإفادة إلى أن

(١) الكامل.- ج٩، ص٣١٩.

(٢) المصدر السابق.- ج٥، ص٢٠٨.

(٣) سبقت ترجمته في الفصل الثالث.

(٤) وفيات الأعيان.- ج٥، ص٣١٦.

(٥) هو أبو الفضل أحمد بن كمال الدين موسى بن يونس بن منعة العقيلي الإربلي الملقب شرف الدين، الفقيه الشافعي، كان إمامًا كبيرًا فاضلاً عاقلاً، حسن السمت جميل المنظر، شرح كتاب " التنبيه" في الفقه وأجاد شرحه، واختصر " إحياء علوم الدين" للإمام الغزالي مختصرين كبير وصغير، وكان كثير المحفوظات غزير الفائدة، درس ابن خلكان على يديه في إربل بالمدرسة المُظفريّة، وقال عنه: " ما سمعت أحدًا يلقي الدروس مثله: كما انتقل إلى الموصل سنة ٦١٧هـ (١٢٢٠م) ودرّس بالمدرسة القاهرية ولازم التدريس حتى توفي في حياة والده في ربيع الآخرة سنة ٦٢٢هـ (١٢٢٥م)، وكانت ولادته بالموصل سنة ٥٧٥هـ (١١٧٩م) (ابن خلكان. وفيات الأعيان.- ج ١، ص١٠٨-١٠٩ ؛ السبكي. طبقات الشافعية.- ج٨، ص٣٩-٤٠ ؛ الأسنوي. طبقات الشافعية.- ج٢، ص٥٧٢-٥٧٣).

توفي"،[1] كما درّس بها الإمام محمد بن علي سبط الشيخ يونس بن منعه العقيلي، والمتوفى سنة ٦٢٢هـ (١٢٢٥م)[2] قال عنه الأسنوي: "ودرّس بالمدرسة القاهرية، وبالجامع المجاهد، ولم يزل على قدم التدريس والإفتاء، إلى أن توفي بالموصل سنة اثنين وعشرين وستمائة"،[3] كما درّس في هذه المدرسة الشيخ عِز الدين أبو محمد عبدالوهاب بن إبراهيم الخزرجي الزنجاني المتوفى سنة ٦٦٠هـ (١٢٦١م)،[4] وقد ذكر حاجي خليفة أن الشيخ عبدالوهاب الزنجاني قد أتمّ تأليف كتاب: "المُعرّب عما في الصِحاح والمُغّرب" في هذه المدرسة في صفر سنة ٦٣٧هـ (١٢٣٩م).[5]

١٠ ـ المدرسة البدرِيّة:

أنشأ هذه المدرسة أبو الفضائل بدر الدين لؤلؤ بن عبدالله المتوفى سنة ٦٥٧هـ (١٢٥٩م)،[6] وكان بناؤها قد تمّ قبل سنة ٦١٥هـ (١٢١٨م) ذكر ذلك ابن كثير في ترجمته لأبي المظفر محمد بن علوان بن مهاجر الموصلي المتوفى في ذلك التاريخ، فقال: "ثم عاد إلى الموصل فساد أهل زمانه بها، وتقدم في الفتوى والتدريس بمدرسة بدر

(١) وفيات الأعيان.- ج ١، ص١٠٨.
(٢) هو محمد بن علي، الملقب بالإمام ابن بنت الرّضى يونس بن منعة العقيلي، تفقه بالموصل على خاله عماد الدين محمد المتوفى سنة ٦٠٨هـ (١٢١١م)، ودرس المذهب الشافعي على يديه، كما درس الخلاف، ودرس أيضًا على خاله كمال الدين موسى المتوفى سنة ٦٣٩هـ (١٢٤٢م)، وقد صنّف تصانيف عديدة منها شرح الوجيز للغزالي في ثمان مجلدات، وقد درس بالمدرسة القاهرية بالموصل.- وبمسجد مجاهد الدين قايماز، ولم يزل على التدريس حتى وفاته بالموصل سنة ٦٢٢هـ (١٢٢٥م) (الأسنوي. المصدر السابق.- ج٢، ص٥٧٣-٥٧٤).
(٣) طبقات الشافعية.- ج٢، ص٥٧٤.
(٤) سبقت ترجمته في الفصل الرابع.
(٥) كشف الظنون.- ج٢/ ١٨٣٨، ولم يشر حاجي خليفة إلى مصادر هذه المعلومة، وربما أنها كانت مدوّنة في كتاب "المُعرّب".
(٦) ابن خلكان. وفيات الأعيان.- ج٧، ص٣٣٨؛ ابن الفوطي. الحوادث الجامعة.- ص٣٣٧.

الدين لؤلؤ وغيرها، وكان صالحًا دينًا"،[1] وعلى هذا فالمدرسة البدرية بُنيت قبل وفاة ابن مهاجر المذكور سنة ٦١٥هـ (١٢١٨م) وقد انصرف بدر الدين لؤلؤ على الاهتمام بشؤونها دون المدارس الأخرى، بحيث صارت لها أهمية خاصة، فإشارات المؤرخين إليها تُؤكد أهميتها باعتبارها ميدانًا مُهمًّا لنشاطات العلماء العلمية المختلفة مثل تدريس العلوم المختلفة وإلقاء المحاضرات فيها وتقديم نتاجاتهم في الأبحاث المختلفة وإقامة المناظرات والندوات العلمية والأدبية.[2]

وقد حدد كل من ابن خلكان وابن الفوطي موقع هذه المدرسة على شاطئ دجلة يقول ابن خلكان في ترجمته لابن الشّعار: " وولاه بدر الدين لؤلؤ خازنًا بخزانة كتب المدرسة التي أنشأها على دجلة."[3] وفي موضع آخر يقول ابن خلكان : " وأما الأمير بدر الدين لؤلؤ المذكور، فإنه توفي يوم الجمعة ثالث شعبان سنة سبع وخمسين وستمائة بقلعة الموصل، ودفن بها في مشهدٍ هناك".[4] أما ابن الفوطي فذكر في حوادث سنة ٦٥٦هـ (١٢٥٨م) عند كلامه عن بدر الدين لؤلؤ ما يأت ي: " تُوفي بها - الموصل - في شعبان، كان قد توجه إلى السلطان - هولاكو - بعد واقعة بغداد أيضًا، فأنعم عليه، وأعاده، فلما دخل الموصل مُرِض أيامًا ومات، وعمره نحو ثمانين سنة، ملك الموصل خمسين سنة ودُفن بالقلعة، ثم نُقِل إلى مدرسة أنشأها على شاطئ دجلة تُعرف بالبدرية"،[5] وعلى هذا فإن بدر الدين لؤلؤ توفي بالقلعة، ودُفن بها، ثم نُقل إلى مدرسته التي تقع على شاطئ دجلة.

---

(١) البداية والنهاية.- ج ١٣، ص٨٢ ؛ ونقل عنه العيني في عقد الجمان (مخطوط) - ج ١٣، ص ٣٨٩.

(٢) ابن خلكان. المصدر السابق.- ج٥، ص٣١٦ ؛ السبكي. طبقات الشافعية.- ج٨، ص ٣٨٥ ؛ ابن أبي أصيبعة. عيون الأنباء.- ص٤١٠-٤١١.

(٣) وفيات الأعيان.- ج٧، ص٣٣٨.

(٤) المصدر نفسه.- ج ١، ص١٨٤.

(٥) الحوادث الجامعة.- ص٣٣٧.



ويذكره الديوه جي أن هذه المدرسة تقع حاليًا في شمال الموصل تُشرف على نهر دجلة وما يحيط به من حقول وبساتين، وموقعها هذا من أنزه الأماكن في الموصل، ولم يبق من المدرسة سوى المشهد الذي كان فيها، وهو من أنفس العمارات التي شُيّدت في العصر الأتابكي لما يحويه من النقوش والزخارف والكتابات المتنوعة داخل البناء وخارجه.[1]

ومن تذكر المصادر أنه قام بالتدريس في هذه المدرسة كلّ من:

- الشيخ محمد بن علوان بن مهاجر المتوفى سنة ٦١٥هـ (١٢١٨م).[2]
- الشيخ كمال الدين موسى بن يونس بن منعة العُقيلي المتوفى سنة ٦٣٩هـ (١٢٤٢م)، وقد ذكر ابن خلكان أنه تولى تدريس هذه المدرسة في ذي الحجة سنة ٦٢٠هـ (١٢٢٤م).[3]

ومن أعاده في هذه المدرسة كلّ من:

- الفقيه إسماعيل بن باطِيش المتوفى سنة ٦٥٥هـ (١٢٥٧م)،[4] فقد تولى خزانة مكتبة المدرسة البدرية في حياة مؤسسها بدر الدين لؤلؤ، وكان ابن باطيش معيدًا بها.[5]
- الشيخ أثير الدين الأبهرِي[6]، وكان معيدًا عند الشيخ كمال الدين بن منعة وكان يقول: "ما تركت بلادي وقصدت الموصل إلا للاشتغال على الشيخ".[7]

---

(١) الموصل في العهد الأتابكي.- ص١٤٨-١٤٩.
(٢) ابن كثير. البداية والنهاية.- ج ١٣، ص٨٢.
(٣) وفيات الأعيان.- ج٥، ص٣١٦.
(٤) سبقت ترجمته في الفصل الثاني.
(٥) ابن الفوطي. تلخيص مجمع الآداب.- ج٤، ق٢، ص٦٨٤.
(٦) سبقت ترجمته في الفصل الثالث.
(٧) ابن خلكان. المصدر السابق.- ج٥، ص٣١٣.



وقد استمرت المدرسة البدرية في نشاطها حتى سنة ٦٣٧هـ (١٢٣٩م) حينما انصرف بدر الدين عن الأمور التعليمية وعمد إلى تحويل أكثر المدارس بالموصل إلى مراقد ومشاهد لأبناء علي بن أبي طالب، فقام بتحويل هذه المدرسة إلى مرقد للإمام يحي ابن القاسم بن الحسن بن علي بن أبي طالب، وقد كتب نص ذلك على قفص من الخشب وجد داخل المدرسة.[١]

جـ ـ دور الحديث:

ركّزت أغلب المدارس التي أنشئت بالموصل في العهد الزنكي على تدريس الفقه وِفق مذهب أو أكثر من المذاهب الفقهية، بينما وجدت في هذا العهد مدارس تخصصية تعنى بالدراسات المتعلقة بعلوم الحديث الشريف دون غيره من العلوم الشرعية وهي ما أطلق عليها " دُوُر الحديث ". وكان لهذه الدُوُر أثر بارز في دراسة الحديث الشريف وما يتعلق به من علوم، وكانت أبرز دُوُر الحديث التي أنشئت بالموصل في ذلك العهد مايأتي:

١ ـ دار الحديث المُهاجرية:

أنشأها أبو القاسم علي بن مُهاجر الموصلي،[٢] ذكر ذلك ابن الفوطي بقوله: "وكان من أهل الخير، والصلاح، والسماح، وبنى بالموصل في سكة بني نجيح دار الحديث، ووقف عليها الوقوف الحسنة والكُتب النفيسة"،[٣] ولم يعلم بالتحديد سنة

---

(١) سعيد الديوه جي.- الموصل في العهد الأتابكي.- ص١٥٠.

(٢) هو مُعين الدين أبو القاسم علي بن علوان بن مهاجر بن علي التكرِيتي، ثم الموصلي، الوزير بسنجار، كان من أولاد الأكابر والوزراء، وبيتهم معروف بالفضل والحشمة، والنبل، وكان هو من أهل الخير، ولم تُعلم سنة وفاته. (ابن الفوطي. تلخيص مجمع الآداب.- ج٤، ق١، ص١٩٣)

(٣) المصدر نفسه.- ج٤، ق١، ص١٩٣.

إنشاء هذه الدار، ولكنه من الثابت وجودها عام ٥٨٥هـ (١١٨٩م) وهي السنة التي نزل فيها الشيخ موفق الدين عبداللطيف البغدادي بها حينما قدم الموصل وتوليه مشيختها.[(١)]

وقد ذكر ابن المستوفي: أن أبا القاسم علي بن مهاجر قد بنى هذه الدار لأبي إسحاق إبراهيم بن البرني المتوفى سنة ٦٢٢هـ (١٢٢٥م)،[(٢)] وأنه فوّض إليه أمرها،[(٣)] وكان لابن البرني أثر في تحول علي بن مهاجر إلى المذهب الحنبلي، وكان شافعيًا.[(٤)]

وقد التبس الأمر على الديوه جي فجعل سنة وفاة شيخها ابن البرني عام ٥٥٢هـ (١١٥٧م) مما جعله يؤكد أن إنشاء هذه الدار كان في النصف الأول من القرن السادس الهجري،[(٥)] وهذا الأمر يخالف الحقيقة إذ أن ولادة ابن البرني كانت في ذي الحجة سنة ٥٤٦هـ (١١٥٢م) ووفاته في محرم سنة ٦٢٢هـ (١٢٢٥م) كما أجمعت مصادر ترجمته.[(٦)]

---

(١) ابن أبي أصيبعة. عيون الأنباء.- ص٦٨٦.

(٢) هو أبو إسحاق إبراهيم بن المظفر بن إبراهيم بن محمد بن علي بن سلمان الواعظ الحربي من أهل الحربية (محلة كبيرة ببغداد عند باب حرب) ويعرف بابن البرني حنبلي المذهب من المغالين فيه، وُلد ببغداد، ونشأ بها، ثم قدم الموصل فخرج بها إلى إربل ومن ثم إلى سنجار، وكان عالمًا متبحرًا روى عن جماعة من العلماء، وكان عنده لطف ودماثة درّس في دار الحديث المهاجرية بالموصل وكانت وفاته سنة ٦٢٢هـ (١٢٢٥م) (ابن المستوفي. تاريخ إربل.- ق١، ص ١٥٥-١٥٧ ؛ المنذري. التكملة لوفيات النقلة.- ج٣، ص١٣٦ ؛ الذهبي. العبر.- ج٣، ص ١٨٧ ؛ ابن تغري بردي. النجوم الزاهرة.- ج٦، ص٢٦٢ ؛ ابن العماد. الشذرات.- ج٥، ص٩٩)

(٣) تاريخ إربل.- ق١، ص١٥٥.

(٤) المصدر السابق.- ق١، ص١٥٥ ؛ المنذري. التكملة.- ج٣، ص١٣٦

(٥) الموصل في العهد الأتابكي.- ص١٥٤.

(٦) أنظر مصادر ترجمته في الصفحة السابقة.

أما موقع هذه الدار فكان في سكة بني نجيح بالموصل أسفل المدرسة المهاجرية،[1] وقد حدد الديوه جي هذا الموقع بأنه كان في مسجد الملاّ حسن، وهو المسجد المعروف في الوقت الحاضر بمسجد شطّ الجوي، وأن المسجد المذكور على هيئة المدرسة، وهو في اللحف الشرقي لتل قُليعات بالموصل، فيحتمل أنه بعد خراب دار الحديث المُهاجِريّة اتخذ مكانها مسجدًا للصلاة، وهو في الوقت الحاضر مسجد صغير تقام فيه الفروض.[2]

ومن تولى مشيخة هذه الدار:

- الشيخ أبو إسحاق بن البرني المتوفى سنة ٦٢٢هـ (١٢٢٥م) ويبدو أنه أول من تولى مشيختها، قال عنه ابن المستوفي: " وبنى أبو القاسم علي بن المهاجر ابن علي دار حديث بالموصل ورد أمرها إليه ليسمع فيها، فكان يسمع فيها الحديث".[3]

- وممن تولى مشيختها أيضًا الشيخ موفق الدين عبداللطيف البغدادي المتوفى سنة ٦٢٩هـ (١٢٣١م)،[4] وقد نقل عنه ابن أبي أصيبعة أنه دخل الموصل سنة ٥٨٥هـ (١١٨٩م) وأنها عُرضت عليه مناصب عديدة، فاختار منها التدريس بالمدرسة المهاجرية المعلقة ودار الحديث التي تحتها، وأنه مكث في الموصل سنة في اشتغال دائم متواصل ليلاً ونهارًا.[5]

---

(١) ابن أبي أصيبعة. عيون الأنباء.- ص٦٨٦ ؛ ابن الفوطي. تلخيص مجمع الآداب.- ج٤، ق٢، ص٦٧٥.
(٢) الموصل في العهد الأتابكي.- ص١٥٠-١٥١.
(٣) تاريخ إربل.- ق١، ص١٥٥.
(٤) سبقت ترجمته ضمن مدرسي المدرسة المُهاجرية بالموصل.
(٥) سعيد الديوه جي.- الموصل في العهد الأتابكي.- ص١٥٠.

وممن تولى مشيخة هذه الدار: الشيخ عِزّ الدين أبو محمد عبدالرزاق بن أبي الهيجاء الرسعِني المحدث المفسر المتوفى سنة ٦٦٠هـ (١٢٦٢م)[١] قال عنه بن الفوطي: " قدم الموصل سنة ٦٢٣هـ (١٢٢٦م) ورُتّب بدار الحديث المهاجرية بسكة بني نجيح التي أنشأها أبو القاسم علي بن مهاجر الموصلي ".[٢]

٢ـ دار الحديث المُظفّرِيّة:

بناها الملك المعظم أبو سعيد مُظفّر الدين كُوكبُورِيّ صاحب إربل المتوفى سنة ٦٣٠هـ (١٢٣٣م)،[٣] ولم يُعلم بالتحديد سنة إنشاء هذه الدار، أما موقعها فلم يتبين له تحديد

---

(١) هو عز الدين أبو محمد عبدالرزاق بن رزق الله بن أبي بكر بن خلف بن أبي الهيجاء الرسعني المحدث المفسر، صاحب التصانيف المفيدة في التفسير والحدث له كتاب " القمر المُنير في علم التفسير"، وكتاب " رموز الكنوز" في التفسير أيضًا: وغيرها من الكتب، وله أشعار كثيرة، وقد أجاز عامة، توفي في ذي الحجة سنة ٦٦٠هـ (١٢٦٢م) بسنجار. (ابن الفوطي. تلخيص مجمع الآداب.- ج٤، ق١، ص١٩٢ـ١٩٤).

(٢) المصدر نفسه.- ج٤، ق١، ص١٩٣.

(٣) هو ابن الأمير زين الدين علي بن بكتكين منشئ مسجد زين الدين (المدرسة الكمالية) والمدرسة الزينية، تولى إربل بعد وفاة أبيه سنة ٥٦٣هـ (١١٦٧م) وكان عمره أربع عشرة سنة، وكان أتابكة مجاهد الدين قايْماز متعصبًا عليه، حيث كتب محضرًا أوضح فيه أنه لا يصلح للملك لصغره، وأقام أخاه زين الدين يوسف مكانه، وكان أصغر منه، ثم خرج مظفر الدين من إربل، وتوجه إلى بغداد، فلم يحصل بها مقصوده، فانتقل إلى الموصل ومالكها يومئذ سيف الدين غازي بن مودود، فاتصل بخدمته، وتقدم لديه، فاقطعه حرّان، فانتقل إليها وأقام بها مدة، ثم اتصل بخدمة السلطان صلاح الدين، وتمكّن منه، فزاده في الإقطاع الرّها سنة ٥٧٨هـ (١١٨٢م) ثم أعطاه سُمَيْساط. وبعد وفاة أخيه يوسف أعطاه صلاح الدين إربل وشهرزُور، وأخذ منه مابيده، ودامت أيامه على ذلك حتى وفاته، وكان مشهورًا بحبّ أعمال الخير، وبذل المعروف توفي في رمضان سنة ٦٣٠هـ (١٢٣٣م) وكانت ولادته بقلعة الموصل سنة ٥٤٩هـ (١١٥٤م) (أبو شامة. ذيل الروضتين.- ص١٦١ ؛ ابن خلكان. وفيات الأعيان.- ج٤، ص١١٣-١٢١ ؛ الذهبي. العبر.- ج٣، ص٢٠٨).

دقيق في المصادر سوى ما ذكره ابن المستوفي من أنها تُطلّ على الشطّ بالقرب من باب الأذان.[1]

وممن تولى مشيخة هذه الدار: الشيخ الإمام الحافظ أبو محمد عبدالقادر بن عبدالله الرّهاوي المتوفى سنة ٦١٢هـ (١٢١٥م).[2] قال عنه ابن المستوفي: " وولي التحديث بدار الحديث المُظفرِيّة بالموصل مدة قريبة، وانهدمت عن آخرها، وأعاد عمارتها على غير ما كانت عليه، ورحل عن الموصل فهو الآن بحرّان"،[3] وذكر ابن الفوطي أنه أقام بها مدة يُحدّث الناس، وقد ازداد إقبال طلبة العلم عليه.[4]

وممن تولى مشيخة هذه الدار الشيخ أبو عبدالله محمد بن عمر المقدسي المتوفى سنة ٦١٦هـ (١٢١٩م)[5] قال عنه ابن المستوفى: " سكن الموصل فتولى مشيخة دار الحديث بها المطلّة على الشطّ بالقرب من باب الأذان، التي وقفها الفقير إلى الله أبو سعيد كُوكبُوري بن علي ".[6]

---

(١) تاريخ إربل.- ق١، ص١٣٢، ولم أجد ذكرًا لهذا الباب في المصادر الأخرى، وأظن الكلمة محرّفة عن الميدان وهو أحد أبواب الموصل.- وقد ذكره ابن خلكان. وفيات الأعيان.- ج٢، ص١٧، ٣٨٣.- ج٤، ص٢٤٨.

(٢) سبقت ترجمته في الفصل الرابع.

(٣) المصدر السابق.- ق١، ص١٣٢.

(٤) تلخيص مجمع الآداب.- ج٤، ق٢، ص١٠٩٧.

(٥) هو أبو عبدالله محمد بن عمر بن أبي بكر بن عبدالله بن سعد المقدسي الأصل الدمشقي المولد المعروف بالقاضي، أحد المقادسة الذين رحلوا في طلب الحديث، وأخذوه عن مشايخ العراق، ونيسابُور وغيرهم، تولى مشيخة دار الحديث المُظفريّة بالموصل ثم قدم مصر وحدّث بها، ثم قد سروُج وحدث بها وبها كانت وفاته في جمادى الأولى سنة ٦١٦هـ (١٢١٩م) (ابن المستوفي. المصدر السابق.- ق١، ص١٦٨، المنذري. التكملة لوفيات النقلة.- ج٢، ص٤٦٦.

(٦) المصدر السابق.- ق١، ص١٦٨.

كما تول مشيختها الشيخ أبو عبدالله الحسين بن عمر بن باز المتوفى سنة ٦٢٢هـ (١٢٢٥م)[١] قال عنه ابن المستوفي أيضًا: " وهو اليوم مقيم بالموصل بدار الحديث التي أنشأها وجددها الفقير إلى الله تعالى - أبو سعيد كُوكُبوري بن علي، له إيجاب من وقفها، يُسمع الحديث بها".[٢]

د ـ الخوانق والرّبُط:

وُجدت إلى جانب دُوُر التعليم السابقة مراكز كان لها أثر مهم في نشر التعليم في ذلك الوقت وهي: " الخوانق والرُبُط" التي لم يقتصر دورها على التعبد والتزهد بالنسبة للصوفية، بل قامت بمهام تعليمية مشابهة لما قامت به دُوُر التعليم الأخرى وإن لم يكن الهدف الأساسي من إنشائها هو القيام بأغراض التعليم، وإنما بُنيت بقصد إيواء الصوفية والانقطاع فيها لعبادة الله تعالى، والبعد عن مشاغل الحياة الدنيوية.

وقد كان بالموصل في العهد الزنكي رُبُط عديدة شاركت في نشاط الحياة العلمية في ذلك العهد، حيث كانت مراكز للتعليم والتثقيف والتأليف إلى جانب قيامها بوظائف التصوّف التي أنشئت من أجلها، ومن الملاحظ هنا أنه لم يفرق بين الخانقاه والرّباط في الموصل كما حصل في بعض مناطق الشام في ذلك العهد.[٣]

---

(١) هو أبو عبدالله الحسين بن عمر بن نصر بن الحسين بن سعد بن عبدالله بن باز الموصلي كان مولده بالموصل في ذي الحجة سنة ٥٥٢هـ (١١٥٨م) وبها سمع من والده، وممن غيره وسمع ببغداد من جماعة من العلماء، كما قدم الشام، ومصر، وحدث بالموصل.- وإربل وولي مشيخة دار الحديث المظفرية بالموصل.- وتوفي بالموصل سنة ٦٢٢هـ (١٢٢٥م) (ابن المستوفي. تاريخ إربل.- ق١، ص١٨٣ـ١٨٤ ؛ المنذري. التكملة.- ج٣، ص١٤٣ـ١٤٤ ؛ وقد ذكر أن له منه إجازة كتبها في الموصل سنة ٦٠٨هـ (١٢١١م) (ابن العماد. الشذرات.- ج ٥، ص١٠٠)

(٢) المصدر السابق.- ق١، ص١٨٤.

(٣) راجع المبحث الخاصّ بذلك (الفصل الثاني).

وكان من أشهر الرّبُط التي كانت قائمة بالموصل في ذلك العهد ما يأتي:

١ - رّباط الملك سيف الدين غازي:

أنشأه بالموصل الملك سيف الدين غازي بن عماد الدين (٥٤١-٥٤٤هـ/١١٤٦-١١٤٩م) وهو الرباط المجاور لباب المشرعة، وقد أوقف عليه الأوقاف الكثيرة لتفي باحتياجاته،[١] ويذكره الديوه جي أن هذا الرّباط لا يزال موجودًا إلى اليوم، وهو ما يعرف بمقام عيسى دده .. ويقع على نهر دجلة على باب المشرعة.[٢]

٢ - رّباط الوزير جمال الدين الأصفهاني:

يُنسب هذا الرّبَاط للوزير الموصلي جمال الدين محمد بن علي الأصفهاني المعروف بالجواد المتوفى سنة ٥٥٩هـ (١١٦٤م).[٣]

وقد ذكر عنه ابن الأثير أنه: "بنى الرّبُط بالموصل، وسِنجار، ونِصيبين وغيرها"،[٤] فلعل ذلك الرباط من تلك الرُّبُط التي ذُكر أنه بناها بالمنطقة، ولكنه لم يعثر في المصادر على أي تحديد لموقع هذا الرّباط، ولم يبق له أي أثر في الوقت الحاضر.

٣ - الرّبَاط الزيني:

لم يقتصر بناء الرّبُط على الملوك الزنكيين بل تبعهم في ذلك أمراؤهم ووزرائهم، فأنشأوا الكثير من الرّبُط في الموصل وغيرها كما أنشأوا دُوُر التعليم الأخرى، وكان ممن أنشأ رباطًا بالموصل الأمير زين الدين عليَ بن بُكتِكِين المتوفى سنة ٥٦٣هـ (١١٦٧م) منشئ مسجد زين الدين (المدرسة الكمالية) والمدرسة الزينية، فقد ذكر عنه ابن الأثير

---

(١) ابن الأثير. التاريخ الباهر.- ص٦٣ ؛ سبط ابن الجوزي. مرآة الزمان.- ج٨، ق١، ص٢٠٤.

(٢) الموصل في العهد الأتابكي.- ص١٥٥.

(٣) سبقت ترجمته في التمهيد.

(٤) التاريخ الباهر.- ص١٢٩.

أنه: "بنى مدارس ورُبُطًا بالموصل وغيرها"،[1] وكان من ضمنها هذا الرّباط الذي بناه بالموصل، ولم تحدد مصادر البحث موقع هذا الرّباط، كما أنها لم تُشر إلى من تولى مشيخته.

٤ ـ رّباط ابن الشهرزوري:

لم تحدد مصادر البحث المؤسس لهذا الرّباط بصورة واضحة، غير أن هناك إشارة لابن خلكان ذكر فيها أن القاضي أبا الفضل كمال الدين محمد بن الشهرزوري المتوفى سنة ٥٧٢هـ (١١٧٦م)[2] قد أوقف أوقافًا كثيرة بالموصل، ونصيبين ودمشق،[3] فلعل ذلك الرّباط من تلك الأوقاف التي أوقفها بالموصل.

وأول إشارة إلى هذا الرّباط ونسبته لابن الشهرزوري وردت عند ابن خلكان في ترجمته للشيخ عز الدين أبو القاسم بن عقيل بن نصر الإربلي المتوفى سنة ٦١٩هـ (١٢٢٢م)، حيث ذكر أنه سكن ظاهر الموصل في رّباط ابن الشهرزوري، وقرر له صاحب الموصل راتبًا، ولم يزل هناك حتى توفي.[4]

٥ ـ الرّباط المُجاهدي:

يُنسب هذا الرّباط للأمير مجاهد الدين قايماز والي القلعة بالموصل والمتوفى سنة ٥٩٥هـ (١١٩٩م).[5]

وقد ذكره ابن الأثير بقوله: "وفي سنة اثنتين وسبعين شرع مجاهد الدين في عمار جامعه بظاهر الموصل بباب الجسر، وهو من أحسن الجوامع، ثم بنى بعد ذلك الرّباط والمدرسة والبيمارستان وكلها متجاورة".[6]

(١) المصدر نفسه.- ص١٣٦.
(٢) سبقت ترجمته في الفصل الأول.
(٣) وفيات الأعيان.- ج٤، ص٢٤٢.
(٤) المصدر نفسه.- ج٢، ص٢٣٩.
(٥) سبقت ترجمته في الفصل الأول.
(٦) التاريخ الباهر.- ص١٧٧.

كما ذكره ابن خلكان وسمّاه " خانِقاه" بقوله عن مجاهد الدين: " وأثر بالموصل آثارًا جميلة، منها أنه بنى بظاهرها جامعًا كبيرًا ومدرسة وخانقاه، والجميع متجاورة"،[1] وتسمية ابن خلكان لهذا الرّباط " خانقاه" يدعم فكرة عدم التفريق بين الخانقاه والرباط بالموصل في ذلك العهد. كما ذكر ابن الساعي هذا الرّباط في ترجمته لمجاهد الدين، وقد ذكر أن " له آثار حسنة من ذلك أنه بنى جامعًا بظاهر الموصل، وبنى إلى جنبه مدرسة للشافعية ورّباطًا للصوفية، ومارستانًا للمرضى إلى غير ذلك".[2] ويظهر من هذه النصوص جميعًا أن الجامع والمدرسة والرّباط والبيمارِستان كلها متجاورة، ولكن لم يبق من هذه الآثار جميعها سوى المسجد الجامع الذي يُطلق عليه جامع الخضر حاليًا.

٦ ـ رّباط درب دارّج:

يُنسب هذا الرّباط للإمام أبي السعادات مجد الدين المبارك بن أبي الكرم بن الأثير الجزري المتوفى سنة ٦٠٦هـ (١٢١٠م)،[3] وقد ذكره ابن خلكان في ترجمته لمجد الدين ابن الأثير فقال: " وكانت وفاة مجد الدين المذكور بالموصل، يوم الخميس سلّخ ذي الحجة سنة ست وستمائة، ودفن برباطه بدرْب درّاج داخل البلد، رحمه الله تعالى".[4]

٧ـ رباط قصر حرب:

يُنسب هذا الرّباط للإمام أبي السعادات مجد الدين بن الأثير (منشئ رّباط درب درّاج السابق)، وقد ذكر ذلك ابن خلكان في ترجمته لأبي السعادات بن الأثير.[5]

وقد ذكر المؤرخ عز الدين بن الأثير المتوفى سنة ٦٣٠هـ (١٢٣٢م) عن قصر حرب

(١) وفيات الأعيان.- ج٤، ص٨٢.
(٢) الجامع المختصر.- ج٩، ص٨.
(٣) سبقت ترجمته في الفصل الثالث.
(٤) وفيات الأعيان.- ج٤، ص١٤٣.
(٥) المصدر نفسه.- ج٤، ص١٤٢.

أنه: "يُعرف إلى اليوم بقصر حرب، وفيه وُلدت زُبيدة بنت جعفر زوجة الرشيد، وعنده يومنا هذا قرية كانت مُلكًا لنا فبنينا فيها رِّباطًا للصوفية وقفنا القرية عليه، قد جمعت كثيرًا من هذا الكتاب في هذه القرية في دار لنا بها وهي من أنزّه المواضع وأحسنها".[(١)]

ويذكر الديوه جي أنّ قصر حرب تقع قرب الزكرُوطِيّة بالموصل، ولم تزل بقايا القصر موجودة حتى الآن.[(٢)]

وكانت تلك الرُّبُط عامرة بالفقهاء والعلماء يقصدها طلبة العلم للبحث والدراسة حتى فاق بعضها المدارس في الاشتغال بالعلم.

هـ - البيمارِستانات:

تعد البيمارستانات المكان الرئيسي لمهنة الطبّ من حيث التدريس والتطبيق، حيث كانت بمثابة مدارس تخصصية تعنى بالدراسات الطبية المتخصصة القائمة على الدراسة النظرية والتجربة العملية. وهذا الحال شبيه بالكليات الطبيّة المتخصصة الملحقة ببعض المستشفيات في الوقت الحاضر، وقد كان لكثير من البيمارستانات في العهد الزنكي أثر كبير في إثراء الدراسات الطبية إلى جانب قيامها بمهمتها الرئيسية معالجة المرضى.

وكانت البيمارستانات في بلاد الشام أوسع انتشارًا من بلاد الموصل حيث لم ينشأ بالموصل في تلك المدة سوى بيمارستان واحد هو:

البيمارستان المُجاهدي:

وينسب هذا البيمارستان لمؤسسه الأمير مجاهد الدين قايماز المتوفى سنة ٥٩٥هـ

(١) الكامل في التاريخ.- ج٥، ص٢٠.
(٢) الموصل في العهد الأتابكي.- ص١٥٨.



(١١٩٩م)، وكان له أعمال خيرية عديدة بالموصل،[١] وقد ذكره ابن جبير في زيارته للموصل سنة ٥٨٠هـ (١١٨٤م) حينما وصف الجامع المجاهدي فقال: " وأمامه مارستان حفيل من بناء مجاهد الدين المذكور "[٢]

ولم يبق من آثار مجاهد الدين قايماز سوى المسجد الجامع الذي يسمى حاليًا " جامع الخضر " أو الجامع الأحمر،[٣] أما البيمارستان فقد اندثرت معالمه ولم يبق له أي أثر مع ما اندثر من العمائر والمدارس والأماكن الخيرية التي بُنيت في ذلك العهد.

كما أن المصادر والمراجع التي تيسر الوقوف عليها لم تُشر على أي نشاط علمي قام به هذا البيمارستان ولا من تولى مهنة التطبيب به. ولكن مما لاشك فيه أنه كان له أطباء وموظفون وصيادلة كما هو الحال في أي مستشفى يقوم بمعالجة المرضى.

ثانيًا : حلب :

بدأت الحركة العلمية تبرز في حلب في بداية حكم الملك نور الدين محمود لها في عام ٥٤١هـ (١١٤٦م) والذي ركّز نشاطه منذ استلامه الحكم في تنفيذ سياسته الرامية إلى الوقوف بشدة أمام المذهب الشيعي الذي زاد انتشاره آنذاك في حلب، فحرص على تقويضه وإحلال المذهب السني مكانه، مما تطلب منه القيام بجهود علمية بارزة تجاه ذلك. كان منها تشجيع العلم والعلماء عن طريق إنشاء العديد من المدارس على مختلف المذاهب السنّية، وتوجيه التعليم وجهة سنية عن طريق تشجيع تدريس العلوم الشرعية، وقد جلب عددًا من العلماء الأكفاء لتولي تلك المهمة، وبهذه السياسة نجح

---

(١) منها الجامع، والمدرسة، والرّباط وغيرها من الأعمال التي قام بها في وجوه الخير. أنظر (ابن الأثير. التاريخ الباهر.- ص١٧٧ ؛ ابن الساعي. الجامع المختصر.- ج٩، ص٨ ؛ ابن خلكان. وفيات الأعيان.- ج٤، ص٨٢) .

(٢) الرحلة.- ص٢١٠.

(٣) سعيد الديوه جي.- جوامع الموصل.- ص٥٧.

نور الدين في إنقاذ حلب من تأصل الفكر الشيعي بها، وتمكّن من تحويلها إلى مركز من مراكز السنة بعد أن كانت قاعدة للمذهب الشيعي في المنطقة،[1] وقد أثمرت تلك الجهود أيضًا في دعم حركة التعليم في حلب حتى أصبحت من المراكز العلمية المشهورة التي جلبت أنظار العلماء من مختلف الأقطار الإسلامية. حيث قامت فيها نهضة علمية بارزة كان من مظاهرها إنشاء العديد من دُوُر التعليم على اختلاف تخصصاتها حتى بلغت بذلك مصاف المراكز العلمية المهمّة في العالم الإسلامي، بل ربما تفوقت عليها في بعض المجالات لما تميزت به حلب من موقع متوسط بين تلك المراكز، وإمكانات مادية وبشرية تفوق في بعض الأحيان إمكانات المراكز الأخرى، إضافة إلى استمرار النشاط العلمي بها في فترات لاحقة للحكم الزنكي في نفس القوة التي بدأ بها نظرًا لما لاقته تلك الإمارة من دعم وتشجيع مستمرين طيلة عصر نور الدين، والسلاطين الأيوبيين والمماليك من بعده.

وكانت أبرز دُوُر التعليم التي أنشئت في هذا العهد مايأتي:

أ ـ المساجد:

لقد شهدت المساجد في حلب نشاطًا علميًا واسعًا في مجال الدراسات الشرعية اللّغوية والأدبية، واستمرت تلك المساجد في نشاطها العلمي رغم انتشار المدارس في هذه المدينة، حيث أشارت المصادر إلى النشاط العلمي في أول جامع أنشئ في حلب وهو **"المسجد الجامع الكبير".**

وقد ذُكر أن موضع هذا الجامع كان بستانًا للكنيسة العظمى في أيام الرّومان، وهي منسوبة إلى هيلانة أو قسطنطين الملك باني القسطنطينية، ولما فتح المسلمون حلب صالحوا أهلها على موضع المسجد الجامع.[2]

---

(١) سبق الحديث عن جهود نور الدين محمود في نشر المذهب السني في حلب ضمن عوامل نشاط الحياة العلمية (الفصل الأول).

(٢) ابن شداد. الأعلاق الخطيرة.- (قسم حلب).- ص٣٠ ؛ ابن الشحنة. الدرّ المنتخب.- ص٦١.

وقد ذكر ابن شداد: أن هذا الجامع من بناء الخليفة الأموي سليمان بن عبدالملك (٩٦-٩٩هـ/٧٠٥-٧١٥م) هو الذي قام ببناء هذا المسجد.[١]

وفي شعبان سنة ٥٦٤هـ (١١٦٩م) في أيام الملك العادل نور الدين محمود قام الإسماعيلية بإحراق هذا الجامع، كما احترقت الأسواق المجاورة له، فقام الملك نور الدين وأمر ببنائه واجتهد في عمارته، ونقل إليه عمدًا من بُعادين، وقِنسرين لأن العمد التي كانت فيه قد تفطرت من النار، وقام بإضافة سوق قبلي الجامع إليه، واتسع به المسجد، وأوقف نور الدين عليه أوقافًا كثيرة.[٢]

ويقع هذا الجامع حاليًا في سويقة حاتم (أشهر حارات حلب وأقدمها) ويبعد الجامع عن قلعة حلب الكبرى مسافة نصف ميل تقريبًا من جهة الغرب. وبناؤه الحالي يرجع للعهد المملوكي باستثناء منارته التي يرجع تاريخها إلى سنة ٤٨٢هـ (١٠٨٩م).[٣]

أما النشاط العلمي في هذا الجامع فقد أشارت المصادر إلى وجود حِلق عديدة يجتمع حولها المشتغلون بالعلم أشهرها: " السارية الخضراء" التي كانت مخصّصة للدراسات الأدبية، كما كانت حِلق الأدب واللّغة والنحو تُعقد باستمرار في هذا الجامع إلى جانب قراءة القرآن الكريم والفقه،[٤] وقد أنشأ نور الدين في هذا الجامع زاويتان إحداهما لتدريس الفقه على المذهب المالكي، والأخرى لتدريس الفقه الحنبلي،[٥] وقد كان لهاتين الزاويتين نشاط علمي ملموس خلال فترة البحث وبخاصة في عصر مؤسسهما.

(١) المصدر السابق.- (قسم حلب).- ص٣١.

(٢) المصدر نفسه.- (قسم حلب)، ص٣٢ ؛ ابن الشحنة. المصدر السابق.- ص٦٣-٦٤.

(٣) ابن العديم. زبدة الحلب.- ج٢، ص١٠٥ ؛ ابن شداد. المصدر السابق (قسم حلب).- ص ٣٤.

(٤) ابن شداد. المصدر السابق (قسم حلب).- ص٣٨)

(٥) ابن شداد. الأعلاق الخطيرة (قسم حلب).- ص١٢١.

وبالإضافة إلى تدريس الفقه في هذا الجامع، فقد حظي علم الحديث باهتمام الملك نور الدين محمود توجيهًا منه لسياسة التعليم في عصره نحو الدراسات الشرعية ليدعم بها المذهب السني في حلب فأنشأ زاوية لتدريس علم الحديث في هذا الجامع، وأوقف عليها الأوقاف الكافية للصرف عليها ؛ وعلى المشتغلين بها.[1]

وعلى الرّغم من نشاط التعليم داخل جامع حلب بهذا الشكل، إلا أنه لم يتيسر لي الوقوف على إشارات في المصادر إلى وجود أي نشاط علمي في مساجد حلب الأخرى،[2] وقد ركزت المصادر على ذكر النشاط العلمي بهذا الجامع دون غيره من المساجد.

ب ـ المدارس:

كانت أول مدرسة أشارت المصادر إلى إنشائها في حلب: المدرسة الزُّجاجيّة الشافعية التي أنشأها الحاكم الأرتقي بحلب بدر الدولة أبو الربيع سليمان بن عبدالجبار ابن أرتق سنة ٥١٧هـ (١١٢٣م)؛[3] ثم تلا ذلك إنشاء العديد من المدارس في حكم نور الدين محمود بن زنكي (٥٤١ـ٥٦٩هـ/١١٤٦ـ١١٧٤م) وكان المذهب الشافعي والحنفي هما السائدان في مدارس حلب في ذلك العهد، وكانت أبرز تلك المدارس ما يأتي:

أولاً: المدارس الشافعية:

١ ـ المدرسة الزّجاجية:

تُعدّ هذه المدرسة من المدارس السابقة على الحكم الزنكي، فقد أنشأها بحلب بدر الدولة سليمان بن عبدالجبار الأرتقي سنة ٥١٧هـ (١١٢٣م)،[4] وقد سبقت الإشارة إلى

---

(١) المصدر نفسه. (قسم حلب).- ص١٢٢..

(٢) عن مساجد حلب الأخرى أنظر (ابن شداد، المصدر نفسه.- ص٥٩ـ٩٣ ؛ ابن الشحنة. الدرّ المنتخب.- ص٧٩ـ٨٩)

(٣) سبقت ترجمته في الفصل الأول.

(٤) ابن شداد. الأعلاق الخطيرة (قسم حلب).- ص٩٧ ؛ ابن خلكان. وفيات الأعيان.- ج ١، ص٢٤١.

بداية عمارتها ومعارضة الشيعة لذلك،[1] ولما ملك الأتابك عماد الدين زنكي بن قسيم الدولة آقسنقر حلب في سنة ٥٢٢هـ (١١٢٨م) نقل والده وكان مدفونًا في قرنْبِيّا،[2] فدفنه في شمالي هذه المدرسة، وزاد عماد الدين في وقفها للصرف على القُرّاء والمتفقهين المرتبين بها.[3]

وقد ذكر الطباخ نقلاً عن ابن العجمي صاحب "كنوز الذهب" أن هذه المدرسة سُميت باسم السوق الذي هي فيه، وكان هناك معملاً للزجاج، وقد ظهرت آثار هذا المعمل أثناء حفر أساس الفرن الموجود تجاه الحمام.[4]

وقد حرص الباحث على الوقوف على مكان هذه المدرسة في الوقت الحاضر، ولكن أهالي حلب ذكروا أنها اندثرت، وأصبحت دورًا للسكنى، ويغلب أن يكون مكانها الخان المعروف الآن بخان الطاف في محلة الجلُّوم.

أما مُدرّسي هذه المدرسة في العهد الزنكي فكان من أبرزهم:

شرف الدين أبو طالب عبدالرحمن الحلبي المتوفى سنة ٥٦١هـ (١١٦٦م).[5] حيث ذكر ابن شداد أنه لما اكتمل البناء في هذه المدرسة فوّض مُنشئها أمر التدريس والنظر بها للشيخ شرف الدين أبي طالب المعروف بابن العجمِيّ، وقد استمر شرف الدين مدرسًا

---

(١) ورد ذلك في المبحث الخاصّ بنشر المذهب السني. (الفصل الأول).

(٢) يذكر ابن شداد أن قرنبيّا مشهد يقع شرقي حلب أنشأه عماد الدين آقسنقر قسيم الدولة صاحب حلب، وكان هذا الموضع قديمًا يعرف بمقر الأنبياء فحرّفته العامة لهذا الاسم (المصدر السابق.- قسم حلب، ص٤٦).

(٣) المصدر نفسه (قسم حلب).- ص٩٧ ؛ ابن الشحنة. الدر المنتخب.- ص١١٠.

(٤) محمد راغب الطباخ. أعلام النبلاء.- ج٤، ص٢٥٠.

(٥) هو أبو طالب شرف الدين عبد الرحمن بن الحسن بن عبد الرحمن الحلبي، ويعرف أيضًا بابن العجمي، رحل بغداد وتفقه بها على جماعة، ثمّ عاد إلى حلب، وساد بها، وبنى بها مدرسة عرفت به، وكانت ولادته بحلب سنة ٤٨٠هـ (١٠٨٧م)، وتوفي بها في شعبان سنة ٥٦١هـ (١١٦٦م) (الذهبي. العبر.- ج٣، ص٣٦ ؛ السبكي. طبقات الشافعية.- ج ٧، ص١٤٧ ؛ الأسنوي. طبقات الشافعية.- ج٢، ص٤٤٠).

بها إلى أن توفي بحلب سنة ٥٦١هـ (١١٦٦م)،[١] وتولى التدريس بها بعده حفيداه مجد الدين طاهر بن نصر بن جهبل المتوفى سنة ٥٩٧هـ (١٢٠١م)،[٢] وأخوه زين الدين عبدالملك بن نصر بن جهبل المتوفى سنة ٥٩٠هـ (١١٩٤م)،[٣] وكانا من العلماء المتميزين والفضلاء المبرزين.[٤]

٢ ـ المدرس النِفَّريّة (النُوريّة)[٥]

أنشأها الملك العادل نور الدين محمود بن زنكي في سنة ٥٤٤هـ (١١٤٩م)،[٦] ولم تحدد مصادر البحث موقع هذه المدرسة، كما أغفلت المراجع الحديثة تتبع ذلك، ولكن المستشرق الفرنسي "إليسيف" ذكر أنها كانت تقع قرب حي تُركُمَان نحو باب العراق،

---

(١) ابن شداد. الأعلاق الخطيرة (قسم حلب).- ص٩٧.

(٢) مجد الدين طاهر بن نصر الله بن جهبل الحلبي الشافعي، كان عالمًا بالفقه، والفرائض والحساب سمع الحديث من جماعة، وصنّف للملك نور الدين محمود كتابًا في فضل الجهاد، ودرّس بحلب بالزّجاجية والنُوريّة، وهو أول من درّس بالمدرسة الصلاحية بالقدس الشريف، كانت وفاته بالقدس سنة ٥٩٦هـ ١٢٠١م) (الأسنوي. المصدر السابق.- ج١، ص٣٧١-٣٧٢؛ ابن قاضي شهبة. طبقات الشافعية.- ج٢، ص٣١؛ ابن العماد الحنبلي.- الشذرات.- ج٤، ص ٣٢٤).

(٣) عبدالملك بن نصر بن جهبل، يعرف بالزين، فقيه فاضل متدين، سمع بمكة، وحدّث ودرّس بحلب بالمدرسة الزّجاجيّة والنُوريّة وانتفع به جماعة، توفي بحلب في جمادى الآخرة سنة ٥٩٠هـ (١١٩٤م) (السبكي. المصدر السابق.- ج٧، ص١٨٨-١٨٩؛ الأسنوي. المصدر السابق.- ج ١، ص٣٧١)

(٤) ابن شداد. المصدر السابق (قسم حلب).- ص٩٧.

(٥) سميت النورية نسبة لمنشئها نور الدين محمود، ولكن لا يعلم أصل لتسميتها بالنِفَّريّة، وقد ذكر ابن الشحنة أخبار هذه المدرسة، ولكنه فصل بينها وبين النورية فجعلهما مدرستين، وذكر أنه لا يعلم لمن تنسب النفرية، ولم يورد عنها أي خبر (الدرّ المنتخب.- ص١١١) والحقيقة أن في فصلهما لبس عند ابن الشحنة فهما مدرسة واحدة كما تشير المصادر.

(٦) ابن شداد. الأعلاق الخطيرة (قسم حلب).- ص١٠٠.

وقد أقيم مكانها جامع المُوازِيني[1]، وآثار هذا الجامع باقية،[2] وكان الشيخ قطب الدين النيسابوري الطُريثيثي المتوفى سنة ٥٧٨هـ (١١٨٢م)[3] هو أول من وُلي التدريس في هذه المدرسة، وكان قد قدم إليها من دمشق؛[4] ثم ولي تدريسها بعده مجد الدين طاهر بن جهبل المتوفى سنة ٥٩٧هـ (١٢٠١م)،[5] ولم يزل مدرسًا بها إلى أن نُقل إلى القدس الشريف فدرّس به إلى أن توفي.[6]

٣ـ المدرسة العصْرونِيّة:

كان موقع هذه المدرسة في الأصل دارًا لأبي الحسن علي بن أبي الثُريّا وزير بني مِرداس[7] (أصحاب حلب) ولما جاء نور الدين محمود إلى حلب اشترى هذه الدار، وحوّلها مدرسة، وجعل فيها مساكن للمرتبين بها من الفقهاء وذلك سنة ٥٥٠هـ

(١) Elisseeff, N, Nur ad-Din, Institute of Francais de Damas, (1967 (tome III. P.916.

(٢) جامع المُوازيني يقع في محلة ساحة بزّة، أنشأه بحلب الأمير سيف الدين نائب حلب ثم دمشق من عتقاء الملك الظاهر برقوق المتوفى سنة ٨١٥هـ (١٤١٢م) ويُنسب هذا الجامع إلى خطيبه الشيخ شهاب الدين أحمد بن المُوازِيني (الطباخ. أعلام النبلاء.- ج ١، ص٤٨٢)

(٣) سبقت ترجمته في الفصل الأول.

(٤) ابن شداد. المصدر السابق (قسم حلب).- ص١٠٠ ؛ ابن الحنبلي الحلبي، محمود بن إبراهيم الحلبي (ت٩٧١هـ/ ١٥٦٣) الزّبد والضّرب في تاريخ حلب، تحقيق محمد التُونجي.- الكويت: مركز المخطوطات والتراث، ١٤٠٩هـ (١٩٨٨م).- ص٣٦.

(٥) سبقت ترجمته في الصفحة السابقة.

(٦) ابن شداد. المصدر السابق (قسم حلب).- ص١٠٠ ؛ الأسنوي. طبقات الشافعية.- ج ١، ص٣٧٢.

(٧) تُنسب هذه الأسرة إلى قبيلة بني كِلاب العربية، وقد حكمت حلب في الفترة مابين (٤١٥ـ٤٧٣هـ/ ١٠٢٤ـ١٠٨٠م) وكان ابن أبي الثُريا وزير محمود بن نصر بن صالح المرداسِيّ. (ابن العديم. زبدة الحلب.- ج٢، ص٧٠، ٤٨)

(١١٥٥م) حسب ما جاء في بعض المصادر التاريخية،[١] وبعد أن أتمّ نور الدين محمود بناء هذه المدرسة استدعى لها من نواحي سِنجار الإمام شرف الدين عبدالله بن أبي عصرون المتوفى سنة ٥٨٥هـ (١١٨٣م)،[٢] وفوّض إليه مهنة التدريس بها والنظر في أوقافها، وهو أولّ من درّس بها فعُرفت به ونُسبت إليه.[٣]

وفي الوقت الذي تحدثت فيه بعض المصادر عن بناء هذه المدرسة سنة (٥٥٠هـ) أشارت مصادر أخرى إلى أن نور الدين محمود استدعى شرف الدين عبدالله بن أبي عصرون من سنجار عام ٥٤٥هـ (١١٥٠م) وبنى له المدارس العصرُونيّة، ومنها عصرُونيّة حلب هذه. كما أشارت تلك المصادر إلى أن شرف الدين انتقل إلى دمشق لما ملكها نور الدين محمود سنة ٥٤٩هـ (١١٥٤م) وظلّ يُدرّس بها مدة، ثم عاد إلى حلب وأقام بها حتى سنة ٥٧هـ (١١٧٤م) حيث انتقل في ذلك التاريخ إلى دمشق وظلّ بها حتى وفاته.[٤]

ومما يرجح بناء هذه المدرس قبل عام ٥٥٠هـ (١١٥٥م) وبالتحديد عام ٥٤٥هـ (١١٥٠م) حادثة استدعاء شرف الدين بن أبي عصْرُون من الموصل أو سِنجار ليتسلم تدريس هذه المدرسة، وقدوم الشيخ قُطب الدين النيسابُورِي من دمشق للتدريس بالمدرسة النِفّرِيّة (النُورِيّة) التي بناها نور الدين بحلب سنة ٥٤٤هـ (١١٤٩م) إثر الخلاف الذي تمّ في حلب بين الفقهاء نهاية عام ٥٤٤هـ (١١٤٩م) وانقسامهم إلى قسمين العرب والأكراد، فالعرب يطالبون بالقاضي شرف الدين بن أبي عصرون،

---

(١) ابن شداد. الأعلاق الخطيرة (قسم حلب).- ص٩٨ ؛ ابن الشحنة. الدرّ المنتخب، ص١١٠.

(٢) سبقت ترجمته في الفصل الأول.

(٣) ابن شداد. المصدر السابق (قسم حلب).- ص ٩٨-٩٩.

(٤) ابن خلكان. وفيات الأعيان.- ج٣، ص٥٣-٥٤ ؛ السبكي. طبقات الشافعية.- ج٧، ص ١٣٣ ؛ الأسنوي. طبقات الشافعية.- ج٢، ص١٩٤-١٩٥.

والأكراد يطالبون بالقطب النيسابُورِيّ، وكحلٍ لهذه المشكلة، استدعى نور الدين محمود كلا العالمين، فسلّم ابن أبي عصرُون هذه المدرسة، بينما سلّم القطب النيسابُورِيّ المدرسة النِفّرِيّة (النُورِيّة) وقال: " نحن ما أردنا ببناء المدارس إلا نشر العلم ودحض البدع من هذه البلدة، وإظهار الدين".[1]

ثم إن استدعاء القاضي شرف الدين بن أبي عصرون من سِنجار أو الموصل إلى حلب سنة ٥٤٥هـ (١١٥٠م) للتدريس في هذه المدرسة يرجح بناءها قبل عام ٥٥٠هـ (١١٥٥م) إذ أنه لو كان بناؤها قد تمّ في التاريخ الأخير لكان ابن أبي عصرون قد استدعي من دمشق لا من سِنجار أو الموصل كما تشير إليه المصادر.[2]

ومهما يكن من أمر سنة بنائها، فإنها تقع اليوم في محلة الفَرافِرَة بحلب على الجادة الكبرى شمالي جامع الحيّات المعروف قديمًا بالمدرسة الناصرية.[3] يقول الغزيّ عنها "وقد تقلبت عليها الأعصار والأدهار حتى ضاع معظم أوقافها، وأشرفت المدرسة على الخراب وأغلق بابها مدة قرنين؛ ثم في حدود سنة ١٢٨٠هـ (١٨٦٣م) عمر المتولي عليها قبلتها، وبقيت مغلقة إلى سنة ١٢٩٩هـ (١٨٨١م) فعمّر فيها من غلّة وقفها مكان واسع على يمنة الداخل إليها اتخذته الحكومة مكتبًا ابتدائيًا"،[4] وإذا دخلت من باب المدرسة رأيت فسحة في جنوبيها في المكان الذي كان يتعلم فيه الأطفال، وفي شماليها الغربي حوض عالٍ تجاهه بئر. وقد خربت هذه المدرسة عام ١٣٧٤هـ (١٩٥٤م) عندما نتجت الطريق العام المار في المدينة.[5]

---

(١) أبو شامة. كتاب الروضتين.- ج ١، ق١، ص٣٢-٣٣.
(٢) المصدر نفسه.- ج ١، ق١، ص٣٣؛ ابن خلكان. وفيات الأعيان.- ج٣، ص٥٣.
(٣) محمد أسعد طلس. الآثار الإسلامية والتاريخية في حلب.- دمشق.- مطبعة الترقي، ١٣٧٦هـ (١٩٥٦م).- ص٢٢٧.
(٤) كامل بن حسين الغزي (ت ١٣٥١هـ/١٩٣٣م) نهر الذهب في تاريخ حلب. حلب: المطبعة المارونية، (١٣٤٢هـ)- ج٢، ص١٤١-١٤٢.
(٥) محمد أسعد طلس: المرجع السابق.- ص٢٢٧-٢٢٨.

يقول الطباخ الحلبي: " وهذه المدرسة يدخل إلى داخلها بدرج ولها باب آخر من الغرب وبها قاعة لمدرّسها، ووقف لها واقفها أوقافًا حوانيت وقرى داخل حلب وخارجها"، [1] ولا يزال اسم العصْرُونِيّة يُطلق على سوق في حلب، وهذا يؤكد شهرة هذه المدرسة منذ إنشائها حتى الآن.

ولم يزل الإمام شرف الدين بن أبي عصرون يُدرّس في هذه المدرسة وينظر في أوقافها إلى أن عاد إلى دمشق سنة ٥٧٠هـ (١١٧٤م).[2] ولما خرج إلى دمشق استخلف (نيابة) فيها ولده نجم الدين أبو البركات عبدالرحمن. وظلّ هذا حتى ولي قضاء حماة، فغادر حلب، واستناب في هذه المدرسة ابن أخيه عبدالسلام بن المظهر بن عبدالله شرف الدين أبو سعد، وظلّ عبدالسلام يتولى نيابة التدريس في العصرونية حتى عاد إليها نجم الدين من حماة فأخذ تدريسها منه، وذلك أيام الملك الأيوبي الظاهر غياث الدين غازي سنة ٥٩٨هـ (١٢٠١م).[3]

وممن ذكرت المصادر خبر إقامته في هذه المدرسة الإمام الحافظ حجة الدين محمد ابن أبي محمد بن محمد بن ظفر الصّقِلّيّ المتوفى سنة ٥٦٥هـ (١١٦٩م)، [4] فقد ذكر أنه حلّ بحلب وأقام بالمدرسة العصْرُونِيّة، وصنّف كتبًا حسنة، فلما وقعت الفتنة بين الشيعة والسنة (وأظنها فتنة سنة ٥٥٢هـ/١١٥٧م)[5] نُهبت كتبه فيما نُهب، وخسر جزءًا من مؤلفاته القيّمة، فرحل إلى حماة وأقام بها حتى وفاته.[6]

---

(١) أعلام النبلاء.- ج٤، ص٢٨٢.
(٢) ابن شداد. الأعلاق الخطيرة (قسم حلب).- ص٩٩ ؛ ابن خلكان. وفيات الأعيان.- ج٣ ص ٥٤.
(٣) ابن شداد. المصدر السابق.- ص٩٩.
(٤) سبقت ترجمته في الفصل الثاني.
(٥) سبق الحديث عن هذه الفتنة التي وقعت بين الشيعة والسنة في الفصل الأول.
(٦) ياقوت. معجم الأدباء.- ج ١٩، ص٤٨ ؛ السيوطي. بغية الوعاة.- ج ١، ص١٤٢-١٤٣.

٤ـ المدرسة الشَرَفِيّة :

أنشأها الشيخ الإمام شرف الدين أبو طالب عبدالرحمن الحلبي المعروف بابن العجمِي المتوفى سنة ٥٦١هـ (١١٦٦م)، [١] وقد صَرَفَ شرف الدين على بنائها مانيف على أربع مئة ألف درهم، وأوقف عليها أوقافًا جليلة، [٢] وتقع المدرسة الشرفِيّة في سُويقة حاتم[٣] على مقربة من الزاوية الشمالية الشرقية للمسجد الجامع الكبير، وقد رُممت هذه المدرسة مجددًا من قبل دائرة الأوقاف فشوهتها. ولم يبق من بنائها القديم ما يصلح لوضعه ضمن الآثار الحلبية سوى الباب المزخرف والعقد، والمحراب.[٤]

وقد خلط الطباخ بين المدرسة الزجاجية التي في الجلّوم، والتي درّس فيها شرف الدين بن العجمي، وبين هذه المدرسة الواقعة في سويقة حاتم وجعلهما مدرسة واحدة، [٥] وهذا خلاف الواقع، فمدرسة الجلّوم قد اندثرت وضاعت معالمها، أما هذه المدرسة فلا تزال بعض آثارها باقية، ويسميها العامة الأشرافية خطًا.

وقد درّسَ في هذه المدرسة محي الدين محمد بن الشيخ شرف الدين عبدالرحمن بن العجمي المؤسس، وقد أعاد له فيها عشرة أنفس لم يكن في عصرهم في سائر البلاد مثلهم.[٦]

٥ ـ المدرسة الأسدِيّة الجُوّانِيّة :

تُنسب هذه المدرسة للأمير أسد الدين شِيركُوه بن شاذِي بن مروان المتوفى سنة

---

(١) سبقت ترجمته في المدرسة الزُّجاجية ضمن هذا الفصل.
(٢) ابن شداد. الأعلاق (قسم حلب).- ص١٠٦ ؛ ابن الشحنة. الدرّ المنتخب.- ص١١٢.
(٣) خير الدين الأسدي . أحياء حلب وأسواقها، تحقيق وتقديم عبدالفتاح روّاس قلعه جي.- دمشق.- وزارة الثقافة والإرشاد القومي (١٩٨٤م).- ص٢٤٤.
(٤) محمد أسعد طلس. الآثار الإسلامية والتاريخية في حلب.- ص٩١.
(٥) أعلام النبلاء.- ج٤، ص٢٥٠.
(٦) ابن شداد. المصدر السابق (قسم حلب).- ص١٠٦.

٥٦٤هـ (١١٦٨م)[١] الذي أنشأها بمحلّة الرحْبّة بحلب للمذهب الشافعي[٢] ويذكر الطباخ أن هذه المدرسة تقع في محلة باب قِنّسرِين فوق الجامع المعروف بجامع الكريميّة بقليل أما الزقاق الذي يأخذ بك إلى جامع الرُومِي ولم تزل معروفة بهذا الاسم.[٣]

وكان أول من ولي التدريس بها الشيخ قطب الدين مسعود النيسابُوري المقدم ذكره في المدرسة النِفّرِيّة (النُورِيّة)، ولم يزل قطب الدين بها إلى أن رحل عن حلب فتولاها شمس الدين أبو المظفر حامد بن أبي العميد عمر بن أمير ي بن ورشِي القزْوِيني،[٤] ولم يزل بها إلى أن رحل عن حلب إلى مدينة حِمص سنة ٦٠٠هـ (١٢٠٣م).[٥]

٦ ـ المدرسة الشُعَيْبِيَّة:

كان موقع هذه المدرسة مسجدًا يقال أنه أول ما اختطه المسلمون عند فتح حلب من المساجد، وعُرف هذا المسجد بأبي السحن الغضائِرِيّ المتوفى سنة ٣١٣هـ (١٩٢٥م)،[٦] فلمّا ملك نور الدين محمود حلب وأنشأ بها المدارس وصل الشيخ شُعيب الأندلسي[٧] إلى حلب فصيّر له هذا المسجد مدرسة، وجعله مُدرّسًا بها فعُرفت به، ولم يزل الشيخ شعيب مُدرّسًا بها إلى أن توفي بطريق مكة سنة

(١) سبقت ترجمته في الفصل الأول.

(٢) ابن شداد. المصدر السابق.- ص١٠٣.

(٣) أعلام النبلاء.- ج٤، ص٢٦٠.

(٤) المعروف بالشمس حامد القزويني، كما يعرف بابن العميد، ولد بقزوين سنة ٥٤٨هـ (١١٥٣م) وتفقه بمراغة، وبغداد، وسمع وحدّث، وذكر أنه قرأ على القطب النيسابوري، وقدم معه الشام، وولي قضاء حِمْص، ثم انتقل إلى حلب ودرّس بها، وكانت وفاته بحلب سنة ٦٣٦هـ (١٢٣٨م) (السبكي. طبقات الشافعية.- ج٨، ص١٤٠ الأسنوي. طبقات الشافعية.- ج٢، ص٣٢٣).

(٥) ابن شداد. الأعلاق الخطيرة (قسم حلب).- ص١٠٣.

(٦) هو أبو الحسن علي بن عبدالحميد الغضائري، أحد الأولياء من أصحاب سريّ السقطي، ذكر أنه حج من حلب ماشيًا أربعين حجة (ابن الأثير. اللباب.- ج٢، ص١٧٤)

(٧) هو الشيخ شُعيب بن أبي الحسن بن حسين الأندلسي، من الفقهاء، المعتبرين والزهّاد المعروفين، وكان من أصحاب الحافظ أبي الحسن علي بن سليمان المرادي، وكان قد انقطع في مسجد الغضائري فعُرف به، واقتطع عنه اسم الغضائري(ابن شداد. المصدر السابق.- ص١٠٥).

٥٩٦هـ (١١٩٩م).[(١)]

وقد ذكر الطباخ أن هذه المدرسة في وقته كانت شاغرة عن الشعائر. والدرس ؛ بل ولا يعلم أحد أنها مدرسة، وعليها وقف ببلد عزاز، وقد استولى الناس على وقفها،[(٢)] وتقع حاليًا في محلة العقبة داخل باب أنطاكية ويُعرف مكانها بجامع التُوتة، وبعض جدرانها باقيًا من آثار نور الدين، والقِدم ظاهر عليها.[(٣)]

ثانيًا : المدارس الحنفية:

١ـ المدرسة الحلاّوِيّة (الحَلَوِيّة):

يذكر ابن شداد أن هذه المدرسة كانت كنيسة من بناء هيلانِي أم قُسطنطِين، فلمّا حاصر الصليبيون حلب سنة ٥١٨هـ (١١٢٤م) وقاموا بقطع الأشجار، ونبشوا قبور الموتى، وأحرقوا من فيها، عمد القاضي أبي الفضل بن الخشاب الحلبي إلى أربع كنائس داخل حلب، وصيّرها مساجد، وكانت هذه المدرسة تُعرف قديمًا بمسجد السرّاجِين، فلمّا ملك نور الدين محمود مدينة حلب جعل هذا المسجد مدرسة، وأنشأ فيه مساكن يأوي إليها الفقهاء وإيوانًا للدروس، وكان مبدأ عمارتها في سنة ٥٤٤هـ (١١٤٩م)،[(٤)] وقد جلب نور الدين إلى هذه المدرسة من أفامِيَة مجموعة من الرخام الشفّاف (الذي إذا وضع تحته ضوء أبان من وجهه) ووضعه فيها.[(٥)]

---

(١) المصدر نفسه.- والصفحة نفسها.

(٢) أعلام النبلاء.- ج٤، ص٣١٧.

(٣) الغزي. نهر الذهب.- ج٢، ص٨٨-٨٩؛ Elissef: N Opcit-13-p916.

(٤) الأعلاق (قسم حلب).- ص١١٠ ؛ وقد ذكر الطباخ أن مبدأ عمارتها كان في سنة ثلاث وأربعين كما هو مكتوب على جدار بابها (أعلام النبلاء.- ج٢، ص٧١)

(٥) ابن شداد. المصدر السابق.- ص١١٠ ؛ ابن الشحنة. الدرّ المنتخب.- ص١١٥. وقد ذكر ابن شداد أن الملك العادل نور الدين محمود كان يملأ الجرْن في ليلة السابع والعشرين من رمضان قطائف محشوة ويجمع عليه الفقهاء المرتبين بالمدرسة. (المصدر السابق.- ص١١٠) وقد اشتهر أن هذا الأمر سببًا في تسميتها بالحلاّوِيّة.

وكانت هذه المدرسة من أعظم المدارس صيتًا وأكثر طلبة وأغزرها جامِكِيّة، وكان من شرط الواقفة" أن يحمل في كل شهر من رمضان من وقفها ثلاثة آلاف درهم للمدرس يصنع بها للفقهاء طعامًا، وفي ليلة النصف من شعبان في كل سنة حلوى معلومة وفي الشتاء ثمن بياض لكل فقيه شيء معلوم وفي أيام شرب الدواء من فصلي الربيع والخريف ثمن ما يحتاج إليه من دواء وفاكهة، وفي المولد أيضًا الحلوى، وفي الأعياد ما يرتفقون به فيها دراهم معلومة، وفي أيام الفاكهة ما يشترون به بطيخًا ومشمشًا وتُوتًا".[1]

أما موقع هذه المدرسة فهو في محلّة جُب أسد الله[2] ـ مقابل الجامع الكبير من الغرب وتنفصل عنه بسوق ضيق قبالة الجامع،[3] حيث تقابل الباب الغربي للجامع. ويقول الغزي في الحديث عن تشخيص هذه المدرسة في وقته[4]: "هي الآن عمارة واسعة بابها موجّه شرقًا كان مكتوبًا فوقه (بسم الله الرحمن الرحيم من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها. جدد هذه المدرسة البنية السعيدة المباركة وأنشأها مدرسة للفقهاء على مذهب الإمام أبي حنيفة رضي الله عنه ـ مولانا الأمير الأسْفهسِلار[5] الأجل السيد الكبير الملك العالم العارف العادل المجاهد، المؤيد، المنصور، المظفر، الأغر الكامل مؤيد الدين ومظهر الملّة الإسلامية بسيفه صفي الأنام بنصره قسيم الدولة وعماد ما اختاره الأنام، رضي الخلافة تاج الملوك والسلاطين وجلالها حافظ بلاد المسلمين شمس المعالي وفلكها

(١) المصدر نفسه (قسم حلب).- ص١١٠.
(٢) محمد أسعد طلس. الآثار الإسلامية.- ص٥٩.
(٣) محمد كرد علي. خطط الشام.- ج٦، ص١٠٧.
(٤) عاش الشيخ كامل بن حسين الغزي في المدة مابين (١٢٧١ـ١٣٥١هـ/١٨٥٣ـ١٩٣٣م)
(٥) لقب مركب من لفظين، فارسي وتركي، و"أسفه" يعني بالفارسية المقدّم، و"سِلار" يعني بالتركية العسكر، فيكون معنى اللقب "مقدم العسكر" أي قائد الجيش، وهو من ألقاب أرباب السيوف (القلقشندي. صبح الأعشى.- ج٦، ص٨ـ٧).

قاهر المشركين وقامع المُلحدين، وقاتل الكفرة والمشركين ... أبو القاسم محمود زنكي بن آق سنقر ناصر أمير المؤمنين على يد عبدالصمد الطرسوسي الفقير لرحمة الله في شوال سنة ٥٤٣هـ".[١]

وقد وصف الرحالة الأندلسي ابن جُبير هذه المدرسة حينما زار حلب سنة ٥٨٠هـ (١١٨٤م) فقال: " ويتصل به - أي الجامع الكبير - من الجانب الغربي مدرسة للحنفية تناسب الجامع حسنًا وإتقان صنعة، فهما في الحسن روضة تجاور أخرى. وهذه المدرسة من أحفل ما شاهدناه من المدارس بناءً وغرابة صنعة، ومن أظرف ما يُلْحظ فيها أن جدارها القبلي مُفتح كله بيوتًا وغرفًا ولها طيقان يتصل بعضها ببعض، وقد امتد بطول الجدار عريس كرمٍ مُثمر عنبًا، فحصل لكلّ طاق من تلك الطيقان قسطها من ذلك العنب متدليًا أمامها، فيمد الساكن فيها يده ويجتنيه متكئًا دون كلفة ولا مشقّة".[٢]

ولم يصرح ابن جُبير باسم هذه المدرسة، ولكن اشتهار المدرسة الحلاّوِيّة بجودة مساكن الطلاب التي أنشئت بها، إضافة إلى كونها المدرسة الحنفية الوحيدة التي كانت قائمة غربي الجامع في ذلك العهد، يُرجّح بأنه يقصد هذه المدرسة.

وقد ذكر ابن شداد أنه لما فرغ نور الدين من بنائها استدعى له من دمشق الفقيه الإمام بُرهان الدين أبا الحسن علي بن الحسن البلخي المتوفى سنة ٥٤٨هـ (١١٥٣م)،[٣] فولاّه تدريسها،[٤] كما استدعى من دمشق أيضًا الفقيه بُرهان الدين أبا العباس أحمد بن علي الأصولي السلِفيّ[٥] ليجعله نائبًا عن بُرهان الدين فأمتنع من القدوم فسيّر إليه

---

(١) نهر الذهب.- ج٢، ص٢٢٠.
(٢) الرحلة.- ص٢٢٧-٢٢٨.
(٣) سبقت ترجمته في الفصل الأول.
(٤) الأعلاق (قسم حلب).- ص١١٠-١١١.
(٥) هو أبو العباس أحمد بن علي بن أحمد الشيباني الأصولي صاحب الإمام علي الزاهد البلخي (القرشي. الجواهر المُضية.-ج ١، ص٢٠٧-٢٠٨، ولم يورد له غير هذه الترجمة كما أنه لم يذكر سنة وفاته).

برهان الدين البلخِي كتابًا ثانيًا يستدعيه فيه ويُلّح عليه في الطلب فأجابه برهان الدين الأصولي، وقدم حلب، فاستنابه برهان الدين البلخي في هذه المدرسة، ولم يزل نائبًا عنه إلى أن مات فحزن عليه برهان الدين البلخي حزنًا شديدًا، واستمر برهان الدين مدرسًا في هذه المدرسة إلى أن خرج من حلب لأمر جرى بينه وبين نائبها مجد الدين أبي بكر بن الداية، وقصد دمشق فأقام بها إلى أن توفي في شعبان سنة ٥٤٨هـ (١١٥٣م) وتولى المدرسة المذكورة بعد خروجه منها الفقيه الإمام عبدالرحمن بن محمود بن محمد ابن جعفر الغزنوي الملقب علاء الدين،[١] فأقام بها مدرسًا إلى أن توفي بحلب في شوال سنة ٥٦٤هـ (١١٦٩م)،[٢] وتولى تدريسها بعده ولده محمود، وكان صغيرًا، فتولى تدبيره وتربيته الحسام علي بن أحمد بن مكي الرّازي المتوفى سنة ٥٩٨هـ (١٢٠١م)،[٣] وكان فقيهًا فاضلاً، ثم تولى تدريسها الإمام الفاضل رضِي الدين أبو عبدالله محمد السرخسيّ المتوفى بحلب سنة ٥٧١هـ (١١٧٥م)[٤] صاحب كتاب "المحيط"، وكان قد قدم حلب فولاّه نور الدين محمود التدريس بهذه المدرسة، وكان في لسانه لكنه فتعصّب عليه جماعة من الفقهاء الحنفية بحلب، وصغّروا أمره عند نور الدين، فكتب نور الدين إلى عالي بن إبراهيم الغزنوي المتوفى سنة ٥٨٢هـ (١١٨٦م)،[٥] وكان بالموصل، وطلب منه القدوم إلى حلب لتولي تدريس هذه المدرسة، واتفق أن أبا بكر بن مسعود

---

(١) هو الفقيه الإمام عبدالرحمن بن محمود بن محمد بن جعفر الغزنوي أبو الفتح، وقيل أبو محمد الحنفي المُلقب علاء الدين درّس بالمدرسة الحلاّويّة بحلب بعد وفاة مدرسها الأول برهان الدين البلخي سنة ٥٤٨هـ (١١٥٣م) واستمر بها مدرسًا حتى وفاته سنة ٥٦٤هـ (١١٦٩م) (ابن العديم. زبدة الحلب.- ج٢، ص٢٩٥).

(٢) ابن شداد. المصدر السابق.- ص١١١.

(٣) سبقت ترجمته في الفصل الثالث.

(٤) سبقت ترجمته في الفصل الرابع.

(٥) سبقت ترجمته في الفصل الرابع.

ابن أحمد الكاسانِيّ الملقب علاء الدين المتوفى بحلب سنة ٥٨٧هـ (١١٩١م)[١] وصل إلى حلب رسولاً من ملك الروم، فعرض عليه نور الدين المقام بحلب والتدريس في هذه المدرسة فأجاب إلى ذلك ووعده أن يعود إلى حلب بعد ردّ الجواب بالرسالة، فعاد إلى الروم، ثم قدم حلب، واتفق قدومه وقدم عالي الغزنوي من الموصل، فولي نور الدين عالي التدريس بالمدرسة الحلاوية يومًا واحدًا، ثم استدعى ابن الحلِيم مُدرّس مدرسة الحدّادِين إلى دمشق وولي عالي الغزنوي مكان ابن الحليم، ثم ولي علاء الدين تدريس الحلاّوية ولم يزل علاء الدين بها إلى أن توفي في رجب سنة ٥٨٧هـ (١١٩١م).[٢]

٢ ـ المدرسة المُقدّمِيّة:

ذكر ابن شداد أن الذي أنشأ المدرسة هو عز الدين عبدالملك المُقدّم،[٣] وكانت إحدى الكنائس الأربع التي صيّرها القاضي ابن الخشاب مساجد في سنة ٥١٨هـ (١١٢٤م) وأضاف إليها دارًا كانت إلى جانبها، وأنه ابتدئ في عمارتها سنة ٥٤٥هـ (١١٥٠م).[٤]

وقد حدّد الغزي موقعها في محلّة الجلُّوم، وأنها تُعرف بمدرسة خان التتن لأنها في زقاقه، وقد يقال له زُقاقا المدار، وكان يعرف قديمًا بدرب الحطّابين.[٥] أو بدرب ابن سلار، وهذه المدرسة غربي جامع بهرام باشا بينهما زقاق معطّل كان يعرف بزقاق السُودان، وقد وُجدت كتابة في أعلى بابها نصها: " بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما وقفه تقربًا إلى الله تعالى في أيام الملك العادل محمود بن زنكي بن آقسنقر عز نصره

(١) سبقت ترجمته في الفصل الرابع.
(٢) ابن شداد. الأعلاق الخطيرة (قسم حلب).- ص١١١-١١٢.
(٣) سبقت ترجمته في التمهيد.
(٤) الأعلاق الخطيرة (قسم حلب).- ص١١٦.
(٥) درْب الحطّابِيْن: عُرف بعد ذلك بدرب سلار، وهو المعروف الآن بزقاق خان التتن، في محلة الجلّوم الكبرى بحلب (محمد كرد علي. خطط الشام.- ج٦، ص١٤٣)

الفقير إلى رحمة الله محمد بن عبدالملك بن محمد في سنة ٥٦٤هـ فرحم الله من قرأه ودعا له بالمغفرة". وباب هذه المدرسة موجّه غربًا، وهي الآن معطلة مائلة للدثور.[١]

وقد حرص الباحث على الوقوف على موقعها في الوقت الحاضر، فلم يتيسر ذلك، وُذكر له أن جيرانها قد استولوا على مرافقها وأدخلوه ضمن أملاكهم، وجهل الناس اسمها.

وكان أول من درّس في هذه المدرسة الشيخ بُرهان الدين أبو العباس أحمد بن علي الأصولي[٢] مدرس المدرسة الحلاّوية المقدم ذكرها، ثم وليها بعده السيد الشريف الإمام العالم افتخار الدين عبدالمطلب بن الفضل الهاشِمي.[٣] ولم يزل بها إلى أن توفي في جمادى الآخرة سنة ٦١٦هـ (١٢١٩م).[٤]

٣ـ المدرسة المجديّة الجُوّانيّة:

ذكر ابن الشحنة أن هذه المدرسة تُنسب إلى نائب حلب في عصر نور الدين محمود وهو مجد الدين أبو بكر محمد بن الداية المتوفى في رمضان سنة ٥٦٥هـ

---

(١) نهر الذهب.- ج٢، ص٧٠ـ٧١.

(٢) سبقت ترجمته ضمن مدرسي المدرسة الحلاوية الحنفية.

(٣) عبدالمطلب بن الفضل بن عبدالمطلب بن الحسين بن أحمد الحلبي الإمام افتخار الدين إمام أصحاب أبي حنيفة في وقته بحلب، وكان مولده ببلخ في جمادى الآخرة سنة ٥٣٦هـ (١١٤٢م) وسمع بما وراء النهر من جماعة، وبرع في المذهب، وناظر وصنّف، وكان صحيح السماع عالي الإسناد شرح الجامع الكبير وعاش ثمانين سنة، وتوفي في جمادى الآخرة سنة ٦١٦هـ (١٢١٩م) (الذهبي. العبر.- ج٣، ص١٧٠ ؛ القرشي. الجواهر المضية.- ج٢، ص ٤٦٧ ؛ ابن العماد. الشذرات.- ج٥، ص٦٩).

(٤) ابن شداد. المصدر السابق (قسم حلب).- ص١١٦.

(١١٧٠م)،[١] وهي بالقرب من ضريح النبي بلوُقيا بمحلة بِزَي، وقد خربت ولم يبق لها أي أثر.[٢]

ويذكر خير الدين الأسدي أن هذه المدرسة كانت تقع داخل بوابة النبي المعروفة بعرصة الفُراتي،[٣] ولم تشر مصادر البحث إلى من تولى تدريس هذه المدرسة، كما أنه لم يبق لها أي أثر سوى ما ذكر.

٤ـ المدرسة المجدية البرّانيّة:

ذكرها ابن الشحنة أيضًا، ونسبها إلى مجد الدين بن الداية مؤسسة الجوانية، وقد ذكر أنها دثرت ولم يبق لها أي أثر،[٤] كما ذكر خير الدين الأسدي أنها تقع خارج بوابة النبي التي كانت تُعرف بعرصة الفُراتِي.[٥]

٥ ـ المدرسة الحدّاديّة (الحدّادين):

ذكر ابن شداد أن منشئ هذه المدرسة هو حسام الدين محمد بن عمر بن لاجين ابن أخت صلاح الدين، وأنها كانت من الكنائس الأربع التي ذكرنا خبر تحويلها إلى مساجد سنة ٥١٨هـ (١١٢٤م) فهدمها وبناها بناءً وثيقًا وجعلها وقفًا لتدريس الفقه الحنفي.[٦]

---

(١) هو مجد الدين أبو بكر محمد بن الداية أخو نور الدين محمود من الرضاعة، استنابه نور الدين في حلب، وولاه جميع أمورها، وأصبح الرجل الأول بعده منذ عام ٥٤١هـ (١١٤٦م) حتى وفاته، وكان يسكن قلعة حلب، ويشرف على مواقع أخرى، وقد امتاز مجد الدين بشجاعته وتدينه وحبّه لأعمال الخير والإنشاء، ولما تُوفي حزن عليه نور الدين حزنًا شديدًا وقد وافق وفاته وفاة نائب آخر في دولة نور الدين يُدعى العماديّ محمد؛ فحزن نور الدين عليهما حزنًا شديدًا وقال وهو يبكي: لقد قصت جناحاي" (ابن العديم. زبدة الحلب.- ج٢، ص٣٠٢، ٣٠٣؛ سبط ابن الجوزي. مرآة الزمان.- ج٨، ق١، ص٢٨١؛ أبو شامة. كتاب الروضتين.-ج ١، ق١، ص٥٩٣، ١٢٤).

(٢) الدرّ المنتخب.- ص١٢٠.

(٣) أحياء حلب وأسواقها.- ص١٤١ـ١٤٢.

(٤) المصدر السابق.- ص١٢٠.

(٥) أحياء حلب وأسواقها.- ص١٤٢.

(٦) الأعلاق (قسم حلب).- ص١١٤.

أما موقع هذه المدرسة فقد ذكر الغزي أنها في السّفاحِيّة داخل حلب وراء قيْسارِيّة راغب آغا كُجك زاده على يمنة السالك في الجادة إلى سراي إسماعيل باشا. وهي الآن زاوية ضيقة لها باب مسدود بالحجارة المبنية، وقد استولى جيرانها على قبلتيها وسائر مرافقها، وعاد اسمها مجهولاً ومحلها مبهمًا،[1] وقد ذكر محمد كرد على أن هذه المدرسة كانت عامرة في أواخر القرن العاشر الهجري (السادس عشر الميلادي) وأنها في محلّة السفّاحِيّة ولم يبق من آثارها سوى عضادتي الباب الكبير وكان مكتوبًا على طرفه الأيمن (الحمد لله)،[2]

وكان أول من درّس بها الفقيه الإمام الحسين بن محمد بن أسعد بن حلِيم المنعوت بالمُنجم،[3] وكان فقيهًا عالمًا متأدبًا، ولم يزل بها إلى أن استدعاه نور الدين إلى دمشق وولى مكانه عالي بن إبراهيم الغزنوي، ولم يزل بها إلى أن توفي سنة ٦٨٢هـ (١١٨٦م).[4]

جـ ـ دُوُر الحديث:

وردت في بعض المصادر إشارات إلى وجود العديد من دُوُر الحديث في حلب في هذا العهد، ولكن تلك المصادر لم تورد أية تفصيلات عن نشأة تلك الدور أو نشاطاتها أو مواقعها، واكتفت بنسبتها إلى مؤسسيها.

(١) نهر الذهب.- ج٢، ص١١٠.
(٢) خطط الشام.- ج٦، ص١٠٨.
(٣) هو الحسين بنِ محمد بن أسعد الفقيه تفقه على أبيه محمد بن أسعد، وسمع منه الحديث ولي التدريس بالحلاوية، وله تصانيف في الفقه والفتاوى، وكان جليسًا للملك نور الدين محمود (القرشي. الجواهر المضيّة.- ج٢، ص١٢٦-١٢٧)
(٤) ابن شداد. الأعلاق (قسم حلب)- ص١١٤-١١٥.

وكانت أبرز تلك الدُوُر مايأتي:

١- دار للحديث تُنسب للملك العادل نور الدين محمود،[١] وهي غير الزاوية التي أوقفها نور الدين داخل جامع حلب لتدريس هذا العلم والتي سبق الحديث عنها.[٢]

٢- دار أخرى أنشأهـا نائب نور الدين في حلب مجد الدين بن الداية المتوفى سنة ٥٦٥هـ (١١٧٠م).[٣]

٣- دار أنشأتها أم الملك الصالح إسماعيل بن نور الدين محمود في الخانِقَاه التي بنتها،[٤] ولم يبق في الوقت الحاضر أي أثر تلك الدور.

د ـ الخوانِق والرُّبط:

أشارت المصادر إلى العديد من الخوانق التي كانت قائمة بحلب في هذا العهد، ولكن لم تذكر تفصيلات تتعلق بالنشاط العلمي الذي قام في هذه الخوانق، واكتفت بتسمية تلك الخوانق ونسبتها إلى مؤسسيها وتحديد مواقعها أحيانًا، كما وُجدت أيضًا خوانق خاصة بالنساء، ولم توجد إشارات إلى وجود رُبُط قائمة بحلب في تلك الفترة، ولعل ذلك راجع إلى عدم وضوح الفرق بين الخانِقاه والرّباط في بعض الأحيان. وربما أن اشتهار هذه الخوانق وما قام فيها من نشاطات جعل المؤرخين يهتمون بها دون غيرها من دُوُر الصوفية التي كانت قائمة في ذلك العهد.

---

(١) ابن شداد. المصدر السابق.- ص١٢٢ ؛ ابن الشحنة. الدر المنتخب.- ص١٢٣.

(٢) وذلك ضمن الحديث عن نشاط التعليم داخل المسجد الجامع الكبير في حلب.

(٣) ابن شداد. المصدر السابق.- ص١٢٢ ؛ وقد سبقت ترجمة ابن الداية في المدرسة المجدية التي أنشأها داخل حلب.

(٤) لم يتيسر الوقوف على مكان هذه الدار، ولكن ابن شداد ذكر أن الست أم الملك الصالح زوجة الملك نور الدين محمود أنشأت خانقاه تحت القلعة في سنة ٥٧٨هـ (١١٨٢م) وأنها بنت إلى جانبها تربة دفنت بها ولدها الملك الصالح، فلعلها هي المقصودة هنا (المصدر نفسه.- ص٩٣، ١٢٢).

وكانت أشهر تلك الخانقاهات مايأتي:

١ ـ خانقاه البلاط:

ذكر ابن شداد أن منشئها هو شمس الخواص لؤلؤ الخادم[١] عتيق الملك رضوان ابن تاج الدولة تُتُش السلجوقي، وهي أول خانقاه بُنيت بحلب وذلك سنة ٥٠٩هـ (١١١٥م).[٢]

وكان موقع هذه الخانقاه في سوق البلاط المعروف حاليًا بسوق الصابُون داخل حلب في محلة سُويقة علي، أما مكان الخانقاه فيعرف حاليًا بزاوية أصلان دده.[٣]

٢ ـ خانقاه ابن العجميّ:

تُنسب هذه الخانقاه لشمس الدين أبي بكر أحمد بن العجمي أخو الشيخ شرف الدين أبو طالب عبدالرحمن المتوفى سنة ٥٦١هـ (١١٦٦م) (صاحب المدرسة الشرفِيّة ومدرس الزجّاجِيّة الشافعيتين المتقدم ذكرهما) وكان موقع هذه الخانقاه دارًا يسكنها شمس الدين بن العجمي فلما تُوفي سنة ٥٣١هـ (١١٣٦م) أوقفها أخوه شرف الدين أبو طالب على الصُوفّية، وجعل لها وقفًا يدرّ عليها.[٤]

---

(١) لؤلؤ الخادم: المعروف بلؤلؤ اليايا خادم الملك رضوان بن تُتُش، ومتولي تدبير أمور أبنيه ألب أرسلن وسُلطان شاه في ملكهما حلب بعده، وكان قد انفرد بشؤون حلب في عصرهما حتى أنه لم يكن لهما معه إلا اسم السلطة، وقد دبّر خطّة قتل فيها الب أرسلان في حلب سنة ٥٠٨هـ (١١١٤م)، وانفرد بتدبير أمور حلب باعتباره وصيًا على أخيه سلطان شاه، وضعفت حلب في عصره وازدادت أطماعه حتى قُتِل غِيلة أواخر سنة ٥١٠هـ (١١١٥م) (ابن القلانسي. تاريخ دمشق.- ص٣١٥؛ ابن العديم. زبدة الحلب.- ج٢، ص١٦٧، ١٧٢، ١٧٧، ١٧٨)

(٢) الأعلاق (قسم حلب).- ص٩٣، ولم يعلم أصل لتلقيب لؤلؤ الخادم بشمس الخواص.

(٣) الغزي. نهر الذهب.- ج٢، ص١٩١.

(٤) ابن شداد. الأعلاق (قسم حلب).- ص٩٤.

٣ـ خانقاه القديم:

أنشأها أيضًا الملك نور الدين محمود، وتولى النظر على عمارتها شمس الدين أبو القاسم بن الطرسوسيّ.[(١)]

وقد ذكر الطباخ أنها تحت القلعة إلى جانب الخندق ملاصقة لدار العدل وأنها أوقِفت على الصُوفيّة المُتجردِين، وأن إنشاءها كان في سنة ٥٤٣هـ (١١٤٨م) وهي كبيرة متسعة الأرجاء، عُرفت فيما بعد بالمقشاتِيّة ويذكر أنها تخربت في الزلْزلة التي حدثت سنة ١٢٣٧هـ (١٨٢١م) وقد دخلت الآن في عمار المستشفى الوطني. وقد كانت في جنوبية آخذة إلى الشرق.[(٢)]

٤ ـ خانقاه ابن المقدم:

تُنسب هذه الخانقاه لعِز الدين عبدالملك المقدم منشئ المدرسة المقدمية الحنفية المتقدم ذكرها، وقد أنشأها بدرب الحطّابِيْن سنة ٥٤٤هـ (١١٤٩م)،[(٣)] ويحدد الغزيّ موقعها في محلة الجلّوم في درب الحطّابين في زُقاق التتن قريبة من المدرسة المُقدَّميّة الحنفية، وكان من جملة أوقافها حِصتان بقرية جسرِين والمُحمّدِيّة من أعمال دمشق، وحصة بقرية كفتان والحواضِر من أعمال حلب.[(٤)]

٥ ـ خانقاه القصر:

قال ابن شداد: " وهي تحت القلعة أنشأها الملك العادل نور الدين محمود بن عماد الدين زنكي بن آقسنقر، وسُميت بهذا الاسم لأنه كان في مكانها قصر من بناء شجاع

---

(١) المصدر نفسه.- ص٩٣. ولم أقف على ترجمة لشمس الدين الطرسوسي.
(٢) أعلام النبلاء.- ج٤، ص٢٤٠.
(٣) ابن شداد. المصدر السابق.- ص٩٤.
(٤) نهر الذهب.- ج٢، ص٧١.

الدين بن فَاتِك، وكان مبدأ عمارته لها سنة ثلاث وخمسين وخمسمائة".[1] (١١٥٨م) ولم يبق لهذه الخانقاه أي أثر في الوقت الحاضر.

٦ـ خانقاه مجد الدين بن الداية:

تُنسب هذه الخانقاه لنائب حلب في عصر نور الدين محمود وأخيه من الرضاعة مجد الدين أبي بكر محمد بن الداية المتوفى سنة ٥٦٥هـ (١١٧٠م)[2]، وقد ذكر ابن شداد أنها تقع قرب عرصة الفُراتِي[3] كما ذكر ابن شداد أن له خانقاه أخرى خارج حلب بمقام[4] إبراهيم عليه السلام.[5]

خوانق النساء:

إلى جانب الخوانق الخاصّة بالرجال، أنشئت في العهد الزنكي خوانق مُخصّصة لإقامة النساء، يتعبدن فيها، يتلقين دروسًا في الوعظ الديني، ومن أشهر هذه الخانقاهات في حلب "خانقاه نور الدين" حيث ذكر ابن شداد أن الملك نور الدين أنشأ خانقاه للنساء سنة ٥٥٣هـ (١١٥٨م) على الأرجح،[6] ولكنه لم يُحد موقع هذه الخانقاه، كما أنه لم يبق لها أي أثر في الوقت الحاضر.

هذه أهم الخوانق التي كانت قائمة في حلب في العهد الزنكي، وقد كان لهذه المؤسسات مشاركة فعّالة في إثراء الحياة العلمية في ذلك العهد نظرًا لما كان يُعقد فيها من

(١) الأعلاق (قسم حلب).- ص٩٣.
(٢) سبقت ترجمته في الحديث عن المدرسة الجوانية التي أنشأها في حلب.
(٣) الأعلاق (قسم حلب).- ص٩٤.
(٤) هذا المقام خارج حلب مما يلي باب المقام، الباب القبلي من أبواب حلب وسُمي هذا الباب باب المقام لأنه يُخرّج منه إلى المقام المنسوب للخليل عليه السلام، وعُرف مدة بباب نفيس أحد ولاة حلب (الغزي. نهر الذهب.- ج٢، ص٨).
(٥) ابن شداد. المصدر السابق (قسم حلب).- ص٩٦.
(٦) الأعلاق.- ص٩٥.

دروس وحِلَق وعظ، إلى جانب قيامها بالوظيفة الأساسية التي أنشئت من أجلها وهي إيواء المتصوفة للانقطاع فيها للعبادة، ومجاهدة النفس، والبُعد عن الدنيا.

هـ ـ البيمارِستَانات:

كانت البيمارستانات من مفاخر الحضارة الإسلامية التي سبقت بها غيرها من الحضارات، وإذا كان الخليفة الأموي الوليد بن عبدالملك (٨٦ـ٩٦هـ/٧٠٥ـ٧١٥م) هو أوّل من بنى البيمارستانات الثابتة في الإسلام كما سبق ذكره[١]، فإن الملك نور الدين محمود بن عماد الدين زنكي (٥٤١ـ٥٦٩هـ/١١٤٦ـ١١٧٤م) وخلفاءه من البيت الأيوبي هم أول من استكثر منها من الملوك والسلاطين، واهتموا بدراسة الطبّ وممارسته اهتمامًا بالغًا وقاية لبلادهم من الأوبئة والأمراض، وكانت حلب في عصر الملك نور الدين محمود إحدى مراكز تدريس الطبّ في بلاد الشام، وكان ميدان ذلك البيمارستان النوري الذي كان يؤدي رسالة علمية لها أهميتها في تدريس الطب إضافة إلى قيامه بوظيفته الأساسية " علاج المرضى ومتابعتهم".

البيمارِستان النُورِيّ:

قال ابن الشحنة: إن الملك نور الدين محمود هو الذي بنى هذا البيمارستان داخل باب أنطاكِية بالقرب من سُوق الهواء،[٢] وقال الغزيّ: هو لصيق البهرامِيّة من جنوبيها الشرقي بناه نور الدين محمود بن زنكي.[٣]

وقد ذكر ابن الشحنة أنّ الملك العادل نور الدين حينما أراد بناء هذا البيمارستان طلب من الأطباء أن يختاروا من حلب أفضل بقعة صحيحة الهواء صالحة لإقامة البيمارستان بها، فقاموا وذبحوا خرُوفًا وقطّعوه أربعة أرباع، وعلّقوها بأرباع المدينة ليلاً.

---

(١) راجع المبحث الخاص بالبيمارستانات في الفصل الثاني.

(٢) الدّر المنتخب.- ص٢٣٠.

(٣) نهر الذهب.- ج٢، ص٦٤.

فلمّا أصبحوا وجدوا أحسنها رائحة الرّبع الذي كان في هذا الموقع، فبنوا البيمارستان فيه".[1]

وهذه خطة حكيمة في اختيار المكان الصالح لبناء البيمارستان في وقت تنعدم فيه آلات قياس الأبعاد ودرجات الحرارة واختبارات الأجواء.

ويقع هذا البيمارستان حاليًا في منطقة الجلُّوم الكبرى في الزقاق المعروف حاليًا بزقاق البهْرامِيّة،[2] وقد وُجد مكتوبًا عند باب البيمارستان: " بسم الله الرحمن الرحيم أمر بعمله المولى الملك المالك العادل المجاهد المرابط الأعز الكامل صلاح الدنيا والدين قسِيْم الدولة رضي الخلافة تاج الملوك والسلاطين ناصر الحق بالبراهين محي العدل في العالمين قامع الملحدين قاتل الكفرة والمشركين أبو القاسم محمود بن زنكي بن آق سنقر ناصر أمير المؤمنين أدام الله دولته بمحمد النبي وآله بتولي العبد الفقير إلى رحمة مولاه عُتبة بن أسعد بن الموصلي".[3]

وكان نور الدين قد أوقف على هذا البيمارستان: " قرية معراثا، ونصف مزرعة وادي العسل من جبل سمعان، وخمسة أفدنة من مزرعة كفر نايا، وثُلث مزرعة الخالِديّ وطاحونها من المُطخ، وثُمن طاحون غربية ظاهر باب الجِنان، وثمانية أفدنة من مزرعة أبو مَدَايًا من عزاز، وخمسة أفدنة بمزرعة الحميرة من المُطخ، وأثني عشر فدانًا من مزرعة الغرزل من المعرّة، وثلث قرية بيت راعِل من الغربيّات وعشرة دكاكين بسُوق الهواء منها ثلاثة تمام والباقي شركة الجامع الكبير، وأحكار ظاهر باب أنطاكِية، وباب الفرج، وباب الجِنان".[4] وكثرة هذه

(١) المصدر السابق.- ص٢٣٠-٢٣١.
(٢) خير الدين الأسدي. أحبار حلب وأسواقها.- ص١٦٧.
(٣) الغزي. نهر الذهب.- ج٢، ص٦٥-٦٦.
(٤) ابن الشحنة. الدر المنتخب.- ص٢٣١. ولم يعثر الباحث على تحديد لهذه المواقع في المصادر المتيسرة.

الأوقاف تدل على مقدار المال الوفير الذي تدرّه هذه الأوقاف لتأمين نفقات هذا البيمارستان الكبير.

وهذا البيمارستان في الوقت الحاضر معطل ومائل للخراب، حيث لم يتبق منه إلا باب الدخول إليه الذي يحتفظ بمصراعيه الأصليين المزخرفين المكونين من قطع خشبية، أما داخل المستشفى فهو في حالة إهمال شديد فالباب والواجهة يميلان بشكل عمودي نحو الطريق، وقد تهدمت أغلب حُجراته ولم يتبق منه إلا بعض الحجرات المتشعثة يسكنها بعض العُمّال إضافة إلى استعمال بعض الحجرات كمعامل للفرش والخزف، وقد استولى بعض الناس على قطعة كبيرة من جهته الجنوبية، وضاعت أوقافه، وأدخل بعضها في أوقاف الجامع الكبير.(١)

أما عن النشاط العلمي والأطباء الذين عملوا في هذا البيمارستان، فلم يتيسر الحصول على معلومات تُذكر من المصادر المعنية بذلك، غير أن محمد كرد علي أشار إلى وجود مكتبة متخصصة داخل البيمارستان تشتمل على كثيرٍ من الكتب الطبية التي أوقفها الملك نور الدين محمود على هذا البيمارستان(٢) مما يؤكد أثر هذا البيمارستان في النشاط العلمي في هذا العهد إلى جانب الوظيفة الطبية التي كان يقوم بها.

ثالثًا : دِمشق:

تُعد دمشق من أهم المراكز العلمية في العهد الزنكي من حيث نشاط التعليم وانتشار دُوُر التعليم المختلفة فيها، وذلك لما اشتهرت به هذه العاصمة منذ العصر الأموي باعتبارها واحدة من أبرز مراكز الإشعاع الحضاري في العالم الإسلامي، وحينما امتد الحكم الزنكي إلى دمشق بقيادة الملك العادل نور الدين محمود في صفر سنة

---

(١) الغزي. نهر الذهب.- ج٢، ص٦٥.

(٢) خطط الشام.- ج٦، ص١٨٧.

٥٤٩هـ (١١٥٤م)[١] أخذ نور الدين على عاتقه مواصلة ذلك النشاط، فأعدّ عاصمته لتواصل حركة النشاط والازدهار العلمي الذي بدأه الأمويون، واهتم نور الدين بدمشق وعمل على رعاية العلم والعمل على نشره فيها، فصارت دمشق في أيامه مقرًا للعلماء والفقهاء والصوفيّة، وذلك لما قام به من إنشاء المدارس والرُّبُط والخوانِق والمساجد والمستشفيات وترتيب أمورها، كما بنى فيها أول دار للحديث في الإسلام، فقصده العلماء والفقهاء والأدباء من سائر الأقطار الإسلامية، وزخرت دمشق في عصره بأعداد كبيرة من العلماء في مختلف التخصصات، ونتج عن ذلك التجمع ازدهار علميّ برز في دمشق، وقامت العديد من دُوُر التعليم على اختلاف تخصصاتها فكانت رافدًا قويًا لتلك النهضة، وعاملاً مساعدًا على نجاحها.

وقد أنشد أحد الشعراء المعاصرين للملك نور الدين محمود، وهو الأمير شرف الدّولة أبو الفضل إسماعيل بن سُلطان بن علي بن مُنقِذ الكِنانِيّ المتوفى سنة ٥٦١هـ (١١٦٥م)[٢] قصيدة في محاسن دمشق ذكر فيها ما تعيشه هذه العاصمة في العهد الزنكي من نهضة علمية، وما تركته مساجدها ومدارسها. من أثر في مجال التدريس والفتوى، بل وامتد حتى بلغ النواحي الاقتصادية، وذلك في فداء الأسرى، والصرف على الفقراء، وذلك بقوله:

ذو ربوةٍ جاء القُرآنُ بذكرها ومساجدٍ بركاتُها لن تُجهلا

---

(١) ابن القلانسي. تاريخ دمشق.- ص٥٠٤-٥٠٥ ؛ ابن الأثير. التاريخ الباهر.- ص١٠٧ ؛ ابن العديم. زبدة الحلب.- ج٢، ص٣٠٣-٣٠٥ ؛ أبو شامة. كتاب الروضتين.-ج ١، ق١، ص ٢٣٩.

(٢) هو الأمير شرف الدولة أبو الفضل إسماعيل بن أبي العساكر سلطان بن علي بن منقذ كان أبوه عم الأمير مؤيد الدولة أسامة بن مرشد أمير شيزر، وكان شابًا فاضلا سكن دمشق.- لما أخذت منهم شيزر، ومات بها سنة ٥٦١هـ (١١٦٥م) (العماد الأصفهاني. خريدة القصر.- (قسم شعراء الشام)- ج ١، ص٥٦٤ ؛ ياقوت. معجم الأدباء.- ج٥، ص٢٣٤، وكان يلقبه شرف الدين).

ومدارسٍ لم تأتِهـا في مُشْكلٍ — إلاّ وجَدت فتىً يحُلُّ المُشْكـلا
ما أمّها مرءٌ يكابــــدُ حيرةً — وخصاصةً إلاّ اهتـدى وتموّلا
وبها وقوف لا يــزال مغلهـا — يستنقذ الأسرى ويغنى العــلا
وأئمـة تُلقى الدروس وسـادة — تشفي النفوس وداؤها قد أعضـلا
ومعاشر تَخِذُوا الصنائع مكسبًا — وأفاضل حفِظُوا العلوم تجملا[(١)]

وكانت أبرز دور التعليم في دمشق في هذا العهد مايأتي:

أ ـ المساجــد:

قامت العديد من المساجد في دمشق بدور فعّال في نشاط الحياة العلمية في هذا رغم التوسع الكبير في إنشاء المدارس وازدياد نشاطها في تلك الفترة. وكان من أبرز تلك المساجد مايلي:

١ـ الجامع الأموي:

يُعد الجامع الأموي بدمشق من المساجد المتميزة بحسن عمارتها، أراد الخليفة الأموي الوليد بن عبدالملك (٨٦ـ٩٦هـ/٧٠٥ـ٧١٥م) عندما عزم على بنائه أن يجعل منه مفخرة من مفاخر دمشق، فأنفق فيه الأموال، وجلب إليه المهرة من الصُنّاع وأهل الفن البارعين، وبقي العمل فيه تسع سنين، أنفق عليه أربع مئة صندوق، في كل صندوق أربعة عشر ألف دينار، وبذلك أصبح مفخرة من مفاخر العمارة الإسلامية على مرّ العصور.[(٢)]

وقد حظي هذا الجامع باهتمام بالغ ورعاية كبيرة من الخلفاء والملوك والحكام على مرّ العصور الإسلامية، وذلك فيما يتعلق بمتابعة تعميره، وتحسينه، أو صيانته وزيادة

(١) ابن عساكر. تاريخ دمشق.- ج٢، ق١، ص١٧٩، وهي قصيدة من البحر الكامل.

(٢) عن عمارة الجامع الأموي، وتكاليفها، وما يشتمل عليه هذا الجامع أنظر: ابن عساكر. المصدر نفسه، المجلدة الثانية.- القسم الأول ـ خطط دمشق.- ص٢٥ـ٥٢ ؛ ابن جُبير. الرحلة.- ص٢٣٥ـ٢٤٦، ابن شداد الأعلاق الخطيرة (قسم دمشق).- ص٤٢ـ٨٥.

الوقف عليه، وفيما يتعلق بتشجيع حِلق التعليم التي كانت تُعد في جنباته، والصرف عيها.

وقد ظلّ الجامع منذ بنائه منارًا للعلم والمعرفة، ومدرسة جامعة لعلماء دمشق وطلابها فيه تُلقى الدروس العلمية من كل فنٍ، وإليه يفِد طلاب العلم من كل صوب للنهل من معين الثقافة وللاجتماع بالعلماء الذين وقفوا أنفسهم في هذا المسجد على نشر المعارف وتدريس العلوم. واستمر هذا الجامع في العهد الزنكي قبلة للعلماء والدارسين، ومركزًا علميًا بارزًا، فيه تعقد حِلق التعليم الخاصة والعامة، وفي جنباته تنتشر زوايا تدريس القرآن وإملاء الحديث، وفيه صُنّفت وأمليت العديد من المؤلفات المُهمّة مثل " تاريخ دمشق " للحافظ ابن عساكر، وغيره.

كما تواتر في المصادر ذكر الزاوية الغزاليّة، ومجلس ابن عساكر، وزاوية المقادِسة، والزاوية الكوثرية، والسُّبع المجاهدي، وغيرها من منابر العلم في هذا المسجد والتي كان لها نشاط علمي مميز خلال هذا العهد، وكان النشاط العلمي في الجامع الأموي قد تركّز على تدريس القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف، والفقه.

كما عُقدت في هذا الجامع العديد من مجالس الإملاء والسماع اجتمع إليها عدد من العلماء وطلاب العلم حتى أصبح هذا الجامع من أبرز مواطن الثقافة في دمشق تناوب فيه جلّة من أعلام العلماء الذين لا تزال أسماؤهم لامعة في ميادين العلوم الشرعية، ولا تزال آثارهم ومؤلفاتهم باقية حتى اليوم.

يصور أحد الشعراء المعاصرين للملك نور الدين محمود، وهو علي بن منصور السرُوجي المتوفى سنة ٥٧٢هـ (١١٧٦م) نشاط التعليم في هذا الجامع في قصيدة وصف بها النشاط العلمي الذي شهدته دمشق في العهد الزنكي فيقول:

كأنها جنـــــة للخُلدِ دانيــــة   قصورُها فُتِحت مِنهــا المقاصيرُ
في كُلّ قُطرٍ بهــا للعلمِ مدرسة   وجامِعُ جامِعُ للديـــن معمورُ

يُتلى القرآنُ به في كـلّ ناحيةٍ والعلمُ يذكُر فِيه والتفاسيرُ
تكاملَ الحسنُ فيه مثل ما كمُلت أوصافُ مولى بِنشرِ العدلِ مشهورُ
الملك والدّيْنُ والدّنْيا بأجمعِها وللخليفة من أنـوارِه سُورُ[1]

وكان من أشهر مرافق التعليم في هذا الجامع مايأتي:

١ـ الزاوية الغزالية:

تقع في الجهة الشمالية الغربية من الجامع الأموي[2] كانت تُنسب إلى الشيخ نصر المقدسي المتوفى سنة ٤٩٠هـ (١٠٩٧م)؛[3] ثم نُسبت إلى الشيخ أبي حامد الغزالي المتوفى سنة ٥٠٥هـ (١١١٢م)[4] لكونه دخل دمشق، وقصد الخانِقاه السِميساطِيّة

---

(١) سبط ابن الجوزي. مرآة الزمان.- ج٨، ق١، ص٣٣٩ . وهي قصيدة من البحر البسيط.

(٢) وردت هذه الزاوية عند أبن شداد في الأعلاق (قسم دمشق).- ص٨٤، ضمن الباب الخاص بالجامع المعمور وجعلها ضمن المدارس الداخلة في هذا الجامع، كما ذكرها في موضع آخر ضمن الزوايا الموجودة بالجامع باسم (الزاوية الغزالية) ص٢٤٦، أما النعيمي فقد أدرجها ضمن مدارس الشافعية (الدارس.- ج ١، ص٤١٣) وفيه إنما نُسبت إلى الشيخ نصر المقدسي لكونه أول من درّس بها (ج ١، ص٤١٥).

(٣) هو الشيخ نصر بن إبراهيم المقدسي، النابلسي، شيخ الشافعية بالشام، وصاحب التصانيف المشهورة، كان إمامًا علامة مفتيًا محدثًا قدم دمشق سنة ٤٨٠هـ (١٠٨٧م) فسكنها وعظم شأنه بها وقد اجتمع بها الإمام الغزالي في دمشق واستفاد منه وتفقه به جماعة من دمشق وغيرها توفي سنة ٤٩٠هـ (١٠٩٧م) ودُفن بباب الصغير (ابن عساكر. تاريخ دمشق (مخطوط)- ج ١٧ ص٥٣٦ ؛ الذهبي. العبر.- ج٢، ص٣٦٣ ؛ السبكي. طبقات الشافعية.- ج٥، ص٣٥١ـ٣٥٣ ؛ الأسنوي. طبقات الشافعية.- ج٢، ص٣٨٩ـ٣٩٠).

(٤) هو الإمام أبو حامد زين الدين حجة الإسلام محمد بن محمد بن محمد بن أحمد الغزالي الطُوسِي، الفقيه الشافعي، ولد بطُوس سنة ٤٥٠هـ (١٠٥٨م)، تولى تدريس المدرسة النظامية ببغداد سنة ٤٨٤هـ (١٠٩١م)، وعلت مكانته بها، ثم تركها متوجهًا إلى الحج سنة ٤٨٨هـ (١٠٩٥م) فلما رجع أقام بدمشق مدة يذكر الدروس في جامعها وانتقل منها إلى بيت المقدس، ثم قصد مصر، وأقام بالإسكندرية مدة، ثم عاد إلى وطنه طُوس واشتغل بالتصنيف حتى وفاته سنة ٥٠٥هـ (١١١٢م) ابن الجوزي. المنتظم.- ج٩، ص١٦٨ـ١٧٠ ؛ ابن خلكان. وفيات الأعيان.- ج٤، ص٢١٦ـ٢١٩ ؛ الذهبي. سير أعلام النبلاء، ج ١٩، ص٣٢٢ ـ ٣٤٦ ؛ السبكي المصدر السابق.- ج٦، ص١٩١ ـ ٢١٩).

ليدخل إليها فمنعه الصُوفيّة من ذلك لعدم معرفتهم به، فعدل عنها وأقام بهذه الزاوية بالجامع إلى أن عُلِمَ مكانه، وعُرِفَت منزلته؛ فحضر الصوفية بأسرهم إليه واعتذروا له، وأدخلوه إلى الخانقاه، فعُرفت تلك الزاوية به.[1]

وقد ذكر النعيمي[2] عددًا من العلماء الذي درّسُوا في هذه الزاوية بعد الشيخ نصر المقدسي منهم:

تلميذه عالم الشام أبو الفتح نصر الله المُصيصِي المتوفى سنة ٥٤٢هـ (١١٤٧م)،[3] والشيخ أبو النصر محمد بن علي الطُوسِيّ المتوفى سنة ٥٦١هـ (١١٦٦م)،[4] وخطيب دمشق أبو البركات الخضر بن شبل الحارثي المعروف باب عبد المتوفى سنة ٥٦٢هـ (١١٦٧م)،[5] والصائن أبو الحسين هبة الله بن الحسن بن عساكِر المتوفى سنة ٥٦٣هـ (١١٦٨م)،[6] وأبو الفضائل عبدالرحيم بن رُستم الزنجاني المتوفى سنة ٥٦٣هـ

---

(١) ابن شداد. الأعلاق الخطيرة (قسم دمشق).- ص٢٤٦ ـ ٢٤٧.

(٢) الدارس.- ج ١، ص١١٥ ـ ٤١٨.

(٣) أبو الفتح نصر الله بن محمد بن عبدالقوي المعروف بالمُصيصي الأشعري نسبًا ومذهبًا، سكن دمشق ودرّس بالمدرسة الجارُوخِيّة، كما درّس بالزاوية الغزالية، وله أوقاف على وجوه البر تُوفي في ربيع الأول سنة ٥٤٢هـ (١١٤٧م) ودُفن بمقابر باب الصغير (ابن عساكر. تاريخ دمشق (مخطوط)-ج ١٧، ص٥٣٣؛ الذهبي. العبر.- ج٢، ص٤٦٢؛ السبكي، طبقات الشافعية.- ج٧، ص٣٢٠ ـ ٣٢١)

(٤) هو محمد بن علي بن الوزير أبي نصر أحمد بن الوزير نظام الملك أبي علي الطُوسي، درّس ببغداد بمدرسة جدة (النظامية)، وفوض إليه النظر في أوقافها، ثم حجّ ومرّ بدمشق.- وأقام بها ودرّس بالزاوية الغزالية وأقام على تدريس هذه الزاوية إلى أن توفي سنة ٥٦١هـ (١١٦٦م) (الصفدي.- الوافي بالوفيات.- ج٤، نشر باعتناء: هلموت ريتر، فسبادن، ١٣٨١هـ (١٩٦١م) ص١٤٣؛ النعيمي. المصدر السابق.-ج ١، ص٤١٥ ـ ٤١٦).

(٥) سبقت ترجمته في الفصل الثالث.

(٦) أبو الحسين هبة الله بن الحسن بن هبة الله بن عساكر الفقيه الشافعي، قرأ القرآن بالقراءات على جماعة، وسمع ببغداد، وأفتى، وكان ورعًا خيّرًا، عُرِضت عليه خطابة الجامع.

(١١٦٨م)؛[١] ثم درّس بها مرتين العلامة قطب الدين النيسابُورِي المتوفى سنة ٥٧٨هـ (١١٨٢م).[٢]

وتدريس جميع هؤلاء العلماء الأعلام في الفقه الشافعي في هذه الزاوية يؤكد الأثر الكبير والنشاط العلمي المتواصل في هذا الجامع رغم انتشار المدارس في دمشق في هذا العهد، وربما أن هذا النشاط يفوق نشاط الكثير من مدارس دمشق في تلك الفترة سيّما وأن هذه الزاوية تناوب عليها جُلّة من أقطاب الفقه الشافعي في بلاد الشام في ذلك العصر.

٢ ـ السُبعُ المُجاهِدي:

يقصد بالسبع، قراءة سبع من القرآن. ثم أطلق على المكان الذي كان يقرأ السبع فيه،[٣] ويقع هذا السبع على ما ذكر النعيمي داخل الجامع بمقصورة الخِضر داخل باب الزيادة،[٤] ويُنسب للأمير مُجاهد الدين أبو الفوارِس بُزان بن يامِين المتوفى سنة ٥٥٥هـ (١١٦٠م).[٥]

---

(١) هو عبدالرحيم بن رُستُم الفقيه الشافعي، تفقه ببغداد، وقدم دمشق.- ودرّس بها في المدرسة المُجاهدية، ثم بالزاوية الغزالية، ثم ولي قضاء بعلبك، ولم يزل بها حتى قتل شهيدًا في ربيع الآخر سنة ٥٦٣هـ (١١٦٨م) (السبكي. طبقات الشافعية.- ج٧، ص١٥٩؛ النعيمي. الدارس.- ج ١، ص٤١٨).

(٢) سبقت ترجمته في الفصل الأول.

(٣) ابن عساكر. تاريخ دمشق.- ج٢، ق١، ص٤٩، هامش (١).

(٤) المصدر السابق.-ج ١، ص٤٥٣.

(٥) أحد مقدمي الجيش بالشام في دولة نور الدين محمود، موصوف بالشجاعة والبسالة، مواظب على الصلات والصدقات توفي في داره بدمشق في صفر سنة ٥٥٥هـ (١١٦٠م) ودُفن بالمدرسة المشهورة باسمه (ابن القلانسي. تاريخ دمشق.- ص٥٤٧ـ٥٤٨؛ أبو شامة. كتاب الروضتين، ج ١، ق١، ص٣٠٩؛ ابن كثير. البداية والنهاية.- ج ١٢، ص٢٤٣).

٣ ـ الحلقة الكوثرية:

تقع هذه الحلقة تجاه شباك الكلاّسة تحت مئذنة العرُوس بالجامع الأموي،[١] وقفها الملك نور الدين محمود على صبيان صغار وأيتام يقرأون في كل يوم بعد صلاة العصر "سورة الإخلاص" ثلاث مرات يهدون ثوابها للواقف ولهم على ذلك مُرتّب يتناولونه من ديوان السُبع الكبير.[٢] وقد ذكر النعيمي أن عدد طلاب هذه الحلقة في عصر واقفها يصل إلى ثلاث مئة وأربعة وخمسين طالبًا.[٣]

وذكر بدران أن الدراسة في هذه الحلقة قد انقطعت، أما بناؤها فلا يزال باق وهو عبارة عن حجرة يسكنها متولى الجامع، ويُدرِّس بها إن كان عالماً.[٤]

٤ ـ حلقة لإقراء القرآن الكريم تحت قبّة النسر:

ورد في ترجمة المقرئ الحنبلي أبو العباس أحمد بن الحسين العراقي المتوفى سنة ٥٨٨هـ (١١٩٢م) أنه قدم دمشق سنة ٥٤٠هـ (١١٤٥م) فنزل بها، وكان يقعد لإقراء القرآن في الجامع الأموي تحت قبة النسر.[٥]

٥ ـ مجلس الحافظ ابن عساكر:

ذكر ياقوت الحموي أن الحافظ أبا القاسم علي بن الحسن بن عساكر المتوفى سنة ٥٧١هـ (١١٧٦م) أملى أربع مئة مجلس وثمانية مجالس في فنٍ واحد،[٦] وكان الجامع

---

(١) النعيمي. المصدر السابق.-ج ١، ص٤٥١.

(٢) ابن شداد. الأعلاق (قسم دمشق).- ص٨٥ ؛ النعيمي. المصدر السابق.-ج ١، ص٤٥١.

(٣) الدارس.- ج ١، ص٤٥١.

(٤) منادمة الأطلال، ص١٤٦.

(٥) هو أحمد بن الحسين بن أحمد بن محمد البغدادي المقرئ المعروف بالعراقي نزيل دمشق.- قرأ القرآن بالقراءات وأقرأه بالجامع الأموي بدمشق.- وكان حنبلي المذهب. (ابن الجزري: غاية النهاية، ج ١، ص٥٠ ؛ ابن العماد الحنبلي: الشذرات، ص٤، ص٢٩٢)

(٦) معجم الأدباء.- ج ١٣، ص٨١.

الكبير بدمشق ميدان هذه الأمالي وبخاصة قبل إنشاء دار الحديث النورية بدمشق، والتي أملى كثيرًا من مجالسة فيها.[1]

كما كانت تُعقد بالمنارة الشرقية من هذا الجامع مجالس لسماع مصنّفه الكبير"تاريخ دمشق"، وقد حُفِظت لنا العديد من هذه السماعات ونُشِرت في المجلدة الأولى من الكتاب، وفيها ذكر لتاريخ السماع، وعدد سطور السماع، وعدد السامعين، وهي الأمور التي لابد من ذكرها عند تمام السماع.[2]

٢ ـ جامع القلعة:

هذا الجامع أنشأه الملك العادل نورالدين محمود في قلعة دمشق، وأوقف عليه الأوقاف الكافية للصرف على المسجد وإمامه ومؤذنه،[3] وقد ذكر ابن شداد ضمن مدارس الحنفية" مدرسة بجامع القلعة واقفها الشيهد نور الدين محمود"،[4] كما ذكرها النعيمي باسم: " المدرسة النورية الحنفية الصغرى " بجامع قلعة دمشق.[5] قال عنها ابن شداد: " ولم يُعلم من درّس بها من زمن نورا لدين الشهيد إلى زمن الملك الأشرف غير بهاء الدين عباس،[6] وكان خطيبًا بالجامع، وكان رجلاً فاضلاً".[7]

(١) سيرد الحديث عنها مفصلاً ضمن هذا الفصل إن شاء الله.

(٢) ابن عساكر. تاريخ مدينة دمشق.- المجلدة الأولى، ص٥٨، ١١٦، ١٨٢، ٢٤٦، ٣١٠، ٣٧٢، ٤٢٨، ٤٨٩، ٥٦٠، ٦٢٠، ٦٢٣، وهذه سماعات الأجزاء العشرة من المجلدة الأولى كان آخرها يوم الخميس الثالث والعشرين من شهر ربيع الآخرة سنة ٥٥٩هـ (١١٦٤م)

(٣) المصدر نفسه.- ج٢، ق١، ص٧٨.

(٤) الأعلاق الخطيرة (قسم دمشق).- ص٢١٨.

(٥) الدارس.- ج ١، ص٦٤٨.

(٦) سمّاه النعيمي. " بهاء الدين عيّاك"ج ١، ص٦٤٨، وسمّاه العلموي: " بهاء الدين بن عباس" (مختصر تنبيه الطالب وإرشاد الدارس إلى أحوال دُوُر القرآن والحديث والمدارس، تحقيق صلاح الدين المنجد، ط١، مطبعة الترقي، دمشق ١٣٦٦هـ (١٩٤٧م).- ص١١٤.

(٧) المصدر السابق.- (قسم دمشق).- ص٢١٨.

ب ـ المدارس:

كانت أول مدرسة أشارت المصادر إلى إنشائها في دمشق سنة ٤٩١هـ (١٠٩٧م) وهي المدرسة الصادِريّة الحنفية، ثم تلا ذلك إنشاء العديد من المدارس، في الحكم الزنكي لدمشق (٥٤٩ ـ ٥٦٩هـ/١١٥٤ ـ ١١٧٤م)، وقد توزعت تلك المدارس على المذاهب السنية الأربعة، ولكن المذهب الحنفي، والشافعي هما السائدان على مدارس دمشق في ذلك العهد يليهما المذهب الحنبلي، وأخيرًا المذهب المالكي، والذي لم يكن من نصيبه إلا مدرسة واحدة. وكانت أبرز المدارس بناءً على الغالب تدريسه من هذه المذاهب، وطبقًا لأقدمية إنشائها مايأتي:

أولاً: المدارس الحنفية:

١ ـ المدرسة الصادِريّة:

أنشئت هذه المدرسة على يد الأمير شُجاع الدولة صادِر بن عبدالله سنة ٤٩١هـ (١٠٩٧م) داخل باب البريد مما يلي الباب الغربي للجامع الأموي وهي أول مدرسة أنشئت في دمشق.[1]

وقد ذكر بدران هذه المدرسة من جملة ما اندرس من المدارس، واسمها مشهور معلوم، ولم يبق من أطلالها إلا بعض من صحنها، وبه بركة ماء، بينما تحوّل أكثر أملاكها إلى دُوُر للسكنى، ومحلها يقال له الصادرية.[2]

وقد ذكر ابن شداد أن أول من درّس بها الإمام العالم علي بن أحمد بن مكي المتوفى سنة ٥٩٨هـ (١٢٠١م)[3] قال عنه ابن عساكر: " قدم دمشق وسكنها، وكان

---

(١) ابن عساكر. تاريخ مدينة دمشق.- ج٢، ق١، ص٧٥؛ ابن شداد. الأعلاق (قسم دمشق) ص١٩٩ ـ ٢٠٠؛ النعيمي. الدارس.- ج ١، ص٥٣٧؛ العلموي. المختصر.- ص٩٤

(٢) منادمة الأطلال.- ص١٧٩.

(٣) المصدر السابق.- ص٢٠٠، وقد سبقت ترجمة علي بن أحمد بن مكي في الفصل الثالث.

يُدرِّس بالمدرسة الصادرية، ويُفتي على مذهب أبي حنيفة، ويشهد، ويناظر في مسائل الخلاف[1]، ولم يزل الإمام علي بن أحمد بن مكّي بها إلى أن تنازل عنها للإمام أبي الحسن علي البلخِي المتوفى سنة ٥٤٨هـ (١١٥٣م)،[2] ثم وليها بعده الشهاب ابن أبي العيش الدمشقي الأصل، وكان جد الشهاب النقيب لأمه، وإليه ينسب بنو العيش.[3]

وقد ذكر الحافظ أبو محمد عبدالخالق بن أسد الدمشقي المتوفى سنة ٥٦٤هـ (١١٦٨م) ضمن من درسوا في هذه المدرسة[4] كما درّس بها أبو الظفر محمد بن أسعد ابن الحكيم العراقي المتوفى سنة ٥٦٧هـ (١١٧١م).[5]

٢ ـ المدرسة الطرخانيّة:

قال ابن عساكر في تعداد مساجد دمشق: " مسجد بالمدرسة المعروفة بدار طرخان. وهي كانت قديمًا للشريف أبي عبدالله بن أبي الحسن فوقفها سِنقر الموصلي وجعلها

---

(١) المصدر السابق (مخطوط)- ج ١٢، ص٥٤٤.

(٢) سبقت ترجمته في الفصل الأول.

(٣) ابن شداد. الأعلاق (قسم دمشق) ص٢٠٠، ولم أقف في المصادر على ترجمة للشهاب الدمشقي.

(٤) أبو محمد عبدالخالق بن أسد الدمشقي المُحدث، مُدرّس الصادِريّة والمُعينيّة، سمع من جماعة بدمشق وبغداد والكوفة وأصبهان قال عنه العماد الأصفهاني: "لقيته في دمشق مدرس بالمدرسة الصادِرية" وكانت وفاته بها في محرم سنة ٥٦٤هـ (١١٦٨م) (العماد الأصفهاني: خريدة القصر.- (قسم شعراء الشام)ج ١، ص٢٨٢ ـ ٢٨٣ ؛ الذهبي. العبر.- ج٣، ص٤٣ ـ ٤٤).

(٥) أبو المظفر محمد بن أسعد بن الحكيم العراقي الحنفي الواعظ، درّس بالطرخانية، والصادِرية، والمُعينيّة، وروى المقامات عن الحريري، وصنّف لها شرحًا، كما صنّف في تفسير القرآن وعاش نيفًا وثمانين سنة، وكانت وفاته سنة ٥٦٧هـ (١١٧١م) (الذهبي. المصدر السابق.- ج٣ ص٥٢ ؛ القرشي: الجواهر المضيّة.- ج٣، ص٨٩ ـ ٩٢).

مدرسة لأصحاب أبي حنيفة"،[1] وقال ابن شداد أن هذه المدرسة تقع بجيُرون[2]، أنشأها الحاج ناصر الدولة طرخان أنشئت للشيخ برهان الدين أبي الحسن البلخِي في سنة ٥٢٥هـ (١١٣١م)،[3] وقال الذهبي في ترجمة الشيخ أبي الحسن البلخِي: " درّس بالصادِرِيّة، ثم جعلت له دار الأمير طرخان مدرسة"،[4] وقال الصفدي: " طرخان بن محمود الشيباني، أحد الأمراء الكبار بدمشق، صاحب المدرسة التي بجيرون، توفي في حدود الخمسمائة والعشرين".[5]

إذًا هناك أكثر من رأي، في نسبة هذه المدرسة، ففي الوقت الذي ينسبها ابن عساكر لسنقر الموصلي، نجد أن كلاً من ابن شداد، والصفدي ينسبانها للأمير طرخان، بينما لم يُبيّن الذهبي واقف المدرسة، ويبدو أن موقع هذه المدرسة كان دارًا للأمير طرخان، وأن سنقر الموصلي اشتراها، ووقفها مدرسة لأصحاب أبي حنيفة، ولعله مما يقوي هذا الرأي " رواية ابن عساكر " وهو القريب من الحدث، إضافة إلى رواية ابن شداد الذي ذكر: أنها أنشئت في سنة ٥٢٥هـ (١١٣١م)،[6] بينما يذكر ابن القلانسي أن وفاة الأمير طرخان بن محمود الشيباني أحد أمراء دمشق كانت في رجب سنة ٥٢٠هـ (١١٢٦م)[7]

---

(١) تاريخ مدينة دمشق.- ج٢، ق١، ص٧٢.
(٢) جيرُون: سقيفة مستطيلة على عمد وسقائف، وحولها المدينة تطيف بها، قال ياقوت. والمعروف اليوم أن بابًا من أبواب الجامع بدمشق.- وهو بابه الشرقي، يقال له باب جيرون، (معجم البلدان.- ج٢، ص١٩٩).
(٣) الأعلاق (قسم دمشق).- ص٢٠١.
(٤) العبر.- ج٣، ص٦.
(٥) الوافي بالوفيات، ج ١٦، نشر باعتناء: وداد القاضي، فسبادن، ١٤٠٢هـ (١٩٨٢م).- ص ٤٢٥.
(٦) الأعلاق (قسم دمشق).- ص٢٠١.
(٧) تاريخ دمشق.- ص٣٤٤.

فكيف يتفق تاريخ نشأتها بعد وفاة مُنشئها. وقد حدد النعيمي موقع هذه المدرسة قبلي المدرسة البادرائِيّة،[1] وحدد موقع المدرسة البادرائية داخل باب الفراديس والسلامة شمالي باب جيرُون.[2]

وقد اندثرت هذه المدرسة ولم يبق لها أي أثر، وقد أدرج موقعها ضمن الأملاك الخاصّة. وكان أول من درّس بها الشيخ بُرهان الدين أبو الحسن البلخِيّ المتوفى سنة ٥٤٨هـ (١١٥٣م)،[3] ودرّس بها بعده جماعة منهم أبو المظفر محمد بن أسعد بن الحكيم العراقي مدرس الصادرية المتوفى سنة ٥٦٧هـ (١١٧١م).[4]

٣ ـ المدرسة المُعِينِيّة:

ذكرها ابن عساكر ضمن مساجد دمشق فقال: "مسجد في المدرسة المُعِينيّة، في قصر الثقفيين"،[5] وقال ابن شداد أنها بحصن الثقفيين أنشأها معين الدين أُنُر[6] أتابك الأمير مجير الدين آبق[7] (آخر الحكام البوريين بدمشق) وقد ذكر النعيمي أن موقعها

---

(١) الدارس.- ج ١، ص٥٣٩.

(٢) المصدر نفسه، ج ١، ص٢٠٥.

(٣) ابن شداد. المصدر السابق (قسم دمشق).- ص٢٠١ ؛ الذهبي، المصدر السابق.- ج٣، ص٦.

(٤) الذهبي. العبر.- ج٣، ص٥٢ ؛ الصفدي.- الوافي بالوفيات.- ج٢، نشر باعتناء: س. ديدرينغ، فسبادن، ١٤٠١هـ (١٩٨١م).- ص٢٠٣.

(٥) تاريخ مدينة دمشق.- ج٢، ق١، ص٧٦.

(٦) معين الدين أنر بن عبدالله الطُغتكِيني مقدم عسكر دمشق ومدبر الدولة البورية، كان شُجاعًا حسن الديانة كثير الصدقات توفي في ربيع الآخر سنة ٥٤٤هـ (١١٤٩م) ودُفن في إيون الدار الأتابكية التي كان يسكنها، ثم نُقل بعد ذلك إلى المدرسة التي عمرها. (ابن القلانسي. تاريخ دمشق.- ص٤٧٥-٤٧٦ ؛ الذهبي. المصدر السابق.- ج٢، ص٤٦٦ - ٤٦٧).

(٧) الأعلاق (قسم دمشق).- ص٢١٠، وقد جعل سنة إنشائها، ٥٥٥هـ (١١٦٠م) مع أن منشئها توفي سنة ٥٤٤هـ (١١٤٩م) وهذا وهم واضح.

بالطريق الآخذ إلى باب المدرسة العصرونية الشافعية[١] كما ذكر الصفدي: أن معين الدين قد بنى هذه المدرسة للشيخ أبي المظفر محمد بن أسعد الفقيه الحنفي المعروف بابن الحكيم العراقي مُدرّس الصادِريّة والطرخانِيّة المتوفى سنة ٥٦٧هـ (١١٧١م)،[٢] وذكر ابن العماد الحنبلي أن الحافظ الدمشقي عبدالخالق بن أسد مُدرّس المدرسة الصادِريّة المتوفى سنة ٥٦٤هـ (١١٦٨م) قد درّس في هذه المدرسة،[٣] ولكنه يسميها المُعتبِيّة، ولعل ذلك تصحيفًا من الناسخ. وقد اندرست هذه المدرسة ولم يبق لها أي أثر في الوقت الحاضر.[٤]

٤ ـ المدرسة النُورية الكُبرى:

ذكر كل من أبي شامة[٥] وابن شداد[٦] أنّ هذه المدرسة تقع بخط الخوّاصين،[٧] وأن الذي بناها هو الملك نور الدين محمود زنكي، ولكن النعيمي يضيف إلى ذلك قوله: "وفيه نظر إنما أنشأها ولده الملك الصالح إسماعيل، ثم نقله من القلعة بعد فراغها ودفنه بها"،[٨] ولم يدعم النعيمي روايته هذه بأي دليل سوى أنه أشار إلى أن جثمان نور الدين لم يدفن عقب وفاته في تربته بالمدرسة، وإنما دُفن في القلعة، وأن ابنه الملك

(١) الدارس.- ج ١، ص٥٨٨.
(٢) المصدر السابق.- ج٢، ص٢٠٣.
(٣) الشذرات.- ج٤، ص٢١٢.
(٤) Elissef, N, op, Cit, I3, p, 920.
(٥) كتاب الروضتين.-ج ١، ق٢، ص٥٨٣.
(٦) الأعلاق الخطيرة (قسم دمشق).- ص٢٠٣.
(٧) يسميه أهالي دمشق حاليًا "سوق الخيّاطين" ويقع هذا السوق في منطقة الأسواق إلى الجنوب من سوق الحمِيدية وإلى الجنوب الغربي من الجامع الأموي حيث تبعد هذه المدرسة عن الجامع ما يقارب نصف الميل.
(٨) الدارس.- ج ١، ص٦٠٧.

الصالح إسماعيل نقله إلى مكانه الحالي في المدرسة بعد فراغها ودفنه بها،[1] وهذا لا يكفي بأن يكون دليلاً على أن هذه المدرسة لم تبن إلا في عصر ابنه إسماعيل، إذ أنه من الممكن أن تكون المدرسة قد تمّ بناؤها وافتتحت في عصر نور الدين، ولكن التربة لم تكن قد أعدت إذ أن التُرب عادة كانت آخر ما يُشيد من مرافق المدرسة إضافة إلى أن الكتابة التي نُقشت على حجر العتبة العليا للمدخل، والتي يبدو أن النعيمي لم يطّلع عليها قد أثبتت تاريخ البناء وهو سنة ٥٦٧هـ (١١٧١م).

وقد ذكر ابن شداد أن الملك نور الدين قد أنشأ هذه المدرسة عام ٥٦٣هـ (١١٦٧م)[2] بينما الكتابة المنقوشة على الحجر الذي يكون العتبة العليا للمدخل تُشير إلى أن بناءها قد تمّ سنة ٥٦٧هـ (١١٧١م)، فلعل تاريخ (٥٦٣هـ) هو سنة ابتداء العمل بها، وأنها لم تكتمل إلا في التاريخ المدوّن على مدخلها وهو عام (٥٦٧هـ).

ويذكر النعيمي أن موقع هذه المدرسة كان جزءًا من دار الخليفة الأموي هشام ابن عبدالملك (١٠٥ - ١٢٥هـ/٧٢٤ - ٧٤٣م)، والتي كانت دارًا للخليفة الأموي الأول معاوية بن أبي سفيان (٤١ - ٦٠هـ/٦٦١ - ٦٨٠م) وأنه كان لمعاوية دار أخرى بباب الفرادِيس تحت السقيفة، يقال: أنها الدار المعروفة في وقته بدار ابن المُقدّم.[3]

وقد شاهد الرحالة الأندلسي ابن جُبير هذه المدرسة في زيارته لدمشق سنة ٥٨٠هـ (١١٨٤م) ووصفها بأنها من أحسن مدارس الدنيا منظرًا وأنها قصر من القصور الأنيقة.[4]

---

(١) المصدر نفسه، ج ١، ص٦٠٧.
(٢) المصدر السابق.- ص٢٠٣.
(٣) الدارس، ج ١، ص٦٠٧.
(٤) الرحلة.- ص٢٥٦.

وفي هـذه المدرسة يقـول الشاعر المشهـور عرقلة الدمشـقي المتوفى سنة ٥٦٧هـ (١١٧١م).[1]

ومدرسـةُ سيدرُسُ كُلُّ شـيءٍ … وتبقى في حِمى علمٍ ونُسـكِ
تضّوع ذكرُهـا شرقًا وغربًا … بنـورِ الدين محمـود بن زنكـي
يقُول وقولُه حـق وصـدقٌ … بغيرِ كنايـةٍ وبغـير شـك
دمشـق في المدائن بيتُ مُلكـي … وهذي في المدارس بيْتُ مِلكي[2]

وقد نالت هذه المدرسة مكانة علمية كبيرة في ذلك العهد، حيث كانت في مقدمة مدارس دمشق، وبخاصة في عصر منشئها الملك نور الدين محمود والسنوات التي أعقبتها، وحينما تُذكر حركة التعليم في بلاد الشام في تلك العصور يُشار إلى هذه المدرسة في مقدمة دُوُر التعليم، وتتضح أهمية هذه المدرسة في الأثر العلمي الذي قام به شيوخها ومدرسوها ومُعِيدوها، وفي الأعداد الوافرة من الطلاب الذين تخرجوا منها، إضافـة إلى ما قامت به تلك المدرسة من نشاط سياسي واجتماعي كبير في ذلك العهد.

وباستقراء الكتابة المسجلة على الحجر الذي يُكوّن العتبة العليا لباب المدرسة يتبين لنا حجم الأوقاف التي أوقفها نور الدين على هذه المدرسة للإنفاق من ريّعه على الطلاب، والمدرسين، والعاملين بالمدرسة إنفاقًا سخيًا متواصلاً ونص هذه الكتابة كالآتي: " بسم الله الرحمن الرحيم أنشأ هذه المدرسة المباركة الملك العادل الزاهد نور الدين أبو القاسم محمود بن زنكي بن آق سنقر ضاعف الله ثوابه، ووقفها على أصحاب الإمام سراج الأمة أبي حنيفة رضي الله عنه. ووقف عليها، وعلى الفقهاء،

---

(١) هو الشاعر حسان بن نُمير بن عجل، ويسمى عرقلة الكلبي نسبة إلى قبيلة كلب، ذكره العماد في خريدته وقال كان شـيخًا خليعًا أعور ... لطيفًا ظريفًا، لـه قصائد كثيرة في صلاح الدين توفي سنة ٥٦٧هـ (١١٧١م) (الخريدة) (قسم الشام)- ج ١، ص١٧٨ ؛ سبط ابن الجوزي. مرآة الزمان.- ج٨، ق١، ص٢٨٦).

(٢) أبو شامة. كتاب الروضتين.-ج ١، ق٢، ص٥٨٣ ـ ٥٨٤ ؛ وهي قصيدة من البحر الوافر.

والمتفقهة بها جميع الحمّام المُستجد بسُوق القمح، والحمّامين المستجدين بالوراقة ظاهر باب السلامة، والدار المجاورة لهما، والورّاقة بعوينة الحِمي وجسر الوزير، والنصف والربع من بستان الجوزة بالأرزة، والإحدى والعشرين حانوتًا خارج باب الجابية، والساحة الملاصقة لها من الشرق، والستة حقول بداريا، على ما نُص وشُرط فكتب الوقف رغبة في الآخرة والثواب، وتقدمه بين يديه يوم الحساب: فمن بدّله بعدما سمعه فإنما إثمه على الذين يبدلونه إن الله سميع عليم". (١)

وقد بقي جزء من هذه المدرسة قائمًا حتى العصر الحاضر، رغم تهدم بعض معالمها.

أما مدرسو هذه المدرسة فقد نُدِب للتدريس بها نخبة من أعلام الفقه الحنفي ذُكر منهم:

- بهاء الدين بن العُقادة المتوفى سنة ٥٩٦هـ (١١٩٩م)؛ (٢) ثم درّس بها بعده الفقيه الوجيه بُرهان الدين مسعود الدمشقي المتوفى سنة٥٩٩هـ (١٢٠٢م)، (٣) وكان شيخًا عالمًا مشهورًا إلى أن توفي. (٤)

٥ - المدرسة الخاتُونيّة البرّانيّة:

كانت هذه المدرسة مسجدًا أوقفته الست زُمرد خاتون أم شمس الملوك أخت الملك دُقّاق بن تُتُش المتوفاة سنة ٥٥٧هـ (١١٦١م)، (٥) وتاريخ وقفه سنة ٥٢٦هـ (١١٣٢م) على الشيخ أبي الحسن علي البلخِي المتوفى سنة ٥٤٨هـ (١١٥٣م). (٦)

---

(١) انطمست بعض كلمات النص، ولم تتيسر قرأتها، مما لزم الاستعانة بالنصّ الذي أورده عبدالقادر في كتابه منادمة الأطلال، ص٣١٢ - ٣١٣.

(٢) لم تذكر له المصادر معلومات أوسع سوى ما ذكره ابن كثير أن اسمه: بدر الدين بن عسكر رئيس الحنفية بدمشق وأنه يعرف بابن العقادة (البداية والنهاية، ج ١٣، ص٢٤).

(٣) سبقت ترجمته في الفصل الثالث.

(٤) ابن شداد. الأعلاق (قسم دمشق).- ص٢٠٣ ؛ النعيمي. الدارس.- ج ١، ص٦١٨ - ٦١٩.

(٥) سبقت ترجمتها في الفصل الأول.

(٦) ابن شداد. الأعلاق الخطيرة، (قسم دمشق).- ص٢١٨-٢١٩ ؛ النعيمي. الدارس.- ج ١ ص٥٠٢-٥٠٣.

وقد ذكر الذهبي أن الست زُمُرّد خاتون كانت على قدر من الثقافة والعلم استنسخت الكتب وحفظت القرآن وبنت الخاتُونِيّة بصنعاء دمشق، ثم تزوجها أتابك زنكي فبقيت معه تسع سنين، فلما قُتل حجّت وجاورت بالمدينة ودُفِنت بالبقيع.[1]

والجدير ذكره هنا أن زمرد خاتون منشئة هذه المدرسة والمتوفاة بالمدينة سنة ٥٥٧هـ (١١٦١م) غير خاتون بنت معين الدين أُنر زوجة الملك نور الدين والمتوفاة سنة ٥٨١هـ (١١٨٥م) والتي أنشأت المدرسة الخاتونية الحنفية الجُوّانِيّة الواقعة بمحلة حجر الذهب،[2] فقد يختلط الأمر على بعض الباحثين فيعدّون مُنشئ الخاتونية البرّانِيّة والجُوّانِيّة شخص واحد، ومنعًا لاختلاط الأمر بين المدرستين فقد فرّق ابن كثير بينهما في حوادث سنة ٥٨١هـ (١١٨٥م)، فذكر بعد ترجمته للست خاتون عصمت الدين بنت معين الدين واقفة الخاتونية الجوانية بمحلة حجر الذهب، أخبار المدرسة الخاتونية البرّانيّة الواقعة بمحلة صنعاء دِمشق ونسبها للست زُمُرد خاتون بنت جاولي وأخت الملك دُقّاق لأمه.[3]

أما موقع هذه المدرسة فقد ذكر ابن شداد أنه على الشرف القبلي، عند مكان يُسمى صنعاء الشام[4] المُطِل على وادي الشقراء، وهو مشهور بدمشق.[5]

وذكر العلموي أن هذه المدرسة تقع شمالي نهر بانياس، وتطل على الميدان الأخضر، وأنها كانت قديمًا بمأذنة ومنبر وقد رأى ذلك إلى آخر عهد الجراكسة.[6]

---

(١) العبر.- ج٣، ص٢٧.
(٢) هذه المدرسة أنشئت سنة ٥٧٣هـ (١١٧٧م) في عهد الدولة الصلاحِيّة (ابن شداد. المصدر السابق.- ص٢٠٥ ؛ النعيمي. المصدر السابق.-ج ١، ص٥٠٧).
(٣) البداية والنهاية، ج ١٢، ص٣١٨.
(٤) صنعاء: ذكر ياقوت أنها قرية على باب دمشق دون المِزّة مقابل مسجد خاتون خربت، وهي اليوم مزرعة وبساتين (معجم البلدان.- ج٣، ص٤٢٩).
(٥) المصدر السابق.- ص٢١٨.
(٦) المختصر، ص٨٦.

ويذكـر محمـد كـرد عـلي أن هـذه المدرسـة قـد خُـرِّبت في أواخـر حكـم سـلاطين المماليك، ونُقِلت أنقاضـها ليُعمّـر بهـا مدرسة غيرها على باب الجابية[1] ولم يبق لها أي أثر في الوقت الحاضر.

وقد ذكر ابن شداد أن أول من درّس بها الشيخ أبو الحسن علي البلخِي المتوفى سنة ٥٤٨هـ (١١٥٣م)، والذي عُلِم من بعده فخر الدين القاري؛[2] ثم تناوب للتدريس بها جُلّة من علماء المذهب الحنفي جاؤا بعد الحكم الزنكي لدمشق.[3]

ثانيًا : المدارس الشافعية:

١ ـ المدرسة الأمينيّة:

ذكـر ابـن شـداد أن هـذه المدرسـة مـن بنـاء أمـين الدولـة ربيع الإسلام[4]، وزاد عليه النعيمي أنهـا أول مدرسـة بُنِيت للشافعية بدمشق بناها أتابك العساكر بدمشق،[5] وكان يقـال لـه أمين الدولـة[6] وكـان مبدأ التدريس بهـا سنة ٥١٤هـ (١١٢٠م) على ما ذكر الذهبي في ترجمته لجمال الإسلام أبي الحسن علي بن المسلم السُلمِي الدمشقي الشافعي مدرس الغزالِيّة والأمِينيّة ومفتي الشام في عصره المتوفى سنة ٥٣٣هـ (١١٣٨م).[7]

---

(١) خطط الشام.- ج٦، ص٩٠.

(٢) لم أقف على ترجمة له في المصادر التي رجعت إليها.

(٣) الأعلاق: (قسم دمشق).- ص٢١٩.

(٤) المصدر نفسه.- ص٢٣١.

(٥) أمين الدولـة كُمُشتِكِين الطُغتكيني تولى أتابكية العسكر بدمشق سنة ٥٣٠هـ (١١٣٦م) وكان نائبًا على قلعتي بُصري وصَرخد ولاّه عليها الأتابك طغتكِين، وكان أميرًا جليـلاً كبير الحرمة توفي سنة ٥٤١هـ (١١٤٦م) (ابن القلانسي. تاريخ دمشق.- ٣٩٨؛ الذهبي. تاريخ الإسلام وطبقات مشاهير الأعلام، (مخطوط) ميكروفيلم بالمكتبة المركزية بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض، مصوّر عن مكتبة أحمد الثالث برقم (٨٠٥ ف)- ج ١٣، ورقة ١٣٦ ظهر)

(٦) الدارس.- ج ١، ص١٧٨.

(٧) سبقت ترجمته في الفصل الثالث.

حيث ذُكر أنه أوّل من درّس بمدرسة أمين الدولة سنة ٥١٤هـ (١١٢٠م)[١] كما نصّ النعيمي أن وقف هذه المدرسة كان سنة أربع عشرة،[٢] وقد ذكرها ابن عساكر في تعداد مساجد دمشق، " مسجد في المدرسة الأمينية التي تقابل دار الخيل بناه كُمشتِكِين بن عبدالله المعروف بأمين الدولة،[٣] وكان النعيمي قد حدد موقعها قبلي باب الزيادة[٤] من أبواب الجامع الأموي المسمى قديمًا بباب الساعات، وهي شرقي المُجاهِديّة، جوار قيسارِية القواسين[٥] بظهر سوق السلاح، وكان به بابها.[٦] وأما وضعها الحالي: فقد رُمّمت واتخذت مكتبًا للتعليم، ثم اتخذت مدرسة أهليّة، وقد أُنتقص من مساحتها، وتقع اليوم في سوق الحرير.

وقد ذكر النعيمي أنه أوقف على هذه المدرسة غالب ما حولها من سوق السلاح، وقيسارِيّة القواسِين، وأضاف أن أحد شيوخه قد أخبره أنها كانت تسمى: " حِقُّ الذهب" لكثرة أوقافها، ولها أيضًا حصّة بكفر سُوسِيا،[٧] وغير ذلك.[٨]

---

(١) العبر.- ج٢، ص٤٤٥.

(٢) الدارس.- ج ١، ص١٧٩.

(٣) تاريخ مدينة دمشق.- ج٢، ق١، ص٧٤.

(٤) هو الباب القبلي للجامع الأموي، ويُعرف حاليًا بباب القوّافِين (محمد مطيع الحافظ: الجامع الأموي بدمشق.- نصوص لابن جُبير والعُمري والنعيمي. ط١، دار ابن كثير دمشق.- بيروت، ١٤٠٥هـ/ ١٠٨٥م، ص٢٢).

(٥) القيساريّة: اسم يُطلق على ما اتسع من الدور الجامعة، تكون في وسطها غالبًا بركة للماء ودكاكين، وبيوت للتجار، كالأسواق يضمها سوق واحد (حبيب الزيات، خانات دمشق القديمة، بحث منشور في الخزانة الشرقية، بيروت، ١٩٤٦م.- ج٣، ص٤٩-٥٣) وكانت قيسارية القواسِين الواقعة بسوق السلاح من أشهر قيساريات دمشق.

(٦) المصدر السابق.-ج ١، ص١٧٧-١٧٨.

(٧) كفر سُوسيا: يسميه ياقوت كفر سُوسِيّة وهو قرية من قرى دمشق (معجم البلدان.- ج٤، ص٤٦٩)، وهو الآن منطقة معروفة من مناطق دمشق.

(٨) المصدر السابق.-ج ١، ص١٧٨.

وذكر النعيمي أن أول من درّس في هذه المدرسة بتعيين المواقف الشيخ جمال الإسلام أبو الحسن علي بن المسلم السُلمي المتوفى سنة ٥٣٣هـ (١١٣٨م) ثم درّس بها بعده ولده أبو بكر محمد المتوفى سنة ٥٦٤هـ (١١٦٩م)، ثم درّس بها ابنه شرف الدين أبو الحسن علي بن أبي بكر المتوفى سنة ٦٠٢هـ (١٢٠٦م) وقد درّس بها مدة طويلة[١] ولم يذكر ابن شداد خبره ولا خبر أبيه ضمن من درّسوا في هذه المدرسة، وإنما ذكر بعد جمال الإسلام أبا البركات الخضر بن شبل الحارثي المعروف بابن عبد المتوفى سنة ٥٦٢هـ (١١٦٧م) الذي كان خطيبًا بالجامع[٢]، ثم ممن درّس بها الشيخ الإمام قطب الدين النيسابوري الطُربثيثي، وكان مُدرّسًا بالمُجاهدية، ثم بالزاوية الغزالية بعد وفاة شيخها نصر الله المُصيصي سنة ٥٤٢هـ (١١٤٧م)، ثم خرج إلى حلب ودرّس بالنورية، والأسدية، ثم مضى إلى همذان، وولي بها التدريس مدة، ثم عاد إلى دمشق سنة ٥٦٨هـ (١١٧٢م) فدرّس بهذه المدرسة، وبالزاوية الغزالية، وحدّث، وتفرد برئاسة أصحاب المذهب الشافعي.[٣]

وقد ذكر السبكي ضمن من درسوا في هذه المدرسة الشيخ أبا الفضائل الدمشقي المتوفى ٥٦١هـ (١١٦٥م)[٤] نيابة عن القاضي ابن أبي عصرون،[٥] فأثبت بذلك تدريس الشيخ أبي الفضائل، ومن قبله القاضي ابن أبي عصرون في هذه المدرسة.

وممن ذُكِرت إعادته في هذه المدرسة.

ـ الفقيه عبدالكريم الحرستاني المتوفى سنة ٥٦١هـ (١١٦٦م)،[٦] وقد ذكر النعيمي

---

(١) الدارس.- ج ١، ص١٨٠ـ١٨٢.

(٢) الأعلاق (قسم دمشق) ص٢٣١.

(٣) النعيمي. المصدر السابق.-ج ١، ص١٨٣ ـ ١٨٤.

(٤) سبقت ترجمته في الفصل الثالث.

(٥) طبقات الشافعية.- ج٧، ص١٨٦.

(٦) عبدالكريم بن محمد بن أبي الفضل بن محمد بن عبدالواحد الفقيه أبو الفضائل الأنصاري الحرستاني الدمشقي الشافعي ولد بدمشق سنة ٥١٧هـ (١١٢٣م) وسمع بها من عدة علماء، ثم رحل إلى بغداد وسمع بها أيضًا، كما سمع بخراسان وتوفي بدمشق في رمضان سنة ٥٦١هـ (١١٦٦م) (السبكي. المصدر السابق.- ج٤، ص٢٦١ ؛ النعيمي. المصدر السابق.-ج ١، ص٢٠٣).

أنه أعاد بالمدرسة الأمينية على القاضي أبن أبي عصرون[1] كما أعاد في هذه المدرسة أيضًا جمال الأئمة علي بن الحسن بن المانِح المتوفى سنة ٥٦٢هـ (١١٦٧م)، [2] وذكر السبكي أنه أعاد بالأمينية عن ابن أبي عصرون[3] كما أعاد في هذه المدرسة الإمام صائن الدين أبو الحسين هبة الله بن عساكر مُدرّس الزاوية الغزالية المتوفى سنة ٥٦٣هـ (١١٦٨م)، [4] وقد ذكر السبكي أنه كان معيدًا بالأمينية للشيخ جمال الإسلام بن المُسلم مدرسها الأول.[5]

٢ ـ المدرسة المُجاهِدِيّة الجُوانِية:

ذكر النعيمي أن واقف هذه المدرسة هو الأمير الكبير مُجاهد الدين أبو الفوارس بُزّان بن يامين بن علي بن محمد الجلالي الكُردِيّ[6] أحد مقدمي الجيش بالشام في دولة نور الدين محمود وقبله، [7] ولم يذكر ابن شداد اسمه ولا ترجمته عند كلامه عن هذه المدرسة، وإنما ذكره في كلامه عن مساجد دمشق حيث قال: " مسجد في مدرسة بُزّان ابن يامين الكردي المعروف بمجاهد الدين، التي كانت دار الشريف القاضي ابن أبي الجِنّ". [8]

وموقعها بالقرب من سوق الخوّاصِين[9] المسمى بسوق الخيّاطين في الوقت الحاضر،

---

(١) المصدر نفسه، ج ١، ص٢٠٣.
(٢) سبقت ترجته في الفصل الثالث.
(٣) طبقات الشافعية.- ج٧، ص٢١٤.
(٤) سبقت ترجمته ضمن مدرسي الزاوية الغزالية.
(٥) المصدر نفسه.- ج٧، ص٣٢٤.
(٦) واقف السّبع المجاهدي بمقصورة الخضر بالجامع الأموي والمتوفى سنة ٥٥٥هـ (١١٦٠م) وقد سبقت ترجمته في الحديث عن هذا السبع في هذا الفصل.
(٧) الدارس.- ج ١، ص٤٥١.
(٨) الأعلاق (قسم دمشق).- ص١٢١.
(٩) المصدر نفسه.- ص٤٣٢، النعيمي. المصدر السابق.-ج ١، ص٤٥١، العلموي.- المختصر، ص٧١.

ولم يتيسر للباحث الوقوف على مكانها في الوقت الحاضر، ولعلها اندثرت ولم يبق لها أثر.

وذكر ابن شداد أن أوّل من درّس بها الشيخ الإمام قُطب الدين النيسابُورِي ثم وليها بعده الفقيه أبو الفتح نصر الله المُصيصي وتوفي بها سنة ٥٤٢هـ (١١٤٧م) ثم عادت إلى قطب الدين النيسابُورِي عند عودة من العجم المرة الثانية.[١]

بينما يذكر النعيمي أن أول من درّس بها قاضي القضاة (مُنتخب الرين)[٢] أبو المعالي محمد بن أبي الفضل يحيى بن علي القُرشِي الدمشقي المتوفى سنة ٥٣٧هـ (١١٤٢م)؛[٣] ثم درّس بها بعده ولده القاضي زكي الدين أبو الحسن علي المتوفى سنة ٥٦٤هـ (١١٦٩)؛[٤] ثم درّس بها العلامة قطب الدين النيسابُوري لما قدم دمشق في المرة الأولى سنة ٥٤٠هـ (١١٤٥م)، فلما انتقل إلى حلب استعادها القاضي زكي الدين أبو الحسن القُرشِيّ، ثم بعد انتقاله إلى العراق، درّس بها الخطيب أبو البركات الخضر

(١) الأعلاق الخطيرة (قسم دمشق).- ص٢٣٢.

(٢) ورد عند النعيمي (منتخب) بالجيم (الدارس.- ج ١، ص٤٥٣) والصواب (منتخب) بالخاء كما ورد عند ابن تغري بردي. النجوم الزاهرة.- ج٥، ص٢٧٢، وابن طولون "قضاة دمشق" المسمى "الثغر البسام في ذكر من ولي قضاء الشام" تحقيق صلاح الدين المنجد، ط١، دمشق المجمع العلمي العربي (١٩٥٦م).- ص٤٥ ؛ ابن العماد: الشذرات.- ج٤، ص١١٦.

(٣) هو محمد بن أبي الفضل يحيى بن علي بن عبدالعزيز القُرشِي، ولد بدمشق سنة ٤٦٧هـ (١٠٧٤م) وتفقه على الشيخ نصر المقدسي، وناب عن والده في قضاء دمشق.- ثم استقل بالقضاء لما كبر والده، وبعد موته، ودرّس في هذه المدرسة، ثم ولاّه الواقف النظر والتدريس، وتوفي في ربيع الأول، سنة ٥٣٧هـ (١١٤٢م)

(٤) هو أبو الحسن علي بن القاضي المنتخب.- تولى قضاء دمشق هو وأبوه وجده، وقد استعفى من القضاء فأعفي سنة ٥٥٥هـ (١١٦٠م) وانتقل إلى بغداد فتوفي بها في شوال سنة ٥٦٤هـ (١١٦٩م) (الذهبي. العبر.- ج٣، ص٤٤ ؛ النعيمي. المصدر السابق.-ج ١، ص٤٥٣ ـ ٤٥٤ ابن طولون: المصدر السابق.- ص٤٦).

ابن شبل الحارثي المعروف بابن عبد المتوفى سنة ٥٦٢هـ (١١٦٧م)؛[١] ثم درّس بها جمال الأئمة أبو القاسم بن المانح المتوفى سنة ٥٦٢هـ (١١٦٧م)،[٢] واستمرت بعده.[٣]

٣ـ المدرسة المُجاهِدّية البّرانية:

تُنسب هذه المدرسة للأمير مُجاهِد الدين بُزّان واقف المدرسة المُجاهِدية الجُوّانية، وقد دُفِن فيها بعد وفاته.[٤] قال أبو شامة في ذكر وفاة الأمير مجاهد الدين سنة ٥٥٥هـ (١١٦٠م): " وله أوقاف على أبواب البرّ منها المدرستان المنسوبتان إليه، إحداهما التي دُفِن فيها، وهي لزيق باب الفراديس الجدد (يعني هذه المدرسة) والأخرى قبالة باب دار سيف الغربي، في صف مدرسة نور الدين رحمه الله (ويعني المدرسة السابقة) وله وقف على من يقرأ السّبع كل يوم بمقصورة الخضر بجامع دمشق (يعني السّبع المجاهدي) وغير ذلك"،[٥] ويحدد كل من ابن شداد والنعيمي موقع هذه المدرسة بين بابي الفراديس.[٦]

وذكر إليسيف (Elisseeff) أن اسمها تغيّر في الوقت الحاضر فسُميت جامع السادات،[٧] وقد ذكر ابن شداد أن الذي تحقق ممن وليها من المدرسين شمس الدين عبدالكافي، ومن بعده تاج الدين أبو بكر الشحرُور، ثم من بعده تاج الدين المراغِي من أصحاب الشيخ الباذرائي وهو مستمر بها إلى وقته[٨] وهؤلاء جميعهم جاؤا بعد عصر البحث، ولم تُشر المصادر إلى من تولى تدريسها في العهد الزنكي.

---

(١) سبقت ترجمته في الفصل الثالث.
(٢) سبقت ترجمته في الفصل الثالث.
(٣) النعيمي. الدارس.- ج ١، ص٤٥٣ـ٤٥٤.
(٤) المصدر نفسه، ج ١، ص٤٥٥ ؛ العلموي: المختصر، ص٧٢.
(٥) كتاب الروضتين.-ج ١، ق١، ص٣٠٩.
(٦) الأعلاق (قسم دمشق).- ص٢٣٣، المصدر السابق.-ج ١، ص٤٥٥.
(٧) Nur AD-Din, I, 3, 923.
(٨) المصدر السابق.- (قسم دمشق).- ص٢٣٣.

٤ـ المدرسة العِمادِيّة :

اختلفت المصادر في نسبة هذه المدرسة، واسم واقفها على النحو التالي : سمّاها ابن شداد : " المدرسةالعِمادِيّة الصلاحِية " وذكر أن بانيها هو عماد الدين إسماعيل بن نور الدين، والواقف عليها صلاح الدين، وأن أول من درّس بها عِماد الدين الكاتب، [(١)] وخالفه في ذلك النعيمي فقال : " وإنما بناها نورا لدين محمود بن زنكي الشهيد رحمه الله تعالى برسم خطيب دمشق أبي البركات بن عبد الحارثي، وهو أولمن درّس بها، [(٢)] وقد اعتمد النعيمي في ذلك على ما ذكر ابن العديم في ترجمة خطيب دمشق أبي البركات الخضر بن شبل المعروف بابن عبد المتوفى سنة ٥٦٢هـ (١١٦٧م) مدرسها الأول فقال : " درّس الفقه في جامع دمشق، وبالمدرسة المُجاهِديّة، وبزاوية الفقيه نصر المقدسي، ووقف عليه نورا لدين محمود بن زنكي مدرسته التي داخل باب الفرج، ودرّس بها"، [(٣)] كما ترد هذه الرواية عند الذهبي، ويضيف عليها قوله : "وتعرف الآن بالعِمادية" [(٤)] أما العلموي، فقد أورد رواية ابن شداد وقال بعدها : " وهو غلط والصواب أنها بناء نور الدين الشهيد لخطيب دمشق (الخضر بن شبل المعروف بـ) ابن عبد. فلمّا قدِم العماد الكاتب أنزله بها كمال الدين الشهرزُورِيّ فنُسِبت إليه بسكناه بها" [(٥)] ومن هذه النصوص يتضح أحقية نسبة هذه المدرسة للملك العادل نور الدين محمود. وليست كما ذكر ابن شداد لابنه عماد الدين إسماعيل، كما يتضح قيام نشاط تعليمي فيها في زمن حكم نور الدين على يد مدرسها الأول الخضر بن شبل المعروف "

---

(١) الأعلاق : (قسم دمشق).- ص٢٣٧.
(٢) الدارس.- ج ١، ص٤٠٧.
(٣) بغية الطلب (مخطوط).- ج٥، ورقة ١٩٦ وجه.
(٤) العبر.- ج٣، ص٣٧.
(٥) المختصر، ص٦٣ ـ ٦٤

بابن عبد"، وإنما نسبت للعماد الأصفهاني لتدريسه بها بعده، وقد ذكر العماد خبر تدريسه في هذه المدرسة سنة ٥٦٧هـ (١١٧٢م) فقال: " وفي رجب من هذه السنة فوّض إليّ المدرسة التي بحضرة حمام القُصير، وعوّل عليّ في التدريس بها والنظر في أوقافها، وكان الشيخ فيها الفقيه ابن عبد"[١] كما أكّد ياقوت نسبة هذه المدرسة للملك نور الدين محمود بقوله عن العماد الأصفهاني: " فانتقل إلى دمشق ووصل إليها في شعبان سنة اثنتين وستين وخمسمائة، فأنزله قاضي القضاة كمال الدين أبو الفضل محمد بن الشهرزُورِيّ بالمدرسة النورية الشافعية المنسوبة إلى العماد الآن المعروفة بالعمادية، وإنما نسبت إليه لأن الملك العادل نور الدين ولاّه إياها سنة سبع وستين وخمسمائة".[٢]

وموقع هذه المدرسة كما ذكر النعيمي: داخل بأبي الفرج والفرادِيس، لصيق المدرسة الدماغِيّة[٣] من قبلة،[٤] وقد ذكر ابن عساكر في تعداد مساجد دمشق: مسجدًا في المدرسة النورية التي داخل باب الفرج، ملاصقة لزقاق العسل والسور عند حمام القُصير،[٥] فلعله يقصد هذه المدرسة.

ولم يبق لهذه المدرسة أي أثر في الوقت الحاضر، حيث اندرست معالمها وتنوسي ذكرها إلا من الكتب، وحُولت دورًا للسكنى.

وكان أوّل من تولى مهنة التدريس في هذه المدرسة الشيخ أبو البركات الخضر بن

---

(١) البنداري.- سنا البرق الشامي، ق١، ص١١٩.
(٢) معجم الأدباء.- ج ١٩، ص١٢-١٣.
(٣) المدرسة الدماغية: مدرسة تقع داخل باب الفرج وشمالي العمادية مناصفة بين الشافعية والحنفية، (النعيمي. الدارس.- ج ١، ص٢٣٦).
(٤) المصدر نفسه، ج ١، ص٤٠٦.
(٥) تاريخ مدينة دمشق.- ج٢، ق١، ص٧٦.

شبل الحارثي المعروف بابن عبد خطيب دمشق المتوفى سنة ٥٦٣هـ (١١٦٧م)؛[١] ثم من بعده درّس بها ولدان له حتى سنة ٥٦٧هـ (١١٧٢م)، وقد ظهر منهما بعض الانحراف مما اضطر الملك نور الدين محمود أن يستعفيهما، ويُولّي العماد الأصفهاني مكانهما.[٢] يقول العماد في ذلك: " وكان الشيخ فيها ـ أي المدرسة العمادية ـ الفقيه ابن عبد، فلما تُوفي خلّف ولدين، واستمرا فيها على اسم الوالد، ثم خدعهما رجل مغربي استهواهما بعمل الكيمياء ونهج بهما سبيل الإغــواء، فصاهراه وظاهرها، فغاظ نور الدين هذا المعنى وأحضرهمــا، واستوفى عليهما أنــواع التوبيخ، فلم يجد من أحدهما لأمر سمع المُصيخ فقال لي: " تسلم الموضوع، ورتبتي (فيها) مُدرّسًا وناظــرًا". [٣]

٥ ـ المدرسة العصرُونيّة:

تُنسب هذه المدرسة للفقيه العلاّمة قاضي القضاة شرف الدين عبدالله بن محمد ابن أبي عصرون المتوفى سنة ٥٨٥هـ (١١٨٩م)،[٤] وقد بنى له نور الدين مدارس عديدة بحلب وحماة وحِمص وبعلبك وغيرها،[٥] وبنى هو لنفسه مدرسة بحلب وأخرى بدمشق،[٦] أما بالنسبة إلى بناء مدرسة له بحلب فلم تُشر مصادر البحث إلى ما يثبت ذلك، بل إن عصرونية حلب من بناء الملك العادل نور الدين محمود، ولكنه فوّض إلى ابن أبي عصرون مهنة التدريس والنظر فيها فعُرفت به كما سبق،[٧] وأما بالنسبة لمدرسة

(١) سبقت ترجمته في الفصل الثالث.
(٢) النعيمي. السابق.-ج ١، ص٤٠٧ـ ٤٠٨ ؛ العلموي. المختصر، ص٦٢ ـ ٦٤.
(٣) البنداري. سنا البرق الشام.- ق١، ص١١٩ـ١٢٠.
(٤) سبقت ترجمته في الفصل الأول.
(٥) ابن خلكان. وفيات الأعيان.- ج٣، ص٥٤.
(٦) النعيمي الدارس.- ج ١، ص٤٠١.
(٧) راجع ذلك ضمن الحديث عن عصرونية حلب.

دمشق فقد وردت نصوص تفيد أن القاضي شرف الدين بن أبي عصرون قد بنى لنفسه مدرسة بدمشق يقول عنه ابن خلكان: " توفي ليلة الثلاثاء الحادية عشرة من شهر رمضان سنة خمس وثمانين وخمسمائة بمدينة دمشق، ودُفِن في مدرسته التي أنشأها داخل البلد، وهي معروفة به".[1] إضافة إلى أن ابن خلكان لم يذكر دمشق ضمن البلاد التي أنشأ له الملك نور الدين فيها المدارس،[2] مما يؤيد أن باني هذه المدرسة هو شرف الدين ابن أبي عصرون، وقد نسبها ابن شداد إليه فقال: " بانيها قاضي القضاة شرف الدين أبو سعيد عبدالله بن محمد بن هبة الله بن أبي عصرون".[3] أما موقع هذه المدرسة فكانت داخل بابي الفرج والنصر، شرقي القلعة، وغربي الجامع الأموي بمحلة حجر الذهب[4] عند سُويقة باب البريد، قبالة داره، بينهما عرض الطريق.[5]

ويذكر بدران المتوفى سنة ١٣٤٦هـ (١٩٢٧م) أنها تقع بسويقة العصرُونيّة في الجانب القبلي منها وهي مشهورة، وقد أخذت السويقة اسمها من اسم المدرسة العصرونية وصاحبها وقد تناولتها أيدي المختلسين على مرّ الأيام، ثم استخلص أحد المخلصين قسمًا منها وحوله مسجدًا، وليس بها الآن سوى بركة ماء في مساحتها، وإيوان للصلاة في الجهة القبلية، والمدرسة ينزل إليها بدرج، وتحول ما بقي منها إلى حوانيت للبيع والشراء.[6]

وقد احترقت هذه المدرسة في الحريق الكبير الذي حدث بدمشق عام ١٣٢٨هـ

---

(١) المصدر السابق.- ج٣، ص٥٥.
(٢) المصدر نفسه.- ج٣، ص٥٤.
(٣) الأعلاق (قسم دمشق).- ص٢٨.
(٤) النعيمي. الدارس.- ج ١، ص٣٩٨ ؛ العلموي. المختصر.- ص٦٢.
(٥) ابن كثير. البداية والنهاية.- ج ١٢، ص٣٣٣.
(٦) منادمة الأطلال، ص١٣١.

(١٩١٠م) ولم تعد إلى ما كانت عليه، وبقي اسم السوق منسوبًا إليها ورُمّ قبر من أسسها بعض الشيء.[١]

وقد أورد النعيمي أوقاف هذه المدرسة فقال: " ومن وقف المدرسة عشرة قرارايط ونصف قِيراط في قرية هُريرة،[٢] ومنه ببعلبك مزرعتان معروفتان الآن بدير النيط[٣] وقدريهما عشرة قرارايط شركة الخانِقاه، السِميساطِية، ومنه مزرعة تعرف بالجلدِيّة نحو أربعة عشر قيراطًا يزرعها أهل الجعيدِية، ومنه في قرية حمارا[٤] بالمرج الشمالي قيراط ونصف وربع قيراط، ومنها بالثابتِيّة خارج باب الجابية بدمشق بستان يعرف بالسنبُوسِكي"،[٥] وشرط في كتاب الوقف ألا يزاد في عدة فقهائها على عشرين فقيهًا على الشافعية وغيرهم، وأن التدريس فيها يكون وقفًا على ذريّة الواقف، ويُستناب من غير المؤهل للتدريس، وأن يُدرّس بها من تصانيف الواقف[٦] فإن تعذّر من تصانيفه فيُدرّس بها الخِلاف، وأن يكون لكل من أرباب وظائفها كذا وكذا من القراطيس (أي أنه قدر لهم حق معلوم يُصرف من الوقف).[٧]

---

(١) محمد كرد علي.- ج٦، ص٨٤.

(٢) شمالي دمشق للغرب على نحو ثلاثين كيلو مترًا منها (الحسيني. هوامش الدارس.- ج ١، ص ٣٩٨، هامش (٥).

(٣) وهي خربة قديمة تعرف بهذا الاسم على نحو عشرة كيلو مترات من بعلبك (المصدر نفسه هامش (١) ص ٣٩٩)

(٤) لا تُعرف اليوم قرية بهذا الاسم، وإنما توجد مزرعة تسمى (حوش حمار) (النعيمي. الدارس.- ج ١، ص٣٩٩، هامش ٢)

(٥) نفسه.- ج ١، ص٣٩٨-٣٩٩.

(٦) ذكر له ابن خلكان كُتبًا كثيرة منها: " صفوة المذهب في نهاية المطلب ف سبع مجلدات، وكتاب " الانتصار" في أربع مجلدات، وكتاب " المرشد " في مجلدتين، وكتاب " الذريعة في معرفة الشريعة" وصنف " التيسير" في الخلاف أربعة أجزاء وغير ذلك من المصنفات (وفيات الأعيان.- ج٣، ص٥٤)

(٧) النعيمي. المصدر السابق.-ج ١، ص٣٩٩.

وقد درّس في هذه المدرسة جماعة من المشايخ والعلماء، وكان أول من زاول مهنة التدريس فيها بانيها شرف الدين عبدالله بن أبي عصرون، ثم وليها بعده ولداه: قاضي القضاة محي الدين، ونجم الدين.[(١)]

ثالثًا: المدارس المشتركة بين الحنفية والشافعية:

١ ـ المدرسة الأسديّة:

تُنسب هذه المدرسة للأمير أسد الدين شيركُوه[(٢)] أحد أمراء نور الدين الكبار والمتوفى سنة ٥٦٤هـ (١١٦٨م).[(٣)]

وكانت تقع بالشرف القبلي ظاهر مدينة دمشق، وتطل على الميدان الأخضر[(٤)] وذكر كرد على أنها في حديقة الشرف، وأن أنقاضها ماثلة حتى وقته.[(٥)] أما في الوقت الحاضر فقد ضاعت معالمها ولم يبق لها أي أثر. وقد ذكرها المستشرق الفرنسي "إليسيف" في كتابه " نور الدين" فقال عنها: " المدرسة الأسدية حنفية وشافعية، أنشئت قبل سنة أربع وستين وخمسمائة للهجرة، تقع خارج الأسوار (خارج المدينة) إلى الشرف الجنوبي شمالي الميدان الأخضر، أسّسها أسد الدين شيركوه المتوفى سنة ٥٦٤هـ (١١٦٨م) وكانت مسكن الملاّ إسماعيل عبدالوهاب العجمي".[(٦)]

وقد درّس في هذه المدرسة عدد من المدرسين على المذهبين: الحنفي والشافعي ذكر

---

(١) ابن شداد. الأعلاق (قسم دمشق).- ص٢٣٨-٢٣٩، وكانت فترة تدريس ابنه فيها خلال العهد الأيوبي.
(٢) سبقت ترجمته في الفصل الأول.
(٣) ابن شداد. الأعلاق (قسم دمشق).- ص٢٦٢ ؛ النعيمي. الدارس.- ج ١، ص١٥٢.
(٤) النعيمي. المصدر السابق.-ج ١، ص١٥٢ ؛ العلموي. المختصر.- ص٢٧.
(٥) خطط الشام.- ج٦، ص٧٥.
(٦) Elisseeff, op, Cit, T3, p,927

النعيمي منهم خلال العهد الزنكي: الواعظ الحنفي المعروف بابن الشاعر نزيل القاهرة المتوفى سنة ٥٨٤هـ (١١٨٨م)،[١] وكان قد قدم دمشق وسمع من الحافظ ابن عساكر وغيره، فحدّث وأفاد ودرّس بالأسدية بالشرف القبلي.[٢]

وذكر ابن شداد عددًا ممن درّسوا في هذه المدرسة على المذهبين الحنفي والشافعي،[٣] ولكنهم جاؤا في فترة لاحقة للعهد الزنكي، ولم يُعرف أحد ممن تولى التدريس بهما في هذا العهد سوى من ذُكِر.

رابعًا: المدارس الحنبلية:

١ ـ المدرسة الحنبلية الشريفيّة:

ذكر ابن شداد أنها من إنشاء سيف الإسلام أخي صلاح الدين يوسف بن أيوب.[٤] أما النعيمي فإنه على الرغم من اعتماده كثيرًا على ما كتبه ابن شداد في المدارس فإنه يخالفه في نسبة هذه المدرسة فيقول " ولا نغتر بقول ابن شداد حيث قال: " مدرسة سيف الإسلام أخي صلاح الدين يوسفبن أيوب بالقرب من مدرسة الرُواحِيّة داخل باب الفرادِيس"،[٥] ويذكر النعيمي أنها من إنشاء شيخ الحنابلة في وقته شرف الإسلام

---

(١) الفقيه أبو محمد عبدالله بن محمد بن سعد الله أبو محمد البجليّ الجريري البغدادي الحريمي الحنفي الواعظ المعروف بابن الشاعر، سكن دِمشق مدة وسمع بها الحافظ ابن عساكر وابن هلال، وحدث بدمشق.- والقاهرة، ودرس بهما، وانتفع به جماعة وكان مولود ببغداد سنة ٥١٣هـ (١١١٩م) ووفاته بالقاهرة سنة ٥٨٤هـ (١١٨٨م).
المنذري: التكملـة لوفيات النقلة، ج ١، ص١٠٨ـ١٠٩ ؛ القرشي: الجواهر المُضية.- ج٢، ص٣٣٢ـ ٣٣٣ ؛ النعيمي. المصدر السابق.- ج ١، ص٤٧٣).

(٢) الدارس.- ج ١، ص٤٧٣.

(٣) الأعلاق (قسم دمشق).- ص٢٦٢.

(٤) المصدر نفسه.- ص٢٥٥.

(٥) المصدر السابق.- ج٢، ص٦٥.

عبدالوهاب الشيرازِي[1] المتوفى سنة ٥٣٦هـ (١١٤١م)،[2] وينقل العلموي عنه ذلك.[3]

وموقعها كما ذكره النعيمي عند القباقِبية العتيقة[4] المعروفة الآن بالعمارة، بالقرب من الجامع الأموي[5] ولا أثر لها في الوقت الحاضر ولعلها صارت دورًا للسكنى.

وكان أوّل من درّس في هذه المدرسة نجم الدين بن عبدالوهاب الشيرازي المتوفىسنة ٥٨٦هـ (١١٩٠م)؛[6] ثم من بعده ولده ناصح الدين المتوفى سنة ٦٣٤هـ (١٢٣٦م)،[7] واستمرت يتعاقب عليها علماء من ذرّية الواقف.[8]

---

(١) هو شرف الإسلام عبدالوهاب ابن الشيخ أبي الفرج الحنبلي عبدالواحد بن محمد الأنصاري الشيرازي، ثم الدمشقي الفقيه الواعظ شيخ الحنابلة بالشام بعد والده ورئيسهم، وهو واقف المدرسة الحنبلية بدمشق توفي في صفر سنة ٥٣٦هـ (١١٤١م) وكان ذا حرمة وحشمة وقبول ببلده، وله تصانيف حسنة في الفقه والأصول منها: " المنتخب في الفقه " في مجلدتين، و " المفردات" و"البرهان في أصول الدين"، وغير ذلك (الذهبي. سير أعلام النبلاء.- ج٢٠، ص١٠٣ـ١٠٤ ؛ ابن رجب: الذيل على طبقات الحنابلة، ج ١، ص١٩٨ـ٢٠١ ؛ ابن العماد: الشذرات.- ج٤، ص١١٣ـ١١٤).

(٢) المصدر السابق.- ج٢، ص٦٥.

(٣) المختصر، ص١٢٤.

(٤) الدارس.- ج٢، ص٦٤.

(٥) عبدالقادر بدران: منادمة الأطلال، ص٢٣٤.

(٦) سبقت ترجمته في الفصل الرابع.

(٧) هو أبو الفرج ناصح الدين عبدالرحمن بن نجم بن عبدالوهاب ابن الشيخ أبي الفرج الشيرازي الأنصاري الحنبلي الواعظ المفتي، ولد بدمشق سنة ٥٥٤هـ (١١٥٩م) ورحل إلى بغداد وسمع بها، كما سمع بأصبهان، وله خطب ومقامات، انتهت إليه رئاسة المذهب بدمشق ودرّس بها بعدة مدارس منها الحنبلية مدرسة جدة كما درّس بالمسمارِيّة، وكانت وفاته في محرم سنة ٦٣٤هـ (١٢٣٦م) بدمشق.- ودفن بسفح قاسيون. (سبط ابن الجوزي. مرآة الزمان.- ج٨، ق٢، ص٧٠٠ـ٧٠٢ ؛ الذهبي. سيرأعلام النبلاء.- ج٢٣، ص٦ ـ ٧ ؛ ابن رجب: الذيل على طبقات الحنابلة.- ج٢، ص ١٩٣ ـ ٢٠١).

(٨) ابن شداد. الأعلاق (قسم دمشق) ص٢٥٥ـ٢٥٦ ؛ العلموي: المختصر، ص١٢٤.

٢ ـ المدرسة العُمريّة الشيخيّة:

سمّاها ابن شداد مدرسة الشيخ أبي عمر بالجبل في وسط دير الحنابلة، وذكر أن بانيها وواقفها هو الشيخ أبو عمر الكبير[1] والد قاضي القضاة شمس الدين الحنبلي وكان من الأولياء المشهورين،[2] وذكر ابن طولون أنه إلى الشيخ أبي عمر والي ولده أحمد بن قدامة المتوفى سنة ٥٥٨هـ (١١٦٣م)[3] يرجع سبب كثرة أتباع المذهب الحنبلي بدمشق وبلاد الشام، فوالد الشيخ أبي عمر كان قد فرّ بدينه وعياله من نابُلسُ بفلسطين عقب استيلاء الفرنجة على القدس، ووصلوا إلى دمشق في سنة ٥٥١هـ (١١٥٦م)، ونزلوا في سفح جبل قاسِيّون بمسجد أبي صالح، ولهذا عُرِفُوا بالصالحيين، وأقاموا في السفح منزلاً كثير الحجرات عُرِف بدير الحنابلة، ثم تتابع البناء، وعُمّرت تلك الأراضي ودُعِيت بالصالحية نسبة إلى بني قدامة الصالحين لما عُرِف منهم من علم وتقى وصلاح.[4]

---

(١) الشيخ أبو عمر المقدسي الزاهد محمد بن أحمد بن قدامة بن مقدام الحنبلي القدوة الزاهد أخو العلامة موفق الدين ولد بجمّاعِيل (قرية من قرى نابلس بفلسطين) سنة ٥٢٨هـ (١١٣٣م) وهاجر مع عائلته إلى دمشق لاستيلاء الفرنج على الأراضي المقدسة، وسمع بها الحديث من جماعة من العلماء، وحفظ القرآن والفقه، وكان إمامًا فاضلاً مقربًا، سمع الكثير، وكتب بخطه الكثير، خطب بجامع الجبل، ووقف مدرسته هذه على الفقه والقرآن ودرّس فيها أمم وخلق كثير وكانت وفاته في ربيع الأول سنة ٦٠٧هـ (١٢١٠م) ودفن بقاسيون. (الذهبي. المصدر السابق.- ج٢٢، ص٥ ـ ٩ ؛ ابن رجب، المصدر السابق.- ج٢، ص٥٢ ـ ٦١ ؛ ابن العماد: الشذرات.- ج٥، ص٢٧ـ٢٩).

(٢) المصدر السابق.- ص٢٥٩.

(٣) هو الشيخ أحمد بن محمد بن قدامة الزاهد والد الشيخ أبي عمر، والشيخ الموفق وكان خطيب قرية جماعِيل بفلسطين ففرّ بدينه من الفرنج ونزل هو وآله بسفح جبل قاسيون بدمشق.- وكان زاهدًا صالحًا قانتًا لله، وكانت وفاته سنة ٥٥٨هـ (١١٦٣م) وله سبع وستون سنة (الذهبي. العبر.- ج٣، ص٢٩ ؛ ابن تغري بردي. النجوم الزاهرة.- ج٥، ص٣٦٤ ؛ ابن العماد: الشذرات.- ج٤، ص١٨٢)

(٤) القلائد الجوهرية في تاريخ الصلاحية، ج ١، ص١٢٥.

ويذكر دهمان (محقق كتاب القلائد الجوهرية في تاريخ الصالحية) أن بني قدامة هم أول من نشر مذهب الإمام أحمد بن حنبل في دمشق الشام، وأثروه بدراساتهم وتآليفهم التي أصبحت عمدة المذهب فيما بعد، ومن دمشق والشام، انتقل هذا المذهب إلى البلاد النجدية، ولا يزال الحنابلة يؤلفون مجموعة صغيرة في دمشق وضواحيها، وفي جبل نابُلُس (موطن بني قدامة المقدسيين)، وأضاف دهمان: أن بني قدامة أثروا علم الحديث حيث كانوا وعلى مدى مئة عام يُعدون فطاحل علم الحديث، وانتشرت في عصرهم دُوُر جديدة كان لها أكبر الأثر في تنسيق علم الحديث وتصنيف أبحاثه المتعددة إضافة إلى أثرهم في ارتقاء تعليم الإناث في ذلك العهد فقد حرصوا على حضورها الحِلق العلمية، ومجالس الحديث الخاصة بهنّ فنشأ بالصالحية في ذلك العهد نشاط في تعليم الإناث.[1]

وكان لبني قدامة أيضًا أثر في نشاط التعليم بما أقاموا من مكتبات زاخرة بالكتب، ولا تزال المكتبة الظاهرية تحتفظ بالكثير من آثار تلك المكتبات كما أثّروا في الشؤون العامة بالشام حيث تسلّم الكثير منهم وظائف كبيرة وهامة في الدولة كالقضاء، وشاركوا في كثير من المهام الرسمية للدولة كالسفارات بين الدول.[2]

أما موقع هذه المدرسة وحالتها الحاضرة، فكانت تقع بالصالحية قبلي الجامع المُظفّري شرقي دير الحنابلة، وكانت في الأصل مقصبة.[3] ولا تزال موجودة إلى الآن بين مسجدي الشيخ محي الدين والشيخ عبدالغني النابُلُسي.[4] وهي الآن خراب أكل النظّار أوقافها، واستباحوا أخذ خِزانة كتبها المهمة.[5]

---

(١) المصدر نفسه، ج ١، ص٤ ـ ٦.
(٢) ابن طولون: القلائد الجوهرية، ج ١، ص٦.
(٣) المصدر نفسه، ج ١، ص١٦٥.
(٤) محمد أحمد دهمان: في رحاب دمشق.- ط١، دار الفكر دمشق.- ١٤٠٢هـ (١٩٨٢م).- ص٤٦.
(٥) محمد كرد علي: خطط الشام.- ج٦، ص٩٧.

وجـاء في كتـاب الأبنيـة التاريخيـة بدمشـق للمستـشرق الفرنـسي سوفاجـه (Sauvaget) أن بناء هـذه المدرسـة كان مؤلفًا من ساحتين، الخارجية وحولها صفّ من الحجرات المنتظمة، والداخلية هي المدرسة وحجراتها الآن أنقاض باستثناء المحراب، وأن الرواق الذي كان قائمًا على أعمدة تمّ تجديده في القرن الخامس عشر (الميلادي).(١)

خامسًا : المدارس المالكية:

١ ـ المدرسة النُوريّة (الصلاحيّة):

لم يذكر كل من ابن شداد والنعيمي في حديثهما عن مدارس المالكية بدمشق خبر مدرسة نورية كانت في حِجر الذهب،(٢) وإنما ذكر الإربِلِيّ " المدرسة النورية " ضمن مدارس الطائفة المالكية بدمشق ولكنه لم يُحدد موقعها،(٣) ولكن ابن عساكر السابق لهم جميعًا أثبت هذه المدرسة ضمن حديثه عن مساجد دمشق وسمّاها " المدرسة النورية " فقال: " مسجد في المدرسة النورية التي أوقفها (يعني نور الدين) على المالكية في حجر الذهب".(٤)

أما ابن شداد فقد ذكر ضمن مدارس المالكية مدرسة أنشأها السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب ـ فاتح بيت المقدس ـ بالقرب من البيمارِستان النوري،(٥) ونقل عنه

---

(١) Sauvaget, Les Monuments historiques de Damas, Beyrouth, 1932, P. 94

(٢) الأعلاق (قسم دمشق).- ص٢٥٣ـ٢٥٤ ؛ الدارس.- ج٢، ص٣ ـ ٢٨.

(٣) الحسن بن أحمد بن زفر الأربلي المتوفى سنة ٧٢٦هـ (١٣٢٦م). مدارس دمشق وربُطها وجوامعها وحمّاماتها، تحقيق محمد أحمد دهمان .- دمشق : مطبعة الترقي، ١٣٦٦هـ (١٩٤٧م).- ص١٤.

(٤) تاريخ مدينة دمشق.- ج٢، ق١، ص٧٧.

(٥) المصدر السابق.- (قسم دمشق).- ص٢٥٣.

العلموي ذلك،[1] أما النعيمي فقد نقل ما قاله ابن شداد عنها، وقال بعده: "ووجدت بخط الشيخ تقي الدين بن قاضي شهبة الأسدي رحمه الله في تسميته مدارس المالكية تسمية هذه المدرسة بالنُورِيّة".[2]

كما ذكر المستشرق الفرنسي إليسيف هذه المدرسة ونسبها لنور الدين محمود فقال: "المدرسة المالكية الصلاحية بناها نور الدين في حي حجر الذهب بالقرب من المستشفى (يقصد البيمارستان النوري) وقد جُعلت وقفًا على أتباع مالك، وأنها درست واختفت ... وهي على العموم تُذكر باسم الصلاحية ويرجع السبب في هذه التسمية إلى أن صلاح الدين هو الذي أكمل بناءها بعد أن بدأ به نور الدين".[3]

وقد درست هذه المدرسة وضاعت معالمها ولم يبق لها أي أثر في الوقت الحاضر. كما أنه لم ترد في المصادر أية إشارة على قيامها بنشاط تعليمي في فترة الحكم الزنكي لدمشق، وربما أن نشأتها الأولى كانت على يد الملك نور الدين محمود محاولةً منه لتطوير الزاوية المالكية التي أوقفها بالجامع الأموي،[4] وأوقف عليها، فنُسبت إليه كما ورد في بعض المصادر.[5]

جـ ـ دُوُر الحديث:

سبقت الإشارة[6] إلى أنّ الاتجاه إلى العناية بالحديث الشريف دراسة وتدريسًا، وإنشاء دُوُر خاصة به كان من أبرز سمات التعليم في هذا العهد، إذ بادر الملك نور الدين

---

(١) المختصر.- ص١١٩.
(٢) المصدر السابق.- ج٢، ص١٠.
(٣) Elisseeff, N. OP., Cit, T3, P. 928
(٤) ابن جُبير. الرحلة.- ص٢٥٧.
(٥) ابن شداد. الأعلاق (قسم دمشق).- ص٢٥٣ ؛ النعيمي. الدارس.- ج٢، ص١٠.
(٦) المصدر نفسه، ج١، ص٤ ـ ٦.



محمود بإنشاء أول دار للحديث في الإسلام، وهي دار الحديث النورية بدمشق، والتي أوكل مهمة التدريس فيها والإشراف عليها إلى أبرز أعلام عصره في هذا المجال، وهو الحافظ الكبير أبو القاسم بن عساكر المتوفى سنة ٥٧١هـ (١١٧٦م) ثم تلا ذلك إنشاء العديد من دور الحديث في العالم الإسلامي. ولم يكن في دمشق في هذا العهد سوى هذه الدار:

ـ دار الحديث النُورِيّة:

أجمعت كثير من المصادر على أن هذه الدار من إنشاء الملك العادل نور الدين محمود بن زنكي (٥٤١ ـ ٥٦٩هـ/١١٤٦ ـ ١١٧٤م)، وأنها أول دار من نوعها في الإسلام[(١)] قال عنه ابن الأثير: "وبنى بدمشق أيضًا دارًا للحديث، ووقف عليها وعلى من بها من المشتغلين بعلم الحديث وقوفًا كثيرة، وهو أول من بنى دارًا للحديث فيما علمناه"،[(٢)] وتقع هذه الدار في سُوق العصرُونيّة من الجانب القبلي بين دار الحديث الأشرفِيّة والمدرسة العصرونية أمام العادلية الصغرى يفصل بينهما الطريق،[(٣)] ولا تزال معالمها باقية وقد حُولت إلى مسجد تقام به الفروض الخمس.

وكان نور الدين قد عهد بأمر التدريس والنظر في هذه الدار للحافظ الكبير أبي القاسم علي بن الحسن بن عساكر الدمشقي المتوفى سنة ٥٧١هـ (١١٧٦م)،[(٤)] وكان من بين تآليف الحافظ كتاب: سمّاه: "تقوية المُنّة على إنشاء دارِ السُّنة" في ثلاثة أجزاء،[(٥)] حيث كانت هذه الدار تُسمى دار السنة في السماعات القديمة التي قُرِئت بها، وقد زاد من مكانتها أن الذين تولوا التدريس فيها في أول أمرها هما الحافظ الكبير

(١) راجع ص (١٠٠ ـ ١٠٢) من الفصل الثاني.

(٢) ابن الأثير. التاريخ الباهر.- ص١٧٢ ؛ أبو شامة. كتاب الروضتين.-ج ١، ق١، ص٢٣ ؛ السبكي. طبقات الشافعية.- ج٧، ص٢٢٣ ؛ المقريزي. الخطط.- ج٢، ص٣٧٥.

(٣) عبدالقادر بدران، منادمة الأطلال، ص٥٨.

(٤) سبقت ترجمته في الفصل الأول.

(٥) ياقوت. معجم الأدباء.- ج ١٣، ص٧٨.

وابنه القاسم بهاء الدين المتوفى سنة ٦٠٠هـ (١٢٠٣م)[١] من بعده، ثم تناوب فيها جُلّة من علماء الحديث البارزين وكانت هذه الدار مركز إشعاع للدراسات الحديثة في بلاد الشام خلال القرنين السادس والسابع الهجريين (الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين).[٢]

د ـ الخوانِق والرُبُط:

وُجدت في دمشق خلال العهد الزنكي العديد من الخوانق والرّبط، وكان له مشاركة فعالة في إثراء الحياة العلمية في هذا العهد، فقد كانت ميدانًا للتعليم إلى جانب ممارسة التصوف بها كنشاط أساسيٍ أنشئت تلك الدور من أجله، وكانت أبرز هذه المنشآت مايأتي:

أولاً : الخوانق :

١ ـ الخانقاه السُميساطيّة :

تُنسب هذه الخانقاه للسُميساطِي أبي القاسم علي بن محمد بن يحي السُلمي الحُبيشِيّ المتوفى سنة ٤٥٣هـ (١٠٦١م)[٣] كان من أكابر الرؤساء بدمشق.[٤]

---

(١) سبقت ترجمته في الفصل الثالث، وقد ذكر النعيمي أنه لم يتناول من معلومه في هذه الدار شيئًا، فقد تنازل عنه لمن يتردد عليه من الطلبة، وقيل: إنه لم يشرب من مائها، ولم يتوضأ منه (الدارس.- ج ١ ص١٠٣).

(٢) المصدر نفسه، ج ١، ص١٠٠ ـ ١١٣ ؛ العلموي. المختصر.- ص١٩ ـ ٢٠.

(٣) هو علي بن محمد بن يحي بن عبدالله بن محمد بن زكريا أبو القاسم السُلمي الحُبيشِيّ، صاحب دويرة الصوفية، ولد في رمضان سنة ٣٧٧هـ (٩٨٨م) كان بارعًا في الهندسة والهيئة، روى عن جماعة من علماء بغداد، وخرّج له ابن عساكر حديثًا، وكان صاحب حشمة وثروة واسعة ومروءة وافرة عاش ثمانين سنة، وتوفي في ربيع الآخر سنة ٤٥٣هـ (١٠٦١م) ودُفِن من الغد في داره بباب الناطفانيين التي وقفها على فقراء الصوفية، ووقف علويها على الجامع، ووقف أكثر أملاكه على وجه البر (ابن عساكر. تاريخ دمشق (مخطوط)ج ١٢ .- ص٤٣٥ـ٥٣٥ ؛ الذهبي. العبر.- ج٢، ص٣٠٠ ؛ ابن تغري بردي. النجوم الزاهرة.- ج٥، ص٧٠ ؛ النعيمي. الدارس.- ج٢، ص١٥١ ـ ١٥٢ ؛ ابن العماد. الشذرات.- ج٣، ص٢٩١).

(٤) ابن شداد. الأعلاق (قسم دمشق).- ص١٩١ ؛ النعيمي. المصدر السابق.- ج٢، ص١٥١ ؛ العلموي. المختصر.- ص١٤٤ ـ ١٤٥).

وكان موقع هذه الخانقاه دار عبدالعزيز بن مروان الأموي المتوفى سنة ٨٦هـ (٧٠٥م)، ثم انتقلت لابنه الخليفة عمر بن عبدالعزيز (٩٩ - ١٠١هـ/٧١٧ - ٧٢٠م) ولما قدم أبو القاسم السُميساطِيّ دمشق وسكن بدرب الخُزاعِيّة وإليه كان يفتح باب هذه الدار، وعُرف الدرب به، ثم اشترى هذه الدار، وبنى بها الصفة القبلية وجنبها لا غير وباقيها ساحة، ولمّا ملك تاج الدولة تُتُش بن ألب أرسلان السلجوقي دمشق سنة ٤٧١هـ (١٠٨٧م)[١] سألوه أن يفتح لها بابًا في دهليز الجامع فأذن لهم، ففتح حيث هو الآن (في زمن النعيمي المتوفى سنة ٩٢٧هـ/١٥٢١م)؛ ثم عُمّرت، فكان أول من شرع فيها الوزير أبو المظفر الفلكِي المتوفى سنة ٥٦٠هـ (١١٦٥م)،[٢] بنى البركة والصفة الغربية والطباق على دهليزها، ثم عمر مجد الدين بن الداية المتوفى سنة ٥٦٥هـ (١١٧٠م)،[٣] والصفة الشرقية.[٤]

(١) حكم الملك تُتُش بن ألب أرسلان السلجوقي دمشق في الفترة ما بين (٤٧١ - ٤٨٨هـ/١٠٧٨ - ١٠٩٥م) (ابن القلانسي. تاريخ دمشق.- ص١٨٣ - ٢١٢).

(٢) سعيد بن سهل بن محمد بن عبدالله أبو المظفر المعروف بالفلكي النيسابُوري، سكن خوارزم مدة وتولى وزارتها، ودخل بغداد مرارًا وحدث بها، ثم سافر إلى الشام لزيارة القدس فوردها أيام الملك نور الدين محمود، فأكرم مورده، ولم يسمح له العودة إلى بلاده، وأسكنه عنده وأنزله الخانقاه السميساطية وجعله شيخها، فأقام بها مدة لا يتناول من وقفها شيئًا وكان يجمع نصيبه إلى أن جمع مالاً تمكّن به من عمارة الإيوان الذي في الخانقاه، وأقام هناك إلى حين وفاته في شوال سنة ٥٦٠هـ (١١٦٥م) (ابن عساكر. تاريخ دمشق (مخطوط).- ج٧، ص٢٥١ ابن الفوطي. تلخيص مجمع الآداب.- ج٤، ق٣، ص٤٩٦ - ٤٩٧ ؛ الذهبي. سير أعلام النبلاء.- ج٢٠، ص٤٢٢ - ٤٢٣ ؛ الصفدي.- الوافي بالوفيات، ج ١٥ نشر باعتناء: بيرند راتكه، فسبادن، ١٣٩٩هـ (١٩٧٩م).- ص٢٢٤، ولكنه خالف المصادر السابقة فجعل وفاته سنة ٤٧٨هـ (١٠٨٥م) وهذا يخالف الأشخاص والأحداث الوارد ذكرها في ترجمته، فلعل هذا العام تاريخ ولادته.

(٣) سبقت ترجمته ضمن الحديث عن مدرسته التي أنشأها للحنفية بحلب.

(٤) النعيمي. الدارس.- ج٢، ص١٥٢-١٥٣.

قال عنها بدران: " وهي معروفة مشهورة (في زمنه) عند باب الجامع الأموي الشمالي، فكان هذا الباب يسمى باب الناطِفيين"، [1] ويذكر صلاح الدين المنجد أنها على يمين الخارج من الباب الشمالي للجامع الأموي، وكانت تسمى دُويرة الفقراء.[2] أما في الوقت الحاضر فإنه لم يبق لهذه الخانقاه أي أثر فقد اندرست وضاعت معالمها واتخذ مكانها دورًا للسكنى.

وكان أول من تولى مشيخة هذه الخانقاه في العهد الزنكي الوزير أبو المظفر الفلكيّ " سابق الذكر " فقد قد دمشق زمن الملك نور الدين محمود فارتبطه عنده وأنزله هذه الخانِقاه، وجعله شيخها، وساهم أبو المظفر في زيادة عمارتها.[3]

وذكر النعيمي أن الملك نور الدين قد عهد بأمر الخانقاهات والرُّبُط في بلاد الشام سنة ٥٦٣هـ (١١٦٧م) للشيخ أبي الفتح عماد الدين عمر بن علي بن حموية المتوفى سنة ٥٧٧هـ (١١٨١م).[4] وكانت العادة أن ينزل متولي هذه المنصب بالخانقاه السُميساطِية.[5]

٢ ـ خانقاه القصر:

ذكر كل من ابن شداد، [6] والإربلي[7] أن هذه الخانقاه تُنسب لشمس الملوك.

---

(١) منادمة الأطلال، ص٢٧٦.

(٢) ملاحق ذيّل بها كتاب دُوُر القرآن في دمشق لعبدالقادر النعيمي.- ط٢.- بيروت: دار الكتاب الجديد، (١٩٧٣م) ملحق رقم ٣، ص٥٠.

(٣) الصفدي.- الوافي بالوفيات، ج ١٥، ص٢٢٤ ؛ النعيمي. الدارس.- ج٢، ص١٥٣.

(٤) سبقت ترجمته في الفصل الثاني.

(٥) المصدر السابق.- ج٢، ص١٥٣ ـ ١٥٤.

(٦) الأعلاق (قسم دمشق).- ص١٩٢.

(٧) مدارس دمشق وربُطها.- ص ١٦.

وذكر الحُسيني[(١)] أنـه إسماعيل بن تاج الملوك بُوري المتوفى سنة ٥٢٩هـ (١١٣٥م).[(٢)] أما ابن جُبير السابق لـهما فقد نسب هذه الخانقاه للملك نور الدين محمود حيث شاهدها في زيارته لدمشق سنة ٥٨٠هـ (١١٨٤م) ووصفها بقوله: " ومن أعظم ما شاهدناه لـهم (يعني للصوفية) موضع يُعرف بالقصر، وهو صرح عظيم مستقلّ في الهواء، في أعلاه مساكن لم يُر أجمل إشرافًا منها، وهو من البلد بنصف الميل لـه بستان عظيم يتّصل به، وكانت متنزّهًا لأحد الملوك الأتراك، فيقال: إنه كان في إحدى الليالي على راحة، فاجتاز به قوم من الصوفية فهُريق عليهم من النبيذ الذي كانوا يشربونه في ذلك القصر، فرفعوا الأمر لنور الدين، فلم يزل حتى أستوعبه من صاحبه ووقفه برسم الصوفية مؤبدًا لهم. فطال العجب من السماحة بمثله، وبقي أثر الفضل فيه مخلّدًا لنور الدين، رحمه الله.[(٣)]

وقد استبعد الباحث ما أورده ابن جُبير من رواية حول نشأة هذه الخانقاه لما ظهر فيها من مبالغة واضحة، كما أنه يشك في نسبتها لنور الدين محمود لخلاف ذلك مع ما أورده كل من ابن شداد، والإربلي، وهما متخصصان في التاريخ لآثار المنطقة، إذ أنه من الممكن أن يكون نور الدين قد زاد في عمارة هذه الخانقاه، أو في رصد الأوقاف لها خلال فترة حكمه لدمشق. وكانت هذه الخانقاه مطلّة على الميدان[(٤)] أي المرج الأخضر المعروف الآن بالمرجة، وقد انمحت آثارها.[(٥)]

---

(١) محقق كتاب الدارس.- ج٢، ص١٦٧، هامش (٧).

(٢) حكم دمشق في المدة مابين (٥٦٢ ـ ٥٢٩هـ/١١٣٢ ـ ١١٣٤م) (ابن القلانسي. تاريخ دمشق.- ص٣٧٢ ـ ٣٩٠).

(٣) الرحلة.- ص٢٥٧.

(٤) ابن شداد. الأعلاق (قسم دمشق).- ص١٩٢ ؛ النعيمي. الدارس.- ج٢، ص١٦٧ ؛ العلموي. المختصر.- ص١٥١.

(٥) بدران. منادمة الأطلال.- ص٢٨٤.

ولم تُشر المصادر إلى من تولى مشيختها في العهد الزنكي ولكن وجودها في ذلك العهد بات مؤكدًا لما ذكره ابن جبير في وصفه لها.[1]

٣ـ الخانقاه الأسدِيّة:

تُنسب هذه الخانقاه للأمير أسد الدين شيركُوه المتوفى سنة ٥٦٤هـ (١١٦٨م)[2] منشئ المدرسة الأسدية المشتركة بين الحنفية والشافعية بالشرف القبلي ظاهر دمشق[3]، وكانت هذه الخانقاه داخل باب الجابية، بدرب الهاشِمِيين المعروف بباب الوزير،[4] ولم تُشر المصادر إلى شيوخها في العهد الزنكي.

٤ـ خانقاه الطاحُون:

تُنسب هذه الخانقاه للملك العادل نور الدين محمود بن زنكي وهي خارج البلد بالوادي،[5] ولم تُشر المصادر إلى مكانها بالتحديد، كما أنها لم تذكر من تولى مشيختها خلال العهد الزنكي، وقد اندثرت وضاعت معالمها، ولم يبق له أي أثر في الوقت الحاضر.

ثانيًا: الرُّبط:

١ ـ الرّباط البيانِيّ:

جاء ذكر هذا الرباط عند ابن شداد: "رّباط أبي البيان بنا[6] بحارة درب

---

(١) المصدر السابق.- ص٢٥٧.

(٢) ابن شداد. المصدر السابق.- ص١٩٣.

(٣) سبق الحديث عنها في هذا الفصل.

(٤) المصدر نفسه.- ص١٩٣ ويسميه (درب الوزيري) ؛ النعيمي. المصدر السابق.- ج٢، ص١٣٩.

(٥) ابن شداد. الأعلاق الخطيرة، ص١٩٢ ؛ النعيمي. الدارس.- ج٢، ص١٦٤.

(٦) ذكر مترجموه اسمه على أوجه فمنها: (نبا) بتقديم النون، وبعضهم (بنا) بتقديم الباء، وهو أبو البيان، بنا بن محمد بن محفوظ القرشي الدمشقي المعروف بباب الحوراني شيخ الطريقة البيانية بدمشق.- كانت له معرفة تامة باللغة والأدب والفقه، وكان شاعرًا فاضلاً زاهدًا عابدًا، وله تصانيف مفيدة، وأذكار مسجوعة، وأشعار لطيفة وله أصحاب ومريدون، وفقراء بهديه يقتدون، توفي بدمشق في ربيع الأول سنة ٥٥١هـ (١١٥٦م) (ياقوت. معجم الأدباء.- ج ١٩، ص٢١٣ـ ٢١٤ ؛ سبط ابن الجوزي. مرآة الزمان.- ج٨، ق٢٢٧ ـ ٢٢٨ ؛ الذهبي. سير أعلام النبلاء.- ج٢٠، ص٣٢٦ ـ ٣٢٧ ؛ السبكي. طبقات الشافعية.- ج٧، ص٣١٨ ـ ٣٢٠)

الحِجارة"[1]، وذكره النعيمي: داخل باب شرقي بناه أبو البيان بنا بن محمد بن محفوظ القُرشِي الشافعي الدِمشقي الزاهد المعروف بابن الحُورانِي المتوفى سنة ٥٥١هـ (١١٥٦م)،[2] وذكر السبكي: أن هذا الرّباط الذي يُنسب إليه إنما أنشئ بعد موته بأربع سنين، اجتمع أصحابه على بناءه، وقد أعانهم الملك نور الدين وأوقف عليه مكانًا بحُرّين.[3] أما موقع هذا الرّباط فقد ذكر محقق كتاب الدارس أنه في نهاية شارع باب تُوما من ناحية الغرب وعلى يسار الداخل منه.[4] ولم يبق له أثر في الوقت الحاضر.

هـ ـ البيمارستانات:

اشتهر في دمشق في ذلك العهد بيمارستان واحد هو:

ـ البيمارِستان النوري:

يُنسب هذا البيمارستان للملك نور الدين محمود بن زنكي قال عنه ابن الأثير " وبنى البيمارستانات في البلاد، ومن أعظمها البيمارستان الذي بناه بدمشق، فإنه عظيم كثير الخرج بلغني أنه لم يجعله وقفًا على الفقراء فحسب، بل على كافة المسلمين من غني وفقير". [5]

وذكر أبو شامة أن لأصل بنائه نادرة عجيبة وهي: " أن نور الدين رحمه الله وقع في أسره بعض أكابر الملوك من الفرنج، خذلهم الله تعالى، فقطع على نفسه في فدائه مالاً عظيمًا، فشاور نور الدين أمراءه فكل أشار بعدم إطلاقه لما كان فيه من الضرر على

---

(١) المصدر السابق.- ص١٩٥.
(٢) المصدر السابق.- ج٢، ص١٩٢.
(٣) طبقات الشافعية.- ج٧، ص٣١٩، وحُرّين: بلد قريب من أمد (ياقوت. معجم البلدان.- ج ٢، ص٢٥٢) وذكر بدران أن هذا الوقف بقرية جسرين (منادمة الأطلال.- ص ٢٩٥) وهو الأقرب لقرب هذا الموقع من دمشق حيث ذكر ياقوت أنها قرية من قرى الغوطة بدمشق (المصدر السابق.- ج٢، ص٤١٠).
(٤) النعيمي. الدارس.- ج٢، ص١٩٢، هامش (١).
(٥) التاريخ الباهر.- ص١٧٠.

المسلمين، ومال نور الدين إلى الفداء بعدما استخار الله تعالى، فأطلقه ليلاً لئلا يعلم أصحابه، وتسلم المال، فلما بلغ الفرنجي مأمنه مات، وبلغ نور الدين خبره، فأعلم أصحابه فتعجبوا من لطف الله تعالى بالمسلمين حيث جمع الحسنيين، وهما الفِداء وموت ذلك اللّعين، فبنى نور الدين رحمه الله بذلك المال هذا البيمارستان ومنع المال الأمراء لأنه لم يكن عن إرادتهم كان".[1]

كما علّق أبو شامة على قول ابن الأثير: " بلغني أنه لم يجعله وقفًا على الفقراء حسب، بل على كافة المسلمين من غني وفقير"،[2] فقال: " وقد وقفت على كتاب وقفه فلم أره مشعرًا بذلك، وإنما هذا كلام شاع على ألسنة العامة ليقع ما قدره الله تعالى من مزاحمة الأغنياء للفقراء فيه، والله المستعان، وإنما صرّح بأن ما يعزُّ وجوده من الأدوية الكبار وغيرها. لا يمنع منه من احتاج إليه من الأغنياء والفقراء، فخصّ ذلك بذلك، فلا ينبغي أن يتعدى إلى غيره، لا سيما وقد صرّح قبل ذلك بأنه وقف على الفقراء، والمنقطعين، وقال بعد ذلك: من جاء إليه مستوصفًا لمرضه أعطى. وروى أن نور الدين رحمه الله شرب من شراب البيمارستان فيه، وذلك موافق لقوله في كتاب الوقف: من جاء إليه مستوصفًا لمرضه أعطي. والله أعلم"، [3]وهذا الشرط يؤكد الهدف الاجتماعي النبيل من إنشاء هذا البيمارستان إذ كان الفقراء موضع عناية كبيرة لدى الملك نور الدين رحمه الله.

وذكر كرد علي أن هذا البيمارستان ظلّ عامرًا إلى سنة ١٣١٧هـ (١٨٩٩م) وكان أطباؤه وصيادلته لا يقلون عن عشرين رجلاً حتى قامت بلدية دمشق بإنشاء مستشفى للغرباء في الجانب الغربي من التكيّة السليمانية المطلّة على المرج الأخضر، وجمعت له

(١) كتاب الروضتين.-ج ١، ق١، ص٢١.

(٢) المصدر السابق.- ص١٧٠.

(٣) كتاب الروضتين.- ج ١، ق١، ص٢١.

إعانات وأخذ مبلغ من واردات البلدية وأوقاف المستشفى النوري واحتفل في ١٥ ذي القعدة (١٣١٧هـ) بافتتاح المستشفى الجديد.(١) أما بناية المستشفى النوري فقد جعلت مدرسة للبنات ثم اتخذت سنة ١٣٥٦هـ (١٩٣٧م) دارًا لمدرسة التجار الرسمية.(٢) وحالة البيمارستان النوري الحاضر جيدة، وقد رُمّمت قبّة المدخل حديثًا على الشكل الذي كانت عليه، ويقام فيه حاليًا: متحف الطب والعلوم عند العرب التابع للمديرية العامة للآثار والمتاحف السورية.

وكان أبرز الأطباء الذي عملوا في هذا البيمارستان خلال العهد الزنكي هما:

١ ـ الطبيب أبو المجد محمد بن أبي الحكم المتوفى سنة ٥٧٠هـ (١١٧٤م)(٣)قال عنه ابن أبي أصيبعة: "ولما أنشأ الملك العادل نورا لدين البيمارستان الكبير جعل أمر الطب إليه فيه، وأطلق له جامِكِيّة وجراية، وكان يتردد إليه ويعالج المرضى فيه".(٤)

٢ ـ الطبيب مهذب الدين علي بن النقّاش المتوفى سنة ٥٧٤هـ (١١٧٨م)(٥) ذكر ابن أبي أصيبعة أيضًا أنه خدم في البيمارستان الكبير الذي أنشأه الملك العادل نور الدين بدمشق، وبقي به سنين".(٦)

أما عن النشاط العلمي الذي كان يدور في قاعات هذا البيمارستان إلى جانب قيامه بالوظيفة الأساسية التي أنشئ من أجلها. فقد سبق للباحث إيضاحه ضمن الحديث عن أثر البيمارستانات في تعليم الطب.(٧)

---

(١) خطط الشام.- ج٦، ص١٥٩.
(٢) أحمد عيسى. تاريخ البيمارستانات.- ص٢١٣.
(٣) سبقت ترجمته في الفصل الثاني.
(٤) عيون الأنباء.- ص٨٢٦.
(٥) سبقت ترجمته في الفصل الثاني.
(٦) المصدر السابق.- ص٦٣٦.
(٧) راجع المبحث الخاص بالبيمارستانات في الفصل الثاني.

رابعًا: مـدن أخرى:

إضافة إلى المراكز العلمية السابقة (الموصل، حلب، دمشق) فقد ظهرت خلال العهد الزنكي مراكز أخرى أسهمت في الحركة العلمية في ذلك العهد، ولكنها لم تكن في مستوى المراكز السابقة. وهي مدن صغيرة تفاوت فيها الحكم الزنكي بين فترة وأخرى، وكانت أبرز هذه المدن ما يأتي:

١ ـ نصِيبين:

ذكر ابن جبير الذي زار نصيبين سنة ٥٨٠هـ (١١٨٤م) أن فيها مدرستين ومارستان واحد، وكان صاحبها معين الدين أخو عز الدين صاحب الموصل،[١] ولم تُشر المصادر الأخرى إلى اسم هذه المدرسة أو مؤسسها بشكل صريح، ولعلها مدرسة الشيخ كمال الدين الشهرزُورِيّ المتوفى سنة ٥٧٢هـ (١١٧٦م) حيث ذكر ابن الجوزي: أنه بنى مدرسة بالموصل، ومدرسة بنصيبين، وأوقف عليهما وقوفًا،[٢] كما ذكر ابن خلكان: أن لـه أوقافًا كثيرة بالموصل ونصيبين ودمشق،[٣] فلعل هذه المدرسة ضمن ما أوقفه بنصيبين.

٢ ـ سِنجار:

١ ـ المدرسة المُجاهِديّة:

تُنسب هذه المدرسة للأمير مجاهد الدين أبي منصور يرنقش[٤]، وكان شديد التعصب على الشافعية يكثر ذمهم والوقوع فيهم، فأنشأ هذه المدرسة وشرط أن يكون

(١) الرحلة.- ص٢١٥.
(٢) المنتظم.-ج ١٠، ص٢٦٨.
(٣) وفيات الأعيان.- ج٤، ص٢٤٢.
(٤) سبقت ترجمته في الفصل الأول ولم تُعلم سنة وفاته.

النظر في وقوفها إلى الحنفية من أولاده دون الشافعية[1]، وأن يكون البوّاب والفرّاش على مذهب أبي حنيفة.[2]

٢ ـ المدرسة العِماديّة:

لم تذكر مصادر البحث إلى من تُنسب هذه المدرسة، وكل ما ورد عنها هو: إنها تسمى بالعِمادية، ويُدرّس بها الفقه الحنفي، وكان مُدرّسها الشيخ علي ابن الحسين السِنجاري المعروف بابن دبانه[3] المتوفى سنة ٦٤٢هـ (١٢٤٥م).[4]

٣ ـ حـــرّان:

زار ابن جبير حرّان في رحلته وذكر أن بها مدرسة ومارستان[5] ولم تصرح مصادر البحث بتسمية هذه المدرسة إلا أن ابن رجب أشار إلى أن الملك نور الدين محمود كرّم الشيخ حامد الحرّاني المتوفى سنة ٥٧٠هـ (١١٧٤م)،[6] وكان شيخ الحنابلة بحرّان في وقته، فبنى له المدرسة الحنبلية بحرّان، فكان أول من درّس بها،[7] فلعلها تكون هذه المدرسة.

---

(١) ابن الأثير. التاريخ الباهر.- ص١٩١ ؛ ابن الفوطي. تلخيص مجمع الآداب.- ج٥، ص٨٧-٨٨.

(٢) ابن خلكان. وفيات الأعيان.- ج٢، ص٣٣١.

(٣) علي بِن الحسين بن علي بن سعيد بن حامد السِنجاري، المعروف بابن دبانه، كان فقيهًا فاضلا، وله معرفة بالأدب، توفي في ذي القعدة، أو في ذي الحجة سنة ٦٤٢هـ (١٢٤٥م) بإربل (القرشي. الجواهر المضيّة.- ج٢، ص٥٦٥).

(٤) المصدر نفسه.- ج٢، ص٥٦٥.

(٥) الرحلة.- ص٢٢١.

(٦) سبقت ترجمته في الفصل الثالث.

(٧) الذيل على طبقات الحنابلة.- ج ١، ص٣٣٤.

٤ ـ منبـــــج:

ذكر ابن خلكان أن الملك نور الدين محمود أنشأ مدرسة ضمن خطته بتعميم المدارس بجميع بلاده[١]، وقد ذكر ابن جُبير في أثناء مروره بمنبج أن أهلها من السنة الشافعية، وهي مطهرة بهم من أهل المذاهب المنحرفة، والعقائد الفاسدة[٢] ولعل تلك المدرسة التي أشار إليها ابن خلكان من المدارس التي أنشأها نور الدين للإمام شرف الدين بن أبي عصرون المتوفى سنة ٥٨٥هـ (١١٨٩م) في كثير من مدن الشام[٣]، وأن لهذه المدرسة أثر في بقاء أهل منبج على المذهب الشافعي، لأن المدارس العصرونية شافعية، وشرطُ الواقف أن تستمر على ذلك.

٥ ـ حـــــماة:

لقد ابتنى الملك نور الدين محمود بحماة مدرستين إحداهما للحنفية والأخرى للشافعية[٤]، وهاتان المدرستان النوريتان هما من المدارس الثلاث التي كانت في حماة حينما مرّ الرحالة ابن جبير بها وذكرها في رحلته سنة ٥٨٠هـ (١١٨٤م)،[٥] ولعل المدرسة الثالثة هي "المُظفّرِيّة" المنسوبة إلى الملك المظفر الأول تقي الدين عمر بن نور الدولة شاهنشاه بن أيوب صاحب حماة المتوفى سنة ٥٨٧هـ (١١٩١م).

١ ـ المدرسة النُورِية الحنفية:

إحدى المدارس التي أشار ابن واصل الحموي إلى إنشاء نور الدين لها بحماة حيث قال: " وبحماة له - يعني نور الدين - مدرستان إحداهما للحنفية، والأخرى

---

(١) الرحلة.- ص٢٢٤.
(٢) وفيات الأعيان.- ج٣، ص٥٤.
(٣) ابن واصل. مفرج الكروب.- ج ١، ص٢٨٢.
(٤) المصدر السابق.- ص٢٣١.
(٥) ابن شداد. النوادر السلطانية.- ص١٩٨.

للشافعية،[1] وكانت تقوم في البستان الذي يعرف (ببستان النُوريات) بين الجامع النوري وشارع أبي الفداء الحالي، وقد تحوّل هذا البستان الآن إلى مساكن. وتسميته بالنوريات محرفة عن النورية نسبة إلى المدرسة المذكورة التي كانت قائمة في مكانه، ثم خُرّبت واندثرت وقد ظهر آثار عمرانها أثناء حفر أسُس الدور التي شيد مكانها.[2]

٢ـ المدرسة النورية الشافعية (المعروفة بالعصرُونيّة):

هي المدرسة الشافعية التي أشار ابن واصل إلى إنشاء نور الدين لها بحماة،[3] وكان نور الدين محمود قد أنشأها للقاضي شرف الدين بن أبي عصرون ضمن مشروعه في إنشاء العديد من المدارس في بلاد الشام وتفويض ابن أبي عصرون أمر التدريس والنظر بها لمن يشاء، ومنها عصرونية حماة تلك.[4]

وكان موقعها في باب حمص من محلة الباشُورة على الضفّة الغربية من نهر العاصي، وعلى جانبي قناطر ناعورة المأمورية من الجنوب والشمال، وهذا الموقع لا يزال أرضًا خالية، وقد حُولت مؤخرًا إلى حديقة عامة من قِبل البلدية.[5]

٣ـ البيمارِستان النوري:

ذكر ابن جُبير أن بحماة إضافة إلى المدارس مارستان على شطّ النهر بإزاء الجامع الصغير[6]، وكان الملك نورا لدين قد أنشأ هذا البيمارستان على شط العاصي إلى جانب جامعه الذي أنشأه هناك.[7]

---

(١) المصدر السابق.- ج ١، ص٢٨٢.

(٢) كامل شحاته. من مآثر نور الدين زنكي العمرانية في حماة (مقال) مجلة الحوليات الأثرية العربية السورية، المجلد (٢٠) لعام (١٩٧٠م).- ص٨٨.

(٣) مفرج الكروب.- ج ١، ص٢٨٢.

(٤) ابن خلكان. وفيات الأعيان.- ج٣، ص٥٤.

(٥) كامل شحاته: البحث السابق، ص٩٠.

(٦) الرحلة.- ص٢٣١.

(٧) ابن واصل. المصدر السابق.-ج ١، ص٢٨٣.

وذكر كامل شحاته أن هذا البيمارستان ظلّ إلى عهد قريب تؤدي فيه الخدمات الطبيّة على نظام جيّد، ووجه أكمل.[1]

٦ ـ حِمص:

ذكر ابن جُبير عن حِمص حينما زارها سنة ٥٨٠هـ (١١٨٤م) أن بها مدرسة واحدة[2]، ولكنه لم يتيسر للباحث الحصول على نصوص أكيدة عن نسبة هذه المدرسة ووصفها ؛ أو من درّس بها، وكل ما حصل عليه: أن الملك نور الدين أقام في حمص مدرسة للإمام شرف الدين بن أبي عصرون أسوة بالمدارس التي أقامها له في مختلف بلاد الشام[3]، فلعل هذه المدرسة التي ذكرها ابن جُبير هي تلك المدرسة.

٧ ـ بعلبك:

تذكر المصادر فيما تذكره أن الملك نور الدين أقام مدرسة في بعلبك للإمام شرف الدين عبدالله بن أبي عصرون.[4]

٨ ـ الرّحبَة:

كما تشير تلك المصادر إلى مدرسة أخرى أنشأها نور الدين في الرّحبة ضمن المدارس التي أقامها للإمام ابن أبي عصرون،[5] ولكن تلك المصادر لم تشر إلى معلومات أخرى عن هاتين المدرستين يستوضح الباحث منها: موقع المدرستين أو من تولى تدريسهما، وظلّت المعلومات عنهما شحيحة كما هي الحال في بعض المدارس العصرونية.

---

(١) من مآثر نور الدين (البيمارستان النوري) (مقال) نُشر في مجلة الحوليات الأثرية العربية السورية المجلد (١٧)، لعام (١٩٦٧م).- ص٨١.

(٢) الرحلة.- ص٢٣٢.

(٣) ابن خلكان. وفيات الأعيان.- ج٣، ص٥٤.

(٤) ابن خلكان. وفيات الأعيان.- ج٥، ص١٨٥ ؛ السبكي. طبقات الشافعية.- ج٧، ص١٣٣ ابن العماد. الشذرات.- ج٤، ص٢٨٣.

(٥) ابن خلكان. المصدر نفسه.- ج٥، ص١٨٥ ؛ السبكي. المصدر نفسه.- ج٧، ص.١٣٣

وبعـد: فإنـه قـد تـبين للـباحث مـن خـلال دراسـة هـذا الفصـل أمـور عديـدة يستخلص منها الآتي:

أولاً: أن إنشـاء المدارس ودُوُر التعليم المختلفة لاقى ازدهارًا كبيرًا في هذا العهد، فقد زادت المدارس التي أنشئت في مختلف المدن الزنكية عن خمسين مدرسة، إضافة إلى العديد من دُوُر الحديث، والخوانِق والرُّبُط، والبيمارِستانات، وقد ارتبط بهذا الازدهار العلمي تطور في مجال العمارة الإسلامية أيضًا.

ثانيًا: أن مما يلحظه الباحث في إنشاء دُوُر التعليم المختلفة وانتشارها في هذا العهد أنه لم يكن يخضع في بعض جوانبه لسياسة تعليمية ثابتة، ومدروسة، وإنما كان الأمر متروكًا لرغبات المنشئين الشخصية، مما أثر بدوره على تركز بعض التخصصات في منطقة دون أخرى، وكان لهذا الأمر أثره في تنوع الدراسات وتعددها في ذلك العهد.

ثالثًا: الارتباط الوثيق بين إنشاء عدد من المدارس وحاجة الدولة وسياستها في بعض الأحيان، ويظهر هذا الارتباط في توجيه بعض المدارس للوقوف في وجه فكر معيّن مما يخدم سياسة الدولة واتجاهها كما كانت عليه سياسة الملك نورا لدين محمود في بلاد الشام في تشجيع إنشاء المدارس الفقهية السُّنّيّة لتحقيق هدفه في مقاومة المذهب الشيعي في المنطقة، ونشر المذهب السني على حسابه، وكذلك الحال في التركيز على دراسة الحديث الشريف، وتخصيص أماكن لتدريسه، وذلك لمقاومة الوجود الصليبي في المنطقة عن طريق تدريس أحاديث الجهاد وفضائله.

رابعًا : تبين من خلال هذه الدراسة أن دُوُر التعليم الكبرى من مدارس ودورٍ للحديث وبيمارستانات وغيرها مما قام بإنشائه الملوك الزنكيون كان أطول عمرًا وأكثر استقرارًا وانتظامًا من غيرها من دُوُر التعليم التي ينشئها أفراد محسنون من عامة الناس، فالمراكز الأولى تتمتع عادة بأوقاف كثيرة دارّة ومُحصِلة، كما كانت تحظى بحسن إدارة وزيادة رعاية وصيانة بعكس المراكز الأخرى والتي كثيرًا ما تتعرض بعد موت واقفها لنهب أوقافها، أو التلاعب فيها، أو إخفاء كتاب الوقف، ومنع المعاليم وإنقاصها، وبالتالي هجر المدرسين والطلاب له، كما كانت تتعرض لآثار التعطيل والتخريب، فلا تجد من وقفها ما يعيدها إلى هيئتها الأولى، إلا إذا قيّض الله له من أهل الخير، من يعيد تعميرها، وصيانتها ويُثبّت أوقافها أو يزيد فيها، ومثال ذلك واضح في كثير من دُوُر التعليم التي أنشئت في هذا العهد، فإن منها ما استمرت تؤدي وظيفتها المنوطة بها، حتى بعد موت منشئها، أو واقفها، بل بعد انتهاء الدولة الزنكية، وانتقال الحكم إلى الدولة الأيوبية، حيث ظلّت أسماء المدرسة النُوريّة، العصرونية، العِماديّة، دار الحديث النورية، البيمارستان النوري، وغيرها من دُوُر التعليم، ظلّت لامعة ونشطة، تُمارس فيها فعاليات التعليم والتطبيب في فترات لاحقة للعهد الزنكي.



الخاتمة

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات . . وبعد :

فإنه بعد الانتهاء من دراسة الحياة العلمية في العهد الزنكي، فقد وقف الباحث على جملة من النتائج المهمّة التي يمكن استخلاصها فيما يلي :

أولاً : أنه لم يحظ العلم والعلماء باهتمام كبير من مؤسس الدولة الزنكية الأتابك عماد الدين زنكي لانشغاله طوال فترة حكمه في إرساء قواعد الحكم، ومحاولة توحيد المنطقة تحت قيادة موحدة، وصرف الكثير من وقته في التركيز على النواحي العسكرية وتدعيم الناحية الإدارية والاهتمام بهما دون غيرهما من النواحي، على أن الحال تغيرات واتخذت وضعًا آخر خلال فترة حكم ابنيه سيف الدين غازي بالموصل، ونور الدين محمود بالشام، حيث بدأ بحكمهما الاهتمام بالعلم والعلماء، وظهر هذا الاهتمام واضحًا في عصر الأخير منهما.

ثانيًا : بروز أثر الملك نور الدين محمود بن زنكي في الاهتمام الكبير بالعلم والعلماء والرعاية لهما بشكل واضح وجلي دون غيره من ملوك الأسرة الزنكية وقد أدى اهتمام نور الدين بالعلم، واحتضانه مراكز التعليم وتوسعه في إنشاء المدارس ودُوُر التعليم الأخرى إلى أن يعرف بذلك بشكل بارز، فلقد أولى علماء السنة على اختلاف مذاهبهم وتخصصاتهم كل رعاية واهتمام، ولم يتفق لغيره ما اتفق له من ازدحام العلماء وطلاب العلم عليه وترددهم على بلاده على أن إنشاء دار السُّنّة للحديث النبوي يُعدُّ من أبرز المعالم التي تميّز بها عصره، و لا سيما دار الحديث النورية بدمشق والتي انتقلت فكرتها إلى كثير من مدن العالم الإسلام، وكان من أبرز نتائج هذا

العمل الوقوف في وجه الدعوة الإسماعيلية المضللة ومحاربتها حفاظًا على العقيدة الإسلامية، إضافة إلى أثر هذه المراكز في التوجيه لمواجهة الوجود الصليبي في المنطقة عن طريق التركيز على دراسة الحديث الشريف وتدريسه وبخاصة ما يتصل منه بفضائل الجهاد والحث عليه.

ثالثًا : كما كان من آثار نور الدين محمود العلمية توسعه في إنشاء المدارس السنية على مختلف المذاهب، وتقدير المعاليم والرواتب للصرف على المدرسين والطلاب والعاملين بها، هذا بالإضافة إلى إنشاء العديد من مراكز الصوفية (الخوانِق والرُّبط) والبيمارِستانات في كثير من المدن الزنكيّة، كما حرص على رصد الأوقاف السخيّة الدارّة على هذه المراكز، مع حرصه على إنشاء مكتبات داخل هذه المراكز تحوي العديد من الكتب التخصصية التي تفيد روّادها. وهذا العمل يُعدّ مساهمة من نور الدين في تشجيع الحياة العلمية في بلاده. لذا كان ذكره يتردد كثيرًا في فصول الرسالة لما قام به من جهود فعّالة في هذا الميدان.

رابعًا : أدرك الملك نور الدين محمود منذ بداية حكمه لمنطقة الشام خطورة الموقف السياسي المحيط به والمتمثل بالوجود الصليبي الماثل أمامه من جهة، وتوزع الولاءات في المنطقة بين القوى المعاصرة من جهة أخرى فأيقن بضرورة توظيف التعليم لخدمة مصالح دولته، وهذا الأمر يتطلب تخلي رجال الفكر والعلماء وعامة الناس عن قيود الانتماء المذهبي الضيّق، ونبذ الخلافات بين رجال المذاهب السنية، فعمد نور الدين محمود منذ البداية إلى التقريب بين مذاهب السنة وإنشاء دُوُر التعليم لخدمة تلك المذاهب جميعها دون التفريق بين مذهب وآخر، وهذا ما أدى بدوره إلى نتائج طيبة في توحيد المنطقة فكريًا قبل توحيدها سياسيًا تحت سلطانه من ناحية، وإلى آثار جليلة في تنشيط الناحية العلمية في بلاده من ناحية أخرى.

خامسًا: برز في هذا العهد عامل جديد ساعد على نشاط التعليم في الدولة الزنكية تمثل ذلك في الوجود الصليبي المتمركز في المنطقة والذي كان مسيطرًا على أجزاء كبيرة من بلاد الشام والجزيرة مما كان له أثر بالغ في توجيه الاهتمام بدراسة تخصصات علمية معينة، من ذلك التركيز على دراسة العلوم الشرعية وبخاصة علم الحديث وما يتعلق منه بباب الجهاد، وفضائله، والحث عليه، كما اتضح أيضًا هذا الأثر في نشاط الدراسات التاريخية وتوجيهها إلى العناية بتتبع مراحل الصراع بين المسلمين والصليبيين، إضافة إلى ما تركه الوجود الصليبي من آثار في مجال تعلّم اللغات الأجنبية، وانتعاش حركة الأدب، وتعدد فنونه بما يخدم الجهاد الإسلامي ضد ذلك العدوان.

سادسًا: الاتصال القوي بين التعليم في ذلك العهد وبين الدراسات الشرعية فقد كانت المساجد معاهد تعليمية منذ بداية الإسلام واستمرت على هذا الوضع خلال هذا العهد، وقد تركز التعليم في المساجد حول تدارس القرآن الكريم والعلوم الشرعية الأخرى بالإضافة إلى تعلم بعض العلوم المساعدة التي لا تتعارض معها، ومن المساجد انطلق التعليم إلى دُوُر تعليمية أخرى سُمّيت بالمدارس والتي ازداد انتشارها في هذا العهد رغبة في توسيع نطاق التعليم، ونشر الدين الإسلامي على مذهب أهل السنة والجماعة يتضح ذلك من ازدياد إنشاء المدارس الفقهية في هذا العهد وفق مذهب أو أكثر من المذاهب السّنّية الأربعة.

سابعًا: ومما له صلة بهذا الموضوع أيضًا استحداث مدارس تخصصية لتدريس الحديث الشريف، أو ما تسمى بدور الحديث، والذي يُعدّ من أبرز سمات الازدهار العلمي في هذا العهد.

ثامـنًا: كمـا كـانت الخوانـق والـربط مـن أهـم مراكـز الصـوفية في ذلـك العهـد، وقـد قـامت بالإضـافة إلى وظيفـتها الأساسية بأثـر بـارز في مجال التعـليم حيث أتخذ كثير منها مراكز عـلمية شاركت مع دُوُر التعليم الأخرى في نشاط التعليم في هذا العهد. إضافة إلى ذلك فقـد أدرك عـلماء الطبّ في العهـد الـزنكي مـدى ما تمتاز به البيمارستانات من صلاحية لتعـليم الطب حيث الحـالات المرضية ماثلة أمام أعين الطلاب، والأدوية والعلاجات قريبة متوافرة، فـاتخذوا منها - إلى جـانب قيامها بمعالجة المرضى - كليات طب شاركت بأثر بارز في تدريس هذا العلم، وكان لها أثر في تطور العلوم الطبية الحديثة.

تاسعًا: كمـا ظهـر أيضًا من خلال هذه الدراسة أثر الأوقاف في تسيير شؤون الحياة العلمية في هـذا العهـد، حيـث كـانت الأوقاف تمثل موردًا ثابتًا يعمل على استمرار التعليم في دُوُر التعـليم عـلى اختلافها، وقـد سـاهم الملوك الـزنكيون والأمراء والوزراء والأغنياء من الـرجال والنساء في رصد الأوقاف الدارّة على أي منشأ علمي لضمان استمراره في أداء وظيفته على الوجه المرسوم لـه.

عاشـرًا: كمـا ظهـر مـن خـلال هـذه الدراسـة أثـر العـلماء في الحيـاة العامة للدولة وذلك عن طـريق مشـاركاتهم المستمرة في النشـاطات والمهـام السياسية والإدارية القائمة في الدولة رغـم انشـغالهم بالعمـلية التعـليمية، وقـد ذُكِرت نماذج لهذه المشاركات في مناسبته، مما يؤكـد الاتصـال القـوي بـين الحكام والعلماء في هذا العهد لتكتمل الجهود في بناء الدولة وفق منهج سليم.

حـادي عشر: الاهـتمام الكـبيرة الـذي حظـي بـه طـلاب الكـتاتيب باعتبارهم اللّبنة الأولى في المجتمع، وذلـك مـن خـلال الحـرص عـلى تربيـتهم وتوجيههـم وتأهيـلهم إلى المرحـلة الأعـلى لتكتمل تنشئتهم وفـق المنهج السـليم الـذي رسمـته تـلك الدولـة، وهو إعداد الـرعية إعـدادًا إسـلاميًا مـن خـلال تـربية الأجيـال الناشـئة تـربية إسـلامية سـليمة،

وإعدادهم منذ صغرهم ليتخرجوا صحيحي العقيدة، سليمي الذهن وليتخذوا مواقعهم في المجتمع وفق السياسة المرسومة لهم.

ثاني عشر : بلغ اهتمام المرأة المسلمة في ذلك العهد بالدراسات الشرعية درجة كبيرة لتتعرف على تعاليم الدين الإسلامي الصحيح حتى يتمّ تطبيقه عمليًا، وقد أشارت العديد من المصادر إلى نشاط علمي ملموس لهذه الفئة في هذا العهد حيث ذكرت تلك المصادر أسماء العديد من المقرئات والمحدثات، والفقيهات، والأديبات، والنحويات، إضافة إلى تنقّل الكثيرات منهنّ بين الأقاليم الإسلامية ـ مع محارمهن ـ طلبًا للعلم على أكابر العلماء والمحدثين حيث حصلنّ على إجازات علمية من كبار مشايخ العصر في مختلف المناطق الإسلامية ولكنه على الرّغم من ذلك، فإنه لم ترد إشارات صريحة إلى وجود أماكن مخصصة لتعليم الإناث، أسوة بأماكن التعليم لدى الذكور، وربما يُستخْلصُ من ذلك أن المنزل كان المدرسة الأولى التي كانت المرأة تتلقى فيها تعليمها بالإضافة إلى تردد بعضهن إلى المساجد لحضور الحِلق التي كانت تُعقد فيها، ولكن في أماكن مخصّصة ومعزولة عن أماكن الرجال، ولا شك أن نشاط المرأة في التعليم بالقدر الذي ذُكر يُعدّ مؤشرًا حقيقيًا لازدهار الحياة العلمية في ذلك العهد مما يميزه عن غيره من العصور الإسلامية السابقة.

ثالث عشر: بروز ظاهرة التنقل والترحال بين مناطق العالم الإسلامي لطلب العلم دون أن يواجه الطالب أي عائق، وقد ساعد على ذلك أن اللّغة التي يدرس بها طلاب العلم هي اللغة العربية، فلا يحتاجون إلى تعلّم لغة أخرى، كما هي عليه الحال في وقتنا الحاضر، مهما كانت بلادهم، فاللغة العربية والمبادئ الإسلامية جمعتهم ووجهتهم إلى طلب العلم دون أية مشقة، وهذا الأمر يُعدُّ مظهرًا من مظاهر الوحدة الثقافية بين أقطار العالم الإسلامي.

رابع عشر: كما كان من أبرز أساليب التقويم في ذلك العهد الإجازات والألقاب العلمية التي كان الطالب يحصل عليهما من خلال تردده على شيوخه، والتزود بما لديهم من علوم سواء كان ذلك في بلده، أو في البلاد الإسلامية الأخرى مما يلزمه لذلك القيام برحلات علمية لبلوغ مقصده والوصول إلى غايته ومطلبه، وهذا الأمر أيضًا يُعدّ من مظاهر الوحدة بين الأقطار الإسلامية إذ أنه لم يكن هناك أي فرق بين طالب العلم المرتحل من الغرب إلى المشرق مثلاً، أو العكس حيث كان طلب العلم الهدف الموحّد الذي كان يجمعهما مهما كانت هويتهما.

خامس عشر: كما ظهر من خلال دراسة ميادين العلوم وأبرز أعلامها خلال هذا العهد الاهتمام الكبير الذي حظيت به العلوم الشرعية بفروعها المختلفة حرصًا من قادة الفكر في هذا العهد على الدفاع عن العقيدة الإسلامية أمام الحركات الفكرية المعادية، وقد تحقق لعلماء الشريعة فرصة الوصول إلى مراكز التوجيه الفكري والثقافي في هذا العهد، ولكن مع الاهتمام بالدراسات الشرعية، فقد بلغت ميادين علمية كثيرة مجدها وذروتها في ذلك العهد، وقُدمت فيها دراسات رائدة، وبرز من بين المشتغلين فيها علماء كان لهم أثر كبير في إثراء المكتبة الإسلامية بالعديد من المؤلفات المتخصصة، من تلك العلوم: العلوم اللّغوية والأدبية، والعلوم التاريخية والجغرافية، والعلوم الرياضية والفلكية وعلوم الطبّ والصيدلة.

ولكن مما يجدر ذكره هنا أن الموصل كانت مركزًا له أهمية خاصة فيما يختصّ بالاهتمام بالدراسات الرياضية والفلكية، والطبية لوجود علماء لهم آثار جليلة في هذه الميادين، أمثال: كمال الدين بن يونس، وأثير الدين الأبهرِي، وعِزّ الدين الزنجاني، وابن هُبل وغيرهم، وهذا الأمر يوضح الفارق بين الموصل وبلاد الشام باعتبارهما مركزين من مراكز التعليم في هذا العهد.

سادس عشر: كما اتضح أيضًا من خلال هذه الدراسة شيوع ظاهرة الموسوعية في التأليف أو الإحاطة بأكثر من فن حيث وُجِد كثير من العلماء الذين توزع نشاطهم العلمي وإنتاجهم بين كثير من ميادين العلوم، حيث كانت له مصنفات في الحديث مثلاً وأخرى في الفقه، كما أن له اهتمام في اللغة والنحو، واهتمام أيضًا بالبلاغة والعروض، وربما كان له ديوان شعر، وهذا الأمر كان مألوفًا في هذا العهد.

سابع عشر: كما ظهر من خلال دراسة أهم المراكز العلمية في هذا العهد الاختلاف بين بيئتي الموصل والشام من حيث توزع المدارس المدارس وفق المذاهب السنية، حيث ظهر في الموصل جليًا التعصب في بعض الأحيان تجاه مذهب أو آخر من المذاهب السنية وعدم الاكتفاء بذلك بل كان يصاحبه أحيانًا محاربة المذاهب الأخرى ومحاولة طمسها، بينما خفّت هذه الظاهرة في بلاد الشام، حيث كان الملك نور الدين محمود، والذي يُعدّ المسؤول الأول عن توجيه التعليم في بلاد الشام في هذا العهد - يعمل على إنشاء المدارس السنية وفق مذهب أو أكثر من المذاهب السنية دون التفريق بينها، مما أثّر بدوره على تنوع الدراسات الشرعية في الشام أكثر منها في الموصل خلال هذا العهد.

ثامن عشر: وأخيرًا فإن التوسع في إنشاء المدارس وعمارتها في هذا العهد يعكس مظهرًا هامًا من مظاهر العمارة الإسلامية إلى جانب التطور في المجال العلمي، وهذا يوضح الأثير الكبير الذي تركه الزنكيون في المجال الحضاري، إضافة إلى الجهود الكبيرة التي تُحسب لهم على الصعيدين السياسي والعسكري.



الملاحق

- أسماء الملوك الزنكيون في كلٍّ من الموصل، والشام، وسِنجَار.
- قوائم بدُوُر التعليم في أهم المراكز العلمية في العهد الزنكي.
- خرائط وصور.

الملحـــق رقم (١)

أسماء الملوك الزنكيين في الموصل، والشام، وسنجار

أ ـ الزنكيون في الموصل:

- عماد الدين زنكي بن آقسنقر (٥٢١ ـ ٥٤١هـ/ ١١٢٧ ـ ١١٤٦م).
- سيف الدين غازي بن زنكي (٥٤١ ـ ٥٤٤هـ/١١٤٦ ـ ١١٤٩م).
- قطب الدين مودود بن زنكي (٥٤٤ ـ ٥٦٥هـ/١١٤٩ ـ ١١٧٠م).
- سيف الدين غازي الثاني ابن مودود (٥٦٥ ـ ٥٧٦هـ/١١٧٠ ـ ١١٨٠م).
- عز الدين مسعود بن مودود (٥٧٦ ـ ٥٨٩هـ/١١٨٠ ـ ١١٩٣م).
- نور الدين أرسلان شاه بن مسعود (٥٨٩ ـ ٦٠٧هـ/١١٩٣ ـ ١٢١٠م).
- القاهر عز الدين مسعود بن أرسلان شاه (٦٠٧ ـ ٦١٥هـ/ ١٢١٠ ـ ١٢١٨م).
- نور الدين أرسلان شاه الثاني ابن مسعود (٦١٥ ـ ٦١٦هـ/١٢١٨ ـ ١٢١٩م).
- ناصر الدين محمود بن عز الدين مسعود (٦١٦ ـ ٦٣١هـ/١٢١٩ ـ ١٢٣٣م).[*]

(*) في هذه السنة استقلّ الأمير بدر الدين لؤلؤ بحكم الموصل وتسمى بالملك الرحيم.

ب ـ الزنكِيون في الشام:

- عماد الدين زنكِي بن آقسنقر (٥٢٢ ـ ٥٤١هـ/ ١١٢٨ ـ ١١٤٦م).
- نور الدين محمود بن زنكـي (٥٤١ ـ ٥٦٩هـ/١١٤٦ ـ ١١٧٤م) (*).
- الملك الصالح إسماعيل بن محمود (٥٦٩ ـ ٥٧٧هـ/١١٧٤ ـ ١١٨١م).
- سيف الدين غازي الثاني ابن مودود (٥٧٧ ـ ٥٧٩هـ/١١٨١ ـ ١١٨٣م).
- عـز الديـن مسـعود بـن قطـب الديـن بـن مـودود (٥٧٦ ـ ٥٨٩هـ/١١٨٠ ـ ١١٩٣م). (صاحب الموصل).

جـ ـ الزنكِيون في سِنجار:

- عز الدين زنكي الثاني بن قطب الدين بن مودود (٥٦٦ ـ ٥٩٤هـ/١١٧٠ ـ ١١٩٧م).
- قطب الدين محمد بن زنكي الثانـي (٥٩٤ ـ ٦١٦هـ/١١٩٧ ـ ١٢١٩م).
- عماد الدين شاهنشـاه بن محمـد (٦١٦هـ (١٢١٩م).
- عمـر بن قطب الدين محمـد (٥٧٧ ـ ٥٧٩هـ/١١٨١ ـ ١١٨٣م).



(*) في هـذه السنة وبعـد وفـاة الملك نور الدين محمود انحسر الحكم الزنكي في حلب بعد أن كان يحكم كافة بلاد الشام.

الملحـــق رقم (٢)

قوائم بدور التعليم في أهم المراكز التعليمية في العهد الزنكي

أولاً ـ المساجد:

(أ) في الموصل:

عدد	اسم المسجد	شهرته العلمية
١	مسجد النبي ﷺ	درّس فيه الإمام النحوي علي بن خليفة بن علي المعروف بأبي الحسن بن المُنقّي صاحب كتاب "المعُونة" المتوفى سنة ٥٦٢هـ (١١٦٧م).
٢	مسجد ابن الشيرجي	اشتهر هذا المسجد بتدريس الشيخ أبي البركات عبدالله ابن الخضر المعروف بابن الشيرجي المتوفى سنة ٥٧٤هـ (١١٧٨م) فيه الفقه والحديث فنُسب إليه.
٣	مسجد زين الدين علي بن بكتكين	درّس به الشيخ : رضي الدين يونس بن منعة الإربلي المتوفى سنة ٥٧٦هـ (١١٨٠م) ثم درّس به ابنه الإمام كمال الدين موسى المتوفى سنة ٦٣٩هـ (١٢٤٢م) وعُرِف هذا المسجد فيما بعد بالمدرسة الكماليّة نسبة إلى كمال الدين لطول إقامته به.
٤	جامع نور الدين محمود بن زنكي	أمر الملك نورالدين ببناء هذا المسجد حينما دخل الموصل سنة ٥٦٦هـ (١١٧١م) وقد فوّض أمر التدريس به للفقيه عماد الدين أبي بكر النوقاني الشافعي.

(ب) في حلـــب:

عدد	اسم المسجد	شهرته العلمية
١	المسجـد الجامع الكبير (الجـامع الأمـوي)	أشهر حِلَقه العلمية: السارية الخضراء والتي كانت مخصّصة للدراسات الأدبية كما أنشأ الملك نور الدين محمود زاويتان لتدريس الفقه إحداهما لتدريس الفقه المالكي والأخرى لتدريس الفقه الحنبلي وأنشأ به أيضًا زاوية ثالثة لتدريس الحديث الشريف إضافة إلى وجود عدد من الحِلَق لتدريس القرآن الكريم والفقه والحديث واللّغة.

(ج) في دمشـــق:

عدد	اسم المسجد	شهرته العلمية
١	الجـامع الأمـــوي	أشهر مرافقه العلمية: ١. الـزاوية الغـزاليّة: وتقـع في الجهـة الشـمالية الغـربية مـن الجامع، وقد درّس بها جمع من علماء الشافعية البارزين في ذلك العهد. ٢. السّبع المُجاهدي: وينسب للأمير أبي الفوارس بُزّان بن يامِين المتوفى سنة ٥٥٥هـ (١١٦٠م) وهو مخصّص لقراءة سبع من القرآن كل يوم إثر صلاة الصبح. ٣. الحلقة الكوثريّة: وتقـع تجاه شباك الكلاّسة تحت مئذنة العرُوس بالجامع وقد أوقفها الملك نور الدين محمود على صبيان صغار وأيتام يقرأون في كل يوم بعد صلاة العصر سورة الإخلاص ثلاث مرات. ٤. حلقة لإقراء القرآن الكريم تحت قبّة النسر. ٥. مجلس الحافظ ابن عساكر المتوفى سنة ٥٧١هـ (١١٧٦م) وفيه أملى كثيرًا من مجالسه في الحديث. كما كان يعقد بالمنارة الشرقية من هذا الجامع مجالس لسماع مصنفه الكبير "تاريخ دمشق".
٢	جامع القلعة	أنشأ هذا الجامع نورا لدين محمود في قلعة دمشق، وقد ورد في بعض المصادر باسم المدرسة النورية الحنفية الصغرى.

ثانيًا ـ المـــــدارس:

(أ) في الموصل:

عدد	اسم المدرسة	المنسوبة إليه	تاريخ إنشائها	المذهب
١	النِظامية	الوزير السلجوقي: نظام الملك الطُوسي المتوفى سنة ٤٨٥هـ (١٠٩٢م).	بعد سنة ٤٥٩هـ (١٠٦٦م)	الشافعي
٢	الأتابكية العتيقة	الملك: سيف الدين غازي أبو الحسن علي بن بُكتِكِين المتوفى سنة ٥٦٣هـ (١١٦٧م)	قبل سنة ٤٥٩هـ (١٠٦٦م).	الشافعي والحنفي
٣	الزينيّة	الأمير: زين الدين أبو الحسن علي بن بُكتِكِين المتوفى سنة ٥٦٣هـ (١١٦٧م)	قبل سنة ٥٦٣هـ (١١٦٧م)	الشافعي
٤	الكمالية القضوية	القاضي: أبو الفضل كمال الدين الشهرزُورِي المتوفى سنة ٥٧٢هـ (١١٧٦م)	قبل سنة ٥٦٦هـ (١١٧٠م)	الشافعي
٥	المُجاهِديّة	الأمير: مجاهد الدين قايماز المتوفى سنة ٥٩٥هـ (١١٩٩م).	بعد سنة ٥٧٢هـ (١١٧٦م)	الشافعي
٦	المُهاجرية	علون بن مهاجر الموصلي المتوفى سنة ٦١٥هـ (١٢١٨م)	قبل سنة ٥٨٥هـ (١١٨٩م)	الشافعي
٧	العزّيـــة	الملك عِزّ الدين مسعود بن مودود المتوفى سنة ٥٨٩هـ (١١٩٣م)	قبل سنة ٥٨٩هـ (١٢٩٣م)	الشافعي والحنفي
٨	النُوريّة	الملك نور الدين أرسلان شاه ابن مسعود المتوفى سنة ٦٠٧هـ (١٢١٠م)	قبل سنة ٦٠٧هـ (١٢١٠م)	الشافعي
٩	القاهريّة	الملك عز الدين مسعود بن نور الدين المتوفى سنة ٦١٥هـ (١٢١٨م)	قبل سنة ٦١٥هـ (١٢١٨م)	الشافعي
١٠	البدرِيّة	الأمير بدر الدين لؤلؤ المتوفى سنة ٦٥٧هـ (١٢٥٩م)	قبل سنة ٦١٥هـ (١٢١٨م)	الشافعي والحنفي

(ب) في حلب:

عدد	اسم المدرسة	المنسوبة إليه	تاريخ إنشائها	المذهب
١	الزّجاجيّة	الأمير بدر الدولة سليمان بن عبدالجبار الأرتقي حاكم حلب	٥١٧هـ (١١٢٣م)	الشافعي
٢	النّفَريّة النُوريّة	الملك نور الدين محمود بن زنكي المتوفى سنة ٥٦٩هـ (١١٧٤م)	٥٤٤هـ (١١٤٩م)	الشافعي
٣	العصرُونية	القاضي شرف الدين بن أبي عصرُون المتوفى سنة ٥٨٥هـ (١١٨٣م)	٥٥٠هـ (١١٥٥م)	الشافعي
٤	الشرفِيّة	الشيخ شرف الدين شِيركوه المتوفى سنة ٥٦٤هـ (١١٦٨م)	قبل سنة ٥٦١هـ (١١٦٦م)	الشافعي
٥	الأسدية الجُوّانية	الأمير أسد الدين شِيركُوه المتوفى سنة ٥٦٤هـ (١١٦٨م)	قبل سنة ٥٦٤هـ (١١٦٨م)	الشافعي
٦	الشُعيبيّة	الشيخ شُعيب بن حسين الأندلسي المتوفى سنة ٥٩٦هـ (١١٩٩م)	قبل سنة ٥٦٩هـ (١١٧٤م)	الشافعي
٧	الحلاوية (الحلوية)	الملك نور الدين محمود بن زنكي المتوفى سنة ٥٦٩هـ (١١٧٤م)	٥٤٤هـ (١١٤٩م)	الحنفي
٨	المُقدّميّة	عز الدين عبدالملك المُقدم والد شمس الدين محمد	قبل سنة ٥٦٤هـ (١١٦٨م)	الحنفي
٩	المجديّة الجُوّانية	مجد الدين أبو بكر محمد بن الداية المتوفى سنة ٥٦٥هـ (١١٧٠م)	قبل سنة ٥٦٥هـ (١١٧٠م)	الحنفي
١٠	المجدِيّة البرّانية	مجد الدين أبو بكر محمد بن الداية المتوفى سنة ٥٦٥هـ (١١٧٠م)	قبل سنة ٥٦٥هـ (١١٧٠م)	الحنفي
١١	الحداديّة	حُسام الدين محمد بن عمر بن لاجين	قبل سنة ٥٦٩هـ (١١٧٤م)	الحنفي

(ج) في دمشق:

عدد	اسم المدرسة	المنسوبة إليه	تاريخ إنشائها	المذهب
١	الصادريّة	شجاع الدولة صادر بن عبدالله	سنة ٤٩١هـ (١٠٩٨م)	الحنفي
٢	الطرخانيّة	الأمير ناصر الدولة طرخان	سنة ٥٢٥هـ (١١٣١م)	الحنفي
٣	المُعِينية	الأتابك مُعِين الدين أنر المتوفى سنة ٥٤٤هـ (١١٤٩م)	قبل سنة ٥٤٤هـ (١١٤٩م)	الحنفي
٤	النورية الكبرى	الملك نور الدين محمود	سنة ٥٦٣هـ (١١٦٧م)	الحنفي
٥	الخاتُونية البرانية	الست زُمرد خاتون المتوفاة سنة ٥٥٧هـ (١١٦١م)	سنة ٥٢٦هـ (١١٣٢م)	الحنفي
٦	الأمينيّة	الأتابك أمين الدولة كُمشتِكِين المتوفى سنة ٥٤١هـ (١١٤٦م)	سنة ٥١٤هـ (١١٢٠م)	الشافعي
٧	المُجاهدية الجوانية	الأمير مجاهد الدين بُزّان بن يامِين المتوفى سنة ٥٥٥هـ (١١٦٠م)	قبل سنة ٥٣٧هـ (١١٤٢م)	الشافعي
٨	المُجاهِدية البرانية	الأمير مجاهد الدين بُزّان المتوفى سنة ٥٥٥هـ (١١٦٠م)	قبل سنة ٥٥٥٥هـ (١١٦٠م)	الشافعي
٩	العِمادية	عماد الدين الأصفهاني المتوفى سنة ٥٩٧هـ (١٢٠١م)	قبل سنة ٥٦٢هـ (١١٦٧م)	الشافعي
١٠	العصرُونية	القاضي شرف الدين بن أبي عصرون المتوفى سنة ٥٨٥هـ (١١٨٩م)	قبل سنة ٥٨٥هـ (١١٨٩م)	الشافعي
١١	الأسدية	الأمير أسد الدين شيركوه المتوفى سنة ٥٦٤هـ (١١٦٨م)	قبل سنة ٥٦٤هـ (١١٦٨م)	الحنفي والشافعي
١٢	الحنبلية الشريفية	الشيخ شرف الإسلام عبدالوهاب الشيرازِي المتوفى سنة ٥٣٦هـ (١١٤١م)	قبل سنة ٥٣٦هـ (١١٤١م)	الحنبلي

عدد	اسم المدرسة	المنسوبة إليه	تاريخ إنشائها	المذهب
١٣	العُمرية الشيخية	الشيخ أبو عمر محمد بن أحمد ابن قدامه المقدسي المتوفى سنة ٦٠٧هـ (١٢١٠م)	قبل سنة ٥٥٨هـ (١١٦٣م)	الحنبلي
١٤	النورية الصلاحية	الملك نور الدين محمود	قبل سنة ٥٦٩هـ (١١٧٤م)	المالكي

(د) مدارس أنشئت في مدن زنكية أخرى:

عدد	اسم المدرسة	المدينة	المنسوبة إليه	تاريخ إنشائها	المذهب
١	مدرسة لم تصرح المصادر بتسميتها	نصيبين	يُرجح نسبتها للشيخ كمال الدين بن الشهرزوري المتوفى سنة ٥٧٢هـ (١١٧٦م)	قبل سنة ٥٧٢هـ (١١٧٦م)	
٢	المُجاهدية	سنجار	الأمير مجاهد الدين يرنقش		الحنفي
٣	العِمادِيّة	سنجار		قبل سنة ٦٤٢هـ (١٢٤٥م)	الحنفي
٤	مدرسة لم تصرح المصادر بتسميتها	حرّان	تنسب للملك نور الدين محمود على الأرجح	قبل سنة ٥٧٠هـ (١١٧٤م)	الحنبلي
٥	العصرُونية	منبج	شرف الدين بن أبي عصرون	قبل سنة ٥٦٩هـ (١١٧٤م) على الأرجـــح	الشافعي
٦	النورية	حماة	الملك نور الدين محمود	قبل سنة ٥٦٩هـ (١١٧٤م)	الحنفي
٧	العصرونية	حماة	شرف الدين بن أبي عصرون	قبل سنة ٥٦٩هـ (١١٧٤م) على الأرجـح	الشافعي
٨	مدرسة لم تصرح المصادر بتسميتها	حِمص	يُرجح أن تكون ضمن المدارس التي أنشأها نور الدين محمود للقاضي ابن أبي عصرون		

عدد	اسم المدرسة	المدينة	المنسوبة إليه	تاريخ إنشائها	المذهب
٩	العصرونية	بعلبك	القاضي شرف الدين ابن أبي عصرون	قبل سنة ٥٦٩هـ (١١٧٤م)	الشافعي
١٠	العصرونيّة	الرّحبة	القاضي شرف الدين ابن أبي عصرون	قبل سنة ٥٦٩هـ (١١٧٤م) على الأرجح	الشافعي

ثالثًا : دُوُر الحديث:

عدد	اسم الدار	المدينة	المنسوبة إليه	تاريخ إنشائها
١	المُهاجِرية	الموصل	أبو القاسم علي بن مهاجر الموصلي	قبل سنة ٥٨٥هـ (١١٨٩م)
٢	المُظفريّة	الموصل	الملك مُظفر الدين كوكبُوري صاحب إربل المتوفى سنة ٦٣٠هـ (١٢٣٣م)	قبل سنة ٦١٢هـ (١٢١٥م)
٣	المجدِيّة	حلب	النائب مجد الدين بن الداية المتوفى سنة ٥٦٥هـ (١١٧٠م)	قبل سنة ٥٦٥هـ (١١٧٠م)
٤	النورية	حلب	الملك نور الدين محمود المتوفى سنة ٥٦٩هـ (١١٧٤م)	قبل سنة ٥٦٩هـ (١١٧٤م)
٥	دار أم الملك الصالح إسماعيل	حلب	الست أم الملك الصالح زوجة الملك العادل نور الدين محمود	بعد سنة ٥٧٨هـ (١١٨٢م)
٦	النورية	دمشق	الملك نور الدين محمود المتوفى سنة ٥٦٩هـ (١١٧٤م)	قبل سنة ٥٦٩هـ (١١٧٤م)

رابعًا : الخوانِق والرّبط:

تاريخ إنشائها	المنسوبة إليه	المدينة	اسم الخانقاه أو الرباط	عدد
قبل سنة ٥٤٤هـ (١١٤٩م)	الملك سيف الدين غازي بن زنكي المتوفى سنة ٥٤٤هـ (١١٤٩م)	الموصل	رباط الملك سيف الدين غازي	١
قبل سنة ٥٥٩هـ (١١٦٤م)	الوزير جمال الدين محمد بن علي الأصفهاني المتوفى سنة ٥٥٩هـ (١١٦٤م)	الموصل	رباط الوزير جمال الدين الأصفهاني	٢
قبل سنة ٥٦٣هـ (١١٦٧م)	الأمير زين الدين علي بن بُكتكين المتوفى سنة ٥٦٣هـ (١١٦٧م)	الموصل	الرباط الزيني	٣
قبل سنة ٥٧٢هـ (١١٧٦م)	القاضي كمال الدين محمد بن الشهرزوري المتوفى سنة ٥٧٢هـ (١١٧٦م) على الأرجح	الموصل	رباط ابن الشهرزوري	٤
بعد سنة ٥٧٢هـ (١١٧٦م)	الأمير مجاهد الدين قايماز المتوفى سنة ٥٩٥هـ (١١٩٩م)	الموصل	الرباط المُجاهِدِي	٥
قبل سنة ٦٠٦هـ (١٢١٠م)	الإمام أبو السعادات مجد الدين ابن الأثير المتوفى سنة ٦٠٦هـ (١٢١٠م)	الموصل	رباط درب درّاج	٦
قبل سنة ٦٠٦هـ (١٢١٠م)	الإمام أبو السعادات مجد الدين ابن الأثير المتوفى سنة ٦٠٦هـ (١٢١٠م)	الموصل	رباط قصر حرب	٧

عدد	اسم الخانقاه أو الرباط	المدينة	المنسوبة إليه	تاريخ إنشائها
٨	خانِقاه البلاط	حلب	شمس الخواص لؤلؤ الخادم المتوفى سنة ٥١٠هـ (١١١٥م)	سنة ٥٠٩هـ (١١١٥م)
٩	خانقاه ابن العجمي	حلب	شمس الدين أبو بكر أحمد ابن العجمي المتوفى سنة ٥٣١هـ (١١٣٦م)	بعد سنة ٥٣١هـ (١١٣٦م)
١٠	خانقاه القديم	حلب	الملك العادل نور الدين محمود المتوفى سنة ٥٦٩هـ (١١٧٤م)	سنة ٥٤٣هـ (١١٤٩م)
١١	خانقاه ابن المُقدّم	حلب	عز الدين عبدالملك المقدم	سنة ٥٤٤هـ (١١٤٩م)
١٢	خانقاه القصر	حلب	الملك العادل نور الدين محمود	سنة ٥٥٣هـ (١١٥٨م)
١٣	خانقاه مجد الدين بن الداية	حلب	أبوبكر بن الداية المتوفى سنة ٥٦٥هـ (١١٧٠م)	قبل سنة ٥٦٥هـ (١١٧٠م)
١٤	خانقاه النساء	حلب	الملك نور الدين محمود	سنة ٥٥٣هـ (١١٥٨م)
١٥	الخانقاه السُميساطية	دمشق	أبو القاسم علي بن محمد السُلمي السُميساطي المتوفى سنة ٤٥٣هـ (١٠٦١م)	قبل سنة ٤٥٣هـ (١٠٦١م)
١٦	خانقاه القصر	دمشق	شمس الملوك إسماعيل بن بُوري المتوفى سنة ٥٢٩هـ (١١٣٥م)	قبل سنة ٥٢٩هـ (١١٣٥م)
١٧	الخانقاه الأسدية	دمشق	الأمير أسد الدين شيركوه المتوفى سنة ٥٦٤هـ (١١٦٨م)	قبل سنة ٥٦٤هـ (١١٧٤م)

عدد	اسم الخانقاه أو الرباط	المدينة	المنسوبة إليه	تاريخ إنشائها
١٨	خانقاه الطاحُون	دمشق	الملك نور الدين محمود بن زنكي	قبل سنة ٥٦٩هـ (١١٧٤م)
١٩	الرباط البياني	دمشق	أبو البيان بنا بن محمد بن محفوظ القُرشي المتوفى سنة ٥٥١هـ (١١٥٦م)	بناه أصحابه بعد وفاته أي بعد سنة ٥٥١هـ (١١٥٦م)

خامسًا : البيمارستانات:

عدد	اسم البيمارستان	المدينة	المنسوبة إليه	تاريخ إنشائها
١	المُجاهدي	الموصل	الأمير مجاهد الدين قايماز المتوفى سنة ٥٩٥هـ (١١٩٩م)	بعد سنة ٥٧٢هـ (١١٧٦م)
٢	النُوري	حلب	الملك نورا لدين محمود بن زنكي المتوفى سنة ٥٦٩هـ (١١٧٤م)	قبل سنة ٥٦٩هـ (١١٧٤م)
٣	النُوري	حلب	الملك نورا لدين محمود بن زنكي	قبل سنة ٥٦٩هـ (١١٧٤م)
٥	النُوري	حلب	الملك نورا لدين محمود بن زنكي	قبل سنة ٥٦٩هـ (١١٧٤م)

الملحـــق رقم (٣)

الخرائـــط والصـــور

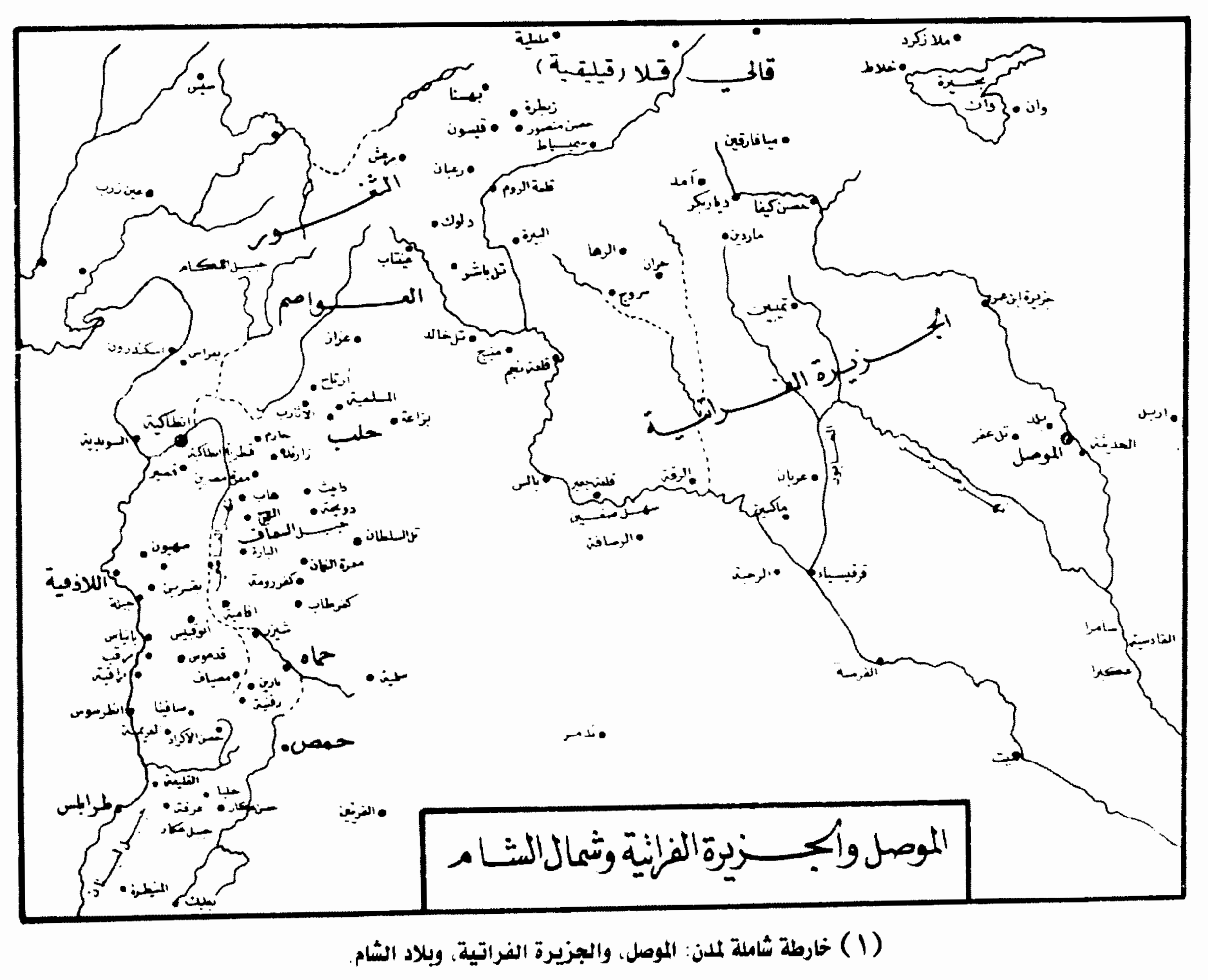
أ : الخرائط

١ـ خارطة شاملة لمدن: الموصل، والجزيرة الفراتية، وبلاد الشام.

٢ـ خارطة مفصّلة لخطط مدينة الموصل في العهد الزنكي.

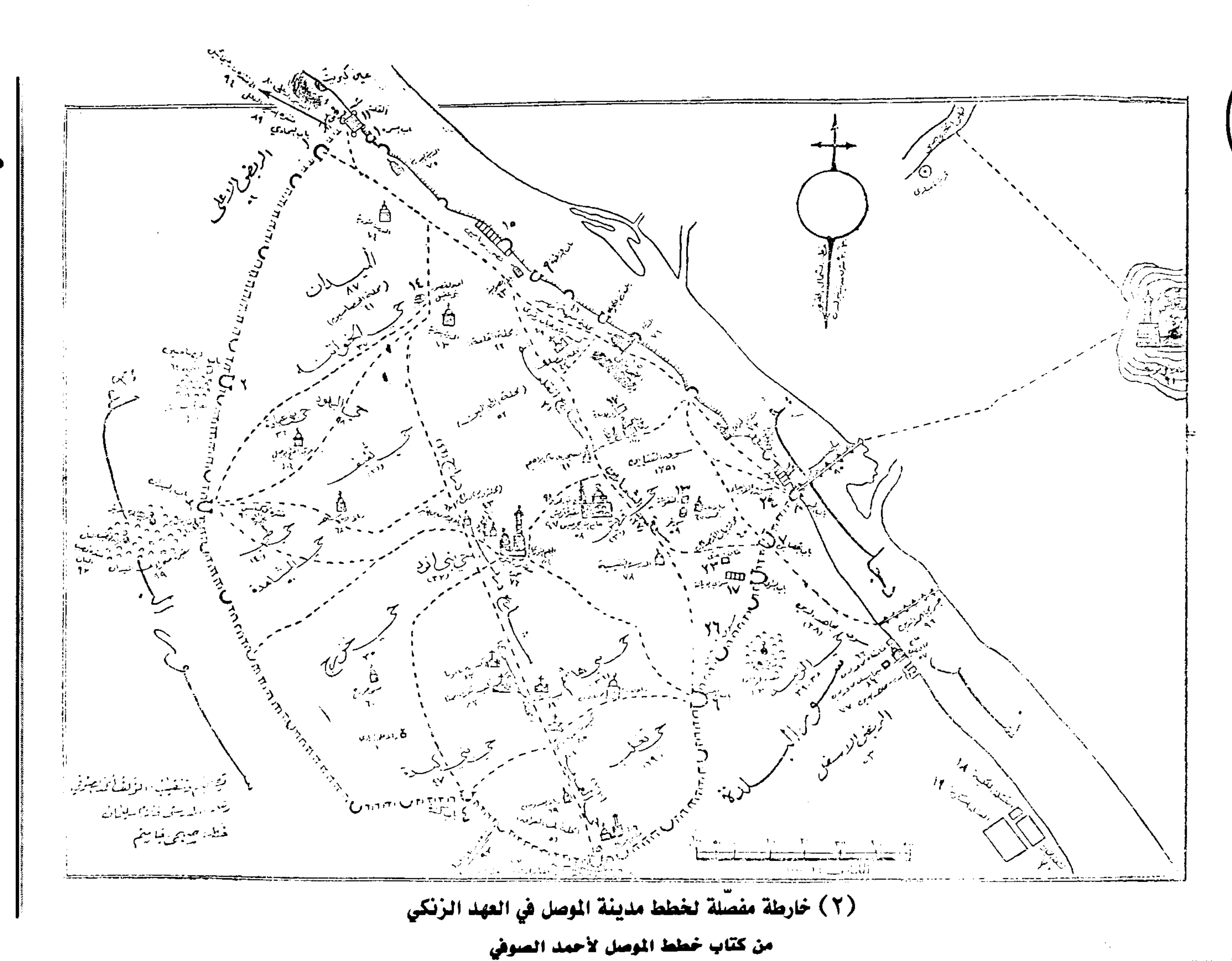
٣ـ خارطة حديثة لمدينة حلب تتضمن أهم المعالم الأثرية.

٤ـ خارطة قديمة لمدينة دمشق تتضمن أهم المعالم الأثرية .



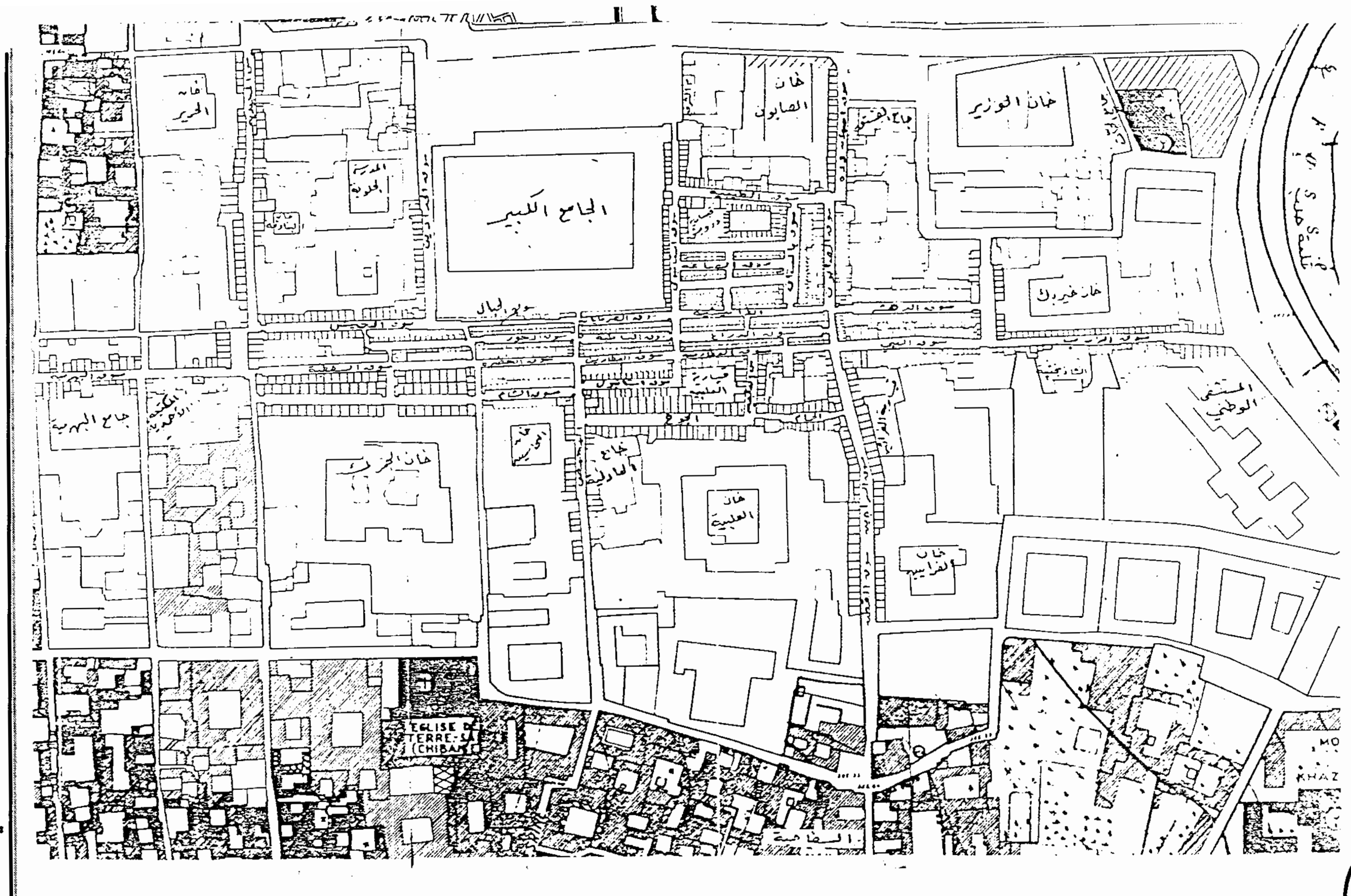
(١) خارطة شاملة لمدن: الموصل، والجزيرة الفراتية، وبلاد الشام.

من كتاب الحروب الصليبية لسهيل زكار جـ ٢

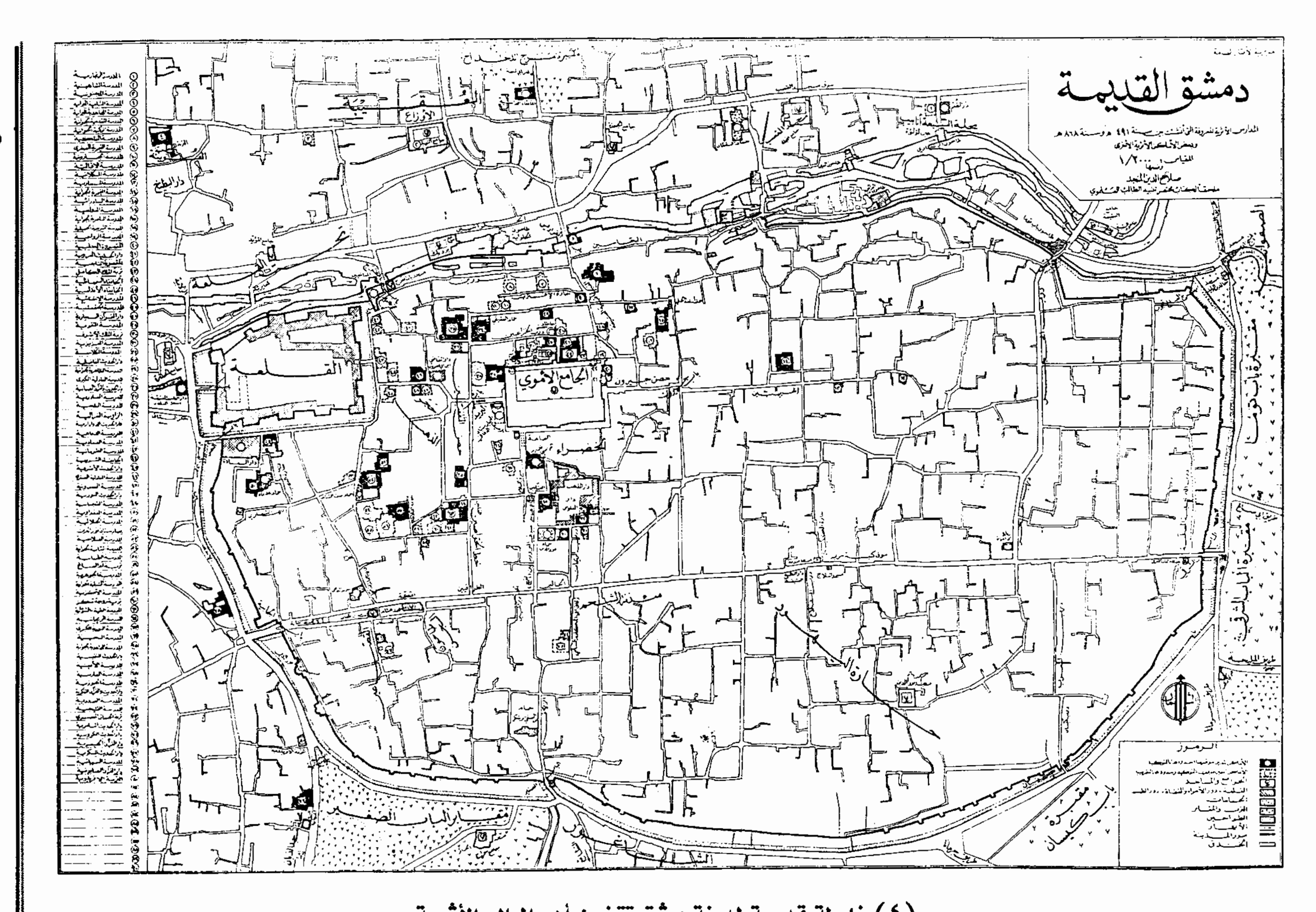


(٢) خارطة مفصّلة لخطط مدينة الموصل في العهد الزنكي

من كتاب خطط الموصل لأحمد الصوفي



(٣) خارطة حديثة لمدينة حلب تتضمن أهم المعالم الأثرية
من كتاب أحجار حلب وأسواقها لخير الدين الأسدي



(٤) خارطة قديمة لمدينة دمشق تتضمن أهم المعالم الأثرية

ملحقــة بكتاب مختصر تنبيه الطالب للعلموي

ب : صور لبعض دُوُر التعليم في العهد الزنكي

١- مئذنة الجامع النوري بالموصل.

٢- جامع مجاهد الدين قايماز بالموصل.

٣- مسجد زين الدين علي بن بُكتكين بالموصل (المدرسة الكمالية).

٤- واجهة المدرسة المقدمية (الحنفية) بحلب (تصوير الباحث).

٥- البيمارستان النوري بحلب.

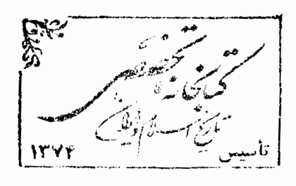
٦- المدرسة النورية الكبرى بدمشق من الخارج.

٧- المدرسة النورية الكبرى بدمشق من الداخل.

٨- الكتابة الوقفية التي تعلو مدخل المدرسة النورية الكبرى بدمشق (تصوير الباحث).

٩- المدرسة العُمريّة الشيخية الحنبلية بدمشق.

١٠- واجهة البيمارستان النوري بدمشق.


کتابخانه تخصصی
تاریخ اسلام و ایران
تاسیس ۱۳۷۴



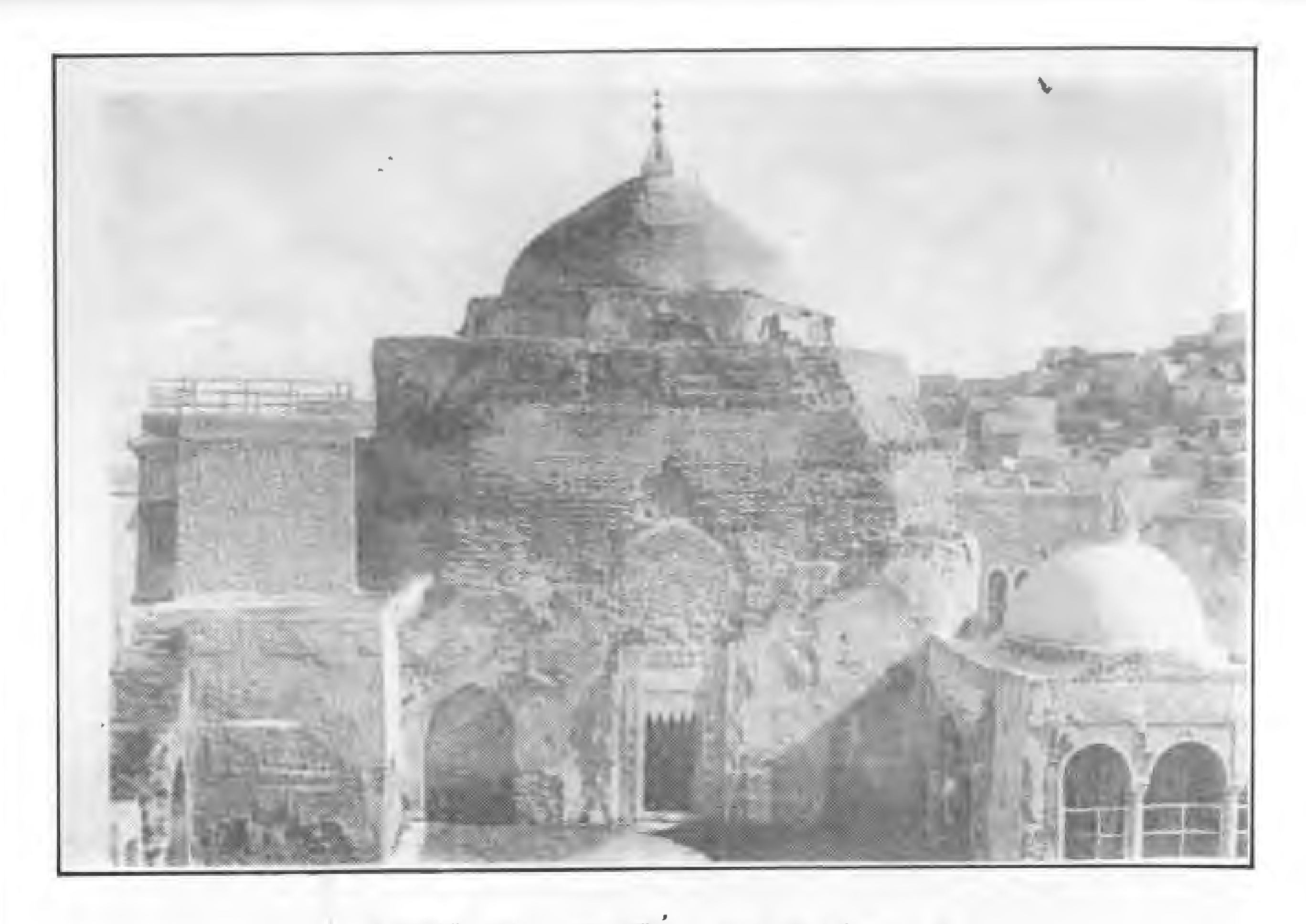
١ ـ منذنة الجامع النوري بالموصل

من كتاب تاريخ الموصل لسعيد الديوه جي



٢ـ جامع مجاهد الدين قايماز بالموصل

من كتاب تاريخ الموصل لسعيد الديوه جي

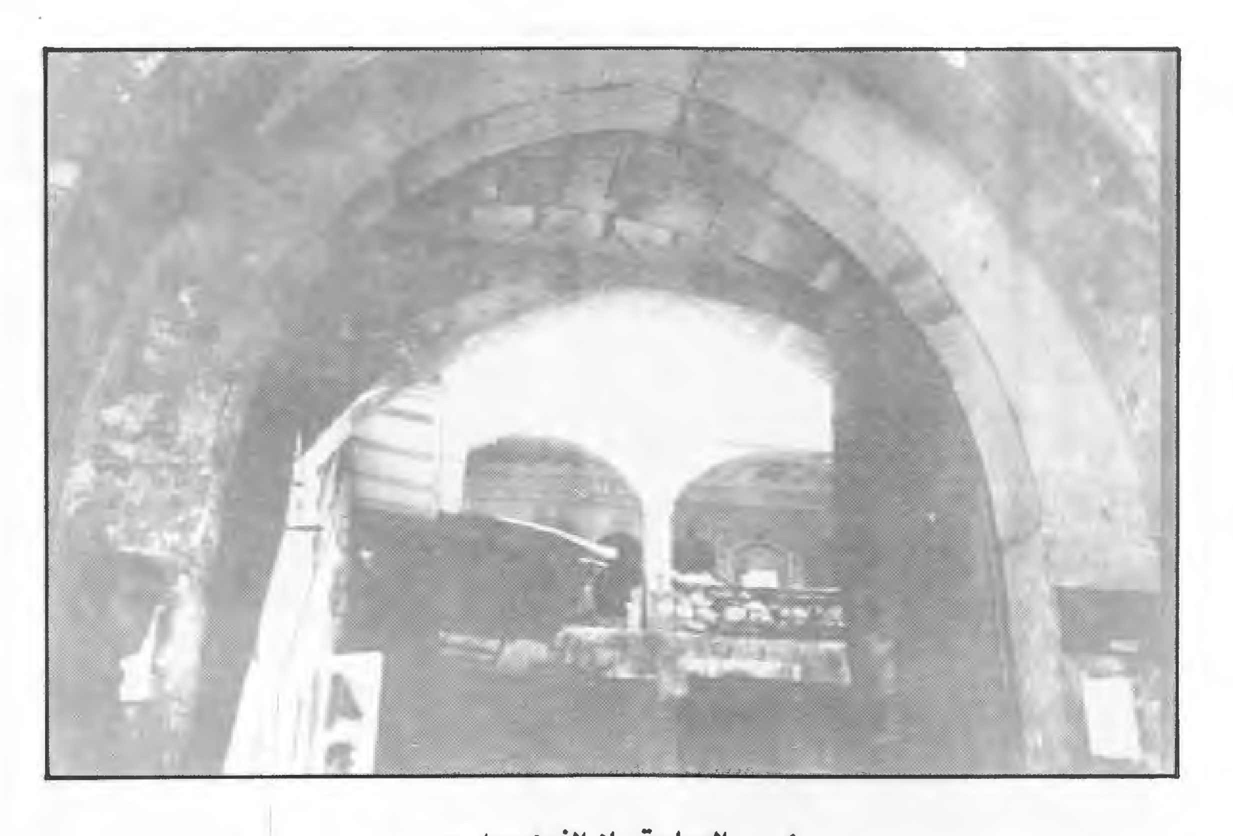


٣- مسجد زين الدين علي بن بُكتكين بالموصل (المدرسة الكمالية)
من كتاب تاريخ الموصل لسعيد الديوه جي



٤ - واجهة المدرسة المقدمية (الحنفية) بحلب

(تصوير الباحـث)



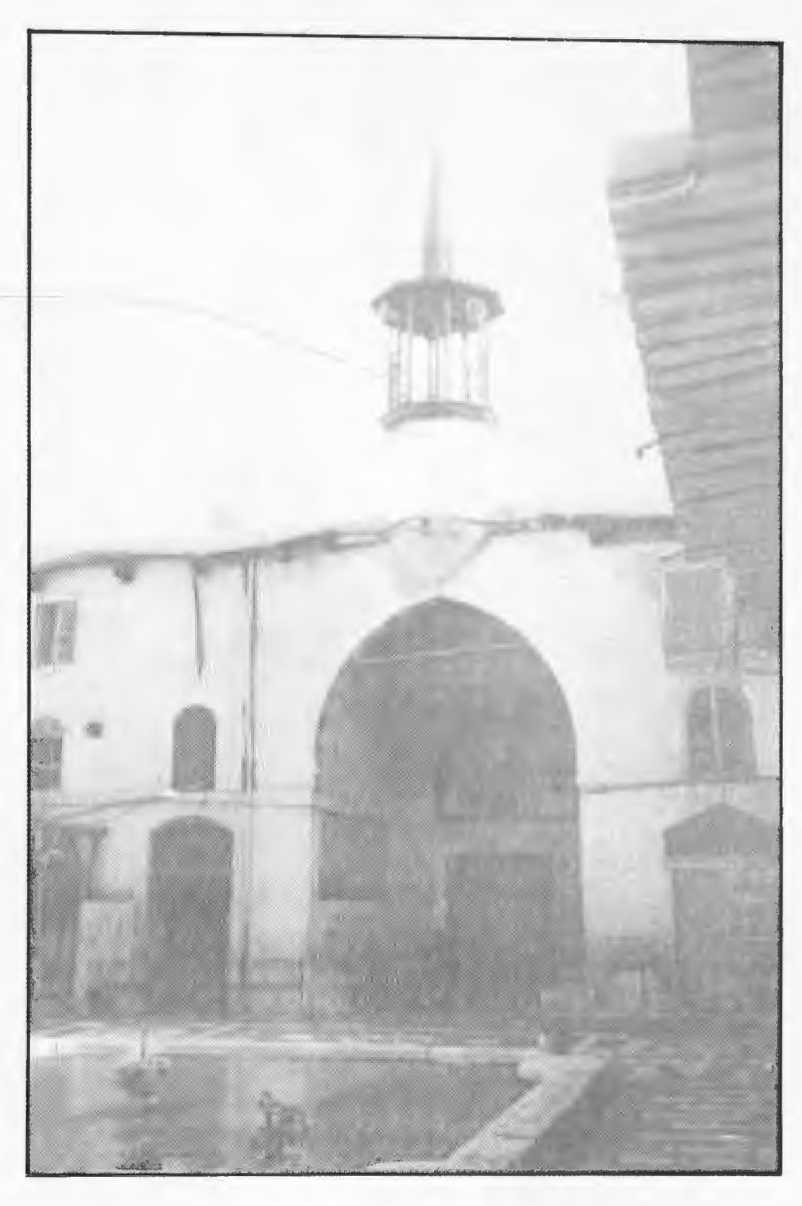
٥ - البيمارستان النوري بحلب

(تصوير الباحث)



٦ - المدرسة النورية الكبرى بدمشق من الخارج

(تصوير الباحـث)

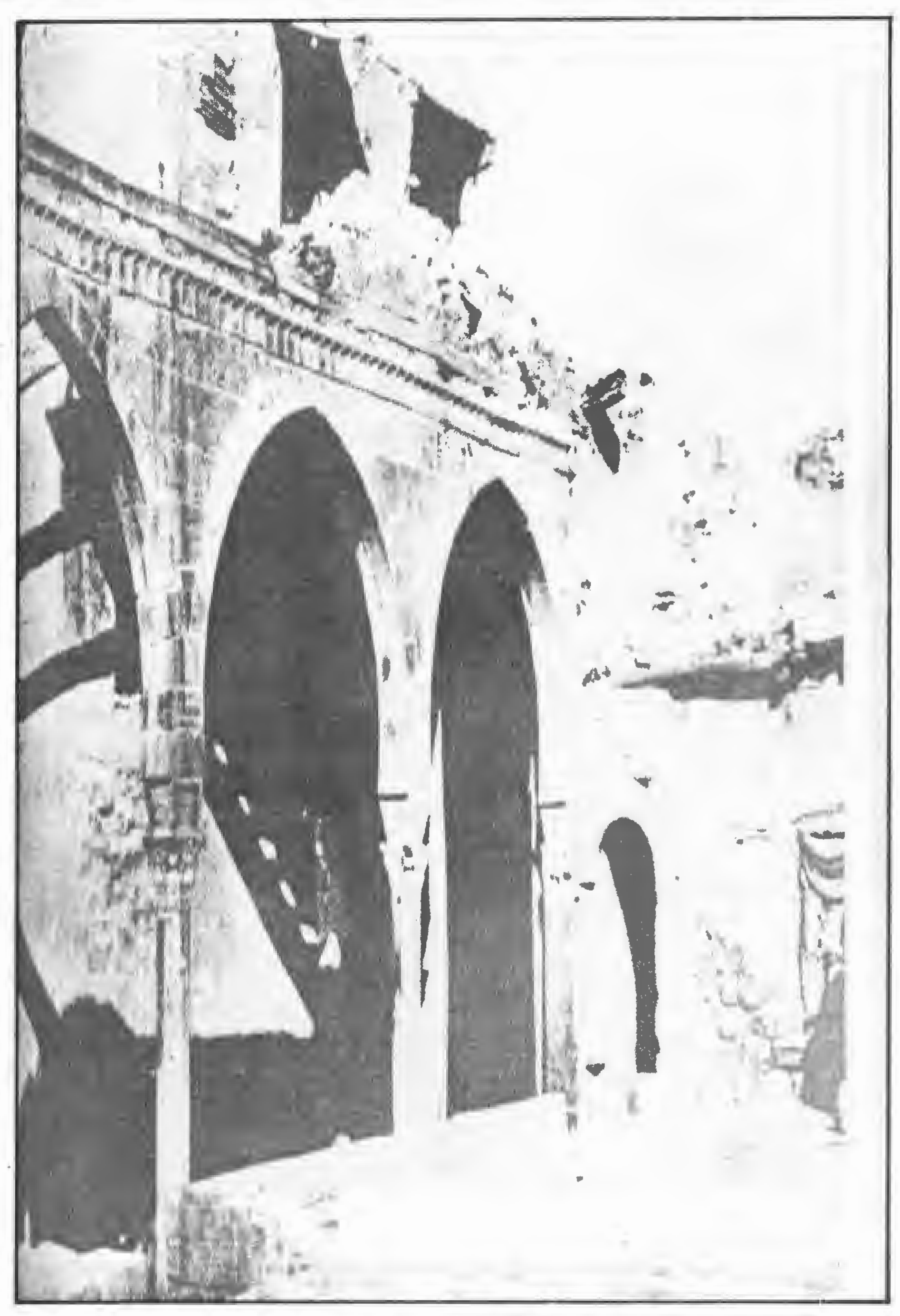


٧ - المدرسة النورية الكبرى بدمشق من الداخل

(تصوير الباحـث)



٨ - الكتابة الوقفية التي تعلو مدخل المدرسة النورية الكبرى بدمشق
(تصوير الباحـث)



٩ - المدرسة العُمريّة الشيخية الحنبلية بدمشق
من كتاب في رحاب دمشق لمحمد أحمد دهمان



١٠ـ واجهة البيمارستان النـــوري بدمشق

(تصوير الباحـث)

قوائم المصادر والمراجع

أولاً– المصادر المخطوطــــة.

ثانيًا – المصادر المطبوعــــة.

ثالثًا – المراجـع العربيــــة.

رابعًا– المراجـع المُعـرّبــــة.

خامسًا – مراجـع بلغات أجنبية.

سادسًا– الأبحاث والدراسات.

أولاً: المصادر المخطوطة:

- **ابن الأثير، عز الدين علي بن أبي الكرم محمد الشيباني الجزري (ت٦٣٠هـ/١٢٣٢م).**
  - تحفة العجائب وطرفة الغرائب، نسخة مصورة على ميكروفيلم بالمكتبة المركزية بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض تحت رقم (٥٢٤٧ ف).
- **ابن الأثير، مجد الدين أبو السعادات المبارك بن محمد الشيباني الجزري (ت٦٠٦هـ/١٢٠٩م).**
  - البديع في علم العربية، الجزء الأول، مصور عن مخطوط مكتبة عاطف أفندي بتركيا رقم (٢٤٤٦).
- **الذهبي، الحافظ شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان (ت٧٤٨هـ/١٣٤٨م).**
  - تاريخ الإسلام وطبقات مشاهير الأعلام، ميكروفيلم بالمكتبة المركزية بجامعة الإمام محمد ابن سعود الإسلامية بالرياض برقم (٨٠٥ ف) مصوّر عن مكتبة أحمد الثالث بتركيا رقم ٢٩١٧.
- **سبط ابن الجوزي، شمس الدين أبو المظفر يوسف بن قزاوغلي التركي (ت ٦٥٤هـ/١٢٥٦م).**
  - مرآة الزمان في تاريخ الأعيان، الحوادث من سنة ٤٨١هـ/١٠٨٨م إلى سنة ٤٩٤هـ/١١٠٠م مخطوطة في دار الكتب المصرية بالقاهرة رقم (٥٥١) تاريخ.
- **ابن العديم، كمال الدين أبو القاسم عمر بن أحمد بن هبة الله (ت ٦٦٠هـ/١٢٦١م).**
  - بغية الطلب من تاريخ حلب، الجزء الخامس، ميكروفيلم بمعهد إحياء المخطوطات العربية بالقاهرة رقم (٩٠) مصور لمخطوط مكتبة سراي أحمد الثالث باستانبول رقم (٢٩٢٥).
- **ابن عساكر، الحافظ ثقة الدين أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله الشافعي (ت٥٧١هـ/١١٧٦م).**
  - تاريخ دمشق، صورة من نسخة المكتبة الظاهرية بدمشق، كُمّل نقصها من النسخ الأخرى في كل من القاهرة، ومراكش واستانبول، نشر مكتبة الدار بالمدينة المنورة (١٤٠٧).
- **العيني، بدر الدين أبو محمود بن أحمد بن موسى، (ت ٨٥٥هـ/١٤٥١م).**
  - عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان، الجزء الثاني عشر، ميكروفيلم بالمكتبة المركزية بجامعة

الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض، رقم (٨٣٩ ف) مصوّر لمخطوط مكتبة سراي أحمد الثالث باستانبول رقم (١٢/٢٩١١). الجزء الثالث عشر، ميكروفيلم بالمكتبة المركزية بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض رقم (٨٤٠ ف) مصوّر لمخطوط مكتبة ولي الدين باستانبول رقم (٢٢٩٠).

▪ **مؤلف مجهول،**

- إنسان العيون في مشاهير سادس القرون، ميكروفيلم بالمكتبة المركزية بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض رقم (١٠٠١١ف) مصوّر عن نسخة خزانة كتب المتحف العراقي ببغداد.

▪ **الهروي، أبو الحسن علي بن أبي بكر بن علي (ت ٦١١هـ/١٢١٥م).**

- الإشارات إلى معرفة الزيارات، ميكروفيلم بالمكتبة المركزية بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض، رقم (١٩٤ ف) مصوّر عن مكتبة عارف حكمت بالمدينة المنورة رقم (١٧٨ مجاميع).

ثانيًا: المصادر المطبوعة :

▪ **ابن أبي أصيبعة، أبو العباس موفق الدين أحمد بن القاسم (ت ٦٦٨هـ/١٢٦٩م).**

- عيون الأنباء في طبقات الأطباء، شرح وتحقيق، نزار رضا.- بيروت: منشورات دار مكتبة الحياة، ١٣٨٥هـ (١٩٦٥م).

▪ **ابن الأثير، عز الدين علي بن أبي الكرم محمد الشيباني الجزري (ت٦٣٠هـ/١٢٣٢م).**

١- الكامل في التاريخ.- ط٤.- بيروت: دار الكاتب العربي، ١٤٠٣هـ (١٩٨٣م)

٢- التاريخ البَاهر في الدولة الأتابكية بالموصل، تحقيق عبدالقادر أحمد طليمات.- القاهرة: دار الكتب الحديثة ؛ بغداد: مكتبة المثنى ، ١٣٨٢هـ (١٩٦٣م).

٣- اللّباب في تهذيب الأنساب.- بيروت: دار صادر، ١٤٠٠هـ (١٩٨٠م).

▪ **ابن الأثير، نصر الله بن أبي الكرم محمد الشيباني الجزري ضياء الدين (ت٦٣٧هـ/١٢٣٩م).**

١- المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، تحقيق أحمد الحوفي، بدوي طبانة، ط٢، دار الرفاعي، الرياض، ١٤٠٣هـ (١٩٨٢م).

٢- الجامع الكبير في صناعة المنظوم من الكلام والمنثور، تحقيق، مصطفى جواد، جميل سعيد، نشر المجمع العلمي العراقي، ١٣٧٥هـ (١٩٥٦م).

٣- كفاية الطالب في نقد كلام الشاعر والكاتب، تحقيق، نوري حمودي القيسي، وحاتم صالح الضامن، وهلال ناجي، نشر جامعة الموصل.

٤- الاستدراك في الرد على رسالة ابن الدهان، تحقيق، حفني محمد شرف، مطبعة الرسالة، القاهرة، (١٩٥٨م).

▪ **ابن الأثـير، مجد الدين أبو السعادات المبارك بن محمد الشيباني الجزري (ت٦٠٦هـ/١٢٠٩م).**

- منال الطالب في شرح طوال الغرائب، نشر مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي بجامعة أم القرى، مكة المكرمة، ١٤٠٣هـ (١٩٨٣م).

▪ **ابن الأخوة، محمد بن محمد بن أحمد القرشي (ت٧٢٩هـ/١٣٢٨م).**

- معالم القربة في أحكام الحسبة، تحقيق، محمد محمود شعبان، وصديق عيسى المطيعي.- القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، (١٩٧٦م).

▪ **الإربلي، الحسن بن أحمد بن زفر (ت ٧٢٦هـ/١٣٢٦م).**

- مدارس دمشق وربطها وجوامعها وحماماتها، تحقيق، محمد أحمد دهمان.- دمشق: مطبعة الترقي، ١٣٦٦هـ (١٩٤٧م).

▪ **الأسنوي، جمال الدين عبدالرحيم الأسنوي (ت٧٧٢هـ/١٣٧٠م).**

- طبقات الشافعية، تحقيق، عبدالله الجبوري.- الرياض: دار العلوم، ١٤٠٠هـ (١٩٨١م).

▪ **البخاري، أبو عبدالله محمد بن إسماعيل (ت ٢٥٦هـ/٨٧٠م).**

- صحيح البخاري. استانبول: المكتبة الإسلامية، (١٩٧٩م).

▪ **البغدادي، صفي الدين عبدالمؤمن بن عبدالحق (ت٧٣٩هـ/١٣٣٨م).**

- مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع، تحقيق، علي محمد البجاوي.- بيروت: دار المعرفة، ١٣٧٣هـ (١٩٥٤م).

▪ **البنداري، قوام الدين الفتح بن علي البنداري الأصفهاني (٦٤٣هـ/١٢٤٥م)**

١- سنا البرق الشامي وهو مختصر البرق الشامي للعماد الأصفهاني، القسم الأول، تحقيق رمضان ششن.- بيروت: دار الكتاب الجديد، (١٩٧١م).

٢- تاريخ دولة آل سلجوق.- ط ٣ .- بيروت: دار الآفاق الجديدة، ١٤٠٠هـ (١٩٨٠م).- وهو مختصر كتاب، نصرة الفترة وعصرة الفطرة في أخبار الوزراء السلجقية للعماد الأصفهاني أيضًا.

- **ابن تغري بردي، جمال الدين أبو المحاسن يوسف الأتابكي (ت٨٧٤هـ/١٤٦٩م)**

- النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة. نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب.- القاهرة: منشورات لجنة التأليف والترجمة والنشر. (د.ت).

- **التهانوي، محمد بن علي الفارقي (ت ١١٥٨م/١٧٤٥م).**

- كشاف اصطلاحات الفنون، الأجزاء ١ ، ٢ ، ٣، تحقيق، لطفي عبدالبديع وترجم النصوص الفارسية، عبدالنعيم حسنين.- القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٣٨٢هـ (١٩٦٣م).

- **ابن جبير، أبو الحسين محمد بن أحمد الكناني الأندلسي (ت٦١٤هـ/١٢١٧م).**

- رحلة ابن جبير.- بيروت: دار صادر، ،١٤٠٠هـ (١٩٨٠م).

- **الجرجاني، علي بن محمد الشريف (ت٨١٦هـ/١٤١٣م).**

- كتاب التعريفات.- بيروت: مكتبة لبنان، (١٩٨٥م).

- **ابن الجزري، شمس الدين أبو الخير محمد بن الحمد (ت ٨٣٣هـ/١٤٢٩م).**

- غاية النهاية في طبقات القراء، نشر ج . برجستر اسر.- ط٢.- دار الكتب العلمية.- بيروت: ١٤٠٠هـ (١٩٨٠م).

- **ابن جماعة، أبو إسحاق إبراهيم بن السيد العارف سعد الله الكناني (ت ٧٣٣هـ/١٣٣٢م).**

- تذكرة السامع والمتكلم في أدب العلم والمتعلم.- بيروت: دار الكتب العلمية (د.ت).

- **ابن الجوزي، جمال الدين أبو الفرج عبدالرحمن بن علي البغدادي (ت٥٩٧هـ/١٢٠١م).**

١- المنتظم في تاريخ الملوك والأمم.- حيدر أباد الدكن، الهند: مطبعة دائرة المعارف العثمانية، ١٣٥٩هـ (١٩٤٠م).

٢- الحث على حفظ العلم وذكر كبار الحفّاظ، تحقيق فؤاد عبدالمنعم أحمد. الإسكندرية: دار الدعوة، ١٤٠٣هـ (١٩٨٣م).

- **الجوهري، إسماعيل بن حماد (ت ٣٩٣هـ/١٠٠٣م).**
- الصحاح، تاج اللغة وصحاح العربية، تحقيق عبدالغفور عطار.- طـ٤.- بيروت: دار العلم للملايين، (١٤٠٠هـ).
- **حاجي خليفة، مصطفى بن عبدالله المعروف بكاتب حلبي (ت ١٠٦٧هـ - ١٦٥٦م).**
- كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون.- بغداد: مكتبة المثنى، مصوّر عن طبعة استانبول (١٩٤١م).
- **ابن حجر، شهاب الدين أحمد بن علي العسقلاني (ت٨٥٢هـ/١٤٤٨م).**
- الإصابة في تمييز الصحابة.- القاهرة: مطبعة السعادة، ١٣٩٨هـ (١٩٧٨م).
- **ابن الحنبلي الحلبي، محمود بن إبراهيم الحلبي (ت٩٧١هـ/ ١٥٦٣).**
- الزّبد والضّرب في تاريخ حلب، تحقيق محمد التُونجي.- الكويت: مركز المخطوطات والتراث، ١٤٠٩هـ (١٩٨٨م).
- **ابن خلـدون، عبدالرحمن بن محمد بن ولي الدين الحضرمي الإشبيلي (ت ٨٠٨هـ/١٤٠٥م)**

١- تاريخ ابن خلدون الموسوم بـ العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر.- بيروت: مؤسسة الأعلمي، ١٣٩١هـ (١٩٧١م).

٢-المقدمة.- القاهرة: دار الشعب (د.ت).

- **ابن خلكان، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر (١٦٨١هـ/١٢٨٢م).**
- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق إحسان عباس.- بيروت: دار صادر(١٩٧٢م).
- **خليفة بن خيّاط، أبو عمر خليفة بن خياط بن أبي هبيرة الليثي (٢٤٠هـ/٨٥٤م).**
- تاريخ خليفة بن خياط، تحقيق أكرم ضياء العمري.- طـ٢.- دمشق: دار القلم، بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٣٩٧هـ (١٩٧٧م).
- **الذهبي، شمس الدين أبو عبدالله محمد بن أحمد بن عثمان (٧٤٨هـ/١٣٤٨م).**

١- سير أعلام النبلاء أجزاء متفرقة، الإشراف العام على التحقيق وتخريج الأحاديث شعيب الأرنؤوط.- طـ٢.- بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٤٠٥هـ (١٩٨٥م).

٢- العبر في خبر من غبر، تحقيق وضبط أبو هاجر محمد السعيد بسيوني زغلول.- بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤٠٥هـ (١٩٨٥م).

٣- تذكرة الحفّاظ.- بيروت: دار الكتب العلمية، (د.ت).

٤- المختصر المُحتاج إليه من تاريخ ابن الدُبيثي، تحقيق مصطفى جواد.- بغداد: مطبعة المعارف، ١٣٧١هـ (١٩٥١م).

■ **ابن رجب، زين الدين أبو الفرج عبدالرحمن بن أحمد البغدادي (٧٩٥هـ/١٣٩٣م).**

- كتاب الذيل على طبقات الحنابلة.- القاهرة: مطبعة السّنة المحمدية، ١٣٧٢هـ (١٩٥٢م).

■ **الزركشي، محمد بن عبدالله الزركشي (ت٧٩٤هـ/١٣٩٢م).**

١- أعلام السّاجد بأحكام المساجد، تحقيق أبو الوفاء مصطفى المراغي.- ط٢.-القاهرة: مطابع الأهرام التجارية، ١٤٠٣هـ (١٩٨٢م).

٢- الزرنوجي، برهان الدين الزرنوجي (من علماء القرن السادس الهجري/ الثالث عشر الميلادي). تعليم المتعلم طريق التعليم، تحقيق مصطفى عاشور.- القاهرة: مكتبة القرآن، ١٤٠٦هـ (١٩٨٦م).

■ **ساجقلي زاده، محمد بن أبي بكر المرعشي (ت ١١٤٥هـ/١٧٣٢م).**

- ترتيب العلوم، تحقيق محمد بن إسماعيل السيد أحمد.- بيروت: دار البشائر الإسلامية، ١٤٠٨هـ (١٩٨٨م).

■ **ابن الساعي، تاج الدين علي بن أنجب الخازن (ت٦٧٤هـ/١٢٧٥م).**

١- الجامع المختصر في عنوان التواريخ وعيون السير، تحقيق مصطفى جواد.- بغداد: ١٣٥٣ هـ (١٩٣٤م).

٢- سبط ابن الجوزي، شمس الدين أبو المظفر يوسف بن قزاوغلي (ت ٦٥٤هـ/١٢٥٦م). مرآة الزمان في تاريخ الأعيان، ج (٨).- حيدر أباد، الدكن، الهند: مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية، ١٣٧٠هـ (١٩٥١م).

■ **السبكي، تاج الدين أبو نصر عبدالوهاب بن علي بن عبدالكافي (ت ٧٧١هـ/١٣٦٩م)**

١- طبقات الشافعية الكبرى، تحقيق عبدالفتاح الحلو، ومحمد الطناحي.- القاهرة: مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، ١٣٨٥هـ (١٩٦٦م).

٢- معيد النعم ومبيد النقم.- بيروت: مؤسسة الكتب الثقافية، ١٤٠٧هـ (١٩٨٦م).

- **ابن سحنـــون، أبو عبدالله محمد بن عبدالسلام سحنون سعيد التنوخي (ت ٢٥٦هـ/٨٧٠م).**

– كتاب آداب المعلمين، تحقيق. محمود عبدالمولى.- الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، (١٩٦٩م).

- **ابن سعد، محمد بن سعد بن منيع الهاشمي (ت ٢٣٠هـ/٨٤٤م).**

١- الطبقات الكبرى.- بيروت: دار صادر، ١٣٧٧هـ (١٩٥٧م)

٢- السمعاني، أبو سعد عبدالكريم بن أبي بكر محمد بن منصور التميمي (٥٦٢هـ/١١٦٦م)

٣- الأنساب، نشر د. س. مرجليوث، ليدن (د.ت).

٤- أدب الإملاء والاستملاء.- بيروت: ١٤٠١هـ (١٩٨١م).

- **السيوطي، الحافظ جلال الدين عبدالرحمن بن أبي بكر بن محمد (ت٩١١هـ/١٥٠٥م).**

– بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم.- القاهرة: مطبعة عيسى البابي وشركاه، ١٣٨٤هـ (١٩٦٤م).

- **أبو شامة، شهاب الدين عبدالرحمن بن إسماعيل المقدسي (ت ٦٦٥هـ / ١٢٦٦م).**

١- كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، نشر وتحقيق، محمد حلمي أحمد.- القاهرة: مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، (١٩٥٦م).

٢- تراجم رجال القرنين السادس والسابع المعروف (بالذيل على الروضتين)، نشر عزت العطار الحسيني.- ط٢.- بيروت: دار الجيل، (١٩٧٤م).

- **ابن الشحنة، أبو الفضل محب الدين الحلبي (ت ٨٩٠هـ/١٤٨٥م).**

– الدرّ المنتخب في تاريخ مملكة حلب، نشر يوسف بن إليان سركيس.- دمشق: دار الكتاب العربي، ١٤٠٤هـ (١٩٨٤م).

- **ابن شداد، محمد بن علي بن إبراهيم - عز الدين - (ت ٦٨٤هـ/١٢٨٥م)**

١- الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة، الجزء الأول، القسم الأول (قسم حلب) تحقيق، دومنيك سورديل، المعهد الفرنسي للدراسات العربية دمشق (١٩٥٣م).

٢- الجزء الثاني القسم الأول (قسم دمشق) نشر وتحقيق سامي الدهان.- دمشق: المعهد الفرنسي للدراسات العربية ١٣٧٥هـ (١٩٥٦م).

- **ابن شداد، يوسف بن رافع تميم الأسدي ـ أبو المحاسن بهاء الدين (ت ٦٣٢هـ/١٢٣٤م).**

١- النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، تحقيق، جمال الدين الشيال.- القاهرة: الدار المصرية للتأليف والترجمة، (١٩٦٤م).

٢- الشهرستاني، أبو الفتح محمد بن عبدالكريم (ت ٥٤٨هـ/١١٥٣م). الملل والنحل، تحقيق، عبدالعزيز محمد الوكيل.- بيروت: دار الفكر، ١٤٠٠هـ (١٩٨٠م).

- **الشيـــزري، عبدالرحمـــن بن نصر بن عبدالله بن محمد الشيزري الشافعي (٥٨٩هـ/١١٩٣م).**

- نهاية الرتبة في طلب الحسبة، تحقيق ومراجعة، السيد الباز العريني.- ط٢.- بيروت: دار الثقافة، ١٤٠١هـ (١٩٨١م).

- **الصفدي، صلاح الدين خليل بن أيبك (ت ٧٦٤هـ/١٣٦٣م).**

١- الوافي بالوفيات، ج ١، نشر باعتناء هلموت ريتر، فسبادن، المانيا ١٣٨١هـ (١٩٦٢م)

- ج ٢، نشر باعتناء، س. ديدرينغ، فسبادن ١٤٠١هـ (١٩٨١م).
- ج ٤، نشر باعتناء، هلموت ريتر، فسبادن ١٣٨١هـ (١٩٦١م).
- ج ٦، نشر باعتناء، س. دريدرينغ، فسبادن، ١٣٩٢هـ (١٩٧٢م).
- ج ٧، نشر باعتناء، إحسان عباس، فسبادن، ١٣٨٩هـ (١٩٦٩م)
- ج ٨، نشر باعتناء، محمد يوسف نجم، فسبادن ١٣٩١هـ (١٩٧١م).
- ج ١٥، نشر باعتناء، بيرندراتكة، فسبادن، ١٣٩٩هـ (١٩٧٩م)
- ج١٦، نشر باعتناء، وداد القاضي فسبادن، ١٤٠٢هـ (١٩٨٢م)

٢- نكت الهميان في نكت العميان.- نشر أحمد زكي باشا.- القاهرة: المطبعة الجماليّة، ١٣٢٩هـ (١٩١١م).

- **ابن الصلاح، الإمام أبو عمر عثمان بن عبدالرحمن الشهرزوري (ت ٦٤٣هـ/١٢٤٥م).**

- المقدمة في علوم الحديث، تخريج وتعليق، مصطفى ديب البغا.- دمشق: مكتبة الفارابي، ١٤٠٤هـ (١٩٨٤م).

- **طاش كبري زادة، أحمد بن مصطفى (ت ٩٦٨هـ/١٥٦١م).**

١- مفتاح السعادة ومصباح السيادة في موضوعات العلوم.- بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤٠٥هـ (١٩٨٥م).

٢- طبقات الفقهاء.- الموصل: مكتبة غازي.

- **ابن طولون الصالحي، شمس الدين محمد بن علي بن أحمد الدمشقي (ت ٩٥٣هـ/١٥٤٦م).**

١- القلائد الجوهرية في تاريخ الصالحية، تحقيق محمد أحمد دهمان.- دمشق: نشر مكتب الدراسات الإسلامية، ١٣٦٨هـ (١٩٤٩م).

٢- قضاة الشام المسمى، "الثغر البسام فيمن وُليّ قضاء الشام" تحقيق صلاح الدين المنجد، ط١، المجمع العلمي العربي، دمشق (١٩٥٦م).

- **ابن ظفر الصقلي، حجة الدين محمد بن أبي محمد بن ظفر المكي الصقلي (ت ٥٦٥هـ/١١٦٩م)**

- أنباء نجباء الأبناء، تحقيق لجنة إحياء التراث العربي.- بيروت: دار الآفاق الجديدة، ١٤٠٠ هـ (١٩٨٠م).

- **ابن عبدالبر، أبو عمر بن عبدالبر النمري القرطبي (٤٦٣هـ/١٠٧٠م).**

١- الاستيعاب في معرفة الأصحاب، ق١، تحقيق، علي محمد البجاوي.- القاهرة: مطبعة نهضة مصر، (د.ت).

٢- العبدري، ابن الحاج أبو عبدالله بن محمد الفاسي المالكي (ت ٧٣٧هـ/١٣٣٦م). مدخل الشرع الشريف على المذاهب الأربعة.- القاهرة: مطبعة الباب الحلبي، ١٣٨٠هـ (١٩٦٠م).

- **ابن العبري، غريغوريوس الملطي (ت٦٨٥هـ/١٢٨٦م).**

- تاريخ مختصر الدول.- بيروت: دار الرائد اللبناني، ١٤٠٣هـ (١٩٨٣م).

- **ابن العديم، كمال الدين أبو القاسم عمر بن أحمد بن هبة الله (ت ٦٦٠هـ/١٢٦١م).**

- زبدة الحلب من تاريخ حلب، تحقيق، سامي الدهان. نشر المعهد الفرنسي للدراسات الإسلامية.- دمشق: المطبعة الكاثوليكية (١٩٥٤م).

- **ابن العربي، أبو بكر محمد بن عبدالله بن محمد المعافري الإشبيلي المالكي (ت ٥٤٣هـ/١١٤٨م)**

- أحكام القرآن، تحقيق علي محمد البجاوي.- القاهرة: مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، ١٣٩٤هـ (١٩٧٤م).

- **ابن عساكر، الحافظ ثقة الدين أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله الشافعي (ت٥٧١هـ/١١٧٦م)**

١- تاريخ مدينة دمشق: المجلدة الأولى، تحقيق: صلاح الدين المنجد.- دمشق: مطبوعات المجمع العلمي العربي، ١٣٧١هـ (١٩٥١م).

٢- المجلدة الثانية، القسم الأول، تحقيق صلاح الدين المنجد، مطبوعات المجمع العلمي العربي، دمشق (١٩٥٤م). تراجم النساء، تحقيق سكينة الشهابي.- دمشق: ١٤٠٣هـ (١٩٨٣م).

٣- تاريخ دمشق الكبير، تهذيب عبدالقادر بدران المتوفى سنة ١٣٤٦هـ (١٩٢٧م).- ط٢.- بيروت: دار الميسرة، ١٣٩٩هـ (١٩٧٩م).

- **العلموي، عبدالباسط بن موسى العلموي الدمشقي (ت ٩٨١هـ/١٥٧٣م).**

- مختصر تنبيه الطالب وإرشاد الدارس إلى أحوال دور القرآن والحديث والمدارس، تحقيق، صلاح الدين المنجد، ط١، نشر مديرية الآثار القديمة العامة، مطبعة الترقي، بدمشق، ١٣٦٦هـ (١٩٤٧م).

- **العُلَيْمي، مجير الدين أبو اليمن عبدالرحمن بن محمد (ت٩٢٨هـ/١٥٢٢).**

- المنهج الأحمد في تراجم أصحاب الإمام أحمد، تحقيق، محمد محيي الدين عبدالحميد، مراجعة وتعليق عادل نويهض.- ط٢.- بيروت: عالم الكتب، ١٤٠٤هـ (١٩٨٤م).

- **العماد الأصفهاني، أبو عبدالله محمد بن محمد بن حامد بن أله (ت ٥٩٧هـ/١٢٠١م).**

- خريدة القصر وجريدة العصر، قسم شعراء الشام، ج١، تحقيق شكري فيصل نشر المجمع العلمي الغربي.- دمشق: المطبعة الهاشمية، ١٣٧٥هـ (١٩٥٥م). والجزء الثاني، تحقيق شكري فيصل. نشر المجمع العلمي العربي، وطبع المطبعة الهاشمية دمشق ١٣٧٨هـ (١٩٥٩م).

- **ابن العماد الحنبلي، أبو الفلاح عبدالحي الحنبلي (ت١٠٨٩هـ/١٦٧٨م).**

- شذرات الذهب في أخبار من ذهب.- بيروت: دار الفكر، (١٣٩٩هـ).

- **العمري، ياسين بن خير الله الخطيب (ـ ١٢٣٢هـ/١٨١٧م).**

- مُنْيَة الأدباء في تاريخ الموصل الحَدْبَاء، تحقيق سعيد الديوه جي.- الموصل: مطبعة الهدف، ١٣٧٤هـ (١٩٥٥م).

- **العيني، بدر الدين أبو محمد محمود بن أحمد بن موسى (ت ٨٥٥هـ/١٥٤١م).**

- عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان.- حوادث وتراجم السنوات (٦٤٨ ـ ٦٦٤هـ/١٢٥٠ ـ ١٢٦٥م) تحقيق محمد محمد أمين.- القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٤٠٧هـ (١٩٨٧م).

- **الغزالي. الإمام أبو حامد محمد بن محمد الطوسي (ت ٥٠٥هـ/١١١٢م).**

١- إحياء علوم الدين.- استانبول: دار الدعوة، ١٤٠٦هـ، (١٩٨٥م).

٢- رسالة أيها الولد. تحقيق، علي محيي الدين القره داغي.- ط٢.- القاهرة: دار الاعتصام، ١٤٠٥هـ (١٩٨٥م).

- **أبو الفداء، عماد الدين إسماعيل بن علي (ت ٧٣٢هـ/١٣٣١م).**

١- المختصر في أخبار البشر.- بيروت: دار المعرفة (د.ت).

٢- تقويم البلدان.- باريس: دار الطباعة السلطانية، (١٨٤٠م).

- **ابن الفوطي، كمال الدين أبو الفضل عبدالرزاق بن أحمد الشيباني (ت ٧٢٣هـ/١٣٢٣م)**

١- تلخيص مجمع الآداب في معجم الألقاب، تحقيق مصطفى جواد.- بغداد: مديرية إحياء التراث القديم (د.ت).

٢- الحوادث الجامعة، والتجارب النافعة في المائة السابعة، تحقيق مصطفى جواد.- بغداد: المكتبة العربية، (١٣٥١هـ)

- **الفيروز أبادي، الشيخ مجد الدين محمد بن يعقوب الشيرازي (ت٨١٧هـ/١٤١٥م)**

١- القاموس المحيط.- بيروت: دار الفكر، ١٤٠٣هـ (١٩٨٣م).

٢- البُلغه في تراجم أئمة النحو واللغة، تحقيق محمد المصري.- الكويت: مركز المخطوطات والتراث، ١٤٠٧هـ (١٩٨٧م).

٣- القابسي، أبو الحسن علي بن خلف (ت٤٠٣هـ/١٠١٢م).- الرسالة المفصلة لأحوال المعلمين وأحكام المعلمين والمتعلمين تحقيق، أحمد فؤاد الأهواني، ملحقة بكتابة التربية في الإسلام.- القاهرة: دار إحياء الكتب العربية (١٩٥٥م).

- **ابن قاضي شهبة، تقي الدين أبو بكر بن أحمد بن محمد الأسدي (٨٥١هـ/١٤٤٧م).**

١- طبقات الشافعية.- حيدر أباد الدكن الهند: دائرة المعارف العثمانية، ١٣٩٩هـ (١٩٧٩م).

٢- طبقات النحاة واللغويين، تحقيق محسن غيّاص.- النجف، العراق: مطبعة النعمان، (١٩٧٤م).

- **ابن قاضي شهبة، محمد بن أبي بكر بن أحمد بدر الدين الدمشقي (ت ٨٧٤هـ/١٤٧٠م).**
  - الكواكب الدُرّية في السيرة النورية، تحقيق، محمود زايد.- بيروت: دار الكتاب الجديد، (١٩٧١م).
- **القرشي، محيي الدين أبو محمد عبدالقادر بن محمد بن نصر الله الحنفي (ت ٧٧٥هـ/١٣٧٣م).**
  - الجواهر المُضيّة في طبقات الحنفية، تحقيق عبدالفتاح محمد الحلو.- القاهرة: مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، ١٣٩٨هـ (١٩٧٨م).
- **القزويني، زكريا بن محمد بن محمود (ت ٦٨٢هـ/١٢٨٣م).**
  - آثار البلاد وأخبار العباد.- بيروت: دار صادر، ١٣٩٩هـ (١٩٧٩م).
- **ابن قطلوبغا، أبو العدل زين الدين قاسم (ت ٨٧٩هـ/١٤٧٤م).**
  - تاج التراجم في طبقات الحنفية.- بغداد: مطبعة مكتبة المثنى، (١٩٦٢م).
- **القفطي، الوزير جمال الدين أبو الحسن عي بن القاضي الأشرف يوسف (ت ٦٤٦هـ/١٢٤٨م).**
  ١- إنباه الرواة على أنباه النحاة، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم.- القاهرة: دار الفكر العربي.- بيروت: مؤسسة الكتب الثقافية، ١٤٠٦هـ (١٩٨٦م).
  ٢- أخبار العلماء بأخبار الحكماء.- القاهرة: مكتبة المتنبي.(د.ت).
- **ابن القلانسي، أبو يعلي حمزة بن سد بن علي التميمي الدمشقي (٥٥٥هـ/١١٦٠م).**
  - تاريخ دمشق، تحقيق سهل زكار.- دمشق: دار حسان، ١٤٠٢هـ (١٩٨٣م).
- **القلقشندي، أبو العباس أحمد بن علي (ت ٨٢١هـ/١٤١٨هـ).**
  - صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، نسخة مصورة عن الطبعة الأميرية.- القاهرة: وزارة الإرشاد القومي، (١٩٦٣م).
- **الكتبي، محمد بن شاكر (ت ٧٦٤هـ/١٣٦٢م).**
  - فوات الوفيات والذيل عليها، تحقيق إحسان عباس.- بيروت: دار صادر، (د.ت).
- **ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر القرشي الدمشقي (ت ٧٧٤هـ/١٣٧٢م).**
  - البداية والنهاية.- ط٢. بيروت: مكتبة المعارف، (١٩٧٧م).
- **اللكنوي، محمد عبدالحي اللكنوي (ت ١٣٠٤هـ/١٨٨٧م).**
  - الفوائد البهيّة في تراجم الحنفية.- القاهرة: مطبعة السعادة، (١٣٢٤هـ).

- **الماوردي، علي بن محمد بن حبيب البصري (ت ٤٥٠هـ/١٠٥٥م).**
- أدب الدنيا والدين، تحقيق مصطفى السقا.- ط٤.- بيروت: دار الكتب العلمية، ١٣٩٨هـ (١٩٧٨م).
- **ابن المستوفى، شرف الدين بن أبي البركات الإربلي (ـ٦٣٧هـ/١٢٣٩م).**
- تاريخ إربل، تحقيق سامي الصقار.- بغداد: دار الرشيد للنشر، بغداد، (١٩٨٠م).
- **المقدسي، محمود بن أحمد بن أبي بكر البناء الشامي (ت ٣٩٠هـ/ ٩٩٩م).**
- أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم.- ط٢.- ليدن: مطبعة إبريل (١٩٠٩م).
- **المقريزي، تقي الدين أحمد بن علي (ت ٨٤٥هـ/١٤٤١م).**
- كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، المعروف بـ " الخطط المقريزية ".- بيروت: دار صادر (د.ت).
- **المنذري، زكي الدين أبو محمد بن عبدالعظيم بن عبدالقوي (ت ٦٥٦هـ/١٢٥٨م).**
- التكملة لوفيات النقلة، تحقيق وتعليق، بشار عواد معروف.- بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٤٠٥هـ (١٩٨٤م).
- **ابن منظـور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم الإفريقي المصري (ت ٧١١هـ/١٣١١م).**
- لسان العرب.- القاهرة: دار المعارف، (د.ت).
- **ابن منقذ، الأمير أبو المظفر مؤيد الدولة أسامة بن مرشد بن علي (ت٥٨٤هـ/١١٨٨م)**

١- الاعتبار، حرره فيليب حتي.- مطبعة جامعة برنستون، الولايات المتحدة الأمريكية (١٩٣٠م).

٢- البديع في نقد الشعر، تحقيق، أحمد أحمد بدوي، وحامد عبدالمجيد، نشر وزارة الثقافة والإرشاد القومي، القاهرة، ١٣٨٠هـ (١٩٦٠م)

- **النعيمي، عبدالقادر بن محمد بن عمر بن محمد الدمشقي (ت٩٢٧هـ/١٥٢١م).**

١- الدارس في تاريخ المدارس، نشر وتحقيق جعفر الحسني.- دمشق: مطبعة الترقي، ١٣٦٧هـ (١٩٤٨م).

٢- دور القرآن في دمشق، تحقيق، صلاح الدين المنجد.- ط٢.- بيروت: دار الكتاب الجديد، (١٩٧٣م).

- **النويري، شهاب الدين أحمد بن عبدالوهاب (ت٧٣٣هـ/١٣٢٢م).**

– نهارية الأرب في فنون الأدب، جـ ٢٧، تحقيق د. سعيد عاشور.- القاهرة: الهية المصرية العامة للكتاب، ١٤٠٥هـ (١٩٨٥م).

- **ابن هبل، أبو الحسن علي بن احمد بن هبل البغدادي (ـ ٦١٠هـ/١٢١٣م).**

– المختارات في الطب، مطبعة دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد، الدكن، الهند، ١٣٦٢هـ (١٩٤٣م).

- **ابن هشام، أبو محمد عبدالملك بن هشام بن أيوب الحميري (ت ٢١٨هـ/٧٣٣م).**

– السيرة النبوية، تحقيق وضبط، مصطفى السقا وآخرون.- القاهرة: مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، ١٣٥٥هـ (١٩٣٦م).

- **ابن واصل، جمال الدين محمد بن سالم الحموي (ت ٦٩٧هـ/١٢٩٧م).**

– مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، تحقيق جمال الدين الشيال.- القاهرة: (١٩٥٣م).

- **ابن الوردي، زين الدين عمر (ت ٧٤٩هـ/١٣٤٨م).**

– تتمة المختصر في أخبار البشر، تحقيق، أحمد رفعت البدراوي.- بيروت: دار المعرفة، ١٣٨٩هـ (١٩٧٠م).

- **ياقوت الحموي، شهاب الدين أبو عبدالله (ت ٦٢٦هـ/١٢٢٨م).**

١- معجم البلدان.- بيروت: دار صادر، دار بيروت، ١٤٠٤هـ (١٩٨٤م).

٢- معجم الأدباء المسمى (إرشاد الأريب على معرفة الأديب).- ط٢.- القاهرة: دار المأمون (د.ت).

- **اليماني، عبدالباقي بن عبدالمجيد (ت ٧٤٣هـ/١٣٤٢م).**

– إشارة التعيين في تراجم النحاة واللغويين، تحقيق، عبدالمجيد دياب.- الرياض: مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، ١٤٠٦هـ (١٩٨٦م).

- **اليونيني، قطب الدين موسى بن محمد البعلبكي (ت ٧٢٦هـ/١٣٢٥م).**

– ذيل مرآة الزمان.- حيدر آباد، الدكن، الهند: مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية، ١٣٧٤هـ (١٩٥٤م).

ثالثًا: المراجع العربية :

- إبراهيم بن محمد المزيني. إمارة حلب بين تصارع القوى الإسلاميّة ومواجهة الصليبيين، (رسالة ماجستير: ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م).- ط١.- الرياض : المؤلف، ١٤٢٤هـ (٢٠٠٣م).
- أحمد أحمد بدوي.

١- الحياة العقلية في عصر الحروب الصليبية بمصر والشام.- القاهرة: دار نهضة مصر (د.ت).

٢- الحياة الأدبية في عصر الحروب الصليبيـة بمصر والشام.- ط ٢.- القاهرة: دار نهضة مصر (١٩٧٩م).

- أحمد رمضان. المجتمع الإسلامي في عصر الحروب الصليبية.- القاهرة: ١٣٩٧هـ (١٩٧٧م).
- أحمد شلبي. تاريخ التربية الإسلامية.- ط٤.- القاهرة: مكتبة النهضة المصرية، (١٩٧٣م).
- أحمد الصوفي. خط الموصل.- الموصل: مطبعة أم الربيعين، (١٩٥٣م).
- أحمد عبدالغفور عطّار. مقدمة كتاب الصحاح للجوهري.- ط٤: بيروت: دار العلم للملايين، (١٤٠٠هـ).
- أحمد عيسى (ت ١٣٦٥هـ/١٩٤٦م). تاريخ البيمارستانات في الإسلام.- ط٢.- بيروت: دار الرائد العربي، ١٤٠١هـ (١٩٨١م).
- أحمد فؤاد الأهواني. التربية في الإسلام، أو التعليم في رأي القابسي.- القاهرة: دار إحياء الكتب العربية، (١٩٥٥م).
- أسماء حسن فهمي. مبادئ التربية الإسلامية .- القاهرة: مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، (١٩٤٧م).
- إسماعيل باشا بن محمد أمين الباباني البغدادي (ت ١٣٣٩هـ/١٩٢٠م). هدية العارفين في أسماء المؤلفين وآثار المصنفين من كشف الظنون.- بيروت: دار الفكر، ١٤٠٢هـ (١٩٨٢م).
- بطرس البستاني. محيط المحيط.- بيروت: مكتبة لبنان، (١٩٧٧م).
- جرجي بن حبيب زيدان (ت ١٣٣٢هـ/١٩١٤م). تاريخ آداب اللغة العربية، تحقيق شوقي ضيف.- القاهرة (١٩٥٧م).

- حسن الباشا.

١-الفنون الإسلاميّة والوظائف على الآثار العربية.- القاهرة: دار النهضة العربية، ١٩٦٦م.

٢- الألقاب الإسلاميّة في التاريخ والوثائق والآثار.- القاهرة: النهضة العربية، (١٩٧٨م).

- حسن حلاق. العلاقات الحضارية بين الشرق والغرب في العصور الوسطى.- بيروت: الدار الجامعية، ١٤٠٦هـ (١٩٨٦م).
- حسن عبدالعال. فن التعليم عند بدر الدين بن جماعة.- الرياض: مكتب التربية العربي لدول الخليج، ١٤٠٥هـ (١٩٨٥م).
- حسين أمين. تاريخ العراق في العصر السلجوقي.- بغداد: مطبعة الإرشاد، ١٣٨٥هـ (١٩٦٥م).
- خليل داود الزرو. الحياة العلمية في الشام في القرنين الأول والثاني للهجرة.- بيروت: دار الآفاق الجديد، (١٩٧١م).
- رشيد عبد الله الجُميلي. دولة الأتابكة في الموصل بعد عماد الدين زنكي.- بيروت: دار النهضة العربية، (١٩٧٠م).
- رمضان عبد التوّاب. لحن العامة والتطور اللغوي.- القاهرة، (١٩٦٧م).
- الزركلي، خير الدين بن محمود الدمشقي. الأعلام: قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمُستعربين والمُستشرقين.- ط٦.- بيروت: دار العلم للملايين، ١٤٠٤هـ (١٩٨٤م).
- زينب بنت علي العاملي (ت١٣٣٢هـ/١٩١٤م). الدُرّ المنثور في طبقات ربات الخدور، نسخة مصورة عن الطبعة الأولى.- القاهرة: المطبعة الأميرية، بولاق، (١٣١٢هـ).
- سعيد الديوه جي.

١- الموصل في العهد الأتابكي.- بغداد: مطبعة شفيق، ١٣٧٨هـ (١٩٥٨م).

٢- تاريخ الموصل.(ج١).- الموصل: دار الكتب بجامعة الموصل، ١٤٠٢هـ (١٩٨٢م).

٣- جوامع الموصل في مختلف العصور.- بغداد: دار شفيق، ١٣٨٢هـ (١٩٦٣م).

٤- التربية والتعليم في الإسلام.- الموصل: مطابع جامعة الموصل، ١٤٠٢هـ (١٩٨٢م).

- سعيد عبدالفتاح عاشور. الحركة الصليبية.- ط٣.- القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية، (١٩٧٦م).

- سهيل زكار. الحروب الصليبيّة.- دمشق: دار حسّان، ط١.- ١٤٠٤هـ (١٩٨٤م).
- سوادي الرويشدي. إمارة الموصل في عهد بدر الدين لؤلؤ.- بغداد: مطبعة الإرشاد، (١٩٧١م).
- سيد رضوان علي. العلوم والفنون عند العرب ودورهم في الحضارة العالمية.- الرياض: دار المريخ، ١٤٠٧هـ (١٩٨٧م).
- سيد عبدالعزيز سالم. التاريخ والمؤرخون العرب.- الإسكندرية: مؤسسة شباب الجامعة، (١٩٨١م).
- شاكر مصطفى. التاريخ العربي والمؤرخون.- ط٢.- بيروت: دار العلم للملايين، (١٩٨٠م).
- شوقي ضيف. تاريخ الأدب العربي ـ عصر الدول والإمارات في مصر والشام ـ سلسلة ٦.- القاهرة: دار المعارف، (١٩٨٤م).
- صفاء خلّوصي. فن التقطيع الشعري والقافية.- ط٢.- بيروت: (١٩٦٦م).
- عبدالحليم محمود. الغزو الصليبي والعالم الإسلامي.- ط ٢ .- جدة: دار عكاظ للطباعة والنشر، ١٤٠٢هـ (١٩٨٢م).
- عبدالغني عبود. في التربية الإسلامية.- القاهرة: دار الفكر العربي، (١٩٧٧م).
- عبدالقادر بدران (١٣٤٦هـ/١٩٢٧م). منادمة الأطلال ومسامرة الخيال: الآثار الدمشقية والمعاهد العلمية، أشرف على نشره زهير الشاويش.- ط٢.- بيروت: المكتب الإسلامي، ١٤٠٥هـ (١٩٨٥م).
- عبد اللطيف حمزة. أدب الحروب الصليبية.- القاهرة: دار الفكر العربي (١٩٤٩م).
- عبدالله فيّاض. الإجازات العلمية عند المسلمين.- بغداد: مطبعة الإرشاد، (١٩٦٧م).
- عبدالمجيد أبو الفتوح. التاريخ السياسي والفكري للمذهب السني في المشرق الإسلامي من القرن الخامس الهجري حتى سقوط بغداد.- جدة: عالم المعرفة، ١٤٠٣هـ (١٩٨٣م).
- عبدالهادي الفاضلي. تلخيص العروض.- جدة: دار البيان العربي، ١٤٠٣هـ (١٩٨٣م).
- عفاف صبره. دراسات في تاريخ الحروب الصليبية.- القاهرة: دار الكتاب الجامعي، ١٤٠٦هـ (١٩٨٥م).

- عمر عبدالرحمن الساريسي. نصوص من أدب عصر الحروب الصليبية (دراسة وتحليل).- جدة: دار المنارة للنشر، ١٤٠٥هـ (١٩٨٥م).
- عمر رضا كحاله.

  ١- معجم المؤلفين.- بيروت: دار إحياء التراث العربي (د.ت).

  ٢- التاريخ والجغرافية في العصور الإسلامية.- دمشق: المطبعة التعاونية دمشق ١٢٩٣هـ (١٩٧٢م).
- عمر فروخ.

  ١- تاريخ الأدب العربي.- بيروت: دار العلم للملايين، ١٣٩٢هـ (١٩٧٢م).

  ٢- تاريخ العلوم عند العرب.- ط٤.- بيروت: دار العلم للملايين، (١٩٨٤م).
- عمر موسى باشا. الأدب في بلاد الشام (عصور الزنكيين والأيوبيين والمماليك).- ط٢.- دمشق: المكتبة العباسيّة، ١٣٩١هـ (١٩٧٢م).
- فوزي سعد عيسى. العروض العربي ومحاولات التطوير والتجديد فيه.- القاهرة: دار المعارف، (١٩٨٢م).
- قدري طوقان. تراث العرب العلمي في الرياضيات والفلك.- ط٣.- القاهرة: دار القلم، ١٣٨٢هـ (١٩٦٣م).
- كامل بن حسين الغزي (ت ١٣٥١هـ/١٩٣٣م). نهر الذهب في تاريخ حلب. حلب: المطبعة المارونية، (١٣٤٢هـ).
- كرد علي، محمد بن عمر الرزاق (ت ١٣٧٢هـ/١٩٥٣م). خطط الشام.- ط٣.- بيروت: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، ١٤٠٣هـ (١٩٨٣م).
- محمد أحمد دهمان. في رحاب دمشق.- دمشق: دار الفكر، ١٤٠٢هـ (١٩٨٢م).
- محمد أسعد طلس.

  ١- التربية والتعليم في الإسلام.- بيروت: دار العلم للملايين.

  ٢- الآثار الإسلامية والتاريخية في حلب.- دمشق: مطبعة الترقي، ١٣٧٦هـ (١٩٥٦م).
- محمّد باقر الحسيني. العملة الإسلاميّة في العهد الأتابكي.- بغداد: (١٩٦٦م).
- محمد التونجي. المعجم الذهبي (فارسي عربي).- بيروت: دار العلم للملايين، (١٩٦٩م).

- محمد خير الدين الأسدي (ت ١٣٩١هـ/١٩٧١م).
  ١- موسوعة حلب المقارنة.- حلب: مطبعة جامعة حلب، ١٤٠٤هـ (١٩٨٤م).
  ٢- أحياء حلب وأسواقها، تحقيق وتقديم عبدالفتاح روّاس قلعه جي.- دمشق: وزارة الثقافة والإرشاد القومي (١٩٨٤م).
- محمد راغب الطباخ (ت ١٣٧٠هـ/١٩٥١م). أعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء.- حلب: المطبعة العلمية، ١٣٤٣هـ (١٩٣٥م).
- محمد زغلول سلام. الأدب في العصر الأيوبي.- القاهرة: دار المعارف، ١٣٨٨هـ (١٩٦٨م).
- محمد الصادق عفيفي. تطور الفكر العلمي عند المسلمين.- القاهرة: مكتبة الخانجي، (١٩٧٦م).
- محمد عبدالرحيم غنيمة. تاريخ الجامعات الإسلامية الكبرى.- تطوان: دار الطباعة المغربية (١٩٥٣م).
- محمد عبدالمجيد الطويل. في عروض الشعر العربي " قضايا ومناقشات".- أبها: نادي أبها الأدبي، (١٤٠٥هـ).
- محمد عطية الأبراشي. التربية الإسلامية، وفلاسفتها.- ط٢.- القاهرة: مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، ١٣٨٩هـ (١٩٦٩م).
- محمّد بن علي الهرفي. شعر الجهاد في الحروب الصليبية في بلاد الشام.- ط ٢.- بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٤٠٠هـ (١٩٨٠م).
- محمد ماهر حمادة. المكتبات في الإسلام. نشأتها، وتطورها، ومصائرها.- ط٥.- بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٤٠٧هـ (١٩٨٦م).
- محمد مطيع الحافظ. الجامع الأموي بدمشق (نصوص لابن جُبير، والعمري، والنعيمي) .- دمشق، بيروت: دار ابن كثير، ١٤٠٥هـ (١٩٨٥م).
- ناجي معروف.
  ١- المراصد الفلكيّة ببغداد في العصر العباسي.- بغداد: دار الجمهورية، ١٣٨٧هـ (١٩٦٧م).
  ٢- علماء النظاميات ومدارس المشرق الإسلامي.- بغداد: مطبعة الإرشاد، ١٣٩٣هـ (١٩٧٣م).
- ناظم رشيد. ديوان عماد الدين الأصفهاني.- الموصل: جامعة الموصل، ١٤٠٤هـ (١٩٨٣).

رابعًا: المراجع المُعَرَّبة :

- الدُوميلي.

- العلم عند العرب وأثره في تطور العلم العالمي، نقله إلى العربية، عبدالحليم نجار ومحمد يوسف مرسي.- القاهرة: دار القلم، ١٣٨١هـ (١٩٦٢م).

- بروكلمان، كارل (ت ١٣٧٥هـ/١٩٥٦م).

- تاريخ الأدب العربي، الأجزاء، ١ ، ٢ ، ٣، ترجمة عبدالحليم النجار، والجزء الرابع والسادس ترجمة السيد يعقوب بكر، والجزء الخامس .ترجمة رمضان عبدالتواب.- ط٣.- القاهرة: دار المعارف ، (١٩٨٣م).

- مارتن بلسنر.

- تراث الإسلام، ترجمة حسين مؤنس وإحسان صدقي العميد.- الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب (د.ت).

- فولفغانغ مولَّر ـ فيز.

- القلاع أيام الحروب الصليبية، ترجمة محمّد وليد الجلاد.- ط٢.- دمشق: دار الفكر، ١٤٠٤ هـ /١٩٨٤م.

- كراتشكوفسكي، إغناطيوس يوليانوفتش (ت ١٣٧٠هـ/١٩٥١م).

- تاريخ الأدب الجغرافي العربي، ترجمة صلاح الدين هاشم.- القاهرة: (١٩٦١م).

- كي لسترنج.

- بلدان الخلافة الشرقية، ترجمة، بشير فرنسيس وكوركيس عواد.-ط٢.- بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٤٠٥هـ (١٩٨٥م).

خامسًا: مراجع بلغات أجنبية:

- Elisseeff, Nikita,

- Nur AD-din, Un Grand Prince Muslman de Suie Autemps des Croisades (511-569H /1118j1174) Institute Francais de Damas, 1967.

- Sauvagei, Jean,

- Les Monuments Historiques de Damas Beyrouth، Imprimerie Catholique, 1932.

سادسًا: الأبحاث والدراسات:

- حبيب الزيات (ت ١٣٧٣هـ/١٩٥٤م). خانات دمشق القديمة، بحث منشور في الخزانة الشرقية، ج٣ بيروت، (١٩٤٦م).
- حسين أمين. "المسجد وأثره في تطوير التعليم"، بحث منشور في مجلة دراسات تاريخية، جامعة دمشق، العدد الخامس، رمضان(١٤٠١هـ).
- شاكر مصطفى.

١- طغتكين رأس الأسرة البورية، ومؤسسة النظام الأتابكي".- مجلة كلية الآداب والتربية بجامعة الكويت عدد (٢) سنة (١٩٧٢م).

٢- دخول الترك الغز إلى الشام، بحث نشر ضمن أعمال المؤتمر الدولي لتاريخ بلاد الشام بعمان، الأردن ١٣٩٤هـ (١٩٧٤م).

- كامل شحاته.

١- من مآثر نور الدين زنكي العمرانية في حماة (البيمارستان النوري) بحث منشور في مجلة الحوليات الأثرية العربية السورية المجلد (١٧) لعام (١٩٦٧م).

٢- من مآثر نورا لدين زنكي العمرانية في حماة (القسم الثالث والأخير) بحث منشور في مجلة الحوليات الأثرية العربية السورية المجلد (٢٠) لعام (١٩٧٠م).

- مارسية. مادة رّباط من مواد دائرة المعارف الإسلامية، ج١٠، نقلها إلى العربية، أحمد الشنتناوي وآخرون، ط القاهرة (١٩٣٣م).
- محمّد حلمي أحمد. " الحياة العلمية في مصر والشام : ٥٢١ ـ ٦٤٨هـ/١١٢٧ـ١٢٥٠م" بحث في المجلة المصرية، المجلد السابع، سنة(١٩٥٨م).- ص٦ـ٧.
- ناجي معروف.

١- التوقيعات التدريسية، بحث منشور في مجلة كلية الآداب جامعة بغداد، العدد السادس.

٢- "مدارس قبل النظاميات"، بحث منشور في مجلة المجمع العلمي العراقي عدد (٢٢) لعام ١٣٩٢هـ (١٩٧٣م).

٣- الموسوعة العربية الميسرة، ط دار إحياء التراث العربي، إشراف، محمد شفيق غربال، القاهرة (١٩٦٥م).

- نللينو، مادة أسطرلاب ضمن مواد دائر المعارف الإسلامية، ج٢، ترجمة، أحمد الشنتناوي وآخرون، ط القاهرة (١٩٣٣م).



الـمحـتويات